

دورية دولية محكمة

مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية



ISSN: 2625-8943



العدد الثالث والثلاثون-أيلول- سبتمبر 2024 المجلد 8



مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية

المركز الديمقراطي العربي

**Journal of
cultural linguistic and artistic studies**
International scientific periodical journal



مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية

رقم التسجيل

VR.3373.6326.B



Germany: Berlin 10315

Gensinger- Str: 112

<http://democraticac.de>

المركز الديمقراطي العربي

لدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية

Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

مجلة

الدراسات الثقافية

واللغوية والفنية

دورية علمية محكمة فصلية

تصدر عن

المركز الديمقراطي العربي

برلين - ألمانيا

ISSN : 2625-8943

*JOURNAL OF
CULTURAL LINGUISTIC
AND ARTISTIC STUDIES*

*An International scientific
Periodical Quarterly Journal
Issued by*

The Democratic Arabic Center

© Democratic Arabic Center

Germany - Berlin

ISSN: 2625-8943

E-MAIL

culture@democraticac.de

مجلة

الدراسات الثقافية

واللغوية والفنية

تعنى المجلة بالبحوث والدراسات
الأكاديمية الرصينة التي يكون
موضوعها متعلقا بجميع مجالات علوم
اللغة والترجمة والعلوم الإسلامية
والآداب، والعلوم الاجتماعية
والإنسانية، وكذا العلوم الفنية
وعلوم الآثار، للوصول إلى الحقيقة
العلمية والفكرية المرجوة من البحث
العلمي، والسعي وراء تشجيع
الباحثين المقيام بأبحاث علمية رصينة

الهيئة المشرفة على المجلة

رئيس المركز الديمقراطي العربي

أ. عمار شرعان



مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية

دورية علمية دولية محكمة

تصدر عن

المركز الديمقراطي

العربي

ألمانيا – برلين

وتعنى بنشر الدراسات والبحوث في التخصصات التالية

- الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية
- اللغات والترجمة والآداب والعلوم الإسلامية
- العلوم الفنية وعلوم الآثار

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد جودات

جامعة محمد الخامس بالرباط / المغرب

أ.د. الفالي بن لباد

جامعة تمنغاست / الجزائر

أ.د. ضياء عني العبودي

جامعة في قار / العراق

د. أحمد حسن إسماعيل المسن

الجامعة الهاشمية / الأردن

د. جمال ولد الخليل

جامعة حائل / المملكة العربية السعودية

د. رسول بلاوي

جامعة خليج فارس – بوشهر / إيران

د. محمود خليف خضير العباني

الجامعة التقنية الشمالية / العراق

نائب رئيس التحرير

أ.د. عبد الكريم حمو

باحث بالمركز الوطني للبحث

في الأنثروبولوجيا الاجتماعية - وهران

رئيس التحرير

أ.د. سالم بن لباد

مساعد رئيس التحرير

أ.د. بدرالدين شعباني

جامعة قسنطينة 2 / الجزائر

التصميم والإخراج الفني

أ.د. بدرالدين شعباني

شهادة تمكيم المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية

بناءً على تقرير السادة الخبراء؛ يشهد مدير مركز مؤشر للاستطلاع والتحليلات بأن:

مجلة (لدراسات ثقافية واللغوية والفنية)

الحاملة للترقيم المعياري:

ISSN: 2625-8943

قد نحتلت على درجة 100/57

وعليه فهي حسب مؤشر (AIMQSJ) نعتبر من المجلات الحسنة؛ فئة (B+)



Arabic Index of Measuring the Quality of Scientific Journals



مدير مركز مؤشر للاستطلاع والتحليلات

د. محمد الحاج

مدير مركز مؤشر

أ.د/ بدرالدين شعباني
جامعة قسنطينة 2 - عبد الحميد مهري

رئيس
اللجنة العلمية

اللجنة العلمية والاستشارية

- د. جمال ولد الخليل جامعة حائل / المملكة العربية السعودية
- أ.د. أرزقي شمون جامعة بجاية / الجزائر
- د. نصيرة شيادي جامعة تلمسان / الجزائر
- د. رشيدة بودالية جامعة البويرة / الجزائر
- أ.د. كمال علوات جامعة البويرة / الجزائر
- د. طه حميد حريش الفهداوي كلية الامام الاعظم جامعة بغداد / العراق
- أ.د. سعيدي الدراجي المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة / الجزائر
- د. مالكي سميرة جامعة وهران 2 / الجزائر
- د. حسام عزمي العفوري أكاديمية مينيسوتا لتعليم اللغات / تركيا
- د. هدية صارة باحثة دائمة بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران / الجزائر
- د. محمد بن لباد المركز الجامعي مغنية / الجزائر
- د. محمود خليف خضير الحياني الجامعة التقنية الشمالية / العراق
- د. علي مولود فاضل مدرس في علوم الاتصال والإعلام كلية الإسراء الجامعة / العراق
- د. محمد ياسين عليوي الشكري كلية التربية للبنات جامعة الكوفة / العراق
- د. ليلي كواكي مركز البحث العلمي والتقني في علم الإنسان
- أ.د. الغالي بن لباد جامعة تمنغاست / الجزائر
- أ.د. ضياء غني العبودي جامعة ذي قار / العراق
- أ.د. عبد الحليم بن عيسى جامعة وهران 1 / الجزائر
- أ.د. محمد أحمد سامي أبو عيد جامعة البلقاء التطبيقية / الأردن
- أ.د. عبد الكريم حمو باحث بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية وهران / الجزائر
- أ.د. الزاوي لعموري جامعة الجزائر 2 / الجزائر
- أ.د. سالم بن لباد جامعة غليزان / الجزائر
- أ.د. بدرالدين شعباني جامعة قسنطينة 2 / الجزائر
- أ.د. جميلة ملوكي جامعة تمنغاست / الجزائر
- أ.د. الزهرة قريصات جامعة تيارت / الجزائر
- أ.د. صديق بغورة جامعة المسيلة / الجزائر
- أ.د. نعيمة بن علية جامعة البويرة / الجزائر
- أ.د. ليلي مهدان جامعة خميس مليانة / الجزائر
- م.أ.د. علي عبد الأمير عباس الخميس جامعة بابل / العراق
- أ.د. حبيب بوسغاي جامعة عين تيموشنت / الجزائر
- د. رجاء أبو علي جامعة طهران / إيران
- د. مناد لطيفة جامعة سيدي بلعباس / الجزائر

د. عبد القادر قدوري جامعة الأغواط/ الجزائر
د. رسول بلاوي جامعة خليج فارس - بوشهر/ إيران
د. بابو سقال مريم جامعة سعيدة/ الجزائر
د. فاطمة الزهراء نهمار جامعة البليدة 2/ الجزائر
د. أحمد حميد أوغلو جامعة إبراهيم جاجان/ تركيا
د. بوزياني فاطمة الزهراء جامعة تلمسان/ الجزائر
د. صليحة لطرش جامعة البويرة/ الجزائر
د. نسيمه بغدادي جامعة المسيلة/ الجزائر
د. هبيري فاطمة الزهراء جامعة تلمسان/ الجزائر
د. علاء الدين عبد اللطيف عبد العاطي محمد أبو العينين جامعة القاهرة/ مصر
د. كاهية باية جامعة محمد بوضياف المسيلة/ الجزائر
د. نبيل أحمد عبد العزيز رفاعي كلية الدراسات الإسلامية والعربية بسوهاج/ مصر
د. عبد القادر عوادي جامعة سيدي بلعباس/ الجزائر
د. علي ساهي جامعة الأغواط/ الجزائر

د. نورالدين بن نعيجة مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة الأغواط/ الجزائر
د. فاتح كرغلي جامعة البويرة/ الجزائر
د. سليم مزهود المركز الجامعي ميله/ الجزائر
د. محمد أحمد محمد حسن مخلوف جامعة الأزهر/ مصر
د. روح الله صيادي نجاد كاشان/ إيران
د. فاطمة الزهراء ضيفاف جامعة بومرداس/ الجزائر
د. سمية قندوزي جامعة/ الجزائر
د. فتيحة بوشان جامعة البويرة/ الجزائر
د. محمد بوعلاوي جامعة المسيلة/ الجزائر
د. أمينة شنتوف مركز تطوير اللغة العربية وحدة تلمسان/ الجزائر
أ.د. بن عزوز حليلة جامعة تلمسان/ الجزائر
د. بن عطية كمال جامعة الجلفة/ الجزائر
د. خالد حوير شمس جامعة بغداد/العراق
د. كاتب كريم جامعة وهران 1/ الجزائر
د. حميدش مونيعة جامعة الجزائر 2
د. محمد رزق الشحات عبد الحميد شعير جامعة هيتت/ تركيا
د. أمينة بن قويدر جامعة تيارت/ الجزائر
د. سوسن بوزيرة جامعة تيارت/ الجزائر
د. محمد بلحسن المركز الجامعي مغنية/ الجزائر

مقاييس وشروط النشر

الهوامش

تكتب بنظام

APA

على الشكل الآتي:
في المتن يكتب
بين قوسين: لقب
الكاتب والسنة
والصفحة (اللقب:
السنة، ص ..)

المراجع

تكتب المعلومات
الكاملة في آخر
المقال على هذا
النحو:
إسم ولقب الكاتب،
عنوان الكتاب،
الجزء، دار النشر،
الطبعة، بلد النشر،
سنة النشر،
الصفحة.

تخص البحوث المرسله الى المجلة الى مجموعة من الشروط تتمثل فيما يلي

1. يجب أن تتوفر في البحوث المقترحة الأصالة العلمية الجادة وتتسم بالعمق.
2. على صاحب البحث كتابة إسمه وعنوانه الالكتروني والجامعة والبلد الذي ينتمي اليه أسفل عنوان البحث، مع إرفاق سيرة ذاتية وتكون في صفحة خاصة ضمن البحث.
3. ترتب المراجع والهوامش في نهاية المقال حسب الطرق المنهجية المتعارف عليها ووفقا للتسلسل العلمي المنهجي وبطريقة يدوية.
4. ترفق المقالات بملخص لا يتجاوز 10 أسطر باللغة العربية ويترجم الملخص الى اللغة الانجليزية أو العكس مع التطرق الى الكلمات المفتاحية.
5. حجم البحث لا يقل عن 10 صفحات ولا يزيد عن 15 صفحة.
6. تكتب المقالات بحجم 16 بصيغة Traditional Arabic بالنسبة للمتن وبحجم 12 بصيغة Times New Roman بالنسبة للهوامش، أما بالنسبة للغات الأجنبية الأخرى يكون بحجم 12 بصيغ Times New Roman بالنسبة للمتن و10 بالنسبة للهوامش وبنفس الصيغة.
7. إرفاق البحث بملخص باللغتين العربية والانجليزية.
8. على البحوث المقترحة أن تراعي القواعد المنهجية والعلمية المتعارف عليها.
9. ترسل المقالات المقترحة لهيئة أمانة التحرير لترتيبها وتصنيفها، كما تعرض المقالات على اللجنة العلمية لتحكيمها.
10. يجب ألا يكون المقال قد سبق نشره أو قدم الى مجلة أخرى.
11. ترسل المقالات الى البريد الالكتروني للمجلة.
12. تمتلك المجلة حقوق نشر المقالات المقبولة ولا يجوز نشرها لدى جهات أخرى الا بعد الحصول على ترخيص رسمي منها.
13. لا تشر المقالات التي لا تتوفر على مقاييس البحث العلمي أو مقاييس المجلة المذكورة.
14. المجلة غير ملزمة بإعادة البحوث المرفوضة الى أصحابها.
15. تحتفظ المجلة بحق نشر المقالات المقبولة وفق أولوياتها وبرنامجه الخاص.
16. البحوث التي تتطلب تصحيح أو تعديل مقترحا من قبل لجنة القراءة تعاد الى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.
17. ألا تكون البحوث المرسله مستلة من مطبوعة، او جزء من أطروحة.
18. أن تتضمن البحوث المرسله على قائمة المراجع تدرج في الأخير.

التحكيم

- تخضع كل البحوث المقترحة للتحكيم العلمي المزدوج من طرف لجنة القراءة وبسرية تامة، بحيث
- يحق للمجلة اجراء بعض التعديلات الشكلية الضرورية على البحوث المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها.
 - يقوم الباحث بتصحيح الأخطاء التي يقدمها له المحكمين في حال وجودها وإعادة ارسالها للمجلة.
 - لغات المقالات: العربية، والأمازيغية، الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، الإسبانية، الإيطالية، والروسية.

- المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي المجلة -

ترسل البحوث المقدمة للنشر عبر البريد الالكتروني

culture@democraticac.de

الفهرس		
الصفحة	العنوان	الرقم
13	كلمة العدد	1
26-14	شاهراً ملابسَ نومِه على الملاء؟! سيميولوجيا الاتصال الثقافي Showing his pajamas in public?! The semiology of cultural communication أ.د. إسماعيل نوري الربيعي، وندسور أوتاريو، كندا	2
43-27	شعرية التوظيف الأسطوري في رواية "الحوات والقصر" للطاهر وطار -دراسة في عوامل الوعي التاريخي- The poetics of mythical employment in the novel "Al-Hawaat and Al-Qasr" By Al-Taher Wattar--A study into the factors of historical awareness- أ.د. فتحي بوخالفة- قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات-جامعة المسيلة (الجزائر)	3
64-44	دلالات لغوية في الرأس البشرية " اللسان والأذنين والعينين أتمودجاً " and the eyes as a ، the ears،Linguistic implications in the human head: "The tongue ".model أ.د صلاح الدين المرغني الطبال ، د. سالمة علي محمد عبد الصمد (ليبيا)	4
76-65	أهمية الثقافة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة The importance of Culture in achieving sustainable development د. عبد الله الهمامي، باحث في قضايا الشباب والممارسات الثقافية، الجمهورية التونسية	5
90-77	المسلمون واليهود في المغرب: ماضٍ مشترك وتأثير متبادل Religious Coexistence between Muslims and Jews in Morocco: A Historical Perspective د. سعيد الأشعري، باحث في الثقافة والتواصل، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، المغرب	6
100-91	الثورة الحسينية في الأدب الأندلسي The Husseini revolution in Andalusian literature الدكتور سيدعلي موسوي نسب، الأستاذ المشارك في جامعتي طهران و پیام نور الإيرانية	7
112-101	تمكين المرأة في العراق وسبل تنميتها -دراسة جغرافية Empowering women in Iraq and ways to develop them - a geographical study الاستاذ الدكتورة صفية شاكر معتوق، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة جمهورية العراق	8
127-113	مشاعر ومشاهدات الرحالة السويسرية إيبهرارت حول الجزائر وأهلها -محاولات أدبية وملاحظات إثنوغرافية-	9

	Feelings and views of the Swiss traveler Eberhardt about Algeria and its people Literary essay and ethnographic observations أ.د. سميرة أنساعد المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر	
143-128	مناهج التحليل النفسي للأدب في الدراسات الغربية Psychoanalytic approaches to literature in Western studies د. المصطفى اكرتاب، دكتوراه في الدراسات العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب	10
156-144	صوفية النسق المكاني في رواية الزائر لحفناوي زاغر The format of space used by Sufia is depicted in Hafnawi Zagger's novel "The Visitor" د. أمينة حماني، جامعة مولود معمري . تيزي وزو (الجزائر)	11
175-157	التأويل الصوفي الإشاري للآيات القرآنية الكريمة المحكمة تأويل القشيري لآيات الفرائض أتمودجا Of The Holy Quran Symbolic Sufism Interpretation Of The Mouhkam Verses Al-Qushayri's Interpretation Of The Cults As A Model د. عادل ايت العسري (كلية الآداب والعلوم الإنسانية-مراكش/المغرب)	12
191-176	الآراء الخلافية بين النحويين البصريين والكوفيين في كتاب أمالي ابن الشجري Controversial opinions in Arabic grammar in the book of Amali Ibn Al-Shajari جاء الله بايزيد، أستاذ محاضر، جامعة زيان عاشور، الكلية كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر	13
199-192	مدخل إلى علم الصحافة؛ المفهوم والأنواع والوظائف Introduction to journalism; Concept, types and functions أحمد الرويني، دكتوراه في اللغة والخطاب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش - المغرب.	14
216-200	السميائية وتحليل الخطاب - نماذج تطبيقية Semiotic analysis of discourse - applied models أ.د. بن يحي طاهر ناعوس، جامعة غليزان/الجزائر	15
235-217	الصورة الإشهارية دعامة جديدة لبناء الكفايات Posters as a support to capacity building سفيان الضاوي/المدرسة العليا للأساتذة، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب	16
255-236	السميائيات التأويلية والموسوعة الثقافية Semiotics of Interpretation and the Cultural Encyclopedia. رشيدة بوجليدة، جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريريج، الجزائر.	17

267-256	دور المرأة الحرفية في ثمين الصناعات التقليدية : القرية الحرفية بمدينة الكاف مثلا The role of craftswomen in enhancing traditional industries: The craft village in the city of Kef as an example	18
276-268	د.خلود لبادي، أستاذة بالمعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بالكاف الدكتوراه في العلوم الثقافية اختصاص: تقنيات التنشيط و الوساطة المدرسة وإعادة الإنتاج الاجتماعي: قراءة في بعض نظريات بيير بورديو School and social reproduction: a reading of some of Pierre Bourdieu's theories	19
295-277	يوسف أوقسو، باحث في علم الاجتماع - المغرب - الأسواق المغربية في منظومة القيم الشفهية والمصادر التاريخية - منطقتا الغرب وزعير نموذجا - Open air markets and in the organism of oral values and historical references Gharb and Zair regions As an example	20
308-296	بوعزة الخلطي، أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي/ دكتوراه في الأدب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب. تمثيلات القناع في البنية الشعرية عند عبد الوهاب البياتي؛ قصيدة هكذا قال لي زرداشت نموذجا Representations of the mask in the poetic structure of Abdul Wahab Al-Bayati. The poem "Thus Told Me Zoroaster" is an example	21
320-309	فاطمة اعرجي، أستاذة مساعدة/ امينه سليمان، طالبة دكتوراه/ زهراء حسيني، طالبة ماجستير قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران. حركية البديع بين مكر البلاغة و بلاغة المكر Al-Badi's movement between the cunning of eloquence and the eloquence of deception	22
339-321	أ.د/نورالدين الناصري-الثانوية التأهيلية-الملاحظ-اسفي- المغرب بنيات تشكيل المحكي العجائبي وحضور الخيال العلمي في الخطاب الروائي المغاربي Structures of forming the wondrous narrative and the presence of science fiction in the Maghreb novel discourse.	23
349-340	غازي عتيقة- دكتوراه- جامعة محمد الخامس-الرباط-المغرب بلاغة الخطاب الفلسفي عند ابن رشد قراءة في كتاب "تمثيلات واستعارات ابن رشد من منطق البرهان إلى منطق الخطابة" لفؤاد بن أحمد The Eloquence Of Philosophical Discourse according To Ibn Rushd: A Reading Of The Book "Representations And Metaphors Of Ibn Rushd From The Logic Of Proof To The Logic Of Rhetoric" by Fouad bin Ahmed	24
	منير بوردي، باحث في البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب	

365-350	الفلسفة بين هيغل وفيرباخ: فهم للحاضر أم تطلع للمستقبل؟ Philosophy between Hegel and Feuerbach: An understanding of the present or an aspiration for the future? د. عمر التاور، جامعة ابن زهر، أكادير (المغرب)	25
377-366	التواصل الشعري بين المغرب والمشرق في ثلاثينيات القرن الماضي "Poetic communication between Morocco and the Levant in the thirties of the last century" عماد عشا، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، المغرب - مختبر الدراسات الأدبية واللسانية والديداكتيكية	26
395-378	البناء المنهجي في كتاب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، لأبي محمد القاسم السجلهاسي، و دوره في القراءة الأدبية The methodological construction in the book Al-Manza' Al-Badi' in Naturalizing the Styles of Al-Badi', by Abu Muhammad Al-Qasim Al-Sijilmasi, And its role in literary reading ذ. ابراهيم نادن، الكلية المتعددة التخصصات - أسفي-جامعة القاضي عياض-المغرب	27
417-396	الرتبة في مكونات الجملة العربية، بين التفسير اللساني التوليدي والتفسير اللساني الوظيفي: دراسة مقارنة the order of the components of the sentence Arabic Between generative linguistic interpretation and functional linguistic interpretation: a comparative study الكثاني حميد، باحث في سلك الدكتوراه/الدكتور عبد الإله بوغابة، أستاذ اللسانيات والنحو والدلالة كلية اللغات والآداب والفنون-جامعة ابن طفيل-المغرب	28
441-418	المشهد اللغوي للعربية المغربية في الدراسات الاستشراقية- الدراسة الاستشراقية الفرنسية والإسبانية The linguistic scene of Moroccan Arabic in Orientalist studies -.French and Spanish Orientalist studies اسليماني رضوان، باحث بسلك الدكتوراه/الأستاذ المشرف: بوغابة عبد الإله. مختبر اللغات والديداكتيك والوسائط والدرماتورجيا، تكوين اللسانيات التطبيقية والمقارنة . جامعة ابن طفيل، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة، المغرب.	29
457-442	النظريات المفسرة للإبداع، الإبداع الفني نموذجاً . Explanatory Theories of Creativity: Artistic Creativity as a Model. هشام مناجي، طالب بسلك الدكتوراه، اشراف: د عبد المجيد شكير كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المملكة المغربية/مختبر البحث في الثقافة والعلوم والآداب العربية.	30

469-458	تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة Teaching Arabic to non-native speakers for special purposes. الطالبة الباحثة: حفيظة زينون، طالبة بسلك الدكتوراه، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس (المغرب).	31
486-470	ظاهرة الجناس في شعر أبي تمام- دراسة دلالية - إيقاعية The phenomenon of alliteration in Abu Tammam's poetry-Semantic-rhythmic study عائشة عبد الكريم الآف، طالبة دكتوراه - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة حماة، سوريا ياشرف: أ.د رود محمد خباز	32
507-487	Analytical study for the Opening Chapter (Surat Al-Fatihah) Its names, purposes, virtues, and characteristics دراسة تحليلية للسورة الافتتاحية (سورة الفاتحة)-أسماؤها ومقاصدها وفضائلها وخواصها Dr. Gharnasa Hadia, Department of English Language, Faculty of Education, University of Azzaytuna, Libya.	33
525-508	EFL Students Experiences and views of Test Anxiety تجارب طلاب اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية ووجهات نظرهم حول قلق الاختبار Hala Ali Almahdi Abusurra/ Manal Almabrouk Shalandi Assistant Professor, Faculty of Languages- Surman	34
551-526	Improving University Subjects to Enhance Students Teachers Skills in English Language Department at the University of Benghazi Al.Marj Faculty of Arts and Sciences: Course Description Analysis of Introduction to Applied Linguistics E501 تحسين مواد الجامعة لتعزيز مهارات طلاب ومعلمي قسم اللغة الإنجليزية في جامعة بنغازي - كلية الآداب والعلوم في المرج: تحليل وصف الدورة لمقدمة في علم اللغة التطبيقي E501 Najla Ali Hamad Suweekar, University of Benghazi, Libya, Al.Marj Faculty of Arts and Sciences, Department of English Language and Linguistics	35
572-552	IPhone Digital Forensic Challenges and Issues تحديات وقضايا الطب الشرعي في الهاتف الرقمي Dr. Mokhtar Mohammed Mohammed Ali - University of Elimam Elmahdi- faculty of Computer Science and Information Technology - Sudan - White Dr. Mahala Elzain Beraima Ahmed - University of White Nile - faculty of Computer Science and Information Technology - Sudan - White Nile State -	36

610-573	<p>L'acquisition de la compétence de production de l'écrit dans l'enseignement du (FLE) : Retour d'expérience sur un apprentissage par projet</p> <p>اكتساب مهارة الإنتاج الكتابي في تعليم اللغة الفرنسية كلغة أجنبية (FLE): تجربة عملية في التعلم بالمشروع</p> <p>Acquiring the competence of writing production in the teaching of French as a foreign language: Feedback on project-based learning</p> <p>ELMEHDI ELMAOULOUE, Enseignant de français au cycle secondaire qualifiant.</p> <p>Docteur en études françaises, Université Sidi Mohammed Ben Abdellah – Dhar Mahraz Fès – Morocco</p>	37
623-611	<p>Linguistic justice, the concept, ways of development</p> <p>العدالة اللغوية، المفهوم، طرق التطوير</p> <p>Ftaich abdelilah faculté des langues et lettre et art , université ibn Tofail, Kénitra, Morocco</p>	38

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام، على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى وآله
وصحبه أجمعين وبعده،

تعود مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، لتنشر مولودا جديدا، وجاء هذا العدد
متنوعة الأبحاث العلمية، ذات رؤى واعية وبلغات متعددة ومجالات متنوعة، وفق قواعد
علمية ومنهجية مضبوطة، كما يحمل دراسات علمية قيمة ومتنوعة، تسير مجال اختصاصها
واهتماماتها.

ولقد تلقينا الكثير من البحوث، التي تعد من المواد العلمية والمعرفية المهمة في مجال
الدراسات اللغوية والثقافية والفنية، وكالعادة خضعت لتحكيم علمي موضوعي، مما صعب
علينا انتقاءها واختيارها.

ومن هذا المنبر نعتذر من الذين لم يتسن لهم نشر ورقتهم البحثية في هذا العدد،
ونضرب لهم موعدا في الأعداد المقبلة بحول الله تعالى.
في الأخير نجدد الشكر لكل من ساهم في اصدار هذا العدد، وشكر خاص للسيد
رئيس المركز الديمقراطي العربي.

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور سالم بن لباد

شاهراً ملابسَ نومِه على الملاء؟!!

سيمولوجيا الاتصال الثقافي

Showing his pajamas in public

The semiology of cultural communication

أ.د. إسماعيل نوري الربيعي

وندسور أونتاريو، كندا

imseer60@gmail.com

ملخص القراءة

في الوقت الذي نتصاعد فيه حمى الظهور من قبل الإعداد الغفيرة و الواسعة للمراهقين عبر وسائل للتواصل الاجتماعي، حول توكيد مصطلح (الفاشينستا) .

مباشرة . لنكون بإزاء المبالغة في أقصاها حيث الملامح (المابعد إنسانية) الموغلة في أحداق عيون بألوان تعزّ على الوصف البشري، و شفاه (براطم) تم نفخها بطريقة نثير الغثيان، حتى بات من العسير أن يتمكن صاحبها أو صاحبتها على نطق الكلمات، بما هو ممكن و متاح؟! و تسريجات لم تحظر على بال سلفادور دالي ، رائد الرسم السريالي. تسابق محموم على الاستعراض في فضاء متاح للجميع. وهكذا تزاحم جمع وافر من المهوسين بالاختلاف، القائم على الغرائبية و العجائبية و لفت النظر بأي وسيلة و طريقة ممكنة . بإزاء هذا المشهد الخارق الطريف والغريب المدهش. تبدى خطوط و تعابير لوحة أخرى تقف على النقيض من هذا المهرجان المجاني. حيث الحشود من الكائنات التي تغلو ملامحها الكآبة والقنوط والغمة و الفجعة، والكمد و الكرب، و الهم و الوجد. جموع من الناس لن تميز فيها سوى الأسى والأسف و الابتئاس والتبرم، و الجزع و الترح و الجوى. موكب الحسرة، ومعشر الحرقلة و محفل الغصة و مجموعة الغم و لفيف الشجو، و كوكبة الشجن و قوم الشجا، و قافلة الحزن و فرقة الحرقلة و فوج الحسرة. عصبية تتراى أمام ناظريك و قد قرروا الخروج إلى الشارع العام بملابس النوم، لو اقتصر الأمر على رمزية هذا النوع الملابس لكان الأمر. لكن الأدهى و الأمر إنما يقوم على أحوال التعبير عن التنديد و الرفض. طائفة من الناس تريد إيصال رسالتها إلى المجتمع. تصرخ بصمت موجه، معبرة من خلال (مظهر الرثاء) على أحوال المعاتبة و الملامة و العذل و الزري. زمرة صار الهم فيها يقوم على التوبيخ، و رهط يترصد التنقص. جمهور التفرع في حفل التقييح، إنما راح يؤسس لجماعة التشنيع و تكمل التبيكيت و تجهز التأنيب و اجتماع الاغتياب.

كلمات دالة: سيمولوجيا ، المجازي ، التفصيلي، علم العلامات . الدلالة.

At a time when the fever of appearance is rising among a large number of teenagers through social media, the confirmation of the term (fashionista) and insisting on using it as a direct identification tool. Let us be in the face of an exaggeration to the utmost, where the (transhumanist) features in the lips were blown in a way that provokes nausea until it became difficult to be able to pronounce the words and the hairstyles that Salvador Dali never thought of, the pioneer of surrealist painting. A frantic race to show off in space available to everyone. Thus, a large crowd of people obsessed with a difference, based on the exotic and the miraculous, jostled and drew attention by any means and possible way. In the face of this fantastic supernatural scene and strange. The lines and expressions of another painting stand in contrast to this free festival. Where the crowds of beings whose features are gloom and despair. Groups of people will not distinguish between grief and regret and the procession of heartbreak, the convoy of sadness. A gang appears before your eyes and has decided to go out to the public street in their pajamas; if the matter were limited to the symbolism of this type of clothing, it would be easy. But the worst and the most important thing is based on the conditions of expressing condemnation and rejection. A group of people wants to deliver its message to society.

Keywords; Semiology, Denotation, Connotation, Science of signs , signification

المقدمة

ما إن يفتح الإنسان عينيه مستقبلاً يومه، حتى يجد نفسه في خضم تفاعل مع العلامات التي تغطي التفاصيل التي تحيط به. اشتراط يبدأ من غرفة النوم التي تفرض عليه الإلتزام بارتداء (ملابس النوم) ، حيث المشهد السينمائي الذي يتألق فيه الممثل محمود عبد العزيز ، بعد أن تقوم زوجته بتقريعه ولومه بوصفه (نائم بالبنطلون؟!)⁽¹⁾ مروراً بالمفردات المتعلقة بالسرير والأغطية والفرش والألوان ووسائل التكييف . لا شك أن التفاصيل تتغير وتختلف بين غرفة نوم وأخرى بناء على المعطيات والإمكانات الاقتصادية، والعادات والتقاليد الاجتماعية. والأنماط الثقافية والحضارية التي تميز

¹ فلم البحر يضحك له ؟ إنتاج مصري 1995، تأليف وإخراج؛ محمد كامل القليوبي ، بطولة محمود عبد العزيز ، نجاح الموجي ، شوقي شايخ ، نهلة سلامة ، محمد لطفي.

الشعوب عن بعضها. ولكن يبقى فضاء غرفة النوم ، بوصفه نظاما علاماتيا كاملا تتفاعل فيه جملة من المعطيات غير اللغوية مثل ؛ العلامات والحركات والإيماءات والإشارات والرموز والأثاث الخاص التي يميز هذا الحيز ، والذي تضاف إليه المزيد من المحولات الرمزية المتعلقة بالخصوصية التي تصل حدود السرية في الكثير من الأحيان. بالإضافة إلى الحركات والإيماءات، وطريقة التعاطي مع المجال الخاص. تارة يتخذ طابع الأمر . حيث الجملة الآمرة والقاطعة التي تصدرها سيدة المنزل بحق أبنائها (حان وقت النوم) باعتبار جملة من المعطيات المتعلقة بالصحة والعافية والنمو السليم، وتهيئة الأبناء ليوم المدرسة القادم. فيما يتم استحضار عملية النوم بصفته العامة والتي تشمل جميع أفراد الأسرة بناء على الاتفاق غير المعلن ، والذي يتم تحديده تأسيسا على عادة ما . كأن يكون ربطه بوقت عودة رب المنزل بعد سهرته الليلية المعتادة . أو تحديدها ببرامج التلفزيون. أو الساعة البيولوجية.

الثورة الرقمية و تقمصات الثورة الصناعية الرابعة باتت تفرض حضورها الطاغية على ساعات النوم تحديدا . الأجهزة الذكية باتت تشكل المؤثر الأهم والمباشر على مواعيد نوم البشرية برمتها ، شرقا و غربا . بعد أن صار الإنسان أسيرا لسطوة الهاتف الذكي والآيباد واللابتوب. فانقلبت العادات رأسا على عقب، و صار المرء يقضي جلّ ساعات الليل ساهرا مع الإبحار الذي لا يعرف الانقطاع مع مواقع الإنترنت ، بوصفها حكاية مودّدة لا تعرف التوقف. حيث السيل العرم من طوفان المعلومات والضماً المعرفي الذي راح يتناهب البشرية. الواقع أن غرف النوم المغلقة والمغلقة بالسرية ، فقدت عذريتها بعد أن اقتحمها كاميرا الهاتف الذكي، وصار الفرد لا يستطيع التخلي عن هذا الجهاز، في أشد الأمكنة خصوصية ، بل الأشد والأضنى بات هذا الجهاز يحتل الصدارة والمكانة الرفيعة والأثيرة من قبل مستخدميه في فضاء غرفة النوم!؟

الحديث عن الغرفة يقوم على استدعاء المعاني المتعلقة بالحجرة ، الردهة، المقصورة ، المحلّ. أو لنقل المربّع والمقر والمسكن، حيث الحيز والمقام والمستقر. مساحة ربما يكون انخوض فيها، وكأنها تجلّ للرفاهية والنأي عن الواقعية . هذا ما استحضرننا أحوال العالم الذي يعيش واقع الأحياء العشوائية، وتراجع حياة الناس بطريقة تثير الهلع والخوف. حتى تكاثرت أعداد المواطنين العرب الذين يعيشون في بيت هو كله ، برمته عبارة عن غرفة متهاككة لا يستبان منها ملمح الغرفة في الأصل. ولكن الأمر هنا يحاول تتبع أثر (غرفة النوم) بوصفها سياقاً ثقافياً انطلقاً من محاولة تتبع الأثر في صلب فعالية النوم التي تتجلى في الاغفاء والاسترخاء، والاستلقاء والاضطجاع، والتمدد والتهدد والرقاد، والسبات والسنة، والقالة والقيولة، والكرى والنعاس، والنيام والهجرة، والهجوم والهجوم ، والوسن والتكري، والتهدج والرقاد والرقود. إنه الانقسام بين مطلب الحاجة الإنسانية حيث

الاستراحة والاستجمام والاسترخاء والدعة والراحة . و أحوال الاضطراب التي تنوشهم أحوال النوم مجبرين على خوض عزلة لا خصوصية فيها أو لحظات حميمة . و انزواء لا خلوة فيه ولا اختلاء، ولا انفراد أو حتى انطواء على الذات. توحد مختلف، و مجال يعاني من الاكتضاض و الانتهاك لأبسط حقوق الشخصية و فرادتها. مكان لا يمكن أن نتوقع فيه أن يحصل التأمم فيه على حلم ، بقدر ما يكون مساحة لا استقبال كم هائل من الكوابيس. و من هذا الواقع راحت مهنة تفسير الأحلام تزدهر في واقعنا المترهل الذي يعاني من لوثة الرثاثة و تغضن القسماات و ارتباك الأحوال. لتغدو مهمة القبض على الحلم ، بوصفه كنزا أثيرا يستحق، الحفاظ عليه ، و حمله إلى مفسر الأحلام، الذي يقوم بتأويله وتفسيره، سعيا لرسم معالم المشهد القائم على التعويض للزري و البأس و السقيم من أحوالنا التي تحيط بنا.

التعبير عن الواقع

تفاعل أحوال الدلالة الحقيقية التفصيلية Denotation و الدلالة الإيحائية المجازية Connotation حسب الوصف الذي يؤسس له رولان بارت Barthes . في طريقة التعاطي مع الواقع. التفاصيل التي يزخر بها العالم، (- 12 p, 2021, Jafar, A., Aso, L., & Armstrong, N.) (22) و ما يثر عنه من تشكلات خطابية تستمد حضورها من طبيعة التفاعل مع الفضاء و المحيط، فيما تتجلى فعالية الإيحاء التي تنطلق من طريقة التأويل للبنية المولدة للخطاب. خطابات لا تني تفاعل داخل المحيط بأهداف و عناصر مختلفة ، لكنها في النهاية تتعاضد عند مسوى العلاقة الصميم القائم بين الشكل و المعنى. هذا بحساب أن المعنى ماهو إلا نتاج موضوعي للأشكال القائمة في الفضاء. و من هذا يكون المسعى متطلعا نحو ترصد أحوال البنى العميقة بوصفها المسؤولة عن إنتاج المضامين، و بالتالي توجيه الخطاب من خلال رسم معالم المنطق الداخلي الذي يقوم عليه الخطاب، و تحديد الأبعاد الدلالية الخاصة، و المعاني المرتبطة به. إنها الفعالية المتطلعة نحو قراءة المعنى، من خلال التركيز على الفعل الانساني الذي يستند إلى الإنتاج الثقافي القائم على الربط العميق بالمعنى وطريقة إنتاجه. إنه التعبير المباشر عن أحوال الوعي التي تتميز مسار وطريقة تفاعل الإنسان في الوجود. و هو الإدراك الذي يتجلى فيها طبيعة الخطاب و مواضعه و تفاعلاته. إدراك بالتأكيد يقوم على الاختلاف في طريقة توجيهه و التحكم بالمعاني، هذا بحساب طريقة التعاطي مع العلامة و أشكال التواصل القائم بين الإنسان الذي يقوم بتأويل العلامة، و القدرة على التعاطي معها بوصفها وسيلة للتواصل، و إمكانية متاحة لتبليغ الرسالة المقصودة. و يبقى كل هذا رهنا بالمواضع التي تفرضها السياقات الثقافية التي يتم فيها تمييز مدار العلاقة القائمة بين بنية العلامة و الموضوع.

من واقع التعدد الحضاري و الثقافي الذي تعيشه البشرية، تبتدى أهمية فعالية الإيحاء التي تشكل الاستجابة المباشرة لدى الفاعل الاجتماعي حول الأشياء التي تحيط به في الفضاء الرحب والواسع الذي يستقبل البشرية برمتها. حيث الأنساق الخطابية التي تعتمد الوصف المباشر، بناء على جملة من المعطيات المتعلقة بالتنشئة و طبيعة التفاعلات و الوعي بالأشياء و المحيط المباشر وموجوداته و البيئة الطبيعية و جلّ أحوالها و طبائعها و تنوعها و اختلافاتها. من هذا الواقع تبرز أهمية مستويات التديل والتأويل حول الخطابات التي يتم إنتاجها في بيئة ما. لتبتدى أهمية علم العلامات في تقديم الوصفة المنهجية التي تعمل على توضيح أبعاد العلاقة القائمة بين الأنظمة اللسانية و غير اللسانية، و مواطن الاقتراب و البعد القائمة بين النظامين، و مدى الاعتماد المتبادل القائم بينهما في سبيل التعرض لقراءة المزيد من الظواهر. الكون العلاماتي الذي يقوم على الأشياء و الرموز و الحركات و السكات والإيماءات وحتى الأصوات المبهمة، إنما تقوم على عناصر التحليل اللساني القائم على الاستبدال الدلالي و التركيب النحوي، و التقرير والإيحاء، اللغة و الكلام، الدال و المدلول، هذا بحساب ما يترصده العلاماتي الفرنسي رولان بارث. الأمر هنا لا يقوم على رصد السرير في غرفة النوم، و السعي نحو الخوض في تمييز عناصر الأشياء في مكان ما . بقدر ما تنطوي العملية على محاولة للنهوض بمستوى التعاطي العلاماتي.

محاولة في إنتاج المعنى

تتوقف القراءة عند أحوال التمييز بين علم العلامات، Semiology الذي يركز على دراسة العلامات، عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير يحسم الأمر حين يصفها بـ Science of signs باعتبار أن العلامة تتكون من الدال signified حيث الشكل، والمدلول signifier حيث المحتوى والمضمون. (Stoltz, D. S. (2021, p92-113)) ومن أجل تمييز ملاحح الدلالة signification لا بد أن يتوافر المفسر interpretant . أما إنتاج المعنى Semiotics الذي يتخصص في دراسة وتفسير العلامات والرموز . حيث المسعى نحو تمييز مدار العلاقة القائمة بين العلامات Signs والدلالة Significance من جانب، والتطلع نحو رصد العلاقة القائمة بين العقل والموضوع، ومن ثم التوجه نحو تصنيف العلامات. توجه يركز على تمييز معالم (البنية المولدة) عبر فرز العلاقة الدلالية و المنطقية الكامنة فيها. استنادا إلى أهمية الوقوف على معالم الاختلاف و الدلالات الكامنة فيه، سعيًا للكشف عن المعنى و استنباط الدلالة .

سيموطيقا (Olson, G. A., Faigley, L., & Chomsky, N. (1991, p 1-35))
غرفة النوم يتم النظر إليها ، بناء على أحوال العلاقة القائمة بين العناصر التي تشكل التفاعلات الداخلية

التي تحدد مسار الدلالة. مع أهمية الوعي بأن عناصر الفضاء المدروس لا يمكن تمييز الدلال فيه ، دون الاستناد إلى القراءة البنيوية القائمة على تحديد للعلاقة القائمة بين عناصر الفضاء قيد الدرس. سيميوطيقا إنتاج المعنى لا يمكن لها أن تكفي بالوحدة اللغوية القائمة على الجملة ، بقدر ما تسعى نحو تحليل الخطاب، باعتبار التطلع نحو ترصد أشكال المعنى المختلفة، و مدى تأثيرها على أحوال التنوع و الاختلاف في طريقة التعاطي مع المعاني داخل الفضاء العلاماتي. وإذا قيض لنا الاستعانة بالعدة الاصطلاحية لعالم اللغويات نعوم شومسكي Chomsky حول (البنية السطحية) للمركب السردي (Olson, G. A.,) (Faigley, L., & Chomsky, N. (1991). P 1-35) الخاص بغرفة النوم ، والتوجه نحو تحديد أوضاع التسلسل والتحول والتعاقب . و(البنية العميقة) المتعلقة بأحوال التداخل العلاماتي داخل منظومة من العلاقات التي تعمل على تحديد المعاني، و طريقة التعاطي مع الدلالة من حيث القيمة والتنوع الدلالي الذي تقوم عليه. غرفة النوم على سبيل المثال تبدى على الصعيد السطحي بسردية المهجوع و الاسترخاء و الاستلقاء و الاضطجاع و الرقاد و السبات و الغفوة و القيولة و الكرى و النوم و المهجوع و الوسن. فيما تكشف البنية العميقة عن المزيد من تعالق المعاني و التنوع في الدلالة، و ضخ القيم و المعايير و القواعد و الاختبارات و المقاييس و المبادئ التوجيهية، بل و الحقائق و القوانين و النماذج و المثل. بنية عميقة تغور في صلب التوجيه و التديير و التحديد لرسم معالم الدلالة التي تتفاعل في سياق ثقافي و اجتماعي و سياسي و اقتصادي و قيمى و ديني.

وهكذا يتم شحن (هذه الغرفة) بمحولات من المعاني المتعلقة بقيم الشرف والعرض والناموس والغيرة والرفعة والسؤدد والعزة والمجد، والجاه والشموخ والعظمة والعلو والعرض والمكانة والنزاهة . كل هذا يتم استحضاره في هذه الغرفة؟ نعم ، بل و أكثر. هذا بحسب التوجه نحو تركيز مجال عمل الذهني والدلالي والمنطقي في صلب سردية (العلامة) . مجال قابل للتوسع بشكل لا يعرف التوقف ، بناء على مربع غريماس السيميائي (Corso, J. J. (2014, p 69-89) القائم على ؛ (التضاد، التناقض، التضمن، الاستلزام) . الذي يبدأ من الشيء، فنقيضه، ففنيه، ففني نقيض الشيء. وهكذا يكون ترصد علاقات علامة (غرفة النوم) بأحوال التضاد المباشر بين غرفة النوم و مقابلتها بغرفة الجلوس على سبيل المثال. فيما يكون الموجه نحو رصد أحوال العلاقة التماثلية الأفقية بين (غرفة النوم ، لاغرفة جلوس) . أما على صعيد الوجود العياني و الحضور المباشر فكلاهما يمكن تمييزها على صعيد الواقع. في مجال الغياب يمكن الإشارة إلى بطريقة مباشرة ؛ (لاغرفة نوم ، لاغرفة جلوس) على صعيد الممارسة الذهنية . أما علاقة الاستلزام فتكشف عن ؛ (أن غرفة النوم يجب أن لا تكون غرفة جلوس). كل هذا يقودنا للبحث في صلب المعنى والدلالة المتعلقة بعلامة (غرفة النوم) ،

ومحاولة الوقوف على مستويات إنتاج الدلالة في حزمة من العمليات المستمرة و المتراكمة التي لا تعرف الانقطاع.

نظام التواصل

نسق علامة (غرفة النوم) تؤدي وظيفة التواصل بين البشر. ربّ المنزل ينظر إليها بوصفها عبئاً مادياً ، عليه أن يوفرها لجميع أفراد أسرته. إن كان على صعيد توزيع غرف المنزل ، أم على مستوى الفرش و التآييث ، و تعدد مستويات المفردات و الحاجات التي تكوّن التفاصيل من حيث الأسعار والذوق و الاستهلاك. سيدة المنزل تعتبرها ركناً أساسياً من مقومات إتمام البيت. العريس المستقبلي ينظر لها مشروع حياة مقبلة ، العروسة المرشحة بعدها نقطة انطلاق في مسيرة حياتها. لا يتوقف الأمر عند التداول العلاماتي على مستوى العائلة . بل الأمر يتخطاه عند التداول الاجتماعي العام. حيث التأويل المرتبط بالوظيفة الأصل التي تقوم عليها تلك الغرفة من ؛ كسل و نوم و استرخاء و خصوصيات بالغة الدقة و الحساسية. إنها الفعالية المستندة إلى الانضواء في أنساق العلامات و العمل على فهمها و بالتالي القدرة على تأويلها. إنها المنهج الساعي نحو استثمار العلامات و الرموز اللسانية و الإشارات و العلامات و الأيقونات و الألوان و جميع الأشكال التي تتعلق بموضوع الدرس. إنها أحوال رصد فضاء تبادل العلامات بين الناس، و السعي نحو تمييز الدلائل القائمة فيها. و بالتالي الوقوف على فعالية الإبلاغ و التواصل. الأصل هنا يقوم على (العلامة و أنساقها) و طريقة اشتغالها في فضاء ثقافي و اجتماعي محدد، مع أهمية التطلع نحو رصد و دراسة دورة حياة العلامة في ذلك الفضاء.

العلامة نظام اشتقائي يتفاعل ضمن دورة الاختلافات و التنوع، و من هذا الواقع تبرز أهمية علم العلامات في توجهه نحو التركيز على جوهر الشيء و حقيقته، و وجه الشيء و غايته، و وقته ، مناسبتة. سعياً للوقوف على القوانين التي تحكمه على المستويات النفسية و المادية، و بالتالي إتاحة الفرصة لتمييز موقعه داخل النظام الثقافي. تفسير العلامة و تأويلها إنما يعود و بطريقة مباشرة إلى مرجعات المؤول الفكرية، حيث الأساس المعرفي و طريقة نظرتة إلى العالم. و من هذا الواقع تبدى جاذبية علم العلامات، حيث التوفر على الانفتاح و فسح المجال أمام التفاعل مع الآخر، انطلاقاً من مستوى التأثير و التأثير. إنه المجال الذي لا يعترف بتضييق الواسع، بقدر ما ينطوي على الفسحة الواسعة من التأويلات و التفسيرات المختلفة و المتنوعة المستندة، إلى التفاعل الحي و الصميم مع الواقع. فرديناند سوسير على سبيل المثال يربخ مجال العلامة عند مستوى العلاقة القائمة بين ؛ (الدال و المدلول) حيث التركيز على الأثر النفسي الذي تتركه العلامة لدى المؤول، بحساب التأكيد على أهمية العلاقة القائمة بينها و بين العلامات الأخرى. فيما يقوم تفسير باختين Bakhtin على حالة الارتباط الوثيق بين العلامة و الواقع ،

باعتبارها ثمرة ونتاج مباشر له. (Petrilli, S. (2016). P307-343) انطلاقاً من أحوال التفاعل القائم بين الأفراد ضمن فعالية التواصل الاجتماعي. و من هذا فإن العلامة تمثل التعبير المباشر عن الواقع المادي، من خلال الربط الصارم مع فعالية التواصل الاجتماعي. أمبرتو إيكو من جانبه يؤكد على البعد التواصلية للعلامة (Polidoro, P. (2015, p 129-160) انطلاقاً من مرسل يقوم ببث؛ معنى أو شعور إلى مستقبل. فيما يتوقف بيرس عند المستويات الثلاثة للعلامة و القائمة على ؛ (الممثل، الموضوع، المؤول). (Bergman, M. (2000) p 225-254)

الأنساق الدلالية

ينفتح علم العلامات على دراسة الأنساق الدلالية، حيث العلامات في خضم علاقات التفاعل و الاختلاف القائمة بين المرسل و المتلقي. فضاء واسع و فسيح من العلامات. غرفة النوم لا يمكن النظر لها بوصفها حكراً على نوع من المنازل. المنازل مختلفة و متنوعة و متعددة ، بدءاً من القصور و الفلل، مروراً بمنازل ذوي الدخل المرتفع و المتوسط و المنخفض، باعتبار تمييز الأنساق الدلالية الطبيعية. فالعشوائيات التي تنطوي على ممارسة فعل النوم المباشر. الذي لا يحتاج (غرفة النوم أصلاً) . بقدر ما تنطوي على مبادرة المرء نحو استثمار الزاوية المتاحة لتمدد فيها. غرف النوم تنتشر و تتوزع على فضاءات متعددة في القطارات و البواخر و الطائرات أحياناً. في معسكرات الجيش. في التخيم. فيما تتوسع فعالية العلامات بكثافة عند (غرفة النوم الفندقية) المغمورة بالمزيد من العلامات و الإشارات و اللافئات. و التي تنضوي ضمن الأنساق الدلالية الاجتماعية ، باعتبار خضوعها للتنميط الاجتماعي. هذا مع أهمية الأخذ بالاعتبار حالة (المتشردين) الذين يعيشون على الأرصفة و يمارسون تفاصيل حياتهم بعيداً عن التقاسيم المتعلقة (بغرفة النوم) . بقدر ما يتكيفون مع الواقع بناء على الفقر المدقع، والذي جعل أسراً و و سلالات من العوائل ، و لدت و تناسلت و عاشت، دون أن تعرف معنى البيت. لكنها على الرغم من وطأة العوز و الفاقة، تبقى تمارس الحياة. حيث يحتل النوم حيزاً أصيلاً و فاعلاً فيها. لا سيما و أننا نتناول موضوعاً يتعلق بالكائن البشري، و الذي يحتل النوم في دورة حياته مكوناً رئيساً و فاعلاً. حيث الحاجة الطبيعية و الأثر البيولوجي المباشر. فالإنسان لا يستطيع مواصلة الحياة دون نوم. توزيعات لا تتعلق بالفقر و العوز، بقدر ما يرتبط الأمر بالموجهات و المؤثرات التي يفرزها النسق الثقافي و الأنماط السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية التي تحدد طريقة التفاعل مع الواقع. الأمر منوط بالخيال الاجتماعي. و مجال التلقي الذي يقوم بترسيم معالم إنتاج الذائقة الثقافية . (من لا يتلقى ثقافة رفيعة ، لن ينتج ثقافة رفيعة) هكذا يشير عالم الاجتماع بيير بورديو (Wilson, E. (1988). p 47-60) . و هكذا هو التفاعل مع الواقع التي يفرز تمثلات (الوجود، الوعي) . من

يعيش في كنف الرثاء، فإن تسرباتها و عواقلها لا بد أن تبدى حاضرة ، مهما حاول النأي بنفسه عن تمثلاتها و آثارها. الأمر لا يتعلق بتفسير الوجود بوصفه (وصمة) بقدر ما يكون اللتوجه نحو تمييز معالم الوعي ، الذي يتبدى حاضرا في الإنجاز. قد يملك أحد الأشخاص الأرض الواسعة و الأملاك والأموال، لكنه لا يملك الوعي الذي يؤهله للتفكير في قيمة (غرفة النوم) . ماكس فيبر يوظف ثنائية (الأكل الجيد ، النوم الجيد) في كتابه الأخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية ، حين يجعل من هذين المعيارين ، وسيلة للتمييز بين البروتستانت (Max Weber (2001) , p 7.) الساعون للأكل الجيد ، فيما يركز الكاثوليك على النوم بسلام. السياق الذي يطرحه ماكس فيبر مختلف جدا. و لكن دالة التعبير الثقافي الذي يمتاز في وعي الناس و المجتمعات ، تبقى تدور في الأنساق الدلالية القائمة على المعيار الثقافي. حيث نماذج الأنساق الأولية اللفظية، و نماذج الأنساق الثانوية القائمة على المنجز الثقافي من فلسفة و دين و عقائد و أساطير و تراث و فلكلور، بحسب توزيعات مدرسة تارتو الروسية. (Guan, (Y. (2012).p 271-280

يتوافق Bernard Toussaint مع طروحات مدرسة تارتو حول تقسيم العلامة (-CROSS INTER-MULTI-TRANS) إلى اللفظي القائم على؛ الكلام و الكتابة و الحروف. و غير اللفظي المستند إلى؛ الإشارات، الموسيقى، الملابس. تشكل سيميائية (غرفة النوم) خط المواجهة المتقدم بين الثقافات. تحيل نفسك في العاصمة لندن، و تجد أحدهم و قد قرر المسير مسترخيا في ساحة البكاديللي و قد ارتدى بجمامة النوم؟! الإحالة العقلية المباشرة ، ستقودك حتماً إلى أن ثمة مشهدا كوميديا يراد إنجازه. الأمر يرمته لا يمكن أن يتم النظر إليه بجديّة. حشود (الهيبيز) المتمردة التي عمت مدن و ساحات الغرب و ميادينه العامة، خلال سبعينات القرن العشرين مستثمرة (حرب العلامات) . ما تجرأ واحد منهم على ارتداء بجمامة النوم؟ المفارقة أنهم فضلوا العريّ على البجمامة (الأيقونة الكبرى لغرفة النوم و تجلياتها الإدراكية) ؟! لم يستعبروا من غرفة النوم سوى دلالة الكسل و التباطؤ و الإهمال و التراخي و التقاعس و التواني و الرثاء و التفريط و التقصير و التبذل. لكن (بجمامة النوم) بشكلها الفيزيائي المباشر، لم يكن لها حضورا قط في كل هذا . بالمقابل و في ذات الزمن (سبعينات القرن العشرين) عمت البعض من المدن العربية ظاهرة ارتداء (بجمامة النوم) بتفصيلا شديدة الأناقة (2) و تزامنا مع ارتفاع أسعار البترول. صار المزيد من الشباب العربي، يعتمد على التباهي بهذا المظهر

² لباس شديد الغرابة : بجماما في بدلة أو بدلة في بجماما؟! حتى تداخلت الوظيفة فيها ، فهي بجمامة تقارب تفصيلا البدلة الإفريقية، في هجئة تعز على الوصف، قماشها رخيص يتناسب و البيجاما، و قصتها دقيقة تقترب من البدلة؟! مظهر شديد الغرابة يثير الاستغراب والسخرية.

الكاريكاتوري، مضيفاً إليه جهاز التسجيل المحمول على الكتف، الصادح بصوت (هو التمثيل الفاحش للتلوث السمعي). لجمهرة من المطربين الشعبيين، الهازجين بكلمات وألحان لا يميزها سوى الرثاء الفجة. عمق التصادم بين الظاهرتين ربما يجيب عنها قراءات Iouri Lottman الذي يؤكد على أهمية النسق الدلالي اللغوي، (de Melo Junior, O. M. B. (2019).p 34) انطلاقاً من شموله لهجمل من الحاجات والسلوكيات المرتبط بالإنسان. وقدرتها للتعبير بشكل أكثر دقة ووضوح، واعتبارها الوسيلة والأداة التي يتم من خلالها تمييز مسار التوجيه والضبط. ليخلص لوتمان للقول إلى رجحان النسق اللغوي باعتباره تمثيلاً للوعي على حساب النسق غير اللغوي الذي يعد تمثيلاً للوجود في صلب الواقع. عمق المفارقة تبدى في أحوال المقارنة بين الجهر والتصريح، الذي تحصن به الثقافات المختلفة. المجتمع العربي القائم على المحافظة حيث التركيز على الأسرار والهيام والشغف بالكتمان. بإزاء الثقافة الغربية المستندة إلى المكاشفة والشفافية والإيغال بالوضوح. مبالغة في الكتمان تجعل من التفاعل وقد تركز في الواقع بعيداً عن مدركات النسق اللغوي. حتى أثمرت خروج (الوحش الهجين) في ممارسة علامية تقوم على التشويه والتبشيع للمظهر والتفبيح والتلف والتدمير للأزياء، والتحرير والإهلاك للموضة والإفساد والإعطاب لروح الملبس والوظيفة الحقيقية المعدّة له. والإتلاف المباشر لمعنى السعي نحو وضعه في سياق يقوم على الإسراف والإفراط بالالابالية والإمعان بالرثاء والغلو بالترقيع، والزيادة في المهلهل والمبالغة بالمهترئو البالي. إنه الكشف الفج والفظ عن طريق الوعي بالوجود، حين تقرر أن تخرج للعالم بالملابس الأكثر حميمية وخصوصية. فيما المنطق يقوم على أهمية التوازن بين عنصري (المظهر والجوهر).

الخاتمة

لا يتعلق الأمر بطريقة التمييز بين اللباس اليومي العملي، واللباس الرسمي الاحتفالي. بقدر ما ينطوي الأمر على طريقة التعبير التي يتبناها مجتمع، ويبدأ في تبنيها وتطبيقها والترويج لها. الخروج على العالم بملابس النوم، تعبير فاضح عن أحوال (حين يزأر الوحش في دخيلة الإنسان). بوصفها ممارسة شديدة البربرية. حيث انعدام خطوط الفصل بين المعاني والطبائع والجواهر، والتداخل المرير في الخيارات والخلاصات والتصميم واللباب. إنها الأنساق الدلالية الضاحجة بالكم الهائل والمرير من التبدد والتشتت والتصدع والتفرق والتبدل. حيث يتم تقطيع أوصال العلامة والعمل على نحرها بدم بارد والسعي نحو تشقق المعنى وتقطيعه وذبوله. مدن التأزم العربي تكشفها من فوضى العلامات وطريقة تداولها في الفضاء الإنساني المباشر. كم هو محبط أن تطالع شخص بآدميته الكاملة ووعيه الراضخ، على اقتراف تجربة الخروج إلى الشارع العام بملابس النوم. أية هزيمة منكرة تلك التي حلت عليه، حتى جعلت

منه يعيش أحوال (اللأبالية) و التفریط بوجهة نظر المجتمع له. كأنها لافتة الاحتجاج التي يرفعها بوجه المجتمع منددا بهذا الزحف الذي لا يعرف الانقطاع من الفشل و الخذلان و الخسائر. حرب العلامات التي تتم ممارستها بصمت مريب، راحت تنفث بين الجموع، لتتوسع على شكل حشود تجر خطوها الثقيل و الكليل في شوارع المدن العربية ، التي راحت تئن تحت وطأة الفقر و المرض و الجهل و عودة تنفث الأمية.

خطاب التوقف و الهزيمة و المنع و الفشل الخيبة و التثييط و لإفساد و الاستسلام و الإبطال، يشكل المكونات الرئيسة نحو انجاز عملية التواصل اللغوي. تفاعل اجتماعي ينطوي على أهمية الخضوع للسياق الذي تفرضه سطوة الجماعة الثقافية. يكمن في دخيلتها الرسالة المراد إيصالها بناء على طريقة تداول العلامات في فضاء اجتماعي و ثقافي خاص. و من هذا الواقع تنبئ أهمية تأويل العلامات و فسح مجال التنقيح الخاضع لمحددات السياقين اللغوي و الثقافي. علاقة لا يمكن أن تنأى عن أحوال التفاهم و التواطؤ على المعاني بين المرسل و المتلقي. بناء على وحدة المحيط الفكري و المفاهيمي التي تفعل مسار العلامة اللغوية بحسب إمبرتو إيكو. مرسلٌ آثر ان يحمل على كاهله مسؤولية الخروج على الناس، رسالة الرفض و الفشل و القنوط، و التي سرعان ما تلقفها المتلقي في الوسيط الثقافي، و راح يعمل على تأويلها بما ينسجم و السياق العلاماتي. إنها أحوال الاقتراب من فرضية العوالم الممكنة (785-809 , Possible World (Doležel, L. (1998). التي تستند إلى أن العالم الحقيقي هو العالم الذي يسمح بتكليف المفاهيم القائمة على الخيال و تصنيف الدلالات و الانفتاح على العوالم. انطلاقاً من الفكرة القائمة على أن الواقع ، إنما هو حصيلة الخيال الذي يعن على مجموعة ما. تعمل على تنظيم نظام الخيال لديها في منظومة هرمية يطلق عليه النظام المشروط Modal System . و الذي يتم من خلال تحديد طريقة النظر إلى العالم عبر وسيلة إمكانية الوصول من خلال العلاقات الممكنة Accessibility (Marco Ruggieri (2021) Relation, p 421-435) . حيث إتاحة القدرة على تمييز الواقع الفعلي بناء على العلاقات المباشرة التي يمكن تمييزها بطريقة أكثر وضوحاً و مباشرة. و الوضع الوجودي الذي يستمد حضوره من الخيال و الأحلام و الإبداع و السرد.

References

1. Bergman, M. (2000). Reflections on the Role of the Communicative Sign in Semeiotic. Transactions of the Charles S. Peirce Society, 36(2), 225-254.

12. Petrilli, S. (2016). Dialogue, responsibility and literary writing: Mikhail Bakhtin and his Circle . *Semiotica*, 2016(213), 307-343
13. Polidoro, P. (2015). Umberto Eco and the problem of iconism. *Semiotica*, 2015(206), 129-160.
14. Semiotic بمعنى إنتاج الدلالة ، سوف نقوم لاحقا باستخدام مصطلح (سيميوطيقا) من أجل توحيد المصطلحات.
15. Stoltz, D. S. (2021). Becoming a dominant misinterpreted source: The case of Ferdinand de Saussure in cultural sociology. *Journal of Classical Sociology*, 21(1), 92–113.
16. Tamm, M. (2019). Introduction: Juri Lotman's Semiotic Theory of History and Cultural Memory. *Juri Lotman - Culture, Memory and History*, 1–26.
17. Wilson, E. (1988). Picasso and pâté de foie gras: Pierre Bourdieu's Sociology of Culture [Review of *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*, by P. Bourdieu & R. Nice]. *Diacritics*, 18(2), 47–60.

شعرية التوظيف الأسطوري في رواية "الحوات والقصر" لطاهر وطار
-دراسة في عوامل الوعي التاريخي-

The poetics of mythical employment in the novel "Al-Hawaat and Al-Qasr" By Al-Taher

Wattar--A study into the factors of historical awareness-

أ.د. فتحي بوخالفة- قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات-جامعة المسيلة(الجزائر)

fethi.boukhalfa@univ-msila.dz

*ملخص: يعالج الموضوع جماليات التوظيف الأسطوري في رواية "الحوات والقصر" لطاهر وطار، من خلال دراسة عوامل الوعي التاريخي.

حيث يتم تتبع آليات توظيف الأسطورة في الرواية، من خلال جملة محاور أساسية، متعلقة بطبيعة مشروعية الخطاب السردية، وجماليات التوظيف الأسطوري في علاقاتها بعوامل الوعي التاريخي، بالإضافة إلى دراسة تطور الشخصية السردية في أبعادها الشعبية.

وتأخذ الدراسة في ذلك منحى التحليل التاريخي، من خلال النظر في طبيعة العلاقة بين البنية السردية، والوجود التاريخي والاجتماعي للشخصية الرئيسة في الرواية، التي من خلالها تبلور عوامل الوعي التاريخي.

*الكلمات المفتاحية: الوعي، التطور، الجدلية، التغيير، البنية السردية، الصراع الطبقي، الوجود الاجتماعي.

Summary:

The topic addresses the aesthetics of mythical employment in the novel "Al-Hawat and Al-Qasr" by Al-Taher Wattar by studying the factors of historical awareness. The mechanisms of employing myth in the novel are traced through a number of basic related axes, by the nature of the legitimacy of narrative discourse, and the aesthetics of mythological employment in its relationship to factors of awareness. The study takes the approach of historical analysis, by considering the nature of the relationship between the structure, the narrative, and the historical and social existence of the main character in the novel, through which it takes shape factors of historical awareness.

key words: Consciousness, development, dialectics, change, narrative structure, class struggle,

عرفت التجربة الروائية الجزائرية، أساليب فنية متعددة، لتجسيد طبيعة التجارب الإنسانية وفق مقتضيات التطورات التي عرفتها وتعرفها الحياة الطبيعية والاجتماعية، للإنسان الجزائري على وجه الخصوص. وفي هذا الصدد، كان لزاما على التجربة الروائية الجزائرية، أن توجد الآليات الفنية، التي تمكنها من التجسيد الفني، لخصوصيات التحولات التاريخية والاجتماعية، للتجارب الإنسانية التي عرفها المجتمع الجزائري، نتيجة مقتضيات التحولات الطبيعية في مسار تاريخ الإنسان الجزائري.

وإن كانت التحولات التاريخية التي شهدتها الإنسان الجزائري، قد عرفت المزيد من التطورات والاستمرارية، تبعا لطبيعة تطور الحياة الاقتصادية على وجه التحديد، نتيجة تطور أنماط الإنتاج وعلاقات التوزيع في المجتمع، فهذا يعطي إمكانية التفكير، في أن الكتابة الواقعية الاشتراكية، هي نتاج ما يمكن أن يطرأ على المنظومة الذهنية، من تطورات اقتصادية واجتماعية، هي نتاج تطور الوعي في المنظومة الاجتماعية الجزائرية، نتيجة تأثرها بالتحولات التاريخية. حيث لا يمكن في هذا الصدد، تقديم تفسيرات موضوعية، بعيدا عن الأطر التاريخية المتحولة، التي تؤطر طبيعة أية ظاهرة اجتماعية أو اقتصادية.

قد يكون للتطورات الاقتصادية الجديدة، التي بدأ يعرفها المجتمع الجزائري، بالغ الأثر في تحديد، رؤى فكرية جديدة لها التأثير المباشر، على طبيعة تطور الإنتاج الأدبي والفني بشكل عام، وفي مقدمة هذا الإنتاج الرواية. والتي كان لزاما أن تعرف المزيد من التطورات الفنية الجديدة، على مستوى الأسلوب والتجسيد الفني.

وقد يكون التأسيس لظاهرة الخطاب الروائي الجديد في الجزائر، مبررات موضوعية هي النتاج الطبيعي، للتحولات الفكرية الجديدة التي شهدتها الساحة الجزائرية. وهنا ينبغي الفهم أن الإنتاج الفكري، بما في ذلك الإنتاج الأدبي، هو تجلي موضوعي لطبيعة تحول الأنماط الاقتصادية والمادية في المجتمع. فتحول الخطاب الروائي في "الجزائر"، هو انعكاس لتحول الأنماط الاقتصادية، وفق مقتضيات التطورات التاريخية الجديدة.

يجد القارئ نفسه بداية، وهو يتصفح رواية "الحوات والقصر" للكاتب الجزائري "الطاهر وطار"، أنه أمام أبعاد أسطورية تميز طبيعة بنائها الدرامي؛ فالأحداث تتطور بعفوية، وتصل إلى ذروتها في آن واحد.

تحاول الرواية التركيز على أدق اللحظات حساسية، والتي تجد تجسيدات الفعلية على مستوى الواقع الاجتماعي اليومي. والرواية وفق هذه الرؤية هي نتاج العلاقة الطبيعية، التي ترتبط تلقائيا بهموم وتطلعات الجماهير اليومية، والتي تجتهد باستمرار من أجل صياغة وضع مادي جديد، يحسن حياتها المألوفة.

ومع الانتهاء من قراءة الرواية تتكون لدى القارئ، قناعة أساسية مفادها، أن الأسطورة على مستوى النص، ليست وليدة الفراغ الفكري، بقدر ما هي نتاج التناقضات الاجتماعية التي يعيشها الإنسان يوميا في واقعه، لكن برؤية أسطورية أقرب ما تكون من المعتقد الشعبي اليومي، ذي الأبعاد الاجتماعية، رغم المبالغة في التصوير الذي غالبا، ما يميز العقلية الشعبية البسيطة.

1-المشروعية الجمالية للخطاب:

تجسد رواية "الحوات والقصر" عالما تخيليا أقرب ما يكون إلى عالم الأسطورة، وفق مقتضيات التناقضات الاجتماعية التي تتميز، الحياة الواقعية للفرد والمجتمع معا. ومن حيث الأحداث، فهي رواية حياة صياد بسيط، يعيش حياة روتينية رتيبة.

يحدث أن يتناهى إلى سمع "علي الحوات"، نجاة جلالة حاكم البلدة، من محاولة اغتيال وهو يتجول في غابة "الوعول". فيصمم على زيارته، وأخذ هدية له عبارة عن سمكة غريبة، لم يسبق رؤيتها من قبل. وبعد مجهودات مضنية، ومحاولات متواصلة، يتوصل إلى اصطياد سمكة تزن سبعين رطلا، بها تسعة وتسعون لونا مختلفا. يأخذ السمكة للملك، منطلقا من قرينته التي تدعى "التحفظ".

و"علي الحوات" هو أصغر إخوته الثلاثة سنا "سعد"، "مسعود"، "جابر"، الذين يتحولون مع مرور الوقت والأيام إلى مجرمين، يشيعون الرعب في مختلف أرجاء البلدة. وتسمع سائر القرى الأخرى، المختلفة من حيث البنى الاقتصادية والطبقية، بقدم "علي الحوات"، فتمنى له كل قرية من القرى استقبالا خاصا، بدءا من قرية "التصوف"، إلى قرية "العبادة"، إلى قرية "الطاعة"، إلى قرية "الولاء"، ثم قرية "بنو هرا"، إلى قرية "الحظة"، وأخيرا قرية "الأبأة" وهي آخر قرية من القرى السابقة التي مر بها "علي الحوات"، والأقرب إلى القصر الملكي، والأكثر صداما معه. وهي تتميز بشيوع العدالة الاجتماعية، بين أبنائها.

أثناء مرور "علي الحوات" بقرى المملكة، تقدم له كل قرية ولائها بطريقتها الخاصة، وبحسب إمكاناتها المتوفرة لديها. لكن هذا الولاء غالبا ما يكون في شكل، هروبي مبتذل، باستثناء قرية "الأبأة" التي رحبت به فعليا، وبطرق أكثر جدية ووعي. ونتيجة التوظيف الأسطوري، وتعاطي العقلية الشعبية مع عناصر الأسطورة، يتحول "علي الحوات" من شخصية واقعية إلى شخصية خارقة. لتتحول الأسطورة من أبعادها البسيطة، إلى أبعادها المعقدة، بإسقاطات اجتماعية، تفرض تفسيرات واقعية، بعيدة تماما، عن النزعة الصوفية الهروبية.

وخلال رحلة "علي الحوات" المتسمة بالوعي الاجتماعي والتاريخي، يتعرف القارئ على عالم لا يزال يتميز بطابعه البدائي. فبقدر ما تشيع قيم العدالة الاجتماعية بين الناس، هناك مظاهر البؤس والشقاء، التي تتميز

الكثير من الطبقات الاجتماعية لمختلف القرى، نتيجة تفككها الاجتماعي، وسيطرة قطاع الطرق على مقدراتها، باستثناء قرية "الأبأة" التي تتميز بقوتها وأنظمتها الاجتماعية المحكمة.

تشكل رحلة "علي الحوات" العلاقة الرابطة بين طموحها، وطموح القرى السبعة المتمثل في "الوحدة"، التي مثلت الانشغال الفعلي لقرية "الأبأة". وهي القرية التي مثلت "الطليعة" الشعبية، لأنها الأقرب من ناحية الموقع الجغرافي للقصر الملكي. والأكثر عرضة للبؤس والشقاء، في حال المواجهة. وهذا ما يعطي التفسير لانصراف هذه القرية، إلى بناء ذاتها وتقويتها، حتى صار القصر يخشى قوتها وسطوتها.

يصل "علي الحوات" إلى القصر فيدخله من سبعة ممرات، بعد رشوة يأخذها منه الحاجب. ويستيقظ "علي الحوات" على صراخ وعويل العميان والطرشان، في قرية "التصوف" ويده مقطوعة. رغم ذلك فهو لا ييأس، فيعود إلى قريته ويصطاد سمكة أخرى ويعاود مشقة الرحلة من جديد. غير أن ما يلفت النظر هذه المرة، هو أن الرحلة، ليست رحلة ولاء، إنما هي رحلة استدعتها الضرورة التاريخية لاستكشاف خبايا القصر. ويستيقظ مجددا على عويل قرية "الحظة"، بعدما أخذ منه القصر سمكته قبل أن يقدمها هدية للملك. وتقوم قرية "التصوف" باختطافه، وتقدم له من ضروريات الحياة والأدوية، لأنها صارت تعتبر "علي الحوات" واحدا منها، لأنه يتصف بالصبر كما تتصف هي به. ومن خلال معايشة "علي الحوات"، لأهل قرية "التصوف" يعرف أن سبب تخلفهم هو فرقتهم.

ويعاود الرحلة مرة ثالثة، وهذه المرة يقطع فيها لسانه، ويرمى في إحدى القرى. ويعاود رحلته مجددا حتى يصل مقر إقامة الملك، فيواجه هناك أصواتا ليست غريبة عنه، لأنها أصوات إخوته الثلاثة الذين قتلوا الملك واستولوا على العرش. فيسلمون عينيه، ويرمونه في مكان مجهول. وهنا تتحرك جميع القرى، لأنها ترى في "علي الحوات" شيئا عزيزا عليها، لأنه صار منها. فتجتمع القرى وثنفق على الوحدة فيما بينها أسوة بقرية "الأبأة"، والاستفادة من مميزات كل قرية.

تكثر الأقاويل بعد ذلك حول القصر، وتجتمع على أن سطوته انتهت، وأن حلم المتصوفين تحقق، و"علي الحوات" تمكن من التعبير عن الخير، الذي أراده أن يعم في جميع القرى السبع.

تحاول رواية "الحوات والقصر" فتح الجوانب المغلقة في مسار الرواية العربية الحديثة عموما، لإتاحة المجال الواسع للكاتب الروائية، وتقديم المزيد من العطاء الفني.

والملاحظ أن الرواية لا تكتفي بتقديم الأشكال الجمالية الجاهزة، إنما تتجاوزها للتعبير عن مشاكل محيط اجتماعي معين، وإبراز حقائق معينة، بوسائل فنية أكثر قابلية للتواصل من غيرها. ومن خلال ما يمكن أن تمنحه الأسطورة من إمكانيات تعبيرية، أكثر استيعابا وشعبية.

وقد أراد النص من خلال بنيته السردية، إبراز علاقة الفكر الأسطوري بالممارسات التاريخية والاجتماعية، والتي تعاش يومياً، بشكل أكثر إيجابية واستجابة، لمختلف التحولات الاقتصادية والاجتماعية. لذلك فالفكر الأسطوري لم يتلاش مطلقاً من أي مجتمع من المجتمعات، إنما هو جزء من بنيته الفكرية والروحية أحياناً. وحتى لو تغيرت المرتكزات الجمالية والشكلية للأسطورة، فهي تحقق استمرارية نوعية ضمن العلاقات الجدلية، مع البنية الاجتماعية الكلية. لذلك فأسطورة "علي الحوات" في الرواية، لا تفسر إلا تبعاً للمنظور الواقعي، الذي لا يلغي الاعتبارات التاريخية والاجتماعية، التي أفرزت هذه الأسطورة، وسائر الأساطير الأخرى، التي يعرفها الفكر البشري، والخيال الشعبي معاً.

2-جماليات التوظيف الأسطوري وعوامل الوعي التاريخي:

تضع الرواية بداية القارئ، في مواجهة واقع طبقي حاد، لا يعتبر بالعلاقات الأسرية والاجتماعية، ولا حتى الطبقة منها. فالمصالح المادية وحدها، هي التي تحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الأشخاص، كما تحدد وعيهم وأخلاقهم وسلوكياتهم.

"علي الحوات" شخصية رئيسة في الرواية، تقضي حياتها في مهنة صيد السمك، على العكس من إخوتها الآخرين، الذي صاروا في أجواء الفوضى والاختلالات الاجتماعية قتلة مجرمين، يستولون على الثروة والنفوذ بالقوة. وسرعان ما يتحولون من مجرد قطاع طرق وقتلة عاديين بداية، إلى مجرمين محترفين، يقومون بأي عمل إجرامي، ليحافظوا على امتيازاتهم الطبقة، التي صاروا يحققونها باستمرار نتيجة أعمالهم الإجرامية.

من خلال هذه التناقضات الواقعية والاجتماعية، تتحدد في البداية قيمة وأهمية الشخصيات في رواية "الحوات والقصر"، وبالتحديد شخصية "علي الحوات"، التي لا تمثل غير شخص بسيط، بكل صدقه وأخطائه وتناقضاته الذاتية والموضوعية.

ونتيجة لاختلاف الأدوار السردية بين "علي الحوات" وإخوته، يلاحظ نوع من الانفصال الطبقي في شكله الخارجي، ضمن الأسرة الواحدة. لذلك لا يمكن توقع وجود تقارب طبقي، نتيجة انعدام الشروط اللازمة لذلك. هذه التناقضات الأسرية هي انعكاس لتناقضات الواقع والتاريخ معاً، ف"علي الحوات" وإخوته، هم الناتج الطبيعي للعلاقات الاجتماعية السائدة، وتناقضاتها التي تبرز بوضوح، طبيعة البنية الاجتماعية.

يصمم "علي الحوات" على مجابهة الواقع، بغرض تغييره نتيجة التطورات السلبية التي صار يعرفها، وبوعي يقترب إلى حد بعيد من البدائية. وهذا التصميم هو تصميم شخصية "علي الحوات"، التي تتنازعها نوازع الخير، بكل أشكالها. وبذلك تقف الشخصية ضد أهداف إخوتها، الذين تحركهم نزعات الشر

بممارسة القتل والإجرام. فالقصر في نظر "علي الحوات"، وجد من أجل أن يكون مصدرا للخير والعدل، ولا يمكن أن يوجد غير ذلك.

وتصميم "علي" على رحلته هو سعي حثيث لانتصار إرادة الخير، وهو موقف تاريخي هام، ضمن تشكل شبكة أحداث الرواية. فرحلة "علي" هي نتاج لوعيه بطبيعة وجوده الاجتماعي، التي من خلالها نتكرس قيم الخير والعدل معا. وحين اصطدامه بعراقيل وصعوبات الواقع المعقد، يضطر لتصحيح مساره، لأن الخطأ الذي أنتج تلك العراقيل والصعوبات، ربما هو نتاج لمواقف سابقة، قدرت بتقديرات خاطئة. من هنا تتأسس شخصية "علي الحوات"، كشخصية رئيسة نموذجية، بحكم أنها تمثل الإنسان النقي، من حيث السرية والجوهر. وتمتلك القدرة على التطور وفي الاتجاه الصحيح. لذلك فهي شخصية لها قابلية التشكل والتطور، والاستجابة للتحويلات التاريخية والاجتماعية الجديدة. كما أنها شخصية، تنتمي للفئة البرجوازية الصغيرة، التي تطمح لتغيير واقعها نحو الأفضل.

لا يبدو أن شخصية "علي الحوات"، على درجة من التأسيس الإيديولوجي، الذي غالبا ما يقوم على نسق متكامل من الأفكار السياسية والقانونية والفنية والأخلاقية والفلسفية. كما لا يلاحظ في النص، ذاك الاصطدام الواضح بين طبقتي العمال والرأسمالية، كقطبي صراع ضمن تطور جدي متناقض. وإذا كانت شخصية "علي الحوات" ضمن البرجوازية الصغيرة، فإن نظرتها حتما ستكون خليطا من الأفكار المشتتة، ولا يمكن لها بناء منهج فكري لأحد قطبي الصراع. لأن طبقة العمال تهدف للقضاء على الاستغلال والملكية الفردية لوسائل الإنتاج. والطبقة الرأسمالية تسعى لزيادة تمرکز سلطة رأس المال والنفوذ، ولا تنظر إلى الجماهير الشعبية، إلا كقنات قابلة للاستغلال، تخشى التنظيم الرأسمالي للإنتاج. ونتيجة لتمسكها بالملكية الفردية لوسائل الإنتاج، فهي لا ترغب مطلقا أن تكون الجماهير هي المالكة لهذه الوسائل. لذلك لا يمكن أن تكون البرجوازية الصغيرة كفتة ثالثة، إلا وفق ما ثبتته من تصادم، مع واقعها الحياتي. وتغير شخصية "علي الحوات" في النهاية، وإدراكه عن وعي، أنه لا يمكن توحيد القرى السبع، هو نتاج تجربته التي عاشها، في ظل أوضاع تاريخية واجتماعية صعبة، أجبرته على الإصرار والتضحية، وعدم الاكتفاء بالمحاولات الأولى.

إن اختيار الشخصيات في النص، وجعلها تتبوأ أدوارها السردية بحرية، لبلورة المنظور الروائي للنص السردية، هو سمة فنية من سمات الواقعية الاشتراكية، التي يتبناها نص رواية "الحوات والقصر". من هنا لا يمكن الفهم، أن الواقعية الاشتراكية مجرد نظريات فنية ضحلة، يمكن إسقاطها على شخصيات سردية معينة، إنما هي قدرات فنية تمكن الشخصيات السردية، من خلق ذواتهم مجددا، من أجل

تحقيق رؤية سردية أكثر علمية وموضوعية، وإدراك طبيعة شروطهم الإنسانية والتاريخية. هذا الفهم الموضوعي للواقعية الاشتراكية، هو الذي يمكنها من فتح مجالات أوسع للتطور.

"علي الحوات" حين يصمم على خوض الرحلة الأولى نحو القصر الملكي، يرفض أخذ شكاوى الناس معه، لأن ذلك في اعتقاده يمثل جانبا سلبيا لا يعطي دورا تاريخيا او اجتماعيا لشخصيته. مقابل ذلك فأمام ميولاته الإنسانية الطيبة، يقبل أخذ الهدايا لجلالة حاكم البلاد، بمناسبة نجاحه من الاغتيال. ومع أن "عليا" كان يقف ضد مصلحته الشخصية، إلا أنه يتجاوز ذاته ويصمم على خوض تجربة الرحلة، حتى لو كلفته حياته. «اسمعوا.. أنا مستعد لحمل الهدايا ورسائل الابتهاج بالنجاة. فالرجاء ألا يخرجني أحد بغير ذلك» (وطار 1984، ص:40). يمر "علي" أثناء رحلته نحو القصر، بسبع قرى. وهي الرحلة التي شكلت مراحل تطور وعيه التاريخي والاجتماعي، تجعله يدرك كيف تحولت تلك القرى، إلى ضحية للقمع الإيديولوجي والتصفيات الجسدية، عندما تحولت السلطة إلى أيد ظالمة، تكرس الظلم والخنوع، والاستسلام للأمر الواقع. الشيء الذي دفع بهذه القرى، إلى تغيير أنماط معتقداتها وسلوكاتها، وتنزع نزوعات قدرية. غير أنه لم تحاول ولا قرية واحدة، من تلك القرى باستثناء قرية "الأبأة" ذات الوعي "الطليعي"، أن تدرك مدى ضعفها وتهاويها التاريخي، ومحاولة التخلص منهما والنهوض مجددا، إلا من خلال ما لاقاه "علي" من عذابات وانكسارات. فحتى قرية "التصوف" التي اعتزلت السياسة وكل ما يتعلق بالصراعات، تعرضت لهجمات قطاع الطرق واللصوص. «هاجمها في رابعة النهار ألف فارس، وفارس، لا يعرف أحد جنسهم أو لغتهم أو دينهم، كنفوا الرجال، بأسلاك نحاسية وهجموا على النساء. اقتضوا جميع الأبقار ولم تنج إلا واحدة أطلق عليها من يومها اسم العذراء. استطاعت بقدرة، أن تحتفي تحت غربال، فنجت ولم يرها المعتدون. فظلت عذراء، ومن يومها قرر المتصوفون أن تنفض بكاراة كل وليدة، من طرف الشيخ الملتحي قبل أن تبلغ أربعة أسابيع» (وطار 1984، ص:70/69). في ظل هذه الأوضاع المتردية، لم تتمكن العقلية الشعبية البدائية، من إيجاد الحلول المناسبة لطبيعة المرحلة التاريخية، التي صارت تعيشها وقتها. فلجوء قرية المتصوفة، إلى الطرق المشينة في افتضاض بكارات بناتها، أسلوب هروبي لا يثبت مطلقا، إمكانية عملية لمعالجة المشاكل الاجتماعية، التي صارت تعيشها القرية. وهذا يمثل فشلا تقنعه هالة من القداسة، في مواجهة المشاكل الاجتماعية المعقدة، والتي هي بحاجة إلى وعي موضوعي جاد للتعامل معها.

ولم تتوصل قرية "التصوف" إلى إيجاد البدائل الاجتماعية، لحل مشاكلها مع القصر، رغم إمكانية اتحادها مع القرى الأخرى. غير أن هذا الاتحاد لا يمكن له تحقيق فعاليته، إلا بإدراك طبيعة الشروط التاريخية والموضوعية، التي تعمل فعلا على نجاحه.

وقرية "الأبأة" هي الجانب النقيض تماما لقرية "التصوف". تمارس السياسة بوعي كبير، لأنها الأقرب من القصر، والأكثر عرضة للاستغلال، والأقرب ما تكون لإدراك حقيقة القصر من الداخل. «ووعيا المبكر، فرضته الشروط الاجتماعية القاسية التي كانت تعيشها. فالقصر بالنسبة لها ليس أكثر من جهاز قبي، جهنمي، عانت منه الأمرين، ويجب التخلص منه. والخلاص لا يتأتى إلا بالتمسك بالوحدة الداخلية والبناء الذاتي ومواجهة القصر بصرامة، وليس بالتقرب منه» (الأعرج 1986، ص: 583/582).

وهذا ما جعلها قرية "طليعية"، تأخذ بزمام المبادرة والصراع، من أجل التغيير ونشدهن الأفضل. ونتيجة لوعيا الطبقي، تقوم بتبوء دورها التاريخي وفق ما تمليه حتميات الصراع والتغيير، نتيجة علاقات الصدام القائمة بينها وبين القصر. وهي بذلك تقدم أمودجا نوعيا للوعي التاريخي، تبعا لطبيعة إدراكها لوجودها الاجتماعي المرتبط جوهريا، بالشروط التاريخية التي تمكنها من خوض الصراع. «أهل القرية السابعة، حين يتحدثون عن القصر يقولون عنه، قرية العهر، يعتبرونه قرية قائمة بذاتها، مثل باقي القرى السبع: قريتم وبني هرار، وقرية التصوف، وغير ذلك. القرية السابعة أقرب القرى إلى القصر، وهي أدري من غيرها بالكثير من شؤونه، وهي على خلاف كبير مع القرية السادسة الموالية لجلالته، باعتبار أن الجارية المحظية لدى السلطان والسلطانة، منها» (وطار 1984، ص: 79/78).

من هنا تكون القرية السابعة، أمودجا هاما من نماذج الصراع والتغيير. لأن مواقفها المعارضة للقصر، نتاج طبيعي لما كانت تعيشه سابقا، من ظروف واقعية قاسية. وكان بإمكانها فرض نمودجها الحياتي والواقعي، على باقي القرى الأخرى، لكن لم يتسن لها ذلك، لعدم اكتمال تجربتها التاريخية. مع أنها تدرك طبيعة النظم والتعاملات السائدة، في بقية القرى الأخرى، والتي يغلب عليها النمط الاستغلالي، الذي يجعلها تعيش حياة البؤس والشقاء الدائمين. وتسهم في إطالة سلطة القصر نتيجة الاستسلام. وتغيير الوضع لا يمكن مطلقا أن يكون، نتيجة انتظار القوى الغيبية، إنما هو ممارسة ثورية تغييرية، ينبغي أن تكون.

تتخذ شخصية "علي الحوات" كافة أبعادها التاريخية والأسطورية، في رحلة الوعي التي تقوم بها. وهي مع ذلك تتضخم أثناء تطور السرد، إلى حد الخروج عن النطاق العقلي، باعتبارها شخصية رئيسة، تحمل كافة أحلام القرى الأخرى.

والحقيقة أن الفكر الأسطوري الشعبي، الذي يعتمد الأسس الغيبية، لا يركز عادة على الجوانب الغيبية. وهو بذلك يختلف عن الإطار الموضوعي للواقع المادي الملموس. والأسطورة التي تصنع مثل هذا النوع من الفكر، غالبا ما تنزع إلى إضفاء سمات قدسية غامضة، على مواضيعها وأشخاصها وقضاياها. وفي هذه

الحال تكون للأسطورة، مستلزمات غيبية، تستند إليها في الواقع وتنعكس من خلالها على المجتمع، وكذا السلوك السياسي والطبقي المشتمل عليه. و« الوسائل المتولدة من جراء الأسطورة أو المولدة لبعضها، تتحول في المجتمع إلى أدوات إضافية للسيطرة، وملكية طبقية محددة لوسائل الممارسة الأسطورية» (أحمد خليل 1973، ص:75). وأسطورة "علي الحوات" في النص، هي انعكاس للواقع، ضمن حدود الرؤية الشعبية لمناقشة تناقضات الواقع. «لن تفهمنا يا علي الحوات. لن تفهم غيرك. أنت فهمت نفسك وهذا كل ما في الأمر. وهذا سر برهانك. ولقد جئت يا سيدنا في هذا العصر ليفهم بك الناس عصرهم. جئت لتكشف بطبعك الخير. وقلبك الكبير، سر الأسرار لكافة الرعية» (وطار 1984، ص:64).

من هنا نتأسس شخصية "علي الحوات"، كشخصية جوهرية في المتن السردي لأنها الحلقة الواصلة، بين كافة أحلام الجماهير، وأتمودج الوعي التاريخي، المدرك للشروط الموضوعية للوجود الإنساني. من هنا تتخذ شخصية "علي الحوات" أبعادها التاريخية والواقعية، لتكون هي التاريخ المشتمل على كافة التناقضات، التي تنمو وتطور ضمنه لتظهر على المستوى الاجتماعي. وبفضل هذه الشخصية الجوهرية، يتطور النمط الإبداعي، من خلال تشكل نمط الوعي الذي يبدأ في الانتشار، إلى مختلف الفئات الشعبية، والتي ستكون قوية بوحدتها. لذلك فتجربة الصيد لدى "علي الحوات"، هي « رمز للصبر والبحث في الأعماق والالتذاذ بتجدد التجربة بين كل صيد» (بدر 1980، ص:50/49). وهذا ما يجعل من شخصية "علي الحوات"، أداة لكشف تناقضات العلاقات الاجتماعية، سواء على مستواه، أو مستوى أفراد القرى السبع التي يمر بها في رحلته نحو القصر، أو على مستوى الوضع الذي يعيشه القصر. «الرعية مشتتون، مبعثرون، في قرى لا تربط بينها صلة. كل قرية على دين. كل قرية على عادات وتقاليد، كل قرية تعمل ما في وسعها لتعلن عن عدم تدخلها في الشؤون العامة» (وطار 1984، ص:76). فظهور "علي الحوات"، في ذلك الظرف التاريخي، من بين أهم العوامل التي يمكن أن تسهم في هدم القصر، وتقويض سلطته، حتى لو كانت هذه العملية التاريخية تتم خارج نطاق وعيه. لأن رغبة "علي" الأولى كانت زيارة جلالة الملك وتقديم هدية له، ثم تحولت بعد ذلك، ونتيجة للصراع إلى توحيد القرى السبع، بغرض إنهاء سلطة القصر، وتوفير ظروف تاريخية واجتماعية أفضل. لذلك ف"علي الحوات" ينظر إليه من أبعاد رمزية متعددة:

-علي الحوات والسمكة = العزيمة والإرادة.

-علي الحوات ويده المقطوعة = محاولة تحجيم الفعل الثوري من لدن القصر.

-علي الحوات والقرى السبع = محطات الوعي التاريخي التدريجي (الأعرج 1986، ص:585). بالإضافة إلى أبعاد رمزية أخرى، قدمت إسهامات هامة، من أجل إنضاج الفعل الثوري على مستوى النص.

فالأفعال السردية التي يقوم بها "علي الحوات"، لا يمكن أن تفصل عن الشروط التاريخية التي يؤكد عليها النص. وعن الظروف التاريخية التي يعيشها سكان القرى السبع، وكذا تفاصيل حياتهم اليومية. هذه الأفعال التي تشكل رسالة "علي الحوات"، لا يمكنها أن تفصل عن شروطها التاريخية، لتصير مجرد مغامرة فارغة المحتوى. لذلك تبقى الحقيقة أقوى، من أي افتراض يمكن أن يكون.

3-تطور الشخصية السردية في أبعادها الشعبية:

تتخذ شخصية "علي الحوات" أبعادها الشعبية، كما اتخذت من قبل أبعادها الأسطورية، لتتحول إلى بديل للهموم التي يعاني منها سكان القرى السبع يومياً، لتصير الشخصية على نمط من المثالية، منذ أن عازمت على القيام برحلتها نحو القصر. والعقلية الشعبية التي اتصفت بها شخصية "علي الحوات"، من حس تاريخي وطبقي صادقين، لا تبقي حلها في التغيير جامداً، إنما تضعه ضمن حالة من التطور والتحول، ليصير هذا الحلم أكثر من واقع ملموس. وخلال ذلك كله تبقى شخصية "علي الحوات"، أنموذج الشخصية الشعبية البسيطة، التي صنعتها ظروف التاريخ والواقع الاجتماعي للقرى السبع. فهذه الشخصية هي بالنسبة لهذه القرى، الأمل الفعلي في التغيير وتبديل الواقع الاجتماعي القائم.

ولأن شخصية "علي الحوات"، تمثل الأنموذج التاريخي المميز لحياة القرى السبع، فهي تجد تفسيراتها الموضوعية، التي جعلتها تصمد أمام محاولات القصر لعزلها. وحتى زواج "علي" من عذراء المتصوفين، ليس إلا شكلاً من أشكال الارتباط الدائم، بطموحات الجماهير، والابتعاد عن حياة القصر. «يا علي الحوات كل القرى أحبتك. كل الرعية أحبوك. الجميع يمتنون أن تكون منهم. إنك بحق لم تبق ابن قرية التحفظ وحدها، إنك ابن السلطة كلها رغم أنف القصر. فليكن عرسك هو عرس الجميع. وتدخلت العذراء بدورها لتقول لعل الحوات:

-إنها مشيئة الأقدار. فلتكن. ليكن عرس عذراء المتصوفين، وعلي الحوات، عرس الرعية كلهم» (وطار 1984، ص:157).

إن شخصية "علي الحوات" خلال تطورها، لا تجسد غير شقاء وبؤس "الرعية"، التي تتعرض للظلم الاجتماعي باستمرار. وعلى رغم محدودية وعي الشخصية بداية، فهي ليست شخصية جاهلة، بحكم أنها تتمتع بحس طبقي يمكنها من إدراك مصالحها. لأن طبيعة الإدراك لديها، تنطلق من طبيعة جوهر واقعها ومن تجربتها التي عاشتها، وتعيشها بعمق رفقة الجماهير الشعبية. لذلك فالمنظور الشعبي للرواية، «يكشف

عن نفسه في كون هذه الشخصيات القائدة، الملتحمة بحياة الناس، التحاما مباشرا، هي بصورة عامة، أكثر إثارة للاهتمام والإعجاب من شخصيات التاريخ المركزية المعروفة، (لوكاتش 1978، ص: 41).
 ثبتت التجارب التاريخية أن عامل النضال كفيل، بتحرير البرجوازية الصغيرة من العوامل السلبية، وإبعادها عن السقوط التاريخي. فشخصية "علي الحوات" رغم محدودية وعيها، فقد غامرت كثيرا من أجل تحقيق أهداف نبيلة. علما أن "عليا" في النهاية لا يكسب غير حب الجماهير واحترامهم، وقدرته على العمل الجاد، من أجل تحقيق واقع أفضل. وتجسد القرى السبع، مراحل تطور الوعي لدى شخصية "علي"، خلال رحلته إلى القصر، وما لاقاه من صعوبات في تلك الرحلة. هذا الوعي الذي كان يتحدد بوضوح، بمدى اقترابه أو ابتعاده عن القصر. و"علي الحوات"، «بقدر ما حاول التقرب من السلطة في البداية، تساقط وفقد الكثير، فتجاذب القطبين المتناقضين داخل التركيبة الذهنية لعللي الحوات، وهو الذي يحركه سلبا أو إيجابا» (الأعرج 1986، ص: 587). تبدأ شخصية "علي الحوات"، بنية حسنة وهي تحاول الاقتراب من القصر، ثم ينتهي إلى قناعة تاريخية، وهي ضرورة التخلص من هذا القصر، الذي صار يشكل عائقا أمام حركة التطور.

وبمتابعة أحداث الرواية، يعرف القارئ أن شخصية "علي الحوات" فقدت الكثير مما يخصها، غير أنها لم تفقد الأمل في الفعل الثوري المنتج. لأن شخصية "علي" تمتلك قابلية البقاء التاريخية، باعتبارها تمثل وعي طبقة اجتماعية كاملة. ولغة الإصرار ومقاومة اليأس التي تعلمها "علي"، هي التي جعلت منه شخصا واعيا بتناقضات الواقع الاجتماعي. وهو الوعي الذي اكتسبه نتيجة معاشته لوقائع الحياة، بكافة تفاصيلها ووفق ما شملت عليه الحياة من تناقضات وتطورات مستمرة في الآن ذاته.

فطبيعة نظام القصر تحتم عليه أن يكون استغلاليا، بكل ما تحمله كلمة "استغلال" من معنى. وفي الوقت نفسه يقوم القصر، بأي نوع من أنواع التنكيل اللاإنسانية بغرض قهر إرادة الإنسان المتحررة. «هكذا قطعوا لساني ثم أمروني بالكلام» (وطار 1984، ص: 184). وليس غريبا من جانب آخر، أن تنهض قرية "الأبأة" ضد القصر، لأنها تدرك سلفا، أنه لن يكون مطلقا أداة للحرية، بقدر ما هو أداة للقمع والاستغلال والمصادرة. لأنها القرية الوحيدة، في ظل تلك الظروف القاسية الصعبة، المؤهلة لتبوء دورها الطبيعي، من حيث التنظيم والمقاومة. وقد تمكنت فعلا من دفع بقية القرى الأخرى، إلى إعادة تقييم علاقاتها السابقة بالقصر، مما عاد عليها بنتائج إيجابية، كإخراج القرى من جهلها، وشفاء قرية "العميان"، وتبادل القرى للتجارب فيما بينها. فقرية "الأبأة" تدرك جيدا قيمة الوحدة العضوية بين القرى السبع، لأنها نقطة ضعف القصر. «القصر صار يهاب أكثر من ذي قبل، مدينة الإباء، إنه رغم التنكيل بعلي الحوات، لم يستطع أن يستولي على الجواد والبغلة، مع أنه في أشد الحاجة إليهما. لقد تحقق

الهدف الأول الذي قدرناه، حين أعرنا علي الحوات الجواد والبغلة، بقي أن يتحقق الهدف الثاني، ينبغي أن تعلم الرعية بما في ذلك المخلصين والصوفيين والمتحفظين بأن القصر أضحي في عجز عن التعرض حتى لدواب مدينة الأباة. إنه في حالة انهيار كبير» (وطار 1984، ص: 140/139).

يثبت الأنموذج حالة العجز التي آل إليها القصر، معلنا بذلك عن حالة إفلاس فعلية نتيجة التناقضات السابقة التي كان يعيشها. لذلك فقد أضحي تعميق تلك التناقضات، ضرورة ملحة. وفي هذه الحال من الممكن أن تلجأ سلطة القصر، لطح أفكارها كبديل فعلي، لحل مختلف المعضلات التي تعيشها "الرعية"، نتيجة الترسبات التي صنعتها التناقضات السابقة. ونتيجة لذلك كان لزاما على شخصية "علي الحوات"، أن تعيد إنتاج ذاتها مجددا، بما يتلائم مع إمكانية تحقيق القفزة التاريخية. «الألم الكبير، والحزن الأعظم، ذروة التصوف، بعدما تأتي الغيبوبة في الإشراق الكبرى فيولد ما يرهبه السلاطين والطغاة والجبارة، التحدي الثقيل» (وطار 1984، ص: 132). ربما تكون هنا وحدة المصالح، وتداخلها خلقت نوعا من وحدة الموقف بين القرى السبع، في مواجهة القصر. ومن الممكن جدا، أن هذه الوحدة، مكنت قرية "الأباة"، من تحديد رؤية علمية فيما بعد وهي التي وسمت في الرواية بـ"الحاسة السابعة عشر". وهي الرؤية التي باستطاعتها تحديد برنامج فكري وعملي، لتنمية مجتمعات القرى السبع.

يستنتج مما سبق، أن الأسطورة ذات أبعاد تعبيرية ودلالية هامة، لا يمكن أن تستنفذ كافة طاقاتها الإبداعية، نتيجة الإثراء الذي تتلقاه باستمرار على مستوى الأعمال الأدبية. وواضح أن أهم وأعظم الأعمال الأدبية بمختلف توجهاتها الفنية، لا تزال تعتمد الأبعاد الجمالية للأسطورة، التي تثرى الإبداع من خلالها بشكل مستمر.

وفي رواية "الحوات والقصر" تحولت الأسطورة، إلى فعل ثوري توجيحي، بدل من أن تكون بمعاني غيبوية تمارس وظيفة الخطابة والتحذير، للجماهير الشعبية المحرومة، في ظل وضع مادي لا يقبل التعويض النفسي. فالعقلية الشعبية في تقييمها للوضع، أصبحت تطرح مسألة الموازنة بين القصر والخبز، كرؤية نوعية للصراع الطبقي القائم، وكبديل للغموض الغيبي الذي غالبا، ما يسهم في تكريس العقلية "الطوباوية" السلبية. فعلاقة العبيد بالسادة كما يبدو من خلال النص، هي «علاقة صراعية، عدائية، والأسطورة تنطلق من هذا الواقع المادي لصراع الطبقات» (أحمد خليل 1973، ص: 110). ومن هنا تتحول الأسطورة في ظل الاقطاع والاستغلال، ووفق تغير أنماط وسائل الإنتاج وعلاقات التوزيع، من تطورها الاقطاعي، إلى تطورها التقدمي، الذي يبني رؤية تاريخية بديلة، هي نتاج الوجود التاريخي والاجتماعي للإنسان.

توصل النص من خلال الدلالات الأسطورية، لشخصية "علي الحوات" إلى أهم قناعة علمية موضوعية، وهي أن التغيير الاجتماعي لا يمكن له مطلقاً أن يحدث من فراغ، ودون أسباب تاريخية أو واقعية تؤدي فعلاً إلى حدوثه. فلا بد من خوض التجربة الإنسانية بكافة أعماقها، لا سيما في حال نضج الظروف الخاصة بهذه التجربة. حيث أنه لا بد من أخذ زمام المبادرة التاريخية، لأنه في حال التأخر عنها يكون الإنسان قد ضيع عليه فرصة تاريخية هامة، ويكون وقتها الواقع الاجتماعي نهبا لعوامل الاستغلال والتناقضات الطبقيّة، التي تكرر ظاهرة السقوط التاريخي.

اعتمد النص أسلوباً موضوعياً فنياً، في بناء العوالم الأسطورية. وهو الأسلوب ذاته الذي غالباً ما تعتمد عليه الواقعية الاشتراكية، ذات التوجهات التفاؤلية، في الكثير من أعمالها الفنية والأدبية. وحتى اللغة التصويرية المعتمدة على مستوى النص، لم تخرج عن الغرائبية ذات المنحنيات العجائبية، غير أنها من خلال التجارب التي تناولتها، كانت مقنعة من الناحية الموضوعية إلى حد بعيد. لأنها مرتبطة روحية بالجمهير الشعبيّة، التي غالباً ما تناط بها المهمات التاريخية للتغيير.

وبساطة اللغة ذات الارتباط بأفكار العامة من الناس، عملت على تقريب العمل الأدبي من الجماهير الشعبيّة الواسعة، التي تطمح دائماً لتقديم أعمال تاريخية، بعيدة عن التوجهات البرجوازية السلبية، سواء من ناحية البناء أو اللغة. لأن ما هو معروف أن الأوضاع الشعبيّة هي « صرخة عالية تدعونا إلى أن نستمع إليها وأن نتفهمها، وأن نتعاطف معها» (إبراهيم، 1979، ص 07).

تميزت طبيعة البناء في رواية "الحوات والقصر"، بارتباطها بتطور التجربة الروائية، في أدب الواقعية الاشتراكية. وليس معنى هذا، أن البناء الروائي في الرواية، هو بديل لتجارب فنية أخرى سابقة، إنما هو استجابة لمتطلبات القراءة لدى عموم الجماهير الشعبيّة، وطبيعة ذوقها الذي يعتمد حضور الأسطورة، لتفسير أزمات العلاقات الاجتماعية القائمة بين أفراد المجتمع.

والقناعة الفكرية للنص، هي نتاج لتجارب سابقة في التعامل مع الأسطورة، بحكم أنها أكثر الفنون انتشاراً لدى العقلية الشعبيّة. حيث تكون الأسطورة في هذه الحال، من أبرز الفنون الشعبيّة، تجسيدا لملاحم سردية عن حياة الأبطال، وقدراتهم وشجاعتهم الخارقة، التي يبالغ في الكثير من الأحيان الخيال الشعبي في تصويرها. بالإضافة إلى موضوعات الأدب الأسطوري التاريخية، التي غالباً ما تتحول في أذهان العامة إلى خرافات. وربما عادت «مواضيع تلك القصص والملاحم شبه الخرافية إلى جذور قديمة، عملت تناقلها من جيل إلى جيل، على نسيان الكثير من جوانبها الحقيقية. وأضاف عليها تقاليد موروثية منذ القدم، صبغة خاصة أبعدها كثيراً عن الأصل» (محمد خضر، 1969، ص: 45).

تمكن النص من إحداث علاقة ترابطية، بينه وبين القراء بمختلف أنواعهم، وهذا من خلال جماليات التوظيف الأسطوري التي وظفها. فشخصية "علي الحوات" ليست مجرد شخصية مؤطرة من حيث الزمان والمكان، إنما هي شخصية رمزية، ذات امتدادات شعبية عميقة، تبرز جدليا مع حركة التاريخ، لتصير هي التاريخ في حد ذاته. هذا البعد الرمزي، هو الذي حدا بالنص إلى تحقيق نموذج خاص، يعتمد حمل طموحات الجماهير الشعبية وهمومها، وتحقيق الأبعاد الجمالية للتوظيف الأسطوري، وهذا ما يحقق إضافة نوعية، لرصيد الرواية الجزائرية الحديثة. لأن تطور الشكل الروائي، لا يحدث دون مسببات تاريخية أو اجتماعية، إنما « يحدث معنا هنا في البيت والشارع والحقل والمصنع والمكتب، لأنه شكل حساس جدا، يستطيع أن يعبر أكثر من سائر الأشكال، عن التشابك والتصارع والمعاناة» (عزيز الماضي 1978، ص:10). لأن الرواية في مختلف أبعادها الجمالية، أكثر الفنون السردية، ارتباطا بالحياة اليومية للشعب.

تتحقق الأبعاد الجمالية للعمل الأدبي والفني، بقدر اقترابه من فهم الجماهير الشعبية البسيطة. ويكتسب العمل الأدبي والفني حيويته باهتمامه كذلك، بأشكال الصياغة الجمالية، التي تقربه أكثر من وعي الناس، وتجعل منه عملا أكثر استساغة. ولأن الفنان مسؤول عن عمله الفني، « فبقدر ما كان العمل منتها، فهو يساهم في التربية والثقافة» (Mohamed 1972,p:58). لأن العمل الأدبي والفني، لا يتصور أن يولد جاهزا، إنما هو نتاج علاقاته الجدلية مع الوجود الاجتماعي والناس.

من هنا يبدو أن النص حقق سبقا سرديا هاما في اختياراته، رغم حداثة التجربة السردية في ذلك الوقت، لاسيما على مستوى الرواية العربية الجزائرية الحديثة. وحتى المسرح الجزائري والعربي، في ذلك الوقت كان يراوح مكانه من حيث التجارب الفنية الجديدة. ومثل هذه الأعمال في وقتها، كانت بحاجة إلى المزيد من الجهود والتجريب. ورواية "الحوات والقصر"، من خلال تجربتها السردية، توصلت إلى خلق شخصية "علي الحوات"، كشخصية إنسانية رمزية، رغم أبعادها الأسطورية التي ميزتها، والتي لم تكن إلا انعكاسا للوجود الاجتماعي المشكل للوعي، بكل أبعاده الشعبية البسيطة.

وتسهم شخصية "علي الحوات"، مع مختلف الرموز الأخرى في الرواية، في بلورة الأبعاد النفسية العميقة للنص. « ذلك أن قيمة الحكاية عندئذ تتوقف على مدى نجاح هذا الرمز الكبير، في إبراز هدف الحكاية» (إبراهيم 1978، ص:211).

وفي الحديث عن الأسطورة، فلا بد من الفهم بأن الأسطورة في حد ذاتها، تتداخل مع الواقع الطبيعي المجرد، لتصير كلا لا يقبل الانفصام، بالإضافة إلى المواقف الرومنسية ذات الأبعاد العاطفية والوجدانية، وكذا المواقف الواقعية المجردة، التي تبرز فيما بينها ضمن الأطر الأسطورية. مما يثبت

استيعاب الرؤية الواقعية الاشتراكية، لبعض المميزات الجمالية الرومنسية، التي من شأنها تحقيق فهم موضوعي، لطبيعة الواقع المجرد وخصائصه.

تتخذ رواية "الحوات والقصر" كافة أبعادها الجمالية، من حيث البناء والتشكيل الفني والمنظور. وإن كانت هذه الرواية قد كتبت، خلال مطلع السبعينات من القرن الماضي، فهي تشكل قفزة نوعية مميزة، في مسار الرواية الجزائرية عموماً، لاسيما منها تلك التي كتبت باللغة العربية أصلاً. حيث يبدو التميز من حيث المضمون والشكل معاً.

وتتسع مجالات التعبير في الرواية، من خلال جماليات التوظيف الأسطوري، الذي يحمل دلالات وإحالات متنوعة، بحاجة إلى المزيد من القراءة والإثراء.

هذه الجماليات في الحقيقة، يمكن طرحها من الناحية الموضوعية، كشكل من أشكال الثورة والتغيير، والتي غالباً ما يكون أقرب إلى الفهم، لدى أكثرية الجماهير الشعبية. وهذا ما يمنح الرواية رؤية تأصيلية متجددة، وفق ما تمليه ظروف الواقع الاجتماعي، الذي تناط به مهمة صياغة وعي فكري جديد، يكون النتاج الطبيعي للتناقضات الرأسمالية، التي غالباً ما تنسب في وجود ظواهر تاريخية واجتماعية شاذة. ففي الوقت الذي حوَّص فيه الإنسان الغربي، ضمن مدنية اجتماعية استهلاكية، يكون الفنان منتصراً للجوانب الإنسانية، باعتباره الإنسان الذي يشكل الجزء البنيوي الصغير، ضمن منظومة اجتماعية معقدة ومتشابكة، فيأخذ في الفرار « من هذا الواقع الأليم و القاتل إلى واقع الأشياء » (Raymond 1978, p: 25). ولعل هذا ما لوحظ فعلاً، لدى العديد من الكُتاب الغربيين، الذين رغم إنجازاتهم الكبيرة والهامة، في مجال الرواية، إلا أن رؤاهم الفنية والفكرية بقيت نتاجاً، لطبيعة المجتمع الرأسمالي الذي وصل إلى مرحلة تاريخية من الإفلاس، لتكون المبادرة فيما بعد، لصالح قوى جديدة هي أكثر انسجاماً، مع الظروف التاريخية الجديدة.

وبهذا تكون رواية "الحوات والقصر"، قد مثلت رؤية جمالية تطويرية من خلال تتبع مراحل الإنتاج الفكري المثمر، في مجال الإبداع الروائي. وهذا بحسب الخصائص الفنية والجمالية الجديدة، التي هي نتاج الظروف الطبيعية، للتحويلات التاريخية والاجتماعية، بحسب ما تنتجه القوى الثورية والتغييرية الجديدة. ولعل ما قدمه التوظيف الأسطوري من جماليات مميزة، هو نتاج للإدراك الموضوعي، لطبيعة الصراع الطبقي الذي بات يشكل جانبا هاماً، من جوانب الرؤية الإبداعية المتغيرة.

*الهوامش:

1- الطاهر وطار: الحوات والقصر -رواية-، المؤسسة الوطنية للكُتاب -الجزائر، الطبعة الأولى 1984، ص:40

- 2- المصدر نفسه، ص:70/69
- 3- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، - بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية-، المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر، الطبعة الأولى 1986، ص:583/582
- 4- الطاهر وطار: الحوات والقصر -رواية-، ص:79/78
- 5- خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت/لبنان، الطبعة الثانية 1973، ص:75
- 6- الطاهر وطار: الحوات والقصر -رواية-، ص:64
- 7- ليانة بدر: حوار مع الطاهر وطار، مجلة الحرية، بيروت /لبنان، عدد 988، سنة 1980، ص:50/49
- 8- الطاهر وطار: الحوات والقصر -رواية-، ص:76
- 9- ينظر في ذلك واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص:585
- 10- الطاهر وطار: الحوات والقصر -رواية-، ص:157
- 11- جورج لوكانش: الرواية التاريخية، ترجمة د/صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة والفنون، بغداد - العراق، الطبعة الأولى 1978، ص:41
- 12- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص:587
- 13- الطاهر وطار: الحوات والقصر -رواية-، ص:184
- 14- المصدر نفسه، ص:140/139
- 15- المصدر نفسه، ص:132
- 16- خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، ص:110
- 17- نبيلة إبراهيم: قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة بيروت -لبنان، دار الكتاب العربي -ليبيا، الطبعة الأولى 1979، ص:07
- 18- سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا -لبنان، الطبعة الأولى 1969، ص:45
- 19- شكري عزيز الماضي: انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1978، ص:10
- 20-Kada Mohamed :éléments pour un art nouveau,U.N.A.P,Alger,1^{er} Edition 1972,p :58

- 21- نبيلة إبراهيم: قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، ص:211
- 22- Jean Raymond :Pratique de la littérature ,ed, du sevil, Paris 1978,p :25
- *المصادر والمراجع:**
- *المصادر:**
- 1- الطاهر وطار: الحوات والقصر -رواية-، المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر، الطبعة الأولى 1984
- *المراجع العربية:**
- 1- خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت/لبنان، الطبعة الثانية 1973
- 2- سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا -لبنان، الطبعة الأولى 1969
- 3- شكري عزيز الماضي: انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1978
- 4- نبيلة إبراهيم: قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة بيروت -لبنان، دار الكتاب العربي -ليبيا، الطبعة الأولى 1979
- 5- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، - بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية-، المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر، الطبعة الأولى 1986
- *المراجع المترجمة:**
- 1- جورج لوكانش: الرواية التاريخية، ترجمة د/صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة والفنون، بغداد - العراق، الطبعة الأولى 1978
- *المراجع الأجنبية:**
- 1- Jean Raymond :Pratique de la littérature ,ed, du sevil, Paris 1978
- 2- Kada Mohamed :éléments pour un art nouveau,U.N.A.P,Alger,1^{er} Edition 1972
- *المجلات والدوريات:**
- 1- ليانة بدر: حوار مع الطاهر وطار، مجلة الحرية، بيروت /لبنان، عدد 988، سنة 1980

دلالات لغوية في الرأس البشرية " اللسان والأذنين والعينين أنموذجاً "

". and the eyes as a model, the ears, Linguistic implications in the human head: "The tongue

أ.د صلاح الدين المرغني الطبال ، د. سالمه علي محمد عبد الصمد

ملخص : سعى الباحثان في هذه الدراسة إلى التعريف بالحواس البشرية ودلالاتها في القرآن الكريم وكانت حاسة (السمع والنظر والتذوق) أنموذجاً للبحث ، فقد تم عرض وتحليل تلك الحواس بألفاظها دلاليًا في آي القرآن الكريم ومعنى كل حاسة ، أن تلك الحواس كانت لها عدة وظائف ومعاني تفسر دلاليًا حسب السياق .
ومن أهم النتائج ما يأتي :

أظهرت الدراسة أن الحواس الثلاثة لها دلالات لغوية مختلفة في آي القرآن ، والآيات توضح معنى كل حاسة ودلالاتها في كل مرة ، وأن هذه الحواس لو استخدمتها في الخير أثرت وعمرت ولو استخدمتها في غير ذلك دمرت وخربت .
والحواس قد تتوافق مع الأجناس الأخرى من الحيوانات ولكن بالتمييز بالعقل اصطفى الإنسان عن غيره من الكائنات وتميز بها .

من الحواس خاصية النطق والتواصل مع الآخرين وإن تفاوتت طرائق تواصلهم أو اختلفت .
الكلمات المفتاحية : (دلالات لغوية ، الرأس البشرية ، العينين ، الأذنين ، اللسان)

Abstract

In this study, the researchers aimed to introduce the human senses and their connotations in the Holy Qur'an. The senses (hearing, sight and taste) were presented and analyzed semantically in the Holy Qur'an and the meaning of each sense, and that these senses had several functions and meanings that are interpreted semantically according to the context.

The most important findings are the following:

The study showed that the three senses have different linguistic connotations in the verses of the Qur'an, and the verses clarify the meaning of each sense and its connotations each time, and that these senses, if used for good, are fruitful and prosperous, and if used otherwise, are destroyed and ruined.

The senses may correspond to other races of animals, but by distinguishing with the mind, man was chosen from other beings and distinguished by them.

One of the senses is the ability to speak and communicate with others, even if their methods of communication vary or differ.

Keywords: linguistic semantics, human head, eyes, ears, tongue.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين .
وبعد ،،

فالحواس الإنسانية لها دور بارز في حياتنا اليومية ، بل هي من يقوم بأعمالنا اليومية ويساعدنا على العيش
بسلام ، فجميع الحواس تعمل معاً في عملية تسمى التكامل الحسي ، والذي بدوره يتيح للجسم دمج
المعلومات من حواس مختلفة لخلق إدراك أكثر شمولية للبيئة ، فهي ضرورية لبقائنا وعيشنا وتفاعلنا مع
العالم من حولنا ، وبدونها لن نستطيع الإنسان التمتع بالحياة وغير قادر على التفاعل مع المجتمع .
الهدف من الدراسة :

تلعب الحواس الخمس للإنسان دوراً بارزاً مهماً في علم الدلالة ، حيث أنها توفر الأساس للعديد من
المفاهيم والمصطلحات اللغوية ، فيمكن تصنيف الكلمات في اللغة وفقاً للحواس التي ترتبط بها ، على
سبيل المثال : البصر ، أحمر أصفر ، أخضر ، والسمع ، صاخب ، هادئ ، منخفض ، والتذوق ، حلو ،
مر ، حامض ... إلخ .

فالحواس دورها حيوي في علم الدلالة ، فهي توفر الأساس لتصنيف الكلمات وتؤثر على كيفية إدراكنا
للغة .

وإن العلاقة بين الحواس واللغة متعددة الأوجه مما جعلها مجالاً رائعاً للدراسة في علم الدلالة ، وجعل
الباحثان يخوضان تجربة في هذا المجال الدلالي للغة .
أسباب الدراسة :

من أسباب دراسة الحواس في علم الدلالة هي :

- 1- التصنيف الدلالي ، أي : تصنيف الكلمات وفقاً للحواس التي ترتبط بها وكذلك يساعد في تنظيم المعنى
اللغوي وفهم العلاقات بين الألفاظ .
 - 2- الإدراك اللغوي ، أي : نجد الكلمات مرتبطة بالحواس مثل (حار ، حاد ... إلخ)
 - 3- التطور اللغوي : يعتقد بعض اللغويين أن المفاهيم اللغوية المتعلقة بالحواس تتطور في وقت مبكر نسبياً
في عملية اكتساب اللغة ، مما يدعم فكرة أن الحواس هي الأساس الأساسي للغة ؛ وكذلك يمكن أن
يساعد على فهم الحواس وعلاقتها باللغة وتحسين جودة الترجمة بين اللغات المختلفة .
- فدراسة الحواس في علم الدلالة توضح كيفية تنظيم اللغة وتفسيرها وفهمها وإنتاجها ، كما أنه يسלט الضوء
على العلاقات الأساسية بين لغتنا وتجربتنا الحسية للعالم .

دراسات سابقة :

يعد علم الدلالة مجالاً نشطاً في البحث والتطوير ، إذ توجد العديد من الأبحاث التي قامت عليه ، ولكن دراسة الحواس دلاليًا في القرآن الكريم بهذه النظرة والتفسير لم نجد من كتب في هذا الموضوع .
مقدمة

1. الفصل الأول

- تعريف الحواس

- أهمية الحواس

2. الفصل الثاني

- الفاظ حواس الرأس

- الدراسة الدلالية للحواس (اللسان والأذنين والعينين)

- النتائج

تعريف الحواس :- هي وسائل الإدراك لدى الكائنات الحية ، فهي تعمل على مساعدتها في التعرف على الأشياء واستكشافها لإدراك أهميتها ، وهي من أهم الوسائل التي يستخدمها الجسم لاستقبال وتحليل المعلومات من البيئة المحيطة به .

وهناك خمسة حواس رئيسية تعتبر أساسية لتجربة الإنسان تساعد في تشكيل صورة شاملة للعالم من حولنا وتساهم تفسير وفهم الأحداث والتفاعل مع البيئة .
وقد عرفها بن منظور : « حسّ بالشي يحسّ حساً وحسّاً وحسباً وحسبياً وأحس به وأحسنه : شعر به ... وحواس الإنسان المشاعر الخمس وهي الطعم والشم والبصر والسمع واللمس "
(ابن منظور اللسان ج 2 ص 441-442) .

والإحساس - بكسر الهمزة - " وجدان الشيء بالحاسة " (الرازي ج 8 ص 64)
أي : تناول المحسوس من المدركات التي في الخارج لهذه الحواس ووضح ابن الجوزي (597هـ) تعريفاً للحس مبيناً فيه طرق الحس الخارجية بقوله : " إدراك النفس ما لا تدركه بآلات الحس " (ابن الجوزي ، ج 1 ص 240)
وبين ذلك في أن آلات الحس خمسة :

إحداها : السمع ، وهي الحاسة المدركة للأصوات وصفها بأنها أدق الحواس وأغمضها في كيفية تحصيل الإدراك بها .

- الثانية : البصر ، وهي التي تدرك بها المبصرات ، وأنها أغلظ من السمع وأدق من غيره .
- الثالثة : الشم ، وهي الحاسة التي تدرك بها الروائح وتميز الحسن من القبيح .
- الرابعة :- الذوق ، وهي حاسة يدرك بها الطعوم من حلو وحامض وحر وبارد وغيره .
- الخامسة :- اللمس ، وهي حاسة يدرك بها الناعم من الخشن وهي أغلظ الحواس " (الفيروزيادي ج 2 : ص 153-154)

ولما كان أصل الإحساس راجعاً إلى الحاسة فتعرف بأنها: " القوة التي يدرك بها الأعراض الجسمية وهي المشاعر الخمس " (الفيروزيادي ج 2 ، ص 159) .
أهمية الحواس "

من نعم الله علينا أن نجعل لنا الحواس ننتفع بها في حياتنا وتشعرنا بعظمته سبحانه وقدرته البالغة في السموات والأرض فكانت تبه العقل وتدهش الفكر .

فالإنجاز في الحواس الإنسانية يتجلى في طبيعة تكوين آلتها بماذا جعل - سبحانه - لكل حاسة آلتها التي تختص بها ، فتؤدي تلك الآلة وظيفتها التي أنيطت لها ، فعندما نتأمل " حاسة السمع مثلاً تلك الحاسة

التي تعد من أهم الحواس البشرية التي خلقها وبتيقن ببالغ قدرة خالقها إذ إنها وسيلة إلى المعرفة ، فالاتصال الصوتي لا يحدث إلا عن طريقها فيحدث الحوار بين المرسل والمتلقي، فهي عملية أخذ وعطاء فبدونها تنعدم القدرة على تلقي المؤثرات الخارجية " (عبد العزيز، إعجاز القرآن ص 61)
 أما الحكمة من جعله سبحانه للإنسان أذنين على يمين الوجه و شماله فهي " لإدراكهما لما خلف الإنسان وأمامه ، وعن يمينه وشماله سواء ، فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة
 (ابن قيم الجوزية التبيان في أقسام القرآن ص 192) .

فبتلك الحواس يستطيع الإنسان أن يدرك قدرة الخالق على هذا الإعجاز .
 أما حاسة (البصر) : والمتمثلة في العينين ، قال تعالى : " ألم نجل له عينين ولساناً وشفقتين " [البلد : 8] فأهميتها لا تقل على هذا الإعجاز عن حاسة السمع ، إذ هي وسيلة للمعرفة أيضاً ووسيلتها لأداء وظيفتها هي (العين) ، فإذا تأملنا في أحوالها ، تبين لنا أن الله - تعالى - جعل الابصار في مقدار عدسة واحدة وجعل فيها السواد والبياض وجعلها كالمراة التي ينتفع بها فهي من أرق أعضاء البدن (اسرار التنزيل وأنوار التأويل من ص 51)

والحكمة من جعل العينين في وسط الوجه ، ذلك لأنها في الملاحم والزينة والجمال وهما بمنزلة النور الذي يمضي بين يدي الإنسان (البيان في أقسام القرآن ص 92)
 ومن حكمته سبحانه أنه خلق العينين بغطاء والأذنين بغير غطاء وهذا كما ذكر ابن القيم في غاية الحكمة ، وعلّة ذلك عنده إنه لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء، والصوت عرض لا ثبات له فكان يزول قبل كشف الغطاء
 (التبيان ص 192) .

وإذا انتقلنا إلى حاسة (الذوق) فهي حاسة تميز بها أنواع الطعوم الحلو و الحار و المالح، والمر، وترتبط حاسة التذوق بحاسة الشم ارتباطاً وظيفياً، إذ إن كثيراً من الطعوم التي تعدها ذات نكهة مميزة ندركها في الواقع برائحتها لا بطعمها (عكاشة ، علم النفس الفسيولوجي ، ص 71)
 وقد جعل الله آلة التذوق اللسان ، ذلك العضو المرن الكثير الحركة وقد جعله الله سبحانه (عضواً لحمياً) لا عظم فيه ولا عصب لتسهيل حركته ، ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكثرث بكثرة الحركة سواه . (التبيان في علوم القرآن الصابوني ص 195)

وقد جعل الله له عدة وظائف دون سواه فقد شاء الله له أن يكون آلة للتذوق وآلة للمضغ والبلع والهضم وآلة للتكلم (الجسر ، قصة الايمان بين الفلسفة والعلم ، ص 402) .

بل وآلة لضروب من الرموز كالتعجب والسخرية بما يظهر منه حركات وإشارات وبهذا التكوين العجيب تتجلى عظمة الخالق في هذا العضو اللحمي ليؤدي وظائفه المنوطة به من تذوق ونطق وبلغ وهضم (مدلول - الحواس الانسانية في 107)

أما حاسة (اللمس) تلك التي تدرك بها المحسوسات ويميز بها المحسوس من آخر، فلم يجعل الله لها آلة معينة تؤدي وظيفتها في إدراك ذلك كله بل جعل آلتها تنشر على الجلد الذي يعطي الجسم كله، إذ ليس لهذه الحاسة عضو خاص - بما كسائر الحواس الأخرى، بل إنها لتوجد على سطح سائر الحواس أيضاً وما ذاك إلا لأهميتها وحاجة الانسان الماسة إليها (مدلول، الحواس الإنسانية ص 107) لما كانت حاسة اللمس سارية في الجلد، فإن هناك شبكة اتصالات هائلة منتشرة على سطحه وعلى الطبقة التي تحته مباشرة تلك التي تنقل الاحساسات من العالم الخارجي، وبذلك تتعاون الحواس جميعاً في إدراك المحيط الخارجي. (عكاشة، المدخل إلى علم النفس، ص 89) ويعد الجلد هو الوسيلة التي يحدث بها الاحساس بالأشياء عند لمسها، فيحس الإنسان بحرارتها أو برودتها فيتكامل عنده الإدراك بما يحيط به فيدرك عملياً ما في الطبيعة من عناصر مختلفة في الصفات، فيستدل بذلك على قدرة الله - تعالى - على الابداع والتكوين والإبداع.

وظائف الحواس

للحواس وظائف وأدوار مهمة في حياتنا اليومية نذكرها باختصار.

1. البصر :- للحاسة البصرية وظائف نذكر منها على سبيل المثال : أنها تساعدنا حاسة البصر في رؤية العالم حولنا وتمكننا من تحديد الأشكال والألوان والحركة، وكذلك تساعد في التفاعل مع البيئة والتحرك بأمان.
2. السمع : من أهم وظائفه أنه يسمح لنا بسماع ما حولنا من أصوات وضوضاء، وكذلك فهم اللغة المنطوقة والصوتيات.
3. الشم : من أهم وظائفه : يمكننا الشم من شم الروائح الجيدة والسيئة وتساعدنا في تذكر الذكريات المرتبطة بالروائح
4. التذوق : من أهم وظائف التذوق يمكننا من تذوق الأطعمة والمشروبات وتحديد النكهات المختلفة، وتساعدنا في تحديد الطعام الصالح للأكل والمساهمة في الحفاظ على صحتنا.
5. اللمس : تسمح لنا بالشعور باللمس والحرارة والبرودة والألم وتساعدنا في التفاعل مع العالم من حولنا وتحديد الأشياء القاسية والناعمة والحادة والملساء.

الفصل الثاني: (ألفاظ حواس الرأس الإنسانية)

خصصنا بحثنا هذا لحواس الرأس [اللسان ، الأذنين (السمع) والعينين أنموذجاً] ودلالاتها اللغوية في القرآن الكريم وذلك لأن هذه الحواس التي تعتمد عليها بشكل كبير لإيصال المفاهيم والمفردات والعلوم التي تعرض إليها القرآن الكريم في العديد من المواضع ؛ فقد ذكرنا في الفصل الأول أهمية الحواس ووظائفها على عمومها كتمهيد للبحث ، وهنا نخصص بالذكر (اللسان والأذنين والعينين) أنموذجاً للبحث دلاليًا من آي القرآن الكريم .

أولاً: اللسان

ذكرنا سابقاً أهمية ووظيفة اللسان

ويعرف بأنه : هو عضو حسي وعضلي يوجد في الفم ويعتبر جزءاً من الجهاز الهضمي والحسي ؛ وهو جزء مهم في عملية النطق والتحدث فيتحرك بتناغم مع الشفتين والأسنان والحنك لإنتاج الأصوات المختلفة التي تستخدمها في اللغة.

فاللسان - على الحقيقة - موضوع للدلالة على العضو المعروف الذي هو آلة النطق والكلام .

قال تعالى : " أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ " [البلد : 8-9]

وقد تصرفت العرب بلفظ (لسان) فكثرت به عن الكلمة أو الرسالة من ذلك قول الأعشى:

أني لسان بني عامر ... أحاديثها بعد قول نكر

(ابن منظور ، لسان العرب ، 275/12)

وقد يعبرون به عن الكلام كما ذكرنا حيث ورد ذلك في شعر الحطيئة قائلاً :

ندمت على لسان كان مني **** فليت بأنه في جوف علم

(ديوان الحطيئة ، ص 347)

واشتقوا . من (اللسان) . ألفاظاً أسماء وأفعالاً ، ، وكلها تدل على الكلام ، فقالوا على سبيل المثال :

لسن بين اللسن إذا كان ذا بيان وفصاحة .

(الازهري ، تهذيب اللغة ، 226/12) .

ولما كان اللسان على هذه الدرجة المهمة للإنسان ، فقد تردد ذكره في التنزيل الحكيم في أربع وعشرين

آية (ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص 647)

تقول : لَسِنٌ لِسَانٌ فَهُوَ لِسْنٌ بِمَعْنَى ؛ فصح ، وجاد لسانه

(رضا ، معجم متن اللغة ، 226/12) .

ومنه رجل لِسْنٌ ، أي : بين اللسن إذا كان ذا بيان وفصاحة

(الخليل ، العين ، 17 / 256) .

واللسان يذكر ويؤنث وجمع لسان (السنة)
قال تعالى : (وَأَخْتَلَفُ الْأَسْتَكْمُ وَالْوَأَكْمُ) [الروم : 21]
جاءت كلمة لسان هنا مؤنثة وكذلك تجمع على (ألسن) .
يقول الحجاج : أو تلجج الألسن فينا ملحجاً . (ديوان الحجاج ص 365) .
ولكلمة (لسان) في اللغة عدة معان ؛ فقد تأتي بمعنى اللغة والكلام كما تقدم ، حكى أبو عمر لكل قوم لُسنٌ ، أي : لغة يتكلمون بها ومنه لاسنةٌ : ناطقة .

(اللسان 276/2 ، العين ل.س.ن 7 / 256)

قال تعالى : " فإِذَا يَسْرَنَاهُ بِلِسَانِكَ " [مريم : 96] ، وقال تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ " [إبراهيم : 5]
وتأتي بمعنى الرسالة ، قال الشاعر :
إني أئتني لسان لا أسرّ بها ... من علو لا عجب منها ولا سخرُ .

(مختارات شعراء العرب لابن الشجري ج 1 ص 8)

ومنه أيضاً بمعنى بَلَّغَ : يقال أَلْسَنَهُ ، أي : بَلَّغَهُ ، وألسن عنه : بَلَّغَ عنه ، وتأتي بمعنى الحجّة ، يقولون : فلان ينطق بلسان الله . أي : حجة .

(ابن منظور لسان العرب ل س ن ، 18 / 275) .

وقد سمي ابن منظور كتابه المعروف بـ (لسان العرب) وهو (العين) بلا شك في ذلك يريد لغة العرب

ويأتي بمعنى الدعاء ، كقوله تعالى : " لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ " [المائدة : 78]
أي : في دعائهما

ويأتي بمعنى الثناء الحسن ، قال تعالى : " وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ "

[الشعراء : 24]

ويعني الثناء الحسن ؛ وقد ورد هذا اللفظ في الشعر العربي ؛ قال جميل :
إن اللسان بذكرها الموكلُ * والقلب حياد ، وانخاطر ضررُ

(ديوان جميل ، 98)

واتفق العقلاء وأهل الفكر والدين على تعظيم أمر اللسان ، قال الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : " ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أبهيمة مهملة " (الجامع البيان والبين ، 186/1) .

والمعنى : لو أزلنا الإدراك الذهني والتطق اللساني لم يبقَ من الإنسان إلا القدر الحاصل في البهيمة . وقالوا : المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فالعلم الذي هو خير من المال كانت آلة عطاءه اللسان، وجب أن يكون أشرف الأعضاء ، ولقد اهتم الكثير من العلماء وأهل اللغة باللسان حتى أطلق على علم دراسة اللغة حديثاً (بعلم اللسانيات) كما قيل فيه الشعر و النثر الكثير وسجلوا ذلك في مدوناتهم ومجلداتهم، وهناك كتب كثيرة ذكرت منها آداب اللسان وحفظه والحث على لزوم الصمت حتى قيل في المثل : « إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » (الترمذي، الزهد ، 30/4) . ومن أبرز تلك الكتب ، كتاب الصمت وآداب اللسان لأبي الدنيا البغدادي ت (281 هـ) . كما أن السنة الشريفة قالت فيه الشيء الكثير من ذهن .

عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فابتدأته، فأخذت بيده ، قال : فقلت يا رسول الله : ما نجاة هذا الأمر قال : يا عقبه " احرس لسانك ، ولبسك بيتك ، وابك على خطيئتك ... (البخاري، 25/5) .

ومما تقدم يمكن القول : بأن للسان أثراً في النفس البشرية - فالكلمة الحسنى تلين القلوب وتعمل ما لا يفعله السلاح وها نحن - نرى في الساحة السياسية في الوقت الحاضر الاستخدام الدبلوماسي عبر الحوار يسهل ويحل القضايا الدولية الشائكة ، فالإنسان يبلغ بلسانه وقوله ما لا يبلغه بالسيف ، ويقول أمروء القيس :

ولو عن ثنا غيره جاء في ** وجرح اللسان كجرح اليد . (ديوان امرؤ القيس ، 185)

فا للسان يظهر البيان وناطق يرد به الجواب وحاكم يفصل بها الخطاب ، وشافع تدرك به الحاجات ، وواصف تعرف به الأشياء فهو ترجمان القلب ، محسن الألفاظ من صلاح القلب، ومنسق الألفاظ من فساد القلب .

ثانياً : الأذنين (السمع) .

لغة :- سمع الإنسان يكون واحداً وجمعاً . (الصحاح ، س.م.ع)
كما في قوله تعالى : " خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ " [البقرة : 7] .
لأنه مصدر قولك : سمعت الشيء سمعاً وسماعاً . (الصحاح ، س.م.ع)
وعبر الخطاب القرآني عن السمع بأنه حسّ الأذن (اللسان س.م.ع) .

ومنه قوله تعالى " أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ " [ق : 37] .
أي : ألقى سمعه إلى كتاب الله وهو شهيد ، أي : شاهد ليس بغائب بمعنى استقطاب متدبر على وفق ما يفهم من المضمون .

وتنصرف لفظة (السمع) فاشتق منها اشتقاقات أخرى فيقال : سمعه سمعاً وسماعاً وسماعة وسماعية .
(الفراء ، معاني القرآن ، 80/3) .

فهو بذا متصرف لا جمود فيه ، ولا زيادة في أصول (سمع) فجميعها على الأصل ، والسين والميم والعين أصل واحد وهو ايناس الشيء بالأذن من الناس وكل ذي أذن ، ويشق من السمع الله أيضاً : ،
فالسامعة الأذن ، (اللسان ، ابن منظور س . م . ع) .

ومنه قول الشاعر :

مؤلتان تعرف العتق فيها ... كسامعتي شاة يحوم مفرد (ديوان طرفة)

وهو من باب إطلاق وظيفة الأذن على الأداة نفسها كصورة من صور لمس المعنى المبالغ فيه ، وقد تباينت آراء العلماء لمصدر (سمع) واسمه ، فقالوا : إن مصدر (سمع) السمع - بفتح السين أما الاسم بكسرها (السمع) ، وقيل في التقليل الأخير انه اسم لولد الضبع ، ومنه قول الشاعر :

أما السمع الأزل فلا أبالي ... ولو صحبت شناصب طيب القباب . (ديوان الشعري 217) .

والراجح أن مصدر (سمع) السمع ، أما (السمع) - بكسر السين - فاسم يطلق على والد الضبع كما تقدم وقد توسعت العربية في استعمال مادة (سمع) ، فتقول : إذا رأيت زيدا سمعته ، كما تقول أبصرت عين زيدا يفعل كذا وكذا ، أي : أبصرت بعيني يفعل كذا ، (اللسان : سمع) .

ورده الأزهري ت (370هـ) بقوله : ولا أدري من أين جاء الليث بهذا العرف ، وليست من مذاهب العرب أن يقول الرجل : سمعت أذني بمعنى أبصرت عيني وهو عندي كلام فاسد لا امن أن يكون مما ولده أهل البدع والأهواء وكأنه كلام الجهمية . (الأزهري ، تهذيب اللغة) (سمع)

والسمع عند ابن فارس : أصل واحد وهو إيناس الشيء بالأذن من الناس وكل ذي أذن
(ابن فارس معجم مقاييس اللغة 3 \ 102) .

وأورد الزبيدي أيضاً : السمع حس الأذن ، وهي قوة تدرك بها الأصوات ، وفي التنزيل العزيز : " أو

ألقى السمع وهو شهيد " [ق:37]

قال ثعلب : أي : خلاله فلم يشتغل بغيره ويعتبر تارة بالسمع عن (الأذن) نحو قوله تعالى : " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم " [البقرة : 7]

واستمع إليه : أصغى (الزبيدي ، تاج العروس ، 5 / 386) .

ومن المعاني المادية المحسوسة التي أوردها الزبيدي في المعنى لأحد أبنية ؛ سمع (المسمع) بمعنى : " عروة تكون في وسط العرب يجعل فيها قبل التعديل الدلو ، نقله الجوهري ، وأنشد الشاعر عبد الله بن أبي :
تعدل ذا الميل إن رامنا .. كما عدل العرب بالمسمع

(الزبيدي ، تاج العرس ، 386/5)

نستطيع أن نربط هذا المعنى المادي الملموس للعروة في وسط العرب يدخل فيها الحبل وتعدل الدلو، بآلة " السمع " ، وهي الأذن : منهن أيضاً حرق كما العروة ينظم دخول الموجات الصوتية ويعدلها ويعالجها لتصل إلى مراكزها في الدماغ .

و نجد أن الدلالة اللغوية (سمع) تنمو من المحسوس إلى المعنوي . بمعنى الفهم والعقل، ابتداءً من العروة في وسط العزب إلى المعنى الخاص بحاسة (السمع) وانتهاءً بدلالة الفهم كما في قوله تعالى : (وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) [الأنفال : 23] .

ذكر الزبيدي في معنى اسمعهم ، أي : أنهم بأن حبل لهم قوة يفهمون بها .

(الزبيدي ، تاج العروس ، 388/5) .

وقد ذكر القرآن الكريم السمع وعضوه الأذن في مواضع كثيرة منها :
كونها الأداة التي تستقبل الإنسان بواسطتها المواقظ والتشريعات والأخبار والعلوم التي جاء بها أنبياء الله ورسله عليهم السلام ، إضافة إلى صلتها الوثيقة بالقلب ذلك أن القلب وعاء العلم والمعرفة ، والحواس منافذه آلاته ، والأذن لها دور عظيم في ذلك فهي بابہ والرسول الموصل إليه العلم .
فبدون أذن سليمة من الآفات والعطل يفوت على الإنسان جل العلوم والمعارف كما يصعب عليه الاتصال بالواقع والإنسانية . (مدلول ، حواس الإنسان ص 37) .

فقوله تعالى : " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ " [الملك : 10] اقترن (السمع) هنا بالعقل ؛ ليدل على أن مدار التكليف يكون العقل بعد السمع والبصر ، ذكر الزمخشري في تفسير هذه الآية : الانذار سماع طالبين للحق أو تعقله عقل متأملين ، وقيل : أي : جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة ، السمع والعقل .

(أساس البلاغة للزمخشري (566/4) .

والسمع من صفاته عز وجل ، و اسماءه لا يعرب عن إدراك مسموع وإن خفي ، فهو يسمع بغير جارحة وفعل من أبنية المبالغة، قال تعالى : " وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا "

[النساء : 134]

وهو الذي وسع سمعه كل شيء " (اللسان 8/164).

وقد غلب في القرآن الكريم استخدام ألفاظ (السمع والبصر) معنى عقلي مجرد لتدل على معنى الفهم والعقل أو العلم .

يقول الاستاذ يحي جبر في اللغة والحواس : ويأتي السمع بمعنى العلم ، لأن أدوات كالbصر والرؤية وعلاقتها بالبصيرة والرأي ويتضح هذا المعنى في قوله تعالى : " فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ " . [يوسف : 34]

أي : فلما علمت ، ويؤكد ذلك تعدية الفعل بحرف الجر لأنها لم تعلم ذلك منهن مباشرة وإنما انتهى إليهما قيلهن عن طريق غيرهن .

وينصرف السمع بمعنى الفهم، ذلك ؛ لأنه الوسيلة المؤدية إليه، ويتضح هذا المعنى في قوله تعالى : " إِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ " [التوبة : 6] .

والمعنى حتى يفهم شيئاً منه على يدك، وبهذا دون غيره يحقق الغرض ، لأنه قد "سمع" ما لا يفهم فلا يكون ثمة وجه للمهلة والاجازة ، (اللغة والحواس ، يحيي ، ص 80) .
ومن توسعهم في الاستعمال : أن يطلقوا على خبر ذاع صيته بأمر - معيب سماعاً .
(العين : س م ع) .

وإذا ذاع صيته بأمر حسن : " ذهب سمعه في الناس " ؛ وجاء في الحديث الشريف : " من سمع بعبد سمع الله به " (الزمخشري، إسرار البلاغة 4\568 ، س.م.ع) .

أي : من أذاع في الناس عيباً على أخيه المسلم أظهر الله عيوبه .

ويقال أيضاً .. "إن السمع هو إدراك المسموع" (اللسان ، س.م.ع)

وإذا أدركت الشيء بحاستك السامعة يقال : " سمعته ، وسمعته ووعيته ، واستوعيته .
(بن جعفر ، جواهر الألفاظ ، 349) .يبدو أنها تفرق في دلالاتها الدقيقة التي يحددها السياق وإذا أقسموا قالوا : " لا وسمع الله " ، يعنون لا وذكر الله .
(أساس البلاغة ، س.م.ع) .

إذ تحمل مفردة ، "سمع" ، معنى : الذكر كظل لمعناها الأصلي، وعليه قول الشاعر :

سمعت سمع الباع والجود والذرى ** فأدليت دلوي فاشتغلت .

وقولنا في الصلاة : "سمع الله لمن حمده" « توسع آخر من باب المجاز ، أي : أحباب وتقبل

(بن المثني ، مجاز القرآن (3 / 115) .

لأن السماع يستلزم الإجابة من الباري - جل جلاله - وفسر بحجيب الدعاء، لأن السماع بلا إجابة لا

ينفع العبد (السجاني ، مفاهيم القرآن ، 2/160) .

وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ، يقال : سمعك حديث يعجبني ، أي : استماعك إلى حديثي وقولي

يعجبني .

يقول ذو الرمة :

إذا توجس ركزاً مقفر ندس بناء الصوت ما في سمعه كذب .

أي : ما في استماعه كذب .

(الزجاج ، اشتقاق أسماء الله ، ص125 ، منسوب لذي الرمة ولكن غير موجود بالديوان) .

لأن المصادر ينوب بعضها عن بعض الآخر ، فالعطية بمعنى الاعطاء وسمع بمعنى الاستماع ، فإذا طلبت

الاستماع يقال : " استمعت استماعاً و استمعت .

(الصحاح ، س.م.ع.) .

" وامرأة سمعته نظرية ، أي : تسمع كل ما يتكلم وتنظر إليه " (اللسان ، س.م.ع.) .

وإن كان الإنسان خفيف السمع يقال له (سمع) ، وبه يشبهون الغول لخفته فيقولون :

غول سُمع ، أي : خفيف " (الشرتوني ، أقرب الموارد إلى فصيح العربية)

و جعل العرب للأرض من باب التوسع أيضاً سمعاً وإبصاراً ، فنقول :

مر بين سمع الأرض وبصرها ، (ابن ناجي ، الصاحبي ، 257) .

ومن أسماء الله وصفاته السميع ، بعد أن وسع علمه وسمعه وه كل شيء قال تعالى : " فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " [المائدة : 42]

وقد عجب الأزهري ممن فسر قوله تعالى هذا المعنى : "المُسمع" باسم الفاعل هرباً من وصفه بأنه يسمع .

(الأزهري مجاز القرآن ، 282) .

أما الرجل فإذا كان كثير الاستماع يقال له : (سمع) ، بتشديد الميم .

(تهذيب اللغة ، س . م . ع .) .

وعليه قوله تعالى : " سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ " [المائدة : 42]

وأحياناً يُقام المصدر على زنة " فعال " مقام الفعل ك (قول العرب سماع يا هذا بوزن فعال بكسر الآخر

بمعنى اسمع مني كما يقال : دارك ، بمعنى : أدرك "

(الزجاجي اشتقاق أسماء الله الحسنى : 125) .

و منه قول الشاعر :

سماع الله والعلباء وأني أعود بحقو حالك يا ابن عمر .

(الزجاجي اشتقاق أسماء الله الحسنى (126) .

وأراد : تسميع الله والعلباء فأنا المصدّر مناب فعله .

(السمع) ، في الاصطلاح : هو لفظ يدل على حاسة معروفة وليس لفظاً - خاصاً أو لفظاً له مفهوم خاص .

المجال الدلالي لألفاظ السمع في القرآن الكريم .

كثيرة هي مادة سمع التي ذكرت في القرآن الكريم ولها عدة معاني وفق السياق القرآني ولكن لكثرتها وعدم إمكانية عرض ذلك كله في هذا البحث وذلك بسبب شروط النشر في المجلات العلمية وهي عدة وريقات رأينا عرض بعض منها على سبيل التمثيل لا الحصر .

أ. (سَمِعَ) بلغ مجموع ورود هذه المفردة في القرآن الكريم خمساً وثمانين ومائة مرة .

(المعجم المفهرس س . م . ع) و يبنى حرفية

كثيرة، كل بنيه لها دلالتها التي لا تقوم مقامها غيرها، وهذا يبرز رفعه البني الأسلوبية الصرفية للخطاب القرآني ويمكن تصنيف هذه المباني الصرفية على النحو التالي :

• (سمع) ورد مرتين أسند فيهما السمع لله مجازاً لإفادة معنى الشمول في قدرته، وقد اخترنا ب (قد) التي من معانيها التحقيق .

(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : 309/8) .

كقوله تعالى : " قد سمع الله " [المجادلة : 1] ، وقال تعالى : " لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ " [آل عمران : 181] .

• (سمعت) : وردت مرة واحدة أسند فيها السمع لامرأة العزيز في قوله تعالى : " فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ " .

[يوسف : 31] . فقد اقترن الفعل بباء التأنيث كعلامة للفاعل المؤنث .

• (سمعنا) : ورد في آيات السمع سبع عشرة مرة .

(إعراب القرآن، الكرامي ، 404/5)

وقد لوحظ أن أغلبها سيقنت على لسان المشركين بدلالة الندم والتحسر على ما فرطوا في حب الله بعد أن عطلوا أسماعهم كقوله تعالى : " رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ " [السجدة : 12] .

• (أسمع) وردت مرة اقترنت بالفعل "أرى" في مقام تثبيت الله لنبيه موسى وأخيه هارون - عليه

السلام - في قوله تعالى " إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى " .

[طه : 46] .

- (نسمع) ورد اللفظ مرتين بزنة (نفع) التي ينتشر فاعلها وجوباً فهو متلبس بما كقوله تعالى : " أُمَّ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ " [الزخرف : 80] ، وقال تعالى : " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ "

[الملك : 10]

- (اسمع) وهو بناء مزيد قصدا لمستوى دلالي لا توفره المفردة المجردة ، ورد ست عشرة مرة ، كقوله تعالى : " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ "

[الجن : 1] .

- (استمع) : ورد مرتين ، كقوله تعالى : " وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ " [النساء : 46] ، وقال تعالى : " وَلَوْ اسْتَمَعْتُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مَعْرُضُونَ " [الأنفال : 23]
- (السمع) ورد اثنين وعشرين مرة منها : يأتي في (يونس : 13 ، هود : 20 ، الحجر : 18 النحل : 78 الإسراء : 36) ، اثنا عشر موضعاً مقترناً بالألف واللام كقوله تعالى الله " مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ " [هود : 20] .

- (سماعون) . وهو من أبنيه المبالغة ، ورد أربع مرات كقوله تعالى " سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ " [المائدة : 41] .
- (مسمع) : بناء اسم الفاعل المصنوع من الرباعي (اسمع) ورد أربع مرات (المعجم المفهرس ص 455) ، كقوله تعالى الله " إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمَعٍ مِّنَ فِي الْقُبُورِ " [فاطر : 22]

ثالثاً: جارحة العين :

يعد النظر من أهم الوسائل التي تفسر للإنسان العالم المحيط به ولا بد عند الحديث عن أفعال جارحة العين من التعريف بـ (كل جارحة من ناحية فسيولوجية) ، حيث يشبه العلماء العينين بكرتين من الهلامين تبعد إحداهما عن الأخرى مسافة (2.5 سم) تقريبا . ويقسمون أجزاء العين إلى ثلاثة أجزاء أساسية : العشاء الخارجي - والغشاء الوسطى المكون من مشيمة العين والقزحية والغشاء الداخلي (شبكة العين) ويعدونه أهم .جزء العين في الأعصاب التي تلتقط الصور وتنقلها إلى الدماغ " تتحسس العصبية في الشبكة الأنوار القائمة، فيما تتحسس المخاريط الأضواء الزاهية والألوان، والمخاريط هي الخلايا الوحيدة التي تبطن النقرة وهي انخساف يكون عند البصر في أعلى مستوى . يحسن الضوء - الذي تحسه الشبكة بإرسال نبضات تنقل من خلال العصب البصري إلى القسم الخلفي من الدماغ . (شهاب ، العين البشرية ص 4_8 بتصرف) .

العين في اللغة :

قال الخليل : " العين الناظرة لكل بصر ، والعين تجمع على أعين وعيون وأعيان "

(العين ، الخليل ، 263/3)

ويقول ابن فارس : " العين والياء والنون أصل واحد صحيح يدل على عضو به ينظر ويبصر " (ابن فارس ، مقاييس اللغة ، 199/4) .

وقال أبو هلال العسكري : " إن العين آلة البصر وهي الحدقة "

(أبو هلال ، الفروق اللغوية ، ص 83)

" والعين هي رسول القلب ، ولما لها من أهمية بالغة في الاهتداء والاستعانة بها في قضاء الحاجات ، إضافة إلى النظر المتأمل بها إلى آيات الله ومعجائبه ، فقد ورد ذكرها ومعانيها في القرآن الكريم في آيات عديدة " (مدلول ، الحواس الانسانية في القرآن الكريم ص 37)

فقد وردت مادة (ع ، ي ، ن) في القرآن الكريم بصيغ عديدة كالأفراد والتثنية والجمع ، فمن الأفراد قوله تعالى : " وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ " [المائدة : 47] ، وقال تعالى : " ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ " [التكاثر : 7] ، فقد وردت مفردة ست مرات ، ومنها أيضاً قوله تعالى : " وَقَرِّيْ عَيْنًا " [مريم : 26] ، ووردت بصيغة المثني في قوله تعالى : " وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ " [يوسف : 24] . وقال تعالى : " أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ " [البلد : 65] .

وبصيغة الجمع وردت : في قوله تعالى : " تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ " [المائدة : 83] ، وقال تعالى : " فَلَمَّا أَتَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ " [الأعراف : 133] ، وقد وردت بصيغة الجمع (عيون) تسع مرات (وعيوناً) مرة واحدة والقرآن الكريم خصوصية مفردة في التعبير عن المعاني وبلاغة سامية لا يمثلها أحد ، ومن تلك الخصوصيات التي اختص بها القرآن الكريم في استعماله اللفظي (العيون والأعين) فلم يستعمل العيون إلا لعيون الماء وقد وردت كلمة العيون في القرآن الكريم في قوله تعالى " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ "

[الحجر : 45] ؛ وقال تعالى " فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " [البقرة : 57] ؛ وقال تعالى : " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ " [المرسلات : 41] ، وقال تعالى " كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " [الدخان : 24-25] ، في حين استعمل جمع (أعين) للعين والمراد به الباصرة ، قال تعالى : " وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا " [الأعراف : 119] . وقال تعالى : " فَلَمَّا أَتَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ " [الأعراف : من الآية 116]

وقال تعالى : " أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ " [الأعراف : 195] .

وكلا اللفظين (عيون - أعين) جمع (عين) و العين يقال : لمنبع المياه وذلك تشبيهاً بالعين الحسية ، لأن الماء فيها ومنه اشتق الماء المعين أي : الظاهر للعيون

(الأصفهاني المفردات ص 355).

ومن ذلك قوله تعالى : " فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ " [الغاشية: 12] . ، وقوله تعالى : " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " [الحجر : 45] .

أما فيما يخص جميع (عين) فقد ذكرها القرآن الكريم بصيغة الجمع على وزن (أفعل) ،

(أعين) وهي جمع قلة، وبصيغة (فعول) ، (عيون) إلا أن المراد منها حاسة البصر، من ذلك قوله تعالى : " وَأَذِيبُ يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ " [الأنفال : 44] وقال تعالى : " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "

[السجدة : 17] ، وقال تعالى : " وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا " [هود : 37] .

أما استعمال جمع الكثرة مع عيون الماء فالإرادة للتكثير قال تعالى : " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " [الحجر : 45] .

فوقع جمع الكثرة في عيون الجنة دلالة على كثرتها واختلاف طعومها وأذواقها (عبد الباقي ، 629)

ومما يدل على إرادة التكثير في جمع (العيون) مجيء الفعل (جَرَّ) مضعفاً للتكثير، وذلك في قوله تعالى " وَجَرَّنا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ " [يس : 33] ، وقوله تعالى : " وَجَرَّنا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ " [القمر: 12] وذلك في طوفان نوح عليه السلام .

وتخلص مما سبق إلى أن الاستخدام القرآني للكلمتين (أعين - عيون) - يظهر اشتراكهما في المعنى : جمع عين وكلمة (عين) من المشترك اللفظي - الدال على مدلولات كثيرة كحاسة البصر، وعين الماء، وعين الجيش (الجاسوس) الخ

وقد خصص الاستخدام القرآني الجمع (أعين) في أحد معاني هذا المشترك اللفظي وهو جمع العين التي هي (البصر) بينما خصص الجمع (عيون) في أحد معاني المشترك اللفظي وهو جمع عين الماء فالعين كالمرأة ترى ما يقع عليها ، ومما يفهم الإنسان ما يراه وتكشف له خفايا هذا الكون ، فعين الإنسان كثير من الأحيان تكشف عن جوهر النفس ؟ قبل أن تنطق " وقد عرف من قديم الزمان أن للعيون لغة يعبر بها عما في النفس من مشاعر وأحاسيس

فالعين لغة العشاق والمحبين ووسيلة من وسائل التخاطب ،

قال جميل :

ذكرتكم فانهل العين إنها** إذ لم يكن صبر أحق رأ روح . (ديوان جميل) .
وقد استعملت العرب ألفاظ العين للتعبير عن دلالات مختلفة مثل : "عين الشيء" : حقيقته ودلالته
وهو الذي ذكرناه ، وهو عين اليقين أي : المشاهدة الحقيقية لما حدث ومثل : (رأى فلاناً عينه ، أي :
شخصه وذاته ، وكذلك عين الرجل : منظره ، وأعيان القوم أعقلهم وأحسنهم .) (الأصفهاني ، المفردات
، 358) .

والعين السيد في قومه ، والعين ينبوع الماء (اللسان ع ي ن) .
ومن عين الماء اشتقت ماء معين ، أي : ظاهر للعيون .
إن عين الإنسان كثيراً ما تكشف لنا عن مكونات النفس وإن حاول صاحبها أن يخفي مشاعره
وانفعالاته، ولقد عبرت أهل اللغة عن ذلك بأمثلة لها فقالت : (رب لحظ أتم من لفظ) (الأمثال
والحكم)
ومن ذلك قول عمارة بن عقيل :

تبدي عن العين ما في النفس صاحبها من الثناء أو الود إذا كانا
إن البغيض له عين يصد بها لا يستطيع لما في الصد كتماناً
وعين ذي الود ما تنفك مقبلة ترى لها محجراً يشاء وإنساناً
والعين تنطق والأفواه صامتة ترى من ضمير القلب تبياناً
(الجاحظ ، الحيوان ص 56)

نتائج البحث :

من أهم النتائج التي خلص إليها البحث ما يلي :

- 1- أن الله تعالى كرم الإنسان بالحواس لكي ينعم بالعيش مع بني جنسه على هذه البسيطة .
- 2- أن الحواس ما هي إلا نعم كرسها الإنسان لخدمته .
- 3- دلالات هذه الحواس كانت لها معان عدة ، فكان السياق هو الذي يوضح المعنى الدلالي للفظ ،
كل حاسة ودلالاتها .
- 4- القرآن الكريم كان خير شاهد على دلالات هذه الحواس وتفسيرها في كل سياق .

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
2. ابن الجوزي ، تح : عبدالرحمن محمد عثمان ، الموضوعات المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، ط 1\ ، 1986 م .
3. ابن السجري ، شرح : محمود حسن زناتي ، مختارات شعراء العرب ، مصر مطبعة الاعتماد ، 1925م .
4. ابن المثنى ، تح : محمد فؤاد ، مجاز القرآن ، القاهرة – مصر مكتبة الخانجي ، 1381 هـ .
5. ابن جعفر ، جواهر الألفاظ ، القاهرة – مصر ، مكتبة الخانجي ، 1985 م
6. ابن حنبل وضع حواشيه : محمد شاهين ، الزهد بيروت – لبنان دار الكتب العلمية ، 1999 م .
7. ابن فارس تح : عبدالسلام هارون ، معجم مقاييس اللغة دار الفكر للنشر والطباعة (ب ت) .
8. ابن قيم الجوزيه ، تح : محمد حامد الفقي ، التبيان في أقسام القرآن ، بيروت لبنان ، دار المعرفة (ب ت) .
9. ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت لبنان – دار صادر ، ط 3\ 1414 هـ .
10. أبي عبيدة ، مجاز القرآن ، القاهرة – مصر مكتبة الخانجي ، 1381 هـ .
11. الأزهري ، تح : محمد عوض مرعب ، تهذيب اللغة ، بيروت – لبنان دار إحياء التراث العربي 2001 م .
12. الأصفهاني ، الراغب ، المفردات في غريب اللغة ، تح : محمد سيد كيلاني بيروت – لبنان ، دار المعرفة (ب.ت) .
13. الأصفهاني ، تح : صفوان عدنان الداودي ، المفردات في غريب القرآن بيروت – لبنان دار القلم ، 1412 هـ .
14. امرؤ القيس ، اعتنى به : عبد الرحمن المصطاوي ، ديوان امرؤ القيس بيروت – لبنان دار المعرفة ، ط 2\ ، 2004 م .
15. البخاري ، تح : جماعة من العلماء ، صحيح البخاري مصر المطبعة الأميرية بولاق ، 1360 هـ .
16. الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت – لبنان ، دار الهلال ، 1423 هـ .
17. الجاحظ ، الحيوان ، بيروت – لبنان دار الكتب العلمية ، ط 2\ ، 1424 هـ .
18. جبر يحيى ، اللغة والحواس ، مكتبة التريية العربي لدول الخليج ، 1985 م ،
19. الجسر نديم ، الإيمان والفلسفة والعلم والقرآن طرابلس – لبنان
20. ديوان جميل بيروت – لبنان دار صادر (ب ت) .

21. ديوان طرفة ، طرفة بن العبد ، تح : حمدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، ط \ 3 ، 2002 م .
22. الرازي ، الصاحبي في فقه اللغة ، نشر محمد علي بيضون ، 1997 م .
23. الرازي ، محمد عبد القادر ، صححه : فيروز حريجي ، تقديم د. شاكر الفحام الأمثال والحكم ، بدمشق ، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية 1987 م .
24. الرازي الإمام نجر الدين ، تح : محمود أحمد محمد ، أسرار التنزيل في أقسام التنوير بيروت - لبنان ، دار المعرفة ، 2011 م .
25. الرازي مفتاح الغيب (التفسير الكبير) ، بيروت - لبنان ، دار إحياء التراث العربي ، ط \ 3 ، 1420 هـ .
26. رضا ، أحمد ، معجم متن اللغة ، بيروت - لبنان دار مكتبة الحياة 1985 م .
27. الزبيدي ، تح : جماعة من المختصين ، تاج العروس ، إصدار دار الإرشاد والبناء - الكويت 2001 م .
28. الزجاجي ، تح : عبد الرحمن المبارك ، اشتقاق أسماء الله الحسنى ، مؤسسة الرسالة ، ط \ 2 ، 1986 م .
29. الزمخشري ، تح : محمد باسل ، أساس البلاغة ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، ط \ 1 ، 1998 م ،
30. السبحاني ، مفاهيم القرآن بيروت - لبنان ، مؤسسة التاريخ العربي ، 2010 م .
31. الشرتوني ، أقرب الموارد إلى فصح العربية منشورات آية الله العظمى - إيران ، 1403 هـ .
32. الشيرازي ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل بيروت لبنان مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، 2013 م .
33. الصابوني ، محمد علي ، التبيان في علوم القرآن ، دار إحسان للنشر والتوزيع ط \ 3 ، 2003 م
34. عبد الباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة - مصر ، دار الحديث (ب ت) .
35. عرفة ، عبد العزيز ، قضية إعجاز القرآن وأثرها في تدوين البلاغة العربية ، بيروت - لبنان عالم الكتب ط 1 \ ، 1985 م .
36. العسكري ، أبو هلال ، تح : محمد إبراهيم سليم ، الفروق اللغوية ، القاهرة - مصر ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع 2010 م .
37. علم النفس الفسيولوجي ، أحمد عكاشة ، مكتبة الأنجلو المصرية . WWW.THEBOOKHOOME.COM
38. الفارابي ، تح : أحمد عبد الغفور عطار ، تاج العروس وصحاح العربية بيروت - لبنان دار العلم للملايين ، ط \ 4 ، 1987 م .

39. فارس ، أحمد، تح : عبدالسلام هارون ، مقاييس اللغة ، دار الفكر 1979 م .
40. الفراء ، تح : أحمد النجاتي ، معاني القرآن ، مصر الدار المصرية للتأليف والنشر ، (ب ت) .
41. الفراهيدي الخليل بن أحمد ، تح : إبراهيم السامرائي ، العين دار الهلال للنشر
42. الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، تح : محمد إبراهيم سليم ، الفروق اللغوية ، القاهرة - مصر دار العلم والثقافة (ب ت) .
43. الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، ط 8\ 2005 م .
44. مدلول ، د. محمد طالب ، الحواس الإنسانية في القرآن الكريم ، بيروت - لبنان ، دار الكتب العلمية 2007 م .
45. مسلم أبو الحسن تح : محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة عيسى ، صحيح مسلم ، القاهرة - مصر الباني 1955 م .
46. مقال علمي بعنوان : " العين البشرية " لأشرف شهاب 2015 م WWW. MSDMANUAIS .COM .

أهمية الثقافة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة

The importance of Culture in achieving sustainable development

د. عبد الله الهمامي،

باحث في قضايا الشباب والممارسات الثقافية

الجمهورية التونسية

Abdallah02061986@gmail.com

الملخص:

ترنو هذه الورقة البحثية إلى إبراز أهمية الثقافة في تجسيد أهداف التنمية المستدامة، من خلال إمكانية إضافة الثقافة كبعداً جديداً لتحقيق الاستدامة، بالإعتماد على المنهج التحليلي. خلصت الدراسة إلى أن للثقافة دوراً كبيراً في تحقيق أبعاد التنمية المستدامة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، من خلال مجموعة من المؤشرات القابلة للقياس، أهمها مساهمة الصناعات الثقافية في الصادرات وخلق فرص العمل. بالإضافة إلى بروز الاقتصاد البنفسجي، كما يمكن للثقافة أن تكون سبباً في التخلف والركود.

كلمات مفتاحية:

تنمية مستدامة، ثقافة، صناعات ثقافية، إقتصاد ثقافي، إقتصاد بنفسي.

Abstract :

The latter is still looking to highlight the importance of culture in achieving development, through the possibility of adding culture as a new dimension to sustainability, deling on analytical applications, the study concluded that culture is essential in enriching the dimensions of economic, social and environmental development with the basic indicators for measurement, the most important of wish is its contribution to the ministry in addition to the emergence of the purple economy. Culture can also be a cause of underdevelopment and stagnation.

Keywords :

Development, culture, cultrural industries, cultrural economy, purple economy.

المقدمة:

يرتبط مفهوم التنمية بالنمو الاقتصادي، ومع تطور الفكر التنموي، ظهر مفهوم الاستدامة كمطلب رئيسي للعملية التنموية، لذلك إرتبط مفهوم التنمية المستدامة بالبعد الاقتصادي في المرتبة الأولى، يليه البعد الاجتماعي، وأضيف البعد البيئي حديثاً لتحقيق مفهوم الإستدامة. وبالرجوع إلى الأدبيات في هذا الموضوع، نجد أن أغلبها يركز على هذه الأبعاد الثلاثة من خلال مؤشرات خاصة.

غير أن في الآونة الأخيرة يتزايد النظر إلى مصطلح الثقافة عند الباحثين والدارسين، خاصة في الأنتروبولوجيا والسوسولوجيا بإعتباره حجر الأساس للعلوم الاجتماعية والإنسانية. وبدأ الحديث عن الثقافة كمحرك رئيسي للتنمية المستدامة، بفضل دعوات اليونسكو وغيرها من منظمات الأمم المتحدة. لذلك تعمل هذه الدراسة على تبيان الأهمية الحقيقية للثقافة في تحقيق التنمية المستدامة من خلال الإجابة على سؤالين رئيسيين هما: ما دور الثقافة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة؟ وهل يمكن للثقافة أن تشكل بعداً جديداً للتنمية المستدامة؟

ونتفرع عن هذين السؤالين الرئيسيين أسئلة فرعية أخرى.

كيف يمكن للثقافة أن تحقق الاستدامة الاجتماعية والبيئية والاقتصادية؟

وماهي المؤشرات الثقافية للتنمية المستدامة؟

ولالإجابة على هذه الأسئلة اعتمدنا على المنهج التحليلي ومنهج البحث البيولوجرافي حيث تم اللجوء إلى أهم ما كتب حول الثقافة والتنمية المستدامة والعلاقة بينهما.

I- الثقافة مراجعة للمفهوم والأنواع:

1. مفهوم الثقافة:

إن كل شعوب العالم التي وجدت من قبل وما زالت موجودة إلى حد الساعة لديها ثقافتها الخاصة، ومن الشعوب البدائية الأولى أو المتحضرة المتمدنة الحالية، أما الفرق بين هذه الثقافات هو درجة التطور لا أكثر، كما أنه في الوقت الراهن تختلف الثقافة من مجتمع إلى آخر، فالثقافة الموجودة في إيطاليا مثلاً مختلفة عن الثقافة التونسية، وهذه الأخيرة مختلفة عن الثقافة السائدة في قطر على سبيل المثال، ونستطيع تمييز إحداها عن الأخرى من خلال السمات المميزة لها (مادية ومعنوية)، وعلى هذا هناك ثقافات عديدة، منها ما انقرض مع شعوبها ومنها ما تطورت مع التقدم البشري لأن الثقافة مهما كانت إستاتيكية إلا أن هذه الرتبة نسبية، فهي في ديناميكية مستمرة ومتطورة تتفاعل في إنتاجها عدة مصادر.

يعتبر مفهوم الثقافة من المفاهيم المعقدة، فالثقافة أو Culture بالفرنسية أو الإنجليزية. مصطلح واحد جعل عدة مفاهيم تعددت حسب تعدد الميدان أو الحقل العلمي المستخدم فيه. وزاوية الرؤية في اللغة اللاتينية Kultur. كانت تستخدم للدلالة على العناية بالحقول، ولا يزال هذا المفهوم قائماً في بعض هذه المجالات، فالزراعة هي ثقافة النباتات، والبيولوجيا هي ثقافة البكتيريا وزراعة الجراثيم وغيرها. (عجان، 1976، ص 26).

أحياناً يرد مفهوم الثقافة على أنه "حضارة"، هذا التعبير ما زال شائعاً في اللغة الألمانية، وذلك لتداخل المفهومين وترابطهما، فالثقافة المادية توصف أحياناً بالحضارة. وهي مجموع ما صنعه الإنسان بهدف سد حاجاته المادية، ويقصد من ذلك آلات العمل والمواضيع اللازمة للاستعمال اليومي والمسكن واللباس ووسائل الإتصال وغيرها.

كما نجد المفهوم "الغربي" للثقافة يحمل في ثناياه الدين، فهو جزء من الثقافة، أما في بعض المفاهيم "العربية" فإن الدين يسمو على أن يكون جزءاً من الثقافة، فهو أساسها في التعبير. "الثقافة الإسلامية". فالدين هنا الذي ورد على أساس صفة للثقافة على أن يكون جزءاً منها فهو الكل المقدس الذي لا يخاله شيء.

وفي الفلسفة مثلاً غالباً ما تفهم الثقافة على أنها شيء لا ينبثق عن الطبيعة اعتباطياً، وإنما يظهر بفعل الإنسان، بمعنى أنه كل ما يصنعه الإنسان بوعي أو بدونه، كالألات والأدوات وقطع الأثاث أو هي فكرة زرعت في فكر الإنسان، الملاحظ هنا أن المفهوم الفلسفي للثقافة يعطيها بعداً غير مادي بالإضافة إلى البعد المادي.

وتبين صعوبة تحديد مفهوم هذا المصطلح من كثرة المفاهيم، حيث أنه هناك العديد من العلماء والدارسين تناولوا عدداً لا يحصى من مختلف مفاهيم "الثقافة". التي ظهرت في القرنين الأخيرين بالتحليل والتمحيص والمقارنة، ومن بين هؤلاء علماء الاجتماع كـ "كلوكوهن" و "كروبير"، حيث قاما بتحليل أربعة مائة وستة وأربعون مفهوماً للثقافة، وقد صنفا هؤلاء المفاهيم إلى ستة فئات وتوصلا إلى مفهوم شامل، وتكمن هذه الفئات. عجان، (1976، ص 23). في:

- الفئة الصعبة: وتسرد أقسام الثقافة، ومجملها لا تحمل التعريف الدقيق.
- تعاريف ذات تحديد تاريخي: وتبنى على مفاهيم التراث الاجتماعي والوراثة الاجتماعية أو العادات الاجتماعية.
- تعاريف قياسية: ترى أن العنصر الأساسي للثقافة يقوم على قواعد ومعايير معينة بقيم أو مثل عليا تحدد طبيعة النشاط. أو يكون في وحدة كلية إلتزام طراز معين من الحياة.

- تعاريف تعتمد على علم النفس: تركز على مفاهيم التكيف وترى الثقافة وسيلة لحل المشاكل النفسية.
- تعاريف مركبة: وتشير إلى الوحدة الداخلية بين الظواهر الثقافية منفردة وإلى إنتظام شخصيتها ككل.
- وقاما بإستنتاج تعريف شامل حيث رأى أن الثقافة، تكمن في نماذج من أساليب الفكر ذات النهج المستمر في الشعور وردود الفعل المكتسبة والمتوارثة لا سيما بمساعدة الرموز وهذه الرموز تمثل المكتسبات الهامة للجماعات البشرية مجسدة في مواضيع مادية، وتشكل الأفكار المنتقاة والمتوارثة تاريخياً، نواة الثقافة وبصورة خاصة تلك الأفكار المتصلة بالقيم وهذا التعريف، يقتررب كثيرا من أشهر تعاريف الثقافة الذي يعود لـ"تايلور"، والقائم على أساس نشوء تطور الظواهر الثقافية كنتيجة للنشاط البشري.
- 2. أنواع الثقافة:

تشكل الثقافة عموما من نوعين هما:

- الثقافة المادية: وتمثل في الأدوات والمعدات التي تطورت نتيجة الجهد المتصل بإشباع، ونشير إلى الأساليب المكتسبة في السلوك والتي تستخدم في صنع الأشياء التي تشكل التراث الاجتماعي، المنحوتات اليدوية والألبسة، وغيرها، وأصبحت تعرف بالصناعات الثقافية والإبداعية.
- الثقافة اللامادية: ويقصد بها بالمظهر التجريدي، وتشمل الأفكار والمعايير، الآمال والمشاعر والإتجاهات والتقاليد والمعتقدات. الأمثال الشعبية، الشعر الملحون... وغيرها من الفنون السمعية.
- 3. الصناعات الثقافية:

الصناعات الثقافية مصطلح في ذو معنى خاص يختلف عن صناعة الثقافة، أي صناعة الإنتاج الثقافي. ففي حين تعنى هذه الصناعة بالمنتجات الثقافية المصنوعة كالكتاب واللوحه والبرنامج التلفزيوني. فإن الصناعات الثقافية، فيما يتعلق بالوطن العربي تعني شيئا آخر هو الإنتاج العربي برؤوس أموال عربية، وبقدرات بشرية عربية، لعدد من المواد والأجهزة التي تستخدم وسائل الثقيف، ولإنتاج الثقافي، كجهاز الراديو أو التسجيل، والورق، والإدارة الهندسية والخبر والآلة الموسيقية، وأنايب الدهان. عبد الدايم، (1986، ص131).

نتيجة لإقحام البعد الاقتصادي في القطاع الثقافي، ظهرت الصناعات الثقافية، وتعرف على أنها مجموع الأنشطة التي تنتج السلع أو الخدمات المرتبطة بالثقافة وتشمل الكتاب والصحافة والراديو والتلفزيون، السينما، الأقراص بجميع أنواعها، بعض المنتجات المتعلقة بالإعلام الآلي ويضاف إليها أيضا إعادة الإنتاج (إستنساخ الأعمال الفنية والتصويرية...)، (123م، 1998، Balle)، ويتطور الصناعات الثقافية وامتدادها لنشاطات أخرى، أصبحت تعرف بالصناعات الإبداعية.

II- أهمية الثقافة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة:

1. أهمية الثقافة في الاقتصاد:

تظهر أهمية الثقافة في تحقيق الأهداف الاقتصادية للتنمية من خلال نوعين:

الاقتصادي الثقافي والبنفسجي.

1.1. الاقتصاد الثقافي والإبداعي.

ويرتبط بصناعة الثقافة والإبداع من خلال المؤشرات التالية:

* الناتج العالمي والمحلي: وفرت مختلف أنشطة الصناعات الإبداعية عوائد نحو 2.250 تريليون دولار في عام 2013، أي ما يعادل 3% من الناتج الإجمالي العالمي (كوبيي وبوزيان، 2020، ص 405). وهذا يؤكد مقولة رفكين: إن الإنتاج الثقافي سيمعد إلى المرتبة الأولى في الحياة الاقتصادية مع حلول المعلومات والخدمات في المرتبة الثانية والتصنيع في المرتبة الثالثة والزراعة في المرتبة الرابعة (هارتلي، 2007، ص 168) فيما ساهمت الصناعات الإبداعية في الناتج المحلي الإجمالي لبعض الدول أكثر من القطاعات الأخرى كقطاع البناء مثلا، ففي الدنمارك ووفق إحصائيات الأونكتاد لسنة 2010 ساهمت الصناعات الثقافية بنسبة 2.6% من الناتج المحلي الإجمالي، بينما ساهم قطاع الصناعات الغذائية والشراب والدخان 2.1% وقطاع البناء 1.0% من الناتج المحلي الإجمالي. (مؤسسة الفكر العربي، 2012، ص 34).

* حصة التشغيل الثقافي: حيث خلقت الثقافة فرصا وظيفية في العام 2013، بنحو 29 مليون وظيفة في جميع أنحاء العالم (محمد يوسف وجودة، 2017، ص 43). وتشكل حصة العمالة في القطاع الثقافي 6.51% من مجموع العمالة في سويسرا، و6.24% في السويد، و5.02% في الولايات المتحدة الأمريكية و1.38% في قطر (اليونسكو، 2013، ص 191)، وهي في تزايد مستمر.

* مساهمة الصناعات الإبداعية في الصادرات: حققت التجارة العالمية للسلع والخدمات الإبداعية رقما قياسيا بلغ 624 مليار دولار أمريكي في عام 2011، وازدادت أكثر من الضعف بين عام 2002 وعام 2011 (كوبيي وبوزيان، 2020، ص 405). كما شهدت البلدان النامية زيادة في صادراتها حيث بلغت في المتوسط 12.1% سنويا خلال الفترة ذاتها (اليونسكو، 2013، ص 10).

وبالنسبة لأفريقيا فقد إزدادت صادرات السلع الإبداعية من 740 دولار إلى 2.200 مليون دولار خلال الفترة 2000-2008، وكانت مصر أكبر مصدر لأفريقيا، تليها جنوب أفريقيا وتونس والمغرب وموريشيوس (محمد يوسف وجودة، 2017، ص 43).

* الحد من الفقر: والذي يعتبر الهدف الثالث للتنمية المستدامة، حيث تعتبر الثقافة مصدرا قويا للقضاء على الفقر، آخذين في الاعتبار أن الصناعات الثقافية والإبداعية هي من بين أسرع القطاعات الاقتصادية

توسعا في البلدان الصناعية والبلدان النامية على حد سواء، ووفقا للبنك الدولي، سوف تساعد الثقافة على الحد من النسبة المئوية للسكان الذين يعيشون على أقل من 1.25 دولار في اليوم إلى 3% بحلول عام 2030. (اليونسكو، 2016، ص10).

* تعزيز النشاط السياحي: وبخاصة السياحة الثقافية منها من خلال الاهتمام بالمناطق الأثرية والمتاحف كما أن السياحة الثقافية تساعد في الحد من الفقر وإيجاد فرص عمل وتوليد الدخل للمجتمعات المحلية خاصة الشباب والنساء، كما يرتبط الأمر بالحرف اليدوية وزيادة القدرة التنافسية ودفع عجلة الاقتصاد.

2.1. الاقتصاد البنفسجي:

ظهر هذا المصطلح علنا لأول مرة في فرنسا في 19 مايو 2011، وبمبادرة من جمعية Diversum، وفي بيان نشر على Le Monde Fr، ويشير إلى العلاقة بين الثقافة والاقتصاد، ويعرف على أنه (مزبان وبن سالم، 2020، ص13) :

- تحالف جديد بين الثقافة والاقتصاد بدمج كل عملية اقتصادية بالمكون الثقافي الذي يترك بصمة في الأنشطة الإنتاجية والتنظيم.

- الاقتصاد الذي يحمل قيمة ترتبط إرتباطا وثيقا بثقافة المجتمع، مما يحقق استجابة وتفاعل الكائن المثقف. الواضح أن مفهوم الاقتصاد البنفسجي مازال غامضا، بالرغم من وجود الكثير من الدراسات حول الموضوع، غير أن مؤشرات هذا النوع الجديد من الاقتصاد ما زالت غير واضحة وتحتاج للزيد من الدراسات النظرية والتطبيقية.

2. أهمية الثقافة في الحفاظ على البيئة وتنمية القطاع الزراعي:

تمكن الزراعة من تعزيز قدرة المجتمعات المحلية الوطنية على التكيف في المجال الزراعي والأمن الغذائي والتصدي التحديات الإيكولوجية وفقدان التنوع البيولوجي والحد من مخاطر الكوارث، (اليونسكو، 2016، ص13)، الممارسات الزراعية المستدامة، هو ما أسماه أخصائي الاجتماع الريفي الفرنسي 'هينري ميندارس' فنون المناطق المحلية أو فنون المستوى المحلي، والمقصود هنا بهذا المفهوم النظم العديدة للمعارف الموجودة لدى المزارعين الصغار حيث طور المزارعون عبر الزمن معارف هائلة تتكيف مع خصوصيات النظم الإيكولوجية والأنماط المجتمعية المحلية وعلى تحويل الزراعة إلى نظام بالغ الإنتاجية يستند أساسا على الموارد المحلية (اليونسكو، 2013، ص53) من أن الثقافة البيئية تهدف إلى تطوير الوعي البيئي وخلق المعرفة البيئية الأساسية بغية بلورة سلوك بيئي إيجابي ودائم وتكمن أهداف الثقافة البيئية في (صالح، 2018، ص08).

- تحقيق الحماية والتطوير المستدام للنظام الطبيعي والنباتي والحيواني وكافة الأنظمة الإيكولوجية من أجل الاستقرار المنظم الطبيعي.

- حماية المصادر الطبيعية كالتربة، الماء، الهواء، المناخ التي تعتبر كجزء رئيسي من النظام البيئي وكأساس للتواجد الإنساني.

3. أهمية الثقافة في تحقيق البعد الاجتماعي للتنمية المستدامة:

تظهر أهمية الثقافة في تحقيق الإستدامة الاجتماعية من خلال:

* التعليم : يجب أن يهدف التعليم إلى تنمية الإمام بالثقافة من خلال زيادة فهم التاريخ المحلي وتزويد الشباب بالمهارات اللازمة للعيش في عالم متعدد الثقافات، فالتعليم الجيد يمثل الهدف الرابع للتنمية المستدامة كما يرتبط الأمر بتعزيز تكنولوجيات المعلومات والاتصالات من أجل تحقيق التعليم النوعي أو ما يُعرف بالثقافة العلمية إنها المحتوى العلمي التقني الفكري القادر على القيام بعملية التأهيل الثقافي للمجتمع ليتمكن في خوض غمار مجتمع المعرفة، (الشيبياني ، 2018 ، ص205) فالتنمية هي العلم حين يصبح ثقافة (الجاربي، 1999، ص 103) وتعدد وسائل نشر الثقافة العلمية بتعدد وسائل الإتصال والنشر المختلفة بدءاً بالتعليم، المحاضرات، الندوات، الرحلات العلمية، الجمعيات العلمية، وسائل الإعلام المختلفة، المتاحف، العلمية والمعارض، النوادي، المقاهي، المسابقات وغيرها..

كما تساهم الثقافة في التقليل من الحروب وتعزيز ثقافة التسامح والتفاهم المتبادل والسلام، وفي المجال الدبلوماسي وفي تعزيز العلاقات الدولية، تحقيق المساواة بين الجنسين وزيادة تمكين المرأة في العمل الثقافي، كما تعمل الثقافة على تعزيز حرية التعبير والحكم الرشيد وبناء السلام -

ويضاف إليها الموروث الثقافي والعادات التي تتمثل في:

* الأمثال الشعبية: على سبيل المثال نجد الكثير من الأمثال الشعبية الجزائرية التي تتحدث عن العمل، أهميته وقيمه - جاءت الأمثال الشعبية ذات الصلة بفضاء العمل كسلطة قانونية إجتماعية تعمل من أجل تجاوز الواقع الاجتماعي بقيمه السلبية وإصلاحها كما جاءت أغلب النصوص في صيغة الأمر (بلهوارى، 2019، ص257)، ومن بين الأمثال الشعبية الجزائرية التي تتحدث على العمل نذكر: "أخدم تريح وأشق تلق" و"إخدم بعرقك تستر عرضك" و"خدّيم الناس سيدهم" و"قلة الشغل مصيبة" وغيرها الكثير من الأمثال الشعبية التي تحث على العمل وتبرز قيمته.

* عادات التعاون والتآزر الاجتماعي: حيث يؤدي التعاون إلى وحدة الجماعة وتماسكها وإحساس الفرد بالأمن، ويكون التعاون على شكلين (الهدلول، 2019، ص 117)، التعاون التلقائي غير المخطط والذي يكثر في المجتمعات الريفية ويكون بين أعضاء الجماعة القريبة، والتعاون التعاقدى المخطط له

وتشكل نتيجة لتغير الظروف وضعف علاقات القرابة، ويتم اللجوء إلى التعاون مع البعيدين بإنشاء جماعات غير قريبة لتحقيق هدف كبير مثال بناء سد صغير.

III. مؤشرات وعوائق البعد الثقافي للتنمية:

1. مؤشرات البعد الثقافي للتنمية المستدامة:

نستطيع تقديم بعض المؤشرات القياسية لأهمية الثقافة في تحقيق التنمية المستدامة (زموري، 2015، ص 76):

- حجم الإنفاق على الثقافة ونصيب الفرد من الإنفاق الرسمي على الثقافة.
- نصيب الفرد من الإنفاق العلمي والتكنولوجي.
- عدد الجمعيات والنوادي الثقافية والفنية والرياضية في ألف نسمة.
- عدد المسارح وقاعات السينما.
- عدد الكتب والمطبوعات سنويا.
- عدد المؤلفين وعدد المؤلفات سنويا.
- عدد المتاحف ودور الموسيقى.
- عدد الكتب المباعة سنويا.
- عدد دور الثقافة والمكتبات.
- عدد المهرجانات الفنية والثقافية.
- الجوائز الثقافية والعلمية المتخصصة.
- عدد المعاهد والكليات والمراكز المتخصصة في الشؤون الثقافية كالفنون الجميلة والآثار والترميم.
- عدد الجمعيات الثقافية والعلمية والمهنية المتخصصة.

كما نضيف إليها:

- حجم التبادلات التجارية للصناعات الثقافية والإبداعية.
- نسبة الدخل الوطني في الصناعات الثقافية.

الملاحظ أن هذه المؤشرات تتداخل مع مؤشرات أبعاد التنمية المستدامة المعروفة وخاصة المؤشرات الاقتصادية والمؤشرات الاجتماعية والمؤشرات التكنولوجية.

2. العوائق الثقافية للتنمية:

إذا كانت الثقافة تساعد على تحقيق أهداف التنمية المستدامة فإنها أيضا تلعب دورا سلبيا من خلال بعض المظاهر الثقافية:

- الإسراف في الإستهلاك: كاستهلاك السلع الغذائية والمصنعة وغيرها مما يؤدي إلى نتائج سلبية على تنمية المجتمع. وكأمثلة عن السلوك الإستهلاكي المعوق للنمو الاقتصادي نجد أنه في المملكة العربية السعودية تظهر الإحصاءات أن السلوك الإستهلاكي معوق للنمو فالإستهلاك المحلي للطاقة في عام 2015 يشكل نحو 38% من إجمالي إنتاج المملكة من المواد البترولية والغاز، ويتوقع استمرار نمو هذا الإستهلاك بمعدل يتراوح بين 04-05% سنويا خلال الأعوام القادمة. ليصل مستوى الإستهلاك إلى ضعف مستواه الحالي بحلول عام 2030 (المذلول، 2019، ص120).
 - ثقافة المحسوبة والوساطة: الأمر الذي يحول دون إتاحة الفرص العادلة للجميع، مما يضعف حيوية المؤسسات وقدرتها على تحقيق أهدافها، بالإضافة إلى الرشوة والفساد الإداري والمالي.
 - العولة والهيمنة: لما أصبحت الثقافة صناعة، هيمنت عليها كبريات الشركات العالمية، الأمر الذي أدى إلى إندثار الأنشطة المحلية والمؤسسات الحرفية الصغيرة.
 - إختلاف الثقافات واللغات: قد يعرقل التواصل بين المجتمعات أو حتى داخل المجتمع الواحد، وبسبب الحروب والنزاعات الإثنية والقومية.
- فشل العديد من المشاريع التنموية نتيجة تنوع واختلاف الثقافات. (عيشة، 2012، ص13).

V. الإستنتاجات العامة:

من خلال ما سبق نستنتج:

1. تساعد الثقافة في تحقيق الاستدامة الاقتصادية والبيئية والإجتماعية، فهي تعمل على تكامل أبعاد التنمية المستدامة من حيث:
 - تحقيق الإستدامة الاقتصادية: من خلال:
 - الاقتصاد الثقافي-الإبداعي: فالقطاع الثقافي يزيد في نسبة الصادرات والدخل الوطني وحجم التبادلات التجارية، كما يعمل على زيادة نسبة العمالة، والمهن البنفسجية
 - الثقافة اللامادية: ثقافة التقشف والإدخار وعدم التبذير وثقافة العمل بصفة عامة.
 - تحقيق الإستدامة الاجتماعية: حيث أن القطاع الثقافي يساعد على:
 - تكافؤ الفرص والمساواة ودعم حقوق المرأة.
 - تحقيق التعليم النوعي المرتبط بتكنولوجيات المعلومات الحديثة.
 - إمتدت أهمية الصناعات الثقافية على إمتداد إستدامة المدن من خلال ترقية الهندسة المعمارية.
 - للثقافة الشعبية أهمية كبيرة في المجتمع.

- تحقيق الإستدامة البيئية: وترتبط بالثقافة الشعبية، خاصة بالمحافظة على البيئة والتوازن البيئي، والمحافظة على الأراضي الزراعية الخصبة.
- 2. بفضل جهود اليونسكو وغيرها من الهيئات والدراسات، أصبح قياس تأثير الثقافي في التنمية المستدامة، ممكنا من خلال مؤشرات عديدة أهمها مساهمة الثقافة في التشغيل، وفي حجم الصادرات والنتائج المحلي للصناعات الثقافية.
- 3. تتداخل مؤشرات وأهداف البعد الثقافي مع مؤشرات الأبعاد الأخرى، البعد الاقتصادي والبعد الاجتماعي والبعد البيئي، لذلك لا يمكن اعتبار الثقافة بعدا رابعا.
- 4. ويمكن للثقافة أن تساعد في تحقيق أهداف التنمية المستدامة في الوقت الذي يمكنها ان تعرقل العملية التنموية.

الخلاصة

تعتبر العلاقة بين الثقافة والتنمية علاقة جدلية فالأخذ بعين الاعتبار أحدهما وإهمال الآخر سيستمر في الوقوع في تصور ثقافي محض، وترجيح الاقتصاد على الثقافة هذا حتما سيؤدي إلى فشل المشروع التنموي لذا ينبغي المراجعة الكلية للرؤية المتمثلة في تحويل الثقافة كنتيجة حتمية للتنمية (زموري، ص 20)، بالرغم من الدعوات العالمية لإدراج الثقافة كبعد للتنمية المستدامة وبالرغم من العائد الاقتصادي والأهمية الاجتماعية والبيئية للثقافة، إلا أن القطاع الثقافي مازال مهمشا على حساب القطاعات الأخرى، ربما يرجع الأمر للغموض الذي يكتنف مفهوم الثقافة وتداخل المؤشرات الثقافية مع المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والتكنولوجية للتنمية المستدامة.

لذلك لا يمكن اعتبار الثقافة كبعدا رابعا للتنمية المستدامة، غير أننا لا يمكن نفي الأهمية الثقافية في العمل التنموي، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الاهتمام بقطاع الثقافة أو ما يعرف بالتنمية الثقافية. من خلال زيادة الاستثمارات وتنمية الموارد البشرية وتأهيل المؤسسات الثقافية ودعمها بالتشريعات والقوانين اللازمة وغيرها. حيث أصبح من الضرورة وضع خطط تنموية لإدارة الثقافة ومنتجاتها بما يتوافق مع المتطلبات المحلية لكل مجتمع وبما يتكيف أيضا مع الثقافة العالمية في ظل العولمة وفي ظل ضرورة احترام الخصوصية والتنوع الثقافي، دون أن نتجاهل أن تكون الثقافة في حد ذاتها عائقا سلبيا في عملية التنمية، كالتشبث بالعادات والتقاليد وعدم تقبل الأفكار الجديدة، والاعتقاد بالغيبيات والشعوذة وانحرافات.

قائمة المراجع:

- ✳️ الجابري محمد (1999)، المسألة الثقافية في الوطن العربي (المجلد 01)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ✳️ الشيباني خضر (2018)، بين إشكالية التأصيل وواقع التفعيل قراءة في حال الثقافة العلمية العربية، تأليف الابتكار أو الاندثار البحث العلمي العربي واقعه وتحدياته وآفاق التقرير العربي العاشر للتنمية الثقافية، بيروت: دار مؤسسة الفكر العربي.
- ✳️ الهذلول عبد الله عبد الرحمان (2019)، المدخل الثقافي والقيمي للتنمية المستدامة، تأليف دراسات حول مداخل التنمية المستدامة دار جامعة نايف للنشر.
- ✳️ اليونسكو (2013)، تقرير عن الاقتصاد الإبداعي.
- ✳️ اليونسكو (2016)، تقرير الثقافة والتنمية.
- ✳️ بلهوارى الحاج (2019)، العمل في الأمثال الشعبية قراءة سوسولوجية في المعاني والدلالات. تأليف دراسات في الثقافة والتراث، عمان-الأردن: من المحيط إلى الخليج للنشر والتوزيع.
- ✳️ زموري زينب (2015)، دور المؤسسات الثقافية في التنمية الثقافية، دراسة ميدانية للمؤسسات الثقافية لمدينة بسكرة، أطروحة دكتوراه تخصص علم اجتماع التنموي، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.
- ✳️ صالحى نعيمة (2018)، التنوع الثقافي كآلية جديدة لتفعيل مسار التنمية المستدامة، أعمال المؤتمر الدولي الثامن التنوع الثقافي في طرابلس.
- ✳️ عجان عزة (1976)، الإيديولوجيا، الثقافة والإعلام، سوريا: الوكالة العربية السورية للأنباء.
- ✳️ عيشة صادق (2012)، صورة الأقليات المسلمة والتعدد الثقافي في بريطانيا تونس: رابطة العلم الإسلامي.
- ✳️ عبد الله عبد الدايم، التخطيط الشامل للثقافة العربية: مبادئه وأهدافه ووسائله، منشور في الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الثالث، القسم الأول، الطبعة الأولى، الكويت: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1407هـ/1986م.
- ✳️ كويبي حفصة، وبوزيان العجال (2020ب)، من الصناعات الثقافية إلى الاقتصاد الإبداعي تأليف الإعلام الثقافي والصناعات الإبداعية، الجزائر، الأردن: ألفا لوثائق.
- ✳️ محمد يوسف همت، و جودة عبد الوهاب (2017)، الصناعات الإبداعية وعائداتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على المجتمع، رؤية مستقبلية، مجلة علوم الإنسان والمجتمع (25).

- ✳ مزيان حمزة، و بن سالم نادية (ديسمبر 2020)، مساهمة الاقتصاد البنفسجي في تطوير سياحية مستدامة "مقصد بنفسجي"، مجلة الإستراتيجية والتنمية، عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الأول حول الاقتصاد البنفسجي لدعم أبعاد التنمية المستدامة 09-08 جويلية 2020.
- ✳ مؤسسة الفكر العربي (2012) التقرير العربي الخامس للتنمية الثقافية، الاقتصاد العربي القائم على المعرفة، بيروت.
- ✳ هارتلي جون (2017)، الصناعات الإبداعية كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا، تر. بدر الدين سلمان الرفاعي الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- ✳ Balle Français (1998), dictionnaire des médias, pris : la rousse.

المسلمون واليهود في المغرب: ماضي مشترك وتأثير متبادل

Religious Coexistence between Muslims and Jews in Morocco: A Historical Perspective

د. سعيد الأشعري

باحث في الثقافة والتواصل

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، المغرب

Said.alachari@ump.ac.ma

الملخص:

يعكس التعايش الديني بين المسلمين واليهود في المغرب تاريخاً طويلاً من الاحترام والتعايش السلمي امتد لآلاف السنين بين الجاليات المسلمة واليهودية. منذ الفتح الإسلامي، شهد اليهود في المغرب حقوقاً دينية وثقافية محفوظة ومنصوص عليها في الشريعة الإسلامية. وخلال العصور، نمت المجتمعات اليهودية في المغرب وساهمت في الحياة الاقتصادية والثقافية بشكل ملحوظ. بعد الفتح الإسلامي وخلال فترة الاستعمار الفرنسي، استمر التعايش السلمي بين المسلمين واليهود في ظل تطورات سياسية واجتماعية. وبعد الاستقلال، أكد المغرب على قيم التسامح والتعايش الديني، مما أسهم في تعزيز العلاقات الاجتماعية بين الجاليات المختلفة.

الكلمات المفتاحية:

التعايش الديني - المسلمون - اليهود - الفتح الإسلامي - المغرب.

Abstract:

The religious coexistence between Muslims and Jews in Morocco reflects a long-standing history of mutual respect and peaceful coexistence that has spanned millennia between the Muslim and Jewish communities. Since the Islamic expansion, Jews in Morocco have enjoyed preserved religious and cultural rights enshrined in Islamic law. Throughout the ages, Jewish communities in Morocco have flourished and made significant contributions to the country's economic and cultural life. Following the Islamic expansion and during the French colonial period, peaceful coexistence between Muslims and Jews persisted amidst evolving political and social dynamics. After independence, Morocco has reaffirmed its values of tolerance and religious coexistence, further strengthening social relations between diverse communities.

Keywords :

Religious coexistence - Muslims - Jews - Islamic expansion – Morocco

المقدمة:

يمثل التعايش الإسلامي اليهودي في المغرب نموذجاً للتعايش الديني السلمي والتعاون الثقافي بين الديانات المختلفة. منذ ماضٍ سحيق. قد عرفت المجتمعات اليهودية والمسلمة في المغرب علاقات متينة ومتبادلة، إذ عاشوا جنباً إلى جنب بأمان واحترام. تمتاز اليهودية المغربية بتمازجها الفريد بين الثقافة اليهودية والعناصر الثقافية العربية والأمازيغية. كانت الطائفة اليهودية تنعم بالحرية الدينية والثقافية، وكانت لها دور مهم في الحياة الاقتصادية والثقافية للمجتمع المغربي. على سبيل المثال، كان لليهود دور بارز في التجارة والصناعة والفنون، مما ساهم في التنمية الاقتصادية والثقافية للبلاد.

لقد تجلى التعايش السلمي بين المسلمين واليهود في المغرب في التعاون في مجالات متعددة، بما في ذلك الفعاليات الدينية والاجتماعية والثقافية. وكانت هناك نماذج للتعاون الوثيق بين الجاليات المسلمة واليهودية في بناء المدارس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية، مما أسهم في تعزيز الروابط الاجتماعية والتضامن بين أفراد المجتمع. بشكل عام، فإن التعايش الإسلامي اليهودي في المغرب يعكس مثلاً إيجابياً على كيفية تعايش الأديان والثقافات بسلام وتعاون، ويظهر القدرة على بناء مجتمعات متعددة الثقافات في إطار من التسامح والتعايش.

حقوق اليهود في الإسلام

قبل التطرق إلى موضوع التعايش الديني بين المسلمين واليهود في المغرب، من الضروري فهم حقوق اليهود في الإسلام. ينص ديننا الإسلامي الحنيف على احترام جميع الديانات السماوية، بما في ذلك اليهودية، ويمنح أتباعها حقوقاً محددة تضمن حرية ممارسة شعائرهم الدينية ومعتقداتهم. فقد حظي أهل الذمة عامة واليهود خاصة بمكانة جيدة في المجتمعات المسلمة، ويعود ذلك إلى الأسباب التالية:

- تعاليم الدين الإسلامي التي تجبر المسلمين على معاملة أهل الذمة معاملة حسنة، والآيات والأحاديث الدالة على ذلك عديدة منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القرآن الكريم: سورة التوبة، الآية 6).

- طبيعة وهدف الفتح الإسلامي والذي يتمثل في السعي لنشر الدعوة الإسلامية في أوساط أصحاب الديانات الأخرى، وتشجيعهم ودفعهم إلى اعتناق الإسلام، باللجوء إلى الوسائل السلمية قدر الإمكان.

يقر الإسلام بالاختلاف في جميع جوانب الحياة، فإذا وجد الاختلاف في المجتمعات البشرية فينبغي أن يكون ذلك من الظواهر الطبيعية، ولا ينبغي لفئة التقليل من قيمة فئة أخرى ولو كانت قليلة، لأن ذلك يوجب العداوة والبغضاء في المجتمع ويثير النزعات الطائفية بين أفرادها، بل ينبغي أن يكون ذلك الاختلاف سبيلاً للتعارف والتواد والتراحم بين أطراف المجتمع الواحد، والسعي لإيجاد المصالح

المشتركة بينهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (القرآن الكريم: سورة الحجرات، الآية 13).

بالنسبة لمن لم يعتنق الدين الإسلامي الحنيف من الأديان الأخرى التي أتى بها الله قبل "بعثة الرسول" محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإن القرآن الكريم لم يعاملهم بازدراء أو يعتبرهم أقل من البشر، ولم ينكر عليهم حقوقهم التي يتمتع بها المسلمون؛ بل أبدى لهم تسامحاً وليناً. وعلى المسلم ألا يتجاهل من يخالفه في العقيدة، بل يدعوهم إلى الله بأسلوب النصح. فإن استجابوا، فهذا خير لهم، وإن اختاروا البقاء على معتقداتهم، فلا إكراه في الدين ما داموا لا يعادون دين الله ولا يحاربون المسلمين... وهذا ما دعا إليه الشرع الحكيم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (القرآن الكريم: سورة الممتحنة، الآية 8).

وجدير بالذكر أن الإسلام قد راعى عدم المساس بمعاهد أو ذمي، إن كان بينه وبين المسلمين عقد ذمة، قال صلى الله عليه وسلم في ذلك: ﴿من قتل معاهداً لم يرحَ رائحة الجنة، وإن ریحها توجدُ على مسيرة أربعين عاماً﴾ (البخاري: رقم الحديث: 3166). والمعاهد هو من كان بينه وبين المسلمين عهد. غالباً ما يُستخدم هذا المصطلح في الحديث للإشارة إلى أهل الذمة، ولكن يمكن أن يُستخدم أيضاً للإشارة إلى غيرهم من الكفار إذا تم التوصل إلى صلح معهم لوقف الحرب لمدة معينة. في هذه الحالة، يكون أمانهم محمياً بناءً على أمر النبي (صلى الله عليه وسلم)، ويُعتبر الاعتداء عليهم جريمة تستوجب العقاب الشرعي.

اليهود في المغرب، التوزيع المجالي واللغة

يعود الوجود اليهودي بالمغرب الى آلاف السنين، عرفت خلاله علاقة اليهود بالمسلمين مداً وجزراً بين التعايش والنزاع، وأدى هذا العامل التاريخي إلى ظهور ثقافة يهودية مغربية ما زال تأثيرها جلياً على المجتمع المغربي إلى اليوم. يقول حاييم الزعفراني في هذا السياق: "...وعلينا أن نقول أولاً، أن هذه اليهودية، هي أيضاً وليدة تربة المغرب، حيث ولدت وترعرعت وعاشت حوالي ألف سنة. فترتبت وتفاعلت مع المحيط، في ظل التقارب اللغوي وتشابه التكوين العقلي، والتضامن الفعال، مع قدر لا يستهان به من المساواة، بل الانسجام الديني. وهي أمور تبلورت في مظاهر العيش اليومي، والمناسبات الفريدة في الحياة، مثل الولادة والزواج والموت وما يرافقها من طقوس واحتفالات، كما تبلورت في مستوى الإبداع الأدبي الشفاهي الشعبي والعامي" (الزعفراني: 1987، ص 8).

وتتضارب الروايات التاريخية بشأن الحقبة الأولى للوجود اليهودي بالمغرب بين ما تقول إنه يعود للعصر الروماني، في حين ترى بعض الروايات أنه يعود إلى ما قبل ذلك، ومن يرى أنها تعود إلى بداية

الفتح الإسلامي بشمال إفريقيا (الزعفراني: 1987، ص 19). ولا مناص من القول إن الوجود اليهودي بالمغرب يتسم بالقدم، إذ تشير أغلب الدراسات «أن قدومهم جاء في أعقاب خراب الهيكل الأول في عام (586 ق.م)» (الخالدي: 2002، ص 186). يقول إبراهيم حركات في هذا الصدد: «وقد كان مجيئهم إلى الشمال الإفريقي في هجرات منقطعة كان أولها مع الفينيقيين، والواقع أن اليهود تمكنوا من معايشة المسلمين في أجزاء كثيرة من المغرب» (حركات: 1984، ص 56). أما بروفنصال فيقول في هذا المقام: «أما في المغرب فقد استوطن اليهود فاس وأغمات، وكانوا يشكلون جزءاً صغيراً من السكان الأصليين للمغرب بجانب البربر والأفارقة والروم» (بروفنصال: 1990، ص 127).

وتوالى بعد ذلك الهجرات، واستقرت وضعية اليهود بالمغرب منذ الفتح الإسلامي وبالذات بعد قيام حكم الأدارسة بالمغرب. إذ «سمح إدريس الثاني لهم بالإقامة واكتسبوا وضعية أهل الذمة، وتزامن ذلك مع الاضطهاد الشديد الذي تعرض له اليهود بإسبانيا بعد اعتناق ملك القوط للكاثوليكية وصدور مرسوم في سنة (700م) يقضي باستبعادهم، حتى أنهم التحقوا بجيوش الفتح الإسلامي المتوجهة للأندلس من أجل العودة إلى الأندلس» (الخالدي: 2002، ص 186).

وخلال الحكم الإسلامي في الأندلس عاش اليهود بسلام وهدوء، ولكن بعد انهيار هذا الحكم ظهرت علامات النفي، والترحيل، والطرده لليهود والمسلمين. ففي عام (1492م) أجبر القهر الإسباني كل المقيمين في إسبانيا والذين يعارضون التحول إلى المسيحية على النزوح. وكان ذلك نهاية لازدهار والإبداع اليهودي في ظل الحكم الإسلامي الذي استمر قروناً، حيث «كانت شبه الجزيرة الإيبيرية مركزاً للثقافة والتقاليد اليهودية. وقد أجبر ما يزيد عن 250000 يهودي على الخروج من إسبانيا توجه بعضهم إلى أوروبا الغربية والبعض الآخر إلى شمال إفريقيا» (مجددي: 1987، ص 104).

ونفس الأمر أشارت إليه برامون دولورس في كتابها (المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا) قائلة: «وفي الأندلس لم تكن لليهود شكوى إبان الحكم الإسلامي، بل كان اليهود يشاركون بشكل أو بآخر في الحياة السياسية، أما عندما استولى الكاثوليك على مقاليد الأمور فقد تغير حال اليهود وتعرضوا للاضطهاد» (برامون: 2004، ص 8).

التعايش الإسلامي اليهودي في المغرب بعد الفتح الإسلامي

لقد عرف وضع اليهود بعد وصول الإسلام للمغرب تأرجحاً بين التضييق وإطلاق الحريات، وفي نهاية القرن السابع الميلادي وصل الفتح الإسلامي إلى المغرب، وشهدت تلك البلاد مرة أخرى مجيء عدد كبير من اليهود. اضطر اليهود في ذلك الحين إلى العيش كأقلية دينية، أو كما عرفوا بـ "أهل الذمة"، وفي عام (1146م)، تدهور وضع اليهود والمسيحيين في المغرب عندما جاءت سلالة الموحدون

إلى السلطة وألغت الجزية (الضريبة التي اضطر أهل الذمة إلى دفعها)، ولكنها طالبت باعتراف اليهود للديانة الإسلامية أو مواجهة القتل، وبحلول القرن الثالث عشر، وعندما وصلت سلالة المرينيين (الذين ينتسبون إلى قبائل زناتة البربرية) إلى السلطة، جرى تخفيف القيود الدينية وسُحح لليهود مرة أخرى بالعيش علناً كيهود. ورغم ذلك: ف«إن إمكانية العيش تحت حكم الإسلام بدت فكرة مرغوبا فيها من قبل اليهود، وذلك قبل وقت طويل من الفتح الإسلامي لإسبانيا لدرجة أنهم كانوا مسرورين ومرحبين بتلك الجيوش القادمة» (شايندلين، 1999، 301).

وتجدر الإشارة أنه عندما طُرد اليهود من إسبانيا والبرتغال عام (1492م)، فرّ آلاف آخرون إلى الحارات اليهودية المغربية المعروفة باسم "الملاح"، أو إلى المناطق والأحياء اليهودية في المدن المخصصة لهم من قبل السلطان، ولم يرحب المسلمون المحليون باللاجئين اليهود الذي وصلوا عقب محاكم التفتيش الإسبانية، وهذا ما أسفر عن تعرض الكثيرين منهم إلى العنف والفقر والجوع والتشرد والصراع من أجل البقاء. ومع حصول المغرب على استقلاله استقرت وضعيتهم هناك وتمت معاملتهم كأهل ذمة، وهي وضعية أطرت سلوك المسلمين إزاءهم، فكان موقفهم قوامه عدم الاعتداء والتعامل في المعروف وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لليهود دينية، أو قانونية، أو وقفية، أو قضائية.

التعايش الإسلامي اليهودي في المغرب خلال فترة الاستعمار الفرنسي

خلال فترة الاستعمار الفرنسي للمغرب (1912-1956)، شهد وضع اليهود استقراراً نسبياً، وذلك نتيجة للتغيرات السياسية والاجتماعية التي فرضتها السيطرة الفرنسية. عملت السلطات الاستعمارية على تعزيز السيطرة الفرنسية على المغرب بطرق عدة، وكان من بين هذه السياسات منح الحماية والرعاية لليهود المغاربة.

استفاد اليهود من هذا الوضع، حيث وفر الفرنسيون لهم حماية أمنية وامتيازات اجتماعية واقتصادية. هذا التأمين والتقدير من قبل الفرنسيين شجع اليهود على تبني عناصر من الثقافة الفرنسية، بما في ذلك اللغة والنمط الحياتي. يقول الزعفراني: "وقد توغلت هذه الثقافة بين الطوائف اليهودية أولاً في الجزائر ثم في تونس، وأخيراً في المغرب، باستعمال اللغة الفرنسية التي جعل منها اليهود لغة حظوة وتحرر ورفي اجتماعي، خصوصاً في أوساط النخبة البورجوازية" (الزعفراني: 1987، ص 16). وتحت رعاية فرنسا، بدأت نخبة يهودية جديدة بالظهور، حيث لم تعتمد على القيادة الدينية التقليدية، بل على النظام الإداري والثقافي الفرنسي.

خلال هذه الفترة، انتقل العديد من اليهود من الأحياء اليهودية التقليدية إلى الأحياء الأوروبية التي توفر لهم بيئة أكثر حداثة. هذا الانتقال لم يكن مجرد تغيير في المكان، بل كان مصحوباً بتبني نمط

حياة عصري، حيث تبني اليهود نمط الحياة الفرنسي، مما أدى إلى تحول كبير في الهوية الاجتماعية والثقافية للمجتمع اليهودي في المغرب.

نتيجة هذا التغيير، أصبح جميع يهود المغرب تقريباً مدنيين بالكامل، يشاركون في الحياة العامة والمجتمع العصري بشكل متزايد. هذه الفترة شكلت مرحلة انتقالية مهمة في تاريخ اليهود في المغرب، حيث شكلت نقاط تحول في تفاعلهم مع البيئة الاستعمارية ومع المجتمع المغربي الأوسع. أدت فترة الاستعمار الفرنسي دوراً هاماً في تشكيل تجربة اليهود المغاربة، حيث تميزت هذه الفترة بمزيج من الاستقرار والتحويلات الاجتماعية والثقافية. شهدت هذه الفترة أيضاً ظهور نخبة جديدة من اليهود المغاربة، وازدياد مشاركتهم في الحياة العامة، وتغير نمط حياتهم بشكل كبير.

التعايش الإسلامي اليهودي في المغرب بعد الاستقلال

هاجر العديد من اليهود عقب استقلال المغرب إلى إسرائيل على الرغم من الضمانات التي قدمتها السلطات، إذ أنه حين استقل المغرب عام (1956م)، أصبحت هجرة اليهود غير شرعية، وبدأت إسرائيل تهربهم خفية، رغم محاولة الملك محمد الخامس إقناع اليهود بأنهم سيواصلون التمتع بالأمن والوفرة، وعين لهذا السبب وزيراً يهودياً في حكومته، ورغم ذلك، فقد هاجر حوالي 30 ألف يهودي إلى إسرائيل في أواخر الخمسينيات بشكل غير شرعي خلافاً لرغبة الحكومة المغربية، وفي أوائل الستينيات، وصل إلى إسرائيل حوالي 80 ألف مغربي يهودي بطرق شرعية. وبالإجمال، هاجر إلى إسرائيل على مرّ السنين 250 ألف يهودي مغربي.

يقول الزعفراني في كتابه السالف الذكر: "بعد منح المغرب المستقل على يد ملكه محمد الخامس - الذي سبق أن عارض سنة (1940م) تطبيق قانون فيشي المعادي لليهود- لليهودي المغربي وضعاً قانونياً مساوياً للوضع القانوني المخول للمواطن المغربي المسلم، وأنعم عليه بحق المواطنة وبال حقوق والواجبات نفسها، وإن تضامن المغرب مع البلدان العربية الأخرى وما نتج من ذلك من عداء صريح ضد إسرائيل من جهة وتعاطف اليهودي الطبيعي مع إسرائيل باعتباره مواطناً لها بالقوة من جهة أخرى، خلقاً جواً من التشكك والريبة وهذا لم يساعد على إنشاء علاقات عادية بين عصري السكان اليهود والمسلمين" (الزعفراني: 1987، ص 75).

لقد خلق قدم استقرار اليهود في المغرب وضعاً مميزاً في بعض المناطق التي استقروا فيها، إذ نجد تواجداً مكثفاً لليهود في بعض الجهات المغربية بشكل مثير، فإلى حدود أواخر القرن التاسع عشر نجد في

قرية "دبدو" المغربية مثلاً حوالي ألفي نسمة من اليهود تقابلها خمسمئة نسمة من المسلمين، إضافة إلى أن مدينة الصويرة كان يشكل اليهود نصف سكانها، بينما شكل المسلمون النصف الآخر، مثلما نجد تواجداً مكثفاً لليهود في مدن الجديدة، من مثل فاس ومكّاس، بالإضافة إلى واحات درعة والأطلس الكبير. وكان يعيش في أربعينيات القرن الماضي في المغرب حوالي ثلاثمئة ألف يهودي، و«لم تكن تخلو مدينة مغربية من اليهود الذين كانوا يشكلون (10%) من سكانها على الأقل، وهو ما خلف أثراً عربياً قوياً في الثقافة الشعبية المغربية، وفي مظاهرها اللغوية والاجتماعية والسياسية، نتج عنه التلاحق الحضاري والتمازج الذي حدث بين اليهود المغاربة والمسلمين المغاربة عبر التاريخ» (ليفي، 2001، ص 16).

لقد برز التواجد اليهودي المكثف في مختلف المناطق المغربية على المستوى اللغوي، من خلال وجود ثلاث مجموعات من المتكلمين اليهود في المغرب، «مجموعة تتكلم بالأمازيغية وتقتن الأطلس، ومجموعة تتكلم الإسبانية وتقتن الشمال، ومجموعة ثالثة تتكلم الدارجة المغربية، في حين ظلت العبرية لغة عالمة ولغة خاصة، لغة النساء أو لغة البيت خاصة» (شروتر: 2011، ص 65).

لقد شكل اليهود أحد العناصر الأساسية في المجتمع المغربي في مختلف الحقب التاريخية، سواء في المدن أو في القرى وهو ما جعل لهم حضوراً هاماً حتى في التشريعات المغربية، حيث ينص الدستور في ديباجته على أن اللغة العبرية تعد مكوناً رئيسياً ورافداً من روافد الهوية والثقافة المغربية، وهو ما أعطى للنظام القانوني والقضائي الوطني تفرداً على المستوى العالمي.

ولا بد من التأكيد على أن اليهود شكلوا إحدى العناصر الأساسية في المجتمع المغربي، إذ لم يكن العنصر اليهودي يغيب عن مختلف المناطق المغربية في المدن والقرى، في مختلف الحقب التاريخية. ورغم التحولات السياسية والاجتماعية المستمرة التي كان يعرفها المغرب، لم يسجل في فترة من الفترات غياب اليهود عنصراً مهماً في التركيبة المجتمعية المغربية، بل لم يكن حضورهم عادياً في مجتمع المغرب الذي يمكن القول بأنه مجتمع مسلم في أغليته الساحقة، إذ إن اليهود تبوأوا مناصب مهمة في مختلف طبقات المجتمع وعلى اختلاف مجالاته الحيوية، فنتحدث في المغرب عن يهودي القرية أو المدينة، ثم اليهودي الحرفي الفقير، ويهودي السلطان أو يهودي البلاط الغني ذو النفوذ والحظوة.

بالإضافة إلى ذلك، فقد شهد العصر العلوي في المغرب وجود أكبر عدد من اليهود في خدمة السلاطين بشكل يفوق ما حصل في أية مرحلة سابقة من التاريخ المغربي، على حد تعبير الكاتب (دانييل شروتر) في كتابه (يهودي السلطان) (شروتر: 2011، ص 32). الذي يرصد فيه وصول اليهود إلى أعلى مراتب النفوذ في الهرم السياسي للدولة المغربية؛ مما يجعل مكانة اليهود ثابتة في تاريخ المغرب باستثناء

بعض الفترات التي عرفت اضطرابات سياسية، كما يحيل الكتاب إلى وجود نموذج متميز من التعايش بين الأعراق والديانات عرفه المجتمع المغربي عبر التاريخ.

يشكل المجتمع المغربي أروع نموذج للتواصل الإنساني الحضاري بين الأديان والثقافات، إن إيمان ملوك الدولة المغربية بأهدافهم الإيجابية والتزامهم بحقوق الأقليات في المجتمع الإسلامي دفعهم ليشركوا الإنسانية مستقبلاً، فما يجمع هؤلاء اليهود وغيرهم من عناصر المجتمع المغربي، كونهم نظراء الإنسانية والعيش المشترك، حيث تفرض عليهم ظروف الحياة وضرورات الرزق التعايش والتفاعل فيما بينهم.

يرى دانييل شروتز أنه يكاد لا يجد أي باحث في التاريخ الاجتماعي والسياسي للعالم الإسلامي اضطهاداً ممنهجاً ضد اليهود، رغم ما يمكن أن يقال عن صورة اليهودي في المعتقد الديني للمسلم، وما أوردته بعض النصوص الدينية عن نصيب الغضب الإلهي الذي ناله اليهود في فترات تاريخية محددة، والتي وصلت حد "المسخ" نظير عصيان الأوامر الإلهية، وفي المقابل فإن أصول التسامح تجاه اليهود تنبع من الاستناد إلى المفهوم الديني الإسلامي "أهل الذمة" الذي يعطي معتنقي الأديان الأخرى غير الإسلام مساحة للعيش في كل المجتمعات المسلمة، وهو ما وفر لليهود إمكانية الاستقرار والاندماج في المجتمع المغربي» (شروتز: 2011، ص 35).

كما يقدم الزعفراني وصفاً لتاريخ من التكافل المستمر بين المسلمين واليهود المغاربة، ويؤكد في كتاباته بأن «التعايش بينهم كان يتحقق في الحياة اليومية وفي الخيال الاجتماعي وفي الثقافة الشعبية... وفي فضاءات الالتقاء هذه تنهار الحدود الدينية والوطنية، ويظل اليهودي المغربي بصفته جزءاً لا يتجزأ من المحيط الاجتماعي والثقافي واللغوي للغرب الإسلامي والعالم الأندلسي المغاربي-القديم» (الزعفراني: 1987، ص 288).

التعايش الديني في المغرب شعاره التسامح

يقر أغلب اليهود بأن المغرب استقبلهم وآواهم بمنطق متسامح، ولم يكن الاستقرار اليهودي مسألة عابرة، بل إن ملاحقة القوى الأجنبية لهم جعلهم يعددون مواطني استقرارهم واختلطوا مع القبائل الأمازيغية بالمغرب في الجبال حتى تهود أفراد من بعض القبائل. ولهذا فقد كان لقدم الاستقرار بالمغرب انعكاسات بالغة على طبيعة اليهودية المغربية.

وتجدر الإشارة أنه في ظل موجات التطرف والعنف والقتل التي تشهدها العديد من الدول في العالم، بسبب التعصب الديني والطائفي الذي يحكم بعض العقليات التي تنبأها بسفك دماء الأبرياء، يبقى

المغرب من البلدان الآمنة، إذ إنه يمكن لأي شخص أن يمارس شعائره الدينية، سواء الإسلامية أو اليهودية أو المسيحية، كيفما شاء ومتى أراد.

ومن هذا المنطلق، فالمغرب يعتبر نموذجاً في التعايش والسلم الاجتماعي، إذ أن التعايش بين الأديان في المغرب ليس وليد اللحظة، بل يعود إلى أزمنة غابرة وتعاقب حضارات عدة، كالحضارة الإغريقية والرومانية والإسلامية، الأمر الذي يفسر وجود دور عبادة مختلفة ومتعددة في جميع مدن المغرب.

وبناء على ذلك، يمكن القول إن تعزيز التسامح الديني والحوار بين الأديان، ظل أحد العناصر الرئيسية في توجه المملكة المغربية، إذ أن التسامح الديني والحوار بين جميع الأديان، جعل المغرب يعيش في الأمن والاطمئنان، ولا شك أن المغرب يكرس جهوده للبحث على التسامح والتعايش السلمي على الصعيدين الإقليمي والدولي. ولا بد من الإشارة إلى أن جل المناطق في المغرب عاش بها اليهود، ليس فقط في مراكش أو الصويرة، بل أيضاً بأقاليم أخرى من البلاد، واللافت للنظر أنهم كانوا يعيشون وسط المسلمين في جو يسوده الاحترام المتبادل.

مجالات تعايش إسلامية يهودية في المغرب

يمكن الحديث عن التعايش بين المسلمين واليهود في المغرب على مستويات متعددة، فحضور اليهود في مختلف مجالات المجتمع المغربي يعد مؤشراً على ما كان يتمتع به هؤلاء من مساحات تسامح مجتمعي مهمة، وهو ما أهلهم ليلعبوا أدواراً مختلفة مهمة ويضمنون حضورهم الثقافي المتميز في المغرب. فعلى المستوى الاقتصادي، أدى اليهود دوراً كبيراً في تحريك عجلة الاقتصاد المغربي إبان فترات استقرارهم، وقد تجلّى ذلك في اهتمامهم بالصناعة، الحرف التقليدية خاصة، ويرجع ذلك إلى تعاليم دينهم التي تفرض على كل يهودي تعليم ابنه حرفة منذ صغر سنه. إذ يعتبر تعليم الابن مهنة من المهن فريضة شرعية، وعموماً يتعلم الابن مهنة والده مثل الصياغة والنجارة. والسبب الثاني هو براعتهم وإتقانهم لمختلف الحرف اليدوية مثل صياغة الذهب والفضة.

كما استطاع اليهود بفضل مساهمتهم الفعالة في الأنشطة الاقتصادية تحسين الوضع الاقتصادي للمغرب، وهو ما أهلهم لتقلد مناصب سامية في المخزن المغربي، إذ احتل عدد منهم مناصب مهمة في السلك الدبلوماسي، فقد كان اليهودي (ميرمان) مستشاراً للهولى إسماعيل، كما تولى اليهودي (بن عطار) باسم المغرب توقيع معاهدة (1721) مع إنجلترا، وهو ما جعل اليهود يحظون بعطف الملوك وحمايتهم، نظراً للأدوار المهمة التي قاموا بها (الزعراني: 1987، ص 84).

كان أغلب اليهود يسكنون في حي خاص بهم يسمى "الملاح"، وهذا الحي نجده في أغلب المدن المغربية العتيقة، مثل فاس وتطوان والرباط وغيرها، إلا أن الملاح كان يتميز عموماً بانفتاحه الكلي، وعدم وضوح حدوده، وتداخل بيوته مع بيوت المسلمين، ولم يكن يختلف عن غيره من الأحياء الأخرى في المدن المغربية العتيقة، فهو ليس أكثر ولا أقل تنظيماً منها.

وعموماً، فقد اكتسب اليهود بالمغرب وضعية أهل الذمة وهي وضعية أطرت سلوك المسلمين إزاءهم، فكان موقفهم قوامه عدم الاعتداء والتعامل في المعروف وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لليهود دينية، أو قانونية، أو وقفية، أو قضائية. ولهذا فقد احتضن المغرب لأكبر طائفة يهودية في العالم الإسلامي. كما أنه يظهر كيف تمتع المسلمون واليهود المغاربة بسلام طبيعي وتعايش ترسخ على مر العصور في الهوية الجماعية المغربية. واقتضت وضعية أهل الذمة منح اليهود الأمان على حياتهم وأموالهم وعدم استرقاقهم وحمايتهم والدفاع عنهم من الاعتداء، وذلك مقابل الجزية التي تعد بمثابة معادل مالي للزكاة، ولا تؤخذ إلا من القادر على القتال من غير المسلمين.

ولهذا أقر بعض الباحثين اليهود بإيجابية وضع أهل الذمة، حيث يقول المؤرخ اليهودي المغربي (حاييم زعفراني) أن "المجموعات اليهودية تمتعت داخل هذا الإطار باستقلال ذاتي كامل إداري وثقافي ووضعت لها نظامها الخاص، وكانت لها محاكمها ومالياتها، وكانت تضمن لتابعيها حقهم في التدين والرعاية والتعليم وتطبيق قانون الأحوال الشخصية، بل وحقوقهم المشروعة فيما بينهم، وكان للطائفة سلطة تنظيمية تلزم أفرادها بكل ما يتعلق بالجوانب الضرائبية والمصالح العامة، كما اعتبره وضعاً قانونياً متسامحاً" (الزعفراني: 1987، ص 128).

تمكن اليهود من العيش في بلاد الإسلام عيشاً يسوده التعايش والتسامح مع جيرانهم المسلمين، وهم يتمتعون باستقلال إداري وقضائي كما سبقت الإشارة، على الرغم من تعرض "قانون الذمة" لانتقادات من بعض المؤرخين.

وفي هذا الإطار، أكد (عمر هلال) السفير الممثل الدائم للمغرب لدى الأمم المتحدة، أن الملك محمد السادس متمسك ومتعلق بقوة بإرث أسلافه الميامين في الحفاظ على التعايش بين المسلمين واليهود المغاربة وتعزيزه، مسلطاً الضوء على الرؤية الملكية بشأن الحفاظ على الإرث والتراث الثقافي اليهودي بالمغرب، والتعايش الطبيعي بين المسلمين واليهود المغاربة، فضلاً عن التوجه المميز للمملكة كأرض لتعايش الأديان والثقافات والشعوب. مذكراً بأن الملك أكد مراراً على ضرورة إدانة معاداة السامية، وعلى زرع قيم التسامح والتعايش الديني في المجتمع المغربي واستخلاص الدروس من الهولوكوست، مع التأكيد على الدور المركزي للتعليم بالنسبة للمغاربة (هلال: 2021).

وللاشارة فالهولوكوست، أو ما يُعرف أيضاً باسم الإبادة النازية لليهود، كانت إبادة جماعية حدثت خلال الحرب العالمية الثانية بين عامي 1941 و1945، قامت ألمانيا النازية، بمساعدة المتعاونين معها، بقتل ما يقرب من ستة ملايين يهودي أوروبي بشكل منهجي، أي حوالي ثلثي السكان اليهود في أوروبا، في حدث يُعدّ مركزياً في تاريخ معاداة السامية. يمثل الهولوكوست أحد أفظع الجرائم ضد الإنسانية في التاريخ المعاصر، ويُذكر كتحذير من مخاطر الكراهية والتعصب والتمييز (المسيحي: 1999، ص 49).

وفي معرض تطرقه لمختلف المبادرات والتدابير التي أطلقها الملك من أجل الحفاظ على التراث والهوية اليهودية للمغرب، شدد هلال على أن ديباجة الدستور المغربي لعام 2011 تقر بدور اليهودية في تاريخ المملكة وتؤكد في المادة 4 من الدستور بأن المكون العبري جزء من روافد الهوية الوطنية، مستشهداً بالمبادرة الملكية لإعادة تأهيل المقابر والأحياء والمعابد اليهودية في المغرب، وكذا ترميم مجموع الآثار اليهودية المغربية، وافتتاح (بيت الذاكرة) وإصلاح المناهج التعليمية لتشمل تدريس الثقافة والتاريخ اليهودي المغربي.

وعلى الرغم من بعض الاختلافات بين المسلمين واليهود والنزاعات التي عرفها الطرفان، فإنهما عرفا تعايشاً بشكل عام بالمغرب، وهذا ما أكده المؤرخ اليهودي المغربي (حاييم الزعفراني) في كتابه (ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب) بقوله: «لاشك أن كلا المجتمعين اليهودي والإسلامي كان يعيش عيشة تختلف عن الآخر، فكل منهما غيور على هويته ومتشبث بإيمانه ومعتقداته، غير أننا نلاحظ في المسار التاريخي الذي يرسم الحياة اليهودية في هذا البلد، فضاءً من التقارب إذ يلتقي المجتمعان ويتعايشان في طمأنينة وسلام، ونلاحظ أيضاً نقاط التلاقي المفضلة، حيث تتجلى مساواة حقيقية في حضن اللغة وتمائل البنى الذهنية... وتوضح وتحقق هذه المساواة على مستوى الحياة اليومية، والاهتمامات الاقتصادية، وفي أفضل لحظات الوجود والتمثيل الاجتماعي والثقافة الشعبية التي لا تعرف حدوداً دينية، ولا مواجهات إيديولوجية وطنية، ولا شعورا دينياً» (الزعفراني: 1987، ص 288). وبالتالي، فإنه رغم اختلاف حياة المجتمعين اليهودي والإسلامي وحرص كل منهما على هويته ومعتقداته، يظهر التاريخ وجود تقارب بينهما. فيلتقي المجتمعان في فضاء من السلام والتعايش، إذ تتجلى المساواة في اللغة والبنى الذهنية، وتوضح في الحياة اليومية والاهتمامات الاقتصادية والثقافة الشعبية التي تتجاوز جميع الحدود.

الخاتمة:

بطبيعة الحال، يعتبر اليهود جزءاً لا يتجزأ من الكيان السياسي والتاريخي والاجتماعي والجغرافي للمغرب، مثلهم مثل باقي الجماعات البشرية الأخرى التي توافدت على هذا المجال منذ أزمنة غابرة، بما في ذلك الهجرات الأمازيغية والعربية بعد الفتح الإسلامي. لقد تواجد اليهود في المغرب منذ ما قبل الإسلام، واستمروا بالقدوم إلى المغرب عبر هجرات متعاقبة. وعلى الرغم من الغياب الواضح في المصادر التاريخية حول تاريخ دخول اليهود إلى المغرب بشكل دقيق، إلا أنهم يُعتبرون من السكان الأصليين للمغرب، وكانت الطائفة اليهودية تتعايش مع باقي المواطنين المغاربة، سواء الأمازيغ أو العرب، في جو يسوده الاحترام والتقدير.

يظهر التعايش السلمي بين المسلمين واليهود في المغرب منذ بدايات لقاءهم، خاصة مع وصول اليهود الفارين من الاضطهاد في أوروبا قبل الفتح الإسلامي، قوة الاحترام المتبادل والتعاون الذي أسهم في تحقيق تطور اقتصادي واجتماعي مستدام. هذا التعاون استمر حتى إعلان قيام دولة إسرائيل في 14 ماي 1948، والذي أدى إلى بدء هجرة اليهود نحوها.

وخلاصة القول، يمكن التأكيد أن التعايش بين اليهود والمسلمين كان السمة الغالبة على العلاقة بينهم في المغرب. فقد أسفر هذا التعايش عن اندماج اليهود كجزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي المغربي، مما جعلهم مكوناً أساسياً في المجتمع. وقد أثر هذا الاندماج بشكل إيجابي على العديد من جوانب الحياة في المغرب، حيث أدى اليهود دوراً حيوياً في مجالات متنوعة، لا سيما في المعاملات التجارية والمالية. وقد كانت مساهماتهم ملحوظة في تطوير التجارة والنظام المالي، حيث جلبوا خبراتهم ومعارفهم وأساليبهم الخاصة، مما أدى إلى ازدهار هذه المجالات خلال فترة استقرارهم في البلاد.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- إبراهيم أنيس، وآخرون. المعجم الوسيط، انتشارات ناصر خسرو، طهران، ج 2، 1972م.
- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الرشاد الحديثة، 1984م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، (د.ت).
- ابن منظور، محمد بن مكرم أبو الفضل. لسان العرب، مادة عيش، دار صادر، بيروت، ج 6، ط 3، 1414هـ.
- الأصبهاني، الراغب. الذريعة إلى مكارم الشريعة، مراجعة: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ط 1، 1973م.
- البديوي، طه. السلام الاجتماعي والتعايش السلمي، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010م.
- برامون، دولورس. المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا، ترجمة: رانيا محمد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، القاهرة، 2004م.
- بروفنصال، ليفي، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد محمود عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح الدين حلبي، ط 1، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1990م.
- بن عزوز، عبد القادر. التعايش السلمي بين الإسلام والغرب، مجلة كلية العلوم الإسلامية، الصراط، السنة الرابعة، العدد 8، الجزائر، 2004م.
- التويجري، عبد العزيز، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، ط 1، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 1980م.
- الجراري، عباس. مفهوم التعايش في الإسلام، مقال منشور بمجلة الإسلام اليوم، العدد 14، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم، 1417هـ.
- جيلالي، بوتمة وخليفي الشيخ. أسس وضوابط التعايش الديني من منظور محمد الطاهر ابن عاشور، مجلة المعيار، المجلد 25، العدد 56، الجزائر، 2021م.

- حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ، ثقافة، دين، ترجمة: أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط 1، الدار البيضاء، 1987م.
- الخالدي، خالد يونس. اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس 92-897هـ / 711-1492م، منشورات دائرة الثقافة والاعلام، الشارقة، 2002م.
- دانييل شروتز. يهودي السلطان، تعريب: خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط أكادال، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط 1، الرباط، 2011م.
- الزحيلي، محمد. الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية: أبعادها وضوابطها، (د.ت).
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1، ج 2، 1997م.
- شايندلين، ريموند. اليهود في اسبانيا المسلمة، ترجمة: مريم عبد الباقي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج 1، تحرير سلهي الجيوسي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1999م.
- شبوط، محمد عبد الجبار. خطوات في بناء الدولة الحديثة، مجلة المواطنة والتعايش، المجلد 2، العدد 1، مركز وطن للدراسات، بغداد، 2007م.
- شمعون ليفي، محاولات في التاريخ والحضارة اليهودية المغربية، مركز طارق بن زياد، ط 1، الرباط، 2001م.
- عمارة، محمد. في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 2، 2007م.
- الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، ج 5، 1987م.
- القرضاوي يوسف. ملاحم المجتمع المسلم الذي ننشده، (د.ت).
- قطب محمد صانوق، في التواصل مع الآخر معالم وضوابط ووسائل، (د.ت).
- الكعبي، علي عطية. التعايش السلمي بين الأديان السماوية في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دول الطوائف، مكتبة عدنان للطباعة والنشر، بغداد، ط 1، 2014م.
- مجدي، علي عطية. يهود اسرائيل ومشكلات التغيير الاجتماعي، السياسة الدولية، العدد 87، يناير 1987م.
- الموقع الرسمي لوكالة المغرب العربي للأنباء، السفير عمر هلال: ملوك المغرب ضامنون لحقوق جميع المؤمنين، <https://www.mapnews.ma/ar/actualites/>.

الثورة الحسينية في الأدب الأندلسي

The Husseini revolution in Andalusian literature

الدكتور سيدعلي موسوي نسب
الأستاذ المشارك في جامعتي طهران و پیام نور الإيرانية
Seyedali770@pnu.ac.ir

الملخص:

إن الثورة الحسينية التي هي العلة المبقية للإسلام، انتشرت في البلاد، وتأثرت الثورات التحريرية منها و اقيمت مواكب العزاء في شهري محرم و صفر في العالم العربي و الاسلامي، و امتدّت حتّى إلى أوروبا و أمريكا، و نخصّ بالذكر الاندلس، و هي من البلدان التي تأثرت بأهل البيت و أحبّتهم على الرغم من أنّ الحكومات التي تعاقبت عليهم كانت اموية لم يكن هواها مع اهل البيت عليهم السلام، إلاّ أنّ المسلمين هناك قد أحبّوا أهل البيت خصوصاً الامام الحسين. في هذا المقال درسنا الثورة الحسينية في أدب الاندلس و درسنا الشعائر و الأهداف الحسينية عند الأدباء الاندلسيين. و يهدف هذا البحث الى بيان مظاهر التشيع في الأدب الأندلسي عاماً و الادب الحسيني خاصاً و دراسته الشعراء و الادباء المتشيعين، حتى يتوصل في النتيجة الى أن التشيع كان حاضراً في هذا المجتمع بمظاهرها الجميلة وخالصه كما هناك الكثير من الادباء والشعراء من الشيعة الذين تركوا آثاراً قيّمة في رثاء الحسين و ثورته التحريرية.

الكلمات الدلالية: الثورة الحسينية، الأدب الأندلسي، أهل البيت، الرثاء.

Abstract:

Hussein's revolution, which is the cause of the survival of Islam, was able to spread in different cities and influence the liberating revolutions. Mourning groups were established in the months of Muharram and Safar in Arab and Islamic countries and even extended to Europe and America. In the meantime, Andalusia is one of the countries that, despite being ruled by the Umayyads, was influenced by the Ahl al-Bayt school and the Husseini's uprising, and the people of this European country expressed their love and affection for the Ahl al-Bayt of the Prophet (Peace and blessings of Allah be upon Him) and Imam Hussein. In this article, we examined Hussein's uprising in Andalusia and Hussein's rituals and goals considering the viewpoints of Andalusian scholars. The purpose of this research is to explain the manifestations of Shiism in general, and to explain the Husseini's uprising in particular, in the eyes of Andalusian Shiite scholars and poets.

The result obtained from this research is that Shi'ism has had an active and influential presence in this Umayyad country, and the scholars of this country left their valuable works in the field of Hussein's mourning and his liberation movement.

Key words: Hussein's Uprising, Andalusian Literature, Ahl al-Bayt, Mourning

المدخل:

اسم الحسين بن علي عند الشيعة رمزٌ لشيء عميق الدلالة كما يرمز العاشق بالغزال إلى محبوبته، وإن كلمة الحسين عند الشيعة تكون مبدأ الفداء، وما الحسين إلا مظهر ومثال لهذا المبدأ في أكل معانيه. وأدّل دليل على هذه الحقيقة هو أدب الشيعة الثمين، فإذا رجعنا إلى التراث الأدبي لشيعة أهل البيت وجدناه يعكس الاحتجاج الصارخ على الظلم والظالمين في كل زمان ومكان. وأدباء الشيعة خصوصاً شعرائهم يرمزون باسم الحسين إلى ذلك الاحتجاج، لأن الحسين أعلى مثال وأصدق على ذلك، كما يرمزون إلى الفساد والطغيان بيزيد وبنو أمية وآل أبي سفيان وآل زياد وآل مروان، لأنهم يمثلون الشرّ بشقّي جهاته وفساد جميع خصائصه.

ثم إن التطور لم يقف عند حدود المادة، بل تعدّاها إلى الأفكار واللغة، لأنها جميعاً متلازمة متشابكة لا ينفك بعضها عن بعض. وكلمة الحسين كانت في البداية اسماً لذات الحسين بن علي بن أبي طالب، ثم تطوّرت مع الزمن وأصبحت عند الشيعة بل عند الأحرار رمزاً للبطولة والجهاد من أجل تحرير البشر من الظلم والاضطهاد وعنواناً للفداء والتضحية بالرجال والنساء والأطفال لإحياء دين محمد صلى الله عليه وآله، كما قال الحسين نفسه: «أمضي على دين النبي» (المجلسي، 1403، ج 45 ص 49). وأما كلمة «يزيد» فقد كانت من قبل اسماً ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثم صارت رمزاً للفساد والاستبداد والتبذير والخلاعة والإلحاد والزندقة، فحيثما يكون الشرّ والفساد فثمّ اسم «يزيد»، وحيثما يكون الحق والإيمان فثمّ اسم «الحسين». فكبلاء اليوم هي فلسطين المحتلة والغزّة والضفة الغربية وبنان والسوريا، فكلّ أرض كربلا وكلّ يوم عاشورا، كما قال الشاعر الشيخ عبدالحسين الأعمى النجفي (الأمين، 1378، ص 112):

كأنّ كلّ مكان كربلاء لدى عيني وكلّ زمان يوم عاشورا

فكلّ ثورة على الظلم والطغيان تقوم في مشارق الأرض ومغاربها هي ثورة حسينية من هذه الجهة، لأنّ الظلم كرهه وبغض بحكم العقل والشرع، وأيّ إنسان ضحى بنفسه في سبيل الخير والإنسانية ليست وقفاً على دين من الأديان أو قومية من القوميات. ومن لا يهتمّ إلا بنفسه ويساند أهل البغي والفساد حرصاً على منفعتهم فهو على دين يزيد وابن زياد.

وهكذا كانت ثورة الحسين غطت بسناها المشارق والمغرب واستخدمت العقول والأفكار، فهي نور يتوهج في قلوب المسلمين فيندفع إلى أفواههم مدحا وثناء، وهي أنشودة العزّ في فم الأجيال تهزّ القلوب وتطريها وتحيي النفوس بالعزائم الحية، وذلك لأنّ هدف الحسين ما كان هدفاً خاصاً حتى تختصّ به فئة دون فئة، بل كان هدفاً عالمياً، فعلى كلّ ذي شعور حيّ أن يحتفل بذكره.

التشيع في الأندلس:

دخل التشيع في الأندلس عن طريقين: 1. عن طريق الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق وأخذوا من الثقافة الشيعية. و أول من نقل شيئاً من الثقافة الشيعية إلى الأندلس هو محمد بن عيسى القرطبي المعروف بالأعشى (ت 221 هـ) رحل في سنة 179 هـ إلى العراق، وعند مراجعته إلى الأندلس نقل بعض كتب وكيع بن الجراح من محدثي الشيعة، وقد عرض عليه القضاء في الأندلس فرفض، وكان يذكر فضل علي بن أبي طالب ويتخذة قدوته في حياته. و من رحل إلى العراق لنقل الثقافة الشيعية هو عباس بن ناصح الثقفي الشاعر الذي أوفده عبدالرحمن الأوسط سنة 201 في التماس الكتب القديمة. 2. عن طريق بعض المشاركة الذين باشرنا نشاطا دعائيا في الأندلس أو قاموا بدور التجسس لمصلحة مواليم الشيعة. (المكي، 1424، ص 16).

الأدب الشيعي في الأندلس

كان أدب الشيعة أول أدب سياسي حاول شعرائهم أن يحتجوا فيه على خصومهم، مدافعين عن نظريتهم في الإمامة، وقد كان أدب الشيعة يمتاز بصدق العاطفة وقوة الشعور الديني، ولذلك كانت مدائح شعرائهم تختلف عن مدائح غيرهم، لما فيها من الحرارة والإخلاص. وكان الشعر الشيعي في الأندلس صورة صادقة للتشيع الأندلسي، و ظهر فيه رثاء اهل البيت وخاصة رثاء سيد الشهداء الإمام الحسين. قال لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ) في كتابه أعمال الأعلام: «لم يزل الحزن متصلاً على الحسين، و المآتم قائمة في البلاد يجتمع لها الناس ليلة يوم قتل فيه يعني ليلة عاشوراء، و لا سيما بشرق الأندلس يقيمون رسم الجنازة في شكل من الثياب و يحتفل بالأطعمة و الشموع و يوقد البخور و يجلب القراء و يتغنى بالمرثي الحسينية». (ابن الخطيب، 203، ص 131).

وقد رثى جمع من الشعراء الأندلسيين شهيد الطف الإمام الحسين شير في هذا المجال إلى بعضهم: 1. أحمد بن دراج القسطلي. و هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الأندلسي القسطلي، كان كاتب المنصور ابن أبي عامر و شاعره. قال ابن خلكان: «و هو معدود من جملة الشعراء المجيدين و العلماء المتقدمين. و قال في يتيمة الدهر في حقه: كان بصقع الأندلس كالمثني بصقع الشام. كان معاصراً لآل حمود، و هم من سادة الأدارسة الحسينيين في الأندلس. ولد في «قسطلة» سنة 347 هـ و مات سنة 421 هـ». (ابن خلكان، 1978، ص 135) و قد نظم قصيدة أشار فيها الى ما عاناه أهل البيت عليهم السلام من مصائب و رزايا، قال ابن بسام عن تلك القصيدة الغراء: «و هي من الهاشميات الغرلو قرعت سمع دعبل بن علي الخزاعي و الكميث بن زيد الأسدي لأمسكا عن القول، بل لو رآها السيد الحميري و كثير عزة لأقامها بينة على الدعوى. و تبدء هذه القصيدة ببكاء شجي بكاء تجهش به قلوب الشيعة في

كلّ مكان». (الأمين، 2001، ج 4 ص 24) يقول هذا الشاعر الشيعي الأندلسي في قصيدته التي تزيد على سبعين بيتاً مشيراً إلى الحسين وإلى آل الرسول عليهم السلام (ابن درّاج، 1381، صص 81-79) :

إلى الهاشمي إلى الطالبي	إلى الفاطميّ العطوف الوصُول
إلى ابن الوصيّ إلى ابن النبي	إلى ابن الذبيح إلى ابن الخليل
إلى المستجار من المستجير	إلى المستقال من المستقيل
إلى المستضاف المليك العزيز	من المستضيف الغريب الدليل
سلامٌ وأنت ابن بدء السلا	م من ضيفه المكرمين الدخول
غداً يضيف أهل السماء	إلى منزل ألفٍ للتزليل

إلى أن قال:

فسمي جدك عمرو الكرام (1)	بهشم الثريد زمان المحول
و «شبية» ساقى الحجيح الكفيل (2)	بمأوى الغريب وقوت الخليل
و ضيف حتى وحوش الفلاة	وأهدى القرى لهضاب الوعول
وإنّ أباطال للضيوف	لأطلب من ضيفه للحلول
ولا مثل والدك المصطفى	لركب وفودٍ وحيّ حلول

إلى أن قال:

فأنتم هداة حياة وموت	وأنتم أئمة فعلٍ وقيل
وسادات من حلّ جنّات عدنٍ	جميع شبابهم والكهول
وأنتم خلائف دنيا ودين	بحكم الكتاب وحكم العقول
ووالدكم خاتم الأنبياء	لكم منه مجد حفيّ كفيل
تلذّ بملككم عاتقاه	على حملة كلّ عبءٍ ثقيل
ورحبّ على ضمّم صدره	إذا ضاق صدر أب عن سليل
ويطره الوحى وهناً وأنتم	ضجيعاه بين يدي جبرئيل
وزودكم كلّ هدي زكيّ	وأودعكم كلّ رأي أصيل.

2. صفوان بن ادريس التجيبي المرسي. وكنيته: ابوالبحر، ولد في المرسية سنة 561 هـ وتوفي فيها سنة 598 هـ. قال السيد شبر في أدب الطف: «أفادنا ابن الخطيب بنقله نموذجاً لهذه المراثي (مراثي الحسين الشهيد) مدى عناية الشعراء بهذا الموضوع وعرّفنا بأحد شعراء الشيعة في الأندلس الذي اشتهر برثاء

سيدنا الحسين وهو أبوالبحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسبي، وهذه القصيدة كانت مشهورة ينشدها المسمعون وهي كما يلي (شبر، 1409، ج 4 ص 11-13):

سلام كأزهار الربى يتنسم
على مصرح للفاطميين غيبت
على مشهد لو كنت حاضر أهله
على كربلا لا أخلف الغيث كربلا
مصارع ضجت يثرب لمصابها
ومكة والأستار والركن والصفاء
وبالحجر المثلث عنوان حسرة
وروضة مولانا النبي محمد
ومنبره العلوي للجدع أعولا
ولو قدرت تلك الجمادات قدرهم
وما قدر ما تبكي البلاد وأهلها
لو أن رسول الله يحيي بعيدهم
وأقبلت الزهراء قدس تربها
تقول: أبي هم غادروا ابني نهبه
سقوا حسناً للسم كأساً روية
وهم قطعوا رأس الحسين بكربلا
نغد منهم ثاري وسكن جوانحا
أبي وانتصر للسبط واذكر مصابه
وأسر بنيه بعده واحتمأهم
ونقر يزيد في الثنايا التي اغتدت

على منزل منه الهدى يتعلم
لأوجههم فيه بدور وأنجم
لعاينت أعضاء النبي تقسم
والآ فإن الدمع أندى وأكرم
وناح عليهم الحطيم وزمزم
وموقف جمع والمقام المعظم
ألت تراه وهو أسود أسحم
تبدى عليه الشكل يوم تخرم
عليهم عويلاً بالضمائر يفهم
لذك حراء واستطير يللم
لآل رسول الله والرزء أعظم
رأى ابن زياد أمه كيف تعقم
تنادي أباه والمدامع تسجم
كما صاغه قيس وماج أرقم
ولم يقرعوا سناً ولم يتندموا
كانهم قد أحسنوا حين أجزموا
وأجفان عين تسطير وتسجم
وغلته وانهر ريان مفعم
كانهم من نسل كسرى تغنموا
ثناياك فيها أيها النور تلمم

3. محمد بن هاني الأندلسي. وكنيته: ابوالقاسم، ولد بقرية «سكون» من قرى مدينة اشبيلية سنة 326 هـ، وقُتل في رجب سنة 362 هـ وعمره 36 سنة. وأبوه هاني أيضاً كان شاعراً أديباً. كان ابن هاني حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم، وشعره طاف بالتشيع ولا تظهر في شعره إلا عاطفته الدينية و خصوصاً الشيعة الإمامية كقوله (ابن هاني، 1400، ص 306):
لي صارم وهو شيعي كامله
يكاد يسبق كراتي إلى البطل.

وقوله (نفس المصدر، ص 134):

فكلُّ إمامي يحيي كأنما
على خده الشعرى وفي وجهه البدر.

ومن روائع شعره (نفس المصدر، ص 144):

و لم أجِدِ الإنسانَ إلا ابنَ سعيه
فَنَ كانَ أسعى كانَ بالمجدِ أجدرا

و بالهمة العلياً يرقى إلى العلى
فَنَ كانَ أرقى همةً كانَ أظهرها

و لم يتأخرَ من يريد تقدُّماً
و لم يتقدمَ من يريد تأخراً

قال ابن خلكان: ليس في المغاربة من هو أفصح منه لا متقدميهم ولا متأخريهم، بل هو أشعرهم على

الإطلاق، وهو عند المغاربة كالمثني عند المشاركة. (نفس المصدر، ص 6)

قال في القصيدة التي يمدح بها المعز لدين الله الفاطمي (نفس المصدر، ص 355):

قد جاء أمر الله و اقترب المدى
من كل مطلع و حان الحين

و رمى إلى البلد الأمين بطرفه
ملك على سِرِّ الإله أمين

لم يدِرْ ما رَجَمُ الظنون و إنما
دفع القضاء إليه و هو يقين

كذبت رجالاً ما ادعت من حَقِّكم
و من المقال كأهله مأفون

أبني لؤي أين فضل قديمكم
بل أين حلم كالجبال رصين

نازعتم حق الوصي و دونه
حرم و حجر مانع و ججون

ناضلتموه على الخلافة بالتي
دت و فيكم حدها المسنون

حرفتموها عن أبي السبطين عن
زَمَج و ليس من الهجان هجين

لو تتقون الله لم يطمح لها
طرف و لم يشمخ لها عرينين

لكنكم كنتم كأهل العجل لم
يُحفظ لموسى فيهم هارون

ماذا تُريد من الكتاب نواصب
لأجاب أن محمداً محزون

هي بغية أظلمتموها فارجعوا
وله ظهور دونها و بطون

ردوا عليهم حكمهم فعليهم
في آل ياسين ثوت ياسين

البيت بيت الله و هو معظم
نزل البيان و فيهم التبيين

و الستر ستر العيب و هو محجب
و النور نور الله و هو مبین

و قال في قصيدته الأخيرة (نفس المصدر، ص 323 و 324):

ألا إن يوماً هاشمياً أظلمهم
يطير فراش الهام عن كل مجثم

كيوم يزيد و السبايا طريدة
وقد غصت البيداء بالعيس فوقها
ذُعرن بأبناء الضباب وأعوج
يشلونها في كل غارب دوسر
فما في حريم بعدها من تخرج
فإن يتخرم خير سبطي محمد
ألا سائلوا عنه البتول فتخبروا
إلى أن قال:

و أولى بلوم من امية كلها
أناس هم الداء الدفين الذي
وإن جل أمر من ملام ولوم
إلى رمم بالطف منكم وأعظم. (3)

4. ناهض الوادي. و هو ناهض بن محمد بن إدريس الحكمي، و كنيته أبوالحسين، لم يذكر في المصادر تاريخ ولادته، و لكن ذكروا أن وفاته كانت سنة 615 هـ ببلدة «وادي آش» من الأندلس (المقري، 1388، ج 5 ص 71). و هو من شعراء القرنين السادس و السابع. له قصيدة في رثاء الحسين (ع) أثبت ستة عشر بيتاً منها المقري في نفح الطيب. في هذه القصيدة رقة في العاطفة و حرارة في الأحاسيس و صداقة و نسياب و تلقائية في العبارة و متانة في البناء مع ايمان قوي بإحقاق الحق و الانتصاف من الجناة. قال في نفح الطيب: «و قد تذكرت هنا قول ناهض بن محمد الأندلسي الوادي آشي في رثاء الحسين رضي الله تعالى عنه (المقري، 1388، ج 5 صص 70-71):

أمرنة تجعت بعود أراك
أجفاك إلك أم بليت بفرقة
لو كان حقاً ما ادعت من الجوى
أو كان روعك الفراق إذا لما
و لما ألفت الروض يارج عرفه
و لما اتخذت من الغصون منصة
و لما ارتديت الريش برداً معلماً
لو كنت مثلي ما أفقت من البكا
إيه حمامة خيريني إنني
أبكي قتل الطف فرع نبينا

قولي مؤهلة: علام بكاك؟ (4)
أم لاح برق بالحمى فشجاك؟
يوماً لما طرق الجفون كراك
ضنت بماء جفونها عيناك
و جعلت بين فروعه مغناك
و لما بدت مخضوبة كفاك
و نظمت من قزح سلوكك طلاك
لا تحسي شكواي من شكواك
أبكي الحسين، و أنت ما أبكاك؟ (5)
أكرم بفرع النبوة زاكي

ويل لقوم غادروه مُضرجاً
متعفراً قد مُرقت أشلاؤه
أيزيد لورا عيت حُرمة جدّه
أو كنت تُصغي إذ نُقرت بثغره
أتروم ويك شفاعةً من جدّه
ولسوف تُنبذ في جهنم خالداً
بدمائه نضواً صريع شكاك
فرياً بكل مهند فتاك
لم تقتنص ليث العرين الشاكي
قرعت صماحك أنه المسواك
هيات! لا، ومدبر الأفلاك
ما الله شاء ولات حين فكاك.

5. الجراوي. أبو العباس أحمد بن عبد السلام، شاعر اديب مغربي وُلِدَ بـ«فاس» سنة 528 هـ، كان شاعر الدولة الموحدية الأولى، نفاه يعقوب المنصور إلى قرطبة، وتوفي بـ «إشبيلية» سنة 609 هـ، له ديوان شعر وكتاب «صفوة الأدب ونبذة ديوان العرب». للجراوي قصيدة في 93 بيتاً رثى بها الحسين (ع) على نهج قصيدة «قفانبك» لامرء القيس، (الجراوي، 1994، ص 8) قال:

خليلي دعوى برحت بخفاء
وهذا من الصبر الجميل بناي
فقا ساعداني لات حين عزائي
فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
أترك ربع للرسالة سبب
ولا تنهي فيه العيون وتسكب
و تطلع أعناق الذنوب وتنب
بسقء اللوى بين الدخول فحومل

إلى أن قال:

ألا يا رسول الله صدري توهجا
فعطلت جيد اليأس من حيلة الرجا
لمصرع سبط في الدماء تضرجا
فتعسا لأقوام يريدون لي نجا

يقولون لا تهلك أسي وتجملي
على مثل ما أمسي من الحب أصبح
زناد فؤادي باللوايح تقدح
ولو أن قلبي للتجلد يجنح
لفاضت جفوني بالسواكب تطفح

على النحر حتى بل دمعي مجلي
عهد مصابي امت يد فاسخ
ومحكمة لا يتقي حكم ناسخ
فلو أشتكيه للنجوم البواذخ
لعالت بنعي السبط صرخة صارخ
فقلت لك الويلات إنك مرجلي

أقول لحزنٍ في الحسين تأكّدا
ولو غير هذا الرّزّ راح أو اغتدى
تملّك فؤادي متهماً فيه منجدا
لناديته قبل الوصول مردّدا
عقرت بعيري يا امرء القيس فانزل

الى أن قال:

أيا فاسقاً قاد الغرور شكائمه
تهباً ليوم الحشر تجرع علاقته
فأورد في صدر الحسين صوارمه
فمالك منجي من خصومة فاطمة

و ما إن أرى عنك العماية تنجلي

حصيلة البحث: أنّ الأندلس على رغم أنّها كانت اموية انتشرت الثورة الحسينية اليها، و تأثرت الاندلس من نهضة كربلاء، بحيث كانت النياحة على الحسين الشهيد (ع) و إقامة شعائر الحزن و الأسى عليه قد تداولها المسلمون في الأندلس، و الشعراء الكبار فيها رثوا حسيناً في مجموعات الشعرية. و تشهد فيها رقّة في العاطفة و حرارة في الأحاسيس و صداقة و انسياب و تلقائية في العبارة و متانة في البناء مع ايمان قوي بإحقاق الحق و الانتصاف من الجناة.

التعليقات:

1. يشير الى «هاشم بن عبد مناف» الجد الأعلى لرسول الله (ص)، و اسمه: «عمرو».
2. «شبية» هو أبو طالب عم النبي الاعظم (ص).
3. أراد ب «اناس» أهل السقيفة الذين كانوا في الحقيقة سبب قتل الحسين و أصحابه في كربلاء.
4. «الموار»: المتحرك، و الملاط: الجانب، أراد: الجمل السهل السير السريعة و العثم: الجمل الشديد الطويل.
5. المخاطبة هي حمامة يتصورها باكية موهمة. «إيه» بكسر الهاء اسم فعل أمر، معناه: الاستزاده من حديث معهود. و إذا نُونَ كان للاستزاده من أيّ حديث كان. (ر. الصحاح، «إيه»)

المنايع و المآخذ:

1. ابن الخطيب، محمد بن عبدالله (2003). أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام. بيروت: دار الكتب العلمية.
2. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (1978). وفيات الأعيان و أبناء أبناء الزّمان. بيروت: دارصادر.
3. ابن درّاج القسطلي، أحمد (1381-). ديوان ابن درّاج (الطبعة الاولى). دمشق: منشورات المكتب الاسلامي بدمشق.

4. ابن شعبة الحرّاني، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين (1404). تحف العقول عن آل الرسول (الطبعة الثانية). قم: مؤسسة النشر الاسلامي.
5. ابن هاني الأندلسي، محمد (1400). ديوان ابن هاني الأندلسي، التحقيق: كرم البستاني. بيروت: دار بيروت للطباعة و النشر.
6. الأمين، السيد حسن (2001). دائرة المعارف الاسلامية الشيعية (الطبعة الثالثة). بيروت: دارالتعارف للمطبوعات.
7. الأمين العاملي، السيد محسن (1378). الدرّ النّضيد في مرآثي السّبط الشّهيد. قم: نشر الشّريف الرّضي.
8. الجراوي، أحمد بن عبدالسلام (1994). ديوان أبي العباس الجراوي، جمعه و حقّقه: علي إبراهيم كردي. دمشق: دار سعد الدين.
9. شبر، السيد جواد (1409). أدب الطّف أو شعراء الحسين (ع) من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر (الطبعة الاولى). بيروت: دارالمرضى.
10. المجلسي، محمدباقر (1403). بحار الأنوار. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
11. المقرّي، أحمد بن محمد (1388). نفع الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، حقّقه: الدكتور إحسان عبّاس. بيروت: دارصادر.
12. المكي، محمود علي (1424). التشيع في الأندلس منذ الفتح حتّ نهاية الدّولة الامويّة (الطبعة الاولى). القاهرة: . مكتبة الثقافة الدينية.
13. النوري الطبرسي، الميرزا حسين (1407). مستدرک الوسائل و مستنبط المسائل (الطبعة الاولى). قم: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

تمكين المرأة في العراق وسبل تنميتها -دراسة جغرافية

Empowering women in Iraq and ways to develop them - a geographical study

الاستاذ الدكتورة صفية شاكر معتوق

مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة جمهورية العراق

البريد الالكتروني: Safia.ALMutawri@uobasrah.edu.iq

المستخلص:

تعد المرأة من الموارد البشرية المهمة التي تلعب دورا كبيرا في عملية التنمية فلا يمكن تحقيق التنمية في أي بلد، من دون إشراك المرأة في صنعها، فالمرأة تشكل نصف الحاضر والمستقبل كله، لذلك فإن تهميشها واقصائها من متطلبات الحياة يجعلها طاقة معطلة ومورداً غير مستثمراً مما يدفع باتجاه تمكينها لضمان مشاركتها الفاعلة في صناعة القرار وعنصراً فاعلاً في عملية التغيير الذي يضمن استدامة التنمية وتحقيق الرفاهية للمجتمع .
تعاني المرأة العراقية لسنوات سابقة من التهميش وأن قضية تمكين المرأة ومدى مشاركتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع العراقي تعتبر مشكلة تزداد بشكل واضح في المجتمعات التي تحصر دور المرأة في الاهتمام بالمنزل وإنجاب الاولاد، ولاسيما ان القانون العراقي الذي يساوي بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات.
الكلمات المفتاحية: تمكين المرأة، تهميش المرأة، نصف الحاضر ، كل المستقبل.

Abstract

Women are one of the important human resources that play a major role in the development process. It is not possible to achieve development in any country, without involving women in its making. Women constitute half of the present and the whole future. Therefore, their marginalization and exclusion from the requirements of life makes them an idle energy and an untapped resource, which pushes towards Empowering them to ensure their active participation in decision-making and as an active element in the process of change that ensures sustainable development and the achievement of community well-being.

Iraqi women have suffered for years from marginalization, and the issue of women's empowerment and the extent of their participation in the economic and social life in Iraqi society is a problem that is clearly increasing in societies that limit the role of women to taking care of the home and having children, especially since the Iraqi law, which equals between men and women in rights and duties .

Keywords: empowering women, marginalizing women, half of the present, all of the future.

المقدمة:-

يعد تمكين المرأة إحدى الركائز الأساسية لهيئة الأمم المتحدة ويعد توسيع الفرص أمام المرأة عاملاً حاسماً في تمكينها. إن مشاركة المرأة في الحياة العامة تنسجم مع "مبادئ الديمقراطية" التي تناهض التمييز وتحقق المساواة بين الجميع كمفاهيم لتحقيق التعايش السلمي والاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وإن إبراز دور المرأة في بناء المجتمع لما تمتلك من إمكانيات متنوعة يسهم في عملية تمكين المرأة والتنمية التي تقوم على إتاحة الفرص للجميع في العمل والبناء دون وضع معوقات على أسس ضيقة تمنع البعض من المشاركة في صناعة القرار، تعاني المرأة في مناطق كثيرة من العالم وخاصة الدول العربية من ظاهرة التهميش وبشكل متفاوت، لذلك فإن "التهميش هو عبارة عن عملية مضادة للتمكين تمنع الأفراد من الحصول على القوة اللازمة التي تؤهلهم للحصول على حقوقهم، وعلى الرغم من المحاولات للتغلب على المعوقات وفي مجالات شتى إلا أنها لم ترتق إلى المستوى المطلوب الذي يتناسب مع دورها الإنساني في رفد المجتمع بمستلزمات إيجابية تسهم في تحقيق الاستقرار والتنمية وعليه ومن منطلق المساواة يجب إفساح المجال للمرأة لتؤدي دورها في البناء والتطوير ومنحها لفرصة لتثبيت حضورها من خلال المساهمة والمشاركة في كافة المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وإزالة كافة الظروف التي تشكل عائقاً أمام تمكينها من حقوقها.

مشكلة البحث: تعد قضية تمكين المرأة في مجتمعنا مشكلة باتت تهدد أمننا القومي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي، من خلال عدم تمكين المرأة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. وقضية عدم التمكين تعتبر ذات اتجاهات اجتماعية متعددة، ومستمدة من العادات والتقاليد والقيم السائدة في المجتمع التي مازالت تشكل موروثات ثقافية بالغة الأثر في هذا الاتجاه وأن عدم تمكين المرأة مشكلة تواجه الكثير من المجتمعات النامية، بل وأحياناً المتقدمة، وعدم التمكين هذا يظهر في صور متعددة لعل أهمها هو عدم المساواة بين الرجل والمرأة الأمر الذي يؤدي إلى وجود تمييز في المجتمع مما يولد الكثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية.

فرضية البحث: بالرغم من تنامي دور المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، إلا أنه ما زال دون الطموح، فهناك الكثير من أشكال المعوقات التي تعيق انخراط المرأة في ميادين التنمية الشاملة، وإن هناك تأثير لثقافة المجتمع وقيمه على تمكين المرأة في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وإن غياب المساواة بين الرجل والمرأة يشكل عائقاً مهماً أمام استغلال موارد المجتمع ويترك نصف المجتمع مهمشاً وإن عملية تمكين المرأة لا يمكن أن يتحقق إلا عندما تكون المرأة مستقلة وقادرة على المنافسة في العمل.

هدف البحث:- يهدف البحث لمعرفة ماهية تمكين المرأة وأهم المعوقات التي تواجه تمكين المرأة العراقية من أجل خدمة وتنمية مجتمعيها، وتعيق تمكينها وتصحيح الصورة السائدة عن المرأة في المجتمع وتصميم البرامج التدريبية لزيادة ثقة المرأة وقدراتها الإدارية لكي تتمكن من المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المختلفة.

اهمية البحث:- إن ارتفاع نسبة مشاركة المرأة في العمل في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية لها أهميتها في تطور المجتمع وتقدمه وتحقيق أهداف التنمية المستدامة، مما دفع المخططين وواضعي الخطط الاقتصادية للسعي لتوفير فرص العمل للإناث ومنافستها للذكور ، فعندما تكون المرأة على درجة كبيرة من التقدم والتعليم يزداد النمو الاقتصادي للدولة، وعلى العكس تماما عندما تكون المرأة مقيدة فإنه سيؤدي الى الركود الاقتصادي، فهي المحور الأساسي في التنمية.

أولاً:- مفهوم تمكين المرأة وابعاده:

هو مصطلح يعني تقوية النساء في المجتمعات المعاصرة في مجالات التنمية والاقتصاد، ويشير مفهوم التمكين للأساليب التي تمكن المرأة المهمشة في سياق اجتماعي أو سياسي معين، ينطبق مفهوم التمكين على الفئات المهمشة اجتماعيا كافة، ومنها المرأة، وتمكين المرأة ينطوي على أن المرأة فئة متنوعة من الافراد تتقاطع مع كل هذه الفئات الاخرى وأن العلاقات العائلية هي سبب عدم تمكين المرأة بطريقة غير متوافرة لغيرها من الفئات المحرومة، ويتطلب تمكين المرأة تغييرات نمطية بصفة رئيسة في المؤسسات التي تدعم الهيكل الابوي ويعتمد التمكين على عدة عوامل منها: العوامل الاجتماعية والديموغرافية، والتركيبية الاجتماعية، ومستوى التعليم، والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع، ووضع المرأة، والنظام الاقتصادي والسياسي للبلد فضلاً عن العوامل البيئية وتبرز أهمية تمكين المرأة من حقيقة أن المساواة ليست دوماً منصفة وأنها غالباً ما تتطلب عملية تمكين متمثلة ببرامج خاصة للنساء وسياسات خاصة بها للتخلص من عدم المساواة. (المشهداني، 2012، ص 43)

تتركز مجالات تمكين المرأة في التعليم، والمعلومات والمعرفة، والوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والقانوني والصحي، وفي عملية اتخاذ القرار، التمكين هو زيادة قدرة الناس على صنع خيارات استراتيجية في حياتهم في مجالات تكون القدرة غير متاحة لهم .

والتعريف المعترف به على نطاق واسع (أن التمكين هو عملية تغيير من حالة عدم التمكين) هو يتضمن فكرة وجود اختيارات والقدرة على إحداث التغيير، حيث أن الاختيار الاول يتضمن وجود بدائل متاحة تتجسد بمجموعة قرارات استراتيجية في الحياة لترتيبات المعيشة، والقرارات المتعلقة بالزواج والانجاب، اما الاختيار الثاني هي القرارات الاقل تأثيراً في حياة الناس. إن المساواة في النوع ضرورية

إلا أنها غير كافية لضمان التمكين فهي تخلق البيئة الممكنة في عملية التمكين ولكنها لا تضمن التمكين الذي لا يتحقق فقط بإمكانية الوصول إلى الموارد، بل بتوافر قدرة اتخاذ الخيارات الاستراتيجية، والتحكم بالذات واتخاذ القرارات التي تؤثر في المخرجات الحياتية المهمة، (الشيدى، 2011، ص 187) هذا التعريف للتمكين يعني إن للتمكين ثلاثة أبعاد هي:-

1- ابعاد توفر الموارد: وتشمل مختلف الموارد البشرية والاجتماعية التي تزيد من القدرة على الاختيار وهي تشكل الظروف التي يتم في إطارها الاختيار، لذا فبعض الموارد يمكن إن يوفر بيئة مواتية أو غير مواتية لعملية تمكين المرأة .

2- القدرة على إحداث التغيير: وهي القدرة على تحديد أهداف المرء والعمل على تحقيقها، هي جوهر عملية التمكين التي يتم التنفيذ من خلالها وهي القوة الداخلية تكون ايجابية أو سلبية.

3- الانجازات: هي نتائج الاختيارات للتمكين ولها مستويات متعددة تؤثر في حياة المرأة من جانب، كما أنها تتفاعل مع بعضها البعض من جانب آخر، وعدم إدراك هذه الحقيقة والتعامل معها قد يؤدي إلى نتائج مضللة عند التحليل، ويمكن أن يتم تمكين المرأة في أحد مجالات الحياة دون المجالات الأخرى، فتمكين المرأة في أحد ابعاد ال يتبع بالضرورة تمكينها في مجالات أخرى. (برنامج الامم المتحدة الإنمائي، 2015) (احمد، 2012)

ومن الصعب الفصل بين الابعاد المختلفة، للتمكين الاقتصادي أو الاجتماعي لأنها تتقاطع بشكل كبير مع الابعاد العائلية بسبب تعدد هذه الابعاد وتتضمن مستويات التمكين: الاسرة، والمجتمع، والسوق، والدولة:-

-المستوى العائلي داخل الاسرة، والقيود على الحركة، وضعف دور اتخاذ القرار، والنظرة لقدرة المرأة الانجابية والجنسية كملكية خاصة للأسرة التي تمكن المرأة القدرة على التصرف حيالها. (منظمة المرأة العربية، 2010، ص 65، 182، 33)

-مستوى المجتمع: يشير إلى التحيز الطبقي الذي يؤثر في المرأة بصفة خاصة والمعتقدات الاجتماعية والعادات والممارسات التي تتحيز ضد المرأة في حقوقها الانجابية والجنسية .

-مستوى السوق: ينقسم إلى عدة أقسام يتم فيها التمييز على أساس الجنس في ملكية الاراضي، والعمل، والخدمات الائتمانية والتكنولوجيا والموارد الأخرى.

- مستوى الدولة: مثال الانظمة المؤسسية والقانونية أو الممارسات على مستوى الدولة والبرامج الحكومية. هناك طريقة أخرى لتحقيق تمكين المرأة وهي إعطاء النساء المسؤوليات التي عادةً ما تقع على عاتق الرجال. عندما يتحقق تمكين المرأة اقتصادياً سوف ينظر لهن الآخرون كأعضاء في المجتمع على قدم

المساواة، وبذلك تحقق المرأة احترام الذات وتتحلى بالثقة بالنفس عن طريق اسهاماتها لمجتمعها، لذا فإشراك النساء كجزء من المجتمع يترتب عليه الكثير من الاثار الإيجابية.

تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة بشكل أكبر عندما تمتلك المرأة القدرة على فعل ما تريده لذا يعتقد ان إعطاء القروض الصغيرة وسيلة من وسائل تحقيق تمكين المرأة، فقد أصبحت الحكومات والمنظمات والأفراد يولون اهتماماً كبيراً لهذا النوع من التمويل حيث يأملون بأن إعطاء القروض سيسمح للنساء بأداء وظائفهن في الأعمال والمجتمع والذي بدوره يمكنهن من تحقيق الكثير في مجتمعاتهن. (الحسين، 2011، ص176) ويعد من اهم الأهداف الأساسية التي أنشأ من أجلها تمويل المشاريع الصغيرة هو تمكين المرأة حيث تعطى القروض ذات معدل الفائدة المنخفض للنساء في المجتمعات النامية لكي يستطعن بدأ مشاريع صغيرة تساعدن في إعالة عائلاتهن ، وعلى الرغم من ذلك فإن نجاح وكفاءة القروض الصغيرة موضوع جدلي وداًماً ما يتم نقاشه.

كما ان الاستخدام المتنامي لشبكة الانترنت في أواخر القرن العشرين دوراً في السماح للنساء بتمكين أنفسهن من خلال استخدامهن للإنترنت بطرق مختلفة، ومع ظهور الشبكة العنكبوتية العالمية بدأت النساء باستخدام مواقع التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وتويتر للتعبير عن مطالبهن ومن خلال هذا النهج الجديد الذي اتخذته النساء أصبح بإمكانهن تمكين أنفسهن من خلال تنظيم الحملات والتعبير عن آرائهن فيما يخص تساوي الحقوق بين الرجل والمرأة دون أن يشعرن أنهن مضطهدات من أعضاء المجتمع وفي السنوات الأخيرة أصبح التدوين أيضاً أداة هامة للتمكين التعليمي للمرأة، لأن القراءة تجارب الآخرين تساعد على تثقيف أنفسهم بشكل أفضل وتمكنهم من تطبيق الاستراتيجيات التي يقترحها المدونون الآخرون. في الوقت الحاضر أصبح بإمكان النساء الدراسة من منازلهن وذلك بسبب سهولة الوصول للتعليم الإلكتروني وقلة تكلفته، والتمكين التعليمي للمرأة من خلال التقنيات الجديدة كالتعلم الإلكتروني يكسبها أيضاً مهارات جديدة تساعدن في العالم المتقدم اليوم والمتسم بالعمولة. (ختتاب، 2012، ص122)

معوقات تمكين المرأة

توجد العديد من معوقات تمكين المرأة والمساواة تكمن في العادات الثقافية، والعديد من النساء يعانين من ضغوطات هذه العادات بينما اعتادت بعض النساء على معاملتهن كمخلوق أدنى منزلة من الرجل، وحتى لو أدرك الرجال والمشرعين والمنظمات غير الحكومية منافع تمكين المرأة ومشاركتها لا يزال العديد من الناس يخشى عرقلة الوضع الراهن ويستمررون في سماحهم للعادات المجتمعية بالوقوف في وجه التطوير، فأصبحت مكانة المرأة في المجتمع تستخدم كمقياس لدرجة التقدم الاقتصادي والاجتماعي للدولة، يعني التمكين الاقتصادي للمرأة قدرتها على النجاح والتقدم اقتصادياً وامتلاكها الصلاحيات

لصنع القرارات الاقتصادية واتخاذ إجراءات بشأنها - هو حق إنساني أساسي, ينعكس ذلك سلباً على التمكين الاقتصادي للمرأة في المنطقة لأنه يؤثر على وصول المرأة على قدم المساواة إلى الموارد. (شمالاي, 2011, ص 47)

العوامل المساعدة على تمكين المرأة وفقاً لمستوى الفرد :

تعليم المرأة يقاس تقدم المجتمعات بمدى التقدم المتحقق في مجال التعليم فهو بدوره يؤثر بشكل مباشر ويتأثر بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وله روابط وثيقة بخفض مستويات الفقر كما إنه يساهم بشكل فعال في الترابط الاجتماعي. إن السير نحو تحقيق الاهداف الانمائية الالفية أصبح من اولوياتها في أغلب دول المنطقة، والذي يعد التعليم كهدف ثاني من الاهداف الانمائية الالفية فقط وإنما يدخل تطور التعليم في تحقيق التقدم لمعظم هذه الاهداف. ويعد تعليم المرأة أحد أهم التحديات التي تواجه الانظمة والمؤسسات التربوية فال تزال التباينات حسب النوع الاجتماعي كبيرة نتيجة التمييز بين الذكور والاناث تبعا للتقاليد الاجتماعية والثقافية الموروثة وبالتالي عدم تحقيق فرص متساوية للحصول على التعليم، فالتعليم هو أحد الادوات الاساسية التي تساعد على تمكين المرأة فهو يرتقي بمستوى مساهمة المرأة في الاسرة والمجتمع والذي من شأنه أن يدعم التنمية البشرية ويكون فعال في فهم المرأة لحقوقها الذي نصت عليها اتفاقية حقوق الانسان واتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة في المادة العاشرة فقد أشارت إلى الحق في القضاء على أي مفهوم نمطي عن دور المرأة والرجل في مراحل التعليم كافة، وغيرها من الاتفاقيات والمواثيق الدولية. (خشيم, 2010, ص 119) أن التعليم هو الطريق المعبود والسالك للوصول إلى تمكين المرأة في جميع المجالات ويؤثر المستوى التعليمي للأمهات في نسب التحاق الابناء بالتعليم حيث أظهرت نتائج دراسات زيادة نسب التحاق الابناء كلما ارتفع مستوى التعليم الامهات و بهذا نستطيع القول إن قدرة التعليم على السير نحو تحقيق التقدم في تمكين المرأة ال يزال يواجه تحديات بارزة؛ فالامية لا تزال تشكل هاجساً رئيساً وعبئاً ثقيلاً، لاسيما في الريف حيث ترتفع نسبة النساء غير الحاصلات على شهادة إن التباين يقل في مرحلة التعليم الابتدائي لكونه إلزامياً ولكن الفجوة تتسع بين الريف والحضر في المراحل اللاحقة من التعليم نتيجة التمييز حيث يقل احتمال انتظام البنات في الدراسة. كما إن التباينات واضحة بين المحافظات وهي نسبة عالية على الرغم من تحسن فرص التعليم المتاحة للنساء من قبل الاسرة ومن قبل الدولة من جانب آخر. (الجوهري, 2002, ص 145)

قياس تمكين المرأة

يمكن قياس تمكين المرأة من خلال مقياس تمكين المرأة (GIM) الذي يوضح مدى مشاركة النساء في دولة ما في المجالات السياسية والاقتصادية، ويتم حساب هذا المقياس عن طريق رصد حصة النساء

من مقاعد البرلمان وحصتهن في المناصب التشريعية والمناصب الإدارية والرسمية العالية وأعداد النساء من أصحاب المهن والعمال الفنيين. كما يحسب المقياس اختلاف الدخل المستحق بين الجنسين والذي يعكس درجة الاستقلال الاقتصادي للمرأة، ثم يُصنف المقياس الدول بناءً على هذه المعلومات. هناك مقاييس أخرى تأخذ بعين الاعتبار أهمية المشاركة النسوية والمساواة ومن ضمنها: مؤشر المساواة بين الجنسين ومؤشر التنمية. (احمد, 2012, ص 29)

تستفيد دول وأعمال ومجتمعات ومجموعات بأكملها من تنفيذ البرامج والسياسات التي تبنى مفهوم تمكين المرأة، حيث أن التمكين يعد أحد الشؤون الإجرائية الأساسية لمعالجة قضايا حقوق الإنسان والتنمية. تشير التنمية البشرية وأسلوب الإمكانيات وأهداف التنمية الألفية وغيرها من الأساليب والأهداف الموثوقة إلى تمكين المرأة ومشاركتها خطوة ضرورية يجب اتخاذها إذا ما أرادت الدول التغلب على العقبات المرتبطة بالفقر والتنمية. (المشهداني, 2012, 65)

المنافع الاقتصادية لتمكين المرأة

يتم تمكين المرأة لتعمل وتساهم بشكل أكبر تصبح إمكانية النمو الاقتصادي أكثر وضوحاً، حيث تعتمد معظم النساء حول العالم على قطاع العمل غير الرسمي كمصدر للدخل. تمكين المرأة في الدول النامية أمراً أساسياً لتقليل الفقر العالمي وذلك لكون النساء يشكلن جزءاً كبيراً من عدد الفقراء في العالم. وإقصاء جزء كبير من القوى العاملة لدولة ما على أساس الجنس فقط له اثار سلبية على الاقتصاد. (خشيم, 2010, ص 92)

كما أن مشاركة النساء في المشاورات والمجموعات والأعمال تزيد من فعاليتها. وللحصول على فكرة عامة عن تأثير تمكين النساء على الاقتصاد فقد أجريت دراسة على الشركات المتواجدة في قائمة فورتشن 500 (وهي قائمة سنوية تصدر عن مجلة فورتشن تضع ترتيباً لأعلى 500 شركة أمريكية حسب إيراداتها) ووجد أن " الشركات التي تضم نساء أكثر في مجالس إدارتها تحقق عوائد مالية أكبر من غيرها وتضمنت الزيادة 53% في حقوق الملكية للمساهمين و42% في المبيعات و67% في رؤوس الأموال المستثمرة (وزارة التخطيط, 2019).

فهذه الدراسة توضح المنافع الاقتصادية التي تترتب على وجود النساء في الشركات، ولو تم تطبيق هذا الأمر على نطاق عالمي فضم النساء للقوى العاملة الرسمية مثل ما فعلته الشركات في قائمة فورتشن 500 ستزيد من الإيرادات الاقتصادية للدولة.

وإن استطاعت النساء تسخير المعرفة والمهارات التي يمتلكنها في وظائفهن فإنهن حتماً سيساهمن في ازدهار الأعمال والاقتصادات، أن مفهوم التمكين ينشأ نتيجةً عن تفاعل ثقافات المجتمع المحليّة،

والسياسية، والاجتماعية معاً، فهو يؤمن بوجود ثلاثة أنواع من السلطات وهي السلطة السياسية، والسلطة الاجتماعية، والسلطة النفسية، فالسلطة السياسية لها تأثير واسع من خلال العمل الجماعي واتحاد الأصوات، أما السلطة الاجتماعية فهي تنشأ من معالجة المعلومات والمهارات المجتمعية، إضافة إلى دور القوة النفسية في مفهوم التمكين كإحساس فردي بالقوة يظهر في السلوك كزيادة احترام الذات والثقة بالنفس، ويرى فريدمان التمكين على أنه قوة اجتماعية يمكن ترجمتها كقوة سياسية، كما يشير إلى أهمية تعزيز عملية الإرشاد النفسي، والسياسي، والاجتماعي من خلال شبكات التواصل الاجتماعي. وبينت كات يانغ أن تمكين المرأة عبارة عن عملية تغيير شامل للعمليات المسؤولة عن رفع مكانة المرأة في المجتمع بمساعدة الدولة والمجتمع ودعمهما، والتركيز على أهمية السياسة والعمل الجماعي، لتمكينها من وضع جدول أعمالها وأهدافها بنفسها، وزيادة قدرتها على السيطرة على حياتها. عناصر تمكين المرأة يوجد عدد من العناصر المهمة للوصول إلى تمكين المرأة، هي حق المرأة في تحديد خياراتها بنفسها، وحق المرأة في قدرتها على السيطرة على حياتها سواء داخل المنزل أو خارجه. شعور المرأة بقيمتها وبذاتها. وحق المرأة في الوصول إلى الموارد، وإتاحة الفرص لها للاستفادة منها. وحق المرأة في التأثير على توجهات النظام الاجتماعي والاقتصادي على المستويين الوطني والدولي. (الشيدي، 2011، ص198)

يُمكن توضيح العديد من مبادئ تمكين المرأة بشكل موجز كالآتي:-

-الاهتمام بتدريب المرأة وتطويرها مهنيًا: تنفيذ وتطوير المشاريع وسياسات التسويق التي تُمكن المرأة إنشاء قيادة مؤسسية رفيعة المستوى تهدف إلى تحقيق المساواة والعدل وعدم التمييز في المعاملة بين الرجال والنساء، واحترامهم جميعهم وتحقيق الرفاهية ودعم حقوقهم وضمان صحة وسلامة جميع العاملين (الجوهري، 2002، ص87)

-الاهتمام بالمبادرات المجتمعية بهدف تعزيز المساواة والتعرف أكثر على حقوق المرأة في التعليم وغيرها من مجالات تمكين المرأة ومنها:- (برنامج الامم المتحدة الإنمائي، 2015)

التمكين الاقتصادي للمرأة يمكنها من السيطرة على موارد الأسرة ومصدر دخلها، والوصول إلى الأسواق وتوفير فرص عمل لها متكافئة مع الرجال في الوصول إلى المواقع الاقتصادية المهمة، ومشاركتها في صنع القرارات الاقتصادية، وتعزيز قدرتها على الاستقلالية المالية من خلال كسب المال ومشاركتها ضمن القوى العاملة.

التمكين السياسي للمرأة يظهر التمكين السياسي للمرأة بالحق في التصويت وانخراطها في النظام السياسي بعد امتلاكها للمعارف السياسية، كما يمكنها من تمثيل الحكومات محلياً ودولياً.

التمكين الاجتماعي الثقافي يظهر التمكين الاجتماعي الثقافي للمرأة بالمشاركة الاجتماعية خارج نطاق الأسرة، وعلى نطاقٍ أوسع إذ يوفر فرصاً للمرأة الوصول إلى مستويات أعلى في التعليم مما يسهم في نحو أمة المرأة، ويحسن صورتها ودورها وإنجازاتها في المجتمع، فالاهتمام بالتمكين الاجتماعي الثقافي للأنث من ناحية التعليم يضمن حرية الحركة من خلال جميع وسائل التواصل الحديثة ويحد من التمييز بالمعايير التقليدية بتفضيل الذكور،

https://archive.unescwa.org/sites/www.unescwa.org/files/u593/iraq-_1st_paper_0.docx

والتمكين القانوني للمرأة يضمن معرفة حقوقها القانونية والحصول على الدعم المجتمعي الذي يساعدها على ممارسة تلك الحقوق من خلال عمل حملات للتوعية بحقوق المرأة، ودعم المجتمع لها، كما يشجع التمكين القانوني سنّ القوانين التي تدعم حقوق المرأة والدفاع عنها، والاستعانة بالقضاء في تصحيح انتهاك حقوقها.

ويحقق التمكين النفسي الراحة النفسية للمرأة باحترامها لذاتها وتعزيز كفاءتها ويزيد من الوعي الاجتماعي ضد ظلم المرأة، ويضمن التمكين النفسي المرأة الاندماج بالمجتمع، ويعزز القبول المجتمعي لذلك. يساعد التمكين على تحقيق أهداف التنمية المستدامة ويعمل على تحسين حياة المجتمعات بشكل عام، وحياة الأسرة، كما يساعد على الحد من الفقر سواءً على مستوى الأسرة أو على مستوى المجتمع، من خلال الاستفادة من مهارات ومواهب وقدرات ووقت جميع الأفراد الذين يعيشون ضمن المجتمع مما يؤدي إلى ازدهار المجتمع، كذلك يساعد تمكين المرأة اقتصادياً على زيادة قدرتها على صنع القرارات في أسرتها، وهناك إجراءات تُساعد على تمكين المرأة ومن الإجراءات التي يجب اتباعها للمساعدة على تمكين المرأة، ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين:- (ختاب، 2012، ص94)

-المجموعة الاولى:

إجراءات تقوم بها الدولة: يكمن تمكين الدولة للمرأة من خلال آليات تُساعد المرأة في المجتمعات على المشاركة على قدم المساواة والعدالة في جميع مجالات الحياة العامة سواءً العملية أو السياسية، وتمكينها من التعبير عن احتياجاتها والقضاء على الأمية، والفقر، والمشاكل الصحية، ولتحقيق ذلك يتم تعزيز إمكانيات المرأة من خلال تنمية مهاراتها وإتاحة فرص لها في التعليم والعمالة.

-المجموعة الثانية:

اتباع مجموعة من الإجراءات والتدابير التي تُمكن المرأة من الحصول على دخل مناسب، واعتمادها على نفسها اقتصادياً، ودعمها من أجل وصولها إلى أنظمة الضمان الاجتماعي على قدم المساواة مع الرجل والقضاء على ظاهرة العنف ضد المرأة والممارسات العنصرية ضد النساء من قبل أصحاب العمل، إجراءات يقوم بها الأفراد: للأفراد دور مهم في زيادة تمكين المرأة، من خلال اتباع إجراءات دعم الفتيات والنساء في الأزمات اذ يتعرّض عدد كبير من الفتيات لأشكالٍ مختلفةٍ من سوء المعاملة؛ كعمالة الأطفال، أو الزواج المبكر، لذا من المهم حمايتهنّ بعدة طرق؛ كالتعليم، والرعاية الطبية، وتقديم القروض التجارية، وغيرها من المساعدات بتوفير قروض بسيطة لهنّ تُساعدهنّ على تحقيق ذلك وتشجيع تعليم الفتيات لتأمين مستقبل أفضل، بسبب زيادة قدرتهنّ على رعاية أنفسهنّ وأطفالهنّ، وزيادة قدرتهنّ على التفاعل الاجتماعي، وغيرها من الأمور التي تُحسّن من حياتهنّ؛ كالتعليم، أو بدء نشاط تجاري، أو قضاء بعض الوقت مع أسرهنّ.

https://archive.unescwa.org/sites/www.unescwa.org/files/u593/iraq-_1st_paper_0.docx

دعت المواثيق الدولية الى تمكين المرأة وإلى إنهاء التمييز ضد المرأة بكافة أشكاله، فكافة القرارات الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والمتعلقة بحقوق المرأة تدعو إلى ذلك، ومن المواثيق الدولية أيضاً الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهد الدولي لحقوق المدنية والسياسية، كما دعت جميع تلك المواثيق إلى تمكين المرأة في العديد من المجالات، مثل: التمكين القانوني، والاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، والصحي، علماً بأنّ الاتفاقية الخاصة بإنهاء التمييز ضد المرأة التي أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1979م تُعدّ أهم تلك الاتفاقيات.

الاستنتاجات:-

-ان للعوامل الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع العراقي اثر في تمكين المرأة العراقية .
-تعد أساليب التنشئة التي تستخدمها الأسرة العراقية بين الرجل والمرأة لها اثر سلبي في التنشئة الاجتماعية للمرأة مما يؤثر في تمكينها بشكل سلبي وهناك اثر ايجابي نتيجة للالتزام المهني الذي تؤمن به المرأة لتمكينها ودورها الاجتماعي.

-تعد التصورات والانطباعات السلبية التي ترسمها فئات المجتمع العراقي عن المرأة عاملاً مؤثراً على تكوين شخصيتها وتمكينها بشكل سلبي. وللموروثات الثقافية السائدة في المجتمع العراقي اثر سلبي في تكوين شخصية المرأة العراقية. ويبدو أن هذه النتيجة، تأتي من إن النزعة المؤثرة من القيم والعادات البالية نحو تجسيد الإبعاد السلبية نحو المرأة في المجتمع العراقي والتي تعاني منها المرأة العراقية بشدة.

- قدرة المرأة العراقية في تجاوز بعض القيم التقليدية تظهر تحوفاً وعدم تمكينها وهذا يعود الى طبيعة المجتمع العراقي المحافظ على التقاليد والأعراف والقيم الاجتماعية.

- للتحصيل الدراسي دوراً إيجابياً في رفع ثقافة ومكانة المرأة في المجتمع العراقي مما اثر ذلك في تمكينها بشكل ايجابي. اي إن درجة وعي المرأة يؤثر تأثيراً إيجابياً في تكوين شخصيتها ويضع لها دوراً اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً في المجتمع العراقي.

- للنظام التربوي والتعليمي اثر ايجابي في تمكين المرأة العراقية وتكوين شخصية باعتبار ذلك يؤدي الى تطويرها ويضع في مكانتها التي تستحقها والمشاركة في تطوير المجتمع.

- ان تمكين المرأة في المجالات التنموية يتحقق بالقوانين والتشريعات الصادرة التي تسهم في تنمية وعي المرأة بحقوقها وقناعتها بمقدرتها على الدخول في سوق العمل وتولي مراكز المهمة في المجتمع.

التوصيات :

- 1- تصحيح الصورة السائدة عن المرأة في المجتمع عن طريق تقديم المناهج الدراسية والبرامج التلفزيونية وجميع وسائل الإعلام التي ترفع من دور المرأة في تنمية وتطوير المجتمع.
 - 2- العمل على تدعيم وترشيح المرأة في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية وللنصب القيادية والسياسية .
 - 3- تصميم البرامج التدريبية لزيادة ثقة المرأة وقدراتها الإدارية لكي تتمكن من المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المختلفة
 - 4- إجراء البحوث العلمية في مجال تمكين المرأة للوقوف على العوامل الحقيقية التي تقف وراء عدم تمكين المرأة العراقية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.
 - 5- توعية المجتمع بأهمية التنمية الإدارية للمرأة في تقدم المجتمع وتطور عناصره، وتحقيق أهدافه وضرورة احترام حقوق المرأة السياسية والاجتماعية والاقتصادية باعتبارها نصف المجتمع وتشريع ذلك القانون.
 - 6- وضع القوانين المشجعة للمرأة العراقية على مشاركة الرجل في أداء الواجبات والحصول على الحقوق وتوعية أفراد المجتمع بأهمية مشاركة المرأة في عملية التنمية من خلال تنشيط الجمعيات النسوية، وعقد الدورات التدريبية والتعليمية والإرشادية للنساء وتوعيتهن بأهمية دورهن البناء في عملية التنمية.
- المصادر:-**

- احمد, مالك عبد الحسين, تمكين المرأة العراقية في مجالات التنمية ، مجلة الاقتصادي الخليجي - مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة 2012

- برنامج الأمم المتحدة الأثمائي، تقرير التنمية البشرية 2015"التنمية في كل عمل"2015.

- الجوهري, هناء، دراسة تحليلية لشهادات المشاركات في الحياة العربية "المرأة وقضايا المجتمع"، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة 2002 .
- الحسين, ايمان سيد , السمات و المهارات التي تتميز بها المرأة القيادية الأردنية و المعوقات التي تواجهها، مجلة جامعة دمشق للعلوم التربوية -سوريا ، 2011 .
- خشيم, مصطفى عبد الله عبد القاسم ,معوقات تمكين المرأة في البلدان العربية : الواقع والطموح، مجلة شؤون عربية (مصر) 2010.
- خنياب, محسن مهدي, القيم الاجتماعية و أثرها في دور المرأة العراقية المشاركة بالعمال الإنتاجي و الصناعي : دراسة في التنمية، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية, جامعة الكوفة, 2012
- شمالى ، حنان عطا ، وسقف الحيط ، نبيل إسماعيل ، محددات تمكين المرأة في الدول العربية ، دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية- الجامعة الاردنية, 2011
- الشيدي, فاطمة, معوقات مساهمة المرأة بصورة فعالة في التنمية الإدارية، منتدى دور المرأة العربية في التنمية الإدارية - المنظمة العربية للتنمية الإدارية - سلطنة عمان، 2011.
- المشهداني, فهيمة كريم ,سياسات تمكين المرأة البرامج و المعوقات : رؤية اجتماعية ، 2012
- منظمة المرأة العربية ، إبتسام الكتي ورشا منصور ، رويدة المعايطة ، فاديا كيوان ، مريم بنت حسن آل خليفة ، مصطفى كامل ، معتز بالله عبد الفتاح ، النوع الاجتماعي وأبعاد تمكين المرأة في الوطن العربي ، جمهورية مصر العربية ، 2010.
- وزارة التخطيط, الجهاز المركزي للإحصاء, تمكين المرأة بيئة مساعدة وثقافة داعمة, تقرير اللجنة الوطنية للسياسات السكانية في العراق, 2019.
- الموقع الالكتروني:

https://archive.unescwa.org/sites/www.unescwa.org/files/u593/iraq-_1st_paper_0.docx

مشاعر ومشاهدات الرحالة السويسرية إبيرهارت حول الجزائر وأهلها
-محاولات أدبية وملاحظات إثنوغرافية-

Feelings and views of the Swiss traveler Eberhardt about Algeria and its people

Literary essay and ethnographic observations

أ.د. سميرة أنساعد المدرسة العليا للأساتذة -الجزائر-

Samiraenssad@gmail.com

ملخص بالعربية:

يحاول هذا المقال المتواضع تسليط الضوء على كتاب "ملاحظات على الطريق تونس الجزائر المغرب" لإيزابيل إبيرهارت، والتركيز على مراحل تجوالها في الجزائر، التي كانت إما سياحية استطلاعية للتعرف على السكان ومخاطبتهم، أو ضمن نشاط التحقيق الصحفي لجرائد محلية كانت الرحلة تنشط فيها بمحاولاتها الأدبية، وقصصها، ورسائلها، وقد كانت بداية رحلات إيزابيل إبيرهارت في الجزائر من مرسيليا متجهة نحو وادي سوف، أما رحلتها الثانية، فكانت من العاصمة الجزائرية المكتضة والصاخبة إلى مدينة بوسعادة أين ستجد حياة الحرية والصمت، واختصت المرحلة الثالثة من جولاتها في الجزائر بالجهة الغربية والجنوبية خصوصا، التي زحرت بأخبار ومشاهدات في الكثير من المناطق السهلية والصحراوية وصولا إلى بلدة بني ونيف آخر مرحلة في ذهابها للتحقيق في أحداث المقاومة، وتعداد الخسائر البشرية والمادية، وعليه سيتم التعريف بأهم ما قدمته الكاتبة من ملاحظات وأخبار واقعية بعيدة عن التزييف والتشويه الذي عهدناه في أغلب الكتابات الاستشراقية حول الجزائر.

الكلمات المفتاحية: تاريخ الجزائر - أدب الرحلة - الصورة - مشاهد - ثورة الشيخ وعمامة- ملاحظات- السرد الرحلي.

Summary :

This modest article attempts to highlight the subject of the book: Notes on the Tunisia-Algeria-Morocco road by Isabelle Eberhardt, and to focus on the stages of her trip to Algeria, which was either a tourist reconnaissance to know the population and interact with her, or as part of a journalistic investigative activity, the region where the traveler was active with her literary attempts and her stories and letters. The start of Isabel Eberhardt's trip to Algeria was from Marseille, towards Wadi Souf. Second trip, it was from the crowded and noisy Algerian capital to the town of Bou Saada, where she found a life of freedom and silence. The third stage of his tours in Algeria specialized in the western and southern regions, especially which were filled. With news and observations in many steppe and desert areas, up to the town of Beni Walif, the last stage of his journey to investigate the events of the resistance, and list the human and material losses therefore the most important. the realistic observations and news provided by the author will be introduced, far from the falsification and distortion that we are familiar with in most orientalist writings on Algeria.

Keywords: History of Algeria – Journey literature – Image – Scenes – Sheikh Bouamama's revolution– Notes –Travel narrative.

مقدمة:

شكّلت أدبيات الرحلة الغربية المؤلفة حول الجزائر مادة خصبة وثرية لجمع حقول المعرفة؛ إذ زوّدت كلا من نقاد الأدب، والمؤرخين والجغرافيين وعلماء الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، والمبشرين والمستكشفين والمستشرقين بما يفيدهم من خطابات سردية، ومعلومات وأخبار مصدرها المعاينة والتقصي والسماع، غير أن تلك الرحلات التي كتبت عن الجزائر ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي، لم تكن موضوعية وبريئة دائماً، لقد حملت في كثير من الأحيان بمحولات إيديولوجية، وثقافية أسست لأفكار خاطئة، وصور زائفة حول السكان الأصليين خصوصاً، منطلقين من نظرية نقاء الجنس الأوروبي وتفوقه، خدمة للأهداف الاستعمارية للأرض.

وتشد بعض الرحلات لأدباء قدّموا ما شاهدوه، وما شعروا به دون تحريف، ولا مبالاة للاحتلال الفرنسي في البلاد، وأكثر من هذا عملت تلك الرحلات على كشف السياسة الاستعمارية المبرجة بشعارات العدالة والأخوة والمساواة، وتبيان الحالة المزرية، والمشاكل التي كان يتخبط فيها المواطن الجزائري على المستوى الاجتماعي، والعلمي والثقافي، ومن تلك الرحلات الواقعية والصادقة تلك التي كتبها كل من: تيوفيل غوتيه (ت. 1872)، وكارل ماركس (ت. 1883)، وألبير كامو (ت. 1960)، والكاتبة السويسرية إيزابيل إبيرهاردت (Isabelle Eberhardt) (1877-1904) -موضوع المقال- وهي التي عشقت الصحراء الجزائرية، وحياتة التيهان والهروب في البرية، وفضلتها عن حياة المدن، كما فضلت الإسلام وجعلته شريعته التي وهبت لها راحة البال والنفس، واكتشفت فيها لذة الإيمان واليقين بالله وبالقضاء والقدر، وطلّقت نهائياً الحياة الغربية المادية والمفرغة من الأخلاق والقيم.

1. إيزابيل إبيرهاردت في سطور:

ولدت الكاتبة الرحالة إيزابيل إبيرهاردت بجنيف عاصمة سويسرا عام 1877، من أب مجهول، وأم روسية ذات أصل ألماني، تربت على يد معلمها الراهب الأرميني الأصل كان يدعى ألكسندر تروفيموسكي فيلسوف، ومتعدد اللغات، عرفت إيزابيل منذ صغرها بالانعزالية، والميل إلى التصوف، وحبها للتحرر والسفر بعيداً، وعشقها للصحراء والرمال، والصمت، والبساطة في الحياة البدوية، وقد قدّلت الرجال في لبسهم وتصرفاتهم، أحبت المطالعة، والتعلم، فأتقنت لغات عدة: الروسية والإيطالية، والألمانية، والفرنسية، والعربية، والتركية، والقبائلية الجزائرية (الأمازيغية)، كما ساعدها معلمها ألكسندر في تعلم ركوب الخيل، وهو ما استثمرته في تنقلها بين قرى ومدن البلاد الجزائرية.

استقرت مع والدتها في الجزائر وهي في سن العشرين، منذ عام 1897، فسكنت أحياء شعبية في بونة (عنابة)، وباتنة، ووادي سوف، وتقرت، والعاصمة وتنس، كما زارت عدة مدن في الجزائر، مثلها

استطاعت توسيع رحلاتها سافرت في أكثر من مرة إلى تونس، وزارت المغرب، كما كانت لها رجعة إلى أوروبا (مرسيليا، وباريس، وجنيف، وجزيرة سردينيا) ونشطت في الصحافة، لكنها رجعت في الأخير إلى الجزائر عام 1902 بعد زواجها المدني من أحد الجنود الصبايحية الجزائريين المدعو سليمان أهني، واستقرت في الجزائر ولم تغادرها حتى وفاتها في مدينة العين الصفراء، حيث جرف فيضان مساكن البلدة، ومنه مسكن إيبرهات في تاريخ 21 أكتوبر 1904م، وعثر على جثتها تحت الأنقاض بعد يومين من البحث، فدفنت في مقبرة المسلمين، وقد تكفل الجنرال ليوي بذلك.¹

كانت إيزابيل إيبرهات تنجز أكثر رحلاتها وهي متتكرة بزي رجل يسمى "سي محمود السّدي"، كما كانت متأثرة بالطريقة القادرية الصوفية المعروفة بمقاومتها للمحتل الفرنسي، كما كانت ذات موهبة في الإبداع الأدبي، والكتابة الصحفية، خلفت مؤلفات في القصة، والرواية، وفن الترسل، ويوميات السفر، التي ضمت خلاصة رحلاتها وتنقلاتها في الشمال الإفريقي، ضمن نشاط التحقيق الصحفي لجرائد ومجلات فرنسية أشهرها "L'Akhbar" الأخبار²، ومجلة "لاديباش ألبيريان La Dépêche algérienne"³، ومنها جولاتها بالجزائر على متن حصانها، فزارت باتنة، ووادي سوف، واتجهت نحو الغرب فمرت على الجزائر العاصمة، وزارت وهران الساحلية، ثم توغلت في الداخل بصفتها مراسلة حرب، ولتغطية الأحداث الراهنة الخاصة بمقاومة الشيخ المقراني في المنطقة، وأحداث الصراع على الحدود بين المغرب والجزائر، فزارت مدينة البيض (Geryville)، ومدن الجنوب الغربي كالساورة (بشار)، ومشيرة وعين الصفراء، ووصلت إلى فجيج على الحدود الجنوبية الغربية، وكان ذلك أواخر عام 1903، كما زارت تلمسان ووجدة، ورجعت إلى عين الصفراء لكنها أصيبت بمرض الملاريا، الذي أضعفها وجعلها تقرر الاستقرار هناك، وكانت آخر رحلة لها قبل وفاتها. (أنساعد: 9 / 2022، ص-ص. 116-118)

ألّفت إيزابيل عددا من المحاولات والكتابات الرحلية، جمعها بعد وفاتها صديقها فيكتور باروكون (V. Barrucand) مؤسس جريدة الأخبار، وقد لقيت شهرة واسعة في فرنسا وسويسرا وفي الجزائر كذلك، ونستطيع أن نعدّها من أدبيات الجزائر، لعيشها ووفاتها في الجزائر، ولزواجها من جزائري، ولأن أكثر ما كتبتّه كان عن الجزائر، وإن اعتبرنا لغة الكتابة لديها فهي أيضا من التراث الأدبي الفرنسي، أما إن اعتبرنا مكان ولادتها فرحلتها كذلك من الأدب السويسري، بل وهناك من يعدها أديبة روسية، ومن أعمالها في الرحلة: "كتّابات على الرمال الأعمال الكاملة"⁴ (Ecrits sur le sable)، و"عودة إلى الجنوب" (Retour au sud) وهو ملاحظات الطريق في الجنوب الوهراني بالجزائر، و"تحت الظل الدافئ للإسلام"⁵ (Dans l'ombre chaude de l'Islam).

3. في رحاب الرحلة إلى شمال إفريقيا:

تنوع أخبار رحلات إيزابيل إبيرهات في جل الكتابات التي دونتها، ولكننا سنركز في هذا المقال على كتاب ملاحظات على الطريق⁶ المضمن في كتابات على الرمال، وقد طبعته المكتبة الوطنية الرومانية (BNR)، واتبعت إيزابيل أثناء جولاتها مسارا واسعا، غير محدد المعالم، وغير مرتب ترتيبا زمنيا، يحتاج حصره وتحديد قراءته جميع كتب الرحالة من يوميات ورسائل وملاحظات على الطريق، لكنها حافظت على السير الخطي والمتتابع في المراحل الصغرى لكل رحلة؛ فقد حرصت على شد خيوط الحكى الرحلي في القرى والمدن، في مقابل إهمالها في كثير من الأحيان ذكر تفاصيل الانطلاق، ووسائل النقل التي استقلتها، كما تحطت الكثير من المراحل المرتبطة بأماكن العبور التي مرت عليها وهي متجهة إلى البلد أو المدينة المقصد، ويرجع هذا الاضطراب في الترتيب إلى عوامل عدة منها: تدوين الكاتبة أخبار رحلاتها بعد إنجازها، فجاء سردها استرجاعيا، يضيء الأحداث القوية، والرائحة في ذاكرتها، ويسلط الضوء على المراحل الحاسمة التي أطرت حياة السفر والتجوال لديها، ولعل وفاتها قبل توظيف أوراقها وملاحظات، وطبعها، وضياع بعض من مؤلفاتها في الفيضان الذي توفيت بسببه في عين الصفراء من الأسباب التي أنتجت هذا الاختلال في ترتيب الأحداث.

ويمكن تقسيم كتاب ملاحظات على الطريق إلى تمفصلات أساسية، تبدأ بمرحلة ما بعد وفاة والدتها ورحلتها إلى تونس للاستجمام والراحة، ثم مرحلة عودتها من تونس إلى مرسيليا عام 1900، وتأتي المرحلة الثالثة التي تستغرق مدة بقاءها في باريس، ومرحلة إبحارها من مرسيليا نحو الجزائر العاصمة لتستقر بعدها في وادي سوف، والمرحلة الرابعة نجد فيها الرحالة في مرسيليا بعد نفي الحكومة الفرنسية المحتلة إياها في 1901، وفي مرسيليا حررت صفحات أدبية يمتزج فيها السرد الرحلي بنوستالجية غارقة في الحنين لمنطقة وادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري، والتعبير عن حزنها على فراق محبوبها وزوجها سليمان أهني، مع بعض التفاصيل الخاصة بسفرها إلى مدن التل، والساحل (من باتنة إلى عنابة)، أما المرحلة الأخيرة فتقفز فيها الرحالة إيزابيل عن أحداث إقامتها في منفاها بمرسيليا وزواجها من سليمان أهني، وكذلك تستغني عن ذكر أحداث عودتها إلى الجزائر العاصمة وحياتها في مدينة تنس الساحلية جهة الوسط الغربي للبلاد، وتكتفي بالشروع في السرد ابتداء من زمن الانطلاق من العاصمة في اتجاه الجنوب الوهراني وتحديد عين الصفراء، ويمكن اعتبار هذه المرحلة أهم المراحل في الكتاب، إذا ما نظرنا إلى مدى قرب الأسلوب السردى فيها إلى ما هو معروف في أدب الرحلة، إضافة إلى كون الرحالة إيزابيل لم تعد مسافرة مغامرة ومستكشفة فحسب، بل تحولت إلى محققة حرب، مهمتها تغطية أحداث المعارك والمواجهات بين الأهالي، كما أنها عادت إلى حقيقتها أي امرأة صحفية محققة، ويضم هذا الجزء من

كثابها بعض أحداث تجوالها في مناطق الصحراء الجزائرية منها: بني ونيف، والقصر، حجرة مغيل في الجنوب، وتلسان في شمال الجزائر ثم وجدة في المغرب.

4. الجزائر كما رأتها إيزابيل إيرهاردت:

كانت الرحلة إلى الجزائر بالنسبة لإيزابيل إيرهاردت فرصة للبحث عن انطباعات جديدة، وموارد ومواضيع ستكون مادة لعملها الذي كانت بصدد تأليفه، ولهذا كان عليها أن تستلهم الأفكار العظيمة المثيرة للذكريات من الماضي، ومن العقيدة الإسلامية التي عدتها مصدر راحة البال، والسلام الداخلي. سافرت الرحالة إلى الجزائر وهي في شوق لزيارة قبر والدتها في بونة (عنابة) انطلاقاً من مرسيليا عبر البحر الأبيض المتوسط، وقد وصفت هذا الشوق، مستدعية كذلك قبر معلمها في جنيف، وخشيت أنها لن تراهما مرة أخرى فقد تغادر الحياة قبل ذلك، كما أن العشب قد غزا القبرين لا محالة بعد حلول فصل الربيع كما أخبرت الكاتبة، إن هذا الفصل: "مخمر بالحياة الأبدية والخصوبة غير القابلة للتدمير." (Eberhardt : 1908, p.34)، وتمنت لو أنها تقبر مع أمها: "في تلك التربة الحمراء بمقبرة بونة البيضاء، أو في أي مكان داخل الرمل المحترق في الصحراء (الجزائرية)، بعيداً عن التفاهات البذيئة للغرب الغازي." (Eberhardt : 1908, p.34) ولعل هذه الرؤية الانتقادية، وهذا الانطباع السلبي حيال الحياة الغربية البعيدة عن الالتزام والتدين، وحيال الوجود الاستعماري لفرنسا في الجزائر، هو ما جعلها تعتق الإسلام، وتبحث عن حياة جديدة، في بلد كانت تمني أن يستقر، ويتخلص من الاحتلال.

• بين مرسيليا ووادي سوف:

حرصت الرحالة في مرحلة انطلاقها من مرسيليا نحو الجزائر، على تسجيل العديد من التأمّلات في ماضيها مع عائلتها، ومع أخيها الذي ودّعها في الميناء، واستطاعت أن ترسم لوحة كذلك بانورامية لميناء مرسيليا: "الديكور ساحر، يظهر فيه على الخط الأول ميناء جوليت الذي يضم القوارب وبعض المنازل السوداء الكئيبة شبيهة بالشكّات في تناظرها" (Eberhardt: 1908, p.37) ثم تظهر المدينة في شكل مدرج، ويتوسطها الميناء القديم، وشارع مشهور باسم (Cannebière) نسبة لمصانع الخيوط والحبال التي كانت موجودة فيه، ولاحظت إيزابيل طغيان اللون الرمادي على مرسيليا: الرمادي الشفاف في السماء، والحبال المحيطة بها، وفي الصخور، والرمادي المحمر في أسطح المنازل، والرمادي الرصاصي في ريوه كنيسة (Notre Dame de La Garde) وفي الأسفل الرمادي الفضي للحصون، ولا يكسر هذا اللون سوى بعض الحشائش الجافة البنية التي نبتت في الصخور، وكذلك أشجار الطرقات، وقبة الكاتدرائية الذهبية، ولا نعدم ضمن هذه الملاحظات حول ألوان الطبيعة الحس الفني لدى الكاتبة وميلها للرسم.⁷

ولأن كتاب ملاحظات على الطريق تخل فيه عقدة السرد كما سبق ذكره، فإن الكاتبة عوض أن تواصل سرد رحلتها إلى الجزائر انتقلت مباشرة إلى الحديث عن ذكرياتها في مدينة وادي سوف في الجنوب الشرقي للجزائر، واسترجعت أحداث بقائها في مستشفى المدينة بسبب إصابتها من قبل أحد المعارضين للطريقة القادرية، ثم خروجها من المستشفى وعودتها إلى مرسيليا بعد نفي فرنسا لها من الجزائر، وقد عبرت عن حزنها الشديد وهي هناك، ونعت فقدها وبعدها عن كل ما أحببت في سوف التي أعطتها اسم « Mon bled » أي بلادي، وعلى الرغم من محبتها للمدينة الأوربية مرسيليا لكنها بكت قائلة: "من يعيد لي بلادي المشمسمة إلى الأبد، وزوايانا البيضاء"⁸، والمنازل ذات القباب الهادئة⁹، والآفاق اللانهائية من الرمال، و"الروبوحة الكحلة"¹⁰، وانخدم الطيبين المخلصين، وسوف [حصانها] المتواضع والمخلص، وبليسة المزججة، وأرانبي، ودجاجاتي، وحمامي.. من يعيد للمعترب الضعيف سقف بيته، ولليتم أفراد أسرته؟" (Eberhardt : 1908, p.45)

واجتهدت الكاتبة ضمن هذا الجزء النوستالجي في الالتزام قليلا بتقاليد الكتابة الرحلية، فقدمت وصفا مفصلا للمدينة، وعددت المواضيع التي أثارت حينها: من أحياء، وشوارع، ومقبرة، وزاوية، وواحات، وحدائق مزروعة بالخضر والفواكه، كما عرفت بشخصيات المدينة العسكرية منها والمدنية، واسترجعت أيام تجوالها وسهراتها مع زوجها سليمان أهني (تزوجا عرفيا قبل عقد القران مدنيا في مرسيليا)، وختمت سرد ذكرياتها في سوف ببعض التفاصيل عن رحلتها إلى مدينة باتنة براء، التي نعمت فيها إيزابيل بإقامة مريحة، أنستها روعة جبال الأوراس الشاخنة، وجمال الحدائق والأشجار الخضراء الرطبة، عناء السفر في الصحراء القاحلة، ذات الأفق اللامنتهي، لكن باتنة بكل ما حباها الله من ظلال وارفة، وحفيف أوراق طرية، وعيون جارية، ولساتين مثمرة، لا يمكنها أن تقارن مع ما في وادي سوف الصحراوية من ظلال النخيل الرقيقة المنحنية، وأصوات أوراق الجريد الإيقاعية، وبرودة مياه الآبار المنعشة بعد نهار حار جدا، وغيطان مبهجة بنخلها المختلف أطواله وألوانه. (Eberhardt : 1908, p.57)

ومثلها قارنت بين المدينتين باتنة وسوف، تعمقت الكاتبة في تأملاتها، حيث قارنت كذلك بين حياة المؤمن البسيط الأمي، وحياة الغربي المثقف البعيد عن دينه وخالقه، وبين حياتها وهي في أوروبا لا ينقصها شيء من الماديات، وحياتها في صحراء الجزائر المعذمة والفقيرة ماديا، فجعلتها الحياة الأولى فقيرة ذهنيا وأخلاقيا، معتمة الرؤية، أما حياتها بالجزائر فهي تستحق أن تعاش، وهي نفورة بها، وتستغل إيبرهات الفرصة للتعريض بالكتاب المستشرقين: "أشباه المفكرين الذين كانوا يجمعون عباراتهم لتشويه سمعة العالم البدوي الصحراوي، وإهانة هذا العالم الذي هو أجمل وأروع وأحسن مهذب للأرواح". (Eberhardt: 1908, p.64)

• على طريق بوسعادة:

افتتحت إيزابيل أخبار رحلتها من الجزائر العاصمة - محل إقامتها مع زوجها سليمان أهني - متوجهة إلى بوسعادة مدخل الصحراء الجزائرية بذكر أسباب تلك الرحلة، وهي جلّها نفسية ذاتية: "للهرب من تفاهة الحياة في مدينة الجزائر ومن ضوضائها وحشدها، أردت رؤية الجنوب مرة أخرى، بلاد الصمت النافع؛ فالعودة إلى الحياة لن تكون إلا في لحظة واحدة، في الحياة الحرة هناك، التي كنت أتأسف على فقدها منذ مدة طويلة، وأنا في الجو العدائي للمدن الكبرى الغارقة في الحضارة." (Eberhardt: 1908, p.66)

سافرت الرحالة سريعا، حيث لم تكن لها وقفات مطولة في المحطات الواقعة بين الجزائر وبوسعادة، لكنها ذكرت بعض المدن التي مرت عليها مثل برج بوعريريج، التي بدت لها مدينة صغيرة تائهة في سهل شاسع، تم حصاده، ذات قلعة محجرة الجدران، أما مدينة المسيلة المرحلة التالية فكانت للكاتب فيها وقفة مطولة إما وصفا، أو تأملا في المكان والسكان، وقد سمّتها مسيلة النائمة، لشدة الحرارة فيها شهر جوان، حيث يهرع الرجال للنوم في الشوارع الترابية المعزولة عن الشمس هروبا من حرارة المنازل، والمدينة كما رأتها إيزابيل كانت تعرف نشاطا متناقضا بين حياة المصلين، والذاكرين، ونشاط فئة أخرى من الرجال والنساء المهودور في السهر والرقص والغناء، والسكر والمجون، وقد وجدت الرحالة المدينة جميلة تشبه القصر الصحراوي، يقسمها واد إلى نصفين، ويربط بين القسمين جسر حديدي، والقسمان أحدهما حديث البناء هندسته أوربية بشوارع مستقيمة عريضة، لا تحوي أي ظلال أو غموض، وهو ما لا تفضله الكاتبة، وقد وجدت ضالتها في القسم الثاني كما أخبرت: "المدينة القديمة، المكدسة، الفوضوية، بمسكنها المبنية بالطوب المسود، وشوارعها غير المسماة، دون أرصفة، وغير معبدة، مبهجة بشكل غير متوقع، مع أن كل الشوارع متشابهة." (Eberhardt : 1908, p.71)

أما نساء المسيلة فكان عاديات، يذهبن للوادي الملى قربهن المصنوعة من جلد الماعز، أو الطين، وهن ملتحفات بقماش كثير الثنيات أزرق أو أحمر، وأرجل عارية تنزلق على الحصى المجانب لمجرى الوادي، لكنها رأت أنهن لا يشككن أية غرابة، ولا يحملن الغموض الذي أحست به في نساء وادي سوف. (Eberhardt : 1908, p.72- 73)

واصلت الرحالة الطريق مع مرافقها في اتجاه الجنوب على متن أحصنة، فمرت على بسائط الحصنة الواسعة، الشبيهة بالأراضي الصحراوية، لوجود رمال فيها، لكنها محمرة، وتضم هذه المنطقة سبخة كبيرة، ومكان يسمى "بانيو"، وهو برج عسكري تحته طريق أشجار صنفصاف تؤدي إلى بئر به ماء حار وضار، وبعد بانيو يأتي بئر الخالي لكن به ماء صاف وبارد، وبعد مرحلة طويلة من المشي في أراض جرداء

كلسية، تظهر في أعلى التل مدينة بوسعادة بقصبتها المطلة على المدينة والحدايق، وللمدينة واد يجري أسفلها يؤدي إلى "فواره" وهي عين متفجرة بها ماء بارد تسمى بعين بسام، التي ترجمتها الكاتبة بالفواره المتسمة¹¹، ومثل المسيلة تنقسم بوسعادة إلى قسمين بينهما منحدر، وتجمعهما قنطرة، ويضم القسم الأول منها الحي الأوروبي، والمكتب العربي (Le bureau arabe)¹²، وقضاء الصلح (Justice de paix)، وفي الجهة المقابلة القسم العربي القديم، بمنزله المبنية من الطين، وهي بوسعادة الحقيقية، والقسمان تحيط بهما تلال عالية تطل عليها جبال المدينة التي رأتها الكاتبة غربية، ككل جبال الجنوب الصحراوي، مغلقة وذات أسطح مائلة، بعضها يتجه نحو الأسفل.

وتقدم إيزابيل ملاحظات حول سكان بوسعادة، ومنها محافظتهم على التقاليد وعلى أساليب العيش القديمة، ووصفت الرجال البوسعاديين ولباسهم، فهم ذوو بشرة مسمرة، ووجوه ذات ملامح ذكورية، أو زاهدة، لهم عيون براقية بجذوة قائمة، أما لباسهم فيتكون من عمامة مربوطة بخيط رملي اللون (Beige) مصنوع من شعر الجمال، ويرنس له طاقية (capuchon du burnous)، مع مسبحة على الرقبة، بهذه الهيئة عدت الرحالة الرجال من عصر آخر، ومن عالم آخر. (Eberhardt: 1908, p.78-79)

أما لباس النساء، فكان صعبا ارتداؤه، يتألف من سترة يونانية كثيرة الثنيات من القطن الموصلي (mousseline)، وحزام مربوط أسفل الخاصرة، أما تصفيفة الشعر فكانت ضخمة، تمتد عرضا، وهي ملائمة أكثر للمرأة الكبيرة في السن، والنحيفة، والمرنة، لكن حال النساء اللواتي رأتهن الرحالة يترددن في الشوارع كن: "مومياوات مسنات بأسأت حالهن مؤسف" (Eberhardt:1908, p.79) بهذا الانطباع تحيل إيزابيل إيبرهاتر إلى الاحتلال الفرنسي الذي كان سببا في الحالة المزرية للنساء المسنات، اللواتي اضطرن للخروج للعمل، ولكسب قوتهن.

وأشارت في معرض سردها لأحداث السفر في الصحراء إلى عادة الأدلة والمرافقين في ترداد الأناشيد والأغنيات الشعبية، التي كانت لها دور كبير في التخفيف على المسافرين التعب، وتسليتهم، وإبعاد الملل والخوف، والوحشة عنهم، كما عرفت بوسائل الموسيقى المحلية وأشهرها الغايطة والبندير. (Eberhardt : 1908, p.75)

وعلى عكس ما نقرأه في الكتب الاستشراقية، حيث ينتصر أصحابها للحضارة الغربية، والتقدم في التقنيات الفلاحية والعمرائية، نجد إيزابيل إيبرهاتر تفضل البساطة والعشوائية في الغراسة، والبناء، وتصميم الشوارع، وقد ميزت بين حديقة عربية تابعة لزاوية الهامل الواقعة في طريق الجلفة، وحديقة أوربية مقابلة لها، فوجدت الأولى جميلة للغاية، عكس الحديقة الأوربية: "بها زراعة للميموزا النحيلة،

وأشجار التوت غير المناسبة¹³، كلها محاطة للأسف بأسلاك شائكة، هذه الحدائق بتصنيف هندسي منتظم خالية من الغموض والسحر، مثيرة للشفقة بجوار الحدائق العربية الرائعة، المزروعة عشوائياً بنخيل قريب من الطبيعة، وغني مثلها، إن الانضباط الكثيب، والسجناء (أي المزروعات) المساكن وحراسهم لا يعرفون ما يعرفه الفلاح الجاهل والشاعري كيف يزاوجون بين اللون الفاتح للكرمة واللون الداكن لأوراق شجرة التين، ولا إلقاء الوردى الفاتح لنبات الدفلى وسط أشجار النخيل العظيمة، واللون الأحمر المتوزع لأشجار الرمان والظل القاتم لأشجار التفاح." (Eberhardt : 1921, p.79)

ولأن الكاتبة لها ميل كبير إلى الصوفية وأهلها، فقد نعمت بإقامة هادئة ومريحة في زاوية الهامل، وحظيت بلقاء مردي الطريقة الرحمانية، وابنة سيدي أحمد القاسمي لالة زينب الوريثة الوحيدة لشيخ الزاوية، واستغلت إيبرهات الفرصة للإشادة بالزاوية، وبينت دورها البارز في تربية ورعاية الفقراء، واليتامى والأرامل، والمعاقين حركياً، فضلاً عن تكوينها للطلبة في علوم الدين واللغة العربية، خلاف ما روجه بعض الكتاب من أن الزوايا الإسلامية هي "مدارس للتعصب الديني." (Eberhardt: 1908, p.83)

رجعت إيزابيل إيبرهات إلى الجزائر العاصمة على طريق سور الغزلان، وكانت جد حزينه لتركها بوسعادة والزاوية ولالة زينب، هذه الأخيرة تعلقت كثيراً بالرحالة وكانت تذكرها على الدوام، وهو ما أفادها به السيد أبو بكر مرافقها للمدينة، الذي قابلته بالعاصمة، وقد دعاها للعودة مرة أخرى إكراماً للمرأة المسنة، التي كانت تعاني من المرض، فلبت إيزابيل الدعوة بسرعة وانطلقت في السفر على الرغم من برودة الطقس، وهي في فرحة شبهتها بحالتها وهي ذاهبة لقطف الأزهار من حديقته. (Eberhardt: 1908, p.86)

• الجنوب الوهراني:

تحقق حلم إيزابيل إيبرهات في أن تعمل في التحقيق الصحفي حول الجزائر، والمعارك المندلعة فيها بين الأهالي والسلطة الاستعمارية، فقد كلفتها جريدة الأخبار بتغطية أحداث مواجهات حدثت في تاغيت والمنقار بمدينة بشار في خريف 1903 بين السكان المحليين وأتباع بوعمامة والجيش الفرنسي، وكعادتها اتجهت نحو المنطقة وهي بلباس رجل، وباسم "السي محمود السعدي" طالب علم تونسي، ومحب للزوايا والطرق الصوفية، وقد سارت بالقطار عبر المحطات الغربية نحو الجنوب الوهراني، فوجدتها على الرغم من طولها جميلة، وكانت الرحلة عبر مرحلتين: مرحلة الجزائر- المحمدية ومرحلة المحمدية- العين الصفراء.

عددت سريعا بعض المحطات منها: المحمدية، وسعيدة المدينة التعيسة التي يقصدها الأجانب من كل بلد للانضمام للجيش الفرنسي، وعين الحجر، وبوراشد، وطفراوة، التي كانت أماكن استراحة، واستمرت الرحلة عبر القطر في الأراضي الصحراوية، فمرت على قرية الخيثر، وجبل عنتر، والمشرية، وفي هذه المنطقة السهبية وما بعدها وجدت الرحالة الطريق على رتابتها وخطورتها ساحرة، بمخلفاتها وشجيراتنا الزاحفة على التربة الحمراء، وجبالها الظاهرة من بعيد بعد المشرية ومنها جبال: مكث، ومير الجبال، وشفيفية.

تصل الرحالة مدينة العين الصفراء، لكنها لم تكن تنوي البقاء بها طويلا، هذه المدينة لم تعد كما كانت حامية الجيش الفرنسي، عادية وهادئة، بل أحييت مع الاضطرابات في المنطقة والاضطرابات في المغرب أيضا الزمن البطولي لبوعمامة، واستعادت الضوضاء مع تزايد القوات الوافدة والمغادرة، كما استرجعت القلق والحركة. (Eberhardt: 1908, p.97)

زارت الرحالة ضمن عمل التحقيق (الجرحي من العسكريين بمختلف طوائفهم، وأجرت محادثات معهم، وما استنتجته هو أن أغلب من في المستشفى من الأجانب الألمان والإيطاليين، ومن مختلف الجنسيات موجودون في البلاد ويحاربون بها من غير دافع، لأن قضية احتلال فرنسا للجزائر ليست قضيتهم، ولهذا أحست بالشفقة عليهم، أما العرب في المدفعية والصباحية، فهم لا يجدون أيضا فائدة في حربهم مع الأعداء الذين حسب المخازني سيدي مولاي من العين الصفراء هم قطاع طرق وسراق لا يمكن أن يتخلوا عن طبيعتهم؛ فهم مجبولون على حمل السلاح والبارود.¹⁴

سافرت إيبرهات عبر القطر إلى حجرة مغيل لمحاوره الجرحى هناك، فكانت الطريق قاحلة وموحشة لا يوجد فيها سوى الحجر والحصى، قلا نباتات ولا رمال، بدا المشهد مظلمًا ورائعًا، كأنه فرن متحجر، لكن ما تلبث أن تنبهر بواحة خلافة سابقة لحجرة مغيل وهي قصر المجرار الفوقاني، به بستان أشجار نخيله صغيرة، في قاع واد رطب، وحوالي ثلاثين منزلا بربريا مرتفعا، مبنية بالطوب، وهي بفوضاها رشيقة، وبخضرة حقول الشعير، وبتنوع ألوان أشجارها ونباتاتها من طماطم وفلفل يزداد القصر سحرا وجمالا.

(Eberhardt : 1908, p.106)

وتستحسن الكاتبة في حجرة مغيل بساطة العربي المسلم، وسهولة مصاحبته، لأنه سريع الثقة بالغير، وكذلك لمست الكرم الفياض لأهل المكان، حيث ضيفوها وبالغوا في دعوتها، وقد شربت الكثير من القهوة بسبب إلحاحهم الشديد عليها، وكذلك تناولت عصيرا شفافا لم تعرف مصدره¹⁵، شبهته بشراب عرق السوس الذي يقدم في المستشفيات. (Eberhardt: 1908, p.109)

كما سجلت عبورها وهي في القطار على جنيان بورزق أو جنين بورزق، وهو سهل محترق، محمر التربة، به أكواخ قليلة منعزلة، وذكرت دوفيرييه (Duveyrier) المدينة الأوربية المحطمة، لكنها كانت عامرة بالسكان وبها حركة تجارية نشيطة، تحولت في وقت زيارة الرحالة إبيرهاتر لها إلى مكان خال مهجور، ومكبّ نفايات للسكان هناك، وفي هذه المنطقة أي مغرار، وجنجان بورزق، ودوفيرييه كانت مقاومة الشيخ بوعمامة نشطة، وشكل اسمه رهبة ورعباً للفرنسيين وللعرب الموالين للجيش الفرنسي.¹⁶

توغلت الرحالة إبيرهاتر في الجنوب الصحراوي متوجهة عبر القطار نحو بني ونيف، وهي المدينة الجديدة التي خلفت دوفيرييه المهجورة، وقد مر القطار على وادي زوزفانة عبر قنطرة حديدية رمادية اللون، اعتبرتها الرحالة قبيحة غير مناسبة لديكور الحلفاء والقصب وزهور الدفلى، وهذا الوادي يلتقي مع "وادي غير" ليشكلاً وادي الساورة في منطقة إقلي، وهو لا يجف أبداً، حوافه خضراء بالنباتات في فصل الصيف، يقع يسار وادي زوزفانة وسهل جنان الدار، وبعيدا يظهر جبل سيدي مومن.

أما بني ونيف، وهي مقصدها الأساسي قبل فجيح فكانت لها واد جاف بتلال قاحلة متجهة نحو الغرب في أفق متوهج، هذه الطبيعة التي يملأها التراب والحجر، رأتها الرحالة مختلفة عن الجنوب الشرقي المحب لديها بعرقها الكبير الصافي، وكثبانه الرملية النقية والمتألثة في وادي سوف، وبساتين النخل الغامضة في وادي ريغ المالح. أما فجيح فهي واقعة على اليمين لها جبال كبيرة، في خطوط متناغمة، وبساتين نخيل منقطة بالأسود. (Eberhardt: 1908, p122- 123)

تقدم الكاتبة إيزابيل وهي في بني ونيف وصفا دقيقا مقسماً إلى مشاهد تجمع بين الواقع والخيال، فوصفت القصر¹⁷ ومنازله الخربة، والقرية الجديدة والمقبرة التي تحتضن سيدي سليمان¹⁸، وقد لاحظت أن القصر هادئ وساكن شبه مهجور، على الرغم من بقاء بعض ملاحم القصور الصحراوية فيه، كالأزقة الضيقة المظلمة بسبب تغطيتها بجريد النخيل، لكن ذلك لا يمنع من دخول بعض من أشعة الشمس عبر ثقوب الأغطية تلك، وكان القصر مكانا لتجمعات القبائل البربرية، وتظهر بقايا بيوت عربية مدمرة بها أواني خزفية مكسورة، وخرق بالية بفعل لفحات الشمس، وآثار دخان أسود على الجدران، وكنقيض لصورة القصر الساكن والمظلم، والمهدمة منازلها، تظهر القرية الجديدة الواقعة جنوبا مكتتضة، بها حركة نشيطة، تنتشر فيها حدائق رطبة بين البيوت المفتوحة على الشمس، وفقاقير¹⁹ جوفية موجهة عبر متاهة من الممرات تمر تحت الحدائق والشوارع: "مدينة مليئة بالظل والغموض الأبدي"

(Eberhardt: 1908, p.124) أما في الجهة الغربية فكانت مقبرة المسلمين بابها المنخفض جدا، لكن الرحالة أعجبت بانعدام سور أو سياج يحيط بالمقبرة، وهو ما عدته شيئا إيجابيا يبعد الحزن والكآبة

لتذكر الموت، والانشغال بالرتابة في الديكور الفارغ، وما يجمع القصر والقرية المتناقضين غبار الجير الأحمر، الذي يغطي كل شيء أيام هبوب رياح العجاج.²⁰ وتحدد الكاتبة أنواع السكان في بني ونيف فتذكر العرب المرابطين (les Zoua)، كلهم يدعون - كما قالت الرحالة- أنهم من سلالة سيدي التاج، المنحدر عن سيدي سليمان بن أبي سماحة، وسيدي الشيخ، وبالتالي لهم قرابة مع الشيخ بوعمامة، يتكلمون العربية فيما بينهم، يعيشون منفصلين عن الغير فخورين بأصلهم الشريف، أما لباسهم فهو لحاف كثير الثنيات من الصوف الخشن والرديء، يعكس فقرا مستمرا في قصورهم على مر القرون، وحياة في الظل، لهم أجسام ضعيفة وبشرة بيضاء، لكنها شاحبة، بعضهم جميل لكن جمالهم مخنث، فليس لهم لا الأناقة ولا المرونة التي يتمتع بها البدو الرحل، لذلك استنتجت إيزابيل أنهم ليسوا رجال حرب، بل يصلح أن يكونوا حرفيين، أو كتبة.

(Eberhardt : 1908, p.126)

أما النوع الثاني، فهم البربر من ذوي البشرة البيضاء من الفلاحين، والنوع الثالث هم الذين يسمون بالحراطين، وهم السكان الأصليون والحقيقيون للصحراء، وهم أحرار السود الذين لم يستعبدوا، ويشكلون الأغلبية فيها، وقد ظلوا في المنطقة بينما تعرض العديد من المرابطين إلى النفي إلى آفلو من قبل المحتل الفرنسي؛ بسبب انتسابهم أو دعمهم للشيخ بوعمامة، ولغتهم الشلحية بدت للكاتبه قريبة من لغة بربر غرداية في الجنوب الشرقي من البلاد.

(Eberhardt : 1908, p.127)

ويختلف عن الحراطين العبيد السود الذين يرجع أصلهم إلى توات، أو القورارة، أو السودان وهم يتواصلون بلغات زنجية مختلفة، وهم مثل الحراطين منبوذون من المجتمع أكثر من اليهود، وهم لا يستشارون في الجماعة أبدا، وتستغرب الكاتبة من هذا الموقف وهذه العنصرية، حيث على الرغم من أنهم مسلمون، لكنهم ليس لهم قيمة في المجتمع

(Eberhardt : 1908, p.127)

وتخصص الكاتبة قصة قصيرة لطفلة تسمى فاطمة، وهي التي استغلتها للحديث عن طبيعة الأطفال في قصر بني ونيف، حيث عدتهم مصدر الحيوية والارتياح مقابل صمت القبور، والنوستالجية المحزنة في القصر، أكثرهم سود يلبسون لباسا عادة ما يكون قصيرا، حافية أرجلهم يتجولون في الطرقات ويلعبون، ولا يترددون في استجداء الجنود الفرنسيين، والإلحاح عليهم لإعطائهم بعض الفلوس: "تعلموا مبكرا التسول لدى الجنود الذين كانوا يمرون عليهم: يقفزون، وينتظرون بشغف، يستمرون في استعطافهم وعناقهم كالقطط الصغيرة، ثم يتشاجرون بشراسة من أجل القطع النحاسية التي تقذف لهم، يتمرغون ويعضون التراب [لالتقاط الفلوس من الأرض]".

(Eberhardt: 1908, p.128)

رجعت إيزابيل إيرهارت نحو الشمال وفي اتجاه العاصمة، بعد زيارة بلدة فجيح وزاويتها، وهي في حالة حزن على فراق الصحراء، وكانت طريقها على الهضاب العليا فرت على تيوت، والشلالة التي كان يسكنها الشلحيون، وصولاً إلى مدينة البيّض، ثم بلدة أفلو التي أعجبت بمحافظة أهلها على صناعة الزرابي، على الرغم من معاناة المنطقة خاصة في الجبال من الحروب والمواجهات بين جنود المقاومة والجيش الفرنسي، التي كان القومية²¹ دائماً مصدر أخبارها للعرب في البلدة، ومن أفلو توجهت إلى الجزائر العاصمة. (Eberhardt : 1908, p.224- 225)

وتجدر الإشارة إلى أن رحلة إيزابيل وملاحظاتها كانت مضمنة ببعض القصص: كقصّة بكاء شجيرات اللوز التي أهدتها للرسام ماكسيم نواريه (Maxime Noiré)²²، وقصة زوجة التيجاني، وقصة فاطمة الصغيرة، وقصة مريومة، والفلاح، والراقصة، ... وغيرها من القصص التي تزخر بالملاحظات الإثنوغرافية والتاريخية والجغرافية ضمن إطار السرد القصصي لرحلتها، فلا يشعر القارئ بانفصال أو تنافر بين الكاتبين العلمية الإنسانية والكتابة الأدبية، وكل تلك القصص كذلك لا تنفصل في نسيجها عن الإطار العام لكتاب ملاحظات على الطريق.

خاتمة:

نخلص في آخر هذا المقال إلى أن رحلة إيزابيل إيرهارت لم تكن كالرحلات الفرنسية الاستشراقية العنصرية الاستعمارية، بل كانت وثيقة تاريخية وإثنوغرافية أضاءت ما خص الجزائريين باختلاف قبائلهم وأصولهم ووضعياتهم الاجتماعية، وعرفتنا بعاداتهم في الحل والترحال، ووسائل عيشهم، ولباسهم، وطقوسهم الدينية والشعبية، ومن وراء كل ما قدمته الكاتبة، نلهم قوة الشخصية التي تمتعت بها؛ حيث كانت في حالات عطوفة ولينة، وفي حالات أخرى قاسية منتقدة شديدة الملاحظة مرهفة الحس، دقيقة التعبير، ذات لغة مشحونة ومحملة بمعان إيجابية، خاصة إذا ما اقترنت بتعاليم الدين الإسلامي، وبالمسلمين، وبتقوسهم على نقيض الكتابات الرحلية الغربية الكثيرة التي كانت تستغل كل مناسبة للحط من الإسلام، والمسلمين، ومن عادات السكان المحليين وطقوسهم، وأكبر دليل أسلوبها الشعري الجميل عن الآذان، وصلاة الفجر، وتلاوة القرآن، وحياة الطلبة والمرابطين والزهاد، كما نجد حرص إيزابيل إيرهارت في كتابها "ملاحظات على الطريق" على نقل المشاهدات نقلاً واقعياً لا تحيز فيه ولا تزييف، كما رسمت التناقضات التي لمستها في البلاد، التي تمثل الصورة الحقيقية للجزائر المحتلة أثناء فترة ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

قائمة المصادر والمراجع:

-Eberhardt, Isabelle: notes de route Maroc- Algerie- Tunis, textes réunis par: Victor Barrucand, les Bourlapapey edition , et bibliothèque numérique romande, 1908, 284p.

-أساعد، سميرة: الرحالة إيزابيل إيبرهارت في تونس مشاهدات وتأملات في الساحل الشرقي، "مقال"، مجلة العربي، الكويت، ع. 766، سبتمبر 2022.

-Ibrahim, salami: Mechria history,

<http://brahimsallami.blogspot.com/2010/12/mechria-history.html?m=0>

الهوامش:

¹ - هو Hubert Lyautey (1854 - 1934)، جنرال فرنسي قابلته إيبرهارت في بني ونيف، وقد زودها بالدعم والمساعدة للقيام بمهام التحقيق الصحفي في الجنوب الوهراني.

² هي جريدة محلية قديمة اشتراها فيكتور باروكون (1864 - 1934) عام 1902، كانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية، وعرف عنها دعمها للشعب الجزائري وتعاطفها معه لأغراض إنسانية لأكثر من ثلاثين سنة، أي حتى وفاة باروكون.

³ صحيفة يومية قديمة كانت تصدر بالفرنسية ظهرت عام 1885 واستمرت طويلا، وهي يومية سياسية.

⁴ ترجمه للعربية عبد السلام المودني، وصالح الأشمر، طبعت الكتاب دار منشورات الجمل في كتابين: يضم الأول اليوميات الكاملة، وملاحظات على الطريق، وتشرّد، وفي الكتاب الثاني مجموع أعمالها المتخيلة وهي 57 قصة، ورواية المتشرّد غير المكتملة.

5 Isabelle Eberhardt, Dans l'ombre chaude de l'Islam, édité et arrangé par: Victor Barrucand, les Bourlapapey edition , et bibliothèque numérique romande, 1921, 302p.

6 Isabelle Eberhardt, notes de route Maroc- Algerie- Tunis, textes réunis par: Victor Barrucand, les Bourlapapey edition , et bibliothèque numérique romande, 1908, 284p.

⁷ تأثرت إيزابيل بالفنان التشكيلي إيتيان دينيه ناصر الدين (1861 - 1929) عاش في بوسعادة وخالط سكانها، وأبدع في رسم لوحات عن الجزائر، أسلم وحج قبل وفاته بأشهر قليلة.

8 الزوايا جمع زاوية دور العبادة والتدريس، والإيواء وإطعام الواردين والقاصدين، وارتبطت في الجزائر كذلك بنشاطات الطرق الصوفية السياسية والاجتماعية، والثقافية.

⁹ تسمى وادي سوف اليوم مدينة ألف قبة وقبة، لكثرة القباب فيها على أسطح المنازل البيضاء.

¹⁰ لعله موضع، أو مكان استراحة.

¹¹ وهي ليست مدينة عين بسام الواقعة في البويرة ولاية داخلية بالجزائر تبعد عن العاصمة ب حوالي 100 كم.

¹² تأسست المكاتب العربية بالجزائر من قبل المحتل الفرنسي بعد سنة 1833، وهي هيكل إداري يعمل به المستشرقون الفرنسيون والعلماء، والمخبرون المكلفون بقضايا السكان الجزائريين لمساعدة الإدارة المحتلة.

¹³ تشير إلى كون النباتات الموجودة فيها غير ملائمة للبيئة الصحراوية فرأت الميموزا نخيلة ينقصها الماء والجو المناسب لها، وأشجار التوت كضيف ثقيل غير مرحب به.

¹⁴ الواقع أن الاضطرابات الحاصلة لم تكن لسبب السرقة بل كانت حركة جهادية وثورات قامت بتحالف البدو مع ابن الأمير عبد القادر الأمير عبد المالك، والشيخ الجليلي بن عبد السلام الزهوني الملقب الروقي بوحارة قائد المقاومة المغربية ضد السلطان عبد العزيز مع الشيخ بوعمامة للإضرار بالاحتل الفرنسي، ومساعدتهم من الجيش المغربي، وإبعاده عن منطقة الجنوب.

¹⁵ لعله شراب اللاقي المستخلص من ثمار النخل، يشبه عصير الأناناس، يصبح مسكرا إذا تعدى 72 ساعة.

¹⁶ بسبب المقاومة، والمواجهات كان الجيش الفرنسي يؤسس قرى وتجمعات لأفراد الجيش، ولوضع المعدات، والاستراحة فيها، وتستقطب بعد ذلك البعض من السكان المحليين الذين يمارسون التجارة ويفتحون المقاهي والحانات، والدكاكين، لكن بمجرد أن تنتقل المواجهات لمناطق أخرى تموت تلك المعامل، وتوقف الحركة والحياة فيها. ينظر:

Ibrahim, sallami, Mechria history, <http://brahimsallami.blogspot.com/2010/12/mechria-history.html?m=0>

¹⁷ جمعها القصور وهي موجودة في الجنوب الجزائري ومنها جنوب ولاية النعامة، وهي تجمعات سكنية أو قرى محصنة، مبنية على مشار الحاربي المائية للوديان، قريبا من واحات النخيل والبساتين، سكانها القدامى كانوا من الشلحين ذوي الأصل البربري، من أشهر القصور في المنطقة قلعة الشيخ بوعمامة، وقصر مغرار الفوقاني، وقصر تيوت، وقصر الصفيصيفة، وقصر عسلة.

¹⁸ هو الشيخ أبو داود سليمان بن أبي سماحة فقيه أديب محدث صوفي، يعود نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولد عام 865هـ- 1461م، درس في مركز البوبكرية الذي أسسه والده أبو سماحة في فجيج على يد المعلمين الأدارسة، وأكمل دراسته في المغرب والأندلس، ودرس في القرويين، عاش ي بني ونيف، وأسس زاوية علم فيها الطريقة الشاذلية التي أخذها عن شيخه القطب سيدي أحمد بن يوسف الملياني، شارك في حركة التثقيف وتعليم الدين للامة ونال لقب مقدم وانضم إليه قبائل المنطقة كالبوبكرية والرزاينة وأولاد زايد، والعكرمة والحجيان، توفي في فجيج عام 945هـ- 1539م، ودفن في بني ونيف.

¹⁹ جمع فقارة، وهي قناة ري قديمة، وهي مصدر أساسي للمياه بالأراضي الصحراوية، وهي مجموعة آبار موصولة بأنفاق تشق لتوصيل المياه فيما بينها، وهو نظام تقليدي صنت اليوم ضمن التراث العالمي.

²⁰ العجاج هو عاصفة غبارية أو رملية حسب الطبيعة الصخرية لسطح الأرض، يكثر في الربيع والخريف.

²¹ القومية جيش مكون من جنود جزائريين، وهم فرسان يلبسون لباس عسكري أحمر وبرنس أبيض وعمامة بيضاء، كانوا يعملون لصالح فرنسا الاستعمارية، أي خونة وعملاء للجيش الفرنسي.

²² ماكسيم نواريه (1861- 1927) هو رسام فرنسي، عاش في الجزائر لدواع صحية، واستقر في العاصمة وكانت له رحلات إلى الجنوب، وبقي مدة في بوسعادة، وأصبح مثل إيتيان دينيه من الرسامين عاشقي الصحراء الجزائرية، له عدة أعمال قدمت مناظر عامة عن أكبر أحياء العاصمة وتيبازة، وبوسعادة.

مناهج التحليل النفسي للأدب في الدراسات الغربية

Psychoanalytic approaches to literature in Western studies

د. المصطفى اكرتاب

دكتوراه في الدراسات العربية، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب

PhD in Arabic Studies, Faculty of Language, Cadi Ayyad University, Marrakech / Morocco

Email : qatarabelmostapha1@gmail.com

الملخص:

يبرز البحث مناهج التحليل النفسي للأدب في الدراسات الغربية، فقد ربط سيجموند فرويد Sigmund Freud (1856 - 1936) الإبداع الأدبي بالاشعور الفردي، وجعله كارل كوستاف يونغ Carl Gustav Jung (1875 - 1936) متصلا بالاشعور الجمعي، ودرسه كاستون باشلار Gaston Bachelard (1884 - 1962) من منظور أحلام اليقظة، أما شارل مورو Charles Mauron (1899 - 1966) فاعتبره شبكة من الدلالات المستقلة عن الوعي. الكلمات المفتاحية: الإبداع الأدبي - الاشعور الفردي - الاشعور الجمعي - أحلام اليقظة - النقد النفسي.

Abstract:

This Research highlights psychoanalytic approaches to literature in Western studies. Sigmund Freud (1856 - 1936) links literary creativity to the individual unconscious, and Carl Gustav Jung (1875 - 1936) links it to the collective unconscious, Gaston Bachelard (1884 - 1962) studies it from the perspective of daydreams, whereas Charles Mauron (1899 - 1966) considers it a network of meanings independent of consciousness.

Keywords : Literary creativity - Individual unconscious - Collective unconscious - Daydreams - Psychological criticism.

مقدمة

يضرِب النقد الغربي للأدب من وجهة نفسية بجذوره في تاريخ بعيد يمتد حتى الحضارة اليونانية، فقد رأى أفلاطون (347-427 ق.م) الشاعر مجنوناً ملهماً، لا يصدر شعره عن العقل، لأن الآلهة هي مصدر إلهامه، ورغم انتقاصه من شأن الشعراء لأنهم يحاكون المحاكى للكامل في عالم المثل - فإنه يعترف بالتأثير النفسي للشعر في مشاعر المتلقين.

حمل أفلاطون على أشعار "الإلياذة والأوديسة" لأنها - في نظره - تروج أساطير خيالية عن الآلهة والحياة فتفسد العقول، وتدخل الرعب في النفوس، ويحدد صنف الشعراء المحتفى بهم في جمهوريته بقوله: " ويتعين علينا مراقبة الشعراء، وبقية الفنانين فحرم عليهم محاكاة الرذيلة، والتهور والوضاعة والخشونة خشية أن يشب حراسنا بين صور الرذيلة، فتمتلئ نفوسهم تدريجياً - دون أن يشعروا - بقدر من الفساد، ويجب بخلاف ذلك أن نشجع الفنانين الذين تهديهم غرائهم إلى الاقتداء بكل ما هو جميل، كي يجني الناشئون الخير من كل ما يحيط بهم، ويتأثروا بكل الأعمال الطيبة التي تبدى لأعينهم وأذنانهم، وكأنها نسيم يجلب معه العافية من مناطق صحية" (أفلاطون، 2004، ص ص 266 - 277).

وجاء أرسطو (322-270 ق.م) فاعتبر المصدر الأول لعلم النفس والنقد النفسي للأدب، ذلك أن آراءه السيكلوجية تتخلل معظم مؤلفاته، كما أنها المحور الذي يدور عليه (كتاب النفس)، وكتاب (الطبيعات الصغرى)، إلا أن نظرتة اللافتة إلى الشعر من وجهة نفسية تجلت في (البويطيقا / فن الشعر)، كما انتقد زعم أفلاطون الذي مفاده أن الشعر مغذ للعواطف، بجانب للعقل، ضار بالمجتمع "فعارضه بنظريته السيكلوجية الرصينة في (التطهير)، أي أن الشعر يستثير عاطفتي الشفقة والخوف على نحو رمزي يمكن ضبطه ثم يظهرهما، وما (البويطيقا) إلا نص في سيكلوجية الفن، وما مبادئ (الهاماريتا) أي الخطأ التراجمي الناشئ عن قصر نظر البطل في موقفه، و(البيريباتيا) أو هزة التغير والانقلاب في مقدرات البطل، وتفضيل المستحيل المحتمل على الممكن غير المحتمل، وغير هذه من المبادئ إلا الدعائم الأولى للحقائق النفسية". (ستانلي هايمان، 1958، ص 259).

أما أفلوطين (205-270 م) فيقر بالفاعلية السحرية للإبداع في النفوس، لأن "الفنان يحظى بوجود غير عادي، فقد حباه الإله بملكة الإبداع الفني التي تفعل فعل السحر في كل ما تلمسه". (إبراهيم زكرياء، د.ت، ص 117).

وفي العصر الأوروبي الحديث آمن كولردج (1834-1972م) بقدره الإنسان على معرفة جوهر الأشياء، وبغض النظر عن نظرتة الثاقبة إلى الخيال، فقد دارت دراساته في فلك اللاوعي حين أشار إلى انطلاق التأملات بلا ضوابط تحكمها، وقد تخلى عنها الوعي الصريح كله، ثم إنه فرق بين الشعر والعلم على أساس عاطفة القارئ وتأثره (ينظر، ستانلي، 260).

وكان لاتصاله بصديقه ومعاصره وردزورث (1770-1850م) أكبر الأثر في نظريته عن ملكة الخيال في الشعر، فاعتقد بوجود قدرة خاصة لدى الشاعر هي التي تمكنه من الإبداع الأدبي، ووافق

كانظ حول الرأي القائل بأن ملكة الخيال ضرورية في إدراك الحقائق والوصول إلى المعرفة كما يوصل إليها العقل.

أما الإسهام الغربي الأكبر في مضمار التحليل النفسي للإبداع فكان على يد ثلة من علماء النفس في العصر الحديث، وسيسلط البحث الضوء الكاشف على المساهمة الفرويدية بشيء من التفصيل لفرادتها وتأثيرها فيما بعدها من دراسات نفسية للعمل الأدبي.

- فماذا امتاز المنهج الفرويدي الذي لا ينفك عن اللاشعور الفردي في هذا المضمار؟
- وما تجليات التصور اليوناني المتعلق باللاشعور الجمعي في الأدب؟
- وكيف تناول باشلار الإبداع الأدبي من منظور أحلام اليقظة؟
- وبأي عدة منهجية نفسية سبر شارل مورو أغوار الدلالة ذات الصلة بلاشعور المبدع في باطن العمل الأدبي؟

1- المنهج الفرويدي: الإبداع الأدبي واللاشعور الفردي:

نظر سيجموند فرويد (Sigmund Freud) (1856-1936م) إلى الأدب من زاوية نقدية اعتمادا على التحليل النفسي بكيفية مخصصة في كتابه (تفسير الأحلام/1990م)، فأرجع العمل الأدبي إلى موضوع (الليبيدو) أو العامل الجنسي.

ورأى أن الفن "إعلاء للشهوة الجنسية للوصول بها إلى درجة السمو" (جان برتلمي، 1970، ص 108). فحين تكبت الغرائز يلجأ الإنسان عامة، والفنان خاصة إلى التسامي فيصرف الطاقة الليبيدية نحو أهداف اجتماعية مقبولة تحقق لصاحبها اللذة المفقودة التي يرحوها "كملك التي يتلقاها الفنان في الخلق والإبداع، أو تلك التي تخامره حين يجسد صورا خيالية ويجسمها". (سيجموند فرويد، د.ت، ص 27).

احتفى فرويد بقيمة التسامي في كتابه: (قلق في الحضارة) خاصة، ذلك أن الدوافع الغريزية التي يتم تصعيدها تدل على التقدم الحضاري، لأنها تتيح لكل نشاط رفيع كالعلوم والإيديولوجيا أن تكون له الكلمة الفصل في الحياة. (ينظر، المرجع نفسه، ص 52).

ويقرر أن الأنا قد يخفق في تحقيق مهامه باعتباره وسيطا بين دوافع الهو وكوابح (الأنا الأعلى)، فتحدث أمراض كالعصاب (Névrose)، أو الذهان (Psychose)، ويضرب مثلا للأنا الأعلى بالعمل الصحفي، إذ يستحضر الصحفي الرقابة المفروضة عليه، فيحور هذه العبارة أو تلك أو يلفظها، أو يكتفي بالتلميح للتوافق مع مقتضيات الرقيب، غير أن المتلقي يفتن إلى أنه - أثناء تحريره - كان يدرك الرقابة من خلال الأساليب الالتفافية في التعبير (ينظر، فرويد، د.ت، ص 326).

لقد سعى فرويد إلى اكتشاف الدلالات الباطنية في العمل الأدبي والفني، وفي نفوس المبدعين من خلال نبشه في المنطقة المظلمة التي أسماها اللاشعور، وهي موضع الرغبات والغرائز المكبوتة ثقافياً واجتماعياً، والتي نتطلع أبداً إلى الإشباع من خلال عملية "الإعلاء"، حتى تتحول إلى معان مرضية عنها في صورة حلم، أو شعر، أو موسيقى، أو ما شابه، "فانخيال والإبداع الأسطوريان يكتسبان في نظرية فرويد وظيفة تصعيد رغبات الإنسان اللاشعورية". (ليبين فاليري، 1981، ص 73).

وفي حديثه عن فلتات اللسان وزلات القلم، يقرر أن الشعراء هم من علموه هذا العلم، إذ يقول: "ولا تعجبوا إن ذكرت لكم أن الشعراء يعلموننا عن فلتات اللسان أكثر مما يعلمنا فقهاء اللغة وأطباء العقول" (فرويد، د.ت، ص 24). ويدين للشعراء والفلاسفة باكتشاف اللاوعي قبله، ويقر أنه لم يكتشف إلا المنهج العلمي لدراسته، ولا يرى أحداً غير الشعراء قادراً على التعبير عن حياته الباطنية، والقبض على اللحظة الإبداعية في حلم اليقظة فالشاعر يحلم في يقظته، كما يحلم في نومه، وهو فضلاً عن ذلك قادر على أن يصف شؤون حياته العاطفية أكثر من غيره، وهذه التميز هو حلقة الوصل بين أعماق غرائزه ومعارفه المعقدة (ينظر، ستاروبنسكي جان، 1976، ص 252).

تلك الحياة العاطفية الموصوفة ليست آنية فحسب، بل هي أمشاج من ذكريات الطفولة وأحلام اللحظة، ففي المحاضرة الثالثة من كتابه (مقدمة عامة في التحليل النفسي 1920) ينظر إلى الفنان بوصفه طفولياً، مريضاً عصائياً، ولذلك توزعت دراساته بين المنهج الباتوغرافي، أي دراسة المبدع من زاوية عصائية واتخاذ عمله الفني دليلاً على ذلك، وبين المنهج النفسي الذي يدرس الأثر الأدبي وشخصه. واعتمد "عقدة أوديب" مفهوماً محورياً لحل كثير من الألغاز النفسية، بل أصبحت تلك العقدة "هي الجوهر الذي استند إليه في تفسيره للنشاط الفني لدى الأدباء، كشكسبير خاصة في (هاملت)، وكذلك لدى دوستوفسكي في (الإخوة كرامازوف) (ينظر، شاكر عبد الحميد، 1992، ص 51). وقد تجلت النظرية النفسية الفرويدية في دراسة العمل الأدبي في تحليلاته لأربعة أعمال إبداعية على وجه الخصوص، وهي التالية:

أ- دراسة رواية (غراديغا) لولهلم جونسون (Wilhelm Jensen):

نشرت هذه الدراسة تحت عنوان: (الهذيان والأحلام في غراديغا) عام 1903، وحاول فيها أن يطبق آليات تحليل أحلام النوم على أحلام الأدباء وشخص أعمالهم الأدبية، لأن "الأحلام الحقيقية لا تعرف من كالج أو قانون، وهي تشبه أحلام القصص الخيالية" (فرويد، 1981، ص 7). سعى فرويد ههنا إلى تبيان العلاقة الموجودة بين بطل الرواية (هانولد) وأحلامه من جهة، وحياة الكاتب من جهة أخرى، واهتم بأدق التفاصيل عنهما، حتى إنه غاص في الحياة النفسية والطفولية للمبدع.

إن (هانولد) بطل الرواية باحث في علم الآثار، وفي أثناء بحثه في آثار قديمة يجد تمثالا لفتاة جميلة، سماه (غراديفا)، وفي لحظة انجذابه نحوها تذكر حبه الجارف لصديقة طفولته زوي (Zoé)، حب ضحى به من قبل لأجل متابعة دراسته، لكنه ظل مطويا، مكبوتا في اللاشعور. ويستسلم (هانولد) لأحلامه وأوهامه، فيأخذه الحلم إلى مدينة بومباي الإيطالية القديمة مصدر التمثال، وهناك يشهد البركان الذي طمر كل شيء، حتى الصبية البومبية التي رآها في المنحوتة، وعند استيقاظه آمن بواقعية هذا الحلم، فسافر إلى بومباي، ولقي معشوقة الصبا (Zoé) التي كانت تقضي عطلتها هناك فيخيل إليه مجددا أنه التقى بفتاة التمثال.

(Zoé) تشعر باستيhamات وهذيان هانولد، وكأنه مصاب بالهستيريا، إذ لا يفرق بينها وبين التمثال (غراديفا)، فتحاول علاجه بتمكينه من تذكر ماضيه الطفولي الذي كبت في أعماق لاشعوره، فتفلح في المهمة، ثم يتزوجان بعد ذلك.

رأى فرويد أن الفتاة (Zoé) قامت بدور المحلل النفسي، إذ طهرت هانولد من عقده النفسية، ثم إنه حاول الربط بين رغبات الكاتب وأحلام اليقظة التي ذكرها البطل، فتصور أن استيhamات بطل الرواية هي في الأصل رغبات المبدع المكبوتة، لأنه وصل إلى درجة الوعي بها، لذلك يحاول التخلص منها في عمله الإبداعي بطريقة "إعلائية" ترضي المجتمع. واكتشف أن اسم (غراديفا) الذي أطلقه البطل على التمثال لم يكن مصادفة بل له امتداد في لاشعوره الطفولي، لأنه مشتق من اسم عائلة محبوبته (Zoé) هذا الاسم الذي كان هانولد قد كبت لفظه (ينظر، فرويد، 1981، ص 42). إن حب هانولد لمحبوبته قد استيقظ في حله، وأصبح حيا في الشعور حين عالجتته (Zoé) من هذيانه، إذ كانت صورتها تتماهى مع المنحوتة في كلامه وتصرفاته.

ويوضح فرويد الوظيفة الخيالية المنتجة لأحلام اليقظة في الأعمال الأدبية من خلال هذه الرواية بقوله: "أمكنني أن أبين من قصة (غراديفا) التي لا قيمة لها في ذاتها أن الأحلام المختلفة يمكن تأويلها على نحو تأويل الأحلام الحقيقية، وأن العمليات اللاشعورية المألوفة لنا في إنتاج الحلم تتم على النحو نفسه كذلك في عمليات التأليف الخيالي" (ينظر المرجع نفسه، ص 98).

ب- دراسة رواية (الإخوة كرامازوف) لدوستوفسكي :

قام فرويد بدراسة معمقة لشخصية الأديب الروسي دوستوفسكي من خلال بحث قدمه سنة 1928، واستخلص تطابقا بين الصرع الذي أصاب البطل القاتل في الرواية وبين الصرع الذي كان يصيب الكاتب نفسه. يقول: "وإنها حقيقة فذة أن دوستوفسكي ينسب للقاتل نفسه مرضه هو، أي

الصراع، كما لو أنه كان يسعى إلى الاعتراف بأن المصروع العصابي في شخصه هو قاتل الأب" (رينيه ويليك، 1977، ص 177).

وتصور فرويد أن عقدة أوديب وصلت إلى ذروتها بتحولها إلى ضرب من ضروب الهستيريا، فتمخضت عنها رغبة جامحة في موت الأب، إذ لما امتدت يد البطل (ديمتري) إلى قتل الأب فقد أشبع رغبة في نفس دوستوفسكي، فما لم يستطع تحقيقه في الواقع تم على الورق، واعتمد في ذلك على حقيقة مفادها أن الكاتب اعتاد - وهو صغير - أن يترك ورقة قبل أن ينام ييوح فيها بخشيته من الموت، وترمز هذه الحادثة - عنده - إلى تقمص شخص يود أن يراه ميتا وأباه معا.

ومن ثم زعم أن دوستوفسكي كان متعاطفا مع البطل ديمتري قاتل الأب (سوزيما) الذي صوره جاثما على ركبتيه، وكأنه يبارك للقاتل فعلته، إنه في نظره "يكاد يكون مخلصا، أخذ على نفسه حمل الذنب الذي لولاه لكان على الآخرين أن يحملوه" (المرجع نفسه، ص 178). ورأى في شخصية دوستوفسكي أربعة وجوه: المبدع، والعصابي، ورجل الفضيلة، ثم الخاطيء. والملاحظ أن فرويد لم يهتم بالجانبين الإيجابيين لديه، وإن اعترف له بالتربع على قمة الإبداع الأدبي إلى جوار شكسبير، لأنه كان مسكونا بعقدة أوديب وجريمة قتل الأب، ولا يتصور غيرها الجريمة الأولى للإنسانية، بل عدها المصدر الوحيد للشعور بالذنب.

ج- دراسة شخصية ليوناردو دافنشي من خلال فنه:

وجد فرويد في طفولة ليوناردو دافنشي ضالته التحليلية، إذ كانت له أمان: أم بيولوجية (كاترينا)، وأم اعتبارية هي زوجة أبيه (دونا ألبيرا)، وقد انتزع من حضن أمه بين الثالثة والخامسة من العمر ليربى في حضن زوجة الأب، ومن ثم حرم من رؤية ابتسامة أمه الجميلة.

درس فرويد الحياة الشخصية لليوناردو منطلقا من حلم رأى فيه هذا الرسام العبقرى طيرا يزوره في مهبه ويضع ذيله في فمه، ورأى أنه يرمز إلى أمه، يقول ليوناردو: "بينما كنت في مهدي في بدء حياتي إذا بنسر يهبط علي، ويفتح في بذيله، ثم يلطمني به عدة مرات على شفتي" (فرويد، 1970، ص 58).

وشبه رواية ليوناردو بما لاحظته على مرضاه أثناء التحليل النفسي حين يتذكرون أحداثا طفولية غير حقيقية، لم تحدث إلا في خيالاتهم، للتعبير عن رغبات لا شعورية مكبوتة، وهو ما قام به ليوناردو، فقد عبر عن مكبوت في لاشعوره مفاده اعتماده على ثدي أمه في فترة الرضاعة، فحول فعل امتصاص ثديها إلى طير يلطمه بذيله على شفتيه.

وافترض أن انتزاعه من حضن أمه التي أهدت عليه حنانا شبقيا - كان له الأثر السيء على حياته، كما تصور أن هذا المبدع حين التقى بالموناليزا (جيوكاندا)، وقام بتصويرها أيقظت فيه ذكرى أمه في أثناء طفولته ورآى الابتسامة في الصورة جامعة دلالات الشهوة، والرقّة، والسبب - عنده - ما لاقاه في طفولته المحرومة من ابتسامة الأم، حتى أصبحت هذه الابتسامة قوة قهرية سيطرت عليه، فطغت على أعماله بعد ذلك.

أما عدم إتمام ليوناردو لوحاته فرده - حسب فرويد - إلى ما ترسب في لاشعوره من إهمال والده له في طفولته، إذ لم يحطه بالعباية اللازمة، فسلك المنحى نفسه في أعماله الفنية بإهمال إتمامها. إنه لا يستطيع الفكك من هذه القوة القهرية، لأنها "نشأت عن انطباعات سنوات الطفولة الأولى، وما كبت ونفي في اللاشعور لا يمكن إصلاحه بما يحدث في وقت متأخر" (المرجع نفسه، ص 111).

وذهب إلى أن ليوناردو كان يتسامى بفضه عن المكبوت الجنسي، وأن حياته خلت من الحياة العاطفية مع النساء، ومن ثم زعم أنه أحب أطفالا صغارا حبا شادا استبدالا لحب أمه الطفولي. وحلل لوحة "المادونا والطفل مع الرضيع القديس يوحنا المعمدان"، فعدّها تركيبا تاريخيا لحياة ليوناردو الخاصة، فهي "تعبير عن طفل في رعاية والدتين لهما العمر نفسه، وتعلوهما هذه الابتسامة المميزة" (المرجع نفسه، ص 101).

د - دراسة مسرحية (هاملت) لشكسبير:

نزع فرويد إلى المغالاة في ربط الإبداع الفني باللاشعور الجنسي المكبوت، حين درس هذه المسرحية، فأرى في تماطل هاملت في قتل عمه (قاتل أبيه) رغبة أوديبية دفينّة، ذلك أن الأمير الدانماركي (هاملت) كان يعاني من عقدة الأب، ولهذا تردد في الانتقام من العم، لأنه أحاله على ذكرياته الطفولية، وما حملته من رغبات جنسية اتجاه أمه، وعداء دفين لأبيه، أفضى إلى رغبة مضمرة في قتله، وإزاحته، ليتأتى له الانفراد ل بها وحده. هكذا قرأ فرويد تلك القراءة الغريبة "أفكار هاملت، أو مريضه، من خلال لا وعي ما قرأه من طفولته الخاصة" (Ernest Jones, 1980, p 36). فقد تردد هاملت في قتل العم (كلوديوس)، لأنه جسد رغبته الآثمة وحقق ما كان يرغب فيه، فاستنكف عن القصاص منه رغم قدرته على ذلك.

ومن ثم زعم أن هاملت تصرف مرتين تصرفا نشيطا وفعالا، أولا أثناء انفعال شديد، عندما قتل الرجل الذي كان يسترق السمع وراء الستار، وثانيا عندما رد كيد اثنين من أتباعه ردا متعمدا ما كرا، ودفع بهما إلى التهلكة التي دبرت له بكثير من الاستخفاف والاستهتار الذي عرف عن أمراء النهضة في أوروبا. فمن الذي منعه إذن من قضاء المهمة التي أوكلها إليه شبح والده؟ يجب أن نعترف بأن هذا يعود

إلى طبيعة المهمة. فهامت له القدرة على التصرف، ولكنه لا يمكنه أن يثار من الرجل الذي قتل أباه وأخذ مكانه بالقرب من أمه. فهذا الرجل قد حقق لها ملامت رغبات طفولية مكبوتة (Freud).
(Sigmund, 1989, pp 289 - 290)

وتصور فرويد أن مأساة هاملت تجسيد للحياة النفسية للشاعر شكسبير نفسه، إذ أنه كتبها بعيد وفاة أبيه حين كان في ذروة الحزن عليه، ومشاعره الطفولية نحوه لا تزال مشتتة. وكشف التحليل الفرويدي من خلال حديث البطل مع (أوفيلي) أن شكسبير كان يكره الجنس، وينفر منه، ومن ثم لا يمكن لها ملامت إلا أن يكون انعكاسا لحياته النفسية وهو الذي انقطعت علاقته بوالدته حين ارتبطت برجل آخر بعد وفاة أبيه مباشرة، حتى قيل: إن "هاملت" عمل أدبي يترجم حياة شكسبير النفسية بجلاء، إذ "لم يعبر في المسرحية سوى عن أحاسيسه هو.

وأحال على دراسة لجورج براند Georges Brandes في كتابه حول شكسبير (1896) دلت على أن مأساة هاملت قد كتبت مباشرة بعد موت والد شكسبير (1601) أي أثناء فترة الحداد. ويمكننا أن نسلم بأن أحاسيس الطفولة المرتبطة بالأب- على وجه الخصوص- كانت حية عند الشاعر. ومن المعلوم أيضا (من جهة أخرى) أن ابن شكسبير الذي مات في سن مبكرة، كان اسمه هامنت Hamnet، وهو قريب من اسم Hamlet، (Freud Sigmund, 1989, pp 289 - 290).

2- الاتجاه اليوناني: الإبداع الأدبي والاشعور الجمعي :

الاشعور عند كارل كوستاف يونغ Carl Gustav Jung (1875-1961م) قسمان: لا شعور فردي، ولا شعور جماعي، والثاني هو الأهم عنده، لأنه استعداد مكتسب عبر الوراثة، شأنه شأن الوراثة العضوية، وبهذا التصور يخالف أستاذه فرويد، ويرى أن الفنان الذي يمتلك العبقرية ينسحب من الحاضر الذي لا يرضيه عائدا إلى الاشعور الجماعي، باحثا عن النماذج الأصلية. لأن الاشعور الجمعي "بعيد عن العقد والكبت والعصاب" (كليب سعد الدين، 2004، ص 109).
والبشر جميعا يحملون لا شعورا جماعيا، بيد أنه لا ينبع منه شيء ذو جدوى إلا لدى الشعراء والفنانين، لأنهم وحدهم القادرون على شهود تجلياته في إبداعاتهم. والنماذج تورث في أنسجة الدماغ، وتنبثق من الأحلام والأوهام عند أفراد يعبرون عنها في عمل إبداعي، وهي المغذية للشعر باعتبارها مصدرا لكثير من الخيالات.

إن الاشعور الجمعي "استعداد نفسي جماعي ذو سمة مبدعة، وهو ربح القضايا الميتافيزيقية كلها، وكل ميثولوجيا، وكل فلسفة، وكل تعبيرات الحياة التي تبني على مقدمات أولى نفسية" (هوميرت إيلي، 1991، ص 164). ولذلك فإن يونغ يعلي من شأن الشاعر، باعتباره وحده القادر على توليد الإبداع

من تلك الرحم الإنسانية (الجمعية)، ففي مقالة له بعنوان : (السيكولوجيا والشعر) يقول عن الشاعر: "إنه إنسان جماعي، إنه الحامل المشكل للنفس الإنسانية الحيوية لا شعوريا". (ستانلي هايمن 1958، ص 259).

واحتفل بطائفة من المبدعين الذي جسدوا اللاشعور الجمعي، ومنهم الشاعران: دانتي وواغر، فالأول يمتح من التاريخ، والثاني يستلهم شعره من الأسطورة "حتى لكأن التاريخ والميثولوجيا هما المادتان اللتان تدور حولهما صناعة هذين الشاعرين" (كارل كوستاف يونغ، 1997، ص 159).
كما انتقد يونغ بوضوح أطروحة الغريزة الجنسية عند فرويد، لأنها ليست الفاعل الأوحى في النفس الإنسانية "لأن النفس جهاز معقد إلى أبعد حدود التعقيد". (كارل كوستاف يونغ، 1992، ص 10). إن العملية الإبداعية عنده لا تنشأ عن "العقدة الأوديبيّة" وحدها، فهي تنشط الرموز الأبدية التي تهجع في اللاشعور البشري.

وتصور أن الشاعر حين يعبر عن الميثولوجي بلغة مجازية لا يحقق تساميا شخصيا تعويضا عن مكبوت جنسي، وإنما يجسد خبرات إنسانية دائمة التدفق في اللاشعور الجمعي، ويتوقع منه "أن يلجأ إلى الأسطورة يلتمس فيها أنسب شكل للتعبير عن خبرته، فالخبرة البدئية هي مصدر قوته المبدعة، إنها خبرة لا يسبر غورها كليا، ولذلك نطلب التمثيل (اللغة المجازية)" (كارل كوستاف يونغ، 1997، ص 169).
ونعت فعل الارتداد إلى تلك الخبرة الإنسانية من لدن الشعراء "مشاركة صوفية"، لأنهم لا يعيشونها لوحدهم، إذ لا يعتدون بسعادة الفرد أو شقائه وحده، بل ينظرون إلى الكل الإنساني برمته. إن الأصل في العمل الفني عنده أن يسمو على الحياة الشخصية "وأن يتكلم من روح الشاعر وقلبه - بما هو إنسان - إلى روح البشرية وقلبها" (المرجع نفسه، ص 172).

3- الاتجاه الباشلاري: الإبداع الأدبي وأحلام اليقظة:

يتناول كاستون باشلار Gaston Bachelard (1884-1962م) أحلام اليقظة - ولا سيما لدى المبدعين - بالدرس والتحليل من زاوية أخرى، بعيدا عن العقد النفسية، فهو يرى أن حلم اليقظة يقود إلى ذكريات الطفولة التي ترتد بنا إلى جمال الصورة الأولى، ولذلك فهو يقرر أن وظيفة الشعر الكبرى "أن يمنحنا القدرة على استعادة مواقف أحلامنا الخاصة" (Bachelard Gaston, 1957, p 33).
إن الشاعر عنده يحس بذكرياته ماضيه، ويحيها من جديد بواسطة الصور الشعرية التي تشع في حلم يقظته، وهكذا فإن حلم اليقظة الشعري يعيد للمتلقي كذلك خبراته الماضية الكامنة في اللاوعي، بوصفه مستودعا للحياة الطفولية المبكرة.

وإذا كان فرويد قد عزا استعادة ذكريات الطفولة إلى الحلم أثناء النوم خاصة، فإن باشلار يخالفه، إذ يربطها بحلم الذاكرة اليقظ الذي هو مصدر السعادة النفسية، لا العصاب والأمراض، ولذلك عدّ لغة الشعراء من طبيعة روحية خالصة، وأوصى بتدريسها كما تدرس لغة الأرواح (ينظر، باشلار كاستون، 1991، ص 17).

لقد رأى أن مصدر السعادة النفسية هي أحلام اليقظة الشعورية وقد تحرر الإنسان من قيد التفكير العقلي ليغوص في عمق الذات، ممسكا بعدة أكوان حلمية ثابتة الوجود لا يكون واحد وحسب. " إن للحلم صلة قوية بعالم أحلامه، فهو يعيش فيه عن طريق أحلام اليقظة، ويمكّن هذا العالم من معرفة الذات العميقة للشخص المنعزل (الوحيد) بطريقة مباشرة. ويمتلك الفرد المنعزل (الغريب) العوامل التي يحلم بها بشكل مباشر... ثم إن صاحب أحلام اليقظة، وعالم أحلام اليقظة كثيرا ما يكونان متقاربين. إنهما متجاوران ومتداخلان، وعلى مستوى واحد من حيث الوجود. وإذا كان لا بد من وجود العالم، فإن كوجيطو Cogito أحلام اليقظة سيعبر عنه بالشكل الآتي: أحلم بالعالم إذن العالم موجود كما أحلم به" (Bachelard Gaston, 1986, p 136).

وبخلاف أحلام الليل والهذيان الموسومان بغياب الإرادة، فإن أحلام اليقظة تتميز بحضور إرادي حالم وتتبعير باشلار: "إن الإرادة هي التي تحلم La volonté qui rêve" (Bachelard, 1943, p 110)، ويغوص في شاعرية اللغة المؤنثة وما لها من تداعيات نفسية خالصة، فالحلم هو المذكر (الأنيموس)، وحلم اليقظة هو المؤنث (الأنيميا) الذي لا نصل إليه إلا بولوج أعماق النفس الإنسانية.

وتصور أن الكلمات المؤنثة أعذب وأجمل من الكلمات المذكرة، ولذلك فهو يهيم بحب أسماء الأنهار الفرنسية المؤنثة، لأنها تبعث في نفسه إحساسا بالجمال والأنس. يقول: "وكم هذا طبيعي الأوب L'aube، والسين La seine، والموزيل La Moselle واللوار La Loire، هي أنهار الوحيدة (وهي كلمات ذات أسماء مؤنثة) في حين أن الرون Le Rhône، والرhin Le Rhin هي بالنسبة لي وحوش لغوية (فهي كلمات مذكرة)" (باشلار كاستون، 1991، ص 30)، ومذهبه هذا في حب الكائنات المؤنثة دفع جيرار جينيت إلى القول بأن "أكثر شيء ملفت للأنظار في مساهمة باشلار بوصفه حالم الكلمة هو اهتمامه بجنس الكلمة، أي المذكر والمؤنث" (Gérard Genette, 1994, p 358).

وبهذا فإن حلم اليقظة يدوم متدفقا في أعماق النفس، لأن الصور الأنثوية العذبة للحياة هي التي تغذيه، فيحصل الإحساس الإنساني بالهدوء والراحة، والجمال. وبناء على هذا يرى باشلار أن الصور الشعرية دائماً التدفق في عالم شاعري يقظ على بساط الخيال، "فلم اليقظة الشعري لا ينم أبدا، فابتداء من

أبسط صورة ينبغي أن يدفع أمواج الخيال إلى التألق على الدوام" (Bachelard Gaston, 1943, pp) (41 - 49).

إن الإبداع الشعري الحالم ليس منفصلاً عن شعور المبدع كما في التصور الفرويدي، إنه يبقى على ألفة نفسية حميمة مع العالم الخارجي، ومع الذكريات الطفولية، "ففي القصيدة ينكشف ويظهر لنا عالم ألفة (Un univer d'intimité) (Bachelard Gaston, 1948, p 16)، وحين يتحدث باشلار عن شاعرية الأحلام الطفولية المهمة التي تجذب المتلقي - فضلاً عن المبدع - إلى عوالم الصبا الحلي بالذكريات الجميلة، يطالب "بنقد حلبي" يحسن التفاعل مع أحلام الطفولة حتى يتاح للنقاد أن "يعرفوا ماضي الأحلام على نحو ما يعرفون كذلك ماضي الأفكار". (Ipid ; p 255).

ويرى في تعلق الروائي الفرنسي (بوسكو 1888/1976) بالمصباح في أعماله الفنية بعداً نفسياً خاصاً، فتفاعل مع شاعرية مصباحه وما نثره من ذكريات طفولية، وتحدث عن الألفة الحميمة العاطفية بينه وبين المبدع في الواقع، "فالمعنى الشعري للمصباح يتحرك ويتألق تحت ريشة شاعر". (باشلار كاستون، 1995، ص 109).

إن المصباح في كل أعماله يغدو شخصاً حقيقياً، حتى إنه ليصبح معبراً عن ديمومة نفسية زمنية تمتح من تاريخ الأسرة برمتها مع ما يصاحب ذلك من مشاعر وأحلام طفولية، ومن هنا فإن باشلار يرى الإبداع حاصل جمع بين الذكريات وأحلامها، واليقظة الآنية وأحلامها.

أما عن العلاقة النفسية بين الشاعر والمتلقي، فإن باشلار يؤكد أن القارئ يتماهى مع أحلامه، معتبراً أن قراءة إبداعات الشعراء هي حلم يقظة كذلك، وبذلك تنتقل القيم الحلمية من روح شاعرة إلى روح متذوقة. ويشهد من خلال التجربة الشخصية بما تركه القراءة الشعرية في نفسه من آثار نفسية خاصة، فيقول: "عند قراءة الشعراء أحس بالحياة الجميلة" (Bachelard Gaston, 1988, p 49).

4- اتجاه شارل مورو: الإبداع الأدبي والنقد النفسي:

يعد شارل مورو Charles Mauron (1899-1966) مؤسساً للنقد النفسي الذي استبعد - نسبياً - ذلك التحليل الكلينيكي للأدب والفن. إن العمل الأدبي عنده يتضح من خلال تداعي الصور المجازية المركبة في شبكة من الدلالات المستقلة عن الوعي، وقراءة النص إنما تقوم على أساس اكتشاف أنظمة العلاقات بين الكلمات، بحثاً عن التطابق بين الصور المبتوثة في كل الأعمال الإبداعية للمبدع.

ومعنى المطابقة هنا توافق الدوال اللفظية أو التصويرية في تلك الأعمال، ومن ثم فإنها تتيح الإمساك بخيوط منطق اللاوعي. وذلك التشكيل التصويري هو ما يكون "الأسطورة الشخصية" للمبدع بطريقة لا واعية. إن "شبكة التدايعات هي بنية نصية مشتركة بين عدد من النصوص، وهي مستقلة عن الموضوع

الواعي لكل نص، إنها ترسم تشكيلا تصويريا حاضرا بصورة مبعثرة في كل نص". (مجموعة من الكتاب، 1997، ص 82).

يفترض مورون أن المبدع يعبر من خلال عدد لا حصر له من الرموز عن فكرة ثابتة، أو عقيدة راسخة واقعية أو خيالية، فالنص الأدبي "كقطعة نسيج، كل صورة مجازية فيه لا تحيا إلا نسبة إلى صورة أو صور مجازية أخرى تترابط لتؤلف لحمة تميز شخصية الكاتب اللاشعورية، واستمرار الشبكات الترابطية يوحي بدوام الصراعات الباطنية المندمجة في بنية الكاتب العقلية، ومن ثم تقوم الصور الشعرية مقام الدليل المحرض على تداعي الأفكار، وتسمح بالكشف عن الأسطورة الشخصية" (أبو سريع ياسين عبد العزيز، 1991، ص ص 97 - 98).

لقد أصدر مورون أهم أطروحاته يوضح فيها منهجه النقدي النفسي وهي: "من الاستعارات الملحة إلى الأسطورة البشرية: مقدمة في النقد النفسي: بودلير، مالارمييه فاليري، كورنابي، مولير" سنة 1964، وأتبع ذلك العمل بدراسات تطبيقية مثل: (النقد النفسي للجنس الهزلي) و(بودلير الأخير) سنة 1964، و(شخص فيكتور هيكو) سنة 1967، و(فيدر) سنة 1968، و(مسرح جيرودو) سنة 1971. ومن دراساته المثيرة للاهتمام كذلك كتابه "مقدمة في التحليل النفسي لمالارمييه (1968)", وفيه رصد شبكة من الصور الثابتة في قصائده ليصل إلى حقيقة واحدة هي: طغيان صور موت أخته (ماريا) على وجدانه. ويفترض أن هذه الأنساق الاستعارية "صادرة عن الوعي الباطن" (تاديه جان إيف، 1994، ص 100). لقد اكتشف مورون أن فقدان الأخت طبع شخصية مالارمييه الإبداعية، فعلاوة على قساوة اليتيم فقد ماتت أخته (ماريا) ذات الثلاثة عشر عاما.

ولهذا رأى أن موت ماريا أحدث هزة عاطفية قوية في نفس الشاعر مالارمييه، فكان صداها حاضرا في شعره، وذهب إلى أن فكرة الموت كانت تحاصره، فبرزت في جميع قصائده على نحو غير مشعور به، وهذه المحاصرة الخفية كانت تتجلى في تكرار الصور الجنائزية التي كانت تزور خياله بشكل تلقائي، فالأخت الميتة قد ظلت تحاصر خياله من أعماق ما تحت الشعور، فتوحي إليه باختيار هذه الصور التي تسوي بين حالة الشاعر النفسية والقصيد الماثلة (ينظر، حجازي سمير، 2004، ص 70).

وسعى موران إلى سبر أغوار لاشعور مالارمييه من خلال توارد الصور في إبداعه، ففسر صور الموت المهيمنة على أعماله بالعودة إلى موت أمه التي ما إن فارقت الحياة حتى تعلق الولد (الشاعر) بأخته التي ورثت عن الأم حب أخيها. واقترض أن العقدة الأوديبية هي التي سهلت هذا التحول العاطفي من الأم إلى الأخت، وإذا تساءلنا: كيف يذكر الشاعر الأخت ولا يذكر الأم؟ فإنه يجيبنا بالقول: "إن ذكر الأم قد ظهر في نصوص الشاعر، ولكن بصور خفية ففي قصيدة (شيطان الشبه) يمكن للناقد أن يبحث

في دلالة عبارة (قبل الأخيرة Pénultième) فمن تكون الميتة ما قبل الأخيرة؟ إن ماريا هي الميتة الأخيرة، والأم هي الميتة ما قبل الأخيرة". (حجازي سمير، 2004، ص 71).

واعتمد في تحليل شخصية مالارمييه وشعره -من جملة ما اعتمد- على نص بليغ الدلالة هو: "وظيفة الإنشاء الفرنسي"، وكتبه الشاعر لما كان تلميذا حين طلب المدرس من المتعلمين أن يكتبوا قصة مختارة فاختار أن يكتب ما يلي: "رجل جالس وحيدا في بيته قرب الموقد، يحلم بابتنة الميتة، وفي المقبرة المجاورة تخرج الفتاة من قبرها، وتأتي لتزور أباه، فتجلس إلى جانبه أمام الموقد، فترقص وتغني، ثم تختفي في الصباح" (الدروبي سامي، د.ت، ص ص 293 - 294). وتلك قصة كتبها مالارمييه بعد وفاة أخته بقليل، فتظافت القرائن النصية الاستعارية الباطنية، والرمزية اللغوية لتكشف عن الأسطورة الشخصية للشاعر كما افترض شارل مورون.

خاتمة

أفضى بنا هذا البحث إلى الخلاصات التالية :

- جمع فرويد بين التنظير والتحليل النفسي لأعمال إبداعية منها: رواية (غراديغا) لفلهلم جونسون، ورواية (الإخوة كرامازوف) لدوستوفسكي، وأعمال ليوناردو دافنشي الفنية ومسرحية (هاملت) لشكسبير.
 - واضح قصور المنهج الفرويدي في تحليل تلك الأعمال الفنية لاعتماده على مفهوم مركزي في التحليل هو "عقدة أوديب"، دون استثمار باقي المفاهيم النظرية التي نحتها هو نفسه على الوجه الأمثل.
 - تعوز المفاهيم اليونانية تلك الفعالية الإجرائية في تحليل العمل الأدبي، باستثناء مفهوم "اللاشعور الجمعي" الذي يمكن اعتباره إجرائيا أكثر من غيره.
 - تميز باشلار بالتعويل على مفهوم "حلم اليقظة" الشعري، وهو ما فتح بابا متفردا في التحليل النفسي للإبداع الأدبي، لانسجامه مع ما يخامر الشعراء خاصة وهم يحملون أحلام اللحظة أو الطفولة، أو يمزجون بينهما. ويتصور أن أحلام الشعراء مؤنثة، فضلا اللفظ المؤنث على اللفظ الذكر حين اهتم كثيرا بجنس الكلمة، ويدعو إلى قراءة الإبداع الشعري قراءة حاملة حتى ينتقل ما في روح الشاعر إلى روح المتلقي.
 - تبين أن شارل مورون قد اهتم بمفهوم "الاستعارة الملحة" في تحليله للعمل الأدبي، ولا سيما في دراسته لشعر مالارمييه كاشفا عن طبيعة لا شعوره من خلال صدى استعاراته المبتوثة في أعماله الشعرية، وهو ما يتيح الإمساك بالأسطورة الشخصية للبدع.
- المراجع باللغة العربية:

- إبراهيم زكريا، مشكلة الفن، مكتبة مصر، القاهرة (د ت).
- أبو سريع ياسين عبد العزيز، اتجاهات الفكر الأوروبي الرئيسية في تحليل النصوص الأدبية، مطبعة السعادة، ط 1 القاهرة، 1991.
- باشلار كاستون، شاعرية أحلام اليقظة، ترجمة جورج سعد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 1991.
- باشلار كاستون، شعلة قنديل، ترجمة خليل أحمد خليل، مجد المؤسسة الجامعية المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1995.
- تادي جان إيف، النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، حلب، سوريا، 1994.
- جان برتلمي، بحث في علم الجمال، ترجمة أنور عبد العزيز، دار النهضة، مصر، 1970.
- جان ستاروبنسكي، النقد والأدب، ترجمة بدر الدين قاسم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1976.
- جمهورية أفلاطون، دراسة وترجمة فؤاد زكريا، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004.
- حجازي سمير، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر، دار التوفيق، ط 1، دمشق، 2004.
- الدروبي سامي، علم النفس والأدب، دار المعارف، ط 2، القاهرة (د ت).
- رينيه ويليك، فرويد وجريمة قتل الأب، ضمن كتاب (عن دوستوفسكي)، ترجمة نجيب المانع، المكتبة العصرية، بيروت، 1977.
- ستانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة إحسان عباس - محمد يوسف نجم، ج 1، دار الثقافة، بيروت، 1958.
- سعد الدين كليب، النقد العربي الحديث: مناهجه وقضاياها، منشورات جامعة حلب، سوريا، 2004.
- سيجموند فرويد، الهذيان والأحلام في الفن، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، ط 1، بيروت، 1981.
- سيجموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، ترجمة مصطفى زيور- عبد المنعم المليجي، دار المعارف، ط 3، القاهرة، 1981.
- سيجموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، ط 2، بيروت، (د ت).
- سيجموند فرويد، ليوناردو دافنشي، ترجمة أحمد عكاشة، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1970.

- سيجموند فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ترجمة أحمد عزت راجح - محمد فتحي، مكتبة الأنجلومصرية، ط3، القاهرة (دت).
- شاكر عبد الحميد، الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992.
- كارل كوستاف يونغ، دور اللاشعور ومعنى علم النفس للإنسان الحديث، ترجمة نهاد خياطة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 1992.
- كارل كوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار، ط 2، اللاذقية، سوريا، 1997.
- ليبين فاليري، مذهب التحليل النفسي والفلسفة الفرويدية الجديدة (الترجمة غير مذكورة)، دار الفارابي، بيروت 1981.
- مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ترجمة رضوان ظاظا، مجلة علوم المعرفة، ع 221، مايو، الكويت، 1997.
- هومبيرت إيلي، كارل كوستاف يونغ، الأساسيات في النظرية والممارسة، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق، 1991.
- المراجع باللغة الأجنبية:
- Bachelard Gaston fragement d'une Poétique du Feu, Etablissement du texte avant-Propos et notes Par Susane Bachelard Universitaires de France, Presse, Paris 1988.
- Bachelard Gaston, la poétique de l'espace, universitaires de France, Presses, Paris, 1957.
- Bachelard Gaston, L'air et Les Songes, Essai sur L'imagination du Mouvement, Librairie José Corti, Paris 1943.
- Bachelard Gaston, La poétique de la rêverie, PUF, Paris, 1986.
- Bachelard Gaston, la terre et les rêveries du ropos, , Librairie José Corti, Paris, 1948
- Ernest Jones, Hamlet et oedipe, le 10 Avril, imprimer en France, 1980.

- Freud Sigmund, L'interprétation des rêves, traduit en français par I. MEYERSON. Edition du club France loisirs, Paris, 1989.
- Gérard Genette, The Gender and Genre of reverie, in Critical Inquiry, Translated by Thaïs E. Morgan, 20, N2, Winter, 1994.

صوفية النسق المكاني في رواية الزائر لحفناوي زاغر

The format of space used by Sufia is depicted in Hafnawi Zagger's novel 'The Visitor'

د/ أمينة حماني

جامعة مولود معمري، تيزي وزو (الجزائر)

minahamani17@gmail.com

ملخص:

سنحاول في هذه الورقة البحثية الاشتغال على رواية "الزائر" للروائي "حفناوي زاغر"، بغية استنطاق تلك الأنساق الثقافية التي اخترتها لنا الروائي بين سطور روايته، من خلال مقارنة ثقافية نستند فيها على مقولات النقد الثقافي، بما تحمله من إجراءات نسقية تساعد على الحفر في النص والبحث في المسكوت عنه والتغلغل في عوالمه الممكنة والبحث في نسق رأيناها النسق المهيمن، ألا وهو النسق الصوفي المكاني، فكيف استطاع الروائي حفناوي زاغر أن يقدم لنا معاناة اجتماعية في قالب صوفي؟ وكيف تجلى هذا النسق الصوفي المكاني؟ وكيف ساهمت هذه الأنساق الصوفية في تحريك أحداث الرواية في تلك الأماكن الروحانية؟
الكلمات المفتاحية: النسق، النسق الصوفي، التصوف، الأنساق المضمرة. المكان.

Abstarct :

In this paper, we will attempt to shed light on Lefnawi Zagher's use of the cultural patterns in his novel 'El Zair'(The Visitor). We will base our study on a cultural approach based on cultural criticism which helps to explore the text and unveil the implicit and examine the dominant pattern, namely the mystical format. We will try to answer questions such as: how did the novelist succeed to present social sufferings in a mystical format? How is this mystical pattern manifested? How did these mystical patterns contribute to the sequencing of the events of the novel?

Keywords: theme, mystical style, mysticism, fused patterns., place .

1_ مقدمة:

يظل التراث حياً عبر الزمن حيث يأخذ أشكالاً متنوعة تؤثر في تشكيل وعي وعقل ووجدان الإنسان، ومن الأشكال نجد الأدب الروائي الذي أصبحت له مكانة مميزة في أدبنا العربي الحديث والمعاصر، ومن المعلوم أن التراث الصوفي هو من أهم الميادين التي تفاعل معها المبدعون العرب، شعراء أو كتاب، فالتراث متقاطع مع الكثير من المجالات التراثية الأخرى، فهو مرتبط بمجال الدين والعقيدة، كما أن التراث الأدبي للصوفية يمثل حلقة هامة من حلقات الأدب العربي، ثم إن التصوف من حيث الممارسة العملية التصق في كثير من جوانبه بالطقوس الشعبية .

وتعددت الدراسات التي تعرضت للتصوف وعلاقته بالشعر، وكيف يشغل التصوف ليولد شعراً جديداً، فتفرد الشعر الصوفي المنطلق من رؤية صوفية، بأخيلته، وصوره، وألفاظه، وتميز عن بقية الشعر العربي بخصائص، ومميزات، ورموز، خاصة به ودالة عليه، ومن المتعارف عليه أن الرواية هي نتاج الإبداع الإنساني، فهي جنس أدبي كالشعر، وإن كانت الرؤية الصوفية قد اشتغلت فولدت شعراً جديداً، فالرواية هي الأخرى صورت تلك العوالم الصوفية وأبدع كتابها في ذلك، فلجأ العديد من الروائيين إلى الولوج في تلك العوالم الصوفية، لتصبح الرواية مداراً للتجريب ومجالاً لاحتضان الصوفية، فامتزجت الروائية السردية والرؤية الصوفية التي منحت الرواية لمسة روحانية وإنسانية عميقة الدلالة في مكوناتها النصية عن الخطابات الأخرى (متلف: 2017، ص 146)، فأصبح اللجوء إلى التجربة الصوفية للانتقال والاعتراف من بحورها ممارسة إبداعية جديدة.

2_ صوفية النسق المكاني – المفاهيم والأبعاد:-

قبل الخوض في الحديث عن تجليات النسق الصوفي المكاني في الرواية، يجدر بنا فك تلك الشفرات المصطلحية التي جاءت في عنوان البحث، بداية بالتعرف على مفهوم التصوف والصوفية باعتبارهما من المصطلحات الصعبة والغامضة رغم كثرة تداولها وحضورها المميز في النصوص الأدبية، إلا أنه من الصعب على الباحث ضبط هذه المصطلحات التراثية وفق المنظورات الثقافية الحديثة والحداثة:

أ_ الصوفية / التصوف:

ومن المعروف أن استيعاب المصطلح الصوفي وتمثله خطوة أساسية ومرحلة مهمة لفهم النسق الصوفي، لكون هذا المصطلح زبني يتغير دلالاته المفهومية والتصورية حسب كل صوفي ومقام سلوكي وتجربة عرفانية، فالمصطلح الصوفي هو عبارة عن مفهوم تصوري يعكس مضمون التجربة الذوقية

الوجدانية التي يعيشها المريد السالك في رحلته الروحانية من أجل تحقيق الوصال أو اللقاء الرباني، وينقسم المصطلح الصوفي إلى دال ومدلول ومرجع، فالدال عبارة عن فونيمات صوتية، أما المدلول فهو المعنى الذي تعنيه هذه الأصوات، فالمقصود بمصطلح الصوفي لا يمكن إدراكها عن طريق العقل أو الاستدلال أو البرهان أو عن طريق التجريد التأملي، وإنما هي مصطلحات لا يمكن استيعابها أو التحقق منها إلا عن طريق الذوق والقلب والوجدان والحدس وتأويل الممارسة الروحانية وتحويل تجربتها السلوكية والعملية إلى دوال رمزية تقارب التجربة الدينية بشكل نسبي ليس إلا، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ حسن الشراوي: " إن هذه الألفاظ لا تعرف عن طريق منطق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف، ولا يأتي ذلك إلا لسالك يداوم على مخالفة الأهواء، وتجنب الآثام، والبعد عن الشهوات، وإخلاص العبادات، والسير في طريق الله... حتى تتكشف لهذا المريد الصادق غوامضها، وتجلى له معانيها (الشراوي: 1987، ص 7) ، فمصطلح الصوفي له ظاهر خاص بعامة الناس، وباطن لا يدرك إلا بالكشف والتذوق وهو خاص بالأولياء والمريدين ولا يفهمه سوى الخاصة الذين تركوا الدنيا وزهدوا في الحياة وأقبلوا على الخلو والتفكير في الذات الربانية عشقا وانصهارا.

تعدد الاشتقاقات التي خاضت في مصطلح التصوف ونسبه، وفي هذا السياق يقول عفيفي: " الأصل اللغوي لكلمة الصوفي فقد تضاربت فيها الأقوال قديما وحديثا وذهب فيه المؤلفون كل مذهب ممكن، وذكروا أن الكلمة مشتقة من الأصل (ص - و-ف)، فنسبوا إلى الصوف وإلى الصفاء وإلى الصف وإلى الصفة، صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وإلى الصفة، وإلى رجل اسمه صوفة، وإلى صوفة القفا وإلى الصوفانية وهي نبتة تنبت في الصحراء، وإلى الكلمة اليونانية سوفيا" (عفيفي: د ت، ص 29). ، وهذا التضارب راجع إلى عدم اتفاق القوم على مفهوم/ مصطلح موحد.

أما من الناحية الاصطلاحية فمصطلح التصوف من أكثر المصطلحات التي اهتم بها الباحثون في الحقل الصوفي، فتعددت بذلك واختلفت تعاريفهم حتى قيل أنها بلغت قرابة 1000 تعريف، وقد أرجع الدكتور عفيفي كثرة هذه التعاريف تعبيراً عن الحالة الروحية التي يعيشها ويبلغها الصوفي، فقال: " قد يكون للصوفي الواحد أكثر من تعريف للتصوف من غير أن يربط بينهما رابط، وذلك لأن الصوفي " ابن وقته" وهو ينطلق في كل وقت بما يغلب عليه الحال في ذلك الوقت" (عفيفي، د ت، ص 34)، إذن فالتصوف " جواهرًا فكريًا، يمثل مرحلة راقية من مراحل تطور الفكر الديني حين تندخل القوى العقلية في إثبات قدرتها على الإدراك إلى جانب النص الديني، إنها حركة إيقاظ للقدرة التأويلية للتفكير الإنساني في مواجهة مجاهيل الكون وخفايا الإنسان وحقيقة الخالق عز وجل وسبيل الوصول إليه" (ستار: 2003، ص 20).

وإحدى أهم الوظائف التي أنتجها الأدب الصوفي هي البحث عن المجهول أو اللامرئي، أو كما يقول "صابر عبد الدايم": «والبحث عن ما وراء المحسوس من أخص خصائص التصوف، ثم انتقلت هذه الخاصية إلى الأدب الصوفي، فصار البحث عن الحقيقة والنفوذ إلى صميم الأشياء، وكشف ما وراء الطبيعة، إحدى سمات الأدب الصوفي» (العودة: 2002، ص 37)، أو كما يقول "سعد عيسى" عن تجربته الصوفية: «إنها حالة روحية، يتصل فيها العبد بربه اتصال المتناهي باللامتناهي، وهي تجربة لا تخضع لمنطق العقل الواعي وإنما هي حالة من حالات الوجود الباطن، لها رموزها الخاصة ومن ثم فهي غريبة روحية واعتزال العالم البشري» (العودة: 2002، ص: 37).

فالنسق الصوفي هنا يقصد به كل تلك الممارسات والطقوس والمصطلحات التي تصب في قالب واحد ألا وهو الصوفية، ومنه فالنسق الصوفي هنا في الرواية يشغل ضمن المعنى الخاص بالدراسات الثقافية والنقد الثقافي، فالنسق هنا يركز على معايير وقيم تشكل مع الفاعلين الآخرين جزءاً من بيئة الآخرين، ومنه النسق الصوفي لا يستمد معناه إلا داخل علاقات أخرى من شخصيات وأماكن وممارسات وطقوس وغيرها تدرج ضمن نظام ديني واحد يعرف بالصوفية.

و الحديث عن الرؤية الصوفية و النسق الصوفي هو مراجعة تاريخية واستحضار لما هو عقائدي وفكري متعلق في الواقع بالإلهيات الإسلامية في معركة فكرية روحية أدت نتائجها إلى زعزعة العالم الإسلامي حيث تحمل التجربة الصوفية ثراءً واسعاً مما كان له بالغ الأثر في استمرارية قراءتها الحضارية والثقافية المعاصرة، فالصوف في دلالاته المعجمية الاشتقاقية مرتبط بالصوف، وهو في حمولاته الاصطلاحية رحلة روحانية يمارسها إنسان متصوف يعتمد على التجلي الرباني بعد أن يتخلص من برائن الجسد، وهو بهذا المعنى علم إصلاح النفس وتهيئة الروح لتسمو باتجاه العالم العلوي، وهو بهذا يترجم استجابة لحنين الروح إلى مصدرها الأول ذلك الحنين الذي يقوى كلما قلت سيطرة الجسد على الروح (حماني، 2020، ص 255).

ب- في مفهوم النسق المكاني:

يمر الإنسان في حياته بأمكنة كثيرة، بداية من بطن الأم الذي يعتبر المكان الأول الذي يبدأ فيه الإنسان حياته بشكل ما، ثم يفتح عينيه على البيت، بعد ذلك يأتي الشارع، ثم تنوع الأماكن وتعدد في حياته، أما في العمل الروائي فالمكان أهمية خاصة، فلا يمكن تصور أحداث إلا في مكان تقع فيه، ولا يمكن الحديث عن الزمن وإيقاعه وسيرورته إلا منسوبا إلى مكان، كما لا يمكن تخيل شخصيات تتحرك وتتفاعل إلا في حيز ومكان، وفي هذا السياق يعرف عبد المالك مرتاض المكان بأنه: " كل ما عني حيزاً جغرافياً حقيقياً، من حيث نطلق الحيز على ذاته، على كل فضاء جغرافي، أسطوري، أو كل ما

يعتبر هذه المظاهر من حركة أو تغير" (مرتاض: 1995، ص 245)، ففهوم المكان بذلك لا يقتصر على الأمكنة المادية المحسوسة أو المشاهد كالمنزل، أو المدينة أو الجبل أو الغابة... (معمرى: 2017، ص 103)، بل يتعداها ليشمل تلك الأماكن الأسطورية والخيالية، فالروائي هو المسؤول الأول عن تأييد عالمه الروائي، بمختلف الأماكن الرئيسية والثانوية، المفتوحة منها والمغلقة.

هذا ما حملناه لنا مصطلح المكان أما النسق فهو ذلك المصطلح النقدي الذي هيكلنا عليه مداخلتنا، فالنسق مفهوم من المفاهيم التي انصبت عليها الدراسات الثقافية، فهو نظام الأشياء أو عطفها على بعضها وتتابعها، وبالتالي فإن مصطلح نسق يمكن تحديده معناه في اللغة بأنظمة الأشياء، أو تتابعها وتواليها في نظام واحد، ولقد قوضت الدراسات الثقافية مركزية النص واهتمت باعتبار ما يفرزه من أنظمة ثقافية، فالنص هذا وسيلة وأداة، وحسب مفهوم الدراسات الثقافية ليس النص سوى مادة خام يستخدم لاكتشاف أنماط معينة من الأنظمة السردية والإشكاليات الأيديولوجية وأنساق التمثيل وغيرها...

وعموماً أصبح اللجوء إلى التجربة الصوفية كممارسة إبداعية، أو كمرجعية فلسفية لرؤية العالم سمة من سمات التجربة الروائية الحديثة، مما يطبع الرواية بطابع شعري صوفي تكون اللغة فيه هي اللاعب الأساسي، كما يظهر في ملاحح بعض الشخصيات أو ممارساتها، أو في أسماء بعض الأماكن ورمزيتها، يمكن القول أن الحيز المكاني في الرواية عموماً والصوفية على وجه الخصوص يكتسي أهمية بالغة في تشكيل الملاحح الفني والجمالي، وهذا ما سنراه في رواية الزائر التي جمعت بين جمالية التصوف ومكانيته من خلال توظيف الروائي لأنساق صوفية مختلفة، طغى عليها النسق المكاني بروحانيته ورهبانيته.

3- النسق الصوفي في الرواية:

إن النص الروائي في توظيفه للخطاب الصوفي على اختلاف طبيعته وتوجهاته يضمن لنفسه بنية تنطوي على أساليب تعددت مناخاتها ومظانها، وتنهض على عنصر الاعتراف من الذاكرة ومن التراث العربي الصوفي، فتدوب داخل بنيات النص وتمزج بمادته وروحه، فتصير كأنها نسيج واحد يضم وحدات سردية تثرى كلها الخطاب الروائي (متلف: 2017، ص 147-148)، وهذا بالضبط ما أثبت به الروائي حفاوي زاغر البنية السردية لعالمه الروائي.

فالرواية هنا تعد مجالاً خصباً يضم الكثير من الأنساق الصوفية، فهي نظام سردي حيوي حافل بالعادات والتقاليد والأفكار والعقائد والتاريخ، تتجاذب فيها كل أنواع الحياة البشرية الواقعية والخيالية، وإذا تحدثنا عن رواية الزائر، نتحدث عن النسق الصوفي في العديد من التصرفات والممارسات والدلائل والإشارات الصريحة والضمنية داخل الرواية، تؤكد أن النسق المهيمن في الرواية هو النسق الديني،

والذي فيه بعض الغموض "تجد نشوة عظمى وهي تردد أسماءهم، أو هي تعفر وجهها بتراب أضرحتهم..." (زاغر: 1992، ص 10).

حيث تعددت الدلالات النسقية التي تدل على وجود نسق صوفي بين ثنايا الرواية سواء من تصرفات الشخصيات أو من حواراتهم أو حتى وصف الروائي للاماكن بأبعاد صوفية تضفي عليها الطابع التعبدي "ألم أترعرع على تربة ضريحه، ألمس وأقبل آلاف المرات، الأقمشة الحريرية المكومة على الجذث، كان أقرب إلى تناول يدي، وموقع قديمي من (لالة باية) و(فارس الحمراء)...." (زاغر: 1992، ص 157)، هي طقوس تقوم به عجمية للتقرب من الأولياء الصالحين، أجدادها المدفونين داخل ذاك الضريح، من التعلق بأقمشة الحريرية المسدلة على قبورهم، والبكاء لهم وإشعال الشموع فكلمها طقوس صوفية، يقوم بها المرید للتقرب منهم (حماني، 2020 ص 258).

ومما لاشك فيه أن المدونة الصوفية تتمتع بحقل دلالي متميز يكون أشد التصاقا بالتجربة الصوفية، وأبعد عن الدلالات المعجمية المألوفة، فالعبارات طبقات ملفوظية تحيل إلى شبكة من المدلولات المعقدة حيث يتداخل فيها الذاتي بالروحي، الطبيعي بالغيبي والعقلي باللامعقول والإنساني بما فوقه، وعليه فالولوج إلى عالم الكتابة الصوفية يتطلب منا النفاذ إلى الموضوع الصوفي من خلال فهم العبارة التي تنطوي على الكثير من الترميز وهو الأمر الذي لمسناه في رواية "الزائر" للروائي حفناوي زاغر التي تحمل العديد من المشاهد والأماكن والطقوس الصوفية.

بداية من العتبة الأولى، وهي العنوان الذي يلفت الانتباه، ويوجه القارئ إلى التساؤل عن من هو "الزائر"، ولا سيما إذا ربط بالبعد الصوفي، هل هو المرید كما يقال له في عوالم المتصوفة، أم انه الولي الصالح وأصحاب الأضرحة، وكما هو متعارف في التراث الديني والمتصوفة، الزائر هو الشخص الذي يتبرك بالأضرحة ويزورها ليمارس فيها طقوسه الصوفية، أم هو زيارة روح الولي الصالح المتعبد وحلولها في جسد المتصوف، كنوع من الرضا أو مرحلة من مراحل التصوف والكرامة كما يطلق عليها في عوالم الصوفية، وهذا ما لمسناه في زيارة بطلة الرواية للقبر أو بعبارة أوضح ضريح الأجداد الثلاث "ثم أن لها أن تستطيع وفي البيت العتيق ينام أجدادها الثلاثة وقد نشأت على حبهم، ورضعت منذ الطفولة تقديسهم، وشبت على التبرك بهم والدعاء لهم والاستنجاد بهم، تجد نشوة عظمى وهي تردد أسماءهم، أو وهي تعفر وجهها بتراب أضرحتهم..." أم أن هذا الزائر المتصدر غلاف الرواية وبالبند العريض وبالون الأبيض الذي يرمز للطهر والتعبد وللصوفية والنقاء لشخص آخر "أما الزائر فلا بد أنه يعلم أموراً كثيرة...ولكن كيف اهتدى إلى...؟ من دله علي؟ من عرفه بجنتي؟ إنه ليس رجل عادياً...إنه ولي صالح أو روح طاهر...إنه لا يشبه الصورة التي كنت رسمتها في ذهني لكل من (السيد بن محمد)

و(لفارس الأحمر)...التخيل دائماً غير الواقع، فلو كان يمت (لفارس الحمراء) بصلة لجلس في مكانه...قد تكون الصدفة جعلته يختار المكان الوسط ليته يزورني مرة أخرى، سوف أوفيه حقه من التعظيم والتكريم..." (زاغر : 1992. ص158)، هنا تراودنا العديد من التساؤلات حول ماهية هذا الشخص الذي تريد عجمية التعبد والتقرب إليه لتوفيه حقه من التعظيم والتبريكات "...اذن فمن يكون هذا الزائر ومن أين له هذه المعرفة والعلم بكل أشجائي وشؤوني...ولكن ما موقفي من نصائحه وما السبيل إلى استيعابها ثم تطبيقها.....وهل يجد ربي أن اعتبره نبوءة (لالة زينب) قد تحققت.... (زاغر : 1992. ص164)، من خلال هذه التساؤلات يتضح للقارئ أن الروائي حاول إخفاء وتضمين نسقه الصوفي ، ويظهر ذلك جليا في النهاية الغريبة والمحيرة التي ألت إليها عجمية، لتتحقق بالضبط التعريف الأول للصوفية وهي أن هذه التصرفات والأحلام والنبوءات لا يمكن أن يفهم كنهها إلا المتصوف والمريد الذي وصل به التعبد إلى الحلول في روح الوالي الطاهر واستحضرها والذوبان فيها في أي وقت احتاجت روحه لذلك.

وبالحديث عن النسق الصوفي نرى أن الرواية اشتغلت في البعد المكاني للنسق الصوفي أكثر من الأبعاد الأخرى، وهذا ما سنراه في العنصر الموالي ، الذي يحمل مجموعة من الأماكن المعروفة في عالم المتصوفة من جهة ومركزية في رواية الزائر.

4 - صوفية النسق المكاني في الرواية :

تحتفي الرواية الصوفية بالمكان أيما احتفاء، وبما أن الأماكن ليست على حدّ سواء من حيث جاذبيتها ومقبوليتها، فهناك بعض الأمكنة التي تحوز على مكانة خاصة، وتشكل عامل جذب للسالك الصوفي، فهذا الأخير يجذب ويميل إلى أماكن بعينها، فيميل عادة إلى تلك الأماكن التي تتماشى والخط التعبدية والمسلك الروحي الذي ارتضاه لنفسه.

فالنسق المكاني في نظر الصوفي لا يتم تقييمه حسب شكله الخارجي أو حجمه وموقعه، بل تبع أهميته وحضوره من البعد الروحي التواصل الذي يسمح به للمريد اتصاله وتواصله بالعالم العلوي، ومن هنا يظهر تصبغ النسق المكاني بتلك الأبعاد الصوفية التي تخرجه من طابعه العادي المتداول والمتعارف عليه، إلى نسق مكاني يحمل من الروحانية والقداسة التي تمتشى والطقوس الصوفية التي لا تظهر إلا للمتصوف، ومن بين الأماكن :

أولا- الضريح :

يدخل الضريح ضمن الأماكن التي تعمل على جمع شتات أهل هذا الطريق، سواء في الأيام العادية، أو في المواسم، ومرجع ذلك يعود إلى القداسة التي يتميز بها هذا المكان، حيث ينظر فقراء

الطرق الصوفية إلى الضريح " كبناء محتضن ومؤسس لبركة الولي الصالح، ويعد الشاهد المعماري على امتدادات المقدس في الأرض، كما أنه الدعامة الوسيطة بين الأرض والسماء، فالقبة المتجهة إلى الأعلى تبرر هذه العلاقة وتدعمها معمارياً" (العطري، 2014، ص31). وهذا عموماً قاسم مشترك بين غالبية الأضرحة.

فتتسم هذه الأضرحة - حسب رأي المتصوفة والمتردين لتلك الأماكن - بلهسة أو سمة خاصة تضفي عليها نوع خاص من القداسة والروحانية، فالضريح هذا يحوي قبر بداخله جثمان أحد العلماء أو الصالحين، إضافة إلى البعد الجمالي لهذا النسق المكاني، الذي يزاوج بين البعد الروحي والبعد المعماري، هذا البعد الذي يفرض سلطته وسطوته على الزائر، فالشكل المربع الذي تتخذه الأضرحة مستوحى من شكل الكعبة الشريفة (بن دحان، علواني، 2022، ص 327)، بكل ما لها من جاذبية وروحانية في قلوب المسلمين عبر العصور، ف"معمارية الأضرحة ليست مجرد أبنية خالية من السلطة، إنه سياج احتوائي يتضمن رسائل ورموز... تعبر عن انتمائها الأنطولوجي، فقباب الأضرحة المتجهة إلى السماء تعبر عن دلالة التوسط بين الدنيوي والقدسي، كما ترمز إلى الرفعة والتسامي، إنها تترجم المقدس معمارياً وتعيد صياغته من الداخل الدنيوي" (العطري، 2014، ص33)، فالشكل هنا ليس أبعاد وسقف وجدران حسب المتصوفة بل هي أماكن تحمل روحانية الحلول والتواصل الروحي بين المتصوفة والعالم الفوقية حسب اعتقادهم، فتخرج هنا الأماكن من الجماد إلى الروحية والقداسية.

فالضريح هنا يشمل النسق التعبدي باعتباره نظام من الأجزاء والدلالات داخلية على كل من الشخصيات وتحركاتهم وكذا أماكن وجودهم، وبما أن للصوفية طقوس وممارسات فلها أماكن معينة تمارس فيها هذه التعبادات والعادات، ولا ترتباطها الشديد بالأولياء والنسك، فالبطلة في رواية الزائر راودتها خواطر وحنانية وهي داخل المبنى المتواجد فيه أضرحة الأولياء الثلاثة "... ساورتها هذه الخواطر وهي في مبنى أضرحة الأولياء الثلاثة (فارس الحمراء) و (محمد السابع) و (لاللة باية)... في الغرفة المظلمة التي لا نوافذ لها تضاء ليلاً نهاراً بالشموع... (زاغر : 1992، ص10)، حاول الروائي تقريب صورة الأضرحة وقبور أجداد بطلة الرواية للقارئ ليستشعر البعد الصوفي والروحاني للمكان، فهو ليس قبر عادي بل مبنى يسوده الظلام ليلاً نهاراً، مضاء بالشموع، كأنه مشهد روحاني مخصص لممارسة الطقوس الصوفية من حلول الأرواح وغيرها.

فكان ظهور النسق الصوفي المكاني الضرائحي من بداية الرواية "...أني لها أن تستطيع ذلك، وفي البيت العتيق ينام أجدادها الثلاثة وقد نشأت على حبهم، ورضعت منذ الطفولة تقديسهم، وشبت على التبرك بهم، والدعاء لهم والاستنجاد بهم، تجد نشوة عظمى وهي تردد أسماءهم، أو وهي تعفر وجهها

بتراب أضرحتهم... (زاغر : 1992. ص 10)، فأصبح الضريح بالنسبة لعجمية ملاذاً أمنياً، وفضاء سانحاً لاتباع بعض الطرق الصوفية لممارسة تدينها فتتبارك بهم تارة وتدعوا لهم تارات عديدة، ووصل بها التقديس في حالات عديدة للإستجداد بهم، فتدخل بذلك في تلك الهالة الروحانية التي تصل بها إلى النشوة وهي تردد أسماءهم كما جاء على تعبير الروائي بقوله: "تعفر وجهها بتراب أضرحتهم. ثانياً- القبور:

ذلك المكان الروحي الذي يحمل في ذاته تناقضات بين الرغبة والرغبة، فالقبور هناك من الناس من لا يجروء على الاقتراب منها، بل حتى المرور بجانبها، وفي المقابل هناك فئة من الناس مكاناً مرغوباً يترددون إليه من فترة إلى أخرى، فهذه الفئة تتبع قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه عن القبور بقوله: " زوزوا موتاكم وسلّموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة" (اللمعي، 2022، ص 114) ، وقوله في حديث آخر: " كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة" (مصطفى اللمعي، 2022، ص 113) ، وهذا دليل على امتثال الصوفية لتعاليم الشريعة الإسلامية وعملهم بمقتضى نصوصها. فلا يكاد يخلو متن روائي صوفي من ذكر الموت أو المقبرة، وهذا ما يؤكد تلك الرؤية الصوفية الخاصة للنسق المكاني الصوفي، فالصوفي لا يرى في المقبرة مجموعة من الجثث موزعة على حفرة، بل يرى أن هذه الأجساد المطمورة في التراب إنما هي شكل آخر من أشكال الحياة الخالدة البرزخية. فعند المقابر تستدعي الشخصية الصوفية بصورة متعددة محتلفة كاتخاذ الصوفية أبطالاً للرواية، وتكون أداة للتعبير عن موقف أو رؤية ما، أو حين تنتاب إحدى الشخصيات حالات تشبه حالات المتصوفة ما إن تقترب من أحد قبور الأولياء الصالحين والأجداد ، فيهم في عوالم الخيال أو الماوراء أو اللامرئي بعد أن تحي حالة التعقل والمنطق (أداد، دت، ص 32-34.) ، مثل الحالات والتخييلات التي تراود بطلت روايتنا ما إن تقف أمام قبر لالة باية "...غفت عينها فنامت، رأت فيما يرى النائم امرأة تشبه أمها (شمس) في جمالها وامتلاء جسمها، واستدارة وجهها وتورد خديها، لولا أنها أطول منها قليلاً، وهذا الشعر الأشيب الغزير المتهدل في غير انتظام على كتفها للتهفت مزغردة أمها...أمها، لكن وهي تستنهبها من التراب وتضمها الى الصدر الممتلئ الدافئ أدركت أنها ليست الأم، لكنها امرأة أخرى قريبة من قلبها، أليفة إلى نفسها، صاحت وهي مضطربة نجلي: لالة باية..لالة باية، أبعدها المرأة قليلاً عنها تاركة يديها على كتفي الأرملة، اخترقت دماغها بنظرة ثاقبة... (زاغر : 1992. ص 11).

وهذه المشاهد تتكرر عدة مرات في الرواية فنجدها في البداية شخصية عجمية تعلم أبناءها احترام أجدادهم والتقرب إليهم حتى لو لم يعرفوا السبب والدافع لذلك وتنهرهم حتى عن السؤال أو التساؤل عن ماهية هؤلاء الأجداد وماهية قبورهم، وتحاول جاهدة إقناعهم أن تلك القبور الثلاثة ليست كبقية القبور، بل

تمنعهم حتى من التساؤل وهنا نرى أن البطلة عجمية هي لا تحمل إجابات منطقية تقنع بها أبناءها أن هذه القبور وتلك الأمكنة المحيطة بهم فيها بركات روحانية، لأن الحالة الصوفية التي تحدث لها متعلقة بقداسة تلك الأمكنة ولا تحمل لها تفسير".... كم... كم سمعتك تهتفي بأسماء الجدود الثلاثة، فارس الحمراء ومحمد السابع و لالة بابة؟؟؟"..... نعم ومن لنا غيرهم....وبمن تريدني أن أستجير...فلو لم يكونوا معنا في الحل والترحال، في الضفة هذه أو تلك لهلكنا...إن كل ما يخيفني هذه المرة أن يكونوا قد نسونا، فهذا أنا أدعوهم ولكن لا من مجيب.....أريد أن أشكو إليهم أمر أخوالي أن أستعيدهم عليهم، أترجاهم أن ينتقموا لنا من الملعونة زوجة الجد، والشريرة زوجة خالي الماحي...." (زاغر: 1992. ص16_ص17).

ثالثا- البيت العتيق :

جاء البيت في الرواية هو المكان الذي يحوي داخله الأضرحة الثلاث، هذا البيت الذي لم تستع بطلة الرواية التخلي عنه"... أنى لها تستطيع ذلك وفي البيت العتيق ينام أجدادها الثلاثة وقد نشأت على حبه" (زاغر: 1992. ص10) وفي هذا البيت الذي مثل لعجمية الملاذ الأمن رفقة أجدادها، تحاول فيه توريث هذا التصوف أو التبرك بالأضرحة لأبنائها، وكأنها دعوة لاستمرارية الفكر التصوفي من جيل إلى جيل... تريث يا بني لا تستعجل هذه الأمور، أحبهم الآن فقط، ردد أسماءهم دون ملل...ناجهم في سرك، تمثلهم في خيالك، فقد يأتونك وأنت نائم...هكذا علمتني أمي وهكذا أفعل...." (زاغر: 1992. ص16_ص17) ، فتظهر بعض الممارسات الطقوسية الصوفية التي تعلمها للأطفال، أن يحبهم رغم أنه لا يعرف من هم ، حب محفوف بالتساؤلات وترديد أسماءهم، أي ذكر مستمر لهم، كالتسبيح وغيرها، المناجاة النفسية وطلب الحلول واستحضارهم في السر، ليستجاب هذا الطلب ويزوروه في مناهم، هي في الواقع أفعال وطقوس أكبر من أن يستوعبها عقل طفل صغير هو بدوره وبداية نشأته يشكك في مثل هذه التصرفات التي لم يستوعبها"...لماذا لم يمنعوا عنك وعنا أذى الأهل؟؟" (زاغر : 1992. ص16_ص17).

رابعا- غرفة العرافة / غرفة الإلهام:

يبدو أن فاعلية النسق المكاني تعمل بشكل استثنائي مع الصوفي، ففي حين يصبح الإنسان العادي متعلقاً بالأمكنة التي ألفها حيث يجذب إليها شعورياً أو لا شعورياً، حتى أن بعضهم لا يستطيع الإبتعاد عن هذا الفضاء الروحي الذي صار جزءاً من كيانه، تجد أن الصوفي يتفاعل مع هذه الأماكن القريبة لروحه من خلفية فلسفية روحية.

فالصوفي بمجرد شعوره باستنزاف ممتلكات المكان، وكشفه خباياه، حتى ينزع نزعا إلى الفرار من حالة السكون والركود والاستسلام أمام الخمول الناشئ عن شعور الاستئناس بالحيز المكاني الذي يوفر للإنسان جو الأمن والهدوء، فلكل مكان خصوصيته التي يمكن أن يعكس أثرها على تجربة العبادة والزهاد (معمرى، 2017: ص 335)، وتلك الروحانية لمسناها في تلك الغرفة المظلمة في الرواية، والمخصصة للتعبد " في الغرفة المظلمة التي لا نوافذ لها تضاء ليلاً ونهاراً بالشموع " (زاغر : 1992، ص 10)، فهي غرفة تستحضر فيها عجمية الأموات، فهذه الغرفة من الأماكن المغلقة التي جسد النسق الصوفي بكل أبعادها، من الزوايا إلى الضوء والإضاءة وكمية الهواء داخلها، لتشكل فسيفساء صوفية مكانية تجسد البعد الصوفي في الرواية.

خامسا_المدينة :

يظهر للقارئ أن المدينة كنسق مكاني في الرواية الصوفية لا تكاد تختلف، بل تتطابق وتتشابه إلى حد بعيد، فمعظم الروايات الصوفية تصور المدينة تلك الفضاء الضوئائي، البعيد عن الهدوء، فالمدينة في رواية الزائر هو ذلك المكان الذي سافرت إليه البطلة عجمية تاركاً خلفها ضريح الأولياء، وبيت العائلة وبقيت تفاصيله حية في نفسية بطلة الرواية " عجمية" تلجأ إليه في مناماتها وتخيالاتها طيلة رحلتها الطويلة نحو المدينة ونحو المجهولات... مودعتا الوطن وضريح أجدادها الثلاث، الذين طالما تبركت بهم وأنست بوجودهم "....وداعاً موطني، بيت أهلي وأجدادي ربوع عشيرتي، وقومي، وموطئ قدميك يا أمه....رحمتك يا رب...أين أنت يا فارسي، يا ركب الحمراء، وأنت يا سبعي يا قاهر الأعداء، أدركاني إني أخب على الطريق التي لا أعرف...." (زاغر: 1992، ص 45)، فهي تودع المكان المقدس الذي يلبسها الطمأنينة والراحة والأمان في أصعب لحظات حياتها لتخطوا خطو نحو الاحدود للانتماء.

إن المدينة بالنسبة للعباد أو الزاهد لا يمكن أن تكون خيراً مطلقاً، كما أنها ليست شراً كاملاً، فزاوية النظر إلى هذا المكان تختلف من شخص لآخر ومن روائي لآخر، وفي الأخير نستطيع القول أن قراءتنا هذه للرواية والبحث في أبعادها الصوفية هي بحث سطحي غير متخصص لأن الصوفية فيها العديد من التفرعات والمقولات والحقائق التي تتماشى مع عقولنا وتوجهاتنا تارة وتكون بعيدة كل البعد عنا وعن أفكارنا تارة عديدة ، وتصوير حفاوي زاغر لهذا النسق الصوفي في الرواية يزيل اللبس على العديد من التساؤلات والعديد من علامات الاستفهام التي يتخبط فيها مجتمعنا من ممارسات تعبدية لم يهضمها العقل البشري جيداً، لأنه وببساطة ورثت إلى الأجيال ولم تمنحهم فرصة لمناقشتها وإحكامها للمنطق العقلي عن طريق النهر والتخويف والترهيب مثل ما فعلت عجمية مع ابنها بشر الذي منعت عقله الناشئ من

التساؤل عنها... وبرت ذلك أنها تعلمه كما علمتها أمها، وأنها وجدت آباءها يفعلونها ففعلتها... ونسيت أو تناست أن بشر ولد لجيل غير جيلها، ستجده المدينة لقمة سهلة وهذا ما حدث بالضبط.

5_ الخاتمة :

ان اشتغال النسق الصوفي في الرواية ضم العديد من المستويات سواء على مستوى الآداء الفردي التعبدي للشخصيات أو على مستوى سير الأحداث الغريب على المستوى الزمني والمكاني ، حيث يجد القارئ نفسه في عرض ورفض للفكر التصوفي وكيف كان صداه على شخصيات الرواية وتربطها ، فتخدير العقل بالتعلم بغير الله دفع عجمية للبحث والإبحار في المجهول، والتربية البعيدة عن الحوار والتعليم السليم للأولاد ومحاولة تخيير عقولهم بعبادات وتقاليد بعيدة عن مستوى إدراكهم شهدنا أثرها في هجر أبناء عجمية لها، والأدهى والأمر من كل هذا الضياع بين الخيال والحقيقة دفع بعجمية على عالم الهلوسات والجنون والنهاية الغامضة لا نعلم أي في عالمنا أم في عالم الخيال.

6_ قائمة المصادر والمراجع:

- (1) أبو العلا عفيفي، التصوف الثروة الروحية في الإسلام، دار الشعب، دط، بيروت لبنان، د ت.
- (2) آسية متلف، التجريب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة _ أبعاده وتجلياته، مجلة التعليمية، المجلد4، العدد10، مارس 2017.
- (3) أمينة حماني، اشتغال النسق الصوفي في رواية الزائر لحفناوي زاغر، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريش، العدد: 01، جانفي 2020.
- (4) حسن الشراقوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر، ط1، القاهرة مصر، 1987.
- (5) حفناوي زاغر، الزائر، رواية، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، الجزائر، 1992.
- (6) شريف بن دحان، مريم علواني، جمالية اشتغال المكان في الرواية الصوفية، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات، جامعة أدرار الجزائر، المجلد 10، العدد 01، جانفي 2022.
- (7) عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر- 1995.
- (8) العطري عبد الرحيم، بركة الأولياء، بحث في المقدس الضرائحي، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2014.
- (9) القعود عبد الرحمن، الإبهام في شعر الحدائفة، مطابع السياسة، عالم المعرفة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط1، الكويت، 2002.
- (10) محمد أداد، الصوفي في الروائي، الأطلس للنشر، ط1، المغرب، دت.

- (11) مصطفى اللبي، القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، دار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة مصر، 2022.
- (12) معمري معمّر، الرؤية الصوفية وأثرها في التشكيل السري عند الحبيب السائح، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، كلية الآداب واللغات جامعة باتنة، 2016_2017.
- (13) ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات، الوظائف، التقنيات)، دراسة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق سوريا، 2003.

التأويل الصوفي الإشاري للآيات القرآن الكريم المحكمة تأويل القشيري لآيات الفرائض أنموذجا

Of The Holy Quran Symbolic Sufism Interpretation Of The Mouhkam Verses

Al-Qushayri's Interpretation Of The Cults As A Model

د. عادل ايت العسري (كلية الآداب والعلوم الإنسانية-مراكش/المغرب)

aitelasriadil@gmail.com

الملخص:

يعد القرآن الكريم أهم نص في المجتمع الإسلامي على الإطلاق، وتنبع أهمية هذا النص من اشتقائه على أحكام وتشريعات تنظم حياة المسلمين سواء في علاقتهم مع بعضهم أو في علاقة الفرد بربه، ولذلك اعتنى المسلمون بدراسة القرآن الكريم من جوانب شتى بدءا بتدوينه وانتهاء بفهم آياته، وتبعاً لذلك تعددت تفاسير القرآن وتنوعت، وكان وراء ذلك التعدد اختلاف المفسرين حول فهم الآيات المتشابهة؛ لأنهم يرون بأنها تحمل أكثر من دلالة واحدة، وبأن فهمها قد يختلف من مفسر إلى آخر ومن زمان إلى آخر، وربما أن المفسر الواحد قد يعيد النظر في فهمه للمتشابه إذا ظهر طارئ ما أو حادث يدفعه إلى تغيير تأويله للآية نفسها، أما المحكم من القرآن الكريم فلم يكن حوله أي خلاف؛ لأن معناه ظاهر وجلي، يفهمه العام والخاص. بيد أن المفسرين من الصوفية كان له رأي مغاير، ذلك أنهم يعتقدون أن النص القرآني كله متشابه، أي أن جميع الآيات تحتمل التأويل بما في ذلك الآيات المتعلقة بالفرائض والعبادات، ويندرج كتاب ((لطائف الإشارات)) للقشيري في هذا الاتجاه. وتسعى الدراسة الحالية إلى الكشف عن تأويل القشيري للآيات الفرائض مع تحديد علاقة هذا التأويل بالتفاسير السائدة.

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، التأويل الإشاري، التفسير، الآيات المحكمة، الآيات المتشابهة، الصوفية؛

Abstract :

The Holy Quran is considered the most important text in Islamic society because it includes the religious prescriptions. Therefore, Muslims have taken care to study the Holy Quran in order to understand the word of God. However, it is generally divided into two categories: "Muhkam" which concerns the verses whose meaning is clear and unambiguous. And the verses "Moutachabih" which contain terms whose meaning is only held by Allah. However, Sufi commentators believe that all the verses of the Quranic text are classified under the "Moutachabih". This means that all the Quranic verses could be interpreted including the verses related to worship. To clarify this idea, we have chosen to study the book of Qushayri entitled "Lataif Al-Asharat".

Keywords : Quran, Muhkam, Moutachabih, Sufi commentators, interpreted, Qushayri.

1-تحديدات مصطلحية

-التأويل

التأويل في اللغة مصدر على وزن ((تفعيل))، وهو مأخوذ من الأوّل، يقول ابن فارس: «آل يؤول أي رجع. قال يعقوب: يقال: أوّل الحكم إلى أهله أي أرجعه، وردّه إليهم... و الإيالة السياسة من هذا الباب؛ لأن مرجع الرعية إلى راعيها» (ابن فارس، 1999، ص 160-161)، وهو المعنى نفسه الذي ذهب إليه ابن منظور الذي يرى أن الأوّل هو «الرجوع. آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً: رجع. وأول إليه الشيء: رجعه. وألت عن الشيء: ارتدّت» (ابن منظور، 2003، ص 149)، ويوحى هذا الاقتران بين التأويل والرجوع إلى أن المؤول يحاول العودة إلى الأصل أو المعنى الأول والجوهري الذي ارتبط به إنتاج الخطاب أو النص، ويجد المؤول -أثناء عملية الرجوع- نفسه أمام معان متعددة، ولكنه يختار واحدا منها فقط، ويقصي البقية، ولذلك فالتأويل عملية يتم فيها استبعاد التعدد والتنافر بين المعاني المختلفة التي يعتقد المؤول بأنها لم تكن مقصودة من طرف منتج الخطاب.

أما في الاصطلاح، فقد تعددت دلالات التأويل من حقل معرفي إلى آخر، بل لم يحصل إجماع حوله من طرف المنتسبين إلى الحقل الواحد، ويرى ابن تيمية أن مفهوم التأويل اختلف من مرحلة تاريخية إلى أخرى؛ فقد اكتسب هذا المصطلح عند القدماء، أي عند السلف الصالح، معنيين «أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه؛ سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا... والمعنى الثاني... هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر به» (ابن تيمية، د.ت، ص 28)، أما في العصور المتأخرة، فقد وظف الفقهاء والمتكلمين والمتصوفة التأويل بمعنى «صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به» (ابن تيمية، د.ت، ص 27).

ويلاحظ أن مواقف العلماء القدامى كانت متباينة بخصوص علاقة التأويل بالتفسير؛ فقد رجح أبو عبيدة وطائفة من السلف بأنهما مصطلحان لهما معنى واحد (السيوطي، د.ت، ص 426)، بينما رفض الراغب الأصفهاني هذا الموقف لاعتقاده أن التفسير أعم من التأويل، كما أن التفسير -حسب رأيه- يختص بدراسة معاني الألفاظ داخل جميع النصوص بما في ذلك النصوص الدينية، في حين أن مجال التأويل لا يتعدى الكتب السماوية (الأصفهاني، 1999، ص 11) غير أن رواد التأويلية في الغرب نفوا ذلك، فقد أكد شلايرماخر أن التأويل «فن واحد من حيث ماهيته، سواء كان النص نصا تشريعيًا أو نصا دينيا أو عملا أدبيا» (مصطفى، 2007، ص 97).

-العرفان

العرفان والتصوف والزهد كلها مترادفات تحيل على مذهب ديني ظهر حوالي القرن الثالث الهجري، وقد عرف القيصري العرفان بأنه « العلم بالله سبحانه، من حيث أسماؤه وصفاته ومظاهره وأحوال المبدأ والمعاد والعلم بحقائق العالم وبكيفية رجوعها إلى حقيقة واحدة، هي الذات الأحادية ومعرفة طريق السلوك والمجاهدة لتخليص النفس عن مضايق القيود الجزئية واتصالها إلى مبدئها واتصافها بنعت الإطلاق والكلية » (القيصري، 2015، ص 19)، ويستند هذا المذهب على أسس عديدة أبرزها «الإحساس الديني العميق، والشعور الغامر بالضعف الإنساني، والخوف الشديد من الله، والتفويض التام له والخضوع لإرادته» (نيكلسون، 1946، ص 69)، ويعتقد الجابري أن المذهب الصوفي لم يكن وليد البيئة الإسلامية، بل له جذور تمتد إلى الهرمسية والأفلاطونية الحديثة، يقول الجابري: «يبدو أن العرفان نظام معرفي ومنهج في اكتساب المعرفة ورؤية للعالم، وأيضا موقف منه، انتقل إلى الثقافة العربية الإسلامية من الثقافات التي كانت سائدة قبل الإسلام في الشرق الأدنى... والكلمة يونانية الأصل gnosis، ومعناها: المعرفة. وقد استعملت أيضا بمعنى العلم والحكمة. غير أن ما يميز العرفان هو أنه من جهة معرفة بالأمر الدينية تخصيصا، وأنه من جهة أخرى معرفة يعتبرها أصحابها أسمى من معرفة المؤمنين البسطاء وأرق من معرفة علماء الدين الذين يعتمدون النظر العقلي» (الجابري، 2009، ص 253).

قسم أصحاب العرفان العلم إلى ثلاثة أقسام: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين «فعلم اليقين، على موجب اصطلاحهم ما كان بشرط البرهان. وعين اليقين ما كان بحكم البيان. وحق اليقين ما كان بنعت العيان. فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم. وحق اليقين لأصحاب المعارف» (القشيري، 2010، ص 199)، ويمثل حق اليقين المعرفة التي يطلبها أهل العرفان حيث إنهم أهملوا الحس والعقل، وقدموا عليهما الكشف على أساس أنه المنهج أو الطريقة المثلى لإدراك الحقيقة، «والكشف عبارة عن خاطر، وال خاطر إما من الله مباشرة أو بواسطة ملك، ويختلف الخاطر عن الوسواس الذي هو من عند الشيطان، ويختلف عن الهاجس الذي هو من النفس» (زروق، 1950، ص 40).

يعتقد المتصوفة أن القلب-وليس العقل- أداة اكتساب المعرفة، فالعلم ليس سوى وحي إلهي يتنزل على قلوب أصفياء الله، فتتجلى لهم حقائق الأمور وأسرارها، ولذلك لم تكن طرقهم في الاستدلال والمعرفة علمية أي «مركبة من مقدمات وأقيسة. وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وغيره من الموجودات شيء يلقي في النفس عند تجريدتها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب» (ابن رشد، 1998، ص 117)، وهذا التأكيد على أهمية القلب في المعرفة هو ما جعل المتصوفة يعتقدون بأن الإيمان هو السبيل الأوحى لمعرفة الله «ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، كان التجلي أيضا على درجات

متفاوتة... فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان» (الغزالي، 1980، ص 160)، ولا تتأتى لذة الإيمان إلا لقلّة ممن اصطفاهم الله، والذين روضوا أنفسهم، وحرصوا على تهذيب نفوسهم، وترفعوا عن الدنيا، فكانوا بذلك محلّ عناية ربانية جعلتهم يخترقون الحجب، ويطلعون على الأسرار، ويزعم الصوفية بأنه «لا يمكن لغير من اختصهم الله بفضله أن يمارس ذلك مهما بلغ ذلك الممارس من العلم والمعرفة» (عكاش، 2008، ص 45).

-الآيات المحكّمة في القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، واقتضت الحكمة الإلهية أن تكون بعض معاني الآيات واضحة لا لبس فيها، يفهم معناها العام والخاص، بينما جاء البعض الآخر مبهماً، وهو ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشبهت﴾ (آل عمران، الآية:7). وقد حاول المفسرون تحديد مجال كل من المحكم والمتشابه، فقال ابن قتيبة: «قد يقال لكل ما غمض ودق: متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة في أوائل السور: متشابه، وليس الشك فيها، والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها، والتباسها بها» (الدينوري، 1973، ص 102)، وقد ذهب الأصفهاني أبعد من ذلك عندما وسع مجال المتشابه ليشمل كل: «ما لا ينبئ ظاهره عن مراده، وحقيقة ذلك أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه متشابه من وجه. فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، وذلك إما من جهة غرابته نحو: الأب، ويزفون، وإما من جهة مشاركة في اللفظ كاليد والعين» (الأصفهاني، 1998، ص 335)، ويرى ابن تيمية أن التعارض القائم بين المحكم والمتشابه مجرد تعارض نسبي «فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة، بل القول كله محكم» (ابن تيمية، 2005، ص 144).

يمكن القول إن معاني الآيات المحكّمة تظل ثابتة بمرور الزمن، لا يوجد أي اختلاف حول دلالتها بخلاف الآيات المتشابهة التي تتبدل دلالتها من مفسر إلى آخر بحسب تبدل الأزمنة والأمكنة وبحسب أوضاع وظهور حوادث قد تفرض مراجعة الفهم القديم للآية المتشابهة.

يحتاج المتشابه في القرآن الكريم إلى ضرب من التأويل وإعمال الفكر وطول تدبر، وفي ذلك حكمة ربانية عظيمة، فلو كانت جميع آيات القرآن محكّمة «لتعلق الناس به بسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا

يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به» (الزنجشيري، 2009، ص 412)، ولما كانت الآيات المحكمة قطعية الدلالة، لا يتغير معناها تبعاً لتغير الزمان أو المكان أو النوازل، فقد اختصت بالقضايا الجوهرية في الدين، من قبيل التوحيد وإقامة الحدود والزواج والإرث فضلاً عن الشعائر الأربع بما في ذلك الصلاة والزكاة والصوم والحج.

نزلت الآيات المحكمة لتنظيم مختلف جوانب حياة الفرد والجماعة، وكان هدفها ضمان استقرار المجتمع الإسلامي وديمومته، ومن تم صيغت تلك التشريعات في لغة واضحة لا لبس فيها كي لا يتم تأويلها وفق أهواء ومصالح فئة معينة، ولذلك كانت الآيات المحكمة بعيدة عن مجال الاجتهاد أو التفكير في الدلالات البعيدة لها، غير أن أصحاب التأويل العرفاني- أو ما يعرف أيضاً بالتفسير الإشاري أو الصوفي- رفضوا هذا الرأي، ورأوا أن التأويل ممارسة فكرية تطال جميع الآيات سواء أكانت محكمة أو متشابهة، مبررهم في ذلك ثنائية الظاهر/الباطن أو ما يعرف بثنائية العبارة/الإشارة، فأهل العرفان يعتقدون أن «(الظاهر)» هو ما يدل عليه الخطاب بدلالة اللغة الإلهية، ((المشار إليه)) بطريقة لا تكشف إلا لصاحب التجربة الصوفية، لذلك لا يتجاوز الفقهاء-أهل الظاهر- للخطاب القرآني حدود الدلالة الوضعية للغة في بعدها الإنساني، في حين ينفذ العارفون إلى ما يشير إليه الخطاب الإلهي من معان ودلالات إلهية عميقة (باطنة)» (أبوزيد، 2000، ص 158).

يرى أصحاب العرفان أن لغة القرآن غير شفافة، «بل تحتجب وراءها أفكار أعمق ومعان أدق، فإلى جانب المعنى المادي الملموس للفظ يوجد معنى باطني روحي» (المهدي، 2014، ص 116)، وتبعاً لذلك فجميع آيات القرآن الكريم مليئة بالإشارات الخفية التي لا تُكشف إلا بالتأويل، ولكن الغزالي أكد على وجود ضوابط تؤطر الفهم العرفاني للنص القرآني، ذلك أن «التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز» (الغزالي، 1998، ص 196). ومن هذا المنطلق، عمل الصوفية على تأويل الآيات القرآنية بما في ذلك الآيات المحكمة، وفي هذا النطاق قدموا فهماً مغايراً لآيات الفرائض، ويعد القشيري من أبرز المتصوفة الذين قدموا تفسيراً عرفانياً للقرآن الكريم، وذلك في الكتاب الذي يحمل عنوان ((لطائف الإشارات))، وقد أشار المؤلف إلى أن تفسيره لآيات القرآن الكريم لم يكن نتيجة اجتهاد شخصي أو إعمال للفكر أو الدراسة والبحث، وإنما توصل إلى المعاني الخفية للآيات بفضل العناية الإلهية التي اختص بها «عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشارات وخفي رموزه، بما لوح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصوا من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه

ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون» (القشيري، 2000، ص 41).

1- تأويل القشيري لآيات الصلاة أ- إقامة الصلاة

تكتسي الصلاة قدسية كبيرة في الإسلام كونها أول فريضة سنها الله على عباده، كما ترجع قدسيته إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كلف بها في السماء عندما تم الإسراء به، وقد لقيت تلك الفريضة عناية كبيرة عند جميع المذاهب والتيارات الفقهية بما في ذلك أهل العرفان الذين أكدوا على أن الصلاة «عماد الدين، وقرّة عين العارفين، وزينة الصديقين، وتاج المقربين، ومقام الصلاة مقام الوصلة، والدنوّ، والهيبّة، والخشوع، والخشية، والتعظيم، والوقار، والمشاهدة، والمراقبة والأسرار، والمناجاة مع الله تعالى، والوقوف بين يدي الله تعالى، والإقبال على الله تعالى، والإعراض عما سوى الله تعالى» (الطوسي، 2002، ص 203).

يلاحظ أن القرآن الكريم يخلو من فعل صلى في صيغة الأمر (صلوا) الموجبة لأداء فريضة الصلاة، وإنما تأتي لفظة الصلاة غالباً مقترنة بلفظة الإقامة، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿الذين يقيمون الصلوة ويوتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ (لقمان، الآية: 3)، وقد فهم بعض المفسرين الإقامة على أنها «مجاز في المواظبة والإدامة» (عاشور، 1984، ص 182)، بينما يرى القشيري أن الإقامة في الآية السابقة تحتل معنيين؛ فالمقصود بها في الظاهر هو الإتيان «بشرائها من ستر العورة، وتقديم الطهارة... وفي الباطن يأتون بشرائها من طهارة السر عن العلائق، وستر عورة الباطن بتنقيته عن العيوب... وتستقبل القبلة بنفسك، وتعلق قلبك بالله من غير تخصيص بقطر أو مكان» (القشيري، 2000، ص 128). ويتبين من خلال هذا التأويل أن القشيري لم يبلغ الفهم الفقهي للآية، فالمسلم ملزم بالالتزام بالشروط الموجبة لصحة الصلاة، وذلك بالوضوء وستر العورة ثم استقبال القبلة، بيد أن القشيري يعتقد أن تلك الشروط لا تحقق الإقامة المقصودة ما لم تقترن بطهارة باطنية قوامها صرف النفس عن الشواغل والهموم الدنيوية التي من شأنها أن تمنع قلب المؤمن من استقبال القبلة؛ فكم من مصل حقق الشروط الظاهرية للإقامة وقلبه غافل في الصلاة، غير محقق لشرط الخشوع الذي يتيح للعبد الاتصال بربه.

تعد الصلاة في جوهرها دعاء (قدامة، 1969، ص 410)، فالصلاة كلام يناجي به المؤمن الله، أي أن الصلاة مقام تواصل يخطب فيه المسلم ربه، وقد سئل الجنيد: «ما فريضة الصلاة؟ قال: قطع العلائق، وجمع الهم، والحضور بين يدي الله تعالى» (البغدادي، 2005، ص 147). يمكن القول إن هناك

وجهين لإقامة الصلاة، أحدهما ظاهر والآخر باطن، فالظاهر هو ما تدركه العامة، أما الباطن فلا يصل إليه إلا الخاصة ممن تجاوزوا المعنى المباشر، يقول القشيري في تأويله للآية الثالثة من سورة البقرة: «وأما إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسنتها ثم الغيبة... وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الغرض، ولكن عن أودية الغفلة ما يرجعون. أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون» (القشيري، 2000، ص 56-57). يرى القشيري أن القيام بأركان الصلاة وسننها ما هو إلا خطوة أولى نحو تحقيق الصلة بالله، فإقامة الصلاة عند العامة أو أصحاب الفهم السطحي تكون ظاهرية بالبدن دون الجوارح، ولذلك يفشلون في تحقيق الصلة المطلوبة، ذلك أن قلوبهم تكون غافلة منصرفة عن الحق، لأنهم أشربوا حب الدنيا، وهاموا في أوديتها المتشعبة، ولم تستطع أفئدة العامة التحرر من ذلك الحب الزائف الذي يصرفها عن التوجه نحو الخالق، أما الخاصة أو أهل العرفان فامتازوا بقلوبهم التي تغيب أثناء إقامة الصلاة، والغيبة كما عرفها القشيري «هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق بما يرد عليه، ثم قد يغيب عن غيره فقط، وقد يغيب عن غيره وعن نفسه أيضا إذا عظم الوارد» (الرازي، 2002، ص 307).

قلب الصوفي يغيب عن الدنيا عند الدخول في الصلاة، وينصرف عنها لكي يتأتى له الحضور التام بين يدي الله، فيتحقق بذلك الاتصال مع الخالق، وهذا الغياب المطلق عن عالم الحس مرجعه أن العرفاني يعي أن المقصود بإقامة الصلاة هو أن يدخلها المؤمن «بالهيبة، ويخرج بالتعظيم، ويستديم بدوام الشهود بنعت الأدب» (القشيري، 2000، ص 187).

إن إدراك العرفاني لمقام الله عز وجل وهو واقف بين يديه هو ما يجعله يتوجه بقلبه قبل جسده صوب القبلة لمناجاة الخالق والتضرع إليه، فالصوفي يعي تماما قدر الله، ولذلك يغيب عن عالم الحس «حتى أنه قد يغيب عن إحساسه بنفسه فضلا عن غيره، والغيبة بإزاء الحضور والغيب بإزاء الشهادة» (القاشاني، 2004، ص 339).

يجمع العلماء والمفسرون على أن القلب محل الخشوع في الصلاة، غير أن بعض أهل العرفان جعل الخشوع مراتب ثلاثة: «المرتبة الأولى خشوع خوف وانكسار وإذلال وهو للعباد والزهاد. المرتبة الثانية خشوع تعظيم وهيبة وأجلال وهو للهريدين السالكين. المرتبة الثالثة خشوع فرح وسرور وأقبال وهو للواصلين من العارفين، ويسمى هذا المقام قرة العين» (الجوزية، 2019، ص 193)، ولذلك وجب على الفرد أن يجاهد كي يرتقي بنفسه عن خشوع العامة ممن يكون سبب ارتباطهم بالله وإقبالهم عليه هو الخوف من عقابه، ولذلك انتفت عنهم الطمأنينة والسكينة المميزتين لإقامة الصلاة؛ فالخشوع الحق هو الذي يقبل فيه العبد تعظيما لله وطلبا لوصاله؛ لأنه إنما وقف بين يديه رغبة لا رهبة، وفي هذا الشأن

كانت رابعة العدوية تقول: « ما عبدت الله خوفا من الله، فأكون كالأمة السوء إن خافت عملت، ولا حبا للجنة فأكون كأمة السوء إن أعطيت عملت، ولكني عبدته حبا له وشوقا إليه » (الزيدي، د.ت، ص 575)، وكلما ارتقى العبد في سلم المحبة كلما ازداد تعلق قلبه بالصلاة، وتشوق إلى لقاء المحبوب، حتى إذا تم اللقاء، انشغل القلب بمناجاة الله، وانقطع العبد عن الدنيا، فتكون صلواته تامة الأركان. يرى القشيري أن المقصود بإقامة الصلاة هو «إقامة المواصلات» (القشيري، 2000، ص 113)، أي تجديد اللقاء بالله وفق ضوابط مخصوصة أساسها التوجه الروحي والنفسي نحو الله، والغياب التام عن العالم المحسوس؛ لأن هذا الغياب يسد المنافذ على الشيطان الذي يحاول قطع الاتصال الروحي بين العبد وربه بما يسوس له أثناء الصلاة، وتكون هذه الوسوسة أشد وأقوى خلال السجود. ويبدو أن رغبة القشيري في التصدي لوسوسة الشيطان قد جعلته يتبنى تأويلا موسعا لإقامة الصلاة، ففي تفسير الآية الكريمة: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوة لذكري﴾ (طه، الآية: 13) يقول القشيري مفسرا: «أي استغرق جميع الأوقات بالعبادات» (القشيري، 2000، ص 161). وهذه الدعوة إلى استغراق جميع الأوقات بالعبادات-بما في ذلك الصلاة- مرده الحرص على ديمومة صلة العبد بالله كي يزداد قربا ومحبة، كما أن هذه الصلة الدائمة تمثل حصنا منيعا أمام انفراد الشيطان بالإنسان.

يتضح من خلال تأويل القشيري لإقامة الصلاة أنه لا يدعو إلى إلغاء هذه الفريضة أو إدخال تغييرات عليها، وإنما جاء تأويله مرتبطا بضرورة الالتزام بمجموعة من الآداب أو الممارسات الباطنية التي تزيد من خشوع المصلي، وترتقي به في تعامله مع الله، وهذا ليس غريبا عن العرفان الذي يركز أصحابه «على الإرادة، فهي أساسه ومجمع بنائه، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة، وهي حركة القلب» (الجوزية، 2019، ص 352)، ولذلك يمكن القول إن التأويل الذي قدمه القشيري لا يختلف كليا عن التفسير الفقهي للصلاة، ولكنه يوسع من مجاله لأنه يوضح المسالك المتعلقة بإقامة القلب للصلاة، وهي مسالك يهملها العديد من المتعبدين أو يجهلون، فتفقد بذلك شعائرهم قيمتها، وبالتالي احتمال فقدان ثوابها.

ب- تأويل القشيري لأحكام الصلاة

اشتملت النصوص الدينية على مجموعة من الأحكام والآداب التي تؤطر القيام بالفرائض حرصا على تحقيقها وفق مقاصد الشرع، ومن بينها أحكام الصلاة، ويلاحظ أن الضوابط الموجهة لأداء هذه الفريضة قد جاء مبثوثة في مجموعة من السور، أحدها ما جاء في سورة النساء، يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا

وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم فإن الله كان عفوا غفورا ﴿ (النساء، الآية: 43).

تتضمن الآية الكريمة حكيمين شرعيين يخصصان أداء الصلاة: الحكم الأول ينص على تحريم الصلاة في حالة سكر، علة ذلك أن الخمر يحجب العقل؛ فالخمر أو السكران يكون فاقدا للوعي، غير قادر على مراعاة شروط الصلاة أو إدراك حقيقة ما يؤديه من حركات جسدية تقتضيها طبيعة هذا الركن، ويعتقد القشيري أن السكر الناتج عن شرب الخمر أهون بكثير من السكر الذاتي أو الغفلة، وهو ما يبرزه تفسيره للآية السابقة حيث يقول: «وأصعب السكر سكر من نفسك، فهو الذي يلقيك في الفرقة... ومن سكر من نفسه فخاله الفرقة- في الوقت عن الحقيقة» (القشيري، 2000، ص 335). فهنا تحذير صريح من السكر النفسي أو الباطني الناشئ عن انشغال النفس بالدنيا حين أداء الصلاة، فمن أقبل على الصلاة وقلبه متعلق بالدنيا لا يكون مدركا لحقيقة حركاته وسكاته، وربما كان في صلاته مع الجماعة محاكما لما يصدر عنهم من حركات وسكات وتلاوات، بينما قلبه وعقله متجهان صوب الدنيا، منشغلان بها تواقان للرجوع إليها، ومن تم كان السكر الباطني أخطر وأشد؛ لأن الناس أو الأهل قد يردون شارب الخمر وينهونه عن الصلاة؛ بينما يظل السكر الباطني غير ظاهر للناس، بل قد لا يعي به الفرد نفسه، فيعتقد أنه صالح وبأنه يؤدي الصلاة على وجهها، بينما هو مستغرق في غفلة تقطعه عن الصلاة بالله، ولذلك كان في حكم السكران.

وقد تضمنت الآية السابقة حكما آخر ذا صلة بوجود التيمم في حال تعذر وجود الماء، كما بينت تلك الآية الأعضاء المخصصة بالتيمم وهيأته، ولكن القشيري يعتقد أن الظاهر من التيمم هو استعمال «التراب وفي الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول» (القشيري، 2000، ص 336)، فالقصد بالتيمم هو الطهارة الباطنية التي يزكي فيها العرفاني نفسه من الخطايا والآثام، ويظهر انكساره وضعفه أمام الله عز وجل، فالتيمم بالتراب ما هو إلا سلوك ظاهري جوهره الحقيقي هو التذلل لله.

وقد توقف القشيري عند الطهارة الباطنية في آية أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا إِذَا قُمُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَيُغْسَلُوا وَجُوهُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ (المائدة، الآية: 7)

يقول القشيري مؤولا هذه الآية الكريمة: «وكما أن للظاهر طهارة فللسرائر أيضا طهارة.. وطهارة القلوب بماء الندم والنحل، ثم بماء الحياء والوجل... كذلك في الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء، وذلك

عندما تقع للهريد فترة فيقوم بتجديد عقد وتأكيده عهد والتزام عزامة..» (القشيري، 2000، صفحة 405).

يتميز القشيري بين طهارتين: إحداهما ظاهرية، وتكون بالماء لسائر البدن، وأخرى باطنية وهي «طهارة القلب من الأدناس والأغيار ومن مخالفة الديان الملك الجبار، وأن يمثل الإنسان بجميع جوارحه لما أمر به الواحد القهار» (عليوات، 2013، ص 22)، ولما كانت هذه الطهارة الباطنية معنوية، فإنها لا تحي إلا بمشاعر الخجل والحياء من الله والخوف منه، فهذه المشاعر يعترف العرفاني بتقصيره، ويظهر ندمه لما بدر عنه من آثام وذنوب، ثم إن هذه الطهارة الباطنية ليست مخصوصة بانتفاء الماء عند الصلاة، فالمرید يتم ويتطهر كلما عقد بينه وبين الله عهداً، أو كلما عزم على الإقلاع عن ذنب، فهذه الطهارة ليست مخصوصة بوقت محدد.

وبهذا يتبين بأن تأويل القشيري للأحكام المتعلقة بالصلاة جاء متضمناً لأحكام الفقهاء والمفسرين ومتجاوزاً في الآن نفسه، فهو إذ يقر بالمعنى الظاهري للمسكرات وللطهارة الظاهرية، فإنه يكشف أيضاً جوانب أخرى باطنية من شأنها أن تعضد ممارسة شعيرة الصلاة، وأن تدفع بالعبد إلى السعي نحو الارتقاء بنفسه، بحيث يكون فعله ظاهره مطابقاً لباطنه.

2- تأويل القشيري لآيات الصوم

اختص الله بعض الأوقات بعبادات محددة، ومن بينها شعيرة الصوم التي تمتد طيلة شهر كامل، يتمتع فيه الفرد عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقد بين الله تعالى بعض الأحكام المتعلقة بفريضة الصوم في كتابه العزيز، يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، الآية: 182)، فقد بين سبحانه أن الصوم عبادة قد فرضت قبل الإسلام دون تحديد صفة الصوم عند اليهود أو النصارى، وقد أول القشيري هذه الآية بقوله: «الصوم على ضربين: صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات، ثم صون الروح عن المساكات، ثم صون السر عن الملاحظات.. وأما صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره» (القشيري، 2000، ص 152). قسم القشيري الصوم إلى أنواع مختلفة، تدرج فيها من الظاهر إلى الباطن، وهذا الأخير ينقسم بدوره إلى أنواع أهمها صوم العارف، وحقيقة هذا الصوم هو كتمان الأسرار عن الغير، وليس السر سوى ما يفتح به الله على الصوفي من معان دقيقة وحقائق خفية لا يدركها العامة، فلا يجوز للعارف أن يفشي سره للغير، فكل «من صرح بالتوحيد وأفشى سر الوجدانية فقتله أفضل من إحياء عشرة». وقال بعضهم للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلم بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام، فقوام

الإيمان واستقامة الشرع بكم السرية» (ابن عربي، 2010، ص 189)، وإذا أذاع العرفاني سره كان في حكم من أفطر عمدا في رمضان، فهو بذلك مستحق لغضب الله، وهو ما قد يحول بينه وبين انكشاف الأسرار الربانية له مستقبلا.

وقد استبعد القشيري الارتباط بالتقويم الزمني للصوم الذي يمتد من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ لأنه يعتقد أن هذا التقويم يختص بصوم العامي الذي ينتهي صومه « إذا هجم الليل، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق بلا غبار، قال صلى الله عليه وسلم: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته"، فالهاء في قوله عليه السلام عند أهل التحقيق عائد إلى الحق سبحانه، فالعلماء يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال، وأما الخواص صومهم لله، لأن شهودهم الله، وفطروهم بالله، وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله» (القشيري، 2000، ص 152). فما من عبادة يؤديها العرفاني إلا ويرجو من ورائها القرب من الله، وهو لا يزال يجاهد حتى تتسنى له رؤية محبوبه، لكن ينبغي التنبيه إلى أن مشاهدة العرفاني لربه لا تتم بحاسة البصر، فالمتصوفة يقصدون برؤية الله «مشاهدته بنور يقين القلب، وليس نور يقين القلب إلا شعاعا من النور الإلهي الذي وضعه الله في قلب العبد، وبواسطة هذا الشعاع يرى العبد ربه ذوقا، كضوء الشمس الذي يمكن الناظر إليها من رؤيتها» (عفيفي، د.ت، ص 275).

وقد ميز القشيري بين رؤية هلال رمضان من طرف العامة وبين رؤيته من طرف الخاصة، فكل «من شهد الشهر صام لله، ومن شهد خالق الشهر صام بالله. فالصوم لله يوجب المثوبة، والصوم بالله يوجب القربة. الصوم لله تحقيق العبادة، والصوم بالله تصحيح الإرادة. الصوم لله صفة كل عابد، والصوم بالله نعت كل قاصد. الصوم لله قيام بالظواهر، والصوم بالله قيام بالضمائر. الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة، والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة» (القشيري، 2000، ص 153). إن أهل الظاهر يقصدون الله بصيامهم، ويرجون من وراء ذلك الفوز بالجزاء، فعبادتهم تلك أشبه بالتجارة، أما أهل الباطن فيكون صومهم بالله، ولذلك يمكن القول إن العرفاني يتقرب بصيامه من الله، ويسعى إلى أن يكون بقربه، ولا يرجو ثوبا أو أجرا من وراء أداء هذه الفريضة، فهو لا يبتغي سوى القرب من الله. صوم العرفاني باطني تتحرك فيه الإرادة نحو الحقيقة المطلقة للإمساك ببعض إشارتها، وإذا ضعفت هذه الإرادة تعذر الوصول إلى الحقيقة، بل إن العبد لا يقوى على الصيام دون إرادة قوية مهما بلغت قوته الجسدية، وهذا مما يتضح من خلال تأويل القشيري لقوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ (البقرة، الآية: 183). يعتقد القشيري أن الآية الكريمة لا تتحدث عن المرض العضوي الموجب للإفطار، ولكنها تشير إلى مرض روحي، فكل من أحس بسقم في الإرادة والإيمان

«إما لرخصة تأويل أو لقلة احتمال، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة، فليمهل حتى تقوى عزيمته وتشتد إرادته، فعند ذلك يستدرك منه ما رخص له الأخذ بالتأويل، وتلك سنة الله سبحانه وتعالى في التسهيل على أهل البداية» (القشيري، 2000، ص 154)، ويبدو أن المؤول يقصد بالإرادة النية لكون صلاحها موجبا لصلاح سائر الأعمال، وعن ذلك يقول القشيري: «والإرادة بدء طريق السالكين وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى، وإنما سميت هذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مقدمة كل أمر فما لم يرد العبد شيئا لم يفعله، فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عز وجل سمى إرادة تشبيها بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة كما أن العالم من له علم لأنه من الأسماء المشتقة ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له... فأكثر المشايخ قالوا الإرادة ترك ما عليه العادة وعادة الناس في الغالب التعرّيج في أوطان الغفلة والركون إلى اتباع الشهوة والإخلاق إلى ما دعت إليه المنية والمريد منسلخ عن هذه الجملة فصار خروجه أمانة ودلالة على صحة الإرادة فسميت تلك الحالة إرادة وهي خروج عن العادة فإذن ترك العادة أمانة الإرادة» (القشيري، 2000، ص 220).

بشر الله عباده الملتزمين بحدوده والقائمين بفرائضه بأجر عظيم، وقد حدد الله أولئك المبشرين في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَتِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب، الآية: 35)، ويرى القشيري أن الصوم المقصود في الآية ليس هو العبادة المخصوصة بشهر رمضان؛ فالصائمون والصائمات هم أولئك الذين أمسكوا «عما لا يجوز في الشريعة والطريقة» (القشيري، 2000، ص 162)، أي أن الصوم يشمل أيضا الامتناع عن الأخذ بما لم يأتي به الشرع والتزام المريد بالطريقة التي وضعها الشيخ.

لقد أعطى القشيري للصوم معنى أوسع وأشمل من ذلك المتداول عند الفقهاء، حيث إنه لم يقصر الصوم على الامتناع عن الأكل والشرب والجماع، بل جعله متصلا بمجموعة من الآداب والأخلاق التي ينبغي للمريد التحلي بها، وتلك الآداب لا تتنافى -بأي حال- مع ما جاءت به الشريعة، فالقشيري قد أكد بوضوح -في تأويله- بأن الصوم يشمل أيضا عدم الخروج عن الأحكام التكليفية القطعية في النصوص الدينية، وبالتالي للصوم وجهان ظاهري وباطني، وهما متكاملان.

3- تأويل القشيري لفريضة الزكاة

تقترن الصلاة غالباً في القرآن الكريم بفريضة الزكاة، وهذا التلازم يثني بأهمية هاتين العبادتين، فقد حث الله عباده على إقامة الصلاة والصبر عليها، مع إخراج الزكاة، وقد كان للقشيري فهم مغاير للزكاة، وهو ما يتضح في تعليقه على قول الله عز وجل: ﴿والذين هم للزكاة فُعلون﴾ (المؤمنون، الآية: 4). يعتقد القشيري أن الزكاة هي «النماء، ومن عمله للنماء فأمانة ذلك أن يكون بنقصانه في نفسه عن شواهد، ولا يبلغ العبد على كمال الوصف في العبودية إلا بذوبانه عن شاهده» (القشيري، 2000، ص 568). لقد تبنى المؤول المعنى اللغوي للزكاة، لكنه لم يربط الزيادة بالأمر العينية المحسوسة، كما هو الحال بالنسبة للثمار أو النقود، بل جعل النماء مختصاً بالنفس، فتكون الزيادة بارتقاء نفس المرید، ولا يكون ذلك إلا من خلال التغلب على النفس وأهوائها، مع الزهد في الوجود كله رغبة في مشاهدة الحق «إذ الشهود ضد الوجود، والضدان لا يجتمعان» (البسطامي، 2013، ص 230).

وقد أفرد القشيري أهل العرفان بزكاة مخصوصة، وهو ما يتبين في تأويله للآية الكريمة: ﴿وأقيموا الصلوة وءاتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ (البقرة، الآية: 42)، يقول القشيري: «والإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهمم كما تؤدي زكاة النعم... فيفيض من زوائد هممه ولطائف نظره على المتبعين والمربين بما ينتعشون به» (القشيري، 2000، ص 86). يشير هذا التأويل إلى طبقات الصوفية ومراتبهم حيث أهل الهممة في المقدمة؛ لأن قلوبهم متعلقة على الدوام بالله، وهذه الطائفة مدعوة - حسب القشيري - إلى إخراج زكاة الهممة، وذلك من خلال تلقين المریدين الأقل مرتبة منها بعض المعارف والأسرار التي تكشف لهم، أي أن أصحاب الهمم هم أغنياء الصوفية، ولذلك وجب عليهم حق في ما أنعم الله به عليهم من فضل، ولكن هذه الزكاة لا تخرج عن دائرة الصوفيين ما دامت أنها موجهة إلى المریدين وأتباع الطريقة.

ومن المعاني اللطيفة في باب الزكاة ما جاء فسر به القشيري قوله تعالى: ﴿وءاتوا حقهم يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأنعام، الآية: 142). يتفق معظم المفسرون على أن المقصود بالحق في الآية السابقة هو زكاة الثمار والغلال، لكن القشيري يعتقد أن الحق المذكور هو الشكر، وعن ذلك يقول: «حق الواجب يوم الحصاد إقامة الشكر، فأما إخراج البعض فيبانه على لسان العلم، وشهود المنعم في عين النعمة أتم من الشكر على وجود النعمة» (القشيري، 2000، ص 507).

يُميز القشيري بين زكاتين في المحاصيل: إحداهما تكون بإخراج جزء من الثمار والغلة، وقد تجنب المؤول الخوض في هذا الجانب لأن بيانه مقرر من طرف الشرع؛ أما الضرب الثاني، فزكاة معنوية يؤديها اللسان والجوارح، وتكون بشكر الله على نعمه وفضله، وهذا الضرب الثاني أهم من النوع الأول، بيد أن القشيري قسم هذا الضرب الثاني من الشكر إلى نوعين، أحدهما يكون بإقرار العبد أن ما حصله من

خيرات إنما هو من فضل الله الذي جاد من خزائن رحمته، وهذا النوع -مع أهميته- لا يرقى إلى مرتبة شكر آخر يصل فيه العبد إلى رؤية المنعم، لا رؤية النعمة.

ويلاحظ أن القشيري لم يخالف التفسير الظاهري للزكاة كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿قال الله إني معكم لئن أقمتم الصلوة وءاتيمت الزكوة وءامنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ (المائدة، الآية:13). يقول القشيري في تفسير هذه الآية: «أما إيتاء الزكاة فحقه أن تكسب المال من وجهه وتصرفه في حقه، ولا تمنع الحق الواجب فيه عن أهله، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته، ولا تحوج الفقير إلى طلبه، فإن الواجب عليك أن توصل ذلك إلى مستحقه» (القشيري، 2000، ص 109-110). كما يلاحظ أيضاً المؤول سكت عن تفسير الزكاة في بعض الآيات القرآنية، مثل الآية 11 من سورة التوبة، والآية 7 من سورة فصلت، والآية 20 من سورة المزمل.

4- تأويل القشيري لركن الحج

يدعي أهل العرفان أنهم الأقدر على معرفة حقائق الأمور، وأنهم لا يقفون عند المقاصد السطحية للشعائر الدينية وما يتصل بها من أحكام، وهو ما يعكسه تأويل القشيري للآية الكريمة: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ (البقرة، الآية:195)، فأهل الظاهر من المفسرين يعتقدون أن قضاء الحج يكون من خلال «القيام بأركانه وسننه وهيئته...وعلى لسان الإشارة الحج هو القصد؛ فقصد إلى بيت الحق و قصد إلى الحق، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص.....» (القشيري، 2000، ص 163).

يعتقد القشيري أن تفسير الفقهاء الظاهري للحج جعلهم يغفلون عن حقيقة هذا الركن العظيم، لأنهم توهّموا أن العبد -الذي عزم على أداء فريضة الحج- يغادر أهله وبلده قاصداً البيت الحرام، في حين أن الحج حركة وانتقال على المستوى الروحي، وهذا ما يميز الخاصة من الصوفية، فهم يدركون الجوانب الخفية من فريضة الحج وما يصاحبها من مناسك؛ إذ الحج «إشارة إلى استمرار القصد في طلب الله تعالى، والإحرام إشارة إلى ترك شهود مخلوقات ثم ترك الخيط إشارة إلى تجرده من صفاته المذمومة» (الجيلي، 2016، ص 91).

تؤدي العبادات-عند أهل التصوف- بالجوارح والنفوس معاً، ولا يمكن للنفوس أن تقوى على العبادة إلا إذا أفرغ المرید قلبه من الدنيا التي تحول بينه وبين الاتصال بالله، وهو ما أشار إليه القشيري في تأويل الآية الكريمة: ﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمین والركع السجود﴾ (الحج، الآية:24). يقول القشيري: «((وطهر بيتي)) يعني الكعبة -وذلك على لسان العلم، وعلى بيان الإشارة فرغ قلبك من الأشياء كلها سوى ذكره سبحانه» (القشيري، 2000، ص 538). إذا كانت الكعبة أشرف بقعة على وجه الأرض، فإن القلب هو أشرف عضو في الإنسان، وما كان للعبد أن يتصل بالحق إلا إذا طهر قلبه من

كل شيء، ولا يكون ذلك إلا بترك الذنوب والمعاصي، فإذا استخف العبد بذنوبه وأقبل على الدنيا، فعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق صلاح الدين ويستهن بأمر الآخرة، ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور المهم عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك» (الغزالي، 1982، ص 12)، ويعد الحج أحد السبل الناجعة لتزكية النفس والسمو بها، شرط أن يمثل العبد المعنيين الظاهري والباطني لهذه العبادة، فقوله تعالى: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ (الحج، الآية: 29) إنما كان القصد منه، حسب القشيري، هو طواف العبد «بنفسه حول البيت، ويقبله في ملكوت السماء، وبسره في ساحات الملكوت» (القشيري، 2000، ص 541)، أي أن المريد يتعبد ربه بجسمه وجوارحه، وبذلك تتحقق الغاية المثلى من الحج.

وردت بعض الآيات المتصلة بأحكام الحج في قوله تعالى: ﴿أيها الذين ءامنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بلغ الكعبة أو كفرة طعام مسكين أو عدل ذلك صياماً ليدوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام (97) أحل لكم صيد البحر وطعامه متعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ (المائدة، الآيتان: 97-98) يعتقد القشيري أن الأحكام المذكورة في الآية لا تنطبق على شعيرة الحج، وعن ذلك يقول: «وكما أن الصيد على المحرم حرام إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار-على الواجد- حرام ما دام محرماً بقلبه. ويقال العارف صيد الحق، ولا يكون للصيد صيد. وإذا قتل المحرم الصيد فعليه الكفارة، وإذا لاحظ العارف الأغيار، أو طمع أو رغب في شيء أو اختار لزمته الكفارة، ولكن لا يكتفى منه بجزء المثل، ولا بأضعاف المثل ما تصرف فيه أو طمع، ولكن كفارته تجرده-على الحقيقة- عن كل غير، قليل أو كثير، صغير أو كبير» (القشيري، 2000، ص 449).

إن حج الصوفي لا يرتبط بالمكان أو الزمان المتعارف عليهما عند جمهور العلماء، فالمريد يحج بقلبه طيلة حياته، وإحرامه يكون بالقلب الذي يتجرد من الأهواء والشهوات والرذائل، وإذا تعلق قلبه بإحدى هذه النقائص، وجبت عليه كفارة نفسية قوامها الانشغال المطلق بالحق، وإفراغ القلب من الأهواء وحب الدنيا. وهذا المعنى للحج عند المفسرين أو الفقهاء من أهل الظاهر، لكنه لا يتناقض-في الجوهر- مع الغاية القصوى من هذه الشعيرة، إذ القصد من جميع العبادات هو الارتقاء بالنفس البشرية والسمو بها، وتخليصها من شرك الأهواء، وعلى العموم يمكن القول إن التأويلات التي قدمها القشيري لفريضة الحج

لا تخرج- في المجلد - عن آراء كبار الصوفية الذين ربطوا ظاهر مشاعر الحج بباطنها، ولكنهم لم ينفوا وجوب قصد بيت الله الحرام في الأشهر الحرم. ويلاحظ أن القشيري لم يقدم تأويلاً للحج في بعض الآيات كما هو الشأن بالنسبة للآيتين 158 و 189 من سورة البقرة، ورغم عدم وجود قرائن صريحة تفسر صمت المفسر.

خاتمة

تبين من خلال الدراسة الحالية أن تفسير القشيري لآيات الفرائض وكذا الأحكام المرتبطة بها جاء مغايراً لشروح المفسرين والفقهاء، وذلك على النحو الآتي:

- لم يبلغ القشيري الفهم السائد لآيات الفرائض، ولكنه توسع في ذلك الفهم، واقترح تأويله الخاص بناء على ثنائية الظاهر والباطن؛

- لم يعتمد القشيري في تأويل آيات الفرائض على شواهد نصية من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو أي قرينة أخرى، بل زعم أن تأويله نوع من الهبة الربانية التي يتمتع بها بعض أهل العرفان دون غيرهم؛

- إن التأويل الذي قدمه للقشيري لآيات الفرائض يهدف إلى الارتقاء بممارسة العبادات والسمو بالنفس، لأن الفهم الظاهر لتلك الآيات يحول العبادات إلى طقوس خالية من أي معنى روحي؛

- سعى القشيري إلى التمييز بين عبادة الخاصة أو أهل العرفان وبين عبادة العامة أو أهل الظاهر، ودافع عن الأولى كونها تسمو بالروح والقلب؛

- جعل القشيري العبادة غير مرتبطة بزمان أو مكان محددين، كما أنه لم يربطها أحياناً بالمقدار المتعارف عليه عند الفقهاء.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش.

المعاجم

- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، 1999.

- جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003.

المراجع العربية

- ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم الرياض، ط 2، 2019.

- ابن قتيبة الدينوري، مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ط2، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1973.
- أبو العلا عفيفي، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب، بيروت، د.ت.
- أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، تحقيق محمد سليمان الأشقر، ط1، دار الوطن، الرياض، 1998.
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت، 1982.
- أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج النفس، ط1، دار الافاق الجديدة، بيروت، 1980.
- أبو نصر الطوسي، اللمع في التصوف، تحقيق: عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2002.
- أحمد بن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998.
- الإمام القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم بسيوني، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000.
- تقي الدين ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تح عامر الجزار و أنور الباز، ط3، دار الوفاء، المنصورة، 2005.
- جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2009.
- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح شعيب الأرنؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، ص2008.
- الجنيد البغدادي، تاج العارفين، تح سعاد الحكيم، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2005.
- حسين علي حسين المهدي، المعنى في ضوء التفسير العرفاني للقرآن الكريم، ط1، مطبعة البصائر، بيروت، 2014.
- حسين علي عكاش، التفسير الصوفي الإشاري للقران الكريم: منهج الاستنباط والدلالة الجديدة، مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، كلية الآداب والعلوم بزلتين ع17، يونيو 2008.
- الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، ط1، كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999.
- الراغب الأصفهاني، كتاب المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، 1998.

- الشاهرودي البسطامي، حل الرموز وكشف الكنوز، تحقيق السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013.
- شرف الدين محمود القيصري، مجموعة رسائل معرفية أو رسائل القيصري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2015.
- شمس الدين الرازي حدائق الحقائق، تح سعيد عبد الفتاح، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- شيخ الإسلام بن تيمية، الإكليل في المتشابه والتأويل، دار الايمان للنشر و التوزيع، الإسكندرية - مصر، د.ت
- طارق زيناوي، فصول في التصوف والعرفان، مركز الكتاب الاكاديمي، 2020.
- الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- عادل مصطفى، فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادمر، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، 2007.
- عبد الرزاق القاشاني، لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام (معجم ألفبائي في الاصطلاحات والإشارات الصوفية)، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
- عبد الكبير بن عبد المجيد عليوات، سراج الغيوب في أعمال القلوب، تحقيق عبد الله شريف وزاني، دار الكتب العلمية، بروت، 2013.
- عبد الكريم الجبلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016.
- عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تح عبد الحلیم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، 2010.
- عبد الله حسن زروق، منهجية لدراسة التصوف: أصول التصوف، المركز القومي للإنتاج الإعلامي، 1950.
- محمد بن قدامة، المغني، تحقيق طه الزيني وآخرون، ط1، مكتبة القاهرة، 1969.
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط9، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.
- محيي الدين بن عربي، رسائل ابن عربي، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.

- مرتضى الزبيدي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت
-نصر حامد أبو زيد، اللغة/الوجود/القران: دراسة في الفكر الصوفي، مجلة الكرمل، 2000.
الكتب المترجمة
-نيكلسون رينولد ألين، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر، القاهرة، 1947.

الآراء الخلافية بين النحويين البصريين والكوفيين في كتاب أمالي ابن الشجري

Controversial opinions in Arabic grammar in the book of Amali Ibn Al-Shajari

جاءب الله بايزيد، أستاذ محاضر، جامعة زيان عاشور، الكلية كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر

الايمل: jaballahbaizid@gmail.com

رقم الهاتف: 0667906247

الملخص باللغة العربية:

نسعى من خلال هذا العمل إلى التعرف عن ظاهرة الخلاف النحوي وما نتج عنها من آثار إيجابية بدت واضحة جلية فيما جادت به قريحة العلماء من تصانيف كثيرة وما حوته في تضاعيفها من آراء ومذاهب كثيرة حاول ابن الشجري أن يسجلها في أماليه تلك الأمالي التي تعد من أشهر ما أُلّف في مجال الخلاف النحوي.

وقد حاولنا أن نستقصى في بحثنا الآراء النحوية واللغوية لعلماء العربية واختلاف مذاهبهم في أصول الكلمات العربية وإعرابها لكي تبين التفكير الذي توصل إليه النحاة ومجدهم وبراهينهم التي اعتمدوا عليها في دعمهم قواعدهم وبيان مدى الثقة في الأصول التي بنوا عليها والنتائج التي انتهوا إليها.

كما أننا سنحاول معرفة موقف صاحب كتاب الأمالي من هذا الخلاف بين العلماء خاصة وأن ابن الشجري يمثل همزة وصل بين أوائل النحاة السالفين وغيرهم من علماء النحو الخلفين.

إلى أي مدى استطاع هؤلاء النحاة أن يصلوا إلى إقناعنا بمجدهم في تصنيف وتحليل وإجازة هاته المفردات والأساليب العربية؟ وهل كان لهذا الخلاف النحوي آثار إيجابية في ازدهار اللغة العربية وتطورها؟

الكلمات المفتاحية: الخلاف النحوي؛ الآراء النحوية؛ ابن الشجري؛ كائن؛ التعجب.

Abstract:

Through this work, we seek to identify the phenomenon of grammatical disagreement and the positive effects that resulted from it, which appeared clearly and clearly in the many classifications that scholars have mentioned and the many opinions and doctrines contained in their multiplications that Ibn al-Shajari tried to record in his poems, which are among the most famous. A thousand in the field of grammatical disagreement.

In our research, we have tried to investigate the grammatical and linguistic opinions of Arabic scholars and the differences between their schools of thought regarding the origins of Arabic words and their parsing, in order to discern the thinking reached by grammarians, their arguments and proofs whose knowledge they relied upon to support their rules, and to demonstrate the extent of confidence in the principles upon which they built and the results they arrived at.

We will also try to find out the position of the author of Al-Amali's book on this disagreement among scholars, especially since Ibn Al-Shajari represents a link between the early early grammarians and other dissenting grammar scholars.

To what extent were these grammarians able to convince us with their arguments in classifying, analyzing, and approving these Arabic vocabulary and styles? Did this grammatical disagreement have positive effects on the prosperity and development of the Arabic language?

Keywords: disagreement; grammarians; Al-Amali; Ibn Al-Shajari; object; Exclamation.

مقدمة:

ولد الخلاف بين النحويين في بعض المسائل الفرعية مع ميلاد علم النحو ، ويتلخص هذا الخلاف في تصنيف بعض المفردات، وفي تحليل بعض الجمل ، وفي إجازة بعض التراكيب وفي شروط بعض ما يشغل الوظائف النحوية ، وفي بعض العوامل وفي توثيق النص الذي يؤخذ به وفي الحكم عليه ، ولسنا صدد تفصيل ذلك أو الحديث عن أسباب الخلاف وأطرافه من بصريين وكوفيين وغيرهم وتصنيفهم في مدارس أو مذاهب ، بل يكفي أن نقول : إن مواضع الاتفاق بين النحويين أكثر من مواضع الخلاف ، ولم يمنع ذلك من أن يعنى بعض النحويين بجمع ما تيسر له من مسائل الخلاف وبيان حجج ودحض حجج بمعايير منطقية مما يشعر ببعدها بين المختلفين. (محمد إبراهيم عبادة، 2009، ص444)

وتتمثل بذرة الخلاف الأولى بين علماء النحو فيما ورد في كتاب سيبويه بلفظ: (الكوفي) وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست أن لفظة الكوفي الذي ورد في كتاب سيبويه هو أبو جعفر الرؤاسي وهو أول من وضع كتاباً في النحويشير فيه إلى المذهب الكوفي كما أن الأخفش الأوسط وهو تلميذ سيبويه ذكر في كتابه معاني القرآن هذا النسب (الكوفي) ومعنى ذلك أن الخلاف بين النحاة قديم فقد كان لأهل الكوفة آراؤهم منذ عهد الرؤاسي وقبل الكسائي والقراء كما كان لأهل البصرة آراؤهم منذ عهد الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وسيبويه إلا أن هذا الخلاف النحوي لم يأخذ شكلاً حاداً إلا بعد أن التقى سيبويه بالكسائي في بغداد وحدثت بينهما تلك المناظرة الشهيرة المعروفة ب (المسألة الزنبورية) ثم أعقبها اللقاء الأخفش الأوسط بالكسائي مدافعاً عن أستاذه سيبويه وزادت حدة الخلاف النحوي زمن المبرد البصري وثلعب الكوفي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وقد أصبحت بغداد مجمع علماء العربية من مختلف الامصار حيث دارت المناظرات واختلفت الآراء في بعض المسائل واتفقت في أخرى مع ملاحظة أن الصواب لم يطرد لأحدهم بل نجد من الفريقين من يصيب ويخطئ وأحياناً يكون الخلاف النحوي مما لا طائل من ورائه سوى التعصب للمذهب أو حُب الظهور والشهرة وكانت نتيجة الخلاف انجباب العلماء على دراسة العربية وفروعها لاستقصاء مسائل النحو من بطون أمهات الكتب وجمعها من أفواه العرب كل يبحث عن شواهد تؤكد مذهبه وتضعف المذاهب الأخرى ومن ثم كثرت الأمثلة والشواهد فجمعوها في مؤلفات ومن أشهر مصادر الخلاف النحوي عند أئمة النحو المتأخرين.

وكتاب أمالي ابن الشجري وقبل الولوج إلى هذا المؤلف نفسه ما معني الأمالي: (محمد إبراهيم عبادة، 2009، ص434)

يعد كتاب أمالي ابن الشجري من الكتب المهمة في الخلاف النحوي وأكثر مصنفاته شهرة وذيوعاً، فقد اشتمل على جملة صالحة من أصول النحو وفروعه، بل إنه عرض لمسائل منه لا تكاد توجد في كتب النحو المتداولة

استغرقت أمالي ابن الشجري أربعة وثمانين مجلساً، عرض فيها لمسائل من النحو، والصرف، والعروض، واللغة، والأدب، والبلاغة، والتاريخ، والأخبار، واتسمت هذه الأمالي أو المجالس كما سماها بأن يستفتحها بذكر مسألة من مسائل النحو أو الصرف، أو بآية من القرآن الكريم، أو بيت من الشعر موضحاً وشارحاً، مستطرداً بما يقتضيه الموقف من الإيضاح والشرح، وكانت تلك الأمالي تدور حول محاور ثلاثة:

(محمد إبراهيم عبادة، 2009، ص436)

الأول: ما يبيده هو من مسائل النحو والصرف، والأدب ... إلخ.

الثاني: ما يجيب به عن أسئلة تلاميذه المتحلقين حوله.

الثالث: ما يجيب به عن المسائل التي ترد عليه من البلدان الأخرى.

وابن الشجري واحد من هذا النفر الكريم الذين عرفوا للغتهم حقها، من دقة النظر، وحسن الفقه، وكريم الرعاية.

ولقد عكف على ذلك الحصاد الطيب الذي سبق به الأوائل: شارحا ومفسرا، ومتعقبا وناقدا ومستدركا... ويمثل ابن الشجري ومن إليه من نحاة القرنين الخامس والسادس حلقة الوصل بين المتقدمين من النحاة والمتأخرين، فقد كان لقرب هذا الجيل من المنابع الأولى بالتلقي والمشاهدة وما ظفر به نحاة هذا الجيل أيضا من الكتب والمصنفات التي عمرت بها دور العلم وخزائن المكتبات، قبل أن تعصف ها عوادي الناس والأيام، كان لذلك كله فضل حفظ آراء المتقدمين مما أمد النحاة المتأخرين بذلك الفيض الزاخر من الوجود والآراء،

(ابن الشجري، 2014، ص08)

وكونه من شراح سيبويه وأبي علي الفارسي، فقد حفظ لنا نصوصا وشواهد عن سيبويه، سواء أكانت في المطبوع من الكتاب أم ليست في المطبوع منه، وهو ما ترتب عليه ذكر نصوص وآراء الخليل، على اعتبار قيام (الكتاب) على آراء الخليل، كما أن كتاب الأمالي يتمتع بالشهرة وبعد الصيت، وثناء العلماء عليه أضف إلى ذلك ما يتمتع به ابن الشجري من دقة النظر والفصاحة وحسن الكلام، وحلو الألفاظ، وحسن البيان والفهم الإفهام. (ابن الشجري، 2014، ص09-10)

أصل كلمة (كائن) واعرابها

استفدت استفادة كبيرة من مقال نشر في كتاب بحوث المؤتمر الدولي السابع بعنوان الخليل عبقرية العربية الذي انعقدت فعالياته يومي الثلاثاء والاربعاء من 20 / 21 مارس 2012 بكلية دار العلوم جامعة القاهرة هذا المقال كان بعنوان الخليل بن أحمد من خلال آرائه الصرفية والنحوية في أمالي ابن الشجري للأستاذ الباحث فايز صبحي عبد السلام تركي والذي درس كتاب الأمالي لابن الشجري وعلق على أصول بعض الكلمات العربية ومنها كلمة (كائن).

يرى الأستاذ فايز تركي أن ما أورده الإمام ابن الشجري في المجلس السادس عشر من الأمالي في بيان أصل كلمة (كائن) يؤكد لنا أن ثمة عبقرية مبكرة لدى الخليل أكدها من جاءوا بعده، تلك العبقرية التي يفهم خلالها عدم اعتراض ابن الشجري عليها أن ثمة وافقة منه على رأي الخليل في أصل كلمة (كائن)، (فايز صبحي عبد السلام تركي، 2012، ص 287-287) وقد استدلت على هاته الحقيقة من تعليق ابن الشجري على قول الشاعر جرير بن الخطفي (الشاعر جرير، ص)

وكائن بالأباطح من صديق

يراني لو أصبت هو المصابا

قالوا في معنى (كم) الخبرية: كآين وكائن، مثل كاعن، لغتان كثر استعمالهما، إلا أن الخفيفة أكثر في الشعر، والثقيلة أكثر في القراءة، ولم يقرأ من السبعة بالخفيفة إلا ابن كثير وحده، ووافقه من غير السبعة يزيد بن القعقاع المدني، وأصل الثقيلة: آي، دخلت عليها كاف التشبيه، فعملت فيها الجر، وأزيلتا معنيهما، فجعلنا كلمة واحدة مضمّنة معنى (كم) التي للتكثير، ووصل التنوين بها في الوقف، وجعلت له صورة في الخط، وصار كأنه حرف فلذلك وقف القراء عليها بالنون، اتباعاً لخط المصحف، إلا أبا عمرو، فإنه أسقطها؛ لأنها في الأصل تنوين، ووافقه من غير السبعة يعقوب بن إسحاق عن من الأصل الحضرمي.

وأما الخفيفة فأصلها: كآين، فقدّموا الياء على الهمزة، وحركوا كل واحدة 107 منهما / بحركة الأخرى، كما يفعلون فيما يُقدّمون بعض حروفه على بعض، كقولهم فيجمع بشر: آبار، والأصل: أبار [فصارت] كآين مثل كآين، نحفوها كما خففوا نحو ميت فصار كآين مثل كآين، فأبدلوا الياء وهي ساكنة ألفاً فصارت كائن، كما قالوا في النسب إلى طيء: طائي وطّيء، فيعل، وكان قياسه طيء، مثل طبيعي، كقولك في النسب إلى سيد: سيدي، فقلبوا الياء ألفاً بوجود أحد شرطها، وهو انفتاح ما قبلها، وإذا كانوا قد قلبوا [الياء] الساكنة ألفاً مع انكسار ما قبلها فقالوا في النسب إلى الحيرة: حاري، فقلبها مع وجود الفتحة قبلها أسهل.

وقال بعض البصريين، وهو أيضاً مأثور عن الخليل: أصل كائن: كآين، وذلك أنهم قدموا الياء الأولى وهي الساكنة المدغمة على الهمزة، فانفتحت الياء بانفتاح الهمزة، وسكنت الهمزة بسكون الياء، فصارت كآين، مثل كيعين، فلما تحركت الياء وقبلها فتحة الكاف انقلبت ألفاً، والهمزة بعدها ساكنة، فحركات الهمزة بالكسر لالتقاء الساكنين، فصادت كسرتها كسرة الياء بعدها، فاستثقلوا أن يقولوا: كآين، كما استثقلوا أن يقولوا: مررت بقاضي، فأسكنوا الياء فصادت بسكونها سكون النون بعدها، فوجب حذفها لالتقاء الساكنين، كما وجب حذف الياء من قاض لسكونها وسكون التنوين، فحذفوها فاتصلت الهمزة بالنون، فصارت كآين مثل قاض.

(الشاعر جرير، ص 160-161)

ولأن الخليل بن أحمد يعد شيخ العربية وواضع قواعدها وأصولها إذ يعد الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليقه (ابن الانباري، ص 45) قد استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إليه سابق (الزبيدي، ص 51) والملاحظ أن هذا الرأي المأثور عن شيخ البصريين حول أصل كلمة (كائن) قد ورد في ما قاله ابن جني أيضاً نقلاً عن الخليل وأبي علي الفارسي (ابن جن، ص 187) وإذا أردنا أن نستجمع هذه الآراء حول أصل كلمة (كائن) استفادة مما أشار إليه ابن الشجري في كتاب الأمالي ومما نقله من رأي مأثور عن الخليل شيخ البصريين فإن من إعراب كلمة (كائن)

1- كائن: مخففة عن كآين. وهي كناية عن عدد، تُستعمل للإخبار عن الكثرة، وتشبه «كم» الخبرية في: الإبهام، والافتقار إلى التمييز، والبناء، ولزوم التصدير، وإفادة التكثير؛ قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: 146].

كآين: خبرية تكثيرية مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ من نبي: جار ومجرور. متعلقان بمعنى التكثير المستفاد من «كائن»

(قاتل معه ريبون): في محل رفع خبر لـ كآين

كائن مخففة أكثر ما تجيء في الشعر.

والغالب في تمييز «كائن» أن يكون مجروراً بـ «من»، نحو:

وكائن تركنا من كريمة معشر

عليها الخموش ذات حزن تفتح

وكائن رددنا عنكم من مدح

يحيي أَمَامَ الْقَوْمِ يَرِدِي مُقْنَعًا

كائن: خبرية تكثيرية مبنية على السكون في محل نصب مفعول به مقدم. (وليها فعل متعد لم يستوف مفعوله).

من كريمة، من مُدَجَّج: متعلقان بمعنى التكثير المستفاد من «كائن»
وقد يأتي تمييزها منصوباً؛ حكى سيبويه:

(سيبويه، ص 170)

كَأَيِّنَ رَجُلًا قَدْ رَأَيْتَ.

وكائن لنا فضلاً عليكم ومنه

قديمًا، ولا تدرُونَ ما مِنْ مُنْعَمٍ؟

كائن: خبرية تكثيرية في محل رفع مبتدأ.

لنا: متعلقان بخبر كائن المحذوف.

فضلاً: تمييز منصوب.

عليكم: متعلقان بالمصدر فضلاً.

- ولا يجوز أن يقع خبرها مفرداً خلافاً لـ «كم» الخبرية.

وكائن بالأباطح من صديق

يراني لو أُصِبتُ هو المصابا

كائن: خبرية تكثيرية في محل رفع مبتدأ.

بالأباطح: جار ومجرور متعلقان بخبر كائن

من صديق: جار ومجرور متعلقان بمعنى التكثير المستفاد من (كائن).

هو: ضمير فصل لا محل له وقع بعد ضمير المتكلم، فكان حقه أن يقول: يراني أنا المصاب؛ لأنَّ ضمير

الفصل يجب أن يكون وفق ما قبله في الغيبة والخطاب والتكلم؛ تقول: علمتُ زيداً هو المنطلق، وعلمتُكَ

أنت المنطلق، وعلمتني أنا المنطلق، وخرَّج البيتُ على أنَّ ياء المتكلم في «يراني»، قامت مقام مضاف

غائب محذوف، أي: يرى مصابي هو المصاب. والمعنى: يرى مصابي هو المصاب العظيم.

- تعرب «كائن» مبتدأ، نحو: كائن من رجل جاء، ومفعولاً به مقدماً إذا وليها فعل متعد لم يستوف

مفعوله، نحو: كائن رجلاً قد رأيت. ولا تقع في موضع جر البتة.

(محمد عبد الله قاسم، 2010 ص 15-14)

الخلاف النحوي حول أصل كلمة (ويكأن)

أشار ابن الشجري في كتابه الأمالي إلى رأي البصريين ممثلة في شيخهم الخليل فيما يتصل بأصل كلمة (ويكأن) في المجلس السادس والأربعين يقول فيه:

(ابن الشجري ، ص 180)

ومما حذفوا لامه من الحروف لاجتماعها مع لام التعريف «عَلَى» فيما حكاه سيبويه، من قولهم: «علماءُ بُو تميم» يريدون: على الماء، فهزمة الوصل سقطت في الدَّرج، وألف «عَلَى» سقطت لسكونها وسكون لام الماء، وحذفت لام (على) تخفيفاً، وأشد سيبويه للفرزدق:

وما سبق القَيْسِيُّ مِنْ ضَعْفِ حِيَلَةٍ

ولكنْ طَفَّتْ علماء غُرْلَةٌ خَالِدٍ

طَفَّتْ: قَفَّتْ، والغُرْلَةُ: القُلْفَةُ، ومثله لِقَطْرِي بن الفجاءة:

غداة طَفَّتْ علماء بكر بن وائل

ومعجنا صُدُورَ الخليل نحو تميم

ومما حذفوا منه إحدى اللامين، قولهم: «ويَلِه» الأَصْلُ: وَيَلُّ، لِأَمِّه، فحذفوا تنوينه، وأدغموا اللام التيمي لام الكلمة في اللام الجارة، فصار [في] التقدير: وَيَلُّ أُمَّه، ثم حذفوا اللام المدعمة وهمزة «أم»، فصار: ويله وإنما جاز إدغام هذا، وإن كان منفصلاً، وكان الحرف الذي قبل الحرف المدغم ساكناً، لكون الساكن حرف لين، فالياء في قولهم: ويل أمه، بمنزلة الياء في قولك: جيب بكر، وقد أدغموا هذا النحو، وكذلك: ثوب بشر، وحسن الإدغام في هذا مع كونه منفصلاً، إذ كانوا قد قالوا في عبد شمس: هذا عبُّ شمس، القوا حركة الدال على الساكن، الذي هو الباء، ثم أدغموا الدال في الشين، وإن كان ذلك شاذاً، ولا يحسن، ولا يحسن مثله في قولك: قوم موسى، واسم مالك، لأن عبد شمس أكثر استعمالاً منه، وهو مع ذلك علم، والأعلام تغير كثيراً، إلا أنهم / لم يلزموا عبد شمس الإدغام، وألزموه ويله، لما ذكرته من كون عبد شمس أكثر منه، كما ألزموا المعدي التخفيف، في نحو: (تسمع بالمعدي لا أن تراه) و (خير من أن تراه) لأنه كثير الاستعمال، والمعدي تصغير معدى.

قال أبو علي: إن قيل: ما تكثر من أن تكون (وى) من (ويله)، ليس من (ويل)، ولكنها التي في (ويكأنه) وفي قول عنتره (ويك عنتر أقدم)، فإن الدلالة على أنهم من (ويل) دون (وى) هذه قول

الشاعر:

لأم الأرضِ وَيْلٌ ما أَجَنَّتْ

غداة أضرَّ بالحسنِ السبيل

[الحسن: موضع] فلما ظهرت اللام في ويل، لما قدم الشاعر اللام الجارة، كذلك إذا أخرجت اللام، فقول: ويل لأمه، هذا معنى كلام أبي علي في هذه المسألة، وفي كلامي بعض لفظه. وقوله: (وجاز إدغامُ هذا، وإن كان منفصلاً، وكان الحرف الذي قبل الحرف المدغم ساكناً، لكون الساكن حرف لين، فهو مثل: جيب بكر، كلام محتاج إلى تفسير، وذلك أنهم إنما يدعمون المتصل، إذا سكن ما قبل الحرف المدغم، كإدغامهم استعمل من المضاعف، بعد إلقاء حركة المثل الأول على الساكن قبله، كقولهم في استعدّد: استعدّ، وفي استقر: استقر، ولم يُجيزوا مثل هذا في المنفصل، نحو قول سيويوه: قمر موسى، واسم مالك، وجاز [هذا] في ويله، لأن الياء إذا سكنت فيها لين، وإن كان ما قبلها مفتوحاً، فجاز لذلك وقوع الساكن المدغم بعدها، كما جاز في قولك: جيب بكر، وانضم إلى ذلك كثرة استعمال هذا الحرف، كما كثر استعمال المعيدى، وأصله: معدى، مشدّد الدال، وأما مجيء الساكن مدغماً بعد الياء المفتوح ما قبلها في المتصل، فحسن، كقولهم، في تحقير أصم: أصم، وفي تحقير مدة: مديق.

ولما جرى ذكر (وى) في هذه المسألة رأيت إيراد الكلام فيها، وإيضاح معانيها. قال المفسرون في قول الله تعالى: ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسُطُ الرِّزْقَ﴾ معناه: ألم تر أنّ الله، ومثل ذلك قوله: ﴿وَيَكُنَّه لَا يَفْلَحُ الكَافِرُونَ﴾ واختلف فيها اللغويون، فقال الخليل: إنها «وى» مفصولة من (كأن) والمراد بها التنبيه، وإلى هذا ذهبونس وسيويوه والكسائي، وقال أبو سعيد السيرافي: «وى» كلمة يقولها المتندم عند إظهار ندامته، ويقولها المندم لغيره، والمُنْبَه له، ومعنى كأن الله يبسط الرزق: التحقيق، وإن كان لفظه لفظ التنبيه، فالتقدير: تنبّه! إن الله يبسط الرزق، أى تنبّه لبسط الله الرزق، قال الفراء: (معناها في كلام العرب التقرير، كقولك لمن تُقرره: أما ترى إلى صنع الله) فكأنه قيل: أما ترى أن الله يبسط الرزق!

وقد علق الاستاذ فايز تركي على ذلك بقوله: (فايز تركي، ص 288-289)

ففي هذا النص نلاحظ أن ابن الشجري قد أشار إلى اختلاف اللغويين تجاه (ويكأن)، فنص على رأي الخليل، مفاده أنها عبارة عن "وي" مفصولة من "كأن" والمراد التنبيه، وهو ما ذهب إليه يونس وسيويوه والكسائي - على حد قول ابن الشجري - وغيرهم اللغة بين والمفسرين مشرين إلى أنها كتبت متصلة بكاف التشبيه لكثرة الاستعمال، أما الفراء فقد حكى عن بعض النحويين أنها (ويك) موصولة بالكاف، و (أن) منفصلة وهي (ويكأن) تفيد التقرير.

ويمكننا التأكد مما ذهب إليه ابن الشجري وإشارته بعد ذلك إلى اختلافات النحاة والمفسرين في أصل كلمة (ويكأن) إذ يقول: (ابن الشجري، ص 184-185)

وأقول: إن كل واحد من هذين المذهبين، مذهبي الخليل والفراء، وكذلك ما قاله أبو سعيد، من أن التقدير: تَنَبَّه؛ إنَّ الله يبسط الرزق. [كلهن يُخرج على ما قاله المفسرون ، وأنَّ معنى قوله: وَيُكَنَّ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ] معناه: ألم تر أنَّ الله يبسط الرزق ، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ فهذا تنبيه على قدرته، وتقرير بها.

وقال غير هؤلاء من اللغويين: هي وَيَكُّ، بمعنى: ويلك، وحذفت اللام لكثرة استعمال هذه اللفظة في الكلام، (وَأَنَّ) من قوله: ﴿هُوَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ مفتوحة، بإضمار أعلم، واحتجوا بقول عنتر:

ولقد شفَى نفسي وأبراً سقمها
قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

فالكاف على هذا القول ضمير، فلها موضع من الإعراب.

وقال آخرون: هي وى: اسم للفعل، ومعناها: أتعجب، كما تقول: وى لم فعلت هذا؟ فالكاف في هذا الوجه حرف للن خطاب، كالكاف في رويدك، فهي دالة على أن التعجب موجه / إلى مخاطب، لا إلى غائب، وانفتحت (أن) بتقدير اللام، أي أتعجب، لأنَّ الله يبسط الرزق، وعلى أحد هذين القولين تُحْمَلُ، (وى) في قول المتنبي:

كفى أراني ويك لومك ألوما
هم أقام على فؤاد أنجما

وأقول في تفسير هذا البيت: إنَّ الإنجَامَ من صفات السحاب، وهو الإقلاع، ونقيضه: الإنجام، لأنه الإقامة والدوام، يقال: ألبمت السماء: إذا دام مطرها أياماً، وأنجمت: إذا أقلعت، ولا يُقال: أنجم الفؤاد، ولكنه استعار ذلك، ليقابل أقام، ومقابلة الشيء بنقيضه من بديع صناعة الشعر ويسمى الطباق، وحقيقة إنجام فؤاده أن الحب أذابه فأذبه، كما قال:

أصبحت من كبدي ومنها معدما

وقد روى عنه أنه قال: لم أقل أنجم، وإنما قلت: أنجم، أي أقام على الهوى فلم يُقلع عنه باللام. وقوله: (أراني) أرى: ماض، بمعنى أعلم، فهو منقول من رأى الذي بمعنى علم، المتعدى إلى مفعولين، ولما نُقل بالهمزة من رأى المقتضى مفعولين، اقتضى [بالنقل] ثلاثة مفاعيل، فالمفعول الأول الياء، من قوله: (ني) والثاني قوله (لومك) والثالث قوله: (ألوما) وفاعله (هم) والمعنى: أعلمني هم مقيم على فؤادي أن لومك لي أحق باللوم مني، أي أنت في لومك لي أحق بأن تلامي.

ويعلق الأستاذ فايز على هذا هو الخلاف النحوي الذي أشار إليه ابن الشجري بقوله: (فايز تركي، ص

وهو ما يتبين من خلاله أن ثمة رأياً مخالفاً للمذهبين السابقين، يتزعمه الأخفش، مفاده أنها عبارة (ويلك)، ثم حذفت اللام لكثرة استعمال هذه اللفظة في الكلام، و" أن " من قوله: (أن الله يبسط الرزق) مفتوحة، بإضمار اعلم،
(القراء، معاني القرآن، ج 312/2)

على حو ما ورد في شعر عنتره في النص السابق، وعليه فالكاف ضمير، له موضع من الإعراب، وهذا الرأي مردود من جهة أنه " لو كانت (ويلك) لكانت (أن) مكسورة، كما تقول: ويلك: إنه قد كان كذا وكذا".

وثمة آخرون - كما نذكر ابن الشجري - يرون أنها (وي) التي هي اسم للفعل ومعناها: أتعجب، كما تقول: وي لم فعلت هذا؟ والكاف على هذا الوجه حرف للخطاب، كالكاف في رويدك، فهي دالة على أن التعجب موجه إلى مخاطب، لا إلى غائب، وانفتحت "أن" بتقدير اللام، أي أتعجب، لأن الله يبسط الرزق. ويصرح الأستاذ فايز (فايز تري، ص 290-291)

أنه وأمام هذه الآراء أظن أنه آن الأوان كي أعرب عن رأيي الذي أؤيد فيه كلا من الخليل وسيبويه في قولهما السابق، ولا سيما أن هذا الرأي هو ما ذهب إليه أغلب النحاة والمفسرين والمعنى "على أن القوم اتبهوا، فتكلموا على قدر علمهم أو نبهوا، فقليل لهم: أما يشبه أن يكون هذا عندكم هكذا، وأما المفسرين فقالوا: ألم تر أن الله، (سيبويه، ص 154)
و (وكان) ههنا لا يراد بها التشبيه بل القطع واليقين.

ونستشف من وراء ذلك أن الكسائي وهو إمام المذهب الكوفي يوافق جمهور البصريين إلى ما ذهبوا إليه حول أصل (ويكأن) فالكل ذهبوا مذهب الخليل رأس المذهب البصري ولا غرو في ذلك فهو يحرص على أن (وي) في الأصل مفصولة عن (كأن) وقد كتبت متصلة لكثرة الاستعمال أما الفراء الكوفي فانه خالف شيخه الكسائي كما خالف الخليل والبصريين فهو يرى أنها (ويك) موصولة بالكاف دخلت على (أن) ومن أعمدة البصريين الأخفش الأوسط الذي خالف جمهور النحاة إذ يرى أنها (ويلك) حذفت منها اللام لكثرة الاستعمال ونحن نتمن الدراسة التي قام بها الاستاذ فايز تري في ميله واستناسه بمذهب الخليل وسيبويه ويونس وسائر البصريين لأن هذا المذهب هو الذي سار عليه أغلب النحاة والمفسرين.

اختلاف النحاة حول أصل صيغة (ما أفعله) في التعجب القياسي:

كما نعلم أن التعجب هو استعظام فعل ما ظاهره المزية وله صيغتان الأولى: ما أفعله والثانية: أفعل به نحو ما أجمل أسماء وأجمل بالسماء والفرق في استعمال الصيغتين بلاغي محض فإذا قلت: أعظم بحجرة

الجار فهي أبلغ وأوقع في النفس من قولك: ما أعظم حرمة الجار. ويعد باب التعجب من أشهر المسائل الخلافية بين نحاة البصرة والكوفة وقد تعرض ابن الشجري إلى رأي الخليل وخلافه مع النحاة فيما يتصل بالتعجب في ثلاثة مواضع من الأمالي الشجرية يمكن عرضها فيما يلي: أولاً: يذهب ابن الشجري في المجلس التاسع والخمسين من الأمالي بقوله: (ابن الشجري ، ص 381)

أجمع النحويون البصريون، المتقدمون والمتأخرون: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، وأبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، وأبو بشر عمرو بن أحمد، وأبو يشر عمرو بن عثمان بن قنبر، سيبويه، وأبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، وأبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي وأبو عثمان بكر بن محمد المازني، وأبو العباس محمد بن يزيد الثمالي، وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي، وأبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، وأبو بكر محمد بن السري السراج، وأبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني، وأبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي.

ومن جاء بعد هذه الطبقة المتأخرة، كأبي الفتح عثمان بن جني، وأبي الحسن علي بن عيسى الربيعي: أن أفعل في التعجب، من نحو: ما أكرم عبد الله! فعل وتابعهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي.

وذهب أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، إلى أنه اسم، وتابعه طائفة من الكوفيين ونحن نفهم من ذلك أن نحاة البصرة جميعهم دون استثناء المتقدمون والمتأخرون وتابعهم الكسائي من الكوفيين أجمعوا على أن (أفعل) في صيغة التعجب (ما أفعله) عبارة عن فعل، إذ الواضح من هذا النص أن الخليل شيخ البصريين يقر بكون (أفعل) في التعجب من نحو ما أكرم عبد الله! فعلاً وهو ما أجمع عليه النحويون البصريون المتقدمون منهم والمتأخرون وتابعهم من الكوفيين الكسائي على نحو ما أشار إلى ذلك ابن الشجري في أماليه بعد ذلك إلى اختلاف النحاة مع الخليل بقوله: (ابن الشجري ، ص 382)

وذهب أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، إلى أنه اسم، وتابعه طائفة من الكوفيين. فما احتج به الفراء وأصحابه قولهم: إنه جامد، والفعل بابه التصرف، فالجمود مبين للفعلية، فاستحق بخالفته للأفعال، إلا ما شد منها، أن يلحق بالأسماء.

الجواب من البصريين: ليس جموده لأنه اسم، ولكنه فعل سلب التصرف لأمرين، أحدهما: أن واضعي اللغة لما لم يصوغوا للتعجب حرفاً يدل عليه، جعلوا له صيغة لا تختلف؛ ليكون ذلك أمانة للمعنى الذي حاولوه، فيدل لفظه بلزومه وجهاً واحداً أنه تضمن معنى ليس له في أصله، فلما دخل معنى التعجب على لفظ، متى زال عن هيأته زال المعنى المراد به، وجب أن لا يعدلوا إلى لفظ آخر.

والثاني: أنه إنما لم يُصَرَّف؛ لأن المضارع يحتمل زمانين: الحاضر والمستقبل، وإنما يُتعجب في الأغلب مما هو موجود ومشاهد، وقد يُتعجب مما مضى، ولا يكون التعجبُ مما لم يقع، فكروها استعمال لفظ يحتمل الدلالة على الاستقبال؛ لثلاثي يصير اليقين شكاً، ولما كرهوا استعمال المضارع كانوا لاسم الفاعل أكرهه، لأنه لا يُخَصُّ زماناً، فلذلك لم يقولوا: ما يُحَسِّنُ زيداً، ولا ما مُحَسِّنُ زيداً، واستعملوا لفظ الماضي، والمعنى معنى الحال، لأن التعجب معنى حادث عند رؤية شيء متعجب منه، أو سماعه.

ويدلك على أنه ماضٍ في اللفظ دون المعنى، أنه إذا أُريد ما مضى قيل: ما كان أحسن زيداً! فلو لا أنه حال في المعنى لما دخلت وكان، حين أُريد الماضي، فلهاتين العلتين سلبوه التصرف، وليس عدم التصرف بموجب له الاسم، بدليل أن «ليس وعسى» فعلا نفي متصرفين بإجماع، فعدم التصرف في الفعل لعله أوجب له ذلك لا يدخله في حيز الاسم.

وقد أيد المتقدمون والمتأخرون ما ذهب إليه الخليل وجمهور البصريين في أن (أفعل) في الصيغة القياسية للتعجب (ما أفعله) فعلا ولم يخرج واحد عن هذا المذهب حتى الدارسين المحدثين يقول فاير تزي (فايز تزي، ص 332)

وإزاء ما تقدم أُؤيد رأي البصريين ومنهم الخليل.

والصحيح ما ذهب إليه البصريون وأما ما استدل به الكوفيون ففاسد. أما قولهم إنه لا يتصرف فلا حجة فيه، ولأننا أجمعنا على أن: عسو ليس فعلا ومع هذا لا يتصرفان وكذلك ههنا...»، (ابن الانباري، 1997، ص 78)

وهو ما وصفه ابن يعيش بأنه حق.

(ابن يعيش، 1990، ص 143)

ثانياً: استشهد ابن الشجري برأي الخليل في المجلس الثالث والثلاثين من أماليه على أن التعجب داخل في حيز الخبر فقال: (ابن الشجري، ص 390)

ومن أخرج التعجب من الخبر، وجعله معنى منفرداً على حياله، قال: إنَّ في لفظه من معنى المبالغة ما ليس في الخبر المنخض. والصحيح أنه داخل في حيز الخبر، لأنك إذا قلت: ما أحسن زيداً، فكأنك قلت: زيدٌ حَسَنٌ جداً، وتمثله عند الخليل وسيبويه: شيءٌ أَحْسَنُ زيداً، وعند الأخفش: الذي أحسن زيداً شيءٌ وعند آخرين: شيءٌ أَحْسَنُ زيداً كأن.

يتضح أن ابن الشجري يرى أن (فايز تزي، ص 333)

التعجب داخل في حيز الخبر مشيراً إلى أن من أخرجوه من الخبر جعلوه معنى منفرداً على حياله، معللين ذلك بأن لفظ التعجب فيه من المبالغة ما ليس في الخبر المنخض.

وقد علل ابن الشجري كونه في حيز الخبر، بأن قولنا ك ما أحسن زيدا معناه: زيد أحسن جدا، وفي إطار تعضيد هذا الرأي كان الإدلاء بما يراه الخليل وسيبويه في هذا الأمر، حيث صرح بأن تمثيله عندهما: شيء أحسن زيدا، أي أن جملة (أحسن زيدا) في محل رفع خبر(ما)، و(ما) نكرة تامة مبتدأ، لا تحتاج إلى ما بعدها ليكون صفة. (سيبويه، 1986 ص 72)

أما الأخفش، فيرى أن التقدير: الذي أحسن زيدا شيء، وذلك يعني أن (ما) معرفة ناقصة (اسم موصول) في محل رفع مبتدأ، والجملة بعدها صلتها، والخبر محذوف، تقديره: الذي أحسن زيدا كائن، وذلك تفسيره أن (ما) نكرة ناقصة، أي موصوفة، في محل رفع مبتدأ، والجملة بعدها صفة لها، والخبر محذوف، والتقدير: شيء أحسن زيدا كائن أو عظيم وبناء على ذلك، فإن فيما سبق تأييدا من جانب ابن الشجري للخليل، في كون (ما) مبتدأ، وهو ما اتضح - مع التعليل له، أضف إلى ذلك النص على أن قول الخليل وسيبويه أصح، وذلك هو الموضع الثالث الذي جاء فيه رأي للخليل فيما يتصل بالتعجب - في موضع متقدم من الأمالي، في المجلس الثامن والستين بصدد حديثه عن ضروب ما " التي استعملتها العرب اسما، فقال: "والرابع: أن تكون تعجبية، نحو: ما أكرم زيدا، وما أظرفه... و"ما" التعجبية في تقدير: شيء، وموضعها رفع بالإبتداء، وخبرها ما بعدها من الفعل والفاعل والمفعول، لأن أفعل التعجبي فعل ماض بإجماع البصريين، ففاعله مضمرة عائذ على "ما"، فالتقدير في قولك: ما أحسن أخاك! على مذهب الخليل وسيبويه: شيء أحسن أخاك. وذهب الأخفش إلى أنها موصولة بمعنى الذي، والجملة التي هي أفعل وفاعله ومفعوله صلتها، وأنها مبتدأ خبره محذوف، فالتقدير: الذي أحسن أخاك شيء. وقول الخليل وسيبويه أصح، لأن التعجب في الإبهام بمنزلة الشرط والاستفهام، فإذا حكم بأن " ما التعجبية موصولة فإن الصلة تخرجها من الإبهام من حيث كانت الصلة موضحة للموصول. ويقوي مذهب الخليل وسيبويه أن الكلام على قولهما تام غير مفتقر إلى تقدير محذوف، وأن هذا الخبر

المقدر، فيما ذهب إليه الأخفش، لم يظهر في شيء من كلامهم. (ابن الشجري، ص 553)

ويمكن الاستئناس بنص يقع في كتاب الأصول لابن السراج يقول فيه: (ابن الأنباري، ص 77)

وإنما لزم فعل التعجب لفظا واحدا، ولم يصرف، ليدل على التعجب، ولولا ذلك لكان كسائر الأخبار، لأنه خبر، ويدل على أنه يجوز لك أن تقول فيه صدق أو كذب.

ونضم رأينا إلى ما ذهب إليه الأستاذ فايز تركي الذي وافق ابن الشجري من خلال انتصاره لرأي الخليل وسيبويه في كون (ما) التعجبية تعرب مبتدأ من منطلق أن القول بكونها صلة يخرجها من الإبهام المراد من صيغة التعجب وهو ما أكده ابن الأنباري في أسرار العربية حيث أن الصلة تتضح بالموصول:

(فايز تركي ، ص 335)

أضف إلى ذلك أن ثمة شيئا مهما أظهر عبقرية الخليل بجانب ما تقدم - من خلال كلام - ابن الشجري، وهو أن الكلام على رأي الخليل وسيبويه تام لا يحتاج إلى تقدير محذوف، وذلك ما يؤنسه قول صاحب أسرار العربية: " وعلى القول الآخر يفتقر إلى تقدير شيء، وإذا كان الكلام مستقلا بنفسه، مستغنيا عن تقدير، كان أولى مما يفتقر إلى تقدير"، (ابن الانباري، ص 77) أضف إلى ذلك أنه لا معنى للإضمار من غير فائدة.

اختلاف النحاة في ترخيم الثلاثي المتحرك لوسط

اختلف النحويون في ترخيم الثلاثي المتحرك الوسط وقد سجل ذلك ابن الشجري في المجلس الرابع والخمسين من الأمالي فقال: (ابن الشجري ، ص 304-305)

واختلف النحويون في الثلاثي المتحرك الأوسط، نحو عُمرٌ وحَسَنٌ، فأجاز الكوفيون والأخفش ترخيمه، لأن حركة أوسطه قامت مقام الحرف الرابع، كما قامت حركة القاف من سَقَرٌ، والظاء من لَطَى، والذال من قَدَمٌ، اسم امرأة مقام الحرف الرابع من زينب، فلم ينصرف في التعريف، ففارق بذلك الثلاثي الساكن الأوسط، كهند ودعد.

ولم يُجز الخليل وسيبويه، ومن أخذ أخذهما ترخيم هذا النحو؛ لخروجه عن حيز الأصول، إذ أكثرها خمسة، وأقلها ثلاثة.

واتفق الجميع على أن الثلاثي الساكن الأوسط، كبشر وبكر، لا يجوز ترخيمه لأجل الإجحاف به، لسكون أوسطه، وقلة عدده.

ففي هذا النص يصرح ابن الشجري باختلاف النحويين في مسألة ترخيم الثلاثي المتحرك الوسط نحو عمر وحسن، حيث ذكر أن الكوفيين والأخفش يميزون عندهم ترخيمه، ومسوغ ذلك أن حركة أوسطه قامت مقام الحرف الرابع كما قامت حركة القاف من سقر، والظاء من لطي، والذال من قدم اسم امرأة مقام الحرف الرابع من زينب، فلم ينصرف في التعريف، ففارق بذلك الثلاثي الساكن الأوسط، "كهند ودعد" وذلك نحو قولك في عنق "ياعن"، وفي حجر "ياحج"، وفي كتف "ياكت"، وذهب بعضهم إلى أن الترخيم يجوز في الأسماء على الإطلاق. (ابن الانباري، ص 132-134)

حينما نستجمع كل هذه الآراء من الخليل وسيبويه نجد تأييداً من الجمهور من النحاة المتقدمين والمتأخرين والمحدثين وذلك في عدم جواز ترخيم هذا الضرب من الأسماء.

(فايز تركي ، ص 336)

وإزاء ذلك كان لابد من عرض الرأي الآخر المتمثل في رأي الخليل وسيبويه - وهو ما يؤيده الأستاذ فايز تركي- هذا ذلك الرأي الذي لم يجز ترخيم هذا الضرب من الأسماء، لخروجه عن حيز الأصول إذ أكثرها خمسة، وأقلها ثلاثة أما الثلاثي الساكن الأوسط، كبشر وبكر، فقد أشار ابن الشجري إلى اتفاق الجميع على أنه لا يجوز ترخيمه، لأجل الإجحاف به، لسكون أوسطه، وقلة عدده، قال سيبويه: واعلم أن كل اسم على ثلاثة أحرف لا يحذف منه شيء إذا لم تكن آخره الهاء. فزعم الخليل - رحمه الله - أنهم خففوا هذه الأسماء التي ليست أواخرها الهاء، ليجعلوا ما كان على خمسة على أربعة وما كان على أربعة على ثلاثة فإنما أرادوا أن يقربوا الاسم من الثلاثة أو يصيروه إليها، وكان غاية التخفيف عندهم، لأنه أخف شيء عندهم في كلامهم ما لم ينتقص فكرهوا أن يحذفوا إذ صار قصار همهم أن ينتهوا إليه". (سيبويه، 1986، ص 255) وهو ما يتفق مع واقع اللغة بناء على ما بين أيدينا من موروث لغوي، ولاسيما أن " الترخيم إنما دخل في الكلام لأجل التخفيف، وما كان على ثلاثة أحرف، فهو على غاية الخفة، فلا يحتمل الحذف، لأن الحذف منه يؤدي إلى الإجحاف به".

خاتمة:

حاولنا تسليط الضوء على الخلاف النحوي وجملة آراء العلماء ومذاهبهم في أصول الكلمات العربية من خلال كتاب أمالي ابن الشجري الذي يمثل صاحبه حلقة وصل بين المتقدمين والمتأخرين ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها:

- الخلاف بين علماء النحو قديم ولد مع ميلاد النحو وظهر مع أوائل النحويين البصريين والكوفيين.
- كانت للخلاف النحوي آثار إيجابية حيث انكب علماء النحو على دراسة العربية واستقصاء مسائل النحو من بطون أمهات الكتب.

- أدى هذا الاستقصاء إلى شدة العناية بالمسائل الخلافية بين النحويين فكثرت المصنفات النحوية في هذا المجال.

- يعد كتاب أمالي ابن الشجري أو الأمالي الشجرية من الكتب المهمة في الخلاف النحوي إذ يمثل صاحبه حلقة بارزة من حلقات التواصل بين المتقدمين والمتأخرين.

- ظهر لنا بأن البحث في مثل هاته الكتب التي تعنى بمسائل الخلاف النحوي له أهمية بالغة في درس العربية إذ أنه يبين التفكير الذي توصل إليه النحاة والحجج والبراهين التي اعتمدوا عليها في دعم آرائهم وبيان مدى الثقة في الأصول التي بنوا عليها والنتائج التي انتهوا إليها.

- بروز عبقرية علماء النحو الأوائل ولا سيما شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدي من خلال اعتماد ابن الشجري على آرائه النحوية وتعليقه عليها وموافقته إياها في الكثير من المجالس مما ينم عن المكانة التي كان يحظى بها شيخ النحاة عند المتقدمين والمتأخرين.

- بدا لنا أن ابن الشجري في أماليه كان يميل في الكثير من آرائه وتعليقه إلى مذهب البصريين ممثلة في شيخهم الخليل ولم يكن ذلك إلا بعد تبصر وأناة وعدم إقصاء لآراء الكوفيين خاصة إذا وجد آراءهم مقنعة وحججهم قوية مما نجم عن ذلك بروز شخصية ابن الشجري النحوية في كتابه الأمالي وذلك من خلال غوصه في آراء النحاة ومذاهبهم.

المصادر والمراجع:

1. ابن الانباري، أسرار العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
2. ابن الانباري، نزهة الألباء في طبقة الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط3، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، 1985.
3. ابن الشجري، أمالي ابن الشجري، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1/ ج2، ط2، سنة 2014.
4. ابن جن، سر صناعة الاعراب، ج1
5. ابن يعيش، شرح المفصل، مكتبة المتني، القاهرة، 1990.
6. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، 1984.
7. سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986.
8. الشاعر جرير، ديوان جرير، مكتبة الخانجي، القاهرة،
9. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، 1984.
10. سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986.
11. الشاعر جرير، ديوان جرير، مكتبة الخانجي، القاهرة،
12. محمد بن عبد الله قاسم، التذكرة في علم العربية، ط3، دار البشائر، دمشق، 2010.
13. يحيى بن زياد القراء، معاني القرآن، ج2، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1955.

مدخل إلى علم الصحافة؛ المفهوم والأنواع والوظائف

Introduction to journalism; Concept, types and functions

أحمد الرويني

دكتوراه في اللغة والخطاب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش - المغرب.

الملخص:

أصبح الخطاب الصحفي في العقود الأخيرة من أكثر التقنيات الخطابية حضورا وفعالية في حياة المجتمعات الإنسانية، نظرا لقدرته الفائقة على التوجه إلى شرائح اجتماعية واسعة بغض النظر عن مستواها الاقتصادي والفكري والثقافي. وأيضا لتناوله موضوعات كثيرة تختلف المقاصد المتوخاة منها (الإخبار والإعلام، الشرح والتفسير، التوجيه والتأثير). ويسعى هذا المقال إلى تقديم دراسة موجزة حول مفهوم الصحافة من خلال الوقوف عند مختلف الدلالات المعجمية والاصطلاحية التي يحيل عليها هذا المفهوم، وكذا أهم أشكال الصحافة المنتشرة في العالم والمعايير المتحكمة في هذا التصنيف: المكان والزمان والمضمون. فضلا عن رصد مختلف الوظائف التي تؤديها الصحافة، والتي تتجلى في الإخبار والتبليغ والتأريخ والتنشئة السياسية والاجتماعية للأفراد وتكوين الرأي العام والنقد وغيرها من الوظائف. الكلمات المفتاحية: الصحافة- الخطاب الصحفي- الأجناس الصحفية.

Abstract:

In recent decades, journalism has become one of the most present and effective rhetorical techniques in the life of human societies, due to its superior ability to address broad social segments regardless of their economic, intellectual, and cultural level. and to address many topics with different intended goals: informing and informing, explaining and interpreting, guiding. And the effect...

The present study seeks to provide a general introduction to the concept of journalism by monitoring the various lexical and terminological connotations that this concept refers to, as well as the most important forms of journalism spread in the world and the criteria controlling this classification: place, time, and content. In addition to monitoring the various functions performed by the press, which are manifested in news, reporting, history, political and social upbringing of individuals, formation of public opinion, criticism, and other functions.

Keywords: The press- Press speech- Journalistic genres.

1- مفهوم الصحافة:

يختلف تعريف الصحافة باختلاف زاوية التركيز والتناول التي يتم الانطلاق منها سواء كانت لغوية، أو اصطلاحية، أو قانونية...، ولذلك سنركز في هذا المبحث على التعاريف التي تربط الخطاب الصحفي بالمجال السياسي للاقترب أكثر من موضوع الدراسة. فما المعاني الذي تحملها لفظة "صحافة" من حيث اللغة والاصطلاح؟.

أ. التعريف اللغوي:

أُخِذَت كلمة "صحافة" عند العرب من لفظة "صحيفة" التي جمعها صحائف أو صحف، والصحيفة أو الصفحة هي القرطاس المكتوب أو ورقة الكتاب بوجهيها. والصحيفة «مَا يُكْتَبُ فِيهِ مِنْ وَرَقٍ وَنَحْوِهِ، وَيَطَاقُ عَلَى الْمَكْتُوبِ فِيهَا. (جمع) صحف، وفي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ "إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى" (اللغويين:، 2004، صفحة 508). والصحيفة لغة تعني «الكتاب أو الورقة وجمعها صحف وصحائف (...). وتاريخ اللفظ في اللغة العربية مؤغل في القدم، فقد ورد في القرآن الكريم «صحف إبراهيم وموسى»، كما أن المصحف ذاته في اللغة مأخوذ من أصف أي ما جمعت فيه الصحف» (اللغويين:، 2004،، صفحة 508)

ب. التعريف الاصطلاحي:

جاء في المعجم الوسيط أن الصحافة هي «مِهْنَةٌ مِنْ يَجْمَعُ الْأَخْبَارَ وَالْآرَاءَ وَيُنَشِّرُهَا فِي صَحِيفَةٍ أَوْ مَجَلَّةٍ، وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهِ: صَحَائِيُّ» (اللغويين:، 2004، صفحة 508). أما الصحيفة فهي «إضمامة من الصفحات تصدر يوميا أو في مواعيد منتظمة، حافلة بأخبار السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة وما يتصل بذلك» (اللغويين:، 2004،، صفحة 508). والتعريف الاصطلاحي للصحافة في الثقافة العربية أمر حديث الظهور، ويعتبر «الشيخ نجيب الحداد منشئ صحيفة "لسان العرب" في الإسكندرية أول من استعمل لفظ الصحافة بمعنى صناعة الصحف والكتابة فيها» (سيد:، 1985،، صفحة 59) أما في اللغة الفرنسية، فقد ارتبطت لفظة "الصحافة" بكلمة JOURNAL المشتقة من كلمة JOUR أي يوم.

في حين يطلق على الصحافة في اللغة الإنجليزية كلمة NEWS PAPER وهي تركيب من جذرين: "NEWS" وتعني أخبار، و "PAPER" ويقصد بها ورق، وتحيل الكلمتان على أوراق الأخبار.

وفي المعاجم الأجنبية، تحيل كلمة "PRESS" بحسب قاموس OXFORD إلى الصحافة التي هي «عملية طبع ونشر الأخبار والمعلومات بهدف الإعلام ونشر الرأي والتعليم والتسلية»

(Growther, 1991, p. 911)

وبالرجوع إلى الدراسات والأبحاث المنشغلة بحقل الإعلام والاتصال، نلاحظ وجود تعريفات متنوعة للصحافة من أشهرها: تعريف "فريز بوند" الذي يرى أن «جميع الطرق التي تصل بواسطتها الأنباء والتعليقات إلى الجمهور، وكل ما يجري في العالم ويهم الجمهور، أي كل فكر وعمل روئي نثيره تلك المحريات يكون المادة الأساسية للصحف» (فريزر، 1964، صفحة 13). وتعريف صلاح عبد اللطيف الذي يعتبر الصحافة «نشرة تطبع آلياً من عدة نسخ، تصدر عن مؤسسة اقتصادية، تظهر بانتظام في فترات متقاربة جداً، ويشترط في هذه النشرة المطبوعة أن تكون ذات طابع عالمي وذات فائدة عامة تتعلق على الخصوص بالأحداث الجارية، كما يشترط فيها أيضاً أن تنشر الأخبار، وتذيع الأفكار، وتحكم على الأشياء وتعطي المعلومات بقصد تكوين جمهورها والاحتفاظ به» (صلاح، 2002، صفحة 8)

- المعنى الأول: الصحافة باعتبارها حرفة أو مهنة، وبهذا المعنى لها جانبين:
 - ✓ الجانب الأول: يتصل بالصناعة والتجارة وذلك من خلال عمليات الطباعة والتصوير والتوزيع والتسويق والإدارة والإعلان.
 - ✓ الجانب الثاني: يرتبط بالشخص الذي اختار مهنة الصحافة، ومنها اشتقت كلمة "صحافي" أي الشخص الذي يقوم بالحصول على الأخبار وإجراء التحقيقات الصحفية وكتابة المقال والتعليق الصحفي وكافة الفنون الصحفية الأخرى.
- المعنى الثاني: الصحافة بمعنى المادة التي تنشرها الصحيفة كالأخبار والأحداث والتحقيقات الصحفية والمقالات وغيرها من المواد الصحفية، وهي بهذا المعنى تتصل بالفن وبالعلم.
- المعنى الثالث: الصحافة بمعنى الشكل الذي تصدر فيه، فالصحف دوريات مطبوعة تصدر من عدة نسخ وتظهر بشكل منتظم وفي مواعيد ثابتة، متقاربة أو متباعدة.
- المعنى الرابع: الصحافة بمعنى الوظيفة التي تؤديها في المجتمع الحديث، أي كونها رسالة تستهدف خدمة المجتمع والإنسان الذي يعيش فيه. وهي بهذا المعنى تتصل بطبيعة الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الذي تصدر فيه الصحيفة...، ونوعية النظام السياسي والاجتماعي القائم به ثم بالإيديولوجية

التي يؤمن بها المجتمع وهو الأمر الذي أنتج المدارس الصحفية المتباينة (زيد:، 1986، الصفحات 48-51).

ونلاحظ من خلال هذه التعريفات أن المعنى الرابع فيه إشارة واضحة إلى العلاقة التي تربط بين الصحافة وطبيعة النظام السياسي الذي تنشط في ظله، باعتباره المساهم الأول في تحديد وظيفتها وشكلها.

وما يمكن التنصيص عليه في هذا الإطار هو أن أخلاقيات العمل الصحفي تستدعي طرح الأسئلة الأساسية الخاصة بمصالح وهموم المجتمع، وما يتناسب مع تطلعات الجمهور المستهدف. وتلتزم الصحيفة، كيفما كانت، بتقديم الإجابات الصحيحة عن أسئلة الأحداث من مصادرها الأصلية، كما يعمل طاقم الصحيفة على تقديم المعلومات والخلفيات والتحليلات العلمية مرافقة للتغطيات الصحفية لتصنع باقة متكاملة من التغطية العادلة ومن الإجابات والمعلومات التي تساعد على الإلمام بجميع التفاصيل؛ ليتوافر للقراء القدر الأكبر والأصدق من المعرفة لاطلاعاتهم ومتابعة مسار الحياة بدقة مما يساعدهم على تشكيل وعي عام على أسس حقيقية وبما يساعدهم على تحديد توجهاتهم العامة والوطنية بدقة وعلى أسس صحيحة (صالح:، 2008، صفحة 46)

-2

أنواع الصحافة:

تختلف أنواع الصحافة باختلاف المعايير المتبعة في التمييز بينها، فقد تكون معايير زمنية أو جغرافية أو فنية أو معايير متعلقة بالمضمون وطبيعة الجمهور المستهدف أو مرتبطة بالاتجاه السياسي للصحيفة. وفيما يلي عرض موجز لأهم هذه الأنواع مع توضيح مضمونها ونوعية جمهورها.

- **المعيار الزمني:** هذا المعيار يعتمد في تصنيف أنواع الصحف على مقياس دورية الصدور؛ بمعنى الفترة الزمنية الفاصلة بين صدور عدد والعدد الذي يليه، وبناء عليه يمكن تقسيم الصحف إلى ثلاثة أنواع: يومية وأسبوعية وشهرية.

- **معيار التغطية الجغرافية:** ويسميه البعض معيار الانتشار، فقد تكون الصحيفة وطنية تنشر على مستوى كامل التراب الوطني، أو جهوية ومحلية تخص منطقة محددة، أو دولية تتجاوز الدولة التي تصدر بها لتشمل دول أخرى.

- **معيار الشكل الفني:** وتنقسم الصحف حسب هذا المعيار إلى نوعين: المجلات والجرائد، وهما يتفقان في دورية الصدور، إلا أن الأولى تتميز بتأخر مدة صدورها بخلاف الصحيفة، أما من حيث الشكل، فالجريدة غالباً ما يكون شكلها أصغر من صفحات الجريدة.

- معيار المضمون ونوعية الجمهور: يقوم هذا المعيار على مدى عمومية أو تخصص المضمون الذي تقدمه الصحيفة (سياسي، اقتصادي، اجتماعي، فني، رياضي، أدبي...)، وكذلك على نوعية الفئة المستهدفة منها (رجال، نساء، شباب، أطفال...).
 - معيار التوجه السياسي: إذ يمكن التمييز بين الصحافة الخبرية والصحافة الحزبية وصحافة الرأي، ولكل شكل من هذه الأشكال خصائص واستراتيجيات في التواصل والإقناع:
 - الصحف الخبرية: تهتم بعرض عناصر الخبر كاملة دون زيادة أو نقصان، وتعتمد مبدأ الحياد والموضوعية؛ أي أنها لا تتخذ أي موقف اتجاه الأحداث والقضايا التي تنشرها، وهدفها الوحيد هو الإبلاغ والإخبار.
 - صحف الرأي: وهي الصحف ذات الاتجاه السياسي المعلن والصرح، مادتها الأساسية هي الأخبار والتحليلات السياسية وهدفها هو إصدار التعليقات وإبداء الآراء والمواقف.
 - الصحف الحزبية: وهي الصحف التي تعبر عن فكر سياسي معين، وتعتبر الناطق الرسمي باسم الحزب السياسي، ووسيلة دعائية وإشهارية له، تدعو إلى مساندته وتأييد مشروعه الاجتماعي، ويرتبط انتشارها بمكانة الحزب الذي تدعمه ومدى قوة تواجهه في الساحة السياسية.
 - معيار الوعاء الحامل للصحيفة: فقد تجاوزت الصحافة مرحلة الوعاء الورقي إلى وعاء جديد أكثر حداثة، وهنا يمكن الحديث عن الصحافة الإلكترونية في مقابل الصحافة الورقية التقليدية.
- 3 وظائف الصحافة:
- أدت الصحافة منذ نشأتها وعبر مختلف مراحل تطورها ووظائف متنوعة، مكنتها من احتلال الصدارة داخل المجتمع. فقد تجاوزت مهام الإخبار والتبليغ والتأريخ لتضطلع بمهام أخرى جديدة من قبيل التنشئة السياسية والاجتماعية للأفراد وتكوين الرأي العام والنقد والتوجيه والشرح والتفسير والتحليل...
- وجدير بالذكر أن هذه الوظائف تتحكم فيها اعتبارات متنوعة، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: طبيعة النظام السياسي والاجتماعي والثقافي في المجتمع الذي تصدر فيه الصحافة (فأدوار الصحافة في المجتمعات الليبرالية هي غيرها في المجتمعات الاشتراكية)، ودرجة التطور الحضاري والتكنولوجي للمجتمع، كما أن وظائف الصحافة في البلدان النامية تختلف كلية عن وظائفها في البلدان المتقدمة. وعلى العموم، يمكن تلخيص أهم الوظائف التي تؤديها الصحافة، بغض النظر عن النظام القائم ومستوى التقدم الحضاري والتكنولوجي للمجتمع الذي تصدر فيه، فيما يلي:

- الوظيفة الأولى: الوظيفة الإخبارية؛ تعتبر من أهم الوظائف التي تضطلع بها الصحافة، لأن ظهورها في المجتمعات الليبرالية ارتبط بتلبية احتياجات الطبقة البورجوازية الناشئة في التعرف على الأوضاع المالية للمجتمع ممثلة في أخبار السوق وأحوال التجارة والمال...، ثم تعدتها إلى الرغبة في التعرف على المجتمعات الأخرى وجمع المعلومات المفيدة عن الطبيعة والإنسان وتوفير الأخبار للقراء.
- ولتأدية هذه الوظيفة لا بد من توفر ثلاثة عناصر أساسية، وهي (الصحافة:، 2012، صفحة 50):
- التكامل: وهو ما يفرض تتبع الخبر منذ بدايته حتى نهايته، مع الإلمام بكل العناصر المكونة له من خلال المصادر الأصلية والشواهد الحية أو أقسام المعلومات.
- الموضوعية: وهي حالة مثالية يصعب تحقيقها، لكن الاقتراب النسبي منها بالبحث والتقصي حول صحة الخبر أمر معقول وممكن، وهنا ينبغي التمييز بين عدم كفاية الموضوعية لأسباب خارجة عن إرادة الصحفي وبين التحريف المتعمد للخبر.
- الوضوح: وهو عرض الأخبار والتعليقات بطريقة واضحة ومفهومة من لدن عموم القراء، سواء كانوا من ذوي الاختصاص أو من الجمهور العادي.
- الوظيفة الثانية: تشكيل الرأي العام؛ ظهرت هذه الوظيفة نتيجة التقلبات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المجتمعات الأوروبية إبان نهاية القرن التاسع. وقد مثل هذه الوظيفة صحافة الرأي، التي ركزت على كتابة المقالات وإثارة النقاش حولها، ودعمها بالشواهد والأدلة المناسبة من أجل التأثير على توجهات الرأي العام.
- ولتحقيق هذا الدور، يشترط في الصحافة جملة من الشروط أبرزها:
- تأدية دورها الحقيقي في تكوين الرأي العام المستنير؛
- الحفاظ على وحدة الوطن واستقراره وأمنه؛
- التمتع بقدر من الحرية والاستقلالية؛
- الوظيفة الثالثة: التأريخ السياسي وتوثيق الأحداث الاجتماعية من خلال التسجيل اليومي للأحداث الاجتماعية والسياسية يجعل من الصحافة وثيقة تاريخية مهمة، لأنها تقوم بوظيفتين أساسيتين، وهما:
- رصد الوقائع وتسجيلها ووصفها والاحتفاظ بها للأجيال اللاحقة حتى تصير مصدرا أساسيا من مصادر التاريخ.
- قياس آراء ومواقف المجتمع إزاء وقائع أو قضايا تاريخية معينة.
- إن هذه الوظيفة التي تقوم بها الصحافة تجعل منها مصدرا مهما للمؤرخين حين يتعلق الأمر برصد الاتجاهات الفكرية للأحزاب والأفراد داخل مجتمع معين وفي فترة زمنية محددة.

- الوظيفة الرابعة: الشرح والتفسير والتحليل: حيث لا تكتفي الصحافة بنقل الأخبار وتقديم المعلومات، بل تتجاوزها إلى تقديم شرح وتفسير وتحليل لما تنقله، لأن الكثير من الأحداث لا يمكن فهمها دون معرفة خلفياتها التاريخية والسياسية والاجتماعية، والإخلال بتقديم هذه الخلفيات يؤدي غالباً إلى التضليل وسوء الفهم.

- الوظيفة الخامسة: الرقابة على مؤسسات المجتمع؛ حيث تتحول الصحافة إلى "سلطة رابعة" تتكفل بمراقبة حسن أداء السلطات الثلاثة الأخرى (السلطة التشريعية، السلطة التنفيذية، السلطة القضائية)، ونقد كل ما تقوم به هذه السلطات من استغلال وتجاوز لصلاحياتها وفق ما هو مخول لها في القانون، وما يساعدها على أداء هذا الدور المهم الحرية الواسعة التي تتمتع بها الصحف في البلدان الديمقراطية إضافة إلى ما يكفله لها القانون من حقوق في حال تعرضها لتعسف السلطة، أما في البلدان ذات الأنظمة الاستبدادية، فإن الصحافة تستغل لخدمة النظام الحاكم ولا تحظى بأي نوع من الاستقلالية والحرية. وتصنف أجناس الخطاب الصحفي حسب المعيار الوظيفي إلى أربعة هي: الأجناس الخبرية، أجناس التعليق/الرأي، الأجناس الميدانية، أجناس التفاعل (martin, 2003, p. 91). ويدخل ضمن الأجناس الخبرية فنون صحافية متعددة، ومنها: المختصر، والمختصر الموضح، والمقال التركيبي... أما أجناس الرأي فهي: الافتتاحية، الركن الثابت، المقال النقدي...، بينما يندرج ضمن الأجناس الميدانية التحقيق الصحفي، والروبورتاج، والاستجواب الصحفي...، ومن أجناس التفاعل: بريد القراء، الصدى وغيرهما (martin, 2003, pp. 91-112). وتختلف «ألويات الأهمية في ترتيب فنون الكتابة الصحافية في الجريدة والمجلة تبعاً لدورية الصدور، فالإصدار اليومي للجريدة يجعل الخبر الصحفي يحتل المرتبة الأولى بينما يحتل المقال الصحفي المرتبة الثانية ويحتل التحقيق الصحفي المرتبة الثالثة ويحتل الحديث الصحفي (الاستجواب) المرتبة الرابعة، في حين يحتل التقرير الصحفي المرتبة الخامسة في ترتيب الأهمية بالجريدة. أما الإصدار الأسبوعي للمجلة الأسبوعية مثلاً فيجعل التحقيق الصحفي يحتل المرتبة الأولى، بينما يحتل الحديث الصحفي المرتبة الثانية ويحتل المقال الصحفي المرتبة الثالثة، ويحتل الخبر الصحفي المرتبة الرابعة في حين يحتل التقرير الصحفي المرتبة الخامسة في ترتيب الأهمية بالمجلة» (فريز، 1964، صفحة 7).

خلاصة:

حاولت على مدار هذا البحث تقديم إطار نظري شامل حول علم الصحافة، مستفيداً في ذلك مما قدمه الدارسون والباحثون سواء العرب أو الغربيون في هذا المجال. وفي هذا الصدد، تطرقت إلى الأصول اللغوية للفضة الصحافة التي انبثقت منها المعنى الاصطلاحي، كما تناولت أشهر التقسيمات المقترحة للصحافة، إلى جانب الإحاطة بأهم الوظائف الإخبارية والتفسيرية والتأثيرية التي يحققها هذا العلم.

- وقد أبان لنا هذا التناول عن نتائج عديدة نجلها كآآي:
- اقتصار المعنى اللغوي وبعض التعريفات الاصطلاحية للصحافة على الجانب المتعلق بالكتابة والتدوين، متجاهلة أنماط صحافية أخرى كالصحافة المرئية والمسموعة وغيرها من الأنماط التي ظهرت مع الثورة التقنية الحديثة وشيوع وسائط التواصل الاجتماعي؛
 - تنوع الأنماط الصحافية بحسب معايير مختلفة: المكان والزمان والمحتوى والفئات الاجتماعية المستهدفة؛
 - ثراء الوظائف والمقاصد التي تحققها الصحافة في المجتمع: الإعلام والإخبار، التوجيه والتأثير، التأريخ والتوثيق وغيرها من الوظائف.

قائمة المصادر والمراجع باللغتين العربية والفرنسية:

- إبراهيم أنيس ونخبة من اللغويين، المعجم الوسيط، ط4، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2004م.
- خالد صالح، حرية الصحافة، الطبعة الأولى، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، مصر، 2008.
- صلاح عبد اللطيف، الصحافة المتخصصة، مطبعة ومكتبة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، 2002.
- فاروق أبو زيد، مدخل إلى علم الصحافة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1986.
- فريزر بوند، مدخل إلى الصحافة، ترجمة: راجي صهيون، مؤسسات بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1964.
- محمود علم الدين، مقدمة في الصحافة، الدار العربية للنشر والتوزيع، مصر، 2012م.
- Jean. Luc Martin.-Lagardette, Le guide de l'écriture journalistique, 6 ° édition mise à jour et enrichie, la Découverte, paris, 2003, 2005.
- Jonathn Growther, oxford advanced learner s dictionary of current English, 5 th edition. oxford university press, England, 1999, p 911 .

السيمائية وتحليل الخطاب- نماذج تطبيقية

Semiotic analysis of discourse - applied models

أ.د. بن يحي طاهر ناعوس

جامعة غليزان/الجزائر

ملخص:

لا شك أن الحديث عن التجربة للبحث السيميائي الذي انمازت به البحوث المعاصرة في شتى الميادين العلمية والحقول المعرفية. ناهيك عن البحوث اللسانية أضحت تشكل بحثا علميا مهما لأنه ولج جميع الميادين، و المقاربة اللسانية تظهر أهمية البحث على أن أنجع طريقة في أفق تحليل النصوص أو غيرها من استثمار نظرية تحليل الخطاب في اكتساب اللغة في الممارسة الفعلية والتحليلية لمفردات اللغة المستهدفة في شتى مجالات الحياة، وخاصة جانب التعامل مع الخطاب التواصلي، لأن لب العملية التعليمية ينحصر في تفكيك الخطاب ومعرفة شفرات الرسالة التواصلية أثناء عملية التخاطب وضبطها لكيلا ينزلق المتلقي في متاهات تبعده عن سياق المنظومة القيمية للمجتمع الإنساني بهذا المعنى ستكون السيمائية دراسة اللغة أثناء ممارستها إحدى وظائفها الانجازية أي الحوارية والتواصلية. الكلمات المفتاحية: الخطاب-السيمائي-تحليل-اللغة-النصوص.

Abstract:

There is no doubt that linguistic research has become an important scientific research because it has entered all fields, and the linguistic approach shows the importance of research that the most effective way in the horizons of text analysis or other investment theory of discourse analysis in language acquisition in the actual and analytical practice of the vocabulary of the target language in various areas of life, especially the aspect of dealing with communicative discourse, because the core of the educational process is limited to dismantling the discourse and knowing the codes of the communicative message during the communication process and adjusting it so that the recipient does not slip into mazes Away from the context of the value system of human society in this sense will be semiotics study language while exercising one of its accomplished functions, i.e. dialogue and communication.

Keywords : Discourse-semiotic-analysis-language-texts.

ماهية التحليل السيميائي:

إن هذا المنحى التعريفي يقودنا إلى معرفة المقصود بالتحليل السيميائي للخطاب هو دراسة النصوص من مختلف جوانبها بشكل سيميائي للوصول لأعماقه، واستكشاف المدلولات المحتملة الخاصة به، بالإضافة لمحاولة ربط النصوص الأدبية بالواقع الفعلي، والدروس المستفادة منها ليتم الاعتبار بها، والسيمياء لغة تعني العلامة أو الدلالة.

وركحا على ما سبق فإن التحليل السيميائي يتأثر بشكل واضح إلى الانتحاء لسمت الظروف التي تحيط به، لذلك نجد أن التحليل السيميائي لأحد النصوص قد يختلف بشكل واضح وقد حاولت الإحاطة بنسيج العلائق التركيبية للخطاب فهي تختلف من الناص إلى آخر لذلك فهو يحتمل الإبداع فلا يرتبط بأي قيود، ولكن يمكن أن توجد دلائل من المحلل على ما قام به من تحليل.

وهناك جانبان يرتكز عليهما التحليل السيميائي وهما:

- الرمزية والدلالات النصية.
- من ثواب الدرس اللساني هو ربط النص بالواقع، إذ لا يرتبط بأشخاص أو امكنة أو أحد القضايا المعينة و من هنا يمكن التملص منها جميعها.
- وإزاء هذا الوضع فإنه يوجد للسمياء ثلاثة من الاتجاهات وهي:
- سيمياء التواصل: ومن أهم رواد هذا الاتجاه جورج مونان، وبريتو، و من هنا فإنه يرتبط هذا الاتجاه أن وسيلته الأساسية في التواصل هي اللسان .
- السيمياء الدلالية: ومن أهم روادها رولان بارت، ويجد أن المقصود بالبحث السيميائي دراسة الأنظمة الدالة عن طريق التركيز على ثنائي اللسان، ويتضمن اللغة إلى جانب الكلام، الدال/المدلول، المركب/النظام ، التقرير/ الإيحاء وغيرها من الدلالات.
- السيمياء الثقافية: وهي ترتب بالفلسفة الماركسية الواقعية ، ويعتبر من أهم روادها يوري لوتمان، وجوليا كريستيفا ، ويرتكز هذا الاتجاه على اعتبار أن الظواهر الثقافية المختلفة هي عبارة عن مواضيع للتواصل ، وتمثل نسق دلالية .
- وهذا لا يعني أن التحليل السيميائي لا يعتمد على تقسيم النص إلى وحدات، فهو يفعل ذلك، ولكن بشرط أن تكون الوحدات مترابطة مع بعضها بعضاً. ومن هنا فإنه يرفض منهج الكلمات- المفاتيح في التحليل الألسني.
- كما أضاف بيرس أن العلامة لا تكون مقيدة بمعنى محدد، بل يتم تحديد معناها كل فترة (خوري، 1984، ص51) .

أنواع الخطاب:

تعدد أنواع الخطاب العربي وتختلف باختلاف مرجعيتها، ولقد قسمها منذر عياشي إلى ثلاثة أنواع؛ يأتي على رأسها الخطاب القرآني. الذي هو موضوع دراستنا في جانبها التطبيقي، وهو خطاب إلهي، مطلق ولا نهائي في دواله ومدلولاته "ليس كمثل شيء" (الشورى، الآية 11)، كتب الله على نفسه حفظه، قال تعالى: "إنا له لحافظون" (الحجر، الآية 09).

إن الخطاب القرآني خطاب إلهي، لم يستطع أحد تسميته إلا كما سماه الله عز وجل في كتابه الكريم حيث سماه (الكتاب) متفرد عن غيره من الخطابات وفي كل مستوياته الصوتية، والمعجمية، والتركيبية، والإيقاعية، والتداولية.

أصواته منسجمة متماسكة، ألفاظه واحدة لا تقبل التعدد وتركيباته وإيقاعاته مطلقة ولا نهائية، خطابه متفرد "ليس كمثل شيء" ورغم ذلك فقد أخذت عنه كل الخطابات والأجناس، وليس لأحد أن يأتي ولا بآية من مثله، ولقد تحدى القرآن بذلك قال تعالى: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إذ كنتم صادقين" (البقرة، الآية 23).

وإن أهم ما يميز الخطاب القرآني هو مرجعيته فالله سبحانه وتعالى هو المرسل، والقرآن كلمة الله نزلت على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كلمته التي تحمل كل صفاته ولا نهائيتها وبقائه على خلاف الأنواع الأخرى من الخطابات التي تفرض بعض النظريات المعاصرة مثل موت المرسل بمجرد الانتهاء من إنجاز عمله وخروج عمله إلى النور وتسلمه من قبل المتلقين.

الخطاب القرآني لانهائي الدال والمدلول أو التركيب "خطاب يميل إلى مرجعية ثلاثية فهناك مرجعية الدال، ويكون النص على مثال مرسله. وهناك مرجعية المدلول، ويكون النص فيها على مثال متلقيه. وهناك أخيراً، مرجعية النص نفسه على نفسه ويكون النص فيها دالاً ومدلولاً خالقاً لزمناه الخاص ودائراً مع زمن المتلقين في كل العصور، وسمّة القراءة في كل ذلك، أن كل واحدة من هذه المرجعيات تستقل بذاتها وتطلب الأخرى في الوقت ذاته" (عياشي، ص 220).

الخطاب القرآني خطاب لا يُنطق إلا بلفظه، حيث لا يجوز لقارئه أن يقرأه إلا بلفظ داله، وإن اختلفوا في لغات المدلول، فالخطاب القرآني موجه للناس كافة هادياً ومنيراً، ولكل متلق حاذق الحق في تأويل مدلولاته اللانهائية المستمرة المطلقة المنسجمة مع حاجات الناس في كل زمان ومكان، ولكل الحق في إعادة إنتاج النص الديني معرفياً بالإيمان الحق.

الخطاب القرآني لا يترجم وإنما تشرح مدلولاته بكل اللغات، ولا يستطيع أحد أن ينقله إلى أي لسان آخر كما ترجم الإنجيل والتوراة إلى العربية وغيرها. وإذا كان الأسلوب يعرف أحياناً بأنه الشيء الذي

يفقد العبارات عند ترجمتها إلى لغة أخرى، كما يحدث في ترجمة الشعر حيث تقتل روحه وإيقاعه أي خاصيته، أسلوبه بالترجمة، وكذلك فإن القرآن بالترجمة يفقد إعجازه في مستوى من مستوياته، وإن لم يكن بها جميعاً فلم يستطع أحد ترجمة " حتى يلج الجمل في سم الخياط" أو "رؤوسها كأنها طلع الشياطين" وغيرها من الأمثلة مما لا يحصر فلقد كتب الله على نفسه أن يحفظه.

وتبعاً لهذا الطرح، لم يتهيأ للمؤسسة اللغوية العربية ما يمكنها من الانفلات والتملص من رق الهيئة البنائية القرآنية، إذ استمدت درس اللغوي القديم سلطته البعثية من بؤرة لسانية إعجازية، هيمنت على سياقه البحثي، ووجهت مساره صوب استكناه دلالة النص، بالارتكان إلى آلية تحليلية اتخذت من إجرائية التعقب التراتبي منفذاً لمراودة النسيج التركيبي للخطاب القرآني، فكان أن اشتغلت المنظومة اللغوية القديمة اشتغالا مزدوجاً يثغيا الكشف عن مواطن الجمال والإعجاز في النص القرآني من جهة، ووضع عتبات مرجعية تمهد لانبعث صرح لغوي يضبط مكونات الفعل اللساني العربي من جهة أخرى.

النوع الثاني: ويمكن تسميته "الخطاب الإيصالي" ونماذجه متعددة سياسية، وإرشادية ووعظية وقضائية وإقناعية، واجتماعية، وإعلامية إلى آخره. - يقول د. الجابري: " صنفنا الخطاب... إلى أربعة أصناف: الخطاب النهضوي وجعلناه يدور حول قضية النهضة عامة والتجديد الفكري والثقافي خاصة، والخطاب السياسي ومحوراته حول "العلمانية" وما يرتبط بها والديمقراطية وإشكالياتها، والخطاب القومي وركناته حول " التلازم الضروري" - الإشكالي الذي يقيمه الفكر العربي بين الوحدة والاشتراكية من جهة وبينهما وبين تحرير فلسطين من جهة ثانية. ويأتي الخطاب الفلسفي أخيراً ليعود بنا إلى صلب الإشكالية العامة للخطاب العربي الحديث والمعاصر، وإشكالية الأصالة والمعاصرة" (الجابري، 1994، ص 16).

والنوع الثالث: ويمكن أن نسميه الخطاب الإبداعي (الشعري) ونماذجه متعددة هي الأخرى، ولكن يتميز عن الأول بأنه خطاب يقوم على مبدأ الأجناس الأدبية" (عياشي، ص 215).

وستعتمد في هذه الدراسة المصطلحين كترادفين، لأن الخطاب كان أصلاً نصاً، والنص لا بد أن يصير خطاباً لتحقيق فيه خاصية الإعلامية، ولهذا وجدنا كثيراً من الدراسات الحديثة تعتمد المصطلحين بمعنى واحد، كما نجد ذلك عند محمد الخطابي في كتابه (لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب) إذ يقول: "يحتل اتساق النص وانسجامه موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب، ولسانيات الخطاب/النص، ونحو النص، وعلم النص... (خطابي، ص 05). فلم يجعل فارقا بين النص والخطاب في حديثه.

التحليل السيميائي للخطاب

ركما على هذا التصور فإن التحليل السيميائي هو ذاته تحليل للخطاب، وهو يميز بين "السيميوتيقا النصية" وبين اللسانيات البنيوية "للجملة. مما أفرز إستراتيجيات تحليلية وذلك حين تهتم بالجملة تركيبيا وانتاجا - وهو ما يسمى بالقدرة الجمليّة - فإن السيميوتيقا تهتم ببناء نظام لإنتاج الأقوال والنصوص. وهو ما يسمى بالقدرة الخطابية. ولذلك، فإن ما ملح صداه فن المناسب الآن وضع القواعد والقوانين التي تتحكم في بناء هذه الأقوال وتلك النصوص" (جماعة أنثروفيون، 1986، ص 26).

معلنا عن انبثاق ينطلق مما انتهت إليه جهود اللسانيين في التحليل السيميائي للخطاب حول النظرية العامة للغة، وبمسائل التصورات التي أحيطت بالخطاب ويقتضي أن يكون متجانسا مع الثنائيات الأساسية: (الغة / الكلام) - (النسق / العملية) - (process) (الكفاية / الأداء الكلامي)، كما أنه لا يغفل العلاقة التي تربطه بمقوله التلفظ. فالمعجم السيميائي لجريماس وكور تيس وهو يناقش مصطلح الكفاية من وجهة نظر تشومسكي ينظر إليها على أنها مجموعة من الشروط الضرورية في عملية التلفظ، كما أنه يتوافر على صورتين مستقلتين لهذه الكفاية:

أولا : كفاية السرد السيميائي

ثانيا : الكفاية القابلة للوصف أو التعبير بالكلام.

ولئن كان بالنسبة لكفاية السرد السيميائي حسب منظور يامسليف وتشومسكي يمكن تصورها على أنها تمفصلات تصنيفية وتركيبية - في الآن ذاته - وليس بوصفها استبدالاً بسيطاً على منوال دي سوسير للغة فالتحليل السيميائي ينظر لهذه الأشكال السردية نظرة كونية مستقلة عن كل مجموعة لسانية وغير لسانية لأنها مرتبطة بالعبقرية الانسانية. وهنا ينبغي الإشارة الى فضل مدرسة الشكلايين الروس وعلى وجه الخصوص مؤلف "مورفولوجية الحكاية الخرافية" وتأثيره في المدرسة الفرنسية ذات التوجه البنيوي (كلود بريمون: منطق الحكاية، جريماس: البنيوية الدلالية، وكلود ليفي ستروس: البنيوية الاثروبولوجية (Greiruas et constes, 1979, p103). ولا يستطيع أن ينكر أي باحث بأن عبقرية بروب وبحوثه العلمية كانت تمهيدا لظهور التركيب السردية وقواعده.

أما فيما يخص الكفاية القابلة للوصف، فبدلاً من أن تقام على ساقلة النهر، فإنها تتأسس وفق عملية التلفظ مسجلين صياغة الأشكال الملفوطة القابلة للتعبير عنها بالكلام، ويرى مؤلفا المعجم السيميائي بأن الحديث عن الطبيعة المزدوجة للكفاية تعد ضرورة لانجاز تصور جديد ومضبوط للخطاب.

وعلى هذا وفي كل الأحوال فإن الخطاب يطرح مسألة علاقته بالتلفظ وبالتواصل. ولكن المجال السيميائي يهتم بأطره المرجعية مثل الايحاء الاجتماعي ونسبته للسياق الثقافي المعطى المستقل داخل تحليله التركيبي أو الدلالي. إن نمطية الخطابات القابلة للتشكل داخل هذا المنظور ستكون إيمائية خالصة،

ومهما كانت التعريفات الايمائية للخطاب مجردة فإن مشكلة معرفة ماهية الخطاب تبقى مطروحة، وحتى عندما يحدد الخطاب الأدبي بأدييته (Litterarite) كما نادى بها الشكلاونيون الروس . فالأدب في تصورهم: "نظام من العلامات Signes دليل مماثل للنظم الدلالية الأخرى، شأن اللغة الطبيعية والفنون والميثولوجيا.. الخ. ومن جهة أخرى، وهذا ما يميزه عن بقية الفنون، فإنه يبني بمساعدة بنية أي لغة، إنه، إذن ، نظام دلالي في الدرجة الثانية ، وبعبارة أخرى إنه نظام تعبيرى خلاق Comrotatif وفي نفس الوقت ، فإن اللفة تستخدم كأداة لتكوين وحدات النظام الأدبي، والتي تنتمي إذن ، حسب الاصطلاح اليامسلفي (Hjelmslsvime) الى صعيد التعبير، لا تفقد الاتها الخاصه ، مضمونها" (تدوروف وآخرون، ص13).

إن الشكلاونية الروسية حددت المعطيات الخاصة التي يمكن أن نسمي بها خطابا ما أنه أدبي. إن رومان جاكسون هو الذي أعطى لهذه الفكرة صيغتها النهائية حين قال "إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب، وإنما "الأدبية Litterarite" أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا" (بوريس وآخرون، ص36). لقد عرفت سيميائيات التواصل تقدما فعليا في مجال تحليل الرسالة ، وذلك بتحديد وظائفها الست . على الرغم من الاهمال الواضح لموضوع "الدلالة" ، الذي وجد حرصا كبيرا لدى رولان بارت في إبرازها ضمن توجهات سيميائيات الدلالة ، إن وصف اللغة بأنها نظام للتواصل يتضمن قدرا كبيرا من الانسجام سمح للدراسة اللسانية بالاهتمام بالنموذج الذي رسمه جاكسون : "الباث _الرسالة _الملتقي - سنن الرسالة - مرجعيتها). ذلك لأنه مكنها من تجاوز التطبيق اللساني المحصور على جملة محدودة من الخصائص التي تشتمل على الظاهرة اللغوية الى القراءة اللسانية للنصوص ومظاهر التعبير الأخرى. وإذا كان جاكسون حصر الخطاب بين مرسل ومرسل اليه إلا أن لوتمان أشار الى نموذج آخر من التلقي لا يكون بين الباث والملقي، وإنما هناك خطاب يتجل فيه الحوار الداخلي مثلما هو الشأن بالنسبة الى السيرة الذاتية فيكون بين الباث وذاته .. وهذا ما نلاحظه في خطاب طه حسين في مذكراته "الأيام".

إن علم الدلالة وهو يصنف أنواعها الى طبيعية وعقلية ووضعية لم تفتته الاشارة الى مجالات الاتصال سواء أكانت صوتية أم سيميائية ، ويكون إسهام العرب جليا في هذا الميدان ولاسيما في احتكاكهم بالفلسفة اليونانية منها المشائية والميغارية - الرواتية . ويذهب عادل فاخوري الى الدرس المقارن بين علم الدلالة عند العرب والسيميائيات الحديثة . ويعطي مثلا مقارنا بين تقسيمات علم الدلالة وتصنيف بيرس الأمريكي للعلامة (ينظر: فاخوري، ص29).

يمتد طموح الدرس السيميائي بوصفه علما يقارب الانساق الهلامية الى تخليص حقول المعرفة الانسانية من القيود الميتافيزيقية التي تكبلها، وتغوق أبحاثها من الوصول الى نتائج تجعل منها علوما ذات سلطان لها

مكانتها المرموقة في وسط المعرفة الانسانية المعاصرة. وتمكنها من القراءة العلمية الدقيقة لكثير من الاشكاليات المطروحة ، والظواهر الانسانية التي لم تعد إطار التأمل العابر، والتفسير الأقفى الساذج . ولكي يكتسب الدرس السيميائي مشروعية العلم القادر على فحص البنى العميقة للمادة التي يتناولها، ويقترّب من عمقها والقوانين التي تركيبها، كان لزاما عليه كأبي علم أن يحدد منطلقاته المنهجية ومركزاته النظرية ويؤسس مقولاته ويمتحن أدواته الاجرائية ويستكشف الحدود التي تفصل بينه وبين العلوم الأخرى، أو التي تقربه منها.

يبدو أن التواصل البشري أعقد من أي تواصل آخر ، لأن استعمال العلامة في هذا المجال لا تتم كما قال فريدينا ندي سوسير إلا داخل الحياة الاجتماعية ، لهذا يشترط التعاون قصد إيصال الرسالة الى المتلقي ولن يتحقق ذلك أيضا إلا بالتواضع المتبادل والتوافق حتى يتسنى لأي حوار يقوم بين الباحث والمتلقي تقديم أفكار في شكل شيفرات متواضع عليها. لهذا فإن بعض علماء الدلالة انتبهوا الى أن "عملية الاتصال لا تظهر بوضوح في العالم الحيواني، إلا عندما يكون هناك تعاون أو نشاط اجتماعي، إن أي اتصال مرتبط في أساسه بالتعاون ... وأن كل حوار اجتماعي مرتبط بالتعاون

(Adam Senaf,1974, p194).

إن التحليل السيميائي للنسق الاجتماعي يهدف الى استكشاف نظام العلاقات داخل المجتمع وعلى الخصوص علاقات الأفراد وحاجاتهم لهذا نلحق أن الأنظمة التي سادت في المجتمع البشري لها من العلامات والأنظمة الرمزية الثقافية ، ما تمكن للسيميائي من تحديد شريحة أو فئة أو طبقة اجتماعية ، ففي التنظيم العشائري نرى طقوسا وعادات تتجلى في جملة من العلامات والرموز ما تتميز به عن نظام اجتماعي آخر في طرائق الحفلات والأعراس والمآتم والأعياد وغير ذلك من المظاهر الثقافية.

إذا كنا قد أشرنا سابقا الى طبيعة التواصل باشكاله المتعددة فإن هناك شيفرات لكل شكل من هذه الأشكال التواصلية ، فالتواصل الحيواني له علامات خاصة به منها ما استكشفه البحث ومنها ما بقي مجهولا، وكذلك الشأن بالنسبة للشيفرات الطبيعية التي تحدد علامات الطبيعة أو إشاراتنا، فيتمكن من تلقي رسالتها ، سواء عن طريق الادراك الحسي أو العقلي.

فإذا كان الطقس باردا فوق العادة في منطقة يمتاز مناخها بالاعتدال يدرك الانسان أن مصدر قسوة البرد آتية من سقوط الثلج . أو العكس بالنسبة لاشتداد الحرارة غير العادية والتي تفوق معدلها الفصلي فيدرك بأن مصدرها قد يعود الى وجود حريق . وهذا كله ينتج من وجود علائق قد تكون معقدة بين الشيفرات الطبيعية والتكوين البيولوجي، والحساسية الفسيولوجية للانسان . ومهما يكن من أمر تبقى - كما أكدنا آنفا - الشيفرات الاجتماعية ، أكثر تعقيدا، وتطلب جهدا عمليا، وذكاء فطنا لفهم العلامات

الاجتماعية ومحاولة تفسيرها، وفهمها فهما عميقا، فالعلامة كما يعرفها أو لمان هي " نتاج اجتماعي واع يتكون من دال ومدلول يمثلان بوجه عام شيئا أو مفهوما غير العلامة - ذاتها". (S. Uisman, 1975). إن التحليل السيميولوجي يمتد ليشمل جميع الأنظمة السيميوطيقية سواء تمثلت في العلوم الطبيعية أم الاجتماعية أم الثقافية إن هذا العلم كما تنبأ به دي سوسير وتصوره تشارلز سندرلر يبرس يطمح الى أن يكون علما يجمع أنساق العلامات لغوية كانت أو غير لغوية ، وما زال المشروع السيميائي يبحث عن معالم تحدد أطره المرجعية ، وموضوعاته وممارساته الاجرائية وعلاقاته بالعلوم الأخرى لرسم منهجه ، وتوضيح مقولاته بدقة . وهو ما حدا بر ولان بارت في كتاباته (ميثولوجيات وامبراطورية العلامات عناصر السيميولوجية) الى إثارة هذه القضايا التي تتعلق بنضج هذا المشروع ، فيقول إن "السيميولوجيا ما تزال بحاجة الى تصميم ونعتقد أنه لا يمكن أن يوجد أي كتاب وجيز لمنهج التحليل هذا، وذلك على الأكثر بسبب سمته المتسعة (لأن السيميولوجيا ستكون علم كل أنساق العلامات) . وان السيميولوجيا لن تعالج مباشرة إلا عندما تصمم هذه الأنساق على نحو تجريبي" . وأمام هذا التراكم السيميائي وما أحدثه من ثورة حقيقية في مناهج العلوم بعامة والانسانية بخاصة ، يجد الباحث تنوعا في الطرح وتباينا في التصور، وتعددا في الممارسة التطبيقية ، تلتبس فيها السيميائيات - في بعض الحالات - بالنظرية التأويلية ، ولكن علم العلامات لم يعد حديثا الا بتحديد معالمه وبناء مقولاته ، وتبيان أديباته ، واختبار نظرياته وأدواته الاجرائية . والا فإننا نصادف في تاريخ التفكير الفلسفي على كثير من تصوراته عند الشعوب القديمة التي أسهمت في بناء الحضارة الانسانية كالفراعنة والبابليين والاغريق والعرب والمسلمين والرومان .. الخ ، إن ميلاد هذا العلم اقترن بثورة التفكير اللساني المعاصر نتيجة ارتباطه الوثيق بالمنجزات والاستكشافات التي حققها العلم الحديث.

التعريفات المرتبطة بالمنهج السيميائي

- الدلالة: تعبر الدلالة عن أي شيء مادي يستطيع الإنسان رؤيتها بوضوح ، ومثال على ذلك الكلمات المكتوبة في صفحات الكتب ، أو تعبيرات الوجوه ، وصور الأشخاص ، والأشياء.
- المدلول : وهو ما تشير إليه الدلالة.
- العلامة : وهي أصغر وحدة في المعنى ، أي شيء يمكن استخدامه للتواصل (أو الكذب).
- العلامات الرمزية (التعسفية) : هي علامة تحتوي على علاقة تقليدية للغاية بين الدلالة ، والمدلول ، فعند قولنا معظم الكلمات فهي تعني بالفعل معظم الكلمات ، فتسمى العلاقة التقليدية بينهم علاقة رمزية.
- الأيقونات : هي علامات تتشابه فيها الدلالة والمدلول.

- اللافقات الدليّة: هي العلامات التي تنسب فيها الدلالة في حدوث المدلول ، على سبيل المثال وجود الدخان يعبر عن وجود النار.
- وتعني الدلالة أيضا معنى حرفي للعلامة، فمثلا عند قولنا وردة فهي تشير إلى نوع معين من الزهور.
- الكناية : نوع من أنواع الدلالة يحدث فيها عملية استبدال للعلامة ، بعلامة أخرى بشرط أن تكون مرتبطة بها ارتباط وثيق ، فعلى سبيل المثال يكون السيف كناية عن الحرب ، والقتال ، وعند نطق كلمة واشنطن نعني بها الولايات المتحدة الأمريكية ، وعند قول العرب نقصد جميع قاطني دول الوطن العربي.
- يمكن عمل ربط بين الدلالات التي تشترك معا عن طريق أي من:
- العلاقات النموذجية : ويحدث في هذه العلاقة أن تحصل العلامات على المعاني التي تربطها بالعلامات الأخرى.
- العلاقات التركيبية : ويحدث فيها أن تحصل العلامات على ترتيب لها ضمن تسلسل معين ، على سبيل المثال تسلسل الأحداث التي تشكل القصة.
- الأساطير : مزيج من النماذج والتراكيب التي تشكل قصة تُروى في كثير من الأحيان مع ارتباطات ثقافية متقنة ، مثل أسطورة رعاة البقر ، والأسطورة الرومانسية.
- الرموز : هي مزيج لعدة أنظمة سيمائية ، وهي النظام الفائق ، حيث يقوم بعمل الخرائط العامة الدالة على المعنى ، بالإضافة إلى الأنظمة المعقدية التي تدل على الذات والآخرين ، وتشير أيضا إلى وجهات نظر مختلفة ومواقف تدور حول كيف يكون العالم ، أو كيف يجب أن يكون ، وتعتبر الرموز أيضا على مكان ارتباط كل من السيمائية ، والبنية الاجتماعية ، والقيم.
- الأيديولوجيات: هي رموز تعمل على تعزيز هياكل السلطة ، وميكانيكية عملها تتمثل في خلق أشكال للفطرة السليمة ، والتي تمثل ٩٠٪ من الحياة اليومية بشكل أساسي¹.
- تقنيات لإجراء التحليل السيميائي
- تعتبر الطرق الخاصة بإجراء التحليل السيميائي موازية لأشكال أخرى من البحث النوعي ويمكن تلخيصها فيما يلي:
- أسئلة مفتوحة : يتم فيها جمع كم هائل من التفسيرات عن طريق إجراء استطلاعات رأي ، أو مقابلات ثم يتم تحديد التفسير السائد ، ويتم مقارنة بالمعنى الذي يجب إيصاله للجمهور.

¹ Semiotics in Marketing: What It Means for Your Brand and Messaging-

• أسئلة مجردة : يتم فيها إظهار جميع المعاني الخفية في الرموز للوصول إلى وجود تفسيرات بديلة من عدم وجودها ، وفي حال وجود تفسيرات بديلة لا يعلمها الشخص ، فيجب عليه في هذه الحالة مواصلة جلسات العصف الذهني مع أشخاص آخرين.

• أسئلة استقصائية : ويتم فيها التفكير في إجابة محددة وشرحها أكثر ، فمثلا ، إذا قلنا أن رسم المربعات تجعل شكل الشعار يبدو أكثر تنظيما ، فإن سؤال الاستقصاء يطلب من شخص ما شرح العلاقة بين المربع ، والبنية.

• يمكن استخدام المصفوفة الخاصة بالمحتوى ، أو الخرائط الذهنية التي تمكننا من كشف المزيد من المعاني الكامنة وراء المفهوم.

• تقنيات الإسقاط : يتم الحصول على مجموعة من الرؤى التي تدور حول المواقف النفسية لجمهور الأشخاص ، ولا يوجد عدد ثابت من الأسئلة التي يجب طرحها حول الرسالة لتحديد جميع مكوناتها المميزة ، بل يمكن البدء بهذه الأسئلة الثلاثة ، ثم القيام بتطوير عدد متسلسل من الأسئلة الفرعية:

1. ما هو مضمون النص ؟ كيف يمكن للعنوان أن يجذب الانتباه ؟ ماذا يقول عن منتجي / خدمتي ؟ هل يتم بيع المنتج أم المشاعر من ورائها ؟ ما علاقة النص بالصور ؟
2. عن ماذا تعبر الصورة ؟ كيف تستطيع الصورة أن تجذب الانتباه ؟ مدى اتصالها بالنص ؟
3. من هو السوق المستهدف ؟ هل الرسالة تناول سنهم ، ومستوى دخلهم ، ونقاط ضعفهم ، وآرائهم ، وثقافتهم ؟ ما العناصر التي تبرز هذا ؟ لماذا ؟

خطوات إجراء التحليل السيميائي

• تعتبر الصور ، والإيماءات ، والأصوات ضمن علامات التفسير ، ويمكن للتحليل تفسير كل علامة منهما ، ثم استخدام هذه العلامات ليقوم بإقناع الأشخاص.

• وتكون كل علامة من هذه العلامات من جزأين:

1. الجزء الأول يسمى دلالة ، وهو عبارة عن الشكل الذي تتخذه العلامة.

2. الجزء الثاني هو المدلول ، وهو عبارة عن المفهوم الذي يمثل الدلالة.

• ويجري التحليل السيميائي على ثلاث خطوات رئيسية، تسمى خطوات التحليل السيميائي، هي:

1. تحليل الإشارات اللفظية (ما تراه وتسمعه).

2. تحليل العلامات المرئية (ما تراه).

3. حلل الرسالة الرمزية (تفسير ما تراه). (بنور، ص 29).

تقنيات لإجراء التحليل السيميائي

تعتبر الطرق الخاصة بإجراء التحليل السيميائي موازية لأشكال أخرى من البحث النوعي ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- أسئلة مفتوحة : يتم فيها جمع كم هائل من التفسيرات عن طريق إجراء استطلاعات رأي ، أو مقابلات ثم يتم تحديد التفسير السائد ، ويتم مقارنة المعنى الذي يجب إيصاله للجمهور.
- أسئلة مجردة : يتم فيها إظهار جميع المعاني الخفية في الرموز للوصول إلى وجود تفسيرات بديلة من عدم وجودها ، وفي حال وجود تفسيرات بديلة لا يعلمها الشخص ، فيجب عليه في هذه الحالة مواصلة جلسات العصف الذهني مع أشخاص آخرين.
- أسئلة استقصائية : ويتم فيها التفكير في إجابة محددة وشرحها أكثر ، فمثلا ، إذا قلنا أن رسم المربعات تجعل شكل الشعار يبدو أكثر تنظيما ، فإن سؤال الاستقصاء يطلب من شخص ما شرح العلاقة بين المربع ، والبنية.
- يمكن استخدام المصفوفة الخاصة بالمحتوى ، أو الخرائط الذهنية التي تمكننا من كشف المزيد من المعاني الكامنة وراء المفهوم.

• تقنيات الإسقاط : يتم الحصول على مجموعة من الرؤى التي تدور حول المواقف النفسية للجمهور الأشخاص ، ولا يوجد عدد ثابت من الأسئلة التي يجب طرحها حول الرسالة لتحديد جميع مكوناتها المميزة ، بل يمكن البدء بهذه الأسئلة الثلاثة ، ثم القيام بتطوير عدد متسلسل من الأسئلة الفرعية:

1. ما هو مضمون النص ؟ كيف يمكن للعنوان أن يجذب الانتباه ؟ ماذا يقول عن منتجي/ خدمتي ؟ هل يتم بيع المنتج أم المشاعر من ورائها ؟ ما علاقة النص بالصور ؟
 2. عن ماذا تعبر الصورة ؟ كيف تستطيع الصورة أن تجذب الانتباه ؟ مدى اتصالها بالنص ؟
 3. من هو السوق المستهدف ؟ هل الرسالة تتناول سنهم ، ومستوى دخلهم ، ونقاط ضعفهم ، وآرائهم ، وثقافتهم ؟ ما العناصر التي تبرز هذا ؟ لماذا ؟
- نماذج تطبيقية:

1- مظاهر التكرار الصوتي في القرآن الكريم.

يعدّ التكرار الصوتي من أهم المميزات النصية التي يميّز بها القرآن الكريم عن غيره من الأساليب البشرية، وقد أضفت عليه هذه السمة اللغوية رونقا وجمالا لا نظير له.

ويدرج بعض الباحثين التكرار الصوتي ضمن مظاهر الإعجاز الكثيرة التي تحدّى بها الله سبحانه وتعالى عباده، يقول محمود أحمد نحلة: "وانك لتجد القرآن الكريم يستخدم هذه الوسيلة البلاغية باقتدار رائع، وإعجاز معجز، فالصوت المفرد يختار بعناية، وتصاحبه أصوات أخرى قد تكون متقاربة الخارج إن

احتاج الموقف ذلك، ومتباعدة المخارج إن كان التباعد أدلّ على المعنى وأكثر تصويراً له" (أحمد نخلة، 1981، ص ص 346-347).

ولعل من أبرز مظاهر التكرار الصوتي في القرآن الكريم تكرار الحرف الأخير من الكلمة في نهاية كل آية، وهو ما يسمى عند علماء البلاغة بالسجع، ونظراً لارتباط السجع بالكهان في العصر الجاهلي، فقد تنزه بعض العلماء عن تسمية ما تماثل من الحروف في نهاية الكلمات بالسجع، وأطلقوا عليه بدلاً من ذلك مصطلح الفاصلة، يقول ابن الأثير في معرض حديثه عن السجع في القرآن " وقد ذمه أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً، فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن، وأنه قد أتى منه الكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة، كسورة الرحمن، وسورة القمر وغيرهما" (ابن الأثير، ص 195).

لقد وضع علماء البلاغة للسجع البديع شروطاً كثيرة ونظراً لكثرة الكتب البلاغية التي تحدثت عن هذه الشروط فإننا نقتصر على كتاب واحد منها هو كتاب (الطراز) ليحي بن حمزة العلوي. أمّا عن سبب اقتصرنا على هذا الكتاب دون غيره فيعود إلى اشتماله على جميع الخصائص الفنية للسجع، وإلى اعتماده على أسلوب الإيجاز في الإحاطة بها، حيث أنه استطاع أن يحصرها على كثرتها في أربع نقاط فقط.

ويرى أنّ السجع لا يكون حسناً مستساغاً إلا إذا توفرت فيه أربعة شروط هي باختصار شديد كما يلي:

1 - الشرط الأول:

ويتعلق بالمبنى أو الجانب الصوتي حيث يشترط في الكلمة أن تكون حلوة مستساغة المذاق وبعيدة عن الغثاثة والرداءة.

2 - الشرط الثاني:

ويتصل بالتركيب، وهو أن تكون الكلمة أو اللفظة المسجوعة تابعة للمعنى، وأن لا يكون المعنى تابعاً لها.

3 - الشرط الثالث:

أن تكون المعاني المتولدة عن التركيب مستعملة أو مألوفة الاستعمال، وغير مستكرهة، أو ركيكة تنفر منها الطباع السليمة، وتجهها الآذان.

4 - الشرط الرابع:

أن تكون الكلمتان المسجوعتان تملان معنيين مختلفين حتى لا يكون ذلك من باب تحصيل الحاصل، أو التكرير الذي لا طائل من ورائه. (العلوي، 2002، ص 13).

وإنّ القارئ للقرآن الكريم يلاحظ أنّ كل هذه الشروط التي وضعها علماء البلاغة للسجع والذي نفضل استبداله بمصطلح الفاصلة، قد اشتمل عليها القرآن الكريم كلها، بل ولقد زاد عليها شروطاً أخرى لا

نجدها متوفرة في مختلف أصناف الكلام البشري، من ذلك أن الفاصلة في القرآن الكريم ترتبط بالنسق العام للسورة فلا يمكن حذفها، أو استبدالها بكلمة أو فاصلة أخرى دون أن يؤدي ذلك إلى خلل، سواء على المستوى الدلالي أو النغمي." فالفاصلة في القرآن الكريم لها مزية هامة فهي ترتبط بما قبلها من الكلام بحيث تتحدر على الأسماع انحدارا وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدا لها، بحيث إذا حذفت اختل المعنى في الآية، ولو سكت عنها القارئ لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع السليم" (لاشين، 1999، ص 143).

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

يقول الزركشي في توضيح مناسبة الفاصلة في هذه الآية لما قبلها: "إن بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) تولية، والتولية لا تكون إلا من عزيز غالب على ما يريد، وتعليم الرسول الحكمة لقومه إنما يكون مستندا إلى حكمة مرسلته؛ لأن الرسول واسطة بين المرسل والمرسل إليه، فلا بد وأن يكون حكيما، فلا جرم كان اقترانهما مناسبا" (لاشين، 1999، ص 95).

2سورة مريم

مجل معنى السورة ومقاصدها:

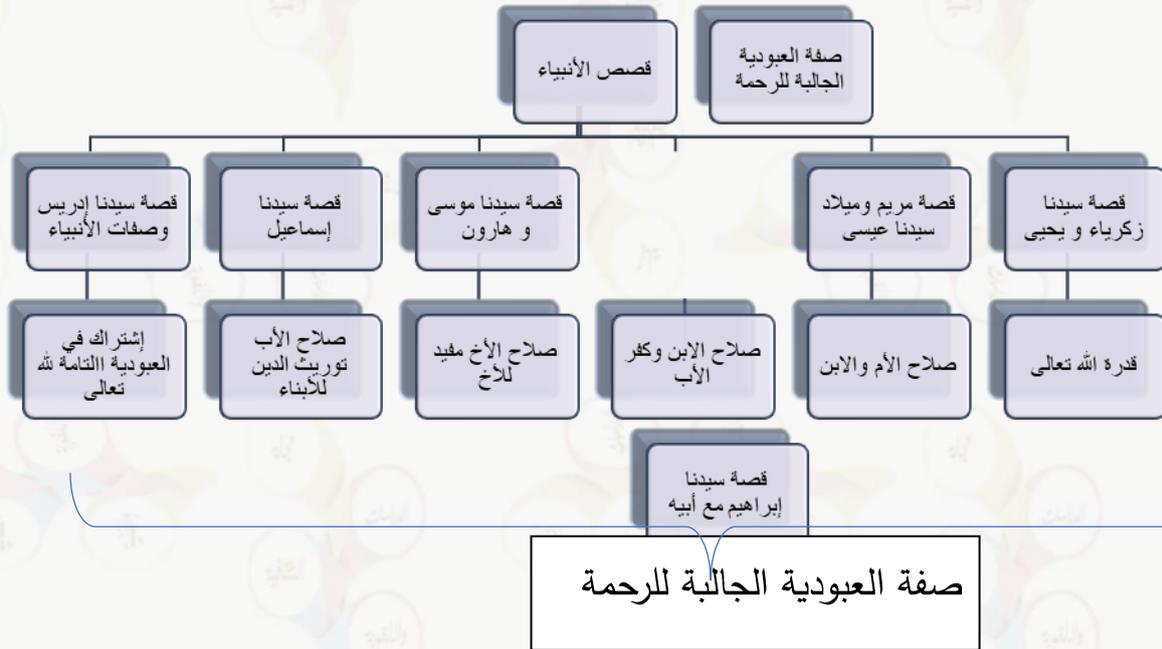
امتازت السورة بأسلوبها القصصي الذي يرمي إلى إعطاء المتلقي جملة المعاني التي هي لب النجاح والفلاح في الحياة ورسم الخطة المنهجية في بناء مجتمع صالح قائم على توحيد الله في العبودية ونفي الولد لله و الشريك لأنها القيمة الأساسية التي تبني عليها الحياة المثمرة لابني الإنسان فتجعل من الإنسان خاضعا لهذه القيمة التي تؤتي أكلها في صناعة الشخصية المستقيمة المنتجة الفاعلة.

ويبين لنا هذا المخطط أهم قصص السور:

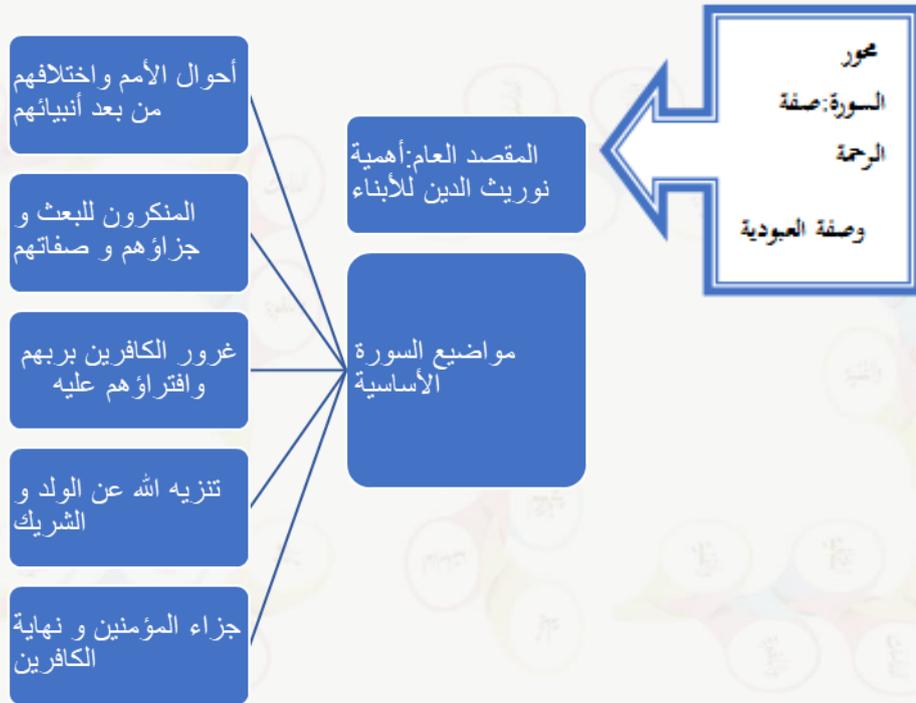
قصص الأنبياء:

- قصة زكريا ويحيى
- قصة مريم وميلاد سيدنا عيسى
- قصة سيدنا موسى و هارون
- قصة سيدنا إسماعيل
- قصة سيدنا إدريس وصفات الأنبياء
- قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه

صفة العبودية الجالبة للرحمة



وتظهر هذه الصورة الواضحة في هذا المخطط:



المناسبة بين قصة زكرياء ومحور السورة:

تبدأ السورة الكريمة بالحديث عن رحمة الله تعالى بعبده زكرياء عليه السلام حيث استجاب دعاءه وورقه الود مع كبر سنه و عقم زوجته التي هيأها الله تعالى لهذه الآية العجيبة ، و تناسب آيات هذه المقطع مع محور السورة و هو الحديث عن رحمة الله تعالى ، التي تتجلى في استجابته سبحانه لدعاء زكرياء عليه السلام و ما اتم به يحيى من الرحمة و هي غرّة السمائل ، وينبوع الفضائل و عن عبودية زكرياء لله تعالى حيث الإخلاص في العبادة و الاجتهاد في الطاعة و التذلل و الخشوع في الدعاء و نشأة يحيى عليه اسلام في محراب العبادة و ساحات العلم، و شمائله الكريمة التي تجمع بين الحزم و العزم و الرحمة واللين .

جبلت النفوس على حب الأولاد، فهم قرة العيون، ثمرات الفؤاد، و فلذات الأجداد و بهجة النفوس و زينة الحياة قال تعالى: { الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ٦٤ } [الكهف: 46].

سبب النزول: للرد على اليهود فيما افتروه من قول شنيع عن السيدة مريم وسيدنا عيسى عليه السلام.
الخلاصة:

إن هذا النسيج العلائق لتركيبية الخطاب القرآني في شتى مظهراته البنائية، القائم على صميمه الترابط بين أسيقة النص وبنائه الصوغي ووفقا لسلمية بنائية (صوت، مفردة، تركيب)، يعكس صورة المجتمع المنشود من خلال الخطاب القرآني.

ومن هنا ارتهنت، فيما سبق، في دراسة الخطاب القرآني إلى التراتبية التصاعدية لكيونة التخلق اللغوي (لغة الخطاب) الموجه بفعالية الأتمودج اللساني بوصفه سلوكا اجتماعيا يحاول صوغه وصناعة الأتمودج المقصود في تشكيلة المجتمع وربطه بالهدف التواصلي في البيئة العربية المنشودة، والذي تسيره ثبوتية العرف وتحولاته الطارئة في كينونته المشكلة لطبيعة الإنسان بصفة عامة.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم برواية ورش

1. أنطوان خوري: مدخل إلى الفلسفة الظاهرانية، ط 1 ك 1984.
2. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ب.د.أف.
3. بوريس إيخنبوم وآخرون: نظرية المنهج الشكلي - ترجمة: إبراهيم الخطيب.د.ط.
4. تريفطان تودروف وآخرون: في أصول الخطاب النقدي الجديد - ترجمة: أحمد المدني.
5. تحقيقات فلسفية، ترجمة وتعليق: عبد الرزاق بنور، <https://library.ecssr.ae/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumbe>
6. عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن: دار الفكر العربي القاهرة، 1999.
7. محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي.2004.
8. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 5، 1994.
9. محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي.2004.
10. جماعة انتروفيرن: التحليل السيميوطيقي للنصوص - ترجمة: محمد السرخيني - مجلة دراسات أدبية ولسانية- ع 2 - 1986..
11. محمود أحمد نحلة، لغة القرآن في جزء عمّ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981م.
12. منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، اتحاد كتاب العرب.

13. عادل فاخوري: علم الدلالة عند العرب دراسة مقارنة مع السيميائية الحديثة، دار الطليعة للطباعة والنشر.

14. يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط1، 2002، ج3. المراجع والمصادر الأجنبية

15. Adam Senaf: Introduction a la semantique – Paris ed : Hutropos 1974 – pp: 194.

16. Greiruas et constes: senuiotique – Dictionnaire- liaisonne de la theorie du langage ed – Hachelte Paris- 1979-

17. Voti – S. UiSman : Precis de semantique – Fhamcaise – ed Framcke 1975

18. Semiotics in Marketing: What It Means for Your Brand and Messaging

الصورة الإشهارية دعامة جديدة لبناء الكفايات

Posters as a support to capacity building

سفيان الضاوي/المدرسة العليا للأساتذة، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب

daouisoufian997@gmail.com

ملخص:

يسير الإيقاع التكنولوجي الجديد نحو قلب الافتراضي حقيقيا والحقيقي افتراضيا، وجعل المتعلم داخل عالم افتراضي "المدرسة" مشدودَ الذهن إلى عالم "حقيقي" نتيحة مواقع التواصل والوسائط التكنولوجية خارج المدرسة، سرعان ما ينبغي أن يعود إليه، لدرجة أضحى متعلم الألفية الثالثة يستمد مرجعيته في القيم والسلوك من هذه الوسائط التكنولوجية، كما استغلت الصورة الإشهارية هذا الإيقاع التكنولوجي لتصبح العنصر الثالث في الهواء بعد الأوكسيجين وثنائي أكسيد الكربون وتحاصر المتعلم في كل الفضاءات (الشارع، غرفة النوم، محطات ترامواي...)، بخطابات قوية مُوجَّهة مؤثرة تعطل آليات التحليل والرقابة عنده وتحوّله إلى متلق سلبي يتأثر ويستجيب دون أدنى محاولة للفهم، فقد أصبحت، سواء أحببنا أم كرهنا؛ منافسا قويا للأسرة والمدرسة في التوجيه والتعليم وبناء القيم والأخلاق والتمثلات.

يراد لهذه الورقة البحثية أن تحيل على الكيفية التي تؤثر بها الصورة الإشهارية على المتعلم وخطورتها على مساراته التعليمية فيما بعد، وأن تكون دعوة لتفعيل حقيقي لدور المدرسة في علاقتها بالإيقاع الاجتماعي من خلال اقتراح آليات التعامل مع هذه الظاهرة السوسيولوجية (لصورة الإشهارية) من منافذ المدرسة، وجعلها مدخلا بيداغوجيا وديداكتيكا للتجسير بين المدرسة والمجتمع عند المتعلم ورفع القطيعة بينهما خلق متعلم متفاعل مع محيطه، يفهم، يحلل، يؤول، وينتقد...
الكلمات المفتاحية: الصورة الإشهارية- بناء الكفايات- تفاعل- وسائط تكنولوجية

Abstract:

The new technological rhythm is going toward switching from virtual to real and vice, and to enable the learner inside a virtual "schooling" world that is really tied to reality, due to social and technological media outside schools. In fact, the 3rd millennium's learner is using technological devices as a reference of values and behaviors, besides using the rhythm to become the 3rd element after O₂ and CO₂, and it limits the learner in all spaces including streets, bedroom, train stations... etc with strong influencing speeches which brakes its analytical mechanisms and transform him to a negative receiver who responds without any attempt to get the meaning, as it became, either we want or we don't, a strong competitor to family and school in education and direction in building values and ethics.

This research paper aims at demonstrating the way by which posters influences the learner and its danger on his educational path afterwards, and stands an invitation to activate the real role of school and its relationship to the social rhythm by suggesting some mechanism to deal with this sociological phenomenon from an academic perspective, and dealing with it as a pedagogical and didactical entrance to bridge between school and society for the learner and finishing the clash between them for the learner's interest to come up with an understanding, analytical, interacting and criticizing student.

Key words: Posters, capacity building, interaction, technological devices.

إشكالية الدراسة: سلطة الصورة والإشهار وخطرها في صياغة تمثلات متعلم الألفية الثالثة داخل مدرسة ماضوية؟

منهج الدراسة: وصفي تحليلي

هدف الدراسة: تقديم بدائل للمدرسة المغربية لمواكبة عصر العلم والتكنولوجيا والرقمية.

يسعى هذا البحث إلى اقتراح الصورة الإشهارية كوسيلة للجسر بين محيط خارجي يحاصر المتعلم في كل لحظة ويؤثر فيه في كل مكان، وبين محيط مدرسي يتفوق على نفسه عمليا، ويرفع شعارات الانفتاح على ما يفرضه الشرط الحضاري في مجال العلوم والتربية. وتروج لذلك الوثائق الرسمية الوطنية (الميثاق الوطني، المخطط الاستعجالي، الرؤية الاستراتيجية، التوجيهات التربوية...)، ونحن إذ نقف عند هذا الترويج الشكلي موقفا فاحصا، نقترح هذا البحث أرضيةً تفتح أفق التساؤل عن إمكانية انفتاح المدرسة على المحيط بشكل فعلي، وتقديم آراء ومقترحات تبعث الروح من جديد في المدرسة المغربية، وتجعلها مدرسة مواكبة لهذه الطفرة التكنولوجية، بحيث تصبح مواكبة لتطلعات المتعلم المغربي أسوة بالمتعلمين في باقي دول العالم غير المصنّف وفق معايير العولمة.

ثم إن استثمار الصورة الإشهارية في العملية التعليمية التعليمية ما هو إلا جزء من تصورنا الخاص لإصلاح مضمون المنظومة التربوية، وما هو إلا مُقترح إجرائي فيه نوع من الاجتهاد الذي يتضمن إرادة صادقة في إمكانية تدريس الصورة الإشهارية واعتمادها بيداغوجيا وديداكتيكا داخل العملية التعليمية، ليس فقط بما يخدم الممارسة راهنا، بل يسعى إلى تهيئ مستقبل أفضل لها وللمجتمع الغد المتجه صوب تحديات قوية.

ومن أجل الوفاء بهذا المقترح الإجرائي، قسمنا بحثنا إلى ثلاث مداخل كبرى معتمدين في ذلك منهجا وصفيا وتحليليا، تناولنا في محاور المدخل الأول سلطة الصورة اليوم بصفة عامة والصورة الإشهارية على وجه الخصوص، بعدما تحدثنا فيه عن طبيعة العلاقة القائمة بين المدرسة ووسائل الإعلام على مستوى الوثائق الرسمية، ثم على مستوى الممارسة الواقعية، كما تحدثنا عن تأثير الصورة الإشهارية على المتعلمين وبناء المفاهيم لديهم.

ثم عنونا المدخل الثاني بـ "الصورة الإشهارية والديداكتيك" تحدثنا فيه عن درس الصورة الإشهارية في كتاب الواحة للمستوى الأول باكوريا، وقدمنا فيه بعض المقترحات الديداكتيكية على مستوى المنهج والمحتوى من أجل استثمار الصورة الإشهارية في التدريس.

أما المدخل الثالث فقد استخلصنا فيه النتائج الممكنة تحققها داخل المدرسة المغربية إذا تم استثمار الصورة الإشهارية كجسر يربط المتعلم فيه بين محيطه ومدرسته، وفي هذا السياق تحدثنا عن إمكانية تحقيق الكفايات من خلال تدريس الصورة الإشهارية ثم ختمنا بحثنا هذا بالأهداف المحققة لهاته الكفايات.

أولاً: المدرسة المغربية بين الانفتاح والعزلة

1) المدرسة ووسائل الإعلام والاتصال:

غدت وسائل الإعلام والاتصال اليوم قوة خارقة، خلخلت النظام الحضاري وغيرت جوهره وطبيعته حتى أصبحت تعد جزءاً من العائلة، فلقد كان لها "مفعولاً سحرياً أدخل شروخاً في جسم المدرسة وبنية الأسرة وفي نفس الوقت فتح أبواب الأمل في تغيير ممكن للمدرسة وأرغمها على الخروج من عزلتها" (القباج مصطفي محمد، 1997، ص 62) إلا أن المدرسة المغربية تحفظت على مبادئها، ولم تعترف بوسائل الإعلام، وأعلنت رفضها باعتبارها لا قيمة ثقافية ولا علمية لها. مما أدى إلى انعزالية مستمرة وانغلاق تام، انعكس على تطورها البطيء، وفي المقابل لم يكن من وسائل الإعلان إلا رداً عنيفاً، وإعلان حرب اتجاه هذا الرفض، تمثل في سعي هذه الوسائل إلى توفير المعرفة المعاصرة المتطورة الحديثة التي تتفق مع تطورات الواقع الجديد، معلنة بذلك للمتعلم أن المعرفة التي تأتي بها المدرسة معرفة متجاوزة، تحفر في القديم.

لقد أضحي المتعلم في حيرة من أمره، تجره وتغريه خدمات وسائل الاتصال، فهو يحاول أن يبقى وفيما للتحصيل المدرسي، وبعد أخذ ورد بين المدرسة ووسائل الإعلام والاتصال، لم يبق أمام المدرسة خياراً سوى مواجهة عدو طبيعي وإنتاج بشري، فكانت مجبرة على تغيير محتوى تعليمها ومناهجها ووثائقها التربوية وطرائق التدريس داخلها، وإقامة جسور التواصل مع الواقع نظراً للإمكانيات المغربية التي توفرها وسائل الإعلام والاتصال، وإيماناً منها بأن التجربة الإنسانية أوسع بكثير من أن تختصر في نصوص مكتوبة يتداولها المتعلمون كل موسم دراسي بنفس واحد وطريقة نمطية. فانفتحت على هذه الوسائل الجديدة انفتاحاً محتشماً نجحاً لا يرقى إلى مستوى مواكبة العصر.

2) الوثائق التربوية والإيقاع التكنولوجي الجديد

ترفض المدرسة المغربية توسيع رقعة مناهجها لكي تشمل هذه الوسائط وتواكب القفزة المعرفية داخل المجتمع، وتثمن أقوال عدد من الأطر الإدارية والأساتذة...، هذه الأقوال التي مفادها أن الوسائط التكنولوجية لا قيمة ثقافية ولا جدوى منها سوى أنها تبذير للوقت، وذلك في حرص شديد منهم على تكريس مناخ ماضوي يضبطه التحفظ والتقوقع على الطرائق القديمة.

وبما أن المدرسة المغربية في شخص المسؤولين عن القطاع لم تستطع المجازفة بموقفها بشكل رسمي، فاختارت الصمت باعتباره "اللاموقف"، ولم تنتبه بأن اللاموقف في حد ذاته موقف فإننا نعتبر هذا الصمت تميّنا لهاته الأقوال وتبنيها قاعدة: "كم من حاجة قضيناها بتركها" وهنا بالسكوت عنها، ورفضاً للخروج من عزلتها بأفكار ما عادت تسير زمنا آخر من العلم وتفريعاته المذهلة، وبالتالي تظل المدرسة المغربية "عاجزة عن إرساء وترسيخ حداثة بصرية وثقافية" (الضايوي، 2018، ص 60) في ظل ممارسة فعلية للجهات الوصية الصمت كموقف من التكنولوجيا ورفضها، يتم الترويج الشكلي في الوثائق الرسمية لاستدماج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وعلى رأسها الميثاق الوطني الذي يشير في أول صفحاته إلى ضرورة الانفتاح والمواكبة، بل جعل ذلك من مرتكزاته الثابتة، إذ اعتبر أن النظام التربوي يندرج في "حيوية نهضة البلاد الشاملة القائمة على التوفيق الإيجابي بين الوفاء للأصالة والتطلع الدائم للمعاصرة" (الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 1999، ص 5) وجعل هذا شعاره البارز بل يسعى إلى ترويج ذلك في مواضع أخرى، حيث أكد على أن تكون المدرسة "مفعمة بالحياة بفضل نهج تربوي جديد يتجاوز التلقي السلبي والعمل الفردي إلى اعتماد التعلم الذاتي، والقدرة على الحوار والمشاركة في الاجتهاد الجماعي" (الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 1999، ص 5)، ثم دعا إلى أن تكون "مفتوحة على محيطها بفضل نهج تربوي قوامه استحضار المجتمع في قلب المدرسة، والخروج إليه بكل ما يعود بالنفع على الوطن مما يتطلب نسج علاقات جديدة بين المدرسة وفضاءها البيئي والمجتمع الثقافي والاقتصادي" (الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 1999، ص 5).

لقد أكد خطاب الملك محمد السادس في افتتاح الدورة الخريفية للسنة التشريعية الثالثة المتعلقة بالتعليم، على أننا "زيد من مؤسستنا التربوية والتعليمية أن تكون فاعلة ومتجاوبة مع محيطها" (الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 1999، ص 5)، وسيستمر هذا الترويج الشكلي في كل الوثائق التربوية التي ستأتي بعد الميثاق الوطني، بدءاً بالخطط الاستعجالي، فرورا بالرؤية الاستراتيجية، ثم وصولاً إلى القانون الإطار، بشكل يوحي بالإرادة الراسخة والجدية المتواصلة لتحقيق هذه الخيارات الحاسمة. إن هذه الأفكار التي لا تتحقق في واقع المتعلم داخل المدرسة، ومع الأساتذة والأطر الإدارية؛ بحيث يعيش يوماً تحت سلطة النموذج التعليمي القديم، جعلته في حيرة من أمره، فهو منبهز بمنتجات مجتمع المعرفة وإغراءاتها، من جهة، محصوراً في زوايا نظام تعليمي ينتمي إلى الماضي في وسائله وطرائقه وذهنيات القيميين عليه، من ثمة، حصل الشرخ، وأعلن القطيعة بينه وبين هذه المدرسة، ووجد في الدارة المجتمعية فسحاً ملائماً ليتواصل مع معارف العالم بوسائل العصر وإجراءاته.

3) سلطة الصورة اليوم

قديمًا كان الإنسان البدائي يتواصل بالرموز والإشارات، ومع تقدم التاريخ جاء الكلام كطبيعة بشرية ذات علاقة بالفكر وكلمة الدماغ وتركيبها، ثم بعدها صار يتحدث عن التواصل بالكتابة عوض الكلام والرموز، فكانت حاجة الإنسان إلى شيء يحل محل الكتابة والكلام، فجاءت صرخة الصورة كآلية تعبيرية رهيبة، "تنطق وتتكلم بلا لسان، استوعبت الكتابة والكلام بل تجاوزتهما" (الضايوي، 2018، ص 60)، حتى قيل إن العصر الذي نعيشه يسير بسرعة نحو تشكيل "حضارة الصورة" مما يجعلنا نتحدث عن "إنسان الصورة" بالمعنى الاستهلاكي للكلمة، وعن "كوكب الصورة" كمكان -دون سواه- يعنى بإنتاج وترويج واستهلاك للصور" (أشويكة، 2016، ص 2). إن الصورة بهذا المعنى نتاج الطبيعة البشرية، وليست حكرًا على الغرب، ولم يكن الغرب هو الذي اكتشفها، ولا اخترعها "صحيح أن الصناعات الغربية في ميدان التواصل هي التي جعلت الصورة أداة مركزية في التبادل الاجتماعي، دون أن يعني ذلك أن الصورة اكتشاف غربي" (بنكراد، 2012). ولا أحد اليوم يستطيع أن ينكر حضورها في حياتنا اليوم، إذ أضحت تكتسب "استقلالية عن اللغة وتميل إلى أن تصبح في حد ذاتها نوعًا من الكتابة" (CORNU ; 1992 ; p2) فنحن الآن "ننتهي أكثر إلى زمن التمثيل البصري بكل أشكاله، فلا يمكن أن يتصور شوارع المدن والساحات خالية من الصور، أو يمكن أن يقتني شيئًا يصفه ويحتفي بمزاياه النص المكتوب وحده، لذلك لم يعد من الممكن أيضًا تجنب دراستها والتعرف على إواليات التمثيل والاستنساخ والتضليل فيها" (بنكراد، 2019، ص 12).

أصبحت تقتحم بيوتنا وغرف نومنا دون استضافة أو استئذان، تحيط بالكبار والصغار على حد سواء، وتغرقهم من كل جانب حتى "لم يعد الطفل يتعرف على محيط بكر تبنيه حقائق ناطقة في وجود مادي، فحقائق هذا الوجود وتفصيله تأتيه اليوم بواسطة الصورة أولاً" (بنكراد، 2019، ص 12). فهل أصبحنا نحن ضحية وفريسة لصور تستهويننا وتبهرننا وتستميلنا حتى وإن لم نطلب حضورها في كل حين ومكان؟

يبدو الأمر بدهيا لا يستدعي منا اللجوء إلى سبل الحجاج والبرهنة، خاصة وأنا متورطون داخل عالم تكنولوجي تعتبر الصورة واحدة من أسلحته الشرسة للتحكم في قواعد اللعب داخل مجالات السياسة والاقتصاد والإعلام.

لا نختلف إذا اعترفنا بأن الصور، لقوة حضورها وتأثيرها، أصبحت في الغالب توجه أذواقنا، وتغير فكرنا، وتجسد ألمانا وأملنا، تعجب أحاسيسنا ومشاعرنا، تبني مواقفنا، تعبر عن آرائنا، وتدحض أحكامنا السابقة وقناعاتنا، إلى حد أنه من الممكن أن تكون صورة أو مجموعة من الصور حاملة لرسالة أو مجموعة من

الرسائل تقنعنا بها، بل تكون سببا في تعاطفنا ورضانا، ومن الممكن أيضا أن تكون هي نفسها سببا في سخطنا وحققنا، لأنها ترسل إشارات إلى الوجدان أكثر مما تخاطب العقل؛ وبالتالي فالصورة تثبوا مكانة عالية في حياتنا المعاصرة سواء أحببنا أو كرهنا، فإنها تبدو أرقى الاختراعات الإنسانية، وأكثرها فعالية في التواصل والتفاعل.

4) سلطة الإشهار اليوم:

الإشهار قديم قدم الإنتاج البشري، إلا أنه لم يكن يتعدى خبرا في عدة أسطر يعلن بواسطته عن سلعة أو خدمة جديدة، أما اليوم فقد أضخى الإشهار يكتسي أهمية بالغة يستمد منها من أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والفنية، فعلى المستوى الاقتصادي أضخى الإشهار ركيزة لا مناص للمؤسسات الاقتصادية من الاستناد إليها، على اختلاف تخصصاتها وتوجهاتها، بحيث تخصص جهودا هائلة، وترصد مبالغ طائلة في سبيل تحقيق الهدف. ولما كان الربح والمنفعة الاقتصادية هما الحافزان للتبادل، فإن الإشهار هو الوسيلة الأكثر فعالية لتحقيق هذا الهدف، ففضله لم تعد تشك أدنى شك في تسويق وترغيب الزبون المفترض للإقبال على منتجها، ويمكن أن تضمن بالاعتماد الواسع عليه استمراريتها وبقائها.

أما على المستوى الاجتماعي فقد تغلغل هذا الخطاب ضمن كل الفئات المكونة للمجتمع، وأصبح جزءا لا يتجزأ من حياتها اليومية، يرتب مواعيدا ضد إرادتها، واستفاد من الصرخة التكنولوجية ليغزو بيوتها دون استئذان، حيث أضخى "كل فرد منا عرضة لسيل متدفق من الصور الإشهارية تتراوح ما بين 500 إلى 800 صورة في اليوم الواحد" (غراموي، 2017، ص 124). وهذا التدفق المفرط أصبح يتوغل في كل مرافق الحياة، إذ لا هروب منه إلا إليه، وهو ما دفع روبرت كيران Robert Crane إلى القول "إن الهواء الذي نستنشقه يتكون من الأوكسجين والآزوت والإشهار" (غراموي، 2017، ص 124).

في ضوء هذه المؤشرات التي تسلط الضوء على الإيقاع التكنولوجي الجديد للكون، يبرز بإلحاح التساؤل حول آفاق النصوص الثرية والشعرية المقررة في كتب المتعلمين - لا سيما في سلك الثانوي التأهيلي شعبة الآداب العصرية والعلوم الإنسانية- في ظل انتشار ثقافة الصورة، فهل بدأ شيء أشبه بنهايات النصوص التراثية الثرية والشعرية يلوح في الأفق؟ وهل هذا الإيقاع الكوني التكنولوجي الجديد هو ما يحول دون إقبال المتعلمين على هذه النصوص بكل أشكالها؟

فإن كان الأمر كذلك، ما السبيل الناجع لإحياء الدافعية داخل النشء؟ ألا يمكن أن تواكب المدرسة المغربية بمنهجها ووثائقها وأساليب تدريسها هذا الإيقاع الكوني الجديد مواكبة فعلية؟ هل بات استحضر الصورة عامة في بناء التعلبات والكفايات أمرا ملحا؟ هل يمكن اعتبار الصورة والصورة الإشهارية على وجه الخصوص إذن أفقا للتدريس وبناء الكفايات؟ أم أن تراجع منسوب الدافعية لدى

المتعلمين مرتبط بسياقات أخرى (اجتماعية، تربوية، بيداغوجية، ديدكتيكية...) لا علاقة لها ببروز الصورة ولا بمحتويات التدريس؟
لا يتطلب تناول هذه الأسئلة استعراض المفاهيم النظرية ذات الصلة بما هو تربوي، فعدد الذين تحدثوا عنها لا يحصى، بقدر ما يهمننا إمكانية الرفع من مردودية العملية التعليمية، باعتماد معالجة ميدانية من داخل الصف المغربي.

ثانيا: الصورة الإشهارية وبناء المفاهيم لدى المتعلم:

إن الصورة تعبير رهيب تجاوز أشكال التعبير الأخرى في حياتنا، أضحت بمقتضاه الصورة أكثر تأثيرا على الناس، عامة، والمتعلمين، خاصة، من الواقع نفسه، ذلك أن "الصورة عندهم (التلاميذ، الطلبة، المتعلمين...) هي الحقيقة الوحيدة القابلة للتداول، لم تعد تضحكنا مواقف الناس في الشوارع والحارات والأسواق، فنحن لا نكتشف المتعة فيها إلا عندما يتقاسمها الناس في الفيسبوك أو ينشرها عبر الواتساب" (بنكراد، 2019، ص 13). ولم يعد باستطاعة أحد اليوم في ظل الثورة التكنولوجية التي أحدثتها وسائل الإعلام أن يوجه استهلاك الشباب المتعلم، ولم تعد السلطة لأحد في أن يقول لابنه اشتر هذا أو لا تشتري ذلك! فالسلطة للصورة، هي من أضحت تتحكم في استهلاكه، وهي من توجه رغبته وذوقه، بل تضطره إلى شراء هذا وعدم الإقبال على الآخر، خاصة وأن الشباب يقبلون وبشكل كبير على التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي، باعتبارها وسيلة فعالة تأتي في طليعة الوسائل المساعدة للإشهار، تضم الصوت والصورة، خاصة "أن مكوث المراهقين أمام التلفاز وصل إلى ثلاث ساعات يوميا وهو في تزايد، وبذلك بات التلفاز يشغل المرتبة الثانية بعد النوم من مشاغلهم" (غرماوي، 2017، ص 130).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الوصلات الإشهارية الموجهة إلى الشباب، أو التي تستأثر باهتمامهم أكثر هي التي "تركز على في غالبها على السلع الغذائية (مأكولات جاهزة، مشروبات غازية...)، والأدوات التكنولوجية (هواتف، حواسيب...)، والملابس، وأدوات الزينة والترفيه والتسليه؛ لأن فئة المراهقين من أكثر شرائح المجتمع استهلاكا للتكنولوجيات الجديدة، وأكثرها اهتماما بالموضة (هواتف ذكية، لوحات إلكترونية، ساعات يدوية، سماعات، بطاريات، أغلفة موبايلات، إلخ...). ذلك أن الخطاب الإشهاري يقوم بعملية نمذجة *modélisation* متعمدة على مستوى القيم الثقافية والاجتماعية التي يقدمها (صورة وصوت وإيقاع...)، خاصة في تلك الإرساليات المستعملة للأطفال أو الموجهة إليهم" (بن رحال، 2017، ص 8). كما يمثل مراهق اليوم بالنسبة لمسوقي الماركات التجارية مستهلكا في المستقبل، لذلك يخططون لاستمالته منذ اللحظة الراهنة وتعيده على اقتناء هذه الماركة أو تلك، إذ يقوم الإشهار بالبحث

عن أي شواهد *preuves* أو أحداث أو ممارسات *pratiques* ، ولو كانت غير أخلاقية *immoral*، لتأكيد الصورة النمطية السلبية التي يروجها ثم يرسخها في عقول الأطفال" (بن رحال ، 2017، ص8)، ثم إن الإشهار يلجأ إلى إحكام عملية النمذجة والتنميط، وهو ما يقضي على القيم الثقافية والاجتماعية الأصيلة لمجتمعنا المغربي مع مرور الوقت" (بن رحال ، 2017، ص8)، فقد بينت العديد من الدراسات أنه بمجرد بلوغ المراهقين سنّ الرشد فإنهم يحتفظون بأعلى المماركات التي كانوا يقتنونها في سنواتهم السابقة. ومن جهة أخرى، يمثل المراهقون، في حالات كثيرة، جماعة مرجعية بالنسبة إلى ذويهم حيث يكون لآرائهم واقتراحاتهم تأثير في السلوك الاستهلاكي لباقي أفراد الأسرة" (بن رحال ، 2017، ص 130-131). لقد أضخى المتعلم يعيش حضارة تقوم على الثقة العمياء فيما تنتجه وسائل الإعلام والاتصال، وما يزيد الأمر استفحالا هو أن هذه الثقة تصل إلى حد بناء بعض المفاهيم الخاطئة لديه، من دون حسيب ولا رقيب بالمعنى الإيجابي الذي يحرص على حمايته من خطر الإشهار. تستغل الصورة الإشهارية تأثر الطفل بألوانها وأشكالها والشخص فيها، فتمرر إليه رسائل في الخطاب لا تُرى، بل تنسل خفية إلى لاشعور المتعلم، ويتبناها دون أن يخضعها لأي تحليل أو نقد ويستقبلها دون إرادته، وتلك هي الغاية المنشودة للإشهار كي يمرر رسالته في خضم هذا التأثر، ويستفرد بالمتعلم في الوقت الذي ينشغل فيه بالصورة، وفي الوقت الذي يتأثر بألوانها وأشكالها وشخصها، واستدعاء كل الحوافز النفسية العميقة، وتحريك الميولات.

"علينا أن ندرك جيدا أن اللعبة الخيالية تأخذ مسارا خاصا لها، وأن بعض الصور تحمل رسائل تتجاوز الهدف المحدد في الموصفات (دقت التحملات). إذ تنتج الصورة رسالة جديدة لا وجود لها مسبقا مما يجعلها تحيد عن مصيرها الإشهاري" (CORNU, 1992, p8) ، وفي خضم هذا التأثر تخلق الصورة للمتعلم مفاهيم فارغة، فأن يشاهد المتعلم وصلة إشهارية فيها شاب يمتطي لعبة يتسلق بها الجبال بكل ثقة وشجاعة، أو أن تخلق وضعية فيها مجموعة من الشباب يمتلكون جميعهم منتوجا معيناً، وثثير إما كتابة أو صوتا مفهوم السعادة. حينئذ سيصدق المتعلم أن امتلاك تلك اللعبة وتسلق الجبال هي الشجاعة، ثم يدرك أن شراء ذلك المنتج والخروج رفقة الأصدقاء هو المعنى الحقيقي للسعادة، لأنها قامت على تشييد فضاء للرغبة له، وتزكية خطابها باستراتيجية الإغراء والإشباع المحتمل، وبالتالي أصبح اقتناء المنتج أو اللعبة هو اقتناء لمفاهيم بعينها. ونتيجة لمثل هذه التمثلات، نجد أغلب الشباب يستمدون مرجعياتهم في القيم والسلوك من وسائل الإعلام المختلفة حيث "تحولت هذه الوسائل إلى منافس قوي للأسرة في التوجيه والتعليم من خلال تقديمها للنماذج والسلوكات والقيم التي تسعى المؤسسات التجارية بخاصة إلى ترويجها لصالح أهدافها الربحية، حتى ولو أدى ذلك إلى منافرة القيم الصحيحة" (غرمادي، 2017، ص136).

فالإشهار بهذا المعنى لا يقدم نظاما متماسكا من القيم "نظام قيمه لا يسعى إلا إلى الاستهلاك" (غرماوي، 2017، ص 136). وبالتالي تسعى الصورة، دائما، إلى إثارة تلك المفاهيم التي لا ندرك منها سوى الاسم، وتحاول أن تضع يدها عليها لا لشيء إلا لكي تؤثر بشكل قوي على شريحة الشباب التي ينتمي إليها المتعلم، وتحمله على الاستهلاك.

❖ من مستهلك سلبي إلى متلق سلبي

لا يختلف اثنان في أن الجانب النفسي إذا تم توظيفه بشكل جيد وفعال سيساهم لا محالة في تأثير الخطاب بشكل قوي أكثر من الجانب العقلي، ويصل بالخطاب إلى أقصى درجة في الإقناع، ومن ثم إلى تحقيق الهدف المنشود المتمثل في البيع وترويج المنتج ونفاده داخل سوق شرسة لا هم لها سوى الربح. كما لا يختلفان أيضا في "أن المراهق ينشغل بالصور التي تتكلم عن عالمه الداخلي، تتجاوب مع أحاسيسه الخاصة. فهي بذلك تمسه وتخصه شخصيا، وكلما نجحت الصورة في ملامسة حاجات المراهق، ازداد قربها منها حتى ليشعر بأنه جزء من محتوى هذه الصورة. وهذا اللقاء بين الصورة والعالم الداخلي للمراهق، هو الذي يولد الشعور بالمتعة لديه ويجعله أكثر انجذابا إلى الرسالة الإشهارية" (غرماوي، 2017، ص 130). فهو بهذا المعنى متلق سلبي للخطاب الإشهاري، ومستهلك سلبي، لأنه تأثر بوسائل الإعلام التي "تجد الطرفين في صيغة واحدة هي الاحتفاظ للباحث بصفة الباحث فقط، وللمتلقي بصفة المتلقي فقط. لقد أصبح المتلقي طرفا هامدا، يقتصر دوره على بلع الخطابات التي تصل إليه وتجده مكتوف الأيدي مسلما مصيره إلى هذا المتحدث عبر هذه الآلة الطاغية" (الوالي ، 2007 ، ص 11) ؛ وبالتالي عدم إخضاع الخطاب للنقد أمام تلك "الاستمالات العاطفية للصورة وإغراءاتها الجمالية يتحول المستهلك إلى متلق سلبي، ويستسلم إلى عالم الوهم ويفقد الإحساس بذاته ويتحرر لاشعوره من الكوابح الاجتماعية، ويطلق العنان لتصوراته ورغباته" (غرماوي، 2017، ص 133).

كل هذا سيربني فيه وسيعوده على القراءة السطحية لجميع الخطابات، وعلى تلقي كل ما يعرض عليه دون التفاعل معه ودون محاولة لتفكيكه، سيخضع لتأثير الرسالة وسيتمثل لقصد الإشهاري. ولا شك أن هذا التأثير السلبي وهذا الجمود الذهني سينتقل معه إلى الفصل دون شك، وتصبح أقصى مجهوداته هو البحث عن تدوين المعرفة، وحمل كراسته كل يوم للقيام بنفس المجهود دون أي ممارسة أو تفاعل مع هاته المعرفة، ودون تحقيق أي مهارة، ولا كفاية، سيتعلم بلع الخطابات، ومعها بلع معرفة لا يستسيغها، لأنه عند تلقي الصورة الإشهارية وجد نفسه وحيدا يواجه جبروتها، ولم يجد أي أسلوب لكي "يصد عن حياضه قنابل العنف اللفظي" (الوالي ، 2007 ، ص 11).

ثالثا: الصورة الإشهارية والديكتيك

(1) استثمار الصورة الإشهارية في التدريس:

إن مناهجنا والوثائق التربوية التي تنظم سير المدرسة، أبانت اليوم عن عزلتها وعدم قابليتها للتفتح، ووضع المدرسة يؤكد ذلك دون أن نلجأ إلى سبل المحجاج والبرهنة، ما جعل مضمون العملية التعليمية عقيما بدون أي مردودية.

هذا، وقد أصبح الحال يفرض انتقالا حضاريا في مضمون العملية التعليمية، وأضحى لزاما على الأكاديمي "أن يوسع من دائرة اهتماماته، لكي يشمل كل المنتجات وعلى رأسها الصورة" (بنكراد، 2012)، لذلك ينبغي إعادة النظر في حضور الصورة في تفاصيلنا اليومية، ومن ثمة استثمار الصورة الإشهارية في إنجاح العملية التعليمية، ذلك أن المرء يتعلم:

- 1- % بواسطة الذوق؛
- 3.5- % بواسطة الشم؛
- 1.5- % بواسطة اللمس؛
- 11- % بواسطة السمع؛
- 83- % بواسطة البصر. (ابن راضي 2008، ص74-75).
- ومن جهة أخرى فإنه يتذكر:
- 10- % مما يقرأه؛
- 20- % مما يسمعه؛
- 30- % مما يراه؛
- 50- % مما يراه ويسمعه؛
- 20- % مما يقوله وهو يفعل شيئا. (ابن راضي 2008، ص75).

وبالتالي تعتبر الصورة عنصرا بصريا مناسباً وفعالاً للعملية التعليمية التعليمية، لذلك ينبغي استعمالها كمساعد بيداغوجي.

فالصورة تؤثر في المتعلم من جميع الجهات وتستفزه في كل مكان وتفرض نفسها عليه في كل مكان وفي كل لحظة، ويتأثر بها لا شعوريا ولكنه لا يستطيع تحليل معانيها واستنطاق معانيها مما يكرس هذا التأثير والإغواء.

ويزيد الأمر استفحالا غياب ثقافة العين في البرامج التربوية في مدارسنا، فلم تنتبه الوثائق التربوية القديمة ولا الحديثة إلى الدور الذي يمكن أن تؤديه الصورة الإشهارية في إنجاح التواصل داخل الفصل

وخارجه، ولم تكثر المناهج الحديثة القائمة على بيداغوجيا الكفايات إلى الصورة الإشارية باعتبارها أنسب وسيط لتحقيق الكفايات، لهذا نقترح التالي:

لـ استعمال الصورة الإشارية كتنشيط بيداغوجي لتحسين الممارسة التعليمية، ومن تم تحسين المردودية التعليمية؛

لـ إكساب التلاميذ أساسيات تحليل الصورة، وأساليب التعامل مع الصور الإشارية؛

لـ تبني تعاملات نقدية واعية لا انصياعية، لأن الصور الإشارية غالبا ما تتضمن رسائل لها آثار سلبية سواء عن قصد أو غير قصد؛

لـ استثمار الصورة الإشارية في فهم النصوص الشعرية والنثرية، عن طريق مصاحبة النصوص بصورة موضحة شارحة، فإذا استعصى على التلميذ فهم النص الشعري/النثري ساعدته الصورة على فهمه عند الرجوع إليها. وإذا استعصى عليه فهم الصورة عاد إلى النص.

لـ استعمال الصورة الإشارية كأداة لتنشيط الذهني وتقوية ملكات: الملاحظة، الفهم التحليل والتأويل في ذهن المتعلم.

تجدد الإشارة هنا إلى أن تدريس الصورة الإشارية قد دخل ولو بشكل محتشم إلى مقرر السنة الأولى بسلك البكالوريا، مسالك العلوم التجريبية والعلوم الرياضية والعلوم التكنولوجية الكهربائية والعلوم الاقتصادية والتدبير والفنون التطبيقية.

(2) درس الصورة الإشارية في الكتاب المدرسي

لـ على مستوى المنهجية المعتمدة في تحليل الصورة:

-المستوى التمثيلي: يتعلق بعرض مكوناتها بشكل صريح ومباشر. والمكونات التمثيلية هي الشخصيات (التي تُعرض حسب عددها، جنسها، سنها، لباسها، نظراتها، نشاطها، وضعها الاجتماعي، هويتها...) والأشياء التي قد تكون طبيعية أو عمرانية أو صناعية... ثم الديكور الذي قد يكون واقعا أو خياليا أو خارجيا، محادا أو ضبابيا.

- المستوى التواصلي للصورة: أن تحليل المستوى التواصلي للصورة يقصد به تحديد مصدرها المتمثل في المرسل، ثم المرسل إليه أي متلقيها، ثم الرسالة المراد تبليغها: (التعبير عن المحبة، الإشادة والتعظيم، الفرح أو الحزن، السخرية، الدعوة إلى شيء ما...)

- المستوى الدلالي للصورة: إن تحليل المستوى الدلالي للصورة يتعلق بالكشف عن دلالات وإيحاءات مكوناتها، وما يترتب عنها من علاقات متنوعة، مثل (علاقة الانسجام، التعارض، التكامل، السببية،

التفسيرية...)) بالإضافة إلى ما تعكسه من وظائف، سواء مرجعية تفيد الإخبار، أو حجاجية تفيد الإقناع أو جمالية تفيد الإمتاع. كما أن هذا المستوى عن قيمة الصورة.

◀ على مستوى المضمون

▪ هذه هي الصورة المبرمجة للتحليل في درس التعبير والإنشاء بكتاب "واحة اللغة العربية" السنة أولى سلك البكالوريا مسالك العلوم التجريبية والعلوم الرياضية والعلوم التكنولوجية والكهربائية والعلوم الاقتصادية والتدبير والفنون التطبيقية.



3) تقييم الدرس على مستوى المنهجية المعتمدة:

لا ننكر أن المنهجية المعتمدة في هذا الدرس ستجعل من المتعلم قادرا على تحليل الصور الإشهارية التي تحاصره في كل مكان، وتحصنه من جبروت هذه الصور، وأن هذه المنهجية ستجعل منه متعلما متفاعلا مع جميع النصوص، وسيصبح قادرا على إخضاعها للنقد، وسيتمكن من تلقي جميع أنواع الخطابات وفهمها وتحليلها وتفكيكها وتأويلها، ومن ثم ستحقق فيه الكفايات المستهدفة من الدرس، وتوظيفها في سياقات ووضعيات مشابهة ومختلفة.

إلا أنه تم إغفال مفهوم الصورة وأنواعها وأجزائها في هذا الدرس، لأن الإشارة إلى هذه العناصر قبل اللجوء إلى مستويات تحليلها سيساعده وبشكل كبير في التحليل، بل سيبدأ في التحليل على ضوء تلك العناصر الأولية التي اكتسبها، إذ لا يمكن أن نطلب منه تحليل الصورة وهو لا يعرف عنها أي شيء، ولا يمكن أن نطلب منه استخراج دلالات الألوان ولا الأشكال وهو لم يسبق له أن درس هذه الدلالات طيلة تكوينه في المستويات السابقة. ففي اعتقادنا أن الإشارة إلى هذه العناصر ستساهم وبشكل كبير في إثراء الدرس وتطويره، وتحقيق الكفايات المستهدفة منه بشكل أفضل، لذلك نقترح أن تكون مراحل الدرس على هذا الشكل:

❖ مفهوم الصورة

أن يتعرف على ماهية الصورة ويدرك بأنها شكل من أشكال التعبير الفني " أنها ما يمثل أمام العين ويلتقطه الوعي وأنها استنساخ قصدي لموضوع ما وتحويله إلى كيان منفصل عن أصله" (بنكراد، 2019، ص 21) تخاطب البصر، والإحساس، وأن يتعرف على الصورة باعتبارها "محاولة لمحاكاة عالم خارجي

بواسطة آلة فوتوغرافية، أو بواسطة رسم أو نحت أو كاريكاتور أو لوحة تشكيلية." (بنكراد، 2019، ص 191).

+الوقوف بالمتعلم عند دلالات الصورة لغويا خاصة في معجم لسان العرب:

* الصورة تدل على حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته.

* الصورة تدل على ما يشبه الوهم والرؤى الخادعة.

وأن ينطلق له الأستاذ مما يصادف كل يوم في الشوارع والتلفاز ومحطات النقل لكي يدرك أنها أصبحت تشكل سلطة في حياتنا وفي ثقافتنا المعاصرة، وأن هذه السلطة اكتسبتها من قدرتها الرهيبة في إيصال الرسائل بسبب محولها الإيحائي وأساليبها البليغة، وتقنياتها المؤثرة.

❖ أجزاء الصورة: مساعدة التلميذ على التمييز بين ثلاث مستويات في الصورة في الصورة:

- المستوى اللغوي: أن يعرف التلميذ أن هذا الجزء يشمل كل مكتوب ظهر على الصورة من عبارات وأرقام، ويمكن تمييز مجموعة من المستويات في هذا الجانب: نوع المعلومات التي ينقلها المكتوب وطبيعتها الإيحائية - المكان الذي يشغله المكتوب - حجم الحروف ولونها - الشكل الطباعي للحروف ...
المستوى الأيقوني: أن يتعلم التلميذ أن هذا المستوى يتضمن عملية التمثيل لكل الموجودات في الكون الحقيقية والخيالية وكذا شكل حضورها في الصورة (الجسد - الحركة - النظرة - اللباس - المطر - البرق - العواطف - الأنهار - الأشجار - الصحراء...).

المستوى التشكيلي: يتعلق الأمر بكل التقنيات التي يستعملها المصور، وتحضر من خلال الصورة أمام العين (التأطير واللحظات، وزاوية التقاط المشهد والتركيب، من جهة، والألوان والخطوط والنور والظل، من جهة ثانية).

◀ إجراءات تحليل الصورة

❖ المستوى التمثيلي للصورة: أن نحفز المتعلم على التفاعل مع الصورة وأن يطرح عليها أسئلة تتعلق بالمحتوى، ويحاول استخراج الأجوبة، كأن يجيب عن سؤال ماذا يوجد في الصورة؟ هل توجد شخصيات؟ هل توجد علامة تجارية ما؟ هل يوجد منتج ما؟ ماهي الألوان الموجودة؟ ماهي الأشكال الحاضرة في الصورة؟

❖ المستوى التواصل للصورة: أن يتمكن المتعلم من النظر إلى الصورة الإشهارية باعتبارها حاملة لرسالة، فيبحث عن المرسل والمرسل إليه، وهنا يشير المدرس إلى مسألتين أما الأولى فأن يميز بين الإشهاري (صانع الإشهار)، والمنتج (صاحب المنتج)، والثانية هي أن نوع المنتج قد يحدد المرسل إليه (الشباب، الشابات، الأمهات، الآباء، التلاميذ، المرضى...)

❖ **المستوى الدلالي للصورة:** أن يتمكن المتعلم من الربط بين عناصر المستويات السابقة، على اعتبار أن الصورة حاملة لكم دلالي، لأنها تثير موضوعات فما نراه ليس عالما غفلا عار حاف من أي معنى بل سلسلة من الدلالات أودعها المرسل في الصورة للإخبار بأسلوب بليغ، مؤثر ومضلل، ذلك أن "ما يتسرب إلى العين ليس خصائص تعود إلى الموضوع الممثل، لأننا نحن لا نصور موضوعا وإنما نختار زاوية للنظر" -بتعبير بنكراد- وطريقة في النظر، وأسلوبا للإقناع بالاستهلاك، كما يستغل المدرس هذه المرحلة على تحفيز المتعلمين لاستذكار واستحضار دلالات كل من عناصر المستوى الأيقوني والمستوى التشكيلي وأن يطلب منهم الإجابة عن تساؤل وحيد وهو: كيف قالت الصورة ما قالتها؟

4) تقييم الدرس على مستوى المضمون:

إن الصورة المقررة لا ترقى إلى مستوى التحليل، ولن يجدي تحليلها في شيء، فهي توعوية أكثر مما هي إشهارية، ولن تؤثر في التلميذ كثيرا، لأن موضوعها لا يتناسب وسن التلميذ، فهو لا يكثرث لمثل هاته الصور، لأنها بكل بساطة لا تجلب انتباهه، ثم إن صانع الصورة ليس له تلك الرغبة الكبيرة في إقناع المتلقي بالرسالة، عكس المنتج تكون وراءه مطامع مادية، تدفع إلى التعبير بكل الوسائل والأساليب لإقناع متلق غير محدد، وبالتالي فالصورة المقررة لا تتناسب مع المهارة في شيء، لا فنيا، ولا موضوعيا، ولا ثقافيا، ولا حتى زمنيا، فمثلا الصور التي كانت في المقررات القديمة توضح الدرس بألوانها وأشكالها وموضوعها وحتى زمنها؛ ففي فصل الصيف نجد دروس مصحوبة بصور تعبر عن الفصل الذي نحن فيه، (البحر، الناس يسبحون، الأطفال يلعبون فوق الرمال في الشاطئ...)، وكذلك حين يصل فصل الربيع ندخل على المدرسة فنجد دروس ونصوص معبرة عن الفترة الزمنية ذاتها، مناظر خلابة، غابات محفوفة بالورود الجميلة، والألوان المعبرة، كانت صور معبرة وموضحة في الآن نفسه.

رابعا: الصورة الإشهارية وتحقيق الكفايات:

إن الانتقال من بيداغوجية التلقين وشنخ التلاميذ بالمعارف الجاهزة إلى بيداغوجية الكفايات وتمهير التلاميذ في المعرفة، وإكسابهم مهارات نقد المعرفة وإخضاعها إلى التحليل والتأويل، كان يجب أن يرافقه الانتقال من الوسائل التعبيرية والديداكتيكية القديمة إلى الوسائل الحديثة والمعاصرة التي تعترض طريق المتعلم كل يوم، ويعيشها باستمرار، ويتعامل معها في كل لحظة بإرادته أو عن غير إرادته، لتحقيق الكفايات، وبالتالي إنجاح التواصل المدرسي، والرفع من جودة التعليم.

1) الصورة الإشهارية والكفاية المنهجية:

إذا كانت الكفاية المنهجية تتعلق ببناء منهج للتفكير من أجل التعامل في وضعيات وسيئات معينة، فإن الاحتكاك بالصورة الإشهارية سيحقق وبشكل فعال هذه الكفاية في صورة قدرات تجعل المتعلم متمكنا

من آلية التحليل وتوظيف جملة من الخطوات المحددة لتحليل الصورة، فضلا عن استثمار عناصر منهجية مستمدة من مقاربات مختلفة لوصف وفهم وتحليل وتأويل الصورة الإشهارية، علاوة على إقدار المتعلم على مجموعة من المهارات كالتحليل فيصبح قادرا على تحليل الصورة وإخضاعها إلى النقد، ومن ثم تحليل النصوص الأدبية وإخضاعها إلى النقد وإبداء الرأي فيها، ومهارة المقارنة فيصبح المتعلم قادرا على المقارنة بين صورتين إشاريتين، والوقوف على دلالة كل واحدة منهما، وإبداء رأيه، وإثبات موقف، فضلا على إقداره على استنباط آليات الحجج والبرهنة وطرق الإقناع فيها، ومن ثم توظيف هاته الآليات في سياقات ووضعيات أدبية وظواهر مشابهة.

2) الصورة الإشهارية والكفاية الاستراتيجية:

إذا كانت هذه الكفاية تراهن على أن يصبح المتعلم قادرا على التوضع في زمنه الثقافي وسياقه الجغرافي، فإن هذه الغاية لن تتأتى لأن هذه المناهج والوثائق التربوية ما زالت غير قادرة هي نفسها على التوضع في زمنها الثقافي والحضاري، فتظهر بمظهر التجديد وهي للقديم وفيه، لأن العصر الذي نعيش فيه يسير نحو تشكيل حضارة الصورة، عصر التكنولوجيا، عصر الموسيقى، لذلك ينبغي الخروج بالمناهج من قوقعة التقليد والانفتاح على الصورة الإشهارية، باعتبارها نتيجة لهذه الثورة التكنولوجية والصناعية والثقافية. وإذا كانت الكفاية تراهن أيضا على تنمية القدرات الذهنية والمحصلات الفكرية، والمداخل الديدانكتيكية، التي تجعل المتعلم قادرا على التعبير عن ذاته وأفكاره وتصوراتهِ والقدرة على تلقي الخطابات والنصوص وفهمها وتفكيك عناصرها وإعادة إنتاجها، فإن الصورة الإشهارية بإمكانها أن تكون وسيلة ديدانكتيكية فعالة لتحقيق هذه الغايات، ومن ثم يصبح المتعلم بعد تمهيده في دراسة وفهم وتحليل وتفكيك عناصر الصورة قادرا على تلقي جميع أنواع الخطابات والنصوص وفهمها وتحليلها وتفكيكها، وبالتالي تنمية قدراته الذهنية ومحصلاته الفكرية.

3) الصورة الإشهارية والكفاية التواصلية:

في سياق جعل المتعلمين قادرين على استعمال اللغة العربية في وضعيات تواصلية تعليمية متباينة مع مراعاتهم لكل ما يتصل بهذه اللغة من ضوابط صرفية ونحوية ومعجمية، ينبغي تمكينهم من الآليات الكفيلة بقراءة النصوص وتفكيك دلالتها، ولتحقيق ذلك يجب تمكين المتعلمين من آليات قراءة الصورة الإشهارية، وإقدارهم على التواصل معها باعتبارها شكلا تعبيريا فعالا ورهيبا، يجمع بين الإشارات والكلمات، وتمهيدهم في التواصل مع العناصر اللغوية فيها، بما فيها الكلمات والمفوضات، وفهم هذه العناصر اللغوية نحويا ومعجميا وبلاغيا، وكذا تمهيدهم في التواصل مع العناصر البصرية بما فيها الأشكال

والألوان والأبعاد... والبحث في دلالاتها وإيحاءاتها وربطها بالغاية الإشهارية، وجعلهم قادرين على استنتاج مدى مساهمة العناصر اللغوية والعناصر البصرية في إقناع المتلقي بالرسالة الإشهارية. هذا، وسيتمكن المتعلم من التواصل مع جميع الخطابات، وستدفعه المهارات التي اكتسبها في تحليل الصورة إلى مطاردة وفهم هذه الخطابات والنصوص والظواهر الأدبية.

4) الصورة الإشهارية والكفاية الثقافية:

إن استثمار الصورة الإشهارية كوسيلة ديدكتيكية سيساهم وبشكل فعال في تحقيق الكفاية الثقافية من خلال تمكينه من رصيد ثقافي مناسب يفتح تصورات المتعلمين وإدراكاتهم، على العالم، انطلاقاً من التواصل مع صور إشهارية في دول أخرى. وكذا تمكين المتعلم من رصيد ثقافي مناسب يتحقق من خلال مجموعة من الصور الإشهارية لمنتج واحد في دول مختلفة، ومن تم تمكينه من آلية النقد وإكسابه مهارة المقارنة.

فإذا أخذنا على سبيل المثال المصق الخاص بشركة (CITROEN) والمصق الخاص بشركة (FIAT)



إذا وضعنا المتعلم أمامهما وطلبنا منه استخراج أوجه التشابه وأوجه الاختلاف من المصقين فبدون أي مجهود فكري وانطلاقاً من ملاحظته الأولى سيلاحظ تغييراً للعنصر المادي: الثمن وإمكانية السلف في المصق الخاص بشركة (FIAT) على عكس شركة (CITROEN) التي ركزت فقط على الجانب المادي. وسيلاحظ أيضاً حضور مؤشرات تدل على البيئة والتلوث البيئي في المصق الخاص بشركة (FIAT) وغياب هذا العنصر في المصق الآخر. حينئذ سنطلب منه محاولة تفسير هذا الاختلاف،

وسنساعده على ذلك. ومن تم نفتح تصوراته وإدراكاته على العالم وتمكينه من رصيد ثقافي مناسب، انطلاقاً من الصورة الإشهارية.

5) الأهداف المحققة للكفايات:

إن هذا الاستعمال المعقلن للصورة الإشهارية في العملية التعليمية سيحقق لا محالة جملة من الأهداف ناتجة عن تحقق تلك الكفايات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

- خلق جسر بين المتعلم وبين واقعه وتطلعاته؛
- ترسيخ عادة القراءة النقدية الواعية، وتجاوز مرحلة القراءة السطحية المرئية؛
- خلق عقول ناقدة من المتعلمين في المعرفة المدرسية وناقدة حتى للظواهر التي تحاصرهم؛
- جعل المتعلم يخضع المعرفة المدرسية إلى النقد ومن تم إلى التفاعل معها؛
- الانتقال بالمتعلم من مستويات تحليل النصوص النثرية والشعرية إلى تحليل نصوص بصرية يصادفها كل يوم؛

- التدرج بالمتعلم من المستوى البصري إلى المستوى النثري الشعري، ومن المستوى الشعري والنثري إلى المستوى البصري، حتى يتمكن من استنفار واستثمار مهاراته المكتسبة في كل ما يعرض عليه.

وهنا نقترح استدماج مقاطع بصرية صوتية في تدريس القصائد الشعرية، وننطلق من تجربتنا (<https://www.youtube.com/watch?v=06YLfwXaS4Q>) في استثمار مقطع موسيقي

صوتي وبصري لقصيدة "يا ليل الصب" بصوت الفنانة "فيروز" لفائدة تلاميذ الجذع المشترك آداب وعلوم إنسانية المدرجة في كتاب الممتاز في اللغة العربية، ونؤكد من خلال هذه التجربة أننا استطعنا إثارة انتباه جميع المتعلمين في الفصل واستقطاب تركيزهم، بل لاحظنا أشكال الاستغراب والدهشة على ملامح البعض، ذلك أنهم لم يكتب لهم من قبل سماع "فيروز" في المدرسة، التي يعرفونها جيداً بل تفاجأنا بوجود من يتبع ويسمع أغانيها ومعجب بصوتها، لكنهم ظلوا يبحثون عن جواب لسؤال كبير: ما علاقة فيروز المغنية التي نسمع صوتها في المقاهي وفي بيتنا صباح مساء بالمدرسة وباللغة العربية؟

لقد اخترنا في هذه التجربة ألا نصرح بالعلاقة في بداية الحصة لتحفيزهم جميعاً على مسطرة معاني القصيدة واستكناه دلالاتها والوقوف على عناصر الغزل فيها، ثم على بنيتها الإيقاعية والتركيبية، وتركا المجال للتعلمين لتجسير العلاقة بين محيطهم الخارجي والمدرسة، واسنباط علاقة "فيروز" بالأدب عامة والقصائد الشعرية خاصة.

خاتمة:

كانت تحدونا إرادة كبيرة في مواكبة المدرسة للإيقاع التكنولوجي الجديد وما تفرزه وسائل الاتصال والتواصل، فلم نجد بذلك الصورة لكن اقترحنا عدم تجنبها أو نبذها وارتأينا التعامل معها باعتبارها لازمة وجودية، بكافي أشكال التعبير الأخرى.

وقد حاولنا أن نقترح إمكانية الجسر بين محيطين منفتحين في الوثائق وبينهما برزخ في الواقع، من خلال اقتراح الصورة الإشهارية كلغة تنتج هي الأخرى دلالاتها ومعانيها، وكوسيلة لخلق الدافعية وبناء الكفايات عند المتعلم، على اعتبار أن هذين المحيطين يحتجان المتعلم كل يوم، وقد بينا أن لا هروب للمدرسة من المحيط الخارجي إلا إليه، وإلا ستصبح المدرسة هي المحيط الخارجي بالنسبة إلى المتعلم وسينفر منها ويזור عنها ازورارا إذا واصلت هذا التعنت واكتفت بالترويج الشكلي للمداخل التكنولوجية والمعلوماتية في التعليم والتعلم.

لا ريب أن القيود الاقتصادية التي تسيج الصورة الإشهارية، تكاد تنسينا كونها تعبيرا يمارس قهرا فنيا على الطفل، لإغوائه والتأثير عليه، والعزف على أوتار شعوره لتضعه على السكة المؤدية إلى محطة الاستهلاك، مستغلة في ذلك غياب آليات القراءة والنقد، وغياب الثقافة البصرية لديه، وقد توصلنا إلى كون الصورة الإشهارية مدخل بالغ الأهمية لإخراج المدرسة من تقوقعها، وجعلها تنفتح بشكل إيجابي وفعال على المحيط، وفاء بما تدعيه في وثائقها الرسمية من جهة، وتحسينا لنفسها من أن سنعكس التلقي السلبي للمتعلم في المحيط عليها، فيتصلب ويكتفي بقراءة سطحية للنصوص الذي من المفترض أن يتفاعل معها، فتصبح المدرسة مذذبة بين ذلك؛ لا هي استطاعت أن تنفتح وتجسر بينها وبين المحيط لتحسين نفسها ومتعلبيها، ولا هي انعزلت ووقت نفسها والمتعلم من إيقاع تكنولوجي معاصر ورهيب. صفوة القول، إننا لا ندعي أن يحيط هذا العمل بالإشكالية كلها وإنما هو عمل لبسط أرضية البحث والتساؤل عن وضع المدرسة في الوقت الراهن، لذلك سنستعيد أسئلتنا من جديد ونقول: هل هناك أمل لنا في العودة إلى الوراء؟ أم لنا رجاء في التخلص من الإيقاع التكنولوجي الجديد؟ هل ستساهم المدرسة في الوقوف في وجه هذا الإيقاع الكوني الجديد؟ أم قضي الأمر وعليها أن تتعايش وتنفتح على ما أفرزته الأزمنة المعاصرة؟

قائمة المراجع:

- (1) القباچ مصطفى محمد، الطفل المغربي وأساليب التنشئة الاجتماعية بين الحداثة والتقليد، دفاثر في التربية، سلسلة الطفولة، 62.
- (2) الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المملكة المغربية.
- (3) طارق غرماوي، المراهق والإشهار التلفزيوني، مجلة علوم التربية، عدد 69، شتنبر 2017.

- 4) محمد أشويكة، الصورة السينمائية التقنية والقراءة، الدار المغربية العربية، ط 2، 2016،
- 5) محمد الوالي، الإشهار أفيون الشعوب، مجلة علامات، المغرب، العدد 27، 2007.
- 6) سعيد بنكراد، تجليات الصورة سيميائية الأنساق البصرية، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط 2019
- 7) سعيد بنكراد، «رباط الكتب»، جريدة إلكترونية، حوار 17 يوليوز 2012، تاريخ الزيارة 2019/12/10.
- 8) كتاب جماعي، ابن راضي بدر وآخرون، اللغة والتواصل التربوي والثقافي مقارنة نفسية تربوية، منشورات مجلة علوم التربية 2008، الدار البيضاء، المغرب.
- 9) منير بن رحال، صورة الطفل في الخطاب الإشهاري المغربي، دراسة سيميائية تأويلية، سلسلة شرفات 93، منشورات الزمن، المغرب، العدد 93 نونبر 2017.
- 10) سفيان الضاوي، مقال ضمن كتاب: المناظرة الوطنية الأولى حول وضعية الفنون التشكيلية بالمغرب؛ وقائع وتوصيات، منشورات النقابة المغربية للفنانين التشكيليين المحترفين، المغرب.
- 11) كتاب التلميز: "واحة اللغة العربية" السنة أولى سلك البكالوريا مسالك العلوم التجريبية والعلوم الرياضية والعلوم التكنولوجية الكهربائية والعلوم الاقتصادية والتدبير والفنون التطبيقية، مصادق عليه من طرف الوزارة المغربية.
- 12) sémiologie de l'image dans la publicité, édition Paris, "GENEVIER CORNU, 1992 collection EO sup
- 13) <https://www.youtube.com/watch?v=06YLfwXaS4Q>

السميات التأويلية والموسوعة الثقافية

Semiotics of Interpretation and the Cultural Encyclopedia.

رشيدة بوجليدة، جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج، الجزائر.

-البريد الإلكتروني: rachida.boudjelida@univ-bba.dz

ملخص:

نسى في هذا المقال إلى البحث في علاقة "السميات التأويلية" Interpretative Semiotics "بالموسوعة الثقافية" Cultural Encyclopedia، وهو بحث لا يتم بطريقة مباشرة؛ دون أن يقودنا بالضرورة إلى البحث في مجموعة العلاقات الأخرى؛ التي تكشف لنا بالتدرج عن جوهر الإشكالية . كالحديث عن "اللغة" Language، وعلاقتها "بالكينونة" Being، أي "الدزائن" Design (وجود الإنسان في العالم)، أو علاقة اللغة "بالعلامة" Sign، و "الرمز" Symbole، و"الاستعارة" Metaphor، و"التأويل" Interprétation وعلاقة هذا الأخير "بسيرورة السميوزيس" Process of Sémiosis، وعلاقتها معا (السميوزيس والتأويل) ب"الثقافة" Cultur .

وسنسى أيضا، إلى إبراز طبيعة التأويل "كحاجة داخلية" Inner Need. من وجهة نظر السميات التأويلية. والفرق بينه وبين ما يسميه أمبرتو إيكو Eco "بالاستعمال الحر" Free Use للنصوص. ولكي يتم ذلك، لابد من فهم طبيعة "السميوزيس البورسية" Peircean Semiosis "اللامتناهية" Infinite في طبيعتها، وما اقترحه إيكو من أجل "تهذيب" Refinement هذه السيرورة. أي ما سماه "بالطوبيك" Topic .

الكلمات المفتاحية: دزائن، رمز، سميوزيس، تأويل، طوبيك، ثقافة، استعمال، موسوعة.

Summary:

In this article, we aim to explore the relationship between "interpretive semiotics" and the "cultural encyclopedia". This exploration does not occur directly, without necessarily leading us to examine a set of other relationships that gradually reveal the essence of the issue. This includes discussions on "language" and its relation to "being", that is, "design" (the existence of humans in the world), or the relationship between language and the "sign", the "symbol", the "metaphor", and "interpretation", as well as the latter's relation to the "process of semiosis and their common relation with "culture".

We will also attempt to highlight the nature of interpretation as an "inner need" from the perspective of interpretive semiotics, and the difference between it and what Umberto Eco calls the "free use" of texts. To do this, it is essential to understand the nature of Peircean semiosis as "infinite" by nature, and what Eco proposed to "refine" this process, which he called the "topic".

Keywords: design, symbol, sign, semiosis, desire, interpretation, selection, use, encyclopedia.

مقدمة:

إن القول بنسبية الحقائق والفهوم، والقول بانفلات النص من كل قيد؛ بانفتاحه على عوامل متعددة من المعاني والرموز -خاصة النص في العلوم الإنسانية والدراسات الأدبية والنقدية- قد أدى إلى انشغال العديد من الفلاسفة والباحثين والنقاد بقضية التأويل. Interpretation، كونها تعد من أكثر القضايا الجوهرية في الفكر الإنساني، إذ استطاع هذا المفهوم أن يفرض آلياته على كل الحقول المعرفية، وتزويدها بالعديد من الأسئلة Questions الجديدة التي تفتح الآفاق واسعة للمعرفة Knowledge، والبحث لهذه الأسئلة عن إجابات.

غير أن فعل التأويل ليس فعلاً معرفياً في متناول الجميع، كما أنه لا يمكن إسقاطه على جميع الوقائع والنصوص، إنه حاجة داخلية Inner Need تُنبعث من ذات القارئ لحظة التقائه بنص رمزي؛ وليس لقاء مع أي نص. فالرؤية الرمزية Symbolic vision للأشياء أمر ضروري، ومطلب عزيز على القارئ، حيث يستفزه ويثير فيه تساؤلات كثيرة، ورغبة Desire ملحة في البحث عما هو متخفي ومتواري، وذلك عبر ممارسته لفعل التأويل. فالتأويل -على هذا الأساس- مرهون في قيامه على الاستعمالات الإستعارية Metaphorical Uses المتعددة للغة.

فالعلاقة ضرورية إذن؛ بين الرمز le Symbole والتأويل Interpretation، تُحيل على علاقة الإنسان بالموسوعة الثقافية Cultural Encyclopedia التي ينتمي إليها، مبدعاً كان أو قارئاً على حد سواء. وقد تمتد الإحالة إلى الإرث الإنساني المشترك والكوني، على اعتبار أن اللغة هي "بيت الوجود الذي يسكنه الكائن".

لكن البحث عن معاني هذا الوجود ليست معطيات جاهزة ومباشرة، بل تتشكل ويُعاد إنتاجها في شكل سيرورة من العلامات، و الإحالات الدلالية المتتالية، الممتدة في كل الاتجاهات، وعلى المؤول - في نهاية المطاف - أن ينتقي مدلولاً من المدلولات، ذاك الذي يميل إلى الاستقرار عليه، تلك هي الرؤية التي جاءت بها السيميائيات التأويلية Interpretative Sémiotique في نسختها البورسية (نسبة إلى شارل ساندرس بورس * Peirce **) كمنطلق، وصولاً إلى نضجها مع أمبرتو إيكو Eco ***.

* بورس: بالنسبة للاسم Peirce " يكتب وينطق بورس وليس بيرس، وكل دارسي بورس يشددون على ضرورة الالتزام بالنطق يجب الصحيح لهذا الاسم (...). إلا أن هذا التشديد لا نجد له صدى في الكتابات العربية، فهم يكتبون بيرس ولا يكلفون أنفسهم عناء التأكد من النطق الصحيح" (سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات، ش، س، بورس، صفحة 11).

** ولد بورس في (1839)، هو فيلسوف أمريكي، من عائلة مثقفة، درس بجامعة هارفارد وتحصل فيها على الماجستير في الرياضيات، ثم دكتوراه في العلوم الكيمائية، يعدّ مؤسس البراغماتية، كما أن له إسهامات عديدة في المنطق الرياضي

فما علاقة السيميائيات التأويلية بالموسوعة الثقافية؟ ما هي المفاهيم والعلائق الأساسية التي ينبغي التطرق إليها، لأجل الوصول إلى جوهر هذه الإشكالية؟ ما الذي يربط فعل التأويل *Interprétation* بالثقافة *Culture*؟ وما الدور الذي تلعبه اللغة *Language* والرمز *Symbole* والاستعمالات الإستعارية *Metaphorical Uses* للغة.. في الكشف عن هذه العلاقة؟ ما المقصود السيميوزيس *Sémiosis* وما علاقتها بالعلامة *Sign* من جهة؛ وبالطويك *Topic* من جهة أخرى؟

إن الحديث عن علاقة السيميائيات التأويلية بالموسوعة؛ أو الإرث الإنساني المشترك؛ أو علاقة التأويل بالثقافة عموماً، يستوجب الحديث قبل ذلك - عن مفاهيم وعلاقات أخرى هي التي تقودنا إلى هذه العلاقة، إذ لا يمكن - في أي حال من الأحوال - أن نتجاوز مفهوم اللغة - ضمن هذا الطرح - باعتبارها الأساس الذي تركز عليه كلا المسألتين.

ولا يمكن من جهة أخرى، أن نتناول مفهوم اللغة نفسها بعيداً عن علاقتها بالكينونة *Etre* "وجود الإنسان في العالم"، أو أن نتحدث عنها بعيداً عن العلاقة الرابطة بينها وبين الرمز بكل أشكاله المتنوعة، كالإستعارة *Métaphore* والكناية *Metonymy* والمجاز... في ارتباط هذه المفاهيم كلها بمفهوم العلامة *Sign*، وسيرورة السيميوزيس، وما يهذب هذه السيرورة *Process* بما يعرف بالطويك. هذا الأخير الذي يقف وسطاً بين انفتاح التدلّال وانغلاقه، عبر فعل الانتقاء *selection* الذي يتكئ على ما تبيحه الموسوعة الثقافية والإرث الإنساني المشترك، ضمن رؤية أنطولوجية، سميائية.

أولاً: اللغة والكينونة:

لقد عُولِجَت مسألة اللغة في علاقتها بالوجود؛ من وجهة نظر أنطولوجية مع الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر *Heidegger* **** ثم مع تلميذه، هانز جورج غادمر *Gadmer* ****، ولكي نفهم

والفلسفي، كما أنه هو من أسس النظرية السميائية، واعتبرها جزءاً لا ينفصل عن المنطق، من أشهر كتاباته: كيف نجعل أفكارنا واضحة، دراسات في المنطق... (ينظر، جون ليتشه، خمسون مفكراً أساسياً معاصراً من البنيوية إلى مابعد الحداثة، 2008، صفحة 299).

*** إيكو (1932-2016): ناقد وروائي وفيلسوف إيطالي، درس فلسفة وأدب القرون الوسطى بجامعة تورينو، تحصل على دكتوراه في الفلسفة سنة (1954)، عمل محرراً ثقافياً بالتلفزيون والإذاعة الفرنسية، اهتم بالثقافة الموجهة للجماهير، وانكب في صياغة نظرية متماسكة في السميائية، من أشهر مؤلفاته: نظرية في السميائيات، السميائية وفلسفة اللغة... ومن أشهر رواياته: إسم الورد (ينظر، جون ليتشه، خمسون مفكراً أساسياً معاصراً من البنيوية إلى مابعد الحداثة، 2008، صفحة 262).

*** هايدغر: (1889-1976)، فيلسوف ألماني، وتلميذ هسرل، درس في جامعة فرايبورغ، وأصبح أستاذاً بها عام (1928)، وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود والكينونة والتقنية والحرية والحقيقة، تميز بتأثيره الكبير على

اللغة ضمن هذه الرؤية، لا بد أولاً من فهم مصطلح العالم Design عند كليهما. إن العالم كما يرى هايدغر "لا يعني البيئة التي نعيش فيها بالمعنى الموضوعي للبيئة، أي العالم كما يبدو للنظرة العالمية، بل هو أقرب إلى ما يمكن تسميته عالماً الشخصي" (عادل مصطفى، صفحة 226).

هذا العالم الشخصي؛ هو عالم اللغة الذي يشكل كينونة الإنسان، فباللغة نعيد تشكيل الأشياء وخلقها من جديد عبر فعل الترميز، ذلك أن اللغة كما يرى غادمير "هي الأثر الخالص لمنتجانا، إنها تتجاوزنا باستمرار" (هانز جورج غادمير، صفحة 102) لأنها أكبر من أن يحاط بها، إنها «بيت الوجود الذي يسكنه الكائن»، فاللغة ليست تعبيراً أو ظهوراً للإنسان، بل هي ظهور وتجلي للوجود عبر هذا الإنسان فهو "لا يتكلم اللغة، وإنما هي من يتكلم عبره، والحقيقة ليست فيما يقول بل فيما تقول هي" (عبد الغني بارة، 2008، صفحة 11)، وما دامت اللغة هي التي نتكلم عبر الإنسان، فإن هذا الإنسان هو كائن لغوي مثله مثل الأشياء التي تعيد اللغة خلقها داخلها.

مما يعني أن كينونته ووجوده هو وجود داخل اللغة لا خارجها، "فالكائن يبقى كينونة لغوية مخلّقة، وغير مخلّقة، وبما أن اللغة هي شكل من أشكال هذا الوجود، فإن الإنسان بها يتحول من كائنه الإنساني إلى كائنه الكلامي الإبداعي، وكذلك الأشياء، فإنها داخل عالم اللغة/ الوجود، تتخلى عن معانيها الأولى التي كانت تحملها في عالم الأشياء؛ لتحوّل إلى كائنات لغوية لا تعمل خارج هذا الوجود اللغوي" (هانز، صفحة 102). إذن، فالعالم من هذا المعطى هو عالم اللغة لا عالم الأشياء، هو عالم الترميز خلقاً من بعد خلق، وسيرورة لإرساء الدلالات، والفهم، والمعارف، والأفكار، والتأويلات.

إن اللغة وثيقة الصلة بتفكيرنا، إنها تأويل لغوي لوجودنا، وهذا ما يؤكد غادمير "إن التأويل اللغوي للعالم يتحكم في مجمل تفكيرنا، ومعرفتنا، والتسلسل إلى خبايا هذا التأويل. بمعنى أننا نكبر داخل هذا العالم" (بنكراد، 2012، صفحة 11)، ونُخلق به وفيه ومعه.

المدارس الفلسفية المعاصرة من أهمها: الوجودية والتأويلات، التفكيكية، ومن أشهر كتبه: الوجود والزمان، دروب موصدة، في ماهية الحرية... (ينظر www.goodreads.com).

**** غادمير (1900-2002): فيلسوف ألماني شهير، وأستاذ كرسي الفلسفة، درس في جامعة برينسلاو، وماربورغ، وميوج، هو تلميذ بول ناثروب، ومارتن هايدغر، تأثر بالمنهج الديكارتي في تأويله الإستمولوجي، كما تأثر بالمنحى الأنطولوجي والفني والفلسفي لسرل وهايدغر الذي جعله يستقل عن صرامة المنهج الديكارتي، من أهم إصداراته: الحقيقة والمنهج، طرق هايدغر، مشكلة الوعي التاريخي (ينظر، محمد شوقي الزين في تقديمه لكاتب غادمير، فلسفة التأويل الأصول والمبادئ والأهداف، 2006، صفحة 10 وما بعدها) (وينظر أيضاً، نبذة عن غادمير)

ثانياً: التأويل والرمز:

من خلال علاقة اللغة بالكينونة، ومن خلال فكرة أن الإنسان يسكن داخل اللغة لا خارجها، نطلق لتبيين العلاقة الوثيقة التي تربط الإنسان واللغة، والرمز، والتأويل، فيما بينها وموقعها في الحياة الإنسانية، ارتكازاً على خلفية أنطولوجية، وسميائية تأويلية .

فعن موقع الرمز في الحياة الإنسانية Human life؛ نجد أن "الظواهر دالة من خلال موقعها الرمزي في الوعي الإنساني لا خارجه، لقد تعلمت هذه الظواهر، أو علمها الإنسان؛ قول أشياء أخرى غير ما يحيل عليها مظهرها المادي، وهي بداية تشير إلى قوة الحضور الرمزي في تفاصيل الحياة الإنسانية" (بنكراد، 2012، صفحة 11)، فالوجود الحقيقي للظواهر والأشياء، هو ذلك الذي تصوغه اللغة، وتصنعه عن طريق التسمية وتعريف الشيء؛ أو من خلال تصنيف انتماء هذا الشيء؛ أو من خلال الإحالات الدلالية المضافة.

وهو ما يعني أن المعاني "ليست موجودة فيما تكشف عنه الأشياء التي نرى ونتأمل، بل مودعة في النماذج التي تتوسط ما هو متحقق لحظة انبثاقه من التسنين من حيث التسمية (تعريف الشيء)، أو من حيث الانتماء إلى قسم بعينه (....) أو من حيث إحالته الدلالية المضافة (الاستعمالات الإستعارية)" (بول ريكور، 2006، صفحة 90)، إذ أن المعاني Meanings _ من خلال هذا التصور _ هي عبارة عن معنى حرفي، ومعنى مزدوج، أو هي عبارة عن معنى ظاهر، ومعنى خفي يضاف عبر الاستعمالات الإستعارية التي تحيل إليه من بعيد .

كذلك يؤكد الفيلسوف الفرنسي بول ريكور Ricoeur* على أن الاستعارة Metaphor ليست تسمية للأشياء؛ أو مجرد تعريف لها، بل هي إضافة دلالية "فالاستعارة تهتم بحكم دلالة الجملة، قبل أن تهتم بعلم دلالة الكلمة المفردة، وما دامت الاستعارة لا تحض بالمعزى إلا في القول، فهي إذا ظاهرة إسناد، لا تسمية" (بول ، 2006، صفحة 90).

* ريكور: (1913_2005)، من أهم الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين، من عائلة بروتستانتية محافظة، درس الفلسفة بجامعة السربون الفرنسية، تعلم الألمانية وأطلع على كتابات فلاسفتها، تتوضع فلسفته في نقطة تقاطع بين تيارات فلسفية أهمها: الفلسفة التأملية الفرنسية، والفلسفة التحليلية الأنجلوساكسونية.. تركت هذه التيارات بصماتها في فكره فدفعته للتأمل في قضية الذات، من أهم إصداراته: الذات عينها كآخرة، الذاكرة والتاريخ والنسيان، فلسفة الإرادة، من النص إلى الفعل.... (ينظر حسين خمري في تقديمه لكاتب، بول ريكور، عن الترجمة، العربية للعلوم ناشرون، (لبنان)، منشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط(1)، 2008، ص7 وما بعدها).

وما دامت كذلك، فإنها أساس يقوم عليه التأويل، ذلك أن ريكور يعرفها على أنها "حاصل التوتر بين مفردتين في قول إستعاري" (بول ، 2006 ، صفحة 90) أي أنها (الإستعارة) نتيجة لصراع دلالي بين مفردتين متعارضتين، حيث يضيف ريكور موضحاً ما يقصده تحديداً بهذا التوتر Tension أنه "في حقيقته توتر بين تأويلين متعارضين للقول. والصراع بين هذين التأويلين هو الذي يغذي الإستعارة." (بنكراد، 2012 ، صفحة 12) مما يعني أن هذا التوتر Tension بين تأويلين هو شرط أساسي لقيام الإستعارة .

ليس التأويل هو وحده يمثل أساساً لوجود الاستعارة، بل إن هذه الأخيرة هي أيضاً تمثل ضرورة ومبرراً لقيام التأويل، كونها- كما أشرنا مع ريكور قبل قليل- الإستعارة ليست تسمية بل هي إسناد وإضافة؛ أو هي ذلك المعنى الثاني الذي تحيل عليه هي بنفسها، متجاوزة المعنى الحرفي للجملة؛ عبر ما تخلفه من حدود غير مألوفة، وهذه الحدود غير المألوفة هي التي من أجلها يُقام التأويل، إن "التأويل باعتباره أداة تمكننا من التعرف على المناطق في ذواتنا وفي الطبيعة؛ لا يمكن أن يستقيم وجودها من خلال حدود مألوفة" (بنكراد ، 2012 ، صفحة 11)، أي أنه لا يمكن للتأويل أن يُستدعى من قبل نص واضح، وصریح، غير منزاح عن معناه الحرفي لمعاني أخرى. فهمة التأويل هي البحث في الغامض والخفي والمتستر، لا في الظاهر المتكشّف.

من خلال ما سبق، يمكن القول؛ إن كلاً من الإستعارة وكذا التأويل مكملان لبعضهما البعض، فلا وجود للإستعارة دون وجود صراع Conflict بين تأويلين متعارضين للقول، والتأويل بدوره لا يمكن أن يوجد دون أن يكون هناك استعمال إستعاري يأخذ بالقول إلى إحالات Références، وتعبيرات، ومعاني منزاحة عن أصلها ومعناها الظاهر .

ثالثاً: التأويل والحياة الإنسانية:

إن موقع التأويل في حياة الإنسان، موقع هام وضروري، وليس مجرد إثارة للمخيلة، أو أنه يجري بلا غاية أو هدف، إنما التأويل وثيق الصلة بالإنسان وحالات التواصل لديه، إنه حاجة need تتطلبها الحياة، ذلك أن التأويل لا يشير إلى دلالات عرضية لا تلعب أي دور في التبادل الاجتماعي، أو في حالات التواصل الفني. إنه على العكس من ذلك، ضرورة فرضها "التباعد الزمني"، وفرضتها "الغربة الثقافية"، كما فرضتها "الاستعمالات المتعددة" للغة" (بنكراد، 2012 ، صفحة 83) فالتأويل إذن، ضرورة فرضتها الحاجات الإنسانية، منها ما يتعلق بالمسافة Distance الزمنية؛ أو تلك الفجوة بين الزمن الماضي والزمن الحاضر، بين أفق النص وأفق القارئ.

ومنها ما يتعلق بالغرابة الثقافية Cultural alienation القائمة بين النصوص وبين الشعوب، إذ لا يمكننا في عملية الترجمة- أن نتخلى عن الفعل التأويلي، ونعتمد الترجمة الحرفية التي لا تزيد هذه الغرابة إلا غرابة وغرابة وخيانة، إن التأويل في هذا السياق؛ هو المسؤول عن تحيين وترهين وتوطين النص ضمن ثقافته ولغته الجديدة .

ومن هذه الضرورة التأويلية أيضا، ما يتعلق باللغة في حد ذاتها، ولكل لغة خصائص تقطيع Articulation خاصة، وكل لغة من طبيعتها التعدد والتنوع في إحالاتها الدلالية، وفي استعمالاتها المختلفة؛ كالرمز والاستعارة، والكتابة، والجاز، والتشبيه ... وكذا أساليبها الممزوجة بين التعبير المباشر بالمعنى الحرفي التقريري، وبين التعبير غير المباشر والتخييلي.

إن هذه الأساليب والاستعمالات المتعددة؛ هي ما تجعل معنى النص غامضا ومتخفيا، يثير في الإنسان الرغبة Désir في البحث عنه، ولا يجد سبيلا إلى ذلك إلا بقيامه بفعل التأويل، وهذا الأخير هو "جزء من رغبة الإنسان في الوصول إلى مطلق في اللذة والخلود في المعاني" (بنكراد، 2012، صفحة 83) إن البحث عن المعاني متأصل عنده، إنه جزء من كينونته، وبعد مركزي فيها . لقد كانت هذه المعاني صيغا رمزية لوجود عيني، لا يمكن أن يفهم خارج ممتلكاتها." (بنكراد، 2012، صفحة 12)

إن المعنى التقريري أو التعيين المباشر- أو ما يشكل مجرد تسمية وتعريف للشيء أو للظاهرة- قاصر، حيث إنه "لا يشكل سوى حالات استثنائية، تحيل على أكثر المناطق فقرا في الوجود الإنساني، ولو لم يكن الأمر كذلك؛ لما احتاج الإنسان إلى بلورة الرموز واكتشاف لغة شعرية، تساعد الذات على الانفتاح على ما هو أبعد مما يمكن أن تحيل عليه التجربة المشتركة" (بنكراد، 2012، صفحة 54). ثم يستدرك بتأكيد أن هذا المعنى التقريري هو "جزء من نظام رمزي، يعبر عن شكل من أشكال الحضور في الواقع" (بنكراد، 2012، صفحة 54)،

ونشير هنا، إلى رؤية ريكور- في هذا السياق- حيث يرى أنه لكي نبث عن مضمون الاستعارة، وفك شفراتها- إن صح التعبير- فإنه لا بد من تأويل القول حرفيا، فهو البوابة التي من خلالها نلج إلى المعاني الأخرى التي تعبر عنها الاستعارات؛ يقول ريكور أن "مناورة الخطاب التي يكتسب بها القول الإستعاري نتيجته هي المجافاة، Obsurdity، ولا تنكشف هذه المجافاة إلا بمحاولة تأويل القول حرفيا . فالصلاة ليست زرقاء، إذا كان الأزرق لونا، والأحزان ليست غطاء، إذا كان الغطاء كساء مصنوعا من قماش" (بول، 2006، صفحة 90). فالمعنى الحرفي أو التقريري هو بوابة للولوج إلى عوالم المعاني وأسرارها .

رابعا: التأويل والموسوعة:

إن التأويل و الإستعارة- كما كما قد أشرنا سابقا- مفهومان متلازمان، فالتأويل نوعان كما يرى ريكور، تأويل حرفي وتأويل مجازي، هما عبارة عن توتر بين الألفاظ يخلق تناقضا، وهو ما يُمكننا من القول إننا أمام الاستعارة، "وهكذا فالاستعارة لا توجد في ذاتها، بل في التأويل ومن خلاله، ويُفترض التأويل الحرفي الذي لا يفك نفسه في تناقض دال" (بول، 2006، الصفحات 90-91). كما أن هذا التوتر، إضافة إلى خلقة التناقض بين "التأويلين الذين يكون أحدهما حرفيا والآخر مجازيا، يشير إلى مستوى الجملة الكاملة خلقا حقيقيا للمعنى" (بول، 2006، صفحة 93).

إن التأويل المجازي أو التأويل الإستعاري- كما يسميه أمبرتو إيكو- الذي يثير خلقا للمعنى، من أين ينبثق يا ترى؟ ما هي الطبيعة التي تفرضه وتتحكم فيه؟ يرى إيكو أن "التأويل الإستعاري ينبثق من التفاعل بين المؤول والنص، ولكن نتيجة هذا التأويل، تفرضها طبيعة النص وطبيعة الإطار العام للمعارف الموضوعية لثقافة ما" (أمبرتو إيكو، 2004، صفحة 160). إن هذا التأويل ليس مجرد تحريك للمخيلة، وإثارة لها، والذهاب بها إلى هنا وهناك؛ دون ضوابط وحدود تحدها، وتهذبها، وتوجهها. لذلك فالمؤول حينما يريد أن يؤول نصا ما، فهو لا يواجه هذا النص فحسب، بل يقف أمام عبقرية مؤلفه، وذاكرة الأمة التي ينتمي إليها. كما أن المؤول لا يؤول ما بنفسه، بل ما تبيحه الموسوعة الثقافية .

ترجع بلورة مفهوم الموسوعة Encyclopédie إلى أمبرتو إيكو، يقول في تعريفه لها: "تعتبر الموسوعة مسئلةً سميائية، لا بمعنى أنها ليست أيضا واقعا دلاليا، وإنما المجموعة المسجلة لجميع التأويلات، ويمكن تصورها موضوعيا على أنها مكتبة من المكتبات، حيث تكون المكتبة أيضا؛ أرشيفا لجميع المعلومات غير اللفظية التي تم تسجيلها، بطريقة من الطرق، من الرسوم الصخرية وصولا إلى مكتبات الأفلام" (أمبرتو، 2005، الصفحات 188-189)، إنها بمعنى آخر "بناء ثقافي يشتمل على كل عناصر المعرفة الخاصة بالإنسان ومحيطه، ولهذا السبب، فهي تبيّن وتحدد دائمين"، (بنكراد، 2010، صفحة 2) كما يسميها لنا سعيد بنكراد .

ونشير هنا أيضا، إلى العلاقة التي تربط عملية "القراءة والتأويل" بما يسمى الموسوعة، وذلك أنها هي من تحتضن النصوص وحدها، إنها "دالة على مجموعة المعارف البعيدة والقريبة التي يمكن أن يحيل عليها النص بشكل مباشر أو غير مباشر. إنها ذاكرة النص التي تسكن في اللغة وفي الأشياء المحال عليها حقيقة أو مجازا" (بنكراد، 2012، صفحة 106) أن هذه الموسوعة الدالة على مجموع المعارف البعيدة والقريبة؛ التي يحيل عليها النص متحولة وليست ثابتة، متحولة بتحول الزمن والفكر، وما يحدث من ثقافت وتبادل حضاري، وهي في الوقت نفسه تُعد مقياسا نقيس به انسياب المضامين وتحولاتها، "إن الموسوعة هي الذاكرة الثقافية الكبرى التي تبنى وتصاغ ضمنها المعاني، وهي الكوة التي نقيس من خلالها انسياب

الزمنية وتحولات مضامينها" (بنكراد، 2012، الصفحات 64-65)، إنها "ليست قارة بل متحولة داخل الزمن ومن خلاله، وهو ما يعني بعبارة أخرى، أننا لا يمكن أن نبنى حاضرا استنادا إلى نصوص مزيفة، فهذا أمر لا يمكن أن يستقيم داخل زمنية تبني على التراكم" (بنكراد، 2012، صفحة 65) وتبني على فكرة نسبية الحقائق وتغيرها وتحولها.

خامسا: الموسوعة والسميائيات التأويلية

إن من عوامل تحول الموسوعة في نظر مبلور هذا المفهوم- أمبرتو إيكو- هي عامل النشاط النصي والتأويلي على حد سواء . والذي يساهم في تغيير الموسوعة تدريجيا، وجعلها غير قابلة للوصف في كليتها، بل تبقى مجرد مسلمة أو فرضية Abduction، يقول في ذلك " وما يجعلها غير قابلة للوصف عوامل شتى من ذلك أن: سلسلة التأويلات غير محددة، وغير قابلة للتصنيف ماديا. ثم إن الموسوعة- باعتبارها كلية التأويلات- تتضمن أيضا تأويلات متناقضة، كما أن النشاط النصي الذي تقوم به- انطلاقا من الموسوعة وبالتصرف في تناقضاتها (....)- يغير مع مرور الزمن؛ الموسوعة" (إيكو، 2005، صفحة 189).

كذلك فإن المؤول -خاصة من وجهة نظر سميائية- إذا أراد تأويل نص ما، فهو ليس مضطرا لأن يعرف الموسوعة في كليتها- كما يرى إيكو- بل " يكفيه ذلك الجزء من الموسوعة الذي يلزمه لفهم ذلك النص" (إيكو، 2005، صفحة 198) . إن الخطاب- من وجهة نظر تأويلية السميائيات- هو " لحظة مميزة، أما الموسوعة فامتداد لا حد له" (بنكراد، 2012، صفحة 347)، مما يعني من وجهة أخرى، أن "الثقافة تبعا لذلك ليست مضمونا عاما، بل هي شكل من أشكال التقطيع غايته الكشف عن أنماط تحقق المضامين والنص من هذه الزاوية ليس سوى حالة من حالات تخصيص وضعيات تنزاح عن المشترك لتسريب المختلف والجديد والمنشوق." (بنكراد، 2012، الصفحات 348-349)

إن ذلك الجزء من الموسوعة الذي يأخذ به المؤول في محاولته لفهم نص ما- بحيث لا يمكنه الأخذ بالموسوعة في كليتها- هو ما توضحه سيرورة Processus التدلال (السميوزيس) sémiosis ، كما بلور حدودها الفيلسوف الأمريكي شارل سندررس بورس Peirce، وهي سيرورة تبدو من الجانب النظري إحالات دلالية لا متناهية، لكنها من الجانب العملي التطبيقي مستقرة استقرارا افتراضيا، بحيث يقوم المؤول أو القارئ اتجاه هذه السيرورة بعملية انتقاء Choix / Sélection لدلول من تلك المدلولات الأخرى الممكنة .

لقد بلور بورس حدود السميوزيس أو التدلال " في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ضمن رؤية سميائية شاملة للممارسة الإنسانية بكل أبعادها، ولغاتها، وهو مفهوم يدل على

السيرورة التي يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة، إنه مبدأ التحول من الشيء المادي إلى وجه فيه المجرد الدال على رمزية الوجود الإنساني" (بنكراد، صفحة 29).

فالعلامة بنائها الثلاثي، (ماثول Représentamen يحيل على موضوع Objet عبر مؤول (Interprétant)، هي أساس اشتغال السميوزيس، وهي منطلقات التدليل الأولى، "التي يمكن الإستناد إليها من أجل القيام بتنوع للمعاني، والذهاب بها في كل الاتجاهات: حالة أولى للتعين المباشر، وحالات تدليل لا متناه إن لم تجلب مدلولاً كلياً، فإنها طريقة أخرى للقول؛ إننا نخلق من خلال هذا التمثيل، وداخله سياقات جديدة، يحتل داخلها الشيء موقعا لا رابط بينه وبين موقعه داخل سياقها الأصلي، وهذا ما يبدو مبرر التأويل وأساسه" (بنكراد، 2012، صفحة 14). وما دامت العلامة هي لغة ورمز تعيد صياغة هذا الوجود وخلقته، بل وما دامت اللغة هي بيت الوجود الذي تسكنه الكائنات - حسب الرؤية الهايدغرية - فإن الموسوعة والثقافة والفكر أيضاً؛ كلها تسكن داخل اللغة.

فاللغة هي التي تقول الإنسان وتكلم عبره، من خلال الاستعمالات المتعددة لها، كالاستعارة والمجاز... وغيرها والتي تفصل العالم الذي تخلقه عن العالم الطبيعي، أو عالم الأشياء والظواهر، وهذا الفصل؛ أو الصورة التي تُحدثها الاستعمالات الإستعارية هي مبرر قيام التأويل. بل - هي "ما يجعل التأويل حاجة من الحاجات الإنسانية الأساسية" (بنكراد، 2012، صفحة 14)، تنبثق من داخل النص لا من خارجه .

سادساً: التأويل والسميوزيس:

يتضح أن السميائيات البورسية هي نظرية تأويلية بامتياز، ذلك أن العلامة في اشتغالها داخل السميوزيس، لا تقوم بالتمثيل لموضوعها في غياب الوسيط الذي يربطها بهذا الموضوع، وهو فعل التأويل أو المؤول بمستوياته الثلاثة.

وعلى هذا الأساس، فإن جوهر السميائيات، هو البحث عن المعنى وإنتاجه من خلال فعل السميوز، وجوهر السميوز، هو العلامة التي تشتغل داخل نسيجها، وجوهر العلامة هو، عناصرها الثلاثة، ماثول، موضوع، مؤول، وما يشكل جوهر العلاقة بين الماثول وموضوعه، هو المؤول . نلاحظ من خلال هذه المفاهيم المتعلقة، والتي تشكل قوام النظرية السميائية البورسية، أن المعنى لا يمكن أن نحصل عليه بسهولة، أو بمعنى آخر، ليس معطى جاهز، توفره معطيات النص فحسب، بل للشخص المؤول دور في إنتاج هذا المعنى .

فالمعنى يتشكل وتنتج دلالاته بالتدرج في شكل سيرورة، تخضع في نهاية المطاف إلى السياق الذي تُدرج فيه العلامة، وإلى السياق الثقافي للمؤول أيضاً. لقد "اتضح لنا أن نظرية بورس، تُقدم لنا

إسهاما فعليا في قراءة النصوص وتأويلها وإدراك ما أمامها وما خلفها، فلا يكفي القول أن النصوص بؤرة للدلالات، فالدلالات كثيرة ومتنوعة، إلا أنها تتمتع ولا تُسَلَّم نفسها لأول عابر سبيل" (بنكراد، 2012، صفحة 33).

إن الدلالة "أسرار، وكل سر يحيل إلى سر، وقد يكون السر الأخير سوى لحظة توهم الذات بأنها استقرت على دلالة بعينها" (بنكراد، 2012، صفحة 33)، "فالعلامة ليست تعيينا لأشياء فحسب، وليست إنتاجا لمعنى فحسب، إنها في المقام الأول؛ الأداة الرئيسية لتنظيم التجربة الواقعية، ومثولها أمامنا باعتبارها تجربة رمزية" (بنكراد، 2012، صفحة 70). لكن العلامة وإن كانت تفيدنا في إضافة معرفة جديدة؛ هذا لا يعني أن إحالتها لن نتوقف، وهذا ما يوضحه إيكو بقوله "إن العلامة هي حقا شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر، إلا أن قدرتي على معرفة شيء إضافي، لا يعني أنني لم أنته من إنجاز ما قمتُ به". (إيكو، 2004، صفحة 123).

تشكل السميوزيس - كما أشرنا سابقا - جوهر السميائيات التأويلية البورسية، فهي تعد سيرورة لإنتاج الدلالة، يلعب فيها التأويل دورا حاسما، ذلك أنها تشرك القارئ في إنتاج النص وكذا تلقيه. وتلقي النص وتأويله، مرتبط عند بورس بمقولة المؤول، العنصر الثالث من العلامة الذي يحرك دائما نسيج السميوز. إنه الوسيط بين العنصر الأول "الماثول" والعنصر الثاني "الموضوع". بحيث يشكل قانونا للربط بينهما، كما أن العلامة لا يمكن أن تقوم إذ انتفى هذا القانون "المؤول".

بالإضافة إلى ذلك، فإن المؤول هو مقولة "تحتل موقعا هاما داخل نظرية ممكنة للتأويل. فالتأويل ينبثق من حركة الإحالات التي تولدها العلامة، لكي ينتشر في كل الأفاق معانقا كل الحاجات التي تفرزها الممارسة الإنسانية. فكل حاجة من الحاجات الإنسانية تفترض تمييزا دلاليا يستجيب لمضامينها. فما التأويل - وفق هذه النظرة - سوى استجابة لتعدد هذه الحاجات وتنوعها" (بنكراد، صفحة 167).

لذلك غدت السميائيات عند بورس نظرية في التأويل، والتأويل في حقيقة الأمر يجري إلى غايات، بل إنه رغبة تتولد من داخل الإنسان نفسه. وما دامت السميوزيس "لا متناهية احتمالا"، "فحاجتنا إلى الاستقرار على معنى يريحنا من لهات قد لا يُجدي في شيء، أمر في غاية الأهمية" (بنكراد، صفحة 31). إن هذه الحاجات الإنسانية تُقلص من حجم السميوزيس اللامتناهية، وتفرض عليها حدودا من خلال فعل الانتقاء الذي يقوم به الشخص المؤول، أي انتقاء مدلول من بين مدلولات أو مؤولات كثيرة، وهذا المدلول المنتقى يسميه بورس بـ: "المؤول النهائي".

يمكن أن نلخص مفهوم السميوزيس، بما يختصره ذلك أحد الباحثين؛ بأنها "إنتاج العلامات وفهمها (أي تأويلها)، وتعني علاقة تربط بين العناصر الثلاثة: ماثول، موضوع، مؤول" (بنكراد، صفحة

(31)، إنها ذلك النشاط الذي يقوم به الشخص المؤول لإنتاج الدلالات، أو هي النسيج الذي يُشرك القارئ في إنتاجه وتلقيه في آن.

لقد تمثل إيكو مصطلح بورس، "السميوزيس"، ونفخ فيه دلالات جديدة تفتح آفاقا لا متناهية في فضاء التأويل، من خلال اصطناعه "السميوزيس اللامتناهية" التي يجب ألا تقودنا إلى القول بأن التأويل (باعتباره مظهرا رئيسيا للسميوزيس) قد يكون لا متناهيا، لا يعني غياب أي موضوع للتأويل، كما لا يمكن القول بأن هذا التأويل تائه بلا موضوع، ولا يهتم سوى بنفسه" (محمد العبد، 1999، صفحة 166). ولذلك كان من صميم اهتمامات إيكو أن "يقدم فرضية لزوم مبادئ التأويل، أساسها "السميوزيس الهرمسية" (sémiosis Hermitisme)، نسبة إلى هرمس Hermès " (العبد، 1999، صفحة 251). إنه يحاول وضع حدود لهذه السيرورة ويختصرها بمصطلح يسميه الطوبيك Topic .

إن ما ساء من التأويلات، نوعان؛ يمثّلان في التأويل الأحادي أو الواحد؛ والتأويل اللامتناهي. لذلك، يريد إيكو أن يثبت أن انفتاح السميوزيس البورسية في جانبها النظري إلى ما لا نهاية، لا يجب أن يقود إلى القول بعدم وجود تأويل نستقر عليه، أو غياب ضوابط وحدود تقلص من امتداده، "وقد حاولتُ (...) أن أبرهن على أن مقولة السميوزيس اللامتناهية يجب ألا تقودنا إلى القول بغياب قاعدة للتأويل فالقول بأن التأويل (باعتباره مظهرا رئيسا للسميوزيس)، قد يكون لا متناهيا، لا يعني غياب أي موضوع للتأويل، كما لا يمكن القول بأن هذا التأويل تائه، بلا موضوع ولا يهتم سوى بنفسه" (محمد العبد، 1999، صفحة 254). لذلك يقترح إيكو ما يسميه الطوبيك، وهو صيغة تقوم بهذيب السميوزيس، يحاول من خلالها أن يتجنب معرفة النقيض؛ أي ما يتعلق بالتأويل الواحد، والتأويل المضاعف. وسنتناول فيما يلي توضيح هذا المفهوم .

سابعاً: السميوزيس والطوبيك:

إن السميوزيس طابع مفتوح، لكن هذا الانفتاح إلى ما لا نهاية؛ يبقى حبيس الجانب النظري، لأنها من جانبها التطبيقي العملي تستقر في النهاية على مدلول من مجموعة مدلولات أخرى، بفعل الانتقاء الذي يقوم به المؤول النهائي، لذلك فإن الطوبيك جاء به إيكو إثباتا لذلك، ورداً على من اعتقد بأن السميوزيس لا حد لامتدادها، وردا على من اعتقد أيضا أن النص قراءة واحدة ووحيدة.

إن الطوبيك مرتبط ارتباطا وثيقا بالقارئ، بحيث تمثل مبادرة هذا الأخير - كما يذهب إلى ذلك إيكو- في "صياغته فرضية، انطلاقا من مقصد النص، ويتعين أن تقابل هذه الفرضية ومجموع النص، بوصفها واحدة عضوية. وليس معنى هذا أن النص لا يسمح إلا بفرضية واحدة ووحيدة، بل معناه بكل بساطة، أن كل تخمين يجب أن يُحصّص - في نهاية المطاف- انطلاقا من توافقه مع انسجام

النص الذي يقصي بعض الفرضيات الاحتياطية" (إيكو، 2004، صفحة 21). والنص من هذه الزاوية مجموعة من التخمينات يفرضها القارئ بعد اطلاعه على النص.

ويتوضح مفهوم الطوبيك - حين يعرفه إيكو - بأنه "فرضية مرتبطة بالقارئ الذي يقوم بصياغتها بطريقة بسيطة على شكل أسئلة من نوع ؛ ماذا يريد النص قوله؟ لتترجم في أجوبة من نوع؛ ربما يتعلق الأمر بالقضية الفلانية. ويعد من هذه الزاوية؛ أداة سابقة على النص، ولا يقوم النص إلا باقتراضها، إما ضمناً، وإما بالإشارة إليها صراحة، من خلال مؤشرات مثل العنوان؛ أو العناوين الفرعية؛ أو من خلال الكلمات المفتاح" (بنكراد، صفحة د،ص). ومن ثم، فهي فرضية من صنع النص والقارئ معاً. إنها تصور مسبق يفترض البدايات التي تحيل على سيرورة من الدلالات، والتأويلات، ثم يتم الانتقاء السياقي، بغية الوصول إلى نقطة دلالية بعينها دون أخرى.

ذلك أن، "كل قراءة يحكمها تصور مسبق على شكل إرهابات أولية مبهمة، -يحدد التخمينات المقبولة - وتحكمها من جهة ثانية، غاية تهدف إلى الوصول إلى نقطة دلالية بعينها، ضمن سيرورة تأويلية محددة بسياق خاص" (بنكراد، صفحة د،ص)، وهنا نستحضر ما تحدث عنه بورس عن المؤول النهائي الذي يتم انتقاؤه، من بين المؤولات التي يتم الإحالة عليها، بفعل سيرورة السميوز، ولا يتم فعل الانتقاء، ما لم يحدد السياق.

والانتقاء السياقي، هو عبارة عن شروط يبنى من خلالها النص، ويعاد إنتاجه وقراءته. وتمثل هذه الشروط في "الإحالة المباشرة على عناصره، الإحالة على ما يقترحه الاختيار التأويلي، الإحالة التي تعود إلى تحيين ممكّات دلالية، واستبعاد أخرى ضمن نفس الواقعة، وهذه الإحالات هي ما يشكل محيطه، وما يشكل سياقاته، وشروط إنتاجه، وقراءته أيضاً، فكل هذه القواعد تساهم في بلورة كون دلالي منسجم؛ يصاغ انطلاقاً من إعادة تنظيم عناصر تنتمي إلى عالم يعج بالممكّات المتنوعة التي تصل إلى حد التناقض أحياناً" (سعيد بنكراد، صفحة د،ص) .

مما يعني؛ أن فرضية الطوبيك تهدف إلى تهذيب السميوزيس - كما قد أشرنا من قبل - كما تسعى إلى خلق تنظيم، وانسجام دلالي، ولكنه انسجام يختلف تماماً عن الانسجام الذي قامت به البنيوية، فهذه الأخيرة، تبحث عن معنى كلي حقيقي بمعناه الحرفي، عكس ذلك السميائيات التأويلية - عند بورس، ومن بعده إيكو - لا تميل إلى المباشر والأحادي، بقدر ما تميل إلى الاحتمال، والتعدد، ثم الانتقاء. فالطوبيك الذي يقترحه إيكو "لا ينهض (....) على مصداقية القراءات، وصحتها، فتلك مسألة من طبيعة أخرى، وإنما على الطابع المنظم للفعل التأويلي؛ أي تنظيم الدلالة في مسيرات تأويلية" (بنكراد، صفحة د،ص).

إن كل قراءة تمارسها للنص، هي خلق لسياقات؛ أي خلق لإحالات متعددة، هي ما تمثل سيرورة السميوز، وكل انتقاء لسياق، ليس سوى تطبيق لما اقترحه إيكو أي؛ "فرضية الطويك" التي تنظم وتهذب هذه السيرورة، وبدون هذا الانتقاء السياقي تظل السميوزيس لا متناهية. "فهي تغلق في كل لحظة ولا تغلق أبداً، ذلك أن نسق الأنساق السميائية- الذي يبدو بشكل مثالي، ككون ثقافي مفصول عن الواقع- يقود في الحقيقة إلى الفعل في العالم لتغييره. إلا أن كل فعل تغييري يتحول بدوره إلى علامة، تعلن عن ميلاد سيرورة سميوزيسية جديدة" (بنكراد، صفحة د،ص). بمعنى آخر، كل قراءة تشكل نهاية للفرضية السابقة على النص، والمنسجمة في آن، أي قراءة نهائية داخل سياقها المنتقى، لكنها داخل نسج السميوزيس - بعيداً عن أي انتقاء - هي احتمال، واقتراض، وإحالة من بين إحالات، وقراءات أخرى ممكنة، لا حد لامتداداتها، ولا يمكن لها أن تغلق أبداً.

فالتأويل - من خلال تهذيب السميوز بالطويك- يقف موازناً بين تأويلين: تأويل مضاعف وتأويل أحادي؛ أو يقف بين انتقال التدلّال وبين انغلاقه. فالتأويل في السميائيات التأويلية ليس منفتحاً إلى ما لا نهاية، كما تصورت التفكيكية، وليس منغلقاً على ذاته، كما تصوت البنيوية، ومن بعدها سميائيات غريماس فيما يتعلق بمفهوم "التناظر".

لذلك، يتجلى دور القارئ مع السميائيات التأويلية، فيما يُمكننا من إنتاج معرفة وثقافة ما، حيث يشكل "الأداة التي تستطيع بواسطتها، تنشيط مجمل الدلالات التي لا يمكن أن تنبعث من وعي النص، إلا إذا تفاعلت مع وعي المتلقي"، ومن ثمة، يمكن التنبيه على أن لأمبرتو إيكو؛ الدور الكبير في إبراز وتوضيح تأويلية السميائيات، وكذلك في وقوفه ضد القراءات المفتوحة إلى ما لا نهاية، لأنها في نظره ليست تأويلات مشروعة، ويُدرجها ضمن ما يسميه "باستعمال النصوص". فكل قراءة تنطلق لأهداف وغايات إيديولوجية، سياسية كانت أو دينية، أو حتى القراءات التفكيكية- التي تقوم على إثارة للمخيلة فتفتح متاهة تأويلية لا نهاية لها ولفوضاها- كلها قراءات تُصنف ضمن استعمال النصوص، لا ضمن التأويل الحقيقي.

ثامناً: التأويل والاستعمال

وخير مثال نضربه عن ظاهرة "استعمال النصوص" هو "الثقافة الدينية الإسلامية"، التي كثرت فيها الطوائف والجماعات والأحزاب. إن التأويل بوصفه حاجة إنسانية، فإن هذه الصفة هي ما تميزه عن ما يسمى بـ "الاستعمال"، لذلك يوضح لنا بنكراد هذا الفرق بينهما، فالتأويل هو حاجة داخلية تنبعث من داخل النص، بمعنى آخر هو "كشف عن طاقة دلالية داخلية مَهْدُها عناصر التعبير ذاته، أما الاستعمال الحرّ، فهو إثارة للمخيلة أو هو قراءة مرتبطة بإستراتيجية أخرى إيديولوجية، سياسية، ودينية

لا علاقة لها بالمقاصد التي يمكن أن تشتمل عليها الوقائع." (بنكراد، 2012، صفحة 14) ثم يواصل الحديث عما يرتبط به الاستعمال "يرتبط الاستعمال بمصلحة خارجية، تدخل ضمنها كل القراءات التي تحيل على "قاعدة الفعل"، كما هو الشأن مع النصوص الدينية، أو ما تقتضيه نصوص تعتمد أطروحة قبلية لبناء عوالمها." (بنكراد، 2012، الصفحات 14-15) لاسيما تلك التي نتاجر بالدين وبالنص القرآني من أجل مصالح سياسية. بمعنى آخر، يأتون بتأويلات مسبقة خارج النص ثم يسقطونها عليه، فيؤولون النصوص حسب ما يتماشى مع أهوائهم، وشعاراتهم، وأهدافهم الشخصية، وانتماءاتهم الحزبية .

ومن ثمة، فإن التأويل بعيد عن كل مصلحة خارجية، إيديولوجية كانت أو سياسية أو دينية، بل هو - على العكس من ذلك - ضرورة إنسانية، وحاجة داخلية "منبعثة من الوقائع ذاتها، وكل مدلول يتم انتقاؤه ليس سوى شحنة انفعالية، يمكن استبدالها بشحنة أخرى؛ ستأتي بها سيرورات تأويلية لاحقة" (بنكراد، 2012، صفحة 15) ففهوم التأويل هذا (كحاجة داخلية)، إنما يتجسد؛ أو يمارس ضمن السيميائيات التأويلية في تصورات بورس على الأقل.

فهذه الحاجة الداخلية؛ هي مصدر الإحالات المتتالية، فسيرورة السميوزيس أو سيرورة العلامات، وإحالاتها اللامتناهية، لها ما يبررها في الوجود الإنساني، هذا الأخير؛ هو مجموعة من التناقضات، لكنها متعاقبة ومتراصة في شكل سلسلة، "فبإمكاننا إقامة روابط بين كل مناطق هذا الوجود، استنادا إلى التسلسل العلائقي، القائم على الربط المتتالي بين كل العناصر التي تسكنها الانفعالات الإنسانية، وهي الفكرة التي يدرجها بورس ضمن مبدأ الامتداد، (كل ما في الوجود يشكل وحدة، ويشير في الوقت ذاته إلى هشاشة الفكر ونقصانه" (بنكراد، 2012، صفحة 15). فالنص كما يعتبره بنكراد؛ هو حالة مفترضة، لا تتحقق إلا بفعل تأويلي، يجسد جل أو بعض المدلولات المتسلسلة "التي لا تحيل على بعضها البعض، ضمن نسق وأساق تفسر نفسها بنفسها، دونما اعتبار لما يوجد خارجها، وأمر ذلك يتبين في نمط الوجود ذاته، فنحن نفكر بالعلامات وداخلها" (بنكراد، 2012، صفحة 16).

والأمر الثاني، الذي يمثل مبرر هذا الترابط اللامتناهي من العلامات؛ هو "المعرفة والفكر". ذلك أن المعرفة هي بناء رمزي يقوم به الذهن، وكذلك حالات القلق التي تنتاب الإنسان، كلها تأتي وتنبثق من التصورات التي يملكها عن الأشياء، وليس القلق على الأشياء ذاتها. فلا أمل إذًا، في توقف هذه السيرورة العلاماتية عند مدلول نهائي كلي، وإن توقفت عند مدلول فإنه مجرد مدلول مفترض من عدة مدلولات أخرى ممكنة، تم انتقاؤه لكنه لا يمثل المدلول النهائي، "فالمعرفة في نهاية الأمر، هي بناء رمزي يقوم به الذهن، وليست امتلاكًا فعليًا لواقع ممتد إلى ما لانهاية". (بنكراد، 2012، صفحة 16)

ومما سبق، يمكن القول؛ أن الرمز، و التأويل، و المعرفة، كلها حاجات إنسانية وضرورات ثقافية، ذلك أن الثقافة بدورها " إنسانية، إنها هي التي منحت الإنسان إنسانيته، فإن خصائص الإنسان هي قدرته على استعمال الرموز، وبالتالي فإن هذه الرموز هي خاصية أساسية في تكوين الثقافة. فطرق التصرف التي يتعلمها الإنسان، والتي يدخل في تكوينها - خلال عدد كبير من الأجيال- لا يمكن أن يُحقَّقَ تجمُّعها، إلا عن طريق خلق واستخدام الرموز" (محمد يشوتي، صفحة 5) إن الإنسان باللغة واستعمالاتها المتعددة، يستطيع خلق عوالم دلالية، ويضيف على المعرفة معارف أخرى، عبر الإبداع، والكتابة، والتأويل على حد سواء. مما يوسع من دائرة الموسوعة، ويحولها، كما يوسع من دائرة التأويل، والفكر، والثقافة. لذلك، فإن العلاقة وطيدة بين اللغة، والإنسان، و الكينونة، والثقافة، والرمز، ويشكل التأويل واللغة والرمز، ضرورة أساسية في الحياة الإنسانية.

خاتمة:

من خلال كل ما سبق يمكن القول:

- إن الحديث عن علاقة السميائيات التأويلية بالموسوعة أو الإرث الإنساني المشترك يقتضي البحث في علاقة التأويل بالثقافة أولاً؛ وهذه الأخيرة تستدعي - قبل ذلك- الحديث عن مفاهيم و علاقات أخرى هي التي تقودنا إلى هته العلاقة، إذ لا يمكن أن نتجاوز مفهوم اللغة -ضمن هذا الطرح- باعتبارها الأساس الذي تركز عليه كلا المسألتين . ولا يمكن من جهة أخرى، أن نتناول مفهوم اللغة نفسها بعيداً عن علاقتها بالكينونة Etre، و الرمز بكل أشكاله المتنوعة، كالاستعارة Métaphore والكتابة والمجاز... في ارتباط هذه المفاهيم كلها بمفهوم العلامة Sign أولاً، وسيرورة السميوزيس ثانياً؛ وما يهذب هذه السيرورة (الطوبيك)-ثالثاً .

- فاللغة إذن، هي البوابة التي من خلالها نلج لمختلف العلائق، بها يستطيع الإنسان خلق عوالم دلالية، ويضيف على المعرفة معارف أخرى، عبر أداة الإبداع والكتابة والتأويل على حد سواء . مما يوسع من دائرة الموسوعة، ويحولها، كما يوسع من دائرة التأويل والفكر والثقافة. لذلك فإن العلاقة وطيدة بين اللغة والإنسان و الكينونة والثقافة والرمز، ويشكل التأويل واللغة والرمز ضرورة أساسية في الحياة الإنسانية.

- إن الرؤية الرمزية للأشياء تعد أمراً ضرورياً، كونها مطلباً عزيزاً على القارئ، حيث تستفزه وتثير فيه تساؤلات كثيرة، ورغبة ملحة في البحث عما هو متخفي ومتواري، وذلك عبر ممارسته لفعل التأويل، فالتأويل على هذا الأساس مرهون في قيامه على الاستعمالات الإستعارية المتعددة للغة. فالعلاقة "ضرورية" إذن بين الرمز والتأويل، تُحيل على علاقة الإنسان بالموسوعة الثقافية التي ينتمي إليها،

مبدعا كان أو قارئاً على حد سواء. وقد تمتد الإحالة إلى الإرث الإنساني المشترك والكويني، على اعتبار أن اللغة هي "بيت الوجود الذي يسكنه الكائن".

- لا يمكن للتأويل أن يُستدعى من قبل نص واضح، وصريح، غير منزاح عن معناه الحرفي لمعاني أخرى، فهمة التأويل هي البحث في الغامض والخفي والمتستر، لا في الظاهر المتكشّف. لذلك - ليس التأويل هو وحده يمثل أساساً لوجود الاستعارة، بل إن هذه الأخيرة هي أيضاً تمثل ضرورة ومبرراً كبيراً لقيام التأويل. إن التأويل إذن، ضرورة فرضتها الحاجات الإنسانية المتعددة، منها ما يتعلق بالمسافة Distance الزمنية؛ ومنها ما يتعلق بالغربة الثقافية القائمة بين النصوص وبين الشعوب، إضافة إلى ما يتعلق باللغة في حد ذاتها، فلكل لغة خصائص تقطيع Articulation خاصة، وطبيعة كل لغة التعدد والتنوع في إحالاتها الدلالية، وفي استعمالاتها المختلفة؛ الممزوجة بين التعبير المباشر والتخييلي.

- إن هذه الأساليب والاستعمالات المتعددة؛ هي ما تجعل معنى النص غامضاً ومتخفياً، يثير في الإنسان الرغبة Désir في البحث عنه، ولا يجد سبيلاً إلى ذلك إلا بقيامه بفعل التأويل. وكذلك هي المعرفة والثقافة إنهما إنسانيتين أيضاً لأنهما تكونتا عبر خاصية الترميز بحيث منحنا الإنسان إنسانيته، أي منحناه القدرة على استخدام الرموز. ومنه يعد التأويل الذي تقع تحت مضلته كل هذه الحاجات والضرورات - على هذا الأساس - ضرورة كبرى، ملحة، فرضتها هذه الحاجات الإنسانية المختلفة مجتمعة. - تعد الموسوعة الذاكرة الثقافية الكبرى، والنقطة الرابطة بين القراءة والتأويل، وهي تمثل ذاكرة النص ومجموعة المعارف التي تسكن اللغة، وتحميل عليها بشكل مباشر أو غير مباشر، في شكل سيرورة لا متناهية، ومادامت خصائص المعارف متحولة فإن الموسوعة بالضرورة متحولة وليست ثابتة، متحولة بفعل تحول الزمن والفكر والمعرفة، وبفعل الثقافة الحضاري، والقراءة والتأويل. والموسوعة إضافة إلى كونها مجموعة معارف تمتاز بخاصية التحول هي في الوقت ذاته تعد المقياس الذي نقيس به درجة هذا التحول.

- تعد السميوزيس هي جوهر السميائيات التأويلية، وبما أنها كذلك، فإنها تعد خزاناً مختلف المعاني الإنسانية، إنها سيرورة لإنتاج الدلالة، في شكل سلسلة تدليلية ذات طابع مفتوح، ولانهائي، وذلك على المستوى النظري، لكنها على المستوى التطبيقي، بإمكانها أن تستقر مؤقتاً على مدلول مفترض من عدة مدلولات أخرى ممكنة تم انتقاؤه لكنه لا يمثل المدلول النهائي؛ إنها تستقر من خلال فعل الانتقاء لسياق من مجموعة سياقات وإحالات متعددة، نثار كل ما مارسنا القراءة، وكل انتقاء لسياق، ليس سوى تطبيقاً لفرضية الطوبيك التي تنظم وتهذب هذه السيرورة، وبدون هذا الانتقاء السياقي تظل السميوزيس لا متناهية.

ـ فالطوبيك يعد باختصار هو تنظيم للفعل التأويلي، أي أن فعل الانتقاء هو قراءة واحتمال وفرضية سماها إيكو بالطوبيك، جاء بها إثباتا لاحتمالية ونسبية الحقائق وتعددتها، ورداً على من اعتقد بأن السميوزيس لا حد لامتدادها من جهة، وعلى من اعتقد كذلك أن النص قراءة واحدة ووحيدة. إن الطوبيك هو الذي ينظم ويهذب السيرورة، ويخلق انسجاما دلاليا، لكن هذا الانسجام يختلف كلياً عن الانسجام الذي تقوم عليه البنيوية، لأن غايته ليس البحث عن معنى أحادي كلي أو معنى حرفي حقيقي، وإنما يميل إلى الاحتمال والتعدد ثم الانتقاء .

ـ إن العلامة هي لغة ورمز تعيد صياغة هذا الوجود وخلقه، وما دامت كذلك، بل وما دامت اللغة هي بيت الوجود الذي تسكنه الكائنات ـ حسب الرؤية الهايدغرية ـ فإن الموسوعة والثقافة، والفكر أيضاً؛ كلها تسكن داخل اللغة. وبالتالي فإن الخطاب من وجهة نظر تأويلية السميائيات هو انتقاء خاص ومدلول ما ضمن مجموعة مدلولات تقع تحت مضلة نص أكبر هو الموسوعة الممتدة في كل الاتجاهات والسياقات التي لا حد لها، يساهم في إنتاجه المؤلف والقارئ معاً، مما يعني أن الثقافة ذات طابع خاص أما الموسوعة فهي عامة، وكل منهما تؤثر في الأخرى وتساهم في تحويلها، وتكون في الوقت ذاته المقياس الذي تقاس به درجة هذا التحول.

ـ إن التأويل هو حاجة إنسانية داخلية، تنبعث من داخل النص، و كشف عن طاقة دلالية داخلية (سميوزيس) انطلاقتها تكون من عناصر النص ذاته، أما الاستعمال الحرّ، فهو إما إثارة للمخيلة والانسياق وراء كل المدلولات والسياقات التي لا حد لامتدادها. أو هو قراءة مرتبطة بإستراتيجية أخرى إيديولوجية، سياسية، أو دينية لا علاقة لها بالمقاصد التي يمكن أن تشتمل عليها النصوص. بمعنى أن الاستعمال يرتبط بمصلحة خارجية، تعتمد أطروحة قبلية (أحكام مسبقة) لبناء عوالمها.

ـ إن تأويل السميائيات هو الرؤية التي لا بد على القارئ العربي أن يتبناها لقراءة النصوص الإبداعية، إذ نراها اليوم حاجة ملحة جداً لقراءة النصوص وإعادة القراءة وتنقية الكثير من المقاربات من الشوائب التي سلطتها الأهواء وطغت عليها الإيديولوجية والمصلحة وفوضى المخيلة . إن تأويل السميائيات هو تأويل موضوعي يضمن للقارئ انطلاقة نصية صافية خالية من كل إيديولوجية أو فوضى تفكيكية أو أحكام مسبقة أو مصلحة خارجية كيف ما كانت . وفي الوقت ذاته هو تأويل لا ينتصر للنص وحده ومنحه السيطرة الكاملة على المعاني؛ بل يشارك القارئ في إنتاجه وفق ما تبيحه الموسوعة الثقافية من مجموعة الافتراضات والدلالات اللامتناهية، وذلك عبر فعل الانتقاء الذي يقوم به المؤول النهائي لسياق من مجموعة سياقات لا حد لامتداداتها نظرياً ولكنها تطبيقاً لا بد أن يقع الاختيار على إحداها، أن تستقر استقراراً مؤقتاً وليس استقراراً نهائياً .

قائمة المراجع:

1. أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، (تر) سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، (لبنان)، ط (2)، 2004 .
2. أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، (تر) أحمد الأصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية (لبنان)، ط (1)، 2005.
3. أمبرتو إيكو، العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، (تر) سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، (لبنان)، ط (2)، 2010.
4. بول ريكور، عن الترجمة، العربية للعلوم ناشرون، (لبنان)، منشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط (1)، 2008 .
5. بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، (تر)، سعيد الغامبي، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، ط (2)، 2006 .
6. جون ليتشه، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، (تر) فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، (لبنان)، ط (1)، 2008.
7. سعيد بنكراد، سيوررات التأويل، من الهرمسية إلى السيميائيات، منشورات الاختلاف (الجزائر)، العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، ط (1)، 2012.
8. سعيد بنكراد، التأويل بين إكراهات التناظر وانفتاح التدلال، مجلة علامات، العدد 29.
9. سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات، ش، س، بورس، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، (لبنان).
10. سعيد بنكراد، السيميوزيس والقراءة والتأويل، مجلة علامات، العدد 10.
11. عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر. رؤية للنشر، ط (1)، 2007.
12. عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقلي تأويلي، العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط (1)، 2008 .
13. محمد العبد، إشكاليات المصطلح السيميائي، مجلة الدراسات اللغوية، العدد 2.
14. محمد يشوتي، الثقافة والحضارة والإيديولوجيا، مجلة علامات، العدد 24 .
15. هانز جورج غادمير، الإنسان واللغة، (تر) عبد العلي الأزيمي، مجلة علامات، العدد (22) .

16. هانز جورج غادمير، فلسفة التأويل الأصول والمبادئ والأهداف، العربية للعلوم ناشرون، لبنان، (منشورات الاختلاف)، الجزائر، (المركز الثقافي العربي)، المغرب، 2006 .

دور المرأة الحرفية في تمييز الصناعات التقليدية: القرية الحرفية بمدينة الكاف مثالا

The role of craftswomen in enhancing traditional industries: The craft village in the city of Kef as an example

د.خلود لبادي، أستاذة بالمعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بالكاف

الدكتوراه في العلوم الثقافية اختصاص: تقنيات التنشيط و الوساطة

البريد الإلكتروني: hk.hakouma@ hotmail.fr

تلخيص: يقوم هذا البحث على دراسة دور المرأة الحرفية في تمييز الصناعات التقليدية بالقرية الحرفية بمدينة الكاف عبر استخدام المنهج التحليلي الوصفي لتحليل واقع المرأة الحرفية كوسيط ثقافي يحافظ على الصناعات التقليدية من خلال الأنشطة التي تكون منتجاتها ذات محتوى إبداعي و تتطلب مهارات و تقنيات ذات طابع تقليدي بالإضافة إلى تحليل مختلف العراقيل التي تواجه الحرفيات و محاولة رصد مجموعة من الحلول لنهوض بالصناعات التقليدية والحرفيات .

الكلمات المفتاحية: المرأة الحرفية ، الصناعات التقليدية ، القرية الحرفية

Abstract :

This research is based on studying the role of women craftsmen in valuing traditional industries in the craft village of Kef by using the descriptive analytical curriculum to analyze the reality of women craftsmen as a cultural intermediary that preserves traditional industries through activities whose products have creative content and require skills and techniques of a traditional nature as well as analysing various obstacles facing women craftsmen and trying to monitor a range of solutions for the advancement of traditional industries and craft

Keywords: Women Crafts, Traditional Industries, Village Crafts

مقدمة:

تلعب المرأة الحرفية في تونس دورا هاما في تنمية المجتمع و تقدمه عبر مشاركتها الفعالة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية ، حيث تقوم بتقديم نشاطات حرفية متنوعة تساعد على تعزيز الصناعات التقليدية بماهي مكون أصيل للذاكرة الحضارية ووسيط ثقافي بين الماضي و الحاضر التونسي وما تحمله من إمكانيات إنتاجية ذاتية متاحة داخل كل مجتمع و حرف يدوية عتيقة . و من خلال برنامج

الدولة في دعم القرى الحرفية عبر سعي السلط المعنية على تركيز قرى حرفية لحماية الحرف التقليدية وزيادة الاستثمار في هذا القطاع نجد ظهور مكثف لمؤسسات الحرفية على مستوى وطني والتي تلعب دورا رئيسيا في التنمية المحلية والتنمية المستدامة وخلق مزيدا من مواطن الشغل وتشجيع الصناعات الأصيلة ذات الجودة العالية والأفاق الواعدة على مستوى الترويج والتصدير، وفي هذا الإطار يتنزل بحثنا حول دور المرأة في تميّن الصناعات التقليدية عبر دراسة القرية الحرفية بمدينة الكاف مثلا، فما مفهوم المرأة الحرفية وإلى أي مدى تساهم المرأة الحرفية في تميّن الصناعات التقليدية بالقرية الحرفية في مدينة الكاف؟

أهداف الدراسة

ومن هنا نسعى من خلال هذا البحث إلى:

- تشخيص دور المرأة الحرفية في المحافظة على التراث الثقافي بولاية الكاف.
 - الكشف عن واقع المرأة الحرفية.
 - رصد واقع الحرف اليدوية التقليدية في القرية الحرفية.
 - أهم العراقيل والتحديات للمرأة الحرفية في تنمية قدراتها وتهيئة التراث الثقافي.
- أهمية الدراسة

- دراسة دور المرأة الحرفية باعتبارها وسيط ثقافي في المحافظة على الصناعات التقليدية و بالتالي المحافظة على الهوية الحضارية والثقافية التونسية.

الفرضيات

- تساهم المرأة الحرفية في المحافظة على التراث الثقافي بالقرية الحرفية بمدينة الكاف .
- تواجه المرأة الحرفية صعوبات تهدد استمرارية الصناعات التقليدية بالقرية الحرفية
- الإطار النظري ومنهج البحث:

تقوم هذه الدراسة على " الاتجاه من الحتمية الوظيفية لبناءات الاجتماعية، وجود البنية الاجتماعية ليس وجودا اعتباطيا وإنما لأداءات وظيفية حتمية ضمن النسق الاجتماعي الكلي وهذا الأمر ينطبق على البنية الاجتماعية ليتحقق التناسق والتوازن البنائي للمجتمع " (stresser, 1977) . وقد قامت هذه الدراسة على الاتجاه البنائي الوظيفي من اجل تحليل دور المرأة بالقرية الحرفية بمدينة الكاف كوسيط ثقافي يساعد على المحافظة على التراث الثقافي ووصف مختلف الصناعات التقليدية التي تقوم بها المرأة داخل القرية الحرفية المبحوثة وقد قمنا بإجراء 15 مقابلة مع الحرفيات بالقرية الحرفية المدروسة، بغية استطلاع واقع المرأة الحرفية وتشخيص دورها في المحافظة على الموروث الثقافي.

-1

المفاهيم:

- المرأة الحرفية :

"الحرفة أو العمل اليدوي نشاط لازم للإنسان منذ القدم و يمكنه من توفير مختلف مستلزماته اليومية من أوان ومفروشات أو معدات للزينة ثم تطور فيما بعد ليكون مهنة تعود بالنفع على صاحبها و الشرط الوحيد للنجاح فيها هو الإتقان و المهارة و الحب و الإحساس المرهف. هذه الصفات يمكن أن تجتمع كلها و بنسب عالية في المرأة ، فالمرأة الحرفية نجحت في التعبير عن ذاتها من خلال ما تصنعه من منتجات يدوية و هو ما أهلها في مرحلة موالية لتحمل مسؤولية الإنفاق على أسرتها و مشاركة الرجل في تحمل أعبائها " (مركز المرأة العربية للتدريب و البحوث، 2024).

المرأة الحرفية هي "المرأة التي تقوم بالأنشطة التي تكون منتجاتها ذات محتوى إبداعي، و تتطلب مهارات وتقنيات تكون ذات طابع تقليدي و يطغى عليها العمل اليدوي و تمارس بصفة دائمة، و تشمل عدة مجالات مثل الخياطة ، الحلاقة ، الطرز... الخ، حيث يصنف هذا النوع من النشاط إلى قطاع الصناعات التقليدية و الحرف ". (بغريش و ديبالي) و يساهم في تحسين الدخل و رفع مستوى المعيشة و توفير فرص العمل، و هو كذلك مصدر للتنمية الموارد الاقتصادية ، و عامل للإنعاش الحركة التجارية و السياحية ، و تمثل الحرف و الصناعات اليدوية أجمل مظاهر التراث بإبداعها المعبرة عن حياة الشعوب، و نمط عيشها و أسلوب تفكيرها.

- الصناعات التقليدية :

تعتبر الصناعات التقليدية من من أهم الصناعات التي تحافظ على التراث الثقافي، و العلاقة بين هذه الصناعات المختلفة هي علاقة قديمة ووثيقة تعكس الصناعات التقليدية الثقافة المحلية و تساهم في الحفاظ على التراث الثقافي و نقل المعرفة و المهارات بين الأجيال. إضافة إلى ما تفرزه من تعبير فني و إبداعي تمكن الحرفيين من التعبير عن أنفسهم من خلال منتجاتهم التي تعكس التصاميم و الفنون التقليدية عبر مجموعة من الأنشطة الإنتاجية التي تعتمد على الخبرات و المهارات اليدوية التقليدية، كذلك يمكن تعريفها على أنها حرف يدوية بسيطة تحتاج إلى المهارة و الخبرة . و للحرف و الصناعات اليدوية أهمية بالغة حيث تعد من الأنشطة التي تساهم في التصدير و مورد من موارد الدخل الأجنبي و توفير العملة الصعبة، و من الأنشطة التي تقوم بدعاية إيجابية للدول خارج نطاق حدودها، تساهم في توفير فرص العمل و المشاركة في حل مشاكل البطالة حيث يعمل بها أعداد كبيرة من القوى البشرية ذات المؤهلات التعليمية المتوسطة و المنخفضة ، تقوم بدور تموي في النهوض بالبيئة المحلية التي يعمل فيها الحرفي فقد يوظف الموارد المحلية التي يعيش فيها ليحولها لمواد أخرى . (علاء الدين، 2016)

- القرية الحرفية:

و"هي كل مؤسسة تمارس نشاطا من نشاطات الصناعة التقليدية و الحرف، و ذلك اما فرديا او في شكل مؤسسة صغرى او في شكل مؤسسة مصغرة او صغيرة او متوسطة" (دربال، 2007). "القرية الحرفية بالكاف تحتوي على 45 محلا منها 40 مشغلة في مختلف الأنشطة المميزة بالجهة و تم إدراجها ضمن المسلك السياحي لمدينة الكاف (السلامي) ، و تقوم على تقديم مجموعة من المنتجات الحرفية " ، وهي المنتجات المصنوعة من طرف الحرفيين أما حصرا باليد أو بمساعدة أدوات يدوية ميكانيكية ، شرط أن تشكل المساهمة اليدوية للحرف اليدوية للحرفي الجزء الأكبر من منتج النهائي ، هذه المنتجات تنتج من دون أو تحديد الكمية وباستخدام مواد أولية مأخوذة من مواد أولية مأخوذة من الموارد الطبيعية المستدامة و التي يمكن أن تكون نافعة ،جمالية ،فنية ،إبداعية ، ثقافية ،زخرفية ، رمزية و هامة ،تعكس وجهة عقائدية أو اجتماعية و هذا ما يجعلها تلعب دورا اجتماعيا و ثقافيا و اقتصاديا " (UNESCO (CULTURE, 2009).

صورة عدد1 القرية الحرفية بالكاف (موقع الديوان الوطني للصناعات التقليدية ، 2023)



"القرية الحرفية بالكاف تم بعثها منذ 2006 بهدف تجاوز الإشكاليات التي تعترض الحرفيين في الجهة خاصة على مستوى الفضاءات سواء منها التجارية أو المخصصة للورشات. وقد أصبحت القرية فضاءا سياحيا و تنشيطيا يعرف بخزون الجهة من الحرف اليدوية و المهن التقليدية فضلا عن دورها في الحفاظ على استمرارية بعض الاختصاصات المهدة بالانقراض. و تضم القرية 45 ورشة في عدة اختصاصات" (موقع الديوان الوطني للصناعات التقليدية ، 2023) ، حيث تعتبر الصناعات التقليدية في تونس من أهم القطاعات التي تساهم في التنمية الشاملة للبلاد باعتبارها تلعب دورا فعالا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية. بالإضافة إلى مساهمتها في دعم الهوية الوطنية و الإبداع الفني و "يتميز القطاع بنقاط قوة تتمثل خصوصا في ثراء التراث الوطني ، و تجذر المنتج في الجهات ، و تعدد الكفاءات

والمهارات و تنوعها مع سهولة الإدماج في سوق الشغل بتكلفة متواضعة بالإضافة إلى توفير أسواق محلية و سياحية دولية واعدة. يشغل قطاع الصناعات التقليدية حوالي 300 ألف حرفي أي ما يمثل حوالي 11% من السكان الناشطين (85% منهم نساء) و يساهم 4% من الناتج القومي الخام و 2.5% من الصادرات كما يساهم في إنشاء 5000 فرصة عمل سنويا. و تضم قائمة أنشطة الصناعات التقليدية 75 حرفة تحمل هوية متجذرة و مترسخة في القيم و التقاليد و موجهة نحو الجودة و الابتكار لتعطي منتوجات و أعمال فنية رائعة حسب الأمر عدد 3078 لسنة 2005 المؤرخ في 29 نوفمبر 2005 " (موقع الديوان الوطني للصناعات التقليدية، 2023) و تهدف القرية الحرفية إلى تحقيق عدة أهداف، أهمها تثمين الصناعات التقليدية وتعزيز الوعي بالقيمة الثقافية والاقتصادية لها، و تشجيع الإنتاج الحرفي وتسويقه بالإضافة إلى توفير البيئة المناسبة للحرفيين لممارسة عملهم وتطوير مهاراتهم و تشجيع الأجيال الجديدة على تعلم الحرف التقليدية وممارستها. تتكون القرية الحرفية بمدین الكاف من:

- ورش عمل الحرفيين: وهي المساحة التي يمارس فيها الحرفيون عملهم.
- معرض المنتجات الحرفية: وهو المكان الذي يتم فيه عرض المنتجات الحرفية للبيع.
- مركز التدريب: وهو المكان الذي يتم فيه تدريب الحرفيين على المهارات اللازمة لممارسة عملهم.
- المتحف: وهو المكان الذي يتم فيه عرض المنتجات الحرفية القديمة وتعريف الزوار بها. المرأة الحرفية وسيط ثقافي في تثمين الصناعات التقليدية:

صورة عدد 1: حرفيات القرية الحرفية بمدينة الكاف¹



تعتبر المرأة من الركائز الأساسية داخل المجتمع التونسي باعتبارها تلعب دورا هاما في كافة مجالات الحياة، "وإذا كان للرجل دورا كبيرا في استمرارية مسيرة العمل الحرفي في السوق المحلية والإقليمية و

¹ من إعداد الباحثة في البحث الميداني

العالمية، فإيضاً للمرأة دوراً كبيراً في هذا المجال الاقتصادي تأكيداً لحقوق المرأة والتي من أهمها النشاط الحر الذي أثبت نجاحاً واضحاً فيه، حيث يرجع ذلك إلى التغييرات في أشكال الأسرة والتغيرات الاقتصادية التي يتعرض لها المجتمع مثل انخفاض الأجور وارتفاع أسعار السلع والخدمات، تلك القضايا لعبت دوراً كبيراً نحو اتجاه المرأة للعمل بصفة عامة والعمل بصفة خاصة. (Lisa, 2001)

"لقد اعترفت عقود التنمية الأربعة بدور المرأة في التنمية، وتطور هذا الاعتراف من عقد لآخر، ففي العقد الأول 1960-1970م تم الاعتراف بدور المرأة ولكن فئة منفصلة، وفي هذا الوقت ظهرت حركات اجتماعية نسائية تدعو إلى مزيد إدماج المرأة في التنمية، وتم تدعيم هذا الموقف بانعقاد المؤتمر المكسيك ووصولاً إلى مؤتمر بكين 1975-1995م، "شاع منهج التمكين في إطار معالجة النوع الاجتماعي والاقتصادي والسياسية مبني على النظر للنساء بوصفهن فئة فاعلة ونشيطة لا فئة مستفيدة وسلبية". (الدمهوري، 2016)

"تفاعلت المرأة الحرفية مع كل الآليات الموضوعية على ذمتها لمساعدتها على الإنتاج والترويج حتى تتجاوز مختلف الصعوبات التي قد تواجهها فجاءت أعمالها على قدر كبير من الإبداع والحرفية فنجحت في المزج بين الأصالة والحداثة وتوقفت كل واحدة منهم في وضع بصمة خاصة على منتجها تميزها عن زميلاتنا وتجعلها متفردة في مجالها وقد تجلّى ذلك في عدة اختصاصات. (افاق نسائية 2024،

تقوم المرأة الحرفية من خلال القرية الحرفية بتمكين الصناعات التقليدية عبر النشاطات الإبداعية ذات الطابع التقليدي ويهيمن عليها العمل اليدوي وتشمل عدة مجالات مثل الرسم، الخياطة، الطرز والتالي تعتبر هذه المصنوعات الشعبية بمثابة الذاكرة الحية للفرد والمجتمع، ويمثل بالتالي هوية يتعرف بها الشعوب على مختلف العادات والتقاليد الشعوب الأخرى بما تساهم في توثيق الإرث الثقافي عبر مخرجات إبداعية متمثلة في المنتجات التي تصنعها المرأة الحرفية. " فالحرف التقليدية منظومة علمية لأشكال فنية معبرة مستمدة من التراث، ويغير فيها الحرفيون كل فترة، وتتأثر بتغير عادات وتقاليد المجتمع " و يتميز قطاع الصناعات التقليدية بولاية الكاف بالتنوع والثراء، ففي هذا الربوع يبدع الحرفيون بإنتاج عديد المنتجات التقليدية التي تعكس خصوصية المنطقة ومميزاتها على غرار الزربية والأغطية الصوفية، والنسيج اليدوي وصناعة مواد من الفخار خاصة منها أواني الأكل والطبخ (الصناعات التقليدية بولاية الكاف:مراوحة بين الاصالة والتجديد، 2023).

صورة عدد 1 صناعة الزربية²



و في إطار بحثنا الميداني سنقوم باستعراض أهم الصناعات التقليدية المتواجدة بالقرية الحرفية بمدينة الكاف وانطلاقا من الصورة عدد 1 نتبين أن من أهم الحرف المتواجدة بالقرية الحرفية هي نسيج الصوف و هي حرفة تمارسها النساء و منتجاتها موجهة لاستعمالات الأسرة و التسويق و يخاط من الصوف الجلايب و الأغطية و الأفرشة والزرايبي ، و من عادات متساكني جهة الكاف وجود "المرقوم" في كل بيت و هو غطاء صوفي يستعملونه سكان منطق الكاف نظرا للبرودة الطقس في الشتاء ويتميز نسيج المرقوم من الصوف بأشرطة متوازية ذات ألوان مختلفة و يستعمل كمعلقة حائطية ، كما يمكن أن يستعمل كبساط أرضي ، و تختلف الاستعمالات حسب الصورة التالية:

الصورة عدد 2: المرقوم الكافي³



² صورة من إعداد الباحثة في البحث الميداني

³ نفس المصدر

بالإضافة إلى القشائية وهي لباس يعبر عن المروث الثقافي الكافي ، وهو لباس تقليدي يتميز به اهالي الكاف ويفضولن ارتدائها لمقاومة البرد في الشتاء وتصنع من الوير والصوف الخالص " ويذكر الحسن الوزان أن النساء برعن في مهنة النسيج ، وفي منطقة افزا (الأطلس الكبير) كانت النساء يتقن غزل الصوف ويصنعن منه أقمشة ثميئة وزرابي". (الوازن، 2015)

صورة عدد 2 نسيج القشائية⁴



"تعتبر عملية الاشتغال على الصوف لدى معظم السكان الأصليين لشمال إفريقيا مهمة موكلة إلى النساء ، ويهتم الرجال فقط بعملية جز الأغنام وتبقى مراحل حياكته و غزل و طبخ و نسيج الصوف من اختصاص النساء" (Basset, 1992).

الصورة عدد 3 صناعة الفخار⁵



يحتزن الفخار ذاكرة و تاريخ المجتمعات التي أنتجته، و يعكس قيمها الثقافية و سلوكياتها و إبداعاتها الجماعية والفردية ، و يعتبر سجلا لطبائعها و تقاليدها و معتقداتها ، و هو بذلك شاهد على التاريخ

⁴ صورة من إعداد الباحثة

⁵ صورة مأخوذة من الانترنت

الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للشعوب " (تاوشخت و سلجماسة، 2008) وتعتبر هذه الحرفة اختصاصا نسائيا في القرية الحرفية المدروسة ويعتبر الفخار إرثا ثقافيا استمر على يد حرفيات وأصالة هذه الحرفة تؤكدها المواقع الأثرية والتاريخية التي عثر داخلها على بقايا الأواني الفخارية والمتكسرة. كذلك نجد العزف وهي صناعة انتشرت بالمنطقة وتفنت النساء في صناعتها كذلك نجد صناعة الحلي و الفضيات بالقرية المدروسة فمذ القديم كان جهاز العروس في المدن الكبرى يحوي أدوات فضية فاخرة كالقبقاب وصندوق الحلي (كنويطة) والمرآة الفضية والمكاحل وكذلك أدوات الاستحمام كمغرفة الماء وآنية الطفل. واعتبارا بعدها الجمالي عرفت الفضيات اليوم إقبال هاما حفز الحرفيين على إنتاج تحف ثمينة مثل المرشات وعلب المساحيق وعلب الحلوى وكذلك الأباريق بأحواضها (ليان) وهي موسومة بتزيين غاية في الإتقان يترجم مهارة الحرفيات في النقوش والزخارف. هذا وأقدم بعض الحرفيات على تجديد النماذج وإثراء زخرفة الفضيات بأسلاك معدنية مفتولة ومجدولة وملحومة، ويعتبر الموروث الحرفي جزءا مهما من التراث الثقافي الوطني والمحلي، نظرا لارتباطه بحيطه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتاريخي وقد قام "اليونسكو إلى تصنيف الحرفيين المزاويلن لحرف فنية تقليدية أصيلة، كنوز إنسانية حية trésors humains" (Bazzana, 2003) لذلك تعتبر المرأة الحرفية وسيط ثقافي ينقل التراث عبر الأجيال وتعيد إنتاجه في تفاعل مع بيئتها ويزود هذا التراث إحساس الأجيال بهويتها واستمراريتها وتهتم المرأة الكافية بالصناعات التقليدية وتعمل على الحفاظ عليها وتطويرها بمختلف أشكالها من ملابس، أغطية صوفية، أواني للزينة، مفروشات وزرابي، وتحف للديكور وغيرها ويعود اهتمامها بها إلى أهمية هذه المنتجات من جهة وحرصها على الحفاظ على حرفة الأجداد من جهة أخرى.

واقع الحرفيات في القرية الحرفية بمدينة الكاف:

رغم أهمية الصناعات التقليدية إلى أن واقع القرية الحرفية بالكاف يطرح مجموعة من الإشكالية لامسناها من خلال البحث الميداني والمقابلات التي أجريناها مع الحرفيات من ذلك نذكر:

- على مستوى البنية التحتية: تشكو جملة من النقائص تشد وطأتها مع اشتداد البرودة في فصل الشتاء الذي تنزل فيه درجات الحرارة أحيانا إلى ما تحت الصفر. ويتطلب وضع القرية إعادة تهيئة وأعمال صيانة وتوفير حراسة وإنارة بالإضافة إلى انقطاع المياه داخل القرية الحرفية، كما تحتاج إلى إدراجها ضمن المسلك السياحي
- على مستوى الإعلام والاتصال: غياب الإشهار والتعريف" بالقرية الحرفية ومنتجاتها. هذا النقص يمثل تحدياً كبيراً في تسويق وترويج المنتجات التقليدية، حيث يعمل على تقليل الوعي العام حول جمالية وجودة تلك المنتجات، كما لاحظنا انعدام وجود صفحة فايسبوك رسمية للقرية الحرفية بمدينة

الكاف تعرف بمنوجها في ظل وجود الوسائط الجديدة و بالتالي نقص آليات الترويج للصناعات التقليدية المحلية

- عدم توفر المواد الأولية اللازمة للحرفيات، حيث يعتبر هذا النقص عاملاً محدداً يؤثر سلباً على إمكانية إنتاج المنتجات.

- فقدان اليد العاملة و عدم إقبال الشباب على تعاطي هذه الحرفة يشير إلى خطر انقراض بعض الصناعات التقليدية نتيجة لعدم جاذبية هذا القطاع للشباب، مما يفتقر إلى التجديد والابتكار في عمليات الإنتاج.

- افتقار المستثمرين في الصناعات التقليدية للسيولة المالية وهذا يظهر أهمية دعم هؤلاء الحرفيين من خلال توفير تمويل ودعم مالي لتطوير وتحسين عملياتهم.

و في هذا الإطار نستنج أن واقع الحرفيات بالقرية المبحوثة يتطلب حاجة ملحة لاتخاذ إجراءات فورية لتحسين الظروف وتوفير الدعم اللازم للحفاظ على حيوية الحرف التقليدية في القرية الحرفية بمدينة الكاف، وبالتالي الحفاظ على تراثها الثقافي وتطويرها كجزء لا يتجزأ من التنمية المجتمعية والاقتصادية.

خاتمة:

تلعب المرأة دور أساسي في تمييز الصناعات التقليدية بالقرية الحرفية بمدينة الكاف عبر ما تنتجه من حرف ونشاطات مثل النسيج و الخبز و هي تميز خصوصية المجتمع و هويته و قد تعبر أيضا على تواصل الحضارات وتفاعلها و يمكن أن تكون وسيلة تواصل بين الحضارات المختلفة و الأجيال المتعاقبة لذلك و جب الاهتمام بهذه القرى الحرفية و تطويرها و يمكن رصد مجموعة من التوصيات لارتقاء بهذه الصناعات و تطويرها .

- توفير آليات الدعم بإسناد قروض للحرفيين.

- أهمية توفير دورات تكوينية لفائدة الحرفيات لتطوير مهاراتهم.

- إبرام اتفاقيات شراكة مع عديد المؤسسات والجمعيات الوطنية والدولية والانفتاح على مختلف المؤسسات للتعريف بمنتوج القرى الحرفية وليس الاقتصار على المعارض السنوية.

- تكوين منظومة تنمية متكاملة قائمة على السياحة الثقافية البديلة باعتبار أن ولاية الكاف غنية بالمواقع الجيولوجية والأثرية والطبيعة بما يساهم في خلق حركة اقتصادية في المنطقة ويجعل الأنظار موجهة إلى القطاع الحرفي.

- تنظيم المعارض والمهرجانات التي تروج للمنتوجات التقليدية.

- العمل على إدراج التكنولوجيا الرقمية لتعريف بالصناعات التقليدية و استقطاب الشباب على مواكبتها كأهمية ان يكون للقرية الحرفية صفحة فيسبوك رسمية للتعريف بمنتجاتها.
- إدراج الصناعات التقليدية بالمناهج التعليمية .

المراجع

- آفاق نسائية ، المرأة الحرفية في تونس ، مركز المرأة العربية للتدريب و البحوث تاريخ 2024/02/17 في 17:22

file:///C:/Users/GEORGES/Downloads/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%81%D9%8A%D8%A9%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3%20(2).pdf.

- الصناعات التقليدية بولاية الكاف:مراوحة بين الاصاله و التجديد, (2023). أكتوبر Récupéré (29). sur اخبار اون لاين.

- الوازن الحسن ،وصف إفريقيا،ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر (2005)، بيروت -لبنان ، دار الغرب الإسلامي،الطبعة الثانية.

- سمية دربال. (2007). سياسة دعم المؤسسات الحرفية في الجزائر: اشكالية استدامة المؤسسات المتوسطة و الصغيرة في الجزائر. جامعة الوادي. كلية العلوم التجارية و الاقتصادية.

- سهير حسن الدمهوري. (2016). دور المدتمع المدني في تدعيم ثقافة العمل الحرفي:دراسة ميدانية للجمعيات الاهلية في مدينة الواحات (المجلد 1). مجلة حوليات اداب عين شمس.

- صابر السلامي. استراتيجيية التنمية بولاية الكاف. وزارة التنمية الجهوية و التخطيط.

- عبد اللطيف اسامة علاء الدين. (2016). الحرف و الصناعات اليدوية كاداة للجذب السياحي في مصر بالتطبيق على منطقة خان الخليلي. (جامعة الفيوم، المحرر) مجلة كلية السياحة و الفنادق ، 10 (1).

- لحسن تاوشينخت، و عمران سلجماسة. (2008). دراسة تاريخية و اثرية (المجلد الطبعة الاولى). الرباط، المملكة العربية: منشورات وزارة الاوقاف و الشؤون الاسلامية.

(17, 02, 2024). مركز المرأة العربية للتدريب و البحوث -

file:///C:/Users/GEORGES/Downloads/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%81%D9%8A%D8%A9%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3%20(2).pdf.

- موقع الديوان الوطني للصناعات التقليدية -
Récupéré sur <https://artisanat.nat.tn/artisanats/villages/392-kef>. (2023, 02 12).
- ياسمينة بغريش، و منال ديبالي. دور المرأة الحرفية في التنمية الاجتماعية: جمعية الفردوس للثقافة و الصناعات التقليدية نموذجاً. 10.
- Basset, H. (1992). *les rites du travail de la line à Rabat* (Vol. 1). (E. Iarose, Éd.) Paris: Archives berbères.
- Bazzana, A. (2003). *la mémoire du geste ,la poterie domestique et fiminine du rif marocain*. paris: maison neuve et la rosse.
- Lisa, A. (2001). *cultural feminization: Money, sexe and power for women* (Vol. 26). sings.
- stresser, H. (1977). *functionalism and social changer*. vienna: research memorandum.
- UNESCO CULTURE. (2009, 09 23). *creativité artisanat et design*. Récupéré sur <http://portal.unesco.org/culture/fr/ev.evphpURL-ID=3541URL-DO=DO-TOPICETURL-SECTION=201>

المدرسة وإعادة الإنتاج الاجتماعي: قراءة في بعض نظريات بيير بورديو

School and social reproduction: a reading of some of Pierre Bourdieu's theories

يوسف أوقسو، باحث في علم الاجتماع - المغرب -

oukssouyoussef@gmail.com

ملخص:

تعتبر بعض مساهمات نظريات إعادة الإنتاج في علم اجتماع التربية ذات أهمية كبرى حتى اليوم. وتعتبر مساهمة السوسيولوجي الفرنسي "بيير بورديو" أكثر لفتا للنظر، والأكثر قيمة لتحليل الأنظمة التعليمية الحالية كما السابقة، ذلك لأنه يركز أكثر على بنية إعادة الإنتاج وتحقيقاتها المختلفة، كما يظل مهتما في المقام الأول بطبيعة النظام التعليمي الذي يعكس/يفرض علاقات القوة والهيمنة والصراعات الثقافية والرمزية. الكلمات المفتاحية: إعادة الإنتاج، بورديو، العنف الرمزي، الهايتوس.

Abstract:

Certain contributions of theories of reproduction in the sociology of education are still of great importance today. The contribution of the French sociologist Pierre Bourdieu is considered one of the most significant and valuable for the analysis of current and previous educational systems, because he is more interested in the structure of reproduction and its various achievements, but he also remains primarily interested in the nature of reproduction within the educational system which reflects/imposes relations of power, hegemony, cultural and symbolic conflicts.

Keywords : Reproduction, Bourdieu, Symbolic violence, Habitus.

تقديم

على الرغم من كل الانتقادات الموجهة إلى نظريات إعادة الإنتاج، إلا أنها لا تزال مفيدة لفهم النظام التعليمي الحالي، الذي ينقل المعرفة التعليمية وقيمها كمعرفة تعكس علاقات القوة وتوزيعها، فضلا عن مبادئ السيطرة المحددة وإعادة إنتاج بنيات علاقات القوة والعلاقات الرمزية بين الطبقات. ويمكن اعتبار الفرنسي بيير بورديو من علماء الاجتماع الأكثر تمثيلا لما يسمى بنظريات إعادة الإنتاج. فعلى الرغم من كل الانتقادات الموجهة إلى نظريات إعادة الإنتاج، إلا أن العديد من المساهمات لا تزال مفيدة لفهم الأنظمة التعليمية والتربوية الحالية، ليس لأن كل العوامل المشاركة في نظام التعليم

يعاد إنتاجها، بل لأن الطريقة التي يصنف بها المجتمع المعرفة التعليمية وينقلها وقيمها هي ما يعكس علاقات القوة وطبيعتها وأشكال توزيعها، فضلا عن تحديد مبادئ السيطرة المحددة. لذلك لا يمكن تقييم نظام تعليم معين دون الأخذ في الاعتبار مدى مساهمته في إعادة إنتاج بنيات علاقات القوة والعلاقات الرمزية بين الطبقات الاجتماعية.

لا يمكن الحديث إذن عن نظريات إعادة الانتاج الثقافي La Reproduction culturelle دون الوقوف عند السوسيولوجي الفرنسي "بيير بورديو" (تحت إلهام كل من "كارل ماركس" و"إميل دوركهايم"، لا سيما تأثره أيضا بـ "ماكس فيبر")، حيث يركز على الجوانب الثقافية ويعطي اهتماما أكثر لبنية إعادة الانتاج داخل النظام التربوي، دون أن يعير اهتماما أكثر لسيرورة نقل الثقافة أو القضايا اللغوية داخل المدرسة.

نظرية بورديو للعنف الرمزي وإعادة الانتاج

يصعب تصنيف السوسيولوجي الفرنسي "بيير بورديو" تصنيفا دقيقا؛ فهو نفسه يذهب إلى حد وصف عمله بأنه "البنوية البنائية" أو "البنائية البنوية"؛ والبنوية تعني بالنسبة له أنه "في العالم الاجتماعي نفسه هناك بنيات موضوعية مستقلة عن وعي وإرادة الفاعلين، وهي بنيات قادرة على توجيه أو تقييد ممارساتهم وتمثلاتهم؛ أعني أن هناك نشأة اجتماعية لأنماط الإدراك والفكر والفعل التي تشكل ما أسميه الهابتوس Habitus من جهة، وهناك بنيات اجتماعية خاصة ما أسميه الحقل Le Champ" (بيير بورديو، 1987، ص 162).

يمكن جوهر جهود بورديو في ربط الموقنين ضمن علاقة جدلية متبادلة بين مفهومي الحقل Champ، حيث يحدد الهابتوس Habitus نظام التفضيلات وأسلوب حياة خاص بكل شخص؛ فهو ليس تلقائيا بقدر ما هو ميل واستعداد للتصرف والفعل، ويؤثر على الممارسات اليومية للأفراد (طريقة لباسهم وحديثهم وإدراكهم)، بطريقة يتم خلالها استيعاب ميول الأفراد دون وعي خلال مرحلة التنشئة الاجتماعية، التي يتكيف خلالها الفرد ويندمج في البيئة الاجتماعية بشكل غير مرئي يحدد رؤيته للوجود والتصرف في مواجهة العالم.

وإذا كان الهابتوس Habitus موجودا في أذهان الفاعلين، فإن الحقول Champs موجودة خارج أذهانهم (بيير بورديو، 1966، ص 865)، حيث يتشكل "الحقل" نتيجة للاحتلال المستقر والدائم لأي موقع في العالم الاجتماعي، ف"الحقول" ليست سوى بنية اجتماعية داخلية ومجسدة تعكس الانقسامات الموضوعية في البنية الطبقية مثل الفئات العمرية والأجناس والطبقات الاجتماعية. أما "الهابتوس"؛ فهو بنية داخلية تقييد الفكر واختيار الفعل رغم أنه لا يحددهما.

إن الحتمية التي يفرضها "الهابيتوس" على الأفراد هي أهم ما يميزه عن "الحقل"، ذلك لأن الأول (الهابيتوس) هو ببساطة ما يجب أن يفكر فيه الناس وما يجب أن يقولوه ويفعلوه، يعمل تحت مستوى الوعي واللغة وخارج نطاق الفحص الاستبطاني والتحكم في الإرادة. وعلى الرغم من أن الناس ليسوا على دراية في ممارستهم اليومية بوجود هذه الآلية المسماة "هابيتوس" ولا كيفية اشتغالها، إلا أنها تتجلى في معظم أنشطتهم اليومية؛ فـ"الهابيتوس" هو "نتاج الحضور الفعال للماضي بأكمله، الأمر الذي يمنح الممارسات استقلاليتها النسبية مقارنة بالمحددات الخارجية للحاضر المباشر؛ فهذه الاستقلالية هي استقلالية الفعل الماضي الذي ينتج تاريخاً من التاريخ ويعمل كرأس مال مترام، وبالتالي فهو يضمن ديمومة التغيير الذي يجعل الفرد فاعلاً كعالم داخل العالم" (بيير بورديو، 1980، ص 94).

أما الثاني (الحقل)، فهو شبكة العلاقات بين المواقف الموضوعية الموجودة في حقل ما، التي توجد (هذه العلاقات) بشكل مستقل عن الوعي الجماعي والإرادة؛ فهي ليست تفاعلات أو روابط ذاتية بين الأفراد، ذلك لأن المجال الاجتماعي كـ"حقل" كما يتصور بورديو هو "حقل للقوى التي تفرض ضرورتها على الفاعلين الذين دخلوه، وكحقل للصراعات التي يواجه فيها الفاعلون بعضهم بعضاً" (بيير بورديو، 1994، ص 55)، مع تمييز الوسائل والغايات وفقاً لموقعهم في بنيات مجال القوة، بشكل يساهم في الحفاظ على بنيتها أو تحويلها.

ووفقاً لبورديو، فإن رأس المال الثقافي والاجتماعي الذي يتلقاه الطالب من عائلته ينطوي على غرس "هابيتوس" أصلي يعمل كآلية لتنظيم الممارسات الاجتماعية التي تعمل عليها المدرسة بشكل انتقائي. كما أن إن الإرث الثقافي المرتبط بالأصل الاجتماعي هو الذي يفسر معظم الاختلافات الملحوظة في المسارات التعليمية وفي رأس المال التعليمي الذي يشهد عليه الدبلوم (بيير بورديو، 1973، ص 54).

يحدد بيير بورديو أن "الهابيتوس" يقع في قلب إعادة إنتاج البنيات الاجتماعية، إنه يضمن - من خلال دمج - الحضور الفعال في كل فرد وفي كل جسد، لتاريخ علاقات الهيمنة والنظام الاجتماعي. وهكذا يضمن "الهابيتوس" أن يتم تعديل تطلعات الجميع وفقاً لاحتمال أن كل شخص يرى آماله تتحقق، ومن ثمة فهو يزود الفاعلين Agents بتقييم لمصائرهم المحتملة ويقود كل واحد منهم إلى التعامل مع الواقع وفقاً لرغباته.

إن أحكام "الهابيتوس" ليست نهائية رغم كل شيء، حيث يمكن للمسار الاجتماعي للأفراد أن يتطور بالفعل فيغير طبيعتهم بشكل جزئي، وهي الطريقة التي لا يعكس بها وضعاً ثابتاً: إنها عملية تتطور من خلال التكيف مع ظروف الفعل والعمل.

نظرية "بورديو" و"باسرون" في إعادة الإنتاج

تشير نظرية "بورديو" في إعادة الإنتاج إلى دور التعليم والتربية كمنتج للثقافة وللبنية الاجتماعية والاقتصادية من خلال الاستراتيجيات الطبقية. ففي تحليله للمجتمع الفرنسي، يحدد "بورديو" ثلاث استراتيجيات طبقية مختلفة في التعليم: الطبقة الوسطى الجديدة التي تستثمر في الثقافة لتحسين وضعها الاجتماعي، حيث تحاول النخبة الثقافية الحفاظ على مكانتها المتميزة وعدم فقدان مكانتها الاجتماعية والرمزية؛ بينما تحاول الطبقة الحاكمة في المجال الاقتصادي تحويل جزء من رأسمالها إلى رأسمال ثقافي، والحصول على شهادات أكاديمية مرموقة تساعدها في الحفاظ على مكانتها ومنحها مكانة.

تأتي الوظيفة الاجتماعية المختلفة للتربية في كل طبقة؛ فالطبقة الوسطى الجديدة تحاول توجيه الدراسات مهنية على حساب الدراسات الإنسانية التقليدية، وتدافع عنها النخبة الثقافية. أما الطبقة المهيمنة فتحاول اقتصادياً ربط الدراسات الجامعية بعالم الأعمال، وبالتالي السيطرة على "المدارس العليا" ومعارضة المساواة واحتكار الرأسمال الرمزي و"اللامبالاة الساخرة والأناقة الثمينة أو ضمان الوضعية الاعتبارية الطبقية التي تسمح بسهولة التصنع عند الطلاب من الطبقات العليا، حيث تلعب هذه الطرق دور علامة انتماء إلى النخبة" (بيير بورديو وباسرون، 1973، ص 34).

إن كل نظام اجتماعي طبقي له روحه ومجموعة قيمه المميزة، التي تحدد مواقفه تجاه الثقافة والتربية. وبالتالي فإن لهذه الروح تأثير كبير على دخول الأفراد واستمرارهم في النظام التعليمي لأنها تحدد دراسات الفرد قبل أن تبدأ. فحسب "بورديو"، فإن المناهج الدراسية التقليدية مليئة بمحتوى إنساني لا يأخذ في الاعتبار المتطلبات المهنية لعالم الشغل وامتيازات الطلاب ذوي المستوى الثقافي الأعلى، وخاصة المستوى اللغوي (بيير بورديو وباسرون، 1973، ص 38).

في كتابه "الورثة. الطلاب والثقافة" Les héritiers. Les étudiants et la culture، يسلط "بورديو" و"باسرون" الضوء على عدم المساواة في احتمالات التعليم والنجاح الأكاديمي وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الطلاب. إن المساواة الرسمية التي أعلنها النظام تحول الامتيازات الاجتماعية إلى مزايا فردية. وحتى عندما تنسب إلى القيمة الفردية، فإن الامتيازات الاجتماعية المرتبطة بالأصل هي التي تحدد النجاح الأكاديمي:

"يستمر تأثير الأصل الاجتماعي طوال فترة التعليم ويصبح ملحوظاً بشكل خاص في التغييرات الرئيسية طيلة المسار التعليمي" (بيير بورديو وباسرون، 1973، ص 38).

وبالتالي فإن المواقف الثقافية موروثه (Les Héritiers)، بحيث يمتلك أولئك الذين يعيشون منذ ولادتهم في بيئة ثقافية فكرية، ثقافة قريبة من المدرسة والجامعة، في حين أن ثقافة الطبقات التابعة تظل غريبة عنها، بل معارضة للمؤسسات التعليمية في أحيان كثيرة.

ويؤكد السوسيولوجيان الفرنسيان في كتاب "إعادة الإنتاج" La Rereproduction الذي نشره بعد ست سنوات من الكتاب السابق، كيف يتم "ترتيب كل شيء" لتحقيق نجاح دراسي لأولئك الذين يمتلكون بالولادة "ثقافة عالية"، عكس الذين ينتمون إلى مناطق وطبقات أقل حظا لاكتساب هذه الثقافة. ومن ثمة، تظل المدرسة غير قادرة على إحداث أي نوع من التغيير الاجتماعي، لأن التعليم يقتصر على فرض معايير السلطة وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي للمجتمع الطبقي، علاوة على كونه يعمل كآلية لإضفاء الشرعية على التسلسل الهرمي الاجتماعي من خلال الشهادات التي يمنحها للطلاب، وهي بذلك تعتمد على إقصاء القطاعات المحرومة من خلال تفويض المزيد من سلطة الاختيار للمؤسسة التعليمية التي تركز امتيازات الطبقات التي تتسم بـ "ثقافة عالية".

تساهم المدرسة بشكل أفضل - بالطريقة الوحيدة التي يمكن تصورها في مجتمع يفترض الديمقراطية - في إعادة إنتاج النظام القائم من خلال إخفاء الوظيفة التي يلعبها تماما، وهي بهذه الطريقة تعيد (المدرسة) إنتاج الثقافة السائدة وتؤسس التسلسلات الهرمية وتخفي واقع العلاقات الاجتماعية (التعسف الثقافي والعنف الرمزي). إنها تساهم في نهاية المطاف في إعادة إنتاج حالة علاقات القوة بين الطبقات الاجتماعية وإخفاء وجود علاقات القوة هذه؛ فهي تظهر "عنفًا رمزيًا" تجاه المهيمن عليه في العلاقات الاجتماعية هذه.

رفض المؤلفان تبسيط مساواة النظام المدرسي بالانعكاس الفوري للتنظيم الاجتماعي والاعتراف باستقلاليته النسبية، وسلطا الضوء على الآليات المبهوسة التي يكون بها النظام المدرسي انعكاسا مباشرا للمجتمع. فالمدرسة إذن، بالنسبة لـ "بيير بورديو" و"جان كلود باسرون"، تقدم نفسها قبل كل شيء كمثال لإعادة الإنتاج الاجتماعي بحيث تتحول التفاوتات الاجتماعية إلى تفاوتات تعليمية، ثم تصبح تفاوتات اجتماعية مرة أخرى عند مغادرة النظام المدرسي.

تظهر المدرسة في نهاية المطاف على أنها "الصندوق الأسود" الذي يحول التسلسل الاجتماعي غير الشرعي - لأنه يقوم على التراث العائلي - إلى تسلسل هرمي اجتماعي متطابق نسبيا تشرعنه المؤهلات التعليمية، التي من المفترض أن تمنح على أساس الجدارة الشخصية. إن الأيديولوجية الكاريزمية تقع مرة أخرى في قلب عملية إخفاء الشرعية على إعادة الإنتاج الاجتماعي، لأنه يتم نسيان التراث الاجتماعي من خلالها ولا يُنظر إلى إعادة الإنتاج الاجتماعي على هذا النحو، بل كمشروعية معترف بها اجتماعيا.

مفهوم العنف الرمزي

إن الفعل التربوي، الذي يجابي مصالح الطبقات الحاكمة، هو آلية للهيمنة و"العنف الرمزي" (بيير بورديو وباسرون، منشورات Minuit، 1970)، بحيث أنه يفرض تعسفا ثقافيا لصالح مصالح هذه الطبقات. وتمثل مهمة نظام التعليم في غرس نظام ثقافي تعسفي (المناهج الدراسية) تحدده المجموعات المهيمنة في المجتمع، والذي يعمل من خلال السلطة التربوية التعسفية بنفس القدر، فالفعل التربوي الذي يعمل من خلال "العنف الرمزي" يغرس في نظام التعليم ثقافة الطبقات الحاكمة وينقلها ويحافظ عليها، فيساهم بالتالي في إعادة إنتاج البنية الاجتماعية وعلاقاتها الطبقية، وتخلق هذه الوظيفة الاجتماعية صورة أو وهم الاستقلالية والحياد وتضفي الشرعية على نفسها. إنه عنف رمزي غير ملحوظ ماديا على الجسد لكنه يعمل على المستوى الأيديولوجي وينجح في فرض تمثلات تقدم نفسها كتمثلات تملك مشروعية وحيدة:

"إنها بمثابة أدوات بنوية ومهيكلية للتواصل والمعرفة، حيث تؤدي الأنظمة الرمزية وظيفتها السياسية كأدوات لفرض أو إضفاء الشرعية على الهيمنة، والتي تساهم في ضمان هيمنة طبقة على أخرى (العنف الرمزي) من خلال تعزيز قوة سلطتها الخاصة لعلاقات القوة التي تؤسسها، والمساهمة في "تدجين المهيمنين" (بيير بورديو، 1970، ص 206).

تعاقب المدرسة وتضفي الشرعية على نظام العادات والممارسات الاجتماعية التي تفرضها طبقة معينة، لأن النظام التعليمي يقدم هذه القيم والمعايير الثقافية للفصل الدراسي كما لو كانت عالمية، كما يساهم الفاعلون التربويون في كل هذا بغض النظر عن نواياهم وأيديولوجياتهم الخاصة، فقوة العنف الرمزي "تسمح بتمرير الاختلافات الاجتماعية على أنها سمات طبيعية للشخص" (بيير بورديو، 1972، ص 18).

من ناحية أخرى، وبغية التغلب على مقاومة الأشكال الثقافية المعادية، يحتاج النظام المدرسي إلى اللجوء إلى ممارسة العنف الرمزي الذي يمكن أن يتخذ أشكالا شديدة التنوع، الذي له دائم الأثر في التقليل من قيمة أي شكل ثقافي آخر منافس، والعمل على إفقاره وإخضاع حامله لقوة العنف الرمزي.

يفسر "بورديو" استيعاب مبادئ التعسف الثقافي من خلال مفهومه عن "الهابيتوس"، ذلك لأن الفعل التربوي يتكون من غرس الثقافة السائدة ويعيد إنتاج عادات فكرية وأخلاقية وعملية لدى الطلاب؛ فالفعل التربوي الأساسي ينتج خاصية "هابيتوس" أولية لمجموعة أو فئة تعمل كأساس لجميع العادات اللاحقة. هذا "الهابيتوس" الأولي يتمثل في الأسرة والطبقة الاجتماعية الخاصة بالفرد، ويساهم في إعادة إنتاج البنية الاجتماعية.

يتكون "هايتوس" بشكل تقريبي من مجموعة من الاستعدادات للتفكير والتصرف التي دمجها الفرد من خلال التنشئة الاجتماعية، التي تزوده بنماذج الفعل والإدراك التي تبدو طبيعية بالنسبة له؛ فقبل الالتحاق بالمدرسة، يُمنح كل فرد "هايتوس" (هايتوس الأساسي) يسمح له بالتعرف على التجارب التي يمر بها في الوقت الحاضر وتقييمها.

إن العادة الأساسية لبعض الأطفال / الطلاب "تعارض" العادة المدرسية للمدرسين، بحيث يمكن أن تتعارض العادات في الواقع بين الإثنين منذ اللحظة التي لا ينتمي فيها المدرس والطالب إلى نفس الطبقة الاجتماعية. وبالتالي فإن البيئة المدرسية مشبعة بثقافة الفصل الدراسي التي تتخلل ممارسات التدريس والتقييم؛ أي الفعل التربوي بأكله: "إن أي فعل بيداغوجي هو عنف رمزي موضوعيا باعتباره فعل يفرض تعسفا ثقافيا من طرف سلطة تعسفية" (بيير بورديو وباسرون، 1970، ص 19).

بالنسبة لـ "بورديو" و"باسرون"، فإن التقييم L'évaluation هو شكل آخر من أشكال العنف الرمزي لأنه آلية فعالة للغاية لإضفاء الشرعية، وبالتالي فهو يخفي الميزة التي تتمتع بها الطبقات الحاكمة وثقافتها. ورغم أن الامتحان يبدو كـ "لحظة حقيقة" يخضع خلالها الجميع لنفس القواعد ويظهر تعزيز المساواة التعليمية، إلا أنه يعمل على إخفاء الروابط بين نظام التعليم والبنية الطبقية، ذلك أن المعارضة بين الناجحين وغير الناجحين تعمل على إخفاء المعارضة بين المتميزين والمحرومين من النظام برمته.

كما أن الاعتراف بالعقوبات، التي تنشئ سلطة تعليمية على أنها شرعية عندما يتم توجيهها إلى مجموعات، يمكن أن تواجه مكاسب رمزية ماثلة في الحياة الاجتماعية:

"بما أننا نعترف بأنها تضيف الشرعية على عقوبة في عالم اجتماعي (عقوبات السوق، الحياة الاقتصادية، وعالم العمل، وما إلى ذلك)، يمكننا أن نقبل بسهولة فكرة أنها تجد ما يعادلها في مكان آخر. وتكتسب إنتاجات الفعل التربوي قيمة اقتصادية ورمزية لدى هذه الفئات لأنها تعرف القيمة الاجتماعية للشهادات، فهي عالم مألوف لها: "إنها سلطة العنف الرمزي" (بيير بورديو، 1972، ص 18).

رأس المال الاقتصادي والثقافي والاجتماعي

يؤكد بيير بورديو في كتابه "التمييز" *La distinction* (2000) على أن رأس المال الثقافي، شأنه في ذلك شأن الرأسمال الاقتصادي والاجتماعي، هو شكل من أشكال انتقال واكتساب الأوضاع الاجتماعية، أي إعادة الإنتاج والتحويل:

"إن استراتيجيات إعادة الإنتاج، وهي مجموعة من الممارسات شديدة الاختلاف إلى حد كبير والتي يميل من خلالها الأفراد أو العائلات، بوعي أو بغير وعي، إلى الحفاظ على تراثهم أو زيادته، وبالتالي الحفاظ على موقعهم أو تحسينه داخل بنية العلاقات الطبقية، تشكل (استراتيجيات إعادة الإنتاج) نظاما

- يعتبر هو نفسه نتاج نفس المبدأ الموحد والمولد - يعمل ويتحول على هذا النحو. ومن خلال الاستعداد للمستقبل، الذي تحدده في حد ذاته الفرص الموضوعية لإعادة إنتاج المجموعة، تعتمد هذه الاستراتيجيات أولاً على حجم وبنية رأس المال المراد إعادة إنتاجه؛ أي الحجم الحالي والمحتمل لرأس المال الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي تمتلكه المجموعة ووزنها النسبي في بنية التراث. أما وظيفة الدولة من جهة ثانية، فهي في حد ذاتها وظيفة دولة توازن القوى بين الطبقات ونظام أدوات إعادة الإنتاج، سواء كانت مؤسسية أم غير ذلك" (بيير بورديو، 1979، ص 145).

تسمى هذه الاستراتيجيات استراتيجيات التحويل. وهكذا، على سبيل المثال، وفي مواجهة انخفاض قيمة الشهادات الأكاديمية (وخاصة الشهادات الجامعية)، تحاول الأسر و/ أو الأفراد حماية أو تحسين وضعهم في الفضاء الاجتماعي عن طريق تحويل الرأسمال الاقتصادي إلى رأسمال تعليمي متميز (درجات الماجستير الجامعية، ودورات الدراسات العليا، والدورات في الخارج، وما إلى ذلك). فالطبقات الوسطى المهنية هي تلك التي تعلق أهمية قصوى على رأس المال الأكاديمي، لأنها تدين بموقفها لممارسة مهنتها، التي تعتبر درجة البكالوريا من الجامعة ضرورية.

يفسر رأس المال الثقافي عدم المساواة التعليمية بشكل أفضل ما دامت هناك "ثقافة مشروعة" يمكن تحديدها بوضوح، تسمح للأفراد الذين يمتلكون رأس المال الثقافي الرسمي هذا بتمييز أنفسهم، وهي ثقافة شرعية مهيمنة ومنفصلة بوضوح عن الثقافة المشتركة لعموم طلاب الثقافة المدرسية الذين ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية المنبوذة.

خاتمة:

غالباً ما يتم انتقاد بورديو بسبب بنيويته المفرطة وبسبب نهجه "المتشائم"، حيث أنه قام بتحليل إعادة الإنتاج فقط على حساب التغيير الاجتماعي الذي يعمل عليه نموذج سليلي للتنشئة الاجتماعية. لكن هذا الطرح تم انتقاده بما يسمى لاحقاً بنظريات المقاومة، التي تعتبر المدرسة مكاناً للنضال، حيث أن كل قوة مهما كانت طبيعتها تولد أشكال المقاومة الخاصة بها (الفردية والجماعية) فتخلق تناقضاتها كذلك، وهذا ما يفتح المجال أمام رفع إمكانيات التغيير الاجتماعي، سواء من خلال النضال السياسي أو من خلال العمل التربوي وفي المناهج والممارسات التعليمية.

لائحة المراجع:

- Pierre BOURDIEU et J.-C. PASSERON, La reproduction : éléments d'une théorie du système d'enseignement, Paris, Les Editions de Minuit, 1970.
- Pierre BOURDIEU et J.-C. PASSERON, Les Héritiers, Edition Minuit, 1973.

- Pierre BOURDIEU, "Champ intellectuel et projet créateur", *Les Temps modernes*, no 246, novembre 1966.
- Pierre BOURDIEU, "Espace social et pouvoir symbolique ", dans *Choses dites*, Paris, Minuit, 1987.
- Pierre BOURDIEU, *Langage et pouvoir symbolique*, Paris, Seuil, 2001.
- Pierre BOURDIEU, *Le Sens pratique*, Paris, Minuit, 1980.
- Pierre BOURDIEU, *Raison pratique, Sur la théorie de l'action*, Paris, Gallimard, 1994.
- Pierre BOURDIEU, *La distinction. Critique sociale du jugement*, Paris, Éd. Minuit, 1979.
- Pierre BOURDIEU., *Esquisse d'une théorie de la pratique*, Paris, Droz, 1972.

الأسواق المغربية في منظومة القيم الشفهية والمصادر التاريخية:

- منطقتا الغرب وزعير نموذجا -

Open air markets and in the organism of oral values and historical references

Gharb and Zair regions As an example

بوعزة الخلقي، أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي/ دكتوراه في الأدب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

البريد الإلكتروني: khalikibouazza@gmail.com

ملخص البحث:

سندرس في هذه الورقة البحثية الوظائف التي تضطلع بها الأسواق المغربية عبر تتبع كيفية تشكلها في منظومة القيم الشفهية بمنطقة الغرب، وحضورها في المجالات الاجتماعية والاقتصادية السياسية والتعميرية في قبيلة زعير، وبلوغ هذا الهدف سعت هذه الورقة إلى الحفر في المجال الغرباوي من أجل استكناه حضور السوق في الخيال الجماعي للمنطقة، وتبع الإسهام التي قام به كمؤسسة تاريخية في بناء قبيلة زعير. الكلمات المفتاحية: الأسواق المغربية - الوظائف والأدوار - منطقة زعير - منطقة الغرب.

Abstract:

In this paper, we will examine the functions of open air markets through researching their origins in the Gharb region. In addition, we will explore their existence in the social, political, and infrastructure sections in Zair region. To achieve our goal, we will use an exploratory method to dig in the importance of open air markets in constructing collective awareness and thinking in the Gharb region.

Keywords:

open air markets - functions and roles - Zair region - Gharb region.

على سبيل البدء:

ستتوقف هذه الورقة البحثية عند أهمية الأسواق والوظائف والأدوار التي اضطلعت بها في تاريخ المغرب، وللوصول إلى هذا المبتغى سنتوقف في ثلاث محطات أولها الإحاطة بالجهاز المفهومي، وثانيها تشرح منظومة القيم في منطقة الغرب، وثالثها استكناه مختلف الأدوار التي لعبتها في حياة قبيلة زعير، لذلك فإن هذه الورقة تروم الحديث عن الأسواق المغربية من خلال زاويتين، زاوية أولى سنحاول من خلالها تناول المستوى الثقافي، وزاوية ثانية سنخصصها للجانب التاريخي، ولإعطاء المقارنة بعدا واقعيا

سنحاول الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين المجال الغرباوي والمجال الزعري، بهدف تركيب صورة عن الوظائف والأدوار التي تضطلع بها الأسواق المغربية في مختلف مناحي الحياة، ولبلوغ هذا المسعى وسنمنا المحور الأول بالأسواق بمنطقة الغرب: قراءة ثقافية لمنظومة القيم الاقتصادية، وعنوننا المحور الثاني ب: الأسواق بمنطقة زعير: قراءة في المصادر التاريخية.

مشكلة البحث والفرضية:

تنطلق هذه الورقة البحثية من إشكالية في غاية الأهمية مؤداها: ما هي الوظائف والأدوار التي اضطلعت بها الأسواق المغربية؟

الدراسات السابقة:

شكل موضوع الأسواق موضوعا لمجموعة من المقالات والدراسات والبحوث والمؤلفات والأطاريح منها أطروحة ميلود سولمة: "قبيلة زعير: الإنسان والمجال والتاريخ 1873-1956"، وكتاب محمد أوحودو: "توجهات السياسة الحضرية الكولونيالية بالمغرب"، وصالح شكاك: "المغرب العميق، ورديفة الكبرى 1873-1956"، وغسان الكشوري في مقال موسوم ب: "التاريخ الاجتماعي والسياسي لأسواق المغرب"، ضمن مجلة زمان المغربية، إضافة إلى كتاب جون فرنسو تروان (Jean François Troin): الموسوم ب: "الأسواق المغربية".

المنهجية:

أما فيما يخص المنهج المعتمد في هذا البحث، فقد تم الاستناد إلى المنهج الوصفي التحليلي في قراءة المتون الشفهية بمنطقة الغرب، مع الانفتاح على المنهج التاريخي أثناء الحديث عن الأسواق في منطقة زعير، ولبلوغ هذا المسعى، سعت هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن الأدوار والوظائف التي تلعبها الأسواق.

الإطار النظري: الجهاز المفهومي:

قبل البدء، يمكن القول إن منظومة القيم تتشكل من قيم جمالية وأخرى أخلاقية، ومن القيم الرئيسة في هذه الشبكة نذكر القيمة الاقتصادية التي تتأسس عليها حياة الإنسان المغربي، وللحديث عن هذه القيمة نقف عند لفظة "السوق" التي تكتسي دلالات متنوعة منها الدلالة الثقافية والتاريخية على وجه الخصوص، وفي هذا السياق نستشهد بجون فرنسو بروان الذي أنجز بحثا في جزأين سنة 1974 درس فيه ما مجموعه 384 سوق في كتابه الموسوم ب: (Les Souks Marocains) أي بما مجموعه 45 من أسواق المغرب، ومن الخلاصات الأساسية التي وصل إليها أن عدد مرتادي الأسواق يصل إلى 5 ملايين، وتشغل ما بين (45 و75) يوم في السنة من حياة الفلاح، ويعتبر السوق عيدا بتعبير بروان وهو نفس

التوصيف الذي يحضر في التمثل المشترك المحلي، في حين يعرف الاقتصاديون السوق (أو الموسم) "بأنه مؤسسة تتكون من مجموعة من العرضين والطلبين، ويشكل مبدأ العرض والطلب أساس فعالية السوق، ولا تعتبر السوسولوجيا والأنثروبولوجيا، من جهتها، السوق عالماً مغلقاً في حد ذاته، بل إنه "مؤسسة مجتمعية متماسكة" كما وصفها كليفورد غيرتز" (غسان الكشوري، 2020، ص:9)، وهو نفس الطرح ذهب إليه جون فرانسوا تروان حيث وصفها "بالمؤسسات الحية التي لا ينبغي وضعها في مرتبة الذاكرة التاريخية" (غسان الكشوري، 2020، ص:9).

أولاً: الأسواق بمنطقة الغرب: قراءة ثقافية لمنظومة القيم الاقتصادية:

تحتل القيمة الاقتصادية دوراً محورياً في قبائل منطقة الغرب ويظهر ذلك بشكل جلي في المتون الشفهية، لهذا السبب سنحاول البحث في مختلف المظاهر الاقتصادية بمنطقة البحث منها على الخصوص الأسواق الأسبوعية التي تكتسي أهمية مركزية في قبائل الغرب.

1- مركزية القيمة الاقتصادية في المتون الشفهية بمنطقة الغرب:

استناداً إلى التحديدات المفهومية والقراءات المتعددة للمتن الشفهي الغرباوي من مختلف زوايا النظر القيمية، نستطيع القول إن كلمة "القيم" هي جمع قيمة، وانتقل المدلول اللغوي لهذه المفردة من الدلالة المجردة إلى الدلالة الحسية التي تمتح شخنتها المفهومية من عالم الاقتصاد ذلك أن "قيمة الشيء في اللغة ما يساويه مادياً، وقيمة البضاعة ثمنها، ومن هذا المعنى المادي انتقل لفظ القيمة للدلالة المجازية، فأصبح يدل على القيمة المعنوية لأي شيء، ثم اعتبرت القيمة معياراً لتقويم السلوك الإنساني، لأجل ذلك تعتبر القيم معايير للسلوك البشري الأخلاقي، أو معايير للتفكير في كل منحي من مناحي الحياة" (إدريس العلوي العبدلاوي، 2001، ص:215).

تحتل القيمة الاقتصادية مكانة محورية في منطقة الغرب، وهذا الأمر يعكسه التراث الشعبي عامة والغز الشعبي كجزء يتفرع عنه، وهنا نستشهد بما ذهب إليه الأستاذ مصطفى يعلى حيث نعت التراث "بوصفه مرجعية جذرية كما يعلم الجميع - له قيمة اعتبارية- لا ينكرها حتى خصومه، فرغم استعصامه بالماضي، تتدفق فاعليته منفتحة على الحاضر، شرط أن يحسن القبس والامتياح منه والاعتدال على التصرف فيه بالاستفادة الواعية والتحيين الهادف" (مصطفى يعلى، 1999، ص:8).

الصورة رقم 1: سوق الإثنين بمدينة مشرع ابن القصيري قرب نهر سبو، سنة 1967.



المصدر: (بوسلهام الكط، 2021، ص:137).

2- الأسواق الشعبية بمنطقة الغرب:

قبل الحديث عن "قيمة السوق" في المخيال الجماعي بمنطقة الغرب، وعن الأدوار والوظائف التي يلعبها السوق كمناسبة متعددة الأبعاد من الناحية القيمية، لا بد من رسم خريطة الأسواق بالمنطقة، من أجل رصدها والتعرف على توزيعها المجالي والزماني، وهنا نستدل بلائحة أسواق منطقة الغرب (إدريس كرم، 2004م، ص:51).

جدول رقم 1: تنظيم دورة الأسواق بمنطقة الغرب.

الأيام	الجنوب الشرقي	الشمال الغربي	الجنوب الشرقي
الأحد	أولاد جلول	حد كورت	تكنة / الشبانات
الاثنين	القنيطرة	عين فلفل / بلقصري	زكوة / جرف الملحة
الثلاثاء	سيدي يحيى الغرب	سوق الثلاثاء	لمساعدة
الأربعاء	عين الدفالي	سوق الأربعاء	سيدي سليمان
الخميس	دار الكداري	-	-
الجمعة	مكرن	للا ميمونة	الحوافات
السبت	دار بلعامري	لخنيشات	-

المصدر: عمل ميداني.

تلعب الأسواق الأسبوعية بمنطقة الغرب دورا كبيرا في تحريك عجلة الاقتصاد، إضافة إلى الأدوار الاجتماعية والثقافية التي تضطلع بها كفض مختلف النزاعات المرتبطة بالأراضي والزراعة، ومناسبة أيضا للزواج والتجارة والترويج عن النفس من خلال الفرجات الشعبية كالحلقة واعبيدات الرما وغيرها، وتنتشر الأسواق في منطقة الغرب بالقسم الشمالي وبالوسط، وتغطي كل أيام الأسبوع، وإن كان يوم الجمعة من الأيام التي تقل فيها بحيث لا يوجد إلا سوق واحد بالمكرن وآخر بللا ميمونة، فإن ذلك راجع إلى بداية الاستقلال حيث منع جيش التحرير إقامة الأسواق يوم الجمعة "حيث الرمزية الدينية لهذا اليوم في مجتمع تكتسي فيه صلاة الجمعة قدسيتها حيث يعرف النشاط التجاري شللا تاما على مستوى الرواج التجاري في الوسط الحضري التقليدي والأسواق المحيطة بالمدن بالوسط القروي، في مقابل يوم الأحد كيوم عطلة في المدن الجديدة المستحدثة من طرف الإدارة الاستعمارية" (محمد أوحود، أكتوبر 2016، ص: 42)، وقد لجأت السلطات الاستعمارية إلى هذا التوزيع الأسبوعي لغرضين:

- الغرض الأول: حتى لا يتم التعبير عن الحس الوطني ومقاومة الاحتلال، نظرا لما يكتسيه يوم الجمعة من دلالات دينية.

- الغرض الثاني: إتاحة الفرصة للمعمرين للتسوق أيام عطلمهم (أي يوم الأحد).

إضافة إلى هذه الأغراض السياسية والاجتماعية، ما هي الأدوار والمهام الثقافية التي لعبتها الأسواق في منطقة الغرب من الناحية القيمة؟
أ- البنية والتنظيم:

تتكون بنية السوق من مجموعة من الفاعلين: (الفلاحون البسطاء، الوسطاء، المنتجون، السواقة، المتسوقون، الحرفيون، أصحاب الخدمات الصغرى..)، وينتظم السوق مرة كل أسبوع، ويستغرق مدة يوم واحد، والسوق في الأصل - حسب تعبير بروان- "مدينة من قماش"، يستدعي تنظيمها أمرين، هما:

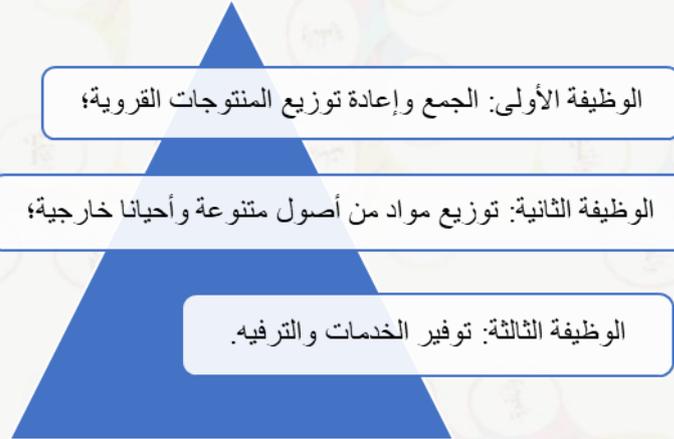
- الأمر الأول: يتعلق بالظرف الزمني إذ يتم تنظيم الأسواق مرة كل أسبوع، وهذا التحديد له ما يبرره من الناحية التديرية إذ يتم اعتماد معيار أداء الأجرة العمل في البوادي المغربية ومنها منطقة الغرب كل سوق ويطلق عليها لفظة "السيمانة" كما نجد أيضا في التمثل المشترك عبارة: "خدام بالسيمانة"، بدل العمل وفق التعاقدات القديمة: نحّاس/ ربّاع أو غيرها من الصيغ التشغيلية القديمة.

- الأمر الثاني: يتعلق بالظرف المكاني، إذ تم أخذ التنوع المجالي بعين الاعتبار، ولذلك يتم تنظيم دورة الزمن الأسبوعية عبر توزيع الأسواق مكانيا وفق جدول محدد ومضبوط، مثلا في منطقة الغرب (أنظر الجدول رقم:1).

هذا الأمر أفضى إلى تشكل شبكة أسواق حول مجموعة من المدن والحوضر تخضع للشرط الزمني في تنظيمها، غير أن طابع النشاط العرضي للأسواق لم يصمد أمام التحولات الديمغرافية التي عرفتها المنطقة، والتي لم تكن مانعا أمام ولادة مجموعة من التجمعات السكنية التي تحولت في ما بعد إلى مجموعة من المدن تحمل أسماء الأسواق، نذكر على سبيل الذكر لا الحصر مدينة سوق أربعاء الغرب وجماعة خميس ارميلة وسوق الثلاثاء الغرب نواحي بلقصابي وغيرها، وبالتالي فإن الأسواق لم تقتصر على الجانب الاقتصادي بل تعدته إلى الإضطلاع بمجموعة من الوظائف، وهذا ما أشار إليه إدmond دوتي (Doutté Edmond) حين قال: "إن حياة القبيلة تجري تقريبا في السوق الأسبوعي، ففيه يلتقي الأهالي، حيث لا يقضون حاجياتهم الاقتصادية عبر البيع والشراء فحسب، بل يكون السوق بالنسبة إليهم المكان الذي الذي يتم فيه تبادل الأخبار السياسية وتصدر فيه الأوامر وتسلم السلط" (Edmond,1905, Doutté) p144، وسنأتي على ذكر الوظائف والأدوار - بشكل تفصيلي - في المحور الموالي.

ب- الوظائف والأدوار:

تضطلع الأسواق الأسبوعية بمنطقة الغرب بمجموعة من الأدوار والوظائف، منها دورها الكبير في تحريك عجلة الاقتصاد، إضافة إلى الأدوار الاجتماعية والثقافية التي تضطلع بها، والتي اختزلها بروان في ثلاث وظائف:



ج- الدلالات الرمزية:

يعيش الإنسان الغرباوي في مختلف مناطق الغرب حياة البداوة المرتبطة بزراعة الأرض وحصادها، وبين المرحلة الأولى والثانية يعيش الانتظار؛ انتظار المطر والأعياد والموسم وكلها مناسبات سعيدة في عمر القبيلة، غير أن مدتها تستغرق فترة طويلة، ويبقى السوق "العيد الأسبوعي" الذي يشكل يوم عطلة ومناسبة متجددة كل سبعة أيام، لهذا الأمر يشكل السوق قيمة اقتصادية بمنطقة الغرب، ومن الحكم الشعبية التي أوردت هذه القيمة بين ثناياها نستشهد بالنموذج التالي:

- " الله يَحْفَظُ مَنْ ثَلَاثَةَ: الهَمَازِ وَالرَّمَازِ وَالغَمَازِ.

- الله يبعِدُ مَنْ ثَلَاثَةَ: الفِرَاقِ وَالغِرَاقِ وَالقِرَاقِ.

- الله ينجِي مَنْ ثَلَاثَةَ: الجَارَ المُنحُوسَ، وَمَاكَلَةَ المَسُوسِ، وَالْمَشِيَّةَ لِلسُّوقِ بِلَا فُلُوسٍ.

- لَا خَيْرَ فِي ثَلَاثَةَ: الكَذَابِ إِلَى قِرَاءِ، المَزْلُوطِ زَادَتْهُ نَخْرَةٌ، وَالشَّفَارِ حَاكِمًا مَرًّا.

- ثلاثة من لهبال: اللي هبط للبير بلا حبال، واللي جالس مع اجماعة ما راد البال، والمشية للسوق بلا

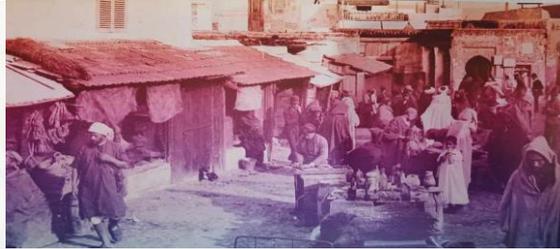
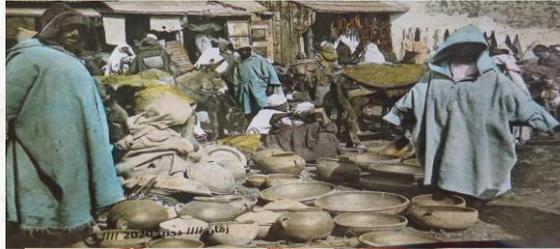
مال.

تحدثت الحكمة الشعبية عن أمور وجب الانتباه إليها منها عدم الذهاب إلى السوق بدون مال، إذ تعتبر من الأمور الشائنة التي تسيء إلى قيمة الفرد وحظوته، إذ من "العَارُ" أن يذهب الفرد بمنطقة الغرب بدون مال إلى السوق الأسبوعي الذي يعتبر محطة أساسية في حياة الفرد، ومن العيب كذلك عدم التسوق وجلب المؤونة التي تكفي لمدة أسبوع، وترتبط الليلة التي تعقب نهار السوق من اللحظات المهمة في حياة منطقة الغرب، وكل من لم يذهب إلى السوق وبقي بدون عشاء يعتبر إعلاناً لإفلاسه وفقده وبالتالي يستوجب تضامن الجيران وأفراد القبيلة معه، وإلا عد ذلك "عيباً" وأمرًا شائناً يحمل وزره الفرد (إذا لم يخبر بحاجته)، والجماعة والجيران (إذا لم ينتبهوا إلى الأمر)، وهنا نجد المرددة الشعبية التي تناقلها الشفاه:

- "عَيْبٌ يَبْقَى عِنْدَنَا شَيْءٌ حَدَّ بَلَا عَشَى لَيْلَةَ السُّوقِ!" (مرددة شعبية: منطقة الغرب).
عرف الاقتصاديون السوق (أو الموسم) بأنه "مؤسسة تتكون من مجموعة من العارضين والطالبين، ويشكل مبدأ العرض والطلب أساس فعالية السوق، ولا تعتبر السوسولوجيا والأنثروبولوجيا، من جهتها، السوق عالماً مغلقاً في حد ذاته، حيث لا ينصاع فيه الفاعلون إلا للدوافع والقيود الداخلية، إنه مؤسسة مجتمعية صغيرة كما وصفها كليفورد غيرتر" (غسان الكشوري، 2020، ص:9).
يتميز السوق بهالة القداسة التي جعلت منه عيداً أسبوعياً يعرف تجعاً للأحباب على موائد العشاء والتضامن والسؤال عن الفقراء والمحتاجين والتوسعة على الأهل والإكرام، ذلك أن السوق محطة زمنية فاصلة بين أسبوع مضى وأسبوع قادم.

أورد أحمد الزيايدي رواية تنتمي لمنطقة دكالة، نوردها لأهميتها - رغم اختلاف المجال - للوقوف عند أهمية التلاغر والتحاجي في الأسواق الأسبوعية، يقول فيها: "عرف عن القائد علي بن الدرقاوي أنه كان يتخذ له مجلساً يوم السوق الأسبوعي خميس الزمامرة بين المسجد القديم والمحكمة، بلجع الأحاجي من البدو الوافدين على السوق" (أحمد الزيايدي، 2007، ص:433).

الصورة رقم 2: أسواق مغربية



المصدر: (غسان الكشوري، دجنبر 2020، ص:9-11).

لم يكن السوق مناسبة أسبوعية للتسوق والتبضع وإنما كان مناسبة أيضاً للترويح عن النفس والتسلية والترفيه، ومناسبة أيضاً للتباري في حل الألغاز، وهنا نستدل بما حكاها: "أحد الرواة الذي حضر في أواخر الأربعينيات عدة جلسات كان يواظب على إلقاء الأحاجي فيها رجل من أولاد عمران بدكالة... وأن ابن الدرقاوي كان يكرم وفادتهم بهدايا، كما عرف عنه أنه كان يكرم كل من وفق في حل

أحجية استعصى عليه حلها، أو من حاجاه بأحجية جيدة لم يسبق أن سمعها من قبل، وكانت أغلب هداياه وعطاياه كسوة تقليدية (جلابة، وفرجية، وتشامير، وسروال، وبلغة، وعمامة)، مؤونة قمح وشعير وذرة" (أحمد الزيايدي، 2007، ص:433)، وفي هذا الصدد، نستدل باللغز(1) التالي الذي يظهر مركزية السوق في حياة سكان منطقة الغرب:

- "السين والسين ما هو ألف؟

ما هو ألفين؟

ما هو اثلاثة؟

حاروا الناس في احسابو؟

ايعشش و ايبيض، ويفرخ و ايطير من انهارو؟".

الجواب: (السوق).

يكتنف السوق الغموض ولا يعرف الناس قيمته المادية، هل هي ألف أم ألفين أم ثلاثة؟ (سين واسين ما هو ألف؟ ما هو ألفين؟ ما هو اثلاثة؟)، و حار الناس في حساب قيمته الاقتصادية والمالية (حاروا الناس في احسابو؟)، لهذا وصفه السارد بالطائر العجائبي والغرائبي الذي يصنع العش ويبيض فيه، ويطير منه في يوم واحد، هذه الصفات الخيالية، تحولت مع السوق إلى صفات واقعية، السوق تبني فيه الخيام (ايعشش)، وتم فيه التجارة (ايبيض)، ويرحل في نفس اليوم (ايطير من انهارو).

غير أن هذا التغير الذي يتصف به السوق بين الضمور لسته أيام متتالية والظهور في يوم واحد فقط، توقف بشكل نهائي لأن فضاءاته انتقلت من الوظيفة الاقتصادية إلى الوظيفة السكنية والعمرائية وتحولت إلى نواة لتشكيل مجموعة من المدن المستحدثة الثابتة، "فالملاحظ أن الكثير من الأسواق تحولت إلى تجمعات سكنية قارة امتد بعضها في شكل مدن صغيرة أو متوسطة، فسميت بأسماء الأيام التي كانت تعقد فيها والأمثلة كثيرة (في منطقة الغرب مثلا حيث المحيط القروي الممتد: سوق الثلاثاء، سوق الأربعاء...)" (محمد أوحود، 2016، ص:49).

إذا كان اللغز الشعبي الأول قد قام بتصوير السوق كفضاء حاضن للقيمة الاقتصادية، فإن اللغز(2)

سيصفه في جانبه الشكلي.

- "حاجيتك على السين،

والسين امصارنو ايسيلو

من بعد تسمع ازعلو؟"

الجواب: (السوق).

تأتي الناس إلى السوق فرادى وجماعات، ركبانا ومشاة، ومن كل الدواوير والمداشر، فتتحول جميع المسالك والطرقات والمنافذ إلى شرايين حيوية، تشهد حركة دؤوبة وغير متوقفة (أمصارنو إيسيلو)، ومن بعيد يُسمع ضجيجُه (مَنْ بَعْدَ تَسْمَعِ أَرْعِيلُو؟)، وقد ورد هذا اللغز في صيغة أخرى (3):

- "حَاجِيَتِكَ عَلَى السِّينِ
وَالسِّينِ طَالِكَ سَنَاسَلُ يَسْلُبُو
مَنْ حَدَكَ تَتَقَرَّبَ لِيهِ، تَسْمَعِ أَرْعِيلُو؟"
الجواب: (السُّوق).

شبه السارد السوق بالشخص الذي يكبل حيوانا متوحشا بقيد حديدي (اسناسل) ويطلق له العنان ليأخذ المال والمتاع من الناس، وكلما اقتربت منه سمعت زمجرتة وصوته القوي (أرعيلو).
وصف واضح اللغز "السوق" بأوصاف عديدة منها الوصف الذي قدمه في اللغز (4) الآتي:

- "حَاجِيَتِكَ عَلَى لَمْبَدِيَةِ بَسِينِ،
وَسِينِ اسْتِيَامَ وَهُوَ مَلِيُوحُ
وَأَنْهَارِ اسَابِعِ رَجَعَاتٍ فِيهِ أَرْوْحُ؟"
الجواب: (السُّوق).

أضفى السارد على السوق طابعا حيويا، وجعل منه كائنا حيا له روح، غير أن هذا الكائن يموت ستة أيام (استيَامَ وهو مَلِيُوحُ)، وفي اليوم السابع تعود إليه الروح (وانهار اسَابِعِ رَجَعَاتٍ فِيهِ أَرْوْحُ)، وبعد اليوم السابع الذي يحيى فيه، يعود من جديد إلى حالة الموت.

أضحى السوق باعثا للحياة في منطقة الغرب وفاعلا في ديناميتها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وآلية من آليات الإسهام في الرواج، ذلك أن "تنظيم السوق تبعا لجدول أسبوعي يؤدي إلى تكرار عمليات التنقل والحركة ضمن إطار دائري تنصب داخله كل الاستعدادات سواء بالنسبة للفلاح أو التاجر لقضاء حاجياتهم، والدخول في نشاطات موسعة" (محمد أوحدهو، 2016، ص:44)، لذا لا يمكننا النظر إلى السوق كبنية معزولة في الوسط القروي، بل إن السوق "لا يعبر فقط عن النشاط المحلي، بل وأيضا يعبر عن نشاط موسع يقوم به أفراد يأتون من مناطق بعيدة نسبيا عن مكان السوق، حيث يمكن ملاحظة هذه الظاهرة بالنسبة للأسواق الشمالية وبصفة خاصة في منطقة الغرب" (محمد أوحدهو، 2016، ص:44).

ارتباطا بالوظائف الأساسية التي ينهض بها السوق كمؤسسة تقليدية، نذكر الوظيفة الثقافية، ذلك أن السوق يرفض كل المظاهر المسيئة للقيم الرأبئة فيه، كالنصب والاحتفال والاحتكار والمضاربة والسرقة، وقد صور لنا اللغز (5) حالة السوق أثناء السرقة:

- "رأه رأه
والغوت أوراه؟".

الجواب: (اشفأر).

يتحول السكون والهدوء الذي يخيم على السوق إلى جلبة (والغوت أوراه) في حالة فرار أحد اللصوص، فرار من الموت الذي قد ينتظره إذا ما ألقى القبض عليه، لأنه خرق قواعد السوق، الذي يقتضي أن يكون مكانا للتجارة المحلية والتسوق وصلة الرحم واللقاءات الأسبوعية التي تفض فيها نزاعات الأرض، ويتم فيها البيع والشراء، وتعد فيه الزيجات، ومطاردة اللص من طرف الجميع هي محاولة للإبقاء على طهارة المكان من السلوكات الشائنة، وجعله فضاء لرواج القيم الاقتصادية والاجتماعية، حتى قيلت الأمثال الشعبية التالية فيه:

المثل الشعبي (أ):

- "لبغيتي تزوج المرأة، شوف أخوال أولادك في السوق" (مثل شعبي: منطقة الغرب).

المثل الشعبي (ب):

- "لبغيتي تعرف الإنسان سلفيه، أو سافر أمعاه" (مثل شعبي: منطقة الغرب).

المثل الشعبي (ج):

- "اللي سلفتيها، تلفتيها" (مثل شعبي: منطقة الغرب).

ذهبت الأمثال الشعبية (أ)، و(ب)، و(ج) إلى الحديث عن أهمية المعاملات المالية والتقديرية في النظام القبلي، ذلك أن الإنسان لا يحتل مرتبة رمزية في القبيلة، إلا إذا كانت معاملاته الاقتصادية نزيهة، وهذا ما أشار إليه المثل الشعبي (أ) حين ربط المصاهرة بمراقبة الأصهار في السوق، ذلك أن الصهر إذا كانت معاملاته جيدة في السوق فهذا دليل إيجابي على كون العائلة طيبة، ويمكن للخطيب أن يتقدم لخطبة الفتاة والزواج منها، في حين أشار المثل (ب) إلى قاعدة في غاية الأهمية حيث أكد على أن معرفة الوجه الحقيقي للإنسان يظهر بعد اقتراضه منك المال، ولكي يتجنب الإنسان الوقوع في المشاكل نصح المثل (ج) بعدم الإقراض.

مما لا شك فيه أن القبيلة الغرابوية تأسست على سلطتين، هما سلطة المعرفة التي يمثلها "شيخ الكلام"، وسلطة المال ويمثلها "شيخ أطعام"، وتلتاق السلم الهرمي للنظام القبلي، وبلوغ مرتبة "الشيخة" التي تعتبر

قته، لا بد من امتلاك سلطة المعرفة أو سلطة المال، لهذا تعتبر القيمة الاقتصادية من القيم المنشودة في منطقة الغرب، وقد وقفنا عندها من خلال مجموعة من الأشكال والمرددات الشعبية، ومن الأمثال الشعبية التي تعضد هذا المنحى الذي اتخذته سلطة المال في الخيال الشعبي الجمعي بالمغرب، نستدل بما أورده الأستاذ ادريس ازبوض في كتاب: "ألف مثل أمازيغي ومثلان" لبيان أوجه التلاقي الثقافي في نظرة الموروث الثقافي للمال واعتباره سلطة نافذة، حيث يقول المثل:

- "المال تيتكلم!" (مثل شعبي: منطقة الغرب).

عموما، يمكن القول إن السوق كان حاضرا لمجموعة من القيم منها على الخصوص القيمة الاقتصادية، وهذا ما جعل الباحث الفرنسي جان فرنسوا تروان (Jean François Troin) يعلن في دراسته حول الأسواق بالمغرب، عن انبهاره بالسوق كبنية سوسيو-اقتصادية وثقافية قائلا: "إننا نولي اندهاشنا لهذا التجانس الواضح بين هذه الأسواق، الشيء الذي يؤكد قدم وتماسك هذه المؤسسة التي تضرب بجذورها في عمق حياة الوسط القروي المغربي". (Jean François Troin, 1975, p79).

نظرا لما تكتسبه القيمة الاقتصادية من أهمية في تعاملات الأفراد والجماعات، وجدنا المتون الشفهية بمنطقة الغرب كالأمثال الشعبية والألغاز الشعبية والحكايات الشعبية والمرددات الشفهية بالمنطقة، تعمد إلى إبراز أهمية ومركزية السوق في حياة القبائل.

الصورة رقم 3: سوق مغربي



المصدر: (غسان الكشوري، دجنبر 2020، ص:9).

ثانيا: الأسواق بمنطقة زعير: قراءة في المصادر التاريخية:

تحتل منطقة زعير موقعا استراتيجيا جعلت منها محط أطماع مجموعة من القوى المتصارعة من أجل الاستفادة من خيراتها لذلك فإن هذا الأمر أثر بشكل سلبي على الحركة الاقتصادية التي لم تكن تنظم في أسواق أسبوعية قارة، وهنا نستدل بما ذهب إليه ميلود سواملة الذي قال: "بفعل انعدام الأمن والاستقرار، الناجمين عن طبيعة الاقتصاد الرعوي، والمواجهات الكثيرة التي اضطر أهل زعير إلى خوضها على مدى تاريخهم، أي منذ وصولهم إلى المنطقة لم يكن يسمح بمزاولة أي نشاط تجاري هام ومنتظم، وقيام أسواق قارة في بلادهم، رغم موقعهم الجغرافي الممتاز في منطقة قريبة من الساحل" (ميلود سواملة، 2023، ص:79)، وعلى الرغم مما كان يكتنف انعقاد الأسواق بمنطقة زعير من صعوبات ترتبط بالوضع الأمني المتسم بالانفلات فإن ذلك لم يمنع من تنظيم الحركة الاقتصادية في إطار أسواق أسبوعية نظرا للغني الفلاحي الذي يعرفه المجال الزعري الذي عرف بأراضيه الزراعية الشاسعة التي وصفها الأستاذ صالح شكاك بقوله: "شكلت منطقة زعير مكانا خصبا للعديد من المبادلات التجارية من خلال عدد من الأسواق الأسبوعية التي يأتي إليها التجار من كل حدب وصوب، بل اشتهرت العديد من أسواقها لدى القبائل المجاورة بحكم موقعها الاستراتيجي ومن سهولة المواصلات" (صالح شكاك، 2010، ص:46)، وتجدر الإشارة أن قبيلة زعير تحتضن أربعة عشر سوقا منها إثني عشر سوقا بقيادة الرماني وسوقين بضواحي الرباط، وفيما يلي أهم الأسواق التي تحظى بأهمية بالغة بزعير:

الجدول رقم 2: أسواق زعير وأهم روادها خلال القرن التاسع عشر

السوق	الموقع	الرواد
الأحد	الغولم	ولاد زيد - ولاد دحو - صيانة - الرواشد - الجمعة - التوزيع - الكدادرة - الخواريين الرباط - الزحيلكة
	البراشوة	النخيلة - الرماني - أهل عين عودة - أهل الرباط
الإثنين	عين السبت	الرماني الرباط - البراشوة
	عين العودة	الرباط - الرماني - سلا
الثلاثاء	مولاي ادريس اغبال	السهول - مناطق مجاورة
	ثلاثاء صيبارة	أولاد دحو - مناطق مجاورة

	سيدي زعير	الرباط - سيدي بطاش
الأربعاء	الرماني	أهل الرباط - الدار البيضاء - الزحليكة - مرشوش
الخميس	الزحليكة	أولاد موسى - اولاد عمران - النغامشة - الخواريين - العراعره - مولاي بوعزة
		الرماني - الغوالم - بني خيران - تادلة - مولاي بوعزة - الرباط - الدار البيضاء - مكاس - فاس
	سيدي بطاش	الشاوية - الزيادة - المذاكرة - الرباط - الدار البيضاء
الجمعة	جمعة مول لبلاد	المعازيز - عين السبيت - الرماني
السبت	مغشوش	الرماني - الغوالم - البراشوة
	الحلايف-بير النصر	الشاوية - الزيادة - المذاكرة

المصدر: (ميلود سواملة، 2023، ص:96).

كانت تخضع حركية الأسواق بمنطقة زعير شأنها في ذلك شأن باقي المناطق بالمغرب لعاملي المكان والزمان، ورغم بعض التغيرات التي يعرفها التنظيم بسبب مجموعة من المؤثرات الموضوعية المستجدة، فإن ذلك لم يمنع من الإبقاء على الشرط المكاني حيث كان التنظيم يخضع لشرط التوزيع المكاني عبر أيام الأسبوع، من أجل ملامسة كل المناطق الزعرية، كما كان أيضا يخضع لشرط الزمان أيضا، يقول سواملة في هذا الصدد: "إذا كان السوق ينتظم داخل يوم معلوم في جل قبائل زعير نهاية القرن التاسع عشر مثل سوق الخميس بالزحليكة وسوق الأحد بالبراشوة، فإنه لم يكن كذلك مع بداية هذا القرن، حيث كانت الأسواق متنقلة، تنتقل بتحرك القبيلة من مكان لآخر حسب الفصول، وبالتالي الحديث عن نوعين من الأسواق هما: سوق الصيف وسوق الشتاء" (ميلود سواملة، 2023، ص:79-80)، ونظرا للأهمية الإستراتيجية للسوق في حياة القبيلة التي لا يمكن الاستغناء عنها فإن المناسبات الدينية والسياسية والعسكرية الطارئة على حياة القبيلة لم تكن لتكون حائلا ومانعا للحد أو توقيف تنظيمها بل كان يتم الاعتماد على تحويل "السوق" إلى "سويقة" عبر تنظيم أسواق مرتجلة تسمى "السويقة" إما بتأخير أيام انعقادها أو تقديمها، بسبب المناسبات الطارئة كالأعياد والمناسبات.

وعليه، فإن السوق يحظى بأهمية مركزية في حياة الإنسان الزعري، لأنه كام بمثابة المحرك الاقتصادي، كما كانت الأسواق خلال القرن التاسع عشر تضطلع بمجموعة من الأدوار، منها:

1- الدور الاجتماعي:

من الأدوار الهامة التي لعبها السوق في حياة القبيلة أنه كانت تعقد فيه جلسات للصلح وللتقاضي داخل القبيلة أو بين زعير وقبائل أخرى، ومثال على ذلك ما أورده الضعيف الرباطي: "وفي يوم الأحد الموافق من عشرين رجب مرت لقبيلة ازعير بعض خيل العجبان فرقة من صباح تالماغت لسوق الأحد بحاجة على شأن الصلح مع ازعير ففرحوا بهم وأكرمهم (كذا) وباتوا عندهم واتفقوا على أن السارق بالليل يموت من الفريقين ويمشي دمه هدرا، وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب المذكور جاءت خيل ازعير لسوق الأربعاء المذكور فأتموا الصلح وزادوا (ذهبوا) أيضا لسوق انحميس الدغما" (الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي، 1428هـ/2007م، ص: 669).

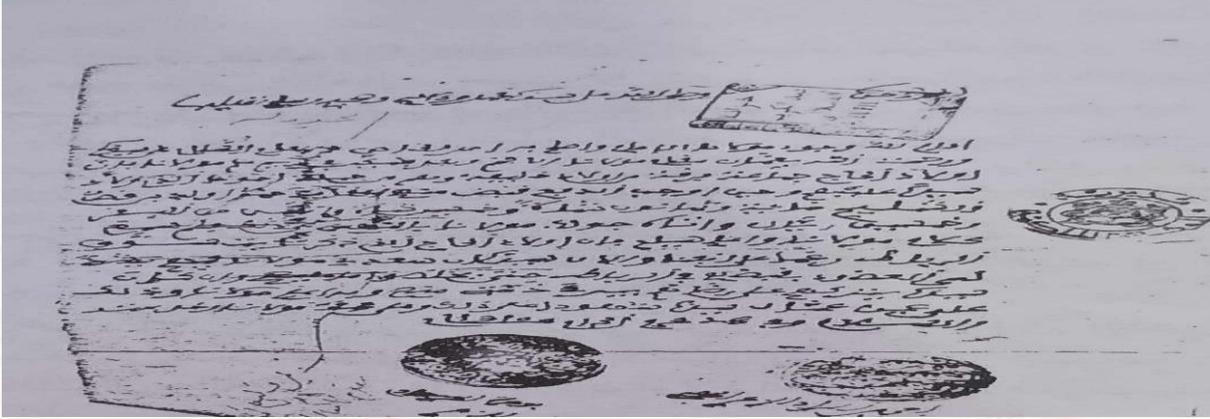
2- الدور الاقتصادي:

لعبت الأسواق دورا بارزا في الميدان الاقتصادي حتى أضحت وجهة مشهورة ومؤثرة، ويمثل هذا الأمر في كون زعير "وجهة مميزة لسكان المدن والمناطق النائية، وتكمن أهميته في تبادل الحبوب بين ساكنة زعير والمناطق المجاورة لها" (ميلود سواملة، 2023، ص: 81).

3- الدور السياسي:

ساهمت الأسواق في مجموعة من الأدوار الجوهرية منها الدور السياسي حيث كانت "مكانا للعديد من الأخبار والأفكار التي تروج داخل الجماعة والوقائع التي تحدث مع المستعمر، كما كانت العديد من القرارات السياسية المتمثلة في الخروج إلى الحرب أو الدعوة إلى السلم مع الأجانب موطنها لها" (محمد أوحود، 2016، ص: 38)، ونظرا لهذه الوظيفة السياسية الذي ذكرها الباحث أوحود والتي تظهر بجلاء الأهمية الاستراتيجية كبنية سوسيو-اقتصادية أسهمت في إنتاج القرار السياسي، فإن المخزن جعل من الأسواق سلاحا "سلاحا يلتجئ إليه في كثير من الأحيان بغية حصار مجموعة بشرية معينة كما تؤكد الرسالة التالية: "لأن أولاد الحاج الذي ذكرت يتسوقون الرباط رغما على أنفنا والأن سيدنا إن ساعدني فيهم يشد لي العضود (....) بقبضهم في الرباط حتى يخلصوا ما عليهم، وإن كان سيدنا يتركهم على رضاهم يبرئ ذمتي منهم" (رسالة حم بن المراد الزعري الخليلي إلى السلطان المولى الحسن، غشت 1892، ص: 126).

الصورة رقم 4: رسالة حم بن المراد الزعري الخليفة إلى السلطان المولى الحسن



المصدر: (الخزانة الحسنية، بتاريخ: 23 غشت 1892، الخزانة الحسنية، (كاش رقم: 126).

4- الدور التعميري:

إن أهمية السوق كجمال ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسي لم تثقف عند هذه الحدود بل تجاوزتها إلى الإسهام في نشأة مجموعة من الأنوية السكنية، حيث انتقلت الأسواق من الوظائف العابرة للمجال إلى الاستقرار المجالي عبر تحويل مجموعة من الأسواق إلى مدن صغيرة ومتوسطة تحمل أسماء الأسواق، ومن يمكن القول إن الأسواق أسهمت في نشأة مجموعة من القرى والمدن المغربية، وهنا يظهر الدور التعميري التي اضطلعت بمجموعة من الوظائف الاستراتيجية في مختلف مناطق المغرب.

تبعاً للأدوار التي ذكرناها فإن هذا الأمر دفع الكثير من الأنثروبولوجيين إلى الاهتمام بالأسواق باعتبارها بنية سوسيو-اقتصادية تكتنف بين ثناياها الكثير من التفاصيل الاجتماعية والثقافية والسياسية التي ساهمت في تشكيل صورة عن المجتمع المغربي، وشكل تجمعاً بشرياً تحول إلى نواة سكنية ولدت من رحمها مجموعة من المدن التي تحمل أسماء الأسواق التي كانت تتعقد في أيامها: (سوق أربعاء الغرب - سوق الثلاثاء سيدي يحيى بمنطقة الغرب)، حيث التف عنصرين: السوق من جهة وضريح أحد الصالحين المحليين في الجمع بين بركة الولي الصالح، والموقع التجاري للمكان كجمال تجمع القبائل والدواوير القروية الحضرية المحيطة يشكل السوق مكان تفاعلهم كمثل منطقة الغرب" (محمد أوحود، 2016، ص: 49).

على سبيل التركيب:

عموماً، يسلتزم الحديث عن الأسواق النظر إليها كمواسم تضطلع بمجموعة من الأدوار الرمزية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولعل المقاربة الثقافية والتاريخية أسعفتنا في الوقوف عند أهم

الوظائف الذي يضطلع بها السوق في مجالين مختلفين، وقد تعمدنا البحث إلى منطقتين/قبيلتين مختلفتين والنظر إليهما من زاويتين مختلفتين أيضا (الزاوية الثقافية/ الزاوية التاريخية)، بهدف استكناه القيم والأدوار التي تضطلع بها السوق في حياة القبائل المغربية، حيث تعدى الدور الاقتصادي والاجتماعي إلى الدور السياسي، حيث لعبت الأسواق دورا جوهريا في تشكيل هوية المجتمع المغربي من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعميرية، فإلى جانب دورها في مستلزمات الحياة القبلية فإنها اضطلعت أيضا بمجموعة من الأدوار الثقافية تمثلت أساسا في نقل منظومة القيم الشفهية والعمل على ترسيخها في وجدان الإنسان المحلي، لذلك فإن السوق مؤسسة تقليدية ساهمت في صناعة الوجدان الجماعي وبناء وعي الإنسان تبعا للأدوار التي كان يضطلع بها والتي تعدت حدود المجال الاقتصادي إلى مجالات أخرى تناولناها في المقال والتي يمكن إجمالها في الرسم التالي:



وعليه، فإن الأسواق المغربية لم تنحصر وظيفتها في مستوى واحد بل تعدته إلى مستويات متعددة، لذلك أمكننا وصفها بالمؤسسة التقليدية التي كانت تعلب مجموعة من الأدوار والوظائف المتعددة، التي تقاطعت فيها ترسيخ القيم الأخلاقية والجمالية والمساهمة في الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية، لهذا السبب فإن مقارنة هذا الموضوع استوجب النظر عبر نوافذ مختلفة من أجل استكناه الأدوار التي يلعبها والتي حاولنا اكتشافها في أكثر من مجال مغربي وداخل أوساط أكثر من قبيلة.

شروح مساعدة:

- (أمصَارُونُ): الأحشاء.
- (الشَّفَارُ): اللص.
- (جلابة، وفرجية، وتشامير، وسروال، وبلغة، وعمامة): ملابس تقليدية مغربية.

المصادر والمراجع:

أ- العربية:

- 1- أحمد الزيايدي: "الأحاجي الشعبية المغربية": مجالاتها وبنياتها ووظائفها ومقارنتها وخصائصها"، منشورات وزارة الثقافة، دار المناهل، 2007.
- 2- إدريس العلوي العبدلاوي: "مفهوم القيم في الإسلام ومدى اعتمادها كمصدر من مصادر التشريع"، مقال ضمن كتاب: "أزمة القيم ودور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2001.
- 3- إدريس كرم: "الأدب الشعبي بالمغرب: الأدوار والعلاقات في ظل العصرية"، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، المغرب، 2004.
- 4- بوسلهام الكط: "مشروع ابن القصيري: الإنسان والمجال"، مطبعة وراقة بلال، ط1، المغرب، 2021.
- 5- الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي: "تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان 1633-1812"، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيعي، المجلد الثاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط2، الدار البيضاء، 1428هـ/2007م.
- 6- رسالة حم بن المراد الزعري الخليلي إلى السلطان المولى الحسن، بتاريخ: 23 غشت 1892، الخزانة الحسينية، المغرب، (كاش رقم: 126).
- 7- صالح شكاك: "المغرب العميق، ورديفة الكبرى 1873-1956"، مساهمة في تاريخ الجهات بالمغرب المعاصر، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2010.
- 8- غسان الكشوري: "التاريخ الاجتماعي والسياسي لأسواق المغرب"، مجلة زمان، العدد 86، مطبعة إديال، الدار البيضاء، دجنبر 2020م.
- 9- محمد أوحود: "توجهات السياسة الحضرية الكولونيالية بالمغرب"، العدد 80، مطبعة بني ازناسن، سلا، أكتوبر 2016.
- 10- مصطفى يعلى: "امتداد الحكاية الشعبية"، العدد 3، موسوعة شراع الشعبية، طنجة، 1999.
- 11- ميلود سوايمة: "قبيلة زعير: الإنسان والمجال والتاريخ 1873-1956"، منشورات دار الأمان، الرباط، ط1، 2023.

ب- الأجنبية:

- Douité Edmond: Merrakech, Comité du Maroc, 1905.

- Jean François Troin : Les Souks marocains, marcher ruraux et organitatioin de l'espace dant la moitié nord du Maroc, AIX en Provence, EDISUD MIN, de l'éducation et C.N.R.S, 1975.

تمثيلات القناع في البنية الشعرية عند عبد الوهاب البياتي؛ قصيدة هكذا قال لي زرداشت نموذجاً

Representations of the mask in the poetic structure of Abdul Wahab Al-Bayati. The poem “Thus Told Me Zoroaster” is an example

فاطمه اعرجى، استاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران.

f.aaraji26@ut.ac.ir

امينه سليمانى، طالبة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران.

زهراء حسيني، طالبة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران.

الملخص:

تناولنا في هذه الدراسة ظاهرة القناع التي شاع استخدامها عند الشعراء لما تحمل هذه الظاهرة من قوت للروح وإظهار المسكوت عنه بأساليب فنية، فهي وسيلة للتعبير عن مكونات الشاعر فيما يخص الرفض لمختلف اتجاهاته وخاصة الاتجاهات التي تخص الأنظمة المهيمنة والقمعية أو الناعمة على حد سواء، والتي تتحكم في الفكر ويحرم المساس بها وبقوانينها. ولكن حقيقة وجود الإنسان وما تعانیه الأمم من اللاتكاسات والخيبات المتكررة، هي ما تدعو الأدب أن يبقى ذلك المتنفس وتلك المنصة التي تدعو إلى الحرية والخلص. ما يهمننا في هذا الموضوع، هي الجماليات الفنية التي تحلت بها هذه الظاهرة في شعر عبد الوهاب البياتي وفي قصيدته هكذا قال لي زرداشت تحديداً. ومن خلال دراسة القصيدة رأينا تصف هذه القصيدة فوضى العصر الحاضر وتدعو إلى الحركة والثورة وتصور انتظار البشر لمجيء المنجي ليغير الأوضاع الراهنة.

الكلمات المفتاحية: تمثيلات القناع، الشعرية العربية، عبد الوهاب البياتي، قصيدة هكذا قال لي زرداشت.

Abstract:

In this study, we discussed the phenomenon of the mask, which is commonly used by poets, because this phenomenon has the power to reveal and show what is hidden in artistic methods. It is a means of expressing the poet's inner beings regarding rejection of his various tendencies, especially the tendencies that pertain to the dominant, oppressive, or soft systems alike, which control In thought, it is forbidden to infringe upon it and its laws. But the reality of human existence and the recurring setbacks and disappointments that nations suffer from, is what calls for literature to remain that outlet and that platform that calls for freedom and salvation. What concerns us in this topic is the artistic aesthetics that this phenomenon manifested in the poetry of Abd al-Wahhab al-Bayati and in his poem, “Thus Zarathustra told me specifically.” Through studying the poem, we saw that this poem describes the chaos of the present era, calls for movement and revolution, and depicts people waiting for the Savior to come to change the current situation.

Keywords: representations of the mask, Arabic poetics, Abdul Wahab Al-Bayati, the poem “Thus Told Me Zardasht”.

المقدمة

وجد عبد الوهاب البياتي -الشاعر العراقي الحديث- التراث العربية والإسلامية والشرقية انسجاما مع رؤيته الشعرية فبحث عن أساطيرها ومزجها بالكتب المقدسة وما فيها من قصص وأشخاص وتاريخ واتخذ من شخصه رموزا وأقنعة. توظيف البياتي للرموز التاريخية والشخصيات الأسطورية ينطلق من رؤية عميقة تؤمن بالإنسان هدفاً أسمى، ولذا؛ فالقصيدة عنده ذات توجه إنساني وإيديولوجي، يهدف إلى تعرية نظام المجتمع ونظام السلطة وإدانة الزيف الكامن في بنيانه، إن للشعر عند البياتي وظيفة اجتماعية تحريرية، تسهم في تنوير الواقع وإعادة صياغته انطلاقاً من التزام الشاعر بحاضر مجتمعه والإيمان به. ومن بين الثقافات الشرقية، للثقافة الفارسية مكانها الخاص في شعر البياتي إذ أنه تأثر بأدب الفرس وثقافتهم في قصائده وترك التأثير الفارسي في الكثير من قصائد البياتي بصماته على شعره فيمكننا أن نسميه أكثر شعراء العرب تأثراً بالثقافة الفارسية. ومن الشخصيات والمدن التي أثرت على شعره: الخيام، نيسابور، مولوي، عطار، شيراز وزرادشت.

اسئلة البحث

تهدف هذه الدراسة إلى تبيين الدلالات التي تحمل الزرادشت في شعر البياتي وبيان كيفية توظيف الشاعر إياه محددة إطاره في الإجابة عن السؤالين والأول: ما مدى تطابق روح العقيدة الزرادشتية مع قصيدة سماها البياتي هكذا قال زرادشت؟ والثاني: ما هي المفاهيم الكامنة التي عالجها البياتي في مفهوم زرادشت.

فرضية البحث

نفترض أن البياتي يرى نفسه كمصلح لمجتمعه حيث استخدم التعاليم الزرادشتية لوصف الأوضاع الراهنة للمجتمع ولإشارة إلى واقع معاصر وعرض من خلال تجربته هو في الغربة والمنفى.

أهمية الدراسة

تأتي أهمية هذه الدراسة من حيث إنها تناولت مفهوم زرادشت وطبيعته الأسطورية في ديوان البياتي، من زوايا مختلفة، ومن حيث إنها تناولت توظيفه لها.

سابقة البحث

إن هذا الموضوع لم يتناول إليه باحث سابقاً فتطرق بعض من الباحثين إلى الموضوعات المتماثلة منها:

1. مقالة "الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي" لخالد عمر يسير، يعالج هذا المقال دوافع البياتي إلى الأسطورة؛ دوافع ذاتية ودوافع فنية وتوظيف الأسطورة؛ الوظيفة الفكرية والجمالية. 2. مقالة "آت كرار ودلالته في ديوان الموت في الحياة لعبد الوهاب البياتي" لإلياس

مستيري، يقوم هذا المقال بدراسة آلت كزار وهو ظاهرة من الظواهر الأسلوبية التي تستخدم لفهم النص الأدبي وقدم ثلاثة أنواع من التكرار: تكرار الحرف، الكلمة، الجملة والمقطع في ديوان الموت والحياة خلال قصائده المختلفة وتبين أن البياتي قد أغرم بالتكرار وقد ساهم هذا التكرار في تحقيق القيمة الدلالية، وتعزيز معنى العبارة، ومن ثم بناء القصيدة. 3. مقالة "الأثر الفارسي في شعر عبد الوهاب البياتي" لعيسى متقي زادة، وظهر المقال بأن تأثر البياتي بالثقافة الفارسية وشعرائها يجري في المجرى: الأول: تأثره بشعراء الصوفيين مثل المولوي والطارق، والثاني: تأثره بالنزعة الوجودية التي كانت تنصف بها الخيام في رباعياته. نلاحظ أن الدارس لم يتطرق إلى جميع مظاهر الثقافة الفارسية في شعر البياتي ولم يشر إلى زرادشت بل ركز على تأثير البياتي من الأب الفارسية في المفاهيم الصوفية فحسب. فنحن اعتمدنا في خطة هذا البحث على المنهج التوصيفي - التحليلي، ففي البداية درسنا نبذة عن زرادشت وتعاليمه ثم تم التطبيق بين العقائد الزرادشتية وأشعار هذه القصيدة وهو في عدد من المحاور الأساسية: الخمود وألن كت، انتظار البشر، الدعوة إلى الحركة والنشاط.

1. التعريف بالزرادشتية

"الزرادشتية ديانة منسوبة إلى زرادشت أو زراثشتر ZARATHUSHTRA وما ورد في كتاب AVESTA، وهو النبي الإيراني الذي عاش قبل المسيح بقرون، وسن سنة أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الإيرانية وما إلها أك كثر من ألف سنة قبل الإسلام، وقد عرف اتباع الديانة الزرادشتية في العربية وفي القرآن الكريم باسم المجوس معرب كلمة مك وصيا MAGUCIA البهلوية وهي في الفارسية مك بوش MAGUSH وفي اللغة الاقستائية مكأو MAGAV، تعرف اليوم في الفارسية الحديثة باسم مع MOGH؛ ومع لقب كأن يلقب به رجال الدين القديم في إيران قبل زرادشت وقد تسرب ك كثير من عقائدهم إلى الزرادشتية كتقديس. العناصر الأربعة (النار والتراب والماء والهواء) (محمدي، 1962م)

"الزرادشت عدة أسماء منها: زردشت، وزرشت، وزرادشت، وزرادشتر، وما يقرب من اثني عشر اسما غير هذه الأسماء (محمد عيسى)

يطلق العرب على النبي الإيراني اسم زرادشت وهو اسمه في الفارسية الحديثة وان اسمه في الفارسية القديمة زراثشتر وسمى في اللغة الفهلوية الفارسية زرادشت وأمه تسمى دغوها وتسمى في الفهلوية دغرافو وفي الفارسية الحديثة دغوروية (الغزالي، 2007م)

بناء على ما ذكرته الأخبار وتداولته الكتب فإن لمولد زرادشت غموضا تضاربت حوله الأقوال، إذ أثار مولده لدى المؤرخين جدلا، فمنهم من اختصر الكلام عنه بقوله: إنه النبي الإيراني الموحى إليه، عاش قبل ميلاد المسيح بقرون، وبوجوده ظهرت الديانة التي نسبت إليه، ونافست الديانات التي وجدتها: كالبوذية واليهودية والنصرانية، كما تبناها بعض ماوك الفرس ودافعوا عنه أزيد من ألف سنة قبل الإسلام (كرستنس أرثر)، ومنهم من يرى أنه شخصية وهمية أسطورية نسجت من الخيال، غير أن هناك من يرجع مولده إلى بلدة بلخ أو ناحية (كزن أو شير) في ولاية أذربيجان، والخبر نفسه وجد في الأبتاق الذي ألفه زرادشت، ووجد أيضا في الكتب الب سهلوية (بدوي، 1964م) "ويؤيد هذا الرأي أك أثر المؤرخين الإسلاميين، كابن خرداذبه والمسعودي والبلاذري وحمزة الأصفهاني وابن الفقيه وأبي الفداء، وأن مسقط رأسه" أرميه"، أما غيرهم كالطبري وميرخواند وابن الأثير يرجعون مسقط رأسه إلى فلسطين ومنها هاجر إلى ولاية أذربيجان، وعود إلى أسرة 0 سيستان الواقعة في الجنوب الشمالي من غرب فارس (محمدي، 1967م)

"أقامت التعاليم الدينية عند زرادشت على الاعتقاد بوجود قوة عليا علي: قوة الخير والنور وتسمى" اهوزا مازدا" وباسم" يزدان" وبجانها سبعة من الملائم كة الممثلين للفضائل السبع، وهي: الحكمت والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة واليك رغم، وبالاعتقاد أيضا بوجود شخصية ثانية شريرة وهي" أهريمان" بمعنى الشيطان (كرستنس أرثر)

تخيل الزرادشتيون بناء الكك وبن على النحو التالي. يمتد تاريخ وجود العالم اثني عشر ألف عام ونقسم إلى أربعة عصور طولا كل منها ثلاثة آلاف عام. ولم يكن في العصر الأول لا فكأرى ولا أشياء. وفي العصر الثاني خلق العالم الواقعي. وبعد العصر الثاني بدأ العصر الثالث. وقد استمر هذا حتى ميلاد زرادشت. ووقعت فيه كثرت من الأحداث المهمة، ومنها على وجه الخصوص، الطوفان. وعندما وقع الطوفان أنقذ إيما البشر والحيوانات. كما عمل في الوقت نفسه أيضا، الحاكم فيشتاسبا الذي منح زرادشت الملجأ واعتنق تعاليمه. وبدأ بعد زرادشت العصر الرابع من ارتقاء عالمنا. وإن يجب أن يظهر في كل ألف من هذا العصر ثلاثة مخلصين ينقذون الجنس البشري. إنهم أبناء زرادشت. والأخير منهم (ساوشيانت)، هو الذي سيقدر مصير الجنس والعالم كله. وفي عهده يحل زمن الرؤيا. فيهزم الروح الشرير، أي ينتصر الخير على الشر. "ميغ ولفني كي، أسرار الآلهة والديانات، ص 75-77" ورد في شعر البياتي أسماء أعلام ذات طبيعة أسطورية مثل عشتار، العنقاء، أورفيوس-زرادشت، وذلك عبر عناوين مثل: قصائد حب إلى عشتار-هبوط أورفيوس إلى العالم السلفي-العنقاء-هكذا قال

زرادشت. وهذه العناوين في مجملها تنحو سيموطيقا نحو فك مرة الخلاص عبر الحب والميلاد المتجدد الدائم الذي لا ينتهي (حسن محمد، 2002م). وربما جسدت الحالة اليبسة من البعث والتجدد، وتعقد الظرف الإنساني والحياتي أمام نظر الذات/ الشاعر ما دفعها دفعا لوضع زردشت لافتة لأحد عناوينه في قصيدة بعنوان هكذا قال زرادشت. وأتى العنوان متناصا مع عنوان آخر للفيلسوف الألماني نيتشه وهو هكذا قال زرادشت "مصدر نفسه، ص 58".

نقوم بدراسة قصيدة: هكذا قال زرادشت:

2. الخلود وألن كت

عبد الوهاب البياتي يرى أن "المعاناة والصمت والموت والثورة المضادة التي شملت العالم، والرحيل المستمر من منفى إلى منفى، وموت الشاعر العظيم جيفارا... هذا وغيره قادي إلى إيجاد الأسلوب الشعري الجديد الذي أعبر به، لقد حاولت أن أوفق بين ما يموت ولا يموت، بين المتناهي، بين الحاضر وتجاوز الحاضر، وتطلب هذا مني معاناة طويلة في البحث عن الأقنعة الفنية. ولقد وجدت هذه الأقنعة في التاريخ والرمز والأسطورة (البياتي، 1990م) تعين الشاعر على الربط بين الماضي والحاضر، وعلى التوحيد بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية، وتنقذ القصيدة من الطابع الغنائي، وتفتح آفاقها لقبول ألوان عميقة من القوى المتصارعة (عمر يسير)

يفرق العالم في العالم في الصمت ويرتد جواد الريح من هو كاعلى
أبواب ليل القادمين
ويناديك مغنيا وكهان حضرات الغزاة الفاتحين
والمحبون وأبناء السبيل
هذه الليلة مرت عدما، صفرا
وها أنت طريد
حاملا نارى إلى عصر جديد
رافضا كل الشعارات ومصلوبا على بوابة الرفض
وملعونا وحيد
تقتنى خطوك من منفى إلى منفى عيون المخبرين "المصدر نفسه"

حاملا ناري إلى عصر جديد تشير إلى انتهاء العهد القديم وابتداء العهد الجديد. كما أن النار كانت سبب انتهاء العهد القديم وابتداء العهد الجديد والتحول والتطور.

رافضا كل الشعارات ومصلوبا على بوابة الرفض تشير إلى رفض كل العلامات والإمارات وكل ما هو جديد. يعني أتى بشيء جديد لكن رفض.

وغرض الشاعر من هاتين الكلمتين "ملعون ووحيد" هو الثائرون الذين يريدون التغيير والتطور ولكن المجتمع لا يرافقه ولا يؤيدهم.

يقوم البياتي بهاتين العبارتين: "وها أنت طريد" و "حاملاً ناري إلى عصر جديد" بين نفسه وبين الزردشت اتصالاً ووحداً كليهما والغرض من هذا الاتصال والاتحاد هو أن يقول بأن هدفهما هو واحد. يتخذ الشاعر من صيغة ضمير المتكلم حين يحس أن صلته بها قد بلغت حد الاتحاد والامتزاج بها، وأن الشخصية قادرة -بملاحظتها التراثية- على أن تحمل أبعاد تجربته الخاصة، ومن ثم فإنه يتحد بها ويتحدث بلسانها، أو يدعها هي تتحدث بلسانه، مضيفاً عليها من ملامحه ومستعيراً لنفسه من ملامحها، بحيث يصبح الشاعر والشخصية كياناً جديداً ليس هو الشاعر، وليس هو الشخصية، وهو- في نفس الوقت- الشاعر والشخصية معاً (زايد، 1997م)

هنا تجدر الإشارة إلى أنه يرمز إلى أهورامزدا برمزيين ماديين وهما الشمس والنار. فالشمس في السماء والنار في الأرض. وهي العنصر الذي يمثل للناس تلك القوة العليا. فهي ليست عنصراً أولياً ساذجاً أبدياً أزلياً فحسب، بل هي أيضاً قوة مطهرة طاهرة نقية لا يمكن أن يتطرق إليها الفساد.

فمتى يهبط « زارا » ويناديك كما ناداه أطفال المحبوس كان أطفال المجوسيين يناديك بلفظة "زارا" لكن هذه المرة يناديك "زارا"، والنداء هو علامة النشاط والحركة والدعوة إلى الحركة ويدعوك "زارا" في هذه الليلة وبكل الخمود والنكت الموجودة فيها إلى الحركة والثورة.

استيقاظ الناس، يدعو "زارا" الشاعر إلى الحركة والنشاط:

هذه الليلة مرّت

سحقته قدم الصمت وأبليت ثديها العاري الطقوس

خلفتها طفلةً حبلى وأماً زانية

لجنود الطاغية

هذه الليلة أنثى حيوان ضاجعت أخرى وماتت عارية

دقت الساعات فيها ناعية

موت كلب الطاغية (البياتي، 1990م)

الشاعر ب"قدم الصمت" يخبر عن سكوت و نحمود الناس.
 هذه الليلة أنثى حيوان ضاجعت أخرى ماتت عارية: وصف الشاعر الليل بالحيوان الأنثى و ببقية
 الأوصاف ليبيّن تأزيم الأوضاع.
 أبلت ثديها العارى الطقوس: حرفوا المناسك الزردشتية في الليل و هذا يشير إلى تحريف الدين الزردشتي
 الذى ليس طاهراً و خالصاً.

3. انتظار البشر

البياتي \ في ك ثري من قصائده تكلم عن المبرش الذي ينتظره (زايد، 1997م) يطمح البياتي- بخوض
 التجربة الجديدة في الشعر العربي- إلى خلق القصيدة التي تك و من قدرة على التعبير عن (كندي،
 2003م) سنوات الرعب و الانتظار التي عاشتها الإنسانية (البياتي، 1990م) و أيضاً يمكننا القول بأن
 البياتي كان متأثراً برؤية نيتشه الذي أشار إلى هجرة زرادشت إلى الجبل، وإقامته عشر سنوات هناك
 ينفكر و تدبر الك و نغ، ثم انحدر بعد عزلته هذه إلى الوادي، حاملاً ناره و فك ربه الجديد نبيا
 و هادياً للبشرية. (نيتشه) فنراجع إلى الأبيات:

فتى بخيط «زارا» من جبال النوم و الموت إلى الشارع حرا و طليق

صارخا كالطفل في دوامة الخلق و إعصار الحريق (البياتي، 1990م)

إن زردشت هو المنجي الذي يريد المظلومون هبوطه من معقله إزاء هذه المعاناة و الغربة و النفي و السحق
 ليساعدهم على تخطي معاناتهم و آلامهم، كما هو منهج زردشت مع الأطفال الزرادشتيين من قبل.

متى يخبر عن الانتظار الطويل. و ينتظر البشر في العهد الحالي التغيير و التطور أيضاً.

و باستخدام كلمة \ "الجبال" \ قد أقام البياتي اتصالاً بين العهد المنصرم و العهد الحاضر.

يشير كلمتا \ "النوم" \ و \ "الموت" \ إلى الغفلة الناس و الأناس الخاملين.

تحمل \ "كلمة الطوفان" \ إلى الحركة و النشاط.

دوامة الخلق و إعصار الحريق تبين الحركة و التحول و الثورة و التغيير.

صارخا كالطفل: يقول البياتي في هذه العبارة: كما يولد الطفل بالصراخ، بلد أنت أيضاً في عصر الفوضى

و الاضطراب و لد مرة ثانية. ينتظر الناس أن يأتي زارا للمرة الثانية و أن يولدوا من جديد. لذا؛ فإن كلمة

الطفل تبين انتظار البشر لانتهاج الأوضاع المساوية.

و التاريخ يتحدث لنا أن: زرادشت- وإن كان قد أصبح لديه سرا الحكمت- إلا أنه لم يصبح واضحاً له تماماً

لماذا خلق الخير و لماذا خلق الشر. ولا كيف يجب على الناس أن يفعلوا من أجل أن يقضوا على الشر

و العناء. لهذا ذهب زرادشت إلى جبل و ظل واقفاً على جبل شابلان، يستوضح أفكاره شيئاً فشيئاً،

وتقدم في بطاء من حقيقة أك تشاله أن الخير خير دائماً... وإن الشر شر أبداً... تماماً كما يتقدم نحو فهم السبيل الذي يجعل الناس يعيشون كلهم أختياراً. وقيل أنه حدث ذات يوم بينما هو واقف على الجبل يفكر، إذ أحس فجأة بنشوة روحانية تغمره وتنشر في جميع جنبات نفسه وتملأها نورا وهاجاً. وقيل أنه أفاق من نشوته وعاد إلى إنسانيته بعد أن تك كررت التجربة الروحانية ثلاث مرات وعندما انتبه إلى نفسه قال: الآن سأنزل إلى الناس وأقود شعبي باسم أهورامازدا... من الظلام إلى النور... ومن الشقاء إلى السعادة... ومن الشر إلى الخير. عندما نزل زرادشت من فوق جبل شابلان مستعداً في حماس لإعلان حقيقة الخير والشر للناس، لم يكن أهل إيران مستعدين للإنصات إليه (مظهر)

مسيكا في يده خيط الدم الجارى وأقمار حضارات الجليد
حاملا نارى إلى عصر جديد
ومراعى وطنى النأى الحزين
ومن كك التيبى التى بللها الدمع وصيحات طيور البحر فى المنفى
وإذ كرى «ياسمين»

إن البياتى باستخدام لفظة "الدم الجارى" يشير إلى أن دم الثائرين لا زال يمتد وصار جارياً فى كل الأزمنة.

يمكن أن يك دون غرض الشاعر باستخدام هذه العبارة أن يشير إلى ممت لزردشت وقيم اتصال بين العهد الحالى ونشاطات الثائرين.

هذا الوطن الحزين والمتجمد والمغموم ينتظر العهد الجديد.

هذا القسم من القصيدة يحتوى على الرموز الفارسية الزرادشتية التى توقف القارئ أمامها وتشعل نيران الشيك والترديد فى نفس القارئ بالنسبة إلى التراث وأغراض الشاعر وللزردشت والنار الياسمين.

إن البياتى استخدم كلمة (زارا) بلفظه الفارسية ويمكن أن يك ومن الياسمين شخصية الشاعر الحقيقية المستقرة فى نفس الشاعر.

4 الدعوة إلى الحركة والنشاط

ومتى يهبط «زارا» من رفوف الكتب الصفر ليعرى وييجوع

في صحارى مدن الحب التي تنتظر الطوفان والفتح ونار المبدعين (البياتي، 1990م)

جاء في النصوص التاريخية أن الطوفان يستوعب العالم بأجمعه بعد ميلاد زردشت و ينتظره الطوفان بعد هبوطه الثانية. تشير هذا الواقع التاريخي في قصيدة البياتي إلى تقرب وانتظار الإنسان لظهور المنجي وأصحابه الذين ينشؤون التغيير والتطور.

"استحق العالم القديم بالنار وإنشاء العالم الجديد ونبي جديداً" تشير إلى أن العالم هو بانتظار التغيير والتطور. ويشير "الطوفان" إلى فترة ميلاد زردشت والحوادث التي تقترن بميلاده "انظر إلى ميغ ولفي كي، أسرار الآلهة والديانات، ص 75-77".

الغرض من "الفتح" هو الانفتاح الذي ينتظره الناس.

"إبداع نار المبدعين" تشير إلى نهاية العهد القديم وانقضاء الحركة القديمة وشروع العهد الجديد والحركة الجديدة.

مظلماً كأن شباني، قال لي، ما قال للنسر «ليبد»

ليلهم يأتي وها أنت طريد

تشعل النيران، هذا زمنا فيه يموت المؤمنون

في المتاريس وفي الحانات والصمت وأعماق السجون

هذه الليلة مرت وعلى الأرض ضياء كأن في الفجر يخون

لم يمت فيها سوى فأراً مريض

يا مواء القطط العمياء، يا باعة موت الآخرين (البياتي، 1990م)

تكرار جملة هذه "الليلة مرّت" يشير إلى الثورات و تحوّل العهد الراهن الكبت الذي يعيشه الناس واستخدم الشاعر "هذه الليلة مرّت" في هذه القصيدة أربعة مرات.

يستخدم الشاعر كلمة "ضياء" كثيراً في شعره ليقول إن الثورات التي حصلت في العالم لا تنتهي بالصبح ويُقضى عليها في المهده. ولا يتوّج هذه الثورات بالنجاح والنتيجة الوحيدة التي حصلت منها هي الفأر الميت، فأر المريض والهزيل الذي لا يقدم ولا يؤخر.

يخاطب الشاعر بائعي موت الآخرين الذين يسببون موت الآخرين ويقول: كانت نتيجة هذه الحركات الضعيفة هي سحق و هلاك الشريحة الضعيفة.

يمكن أن يكون غرض البياتي من بائعي موت الآخرين هو الطواغيت و الحكام المستبدّة أو أقرباؤهم الذين بسبب موت الآخرين، وإن يكن هكذا فهو يشير إلى ذلك الواقع التاريخي الذي اعتقل فيه الزردشت و أمر الكهان وسعوا أن ينتصبوا الزردشت إلى السحرة. إذ يحكي لنا التاريخ: راح حكماء القصر و كهنة عبادة الأوثان يتآمرون سراً على زرادشت وقالوا: إن هذا الرجل ساحراً شريراً. وكان لابد أن يرسل الملك رسلاً لتفتيش غرفة النبي، ومن هناك عاد الجميع حاملين رؤوس قطط و كلاب ميتة و عظاماً من كل نوع، و أظافر و شعرا مما كان يتخذ وسيلة للسحر في تلك الأيام و فوجيء الملك بما رأى فاصدر أمره بالقبض على الساحر زرادشت و إيداعه السجن (مظهر)

لم يعد «زارا» من الحج و لم يهبط الى الشارع في الفجر الحزين
فتي يشتعل الانسان في الثورة و الحب و في دوامة الخلق
و اعصار الحريق (البياتي، 1990م)

تنتهي قصيدة البياتي بهذه الجملات و العبارات: لا يأتي زارا. سيأتي الفجر. لكنّ الصبح هو حزين و هذا البيت متعاطف مع اعتقاد الزرادشتيين " وهي أن: و تحل نهاية الك و من، و تطهر العالم " بسيل من المعدن المصهور". و بعد أن يهلك العالم القديم بالنار، تبعث الككائيات التي كانت تعيش فيه إلى الحياة من جديد. يبعث كلهم: الأخيار و الأشرار. و سوف يندم هؤلاء الآخرين على ما أرتكبوه من شرور، و النون توبتهم. لكن مصدر الشر في العالم سيدمر مرة و إلى الأبد. سيتغير العالم. و تتحول الأرض و البشر. و تدخل الحياة على الأرض طورا جديدا. إنها لحظة انتصار الفرح، و نهاية الشر و الموت. و لذلك ينبغي انتظار لحظة. ميغ و ليفي كي، أسرار الآلهة و الديانات، ص 75-77. " بأن العالم الحالي سينتهي بانتصار الشر و لكن الانتصار النهائي و الحقيقي هو للخير و في الآخرة. و نجد في الشعر انتظارا لا يفلح و يتوج بالفوز. على الرغم من أن الليل و الظلام ينتهيان و يأتي الصبح و النور لكن لا يهبط الزردشت إلى الدنيا و لا يزال هذا الصبح حزينا.

لفظة "متى" و استخدامها من قبل الشاعر لمرات عديدة تشير إلى طول انتظار البشر برمته و ختامه في هذا المقطع هذا المقطع من القصيدة ختامة ظرفية باستخدام ظرف الزمان (متى) الذي يتكرر اربع (4) مرات، ليفرض على هذا المقطع هيمنة ظرفية، هذا من جهة و من جهة ثانية فهو يحدث نوعاً من

الموازنة بين أسطر هذا المقطع والمقاطع الأخرى والتاريخ يحق كي أن شبت الحرب بين إيران وتوران حول عقيدة زرادشت نبي الإله الواحد الحكيم .
بعد عدة معارك رهيبية انتصر الإيرانيون على توران، وأصبح زرادشت الذي كان سبب الحرب بطل شعبيا عظيما. وصارت كلمته قانونا وتعاليم مقدسة. أما في الثوران فقد كره الناس زرادشت وراحوا يديرون الخطط لانتقام ك بري.

(1) ومنذ ذلك اليوم، ولمدة سبعة عشر عاما، واصل التوراتيون مؤامرتهم على زرادشت والإيرانيين، وعندما شعروا بالقوة الكافية للدخول في حرب ثانية هاجموا مملكة إيران. وبعد وقت قصير حاصروا مدينة بلخ وفتحوها واندفعوا يحطمون أمامهم كل شيء.

(2) أما زرادشت فعندما كانت أسوار المدينة تنهار أمام أبناء توران. كان هو نفسه في معبد النار يصلي ومعه ثمانون من كبار الكهنت، يدعون ربهم أهورامازدا لإنقاذ شعبه ومناصرته في حربة المقدسة. وبينما هو راء كع أمام النار، اندفع الجنود التوراتيون داخل المعبد وطعنوا النبي العجوز في ظهره، كما أعملوا سيوفهم في الكهنت الثمانين، فسقطوا جميعا صرعى، وسالت منهم الدماء تلتخ جدران موقد النار. كما امتدت إلى النار المقدسة نفسها، فأخذتها. " المصدر نفسه، صص 309-310"

الخاتمة

بعد أن وقفنا على مضمون قصيدة "هكذا قال زرادشت" وجدنا أن:

زرادشت لا يمكن أن يكون منجياً للبياتي في المستوى القومي لأنه ليس رمزاً عريياً، ولا في المستوى الديني إذ قلّ الإسلام من أثر زرادشت، أما في المستوى الإنساني لن يعادل أثر زرادشت حضور الأنبياء في المجتمع، لكن البياتي ومع كل هذه التفاصيل يعلن شدة حبه بالنسبة إلى هذا الرمز واعتماده عليه لأنه يحس علاقة وطيدة بين الزردشت وزعاته الشخصية وتصرفاته في الحياة.

زرادشت لدى عبد الوهاب البياتي رمز للخلاص وأمل ينتظره إنسان هذا العصر المأزوم للعبور به إلى فجر جديد يتناهي فيه كل ما أرق حياة الشاعر ورتق صفوة ليعيش عالماً حراً جديداً. إن البياتي في قصيدة "هكذا قال زرادشت" يصور زرادشت كرمز واقعي لأحواله الشخصية، تزججه أحوال العلم والمأساة التي يعيشها الإنسان. فهو يسعى أن يقلّ من شدة هذه الآلام وحده هذه المأساة، فنراه حاضراً في كل قسم من القصيدة التي يتناول آلام العالم ومصيرته المأساوية.

ومن خلال مناقشة القصيدة رأينا تصف هذه القصيدة فوضى العصر الحاضر وتدعو إلى الحركة والثورة وتصور انتظار البشر لمجيء المنجي ليغير الأوضاع الراهنة.

إذن يتناسق ختام هذه القصيدة تناسقا تاماً مع تلك الرؤية الزرادشتية التي تعتقد بأن الشرّ وإن ينتصر في هذه الدنيا على الخير ولكن الخير سينتصر على الشرّ في الآخرة. وفي النهاية لا يسعنا إلا أن نتأكد على أهمية الثقافة الفارسية وتأثيرها في الأدب العربي في شعر الشعراء قديماً أو حديثاً ونحن حاولنا تسليط الضوء على مفهوم زرادشت وطبيعته الأسطورية في ديوان البياتي ولا ندعي أننا تطرقنا جميع أبعاد هذا البحث فهناك مفاهيم أخرى - كمجوس، شيراز، نيسابور - كثيراً ما استعمل في شعر البياتي ولا يتسنى البحث الإحاطة بها جميعاً بل نترك لغيرنا متابعة ما وصلنا إليه.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- الكتب العربية:

- 1- بدوي، أمين عبد المحمد، القصة في الأدب الفارسي، دار المعارف، 1964م.
- 2- البياتي، عبد الوهاب، تجرّبي الشعورية، دار العودة، بيروت، 1972م.
- 3- البياتي، عبد الوهاب، ديوان عبد الوهاب البياتي، المجلد الثاني، دار العودة، الطبعة الرابعة، بيروت لبنان، 1990م.
- 4- حسن محمد، عبد الناصر، سيميوطيقا العنوان في شعر عبد الوهاب البياتي، القسم الأول، ك له الآداب-جامعة عين الشمس. دار النهضة العربية 32ش عبد الخالق ثروت-القاهرة 2002م.
- 5- عشري زايد، علي، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دارالفكر العربي، القاهرة، 1997م.
- 6- فردريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فلّكس فارس، المكتبة الأهلية، بيروت د. ت، ص 27-28.
- 7- ريستنسن، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب وراجع عبد الوهاب العزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957
- 8- كندي، محمد علي، الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازكك والبياتي) دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 2003م.
- 9- محمدي، محمد، الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه، منشورات قسم اللغة وآدابها، جامعة لبنان 1967م.
- 10- مظهر، سليمان، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت.
- 11- ميغوليفسكي، أ. س، أسرار الآلهة والديانات، ترجمة حسان مخائيل إسحق، الطبعة الأولى، دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع سورية، دمشق، 2005م.

ب- المقالات العربية:

1. عبدي، صلاح الدين، "استدعاء التراث في مرآة اشعار عبد الوهاب البياتي"، فصلية النقد والأدب المقارن، العدد الرابع، 2012م.
2. الغزالي، علي كسار غدير سلطان، "العبادات والشرائع الدينية الفارسية قبل الإسلام ودورها في حضارة بلاد فارس"، مجلة جامعة كربلاء العلمية، العدد الرابع، كانون الأول 2007م .
3. كاظم، محمد عيسى، "الزرادشتية والإسلام أوجه الشبه في عقائد الديانتين"، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، العدد 14، د.ت.
4. متقي زادة، عيسى، "الأثر الفارسي في شعر عبد الوهاب البياتي"، مجلة إضاعات نقدية، العدد السادس، حزيران 2012م.
5. محمدي، محمد، "زرادشت وأصول الديانة الزرادشتية"، مجلة الدراسات الأدبية، العدد 2 و3 و4، صيف وخريف وشتاء 1962م.
6. يسير، خالد عمر، "الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي"، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد السادس عشر، شتاء 1392 هـ.ش

حركة البديع بين مكر البلاغة و بلاغة المكر

Al-Badi's movement between the cunning of eloquence and the eloquence of deception

أ.د/نورالدين الناصري-الثانوية التأهيلية-الجاحظ-اسفي-المغرب

Acha3ir11@gmail.com

ملخص:

حاولنا في هذه الورقة المتواضعة تسليط الضوء على كتاب (حركة البديع في الخطاب الشعري) للأكاديمي الدكتور سعيد العوادي، وتأصيل قيمته النقدية المتمخضة عن استنطاقه لأعمال شعراء البديع، ولم يكن بوسعنا التوصل إلى تلکم القيمة لولا فتحنا لحوار نقدي وواصف مع فصوله الأربعة، وقد مرت رحلتنا مع الكتاب عبر قراءتين: أما القراءة الأولى فحملت عنوان (مكر البلاغة تحد لعنفوان البديع)، متسائلين فيها عن مغزى نعتنا بلاغة الناقد ببلاغة المكر؟ وعن حقيقة هذا المكر؟ هل هي راجعة إلى حذق البلاغيين أم تجلّي في خصوصية نصوص أهل البديع؟ أما القراءة الثانية فعنوناه ب (مستويات المكر وتجلياته)، و همت العناصر التالية:

أ- مستوى الاختيار.

ب- مستوى المواقف.

ج- مستوى آليات الاشتغال.

الكلمات المفتاحية: حركة البديع-البلاغة-بلاغة المكر-شعراء البديع

Abstract :

In this modest paper, we have tried to shed light on the book (The Movement of Al-Badi') by Dr. Saeed Al-Awadi, and to establish its critical value resulting from his interrogation of the works of the Badi' poets:

The first reading, it was titled (The cunning of eloquence is a challenge to the power of Al-Badi'), in which we wondered about the significance of our calling the critic's eloquence the eloquence of cunning? And about reality of this cunning? Is it due to the cleverness of the rhetoricians, or is it manifested in the specificity of the texts of the people of Al-Badi'?

The second reading, we titled it (Levels of Deception):

A- The level of choice. B- The level of attitudes. C- The level of operating mechanisms.

Keywords/Al-Badi's movement - rhetoric - the eloquence of deception - Al-Badi's poet

أما قبل،

لا يسعنا - قبل فتح حوار نقدي أولي مع الكتاب المسمى "حركية البديع في الخطاب الشعري-من التحسين إلى التكوين"- بهذه الورقة التقديمية إلا التسليم بلذاذة هذا البحث/المشروع النقدي و متعته ؛ والمُشرعة أبوابه

و فصوله ومحصلاته على جملة تأويلات و قراءات للأستاذ الدكتور سعيد العوادي. وإنها لمتعة مزدوجة بامتياز :

-أما شقها الأول فيخص : نقد منهاج البلغاء و النقاد القدامى (و المحدثون سواء بسواء) نقداً لطيفاً.
-أما شقها الثاني فيهم : الكشف الخفي والمنير لمقاصد مدرسة البديع و روادها(من زاوية محددة هي رؤية الناقد و منحاه).

كما ننبه - أيضاً - إلى أن الورقة -قيد الدرس- لا تروم الفصل بين الشقين ، بل تدرسهما في شموليتهما نظراً :

أ- للتعالق الحاصل بين كثير من النقاد في رؤاهم و دراساتهم البلاغية (يكيطو، 2009، ص، 64) والتركيبية للبديع القديم.

ب-لأسلوب النقدي اللافت للدارس الذي يمتح من ما سبقه ؛ فهو إن رام استشهاداً أو مثلاً عقب عليه بما يستحق، و تراه (أي الأسلوب) مستنبطة طريقته و كلماته من أساليب الأمثلة المستشهد بها.

ج-وثلاثة الأثافي توظيف الناقد في كتابه المجتبي و استفادته كثيراً - ولباقة و حذق - من مناهج و تصورات حديثة في معاينة و تشخيص نوع شعري قيل عنه الكثير ، و تقول فيه من تقول حتى انقلب السحر على الساحر

و فشا المصنوع بين الناس و صدق فيه زعيمهم التيمي إذ يقول صادحاً :

وإذا أراد الله نشر فضيلة + طُويت أتاح لها لسان حسود (www.aldiwan.net)

هذا التنوع المنهجي، الذي سنحيط القارئ علماً به، ينتظم تحت إطار جامع و تصور ناظم هو " المنهج الأسلوبي الكلي " ؛ بما يعنيه من دراسة فنية للأساليب اللغوية التي يزخر بها المتن البديعي ، في أفق استخراج الجمالي وبنائه. و هو ما يثني بامتلاء موضوعه "البديع" و امتدادها في ما يستقبل من أيام القراءة و أزمته؛ نذكر من المناهج الموظفة نسبياً على سبيل المثال لا الحصر:

-الأسلوبية أو المنهج الأسلوبي- التداولية- نظرية الحجاج --جمالية التلقي (استقى منها ما يوائم مادته

وإن لم يُشر للأسف لمراجعها الأصلية مع ه.ر.ياوس في "جمالية التلقي" و مع ايزر في "فعل القراءة". واستعاض عنها بكتب مهمة هي "جمالية الألفة" لشكري المبحوث و "نظرية التلقي - إشكالات وتطبيقات - مجموعة من الباحثين".

- نظرية التناص - اللسانيات - البلاغة القديمة - نظرية التواصل - النقد الأدبي -- الشعرية¹ -
أما بعد ،

لما كان هدف الكتاب/الناقد متشعباً² - إلى حد ما- و مُلتفاً بدوره حول أهداف ثوانٍ من قبيل :
-الوصل بين علم البديع و الشعر من خلال دراسة سبعة فطاحل هم:(بشار بن برد-إبراهيم بن هرمة - منصور النمري -أبو نواس- مسلم بن الوليد - كلثوم بن مرو العتابي و أبو تمام) (المرجع نفسه،ص،18/17).

-الكشف عن تجليات البديع و اشتغالاته و انتقاد الدراسات البلاغية التي كانت راصدة فقط لا موظفة للبديع .

-تجلية القيمة الجمالية الداخلية (البنوية) للشعر البديعي.

-تتبع مصطلحات البديع و اختلاف البلاغيين القدامى حوله...

قلت، لما كان هدف الكتاب على ما ذكرناه ، كان حري بنا في هذه الورقة ذات المساحة الضيقة الدخول معه في حوار نقدي مفتوح و واصل ؛ بدل محاکمته - مسبقاً - بجهاز مفاهيمي شمولي لفصله الأربعة³، و ما جرى

و يجري بينها هي نفسها من تداعيات و تقاطعات حوارية مرنة و ماكرة، خولت لها و لقارئها الأول ارتياد آفاق و عرة المسلك (حسب ما يؤكد الدكتور محمد زهير غداة تصديره لهذا الكتاب)، و أفضج صعبة ؛ صوب بديعيات القرنين الأموي و العباسي .

هذه المسافة الزمنية ستمنحها عنها بالضرورة مسافة توتر نقدية ليست باليسيرة، و طاحفة باستفسارات مستقبلية:

- كيف خرج و يخرج الناقد المعاصر من شرنقة و ريق المصطلح الحديث و جاهزية المنهج المبرمج سابقا عليه، إلى ناقد متحقق الكينونة و منفتحاً على نصوص أُخرى؟

¹- إذا استقرأنا الكتاب قيد الدرس سنكتشف أن الناقد يستحضر لمصطلح "الشعرية" أكثر من دلالة: فرة يدل عنده على شاعرية الشاعر، و طورا يعني به دراسة الأدب و أسلوبه، و طورا آخر يدل على التناص. وقد يتصل عنده بالفعل الإبداعي أو الأدبية.

² - نقصد بالتشعب هنا أن هدف الناقد يتمدد و يتطط مع كل درب يسلكه في البحث.

³ هي بالتتابع: حركية البديع بين الاعتراض و الاقتراض -فاعلية التوازن-توترية المفارقة-دينامية المحاج

- ما هي القيمة المضافة التي ستمنح عن استنطاق آثار/أعمال شعراء البديع الضاربة في القَدَم ؟ و ما هي الرؤية التي حكمت منجزهم الإبداعي ، و جعلت المجالين من النقاد- خاصة المتأخرين منهم- يحتكمون

إليها في بلاغاتهم ؟

لا غرو، أن انفتاح الكتاب على نصوص الماضي من شأنه أن يشعر القارئ إما بنخبة أمل وإما بتعديل في أفقه وإما بتزكيته ؛ وهو ما وقع فعلاً بدرجات متفاوتة . و كان حظ البلاغيين المتأخرين أفضل من غيرهم ؛

فهذا " حازم القرطاجني " رغم الأثر الأرسطي البادي على مؤلفه " منهاج البلغاء و سراج الأدباء " ، إلا أنه عرف كيف يستقطر البعد الجمالي من الشعر و النثر/الخطابة ؛ و من ثمة يحظى بنصيب من ثناء صاحبنا عليه

و تجميده إياه دون موارد و في أكثر من مناسبة . يقول: " إذا كان كثير من المحدثين يستقبلون ثقافة الآخر دوغماً تقيص و تدقيق ، فإن حازماً كان أدق نظراً منهم .." و يضيف: " فهذا تصور عميق من رجل حقيق

يجب أن يأتّم به كل باحث جاد ."(المرجع نفسه، ص، 250)

القراءة الأولى: مكر البلاغة تحد لعنفوان البديع

نصطفي من هذه القراءة جملة قضايا ذات طابع إشكالي قينة بقطف اليانع من ثمار البديع، و هو قطف لا بد لنا منه لاعتبارات جمّة نورد بعضها على النحو التالي :

- ارتباط كتاب " حركية البديع .." بنصوص تراثية تهم الهوية العربية الإسلامية ثقافة و أدباً و نقداً .
- اقتارنه بحركية محددة هي بديع "مدرسة البديع" المشهودة في العصرين الأموي و العباسي .
- اعتراف صاحبه من مصادر معرفية و مناهج شتى ؛ و هو اعتراف و التقاط ، و تلق حصيف أوقعنا معه في شباهة بأريحية سمحة- راغبين لا مكرهين- نحن القراء .
- انتساب مشروع القارئ الناقد ضمن " نظرية التغيير" في النقد الأدبي بصورتها المغيبة لا بصورتها المجترأة الأحادية الجانب .

أما عن تساؤلاتنا المزعومة و المزمع تقيصها قدر المستطاع ، فنذكر :

السؤال الأول : ما السبيل المثلى لتحليل فصول "حركية البديع" ؟

السؤال الثاني : بأي معنى يحق لنا نعت البلاغة المكشوفة من طرف الناقد ب " بلاغة المكر " ؟

السؤال الثالث : أين يتجلى مكر البلاغة حقاً ؟ هل في حدِّق البلاغيين القدامى و المتأخرين أم في خصوصية نصوص أهل البديع للمحتفى بهم من منتجي الخطابات الشعرية ؟ أم تخضع البلاغة "لتأويلات المستهلك بحسب حاجياته منها أو بحسب وعيه بتلك الحاجيات؟" (بلكبير، 2011، جريدة عدد، 2601)

+السؤال الرابع: (ونعده إشكالا مسلوكا لا مسكوكا)، ما طبيعة العلاقة بين نسق الشعر و نسق البلاغة كما تم تسطيرها و تدوينها في كتب الأوائل ؟

يصعب تقديم إجابات مفصلة لكل سؤال على حدة . مع ذلك ، نقول بقليل من الحذر إن البلاغة بمحولاتها اللغوية و الاصطلاحية و الثقافية ، و ما يستتبعها من مفاهيم كالبديع و البيان و المجاز و المعاني، ترتبط بالنص . بمعنى آخر : " كل نص هو بشكل ما بلاغة" (الخميري، 2013، ص، 100). مما يستلزم معه حدُّو النعل بالنعل " أن لا بلاغة بدون تبديع " (العوادي، 16، 2013). على معنى أننا نفضل ها هنا المطابقة (من التطابق المرادف للتماثل) بين البلاغة و البديع درءاً لكل اختلاف، و لو أن اختلاف يبقى وارداً خارج أسطر هذه الورقة.

فهو في "حركته يزيد من خلق مفاهيمه" (العيد، 1987، ص، 10)، و نقصد به مفهوم البلاغة المرادف هنا للبديع ؛ و العكس صحيح أيضاً. و لا أدل على ذلك نسقية العنوان الأصلي للكتاب " حركية البديع.. "؛ فالحركة لا تكون إلا بعد سكون و انقطاع و انحطاط. فإن علم هذا، فلنتأمل روعة العنونة الصغرى المقرونة بالعنونة الكبرى (من التحسين إلى التكوين)؛ فحرفاً الجر يتملصان خروجاً من الدائرة النحوية الضنك إلى سعة البلاغة ليكني بهما عن الحركة السابقة و الجهة المتقصدة :

[[←.....←]]

و بدأ، يكون مفتاح / عنوان الكتاب قد كشف اللثام من أوله ، و أزال اللبس من جانبه، و عرّض بالقضية و أجزاءها و بالبديع و مآله.

-القراءة الثانية: مستويات المكر وتجلياته

أ-مستوى الاختيار: (استفدنا هنا من الخلفية النقدية للدكتور الخميري، 2013، ص، 111/124) و بهم-بالدرجة الأولى-المتن المنتخب من قبل الناقد لتجلية و إمطة اللثام عن مواقع الجمال لنصوص شعرية محددة للمبدعين السبعة السالفي الذكر. فاختياراته تمت بناء على دراسة حثيثة للبلاغيين و النقاد قدامى و محدثين، ممن توسل فيهم ميلاً واضحاً أو خفياً إلى تبني قضية " البديع " مبدأ و ممارسة . وأهمهم: +النقاد القدامى : الجاحظ-عبد القاهر الجرجاني-ابن المعتز-حازم القرطاجني..

النقاد المحدثون: محمد عبد المطلب-محمد الواسطي-محمد العمري..
ويمكن القول ، إن صاحبنا لا يهدف إسقاطاً ساذجاً لسمة " البديع " على النصوص الشعرية المنتقاة، كما فعل "محمد الواسطي" الذي لم يدرس في رأيه البديع المتكامل ؛ كما لا يسعى لاستجلاء هذه السمة بشكل آلي ، بل يذهب بالأمر والتنقيب كل مذهب وينزع إلى مبدأ-يكاد يكون غفلاً من أهله- هو اعتباره كل نص شعري في حد ذاته بديعاً ، وبخاصة ، نصوص أهل البديع التي أصابها الحيف لحظة اتهامها بالتكلف والتعمل من قبل المجالدين لها من متلقي الشعر وأدعيائه.
وهو ما أدى بالمناقشات اللاحقة إلى أن نتوقع في أوصاف بعيدة و نتوجس خيفة من مراودة الشعر البديعي ، بدعوى، غياب المعاني الشريفة والصحيحة والأوصاف المطبوعة ؛ وخير مثال يساق في هذا المضمار-على ما كان من التلقي السلي لبديع الشعر- هو رد فعل القراء المعاصرين للشاعر أبي تمام زعيم أهل الصنعة بلا منازع.وذلك، في معرض استفسارهم عن معاني شعره ومقاصدها-بغرابة وفداحة(موقع الوراق)(www.alwarraq.com):

+لم/لماذا تقول ما لا يفهم ؟

+فما كان من جواب أبي تمام إلا أن قال مستفسراً بدوره ومستغرباً :

+و لم/لماذا لا يفهم ما أقول ؟

يكشف الحوار المقدم المدى الذي بلغه شعر البديعيين من خلخلة وتشويش على الوضع القائم، والتقاليد المتبعة في التأليف/النظم الشعري وقتئذ ، والتي لا بد خضعت من جملة ما خضعت له-علاوة على عمود الشعر-لذوق الجمهور الأول وتلقياته.

وهو ذوق ذو أفق توقع خاص تربى على سماع المطبوع من الشعر وما تستلذ الأنفس ضداً على كل جديد مستحدث ومولد. "وقد قيل إن أجود قصائد البحري زعيم أهل الطبعة هي تلك التي لم يفهمها ممدوحه ولم تلق الترحيب عندهم" (العمري ،1993،ص،83).

لنتساءل نحن أيضاً-بهذه المناسبة-وبغرابة لا تنكر :

إلى أي حد سيطرت و تسيطر سلطة النقاد و "حكام الشعر" على ذوق الجمهور ؟ وهل يملك الجمهور العادي ذوقاً مستقلاً ، به يصل إلى الدلالة العميقة والحقيقة المغيبة المراد إثباتها أم لا ؟ ثم كيف نميز -أخيراً-ذوق/أفق القارئ العادي(أو المستمع) من تلقي و ذوق القارئ الناقد؟للأسف لم تميز نظرية التلقي في نسختها مع ه.ريابوس بين القارئ العادي والناقد. وهو ما عمق من أزمتها وضاعف من انتقادات معارضيهما ، بل وصل الأمر إلى حد اقتراح أنماط متفاوتة من القراء وتأرجحهم بين: القارئ

النموذجي أو المثالي (أيزر)-القارئ الخبير (ريفاتير) -القارئ اللامركزي (ر.بارت) ..
(الناصرى، 2009، ص، 81/78).

وقد يحصل أن يعقد الناقد في كتابه (حركية البديع ..) مقارنة بين شاعرين من شعراء البديع السبعة، وهي مقارنة فرضتها طبيعة الفصل الأخير المسمى (دينامية المحاج)، من جهة، وفرضتها زيادة أبي تمام من جهة أخرى. وهي بدعة حسنة استحسناها الناقد بهدف إذكاء شمولية البديع ومشروعته، وبالتالي إخراجها من الغموض إلى الإبانة والوضوح. بل يستبدل الناقد البيان اللاف والحمجة المشفوعة-بنوع من المكر مبین-بهذا الغموض، ويدمغه فإذا هو زاهق. إذ يعلق على وصف الأطلال عند كل من أبي نواس وأبي تمام بقوله: "فإذا كان أبو نواس يعد البكاء على الأطلال فعلاً عابثاً، فلأنه ينظر إليها نظرة حسية، فإن أبا تمام يدافع عن الطلل ويحاجج عنه بطريقة غير معهودة فينظر إليه نظرة إحساسية." (العوادي، 2013، ص، 261)

ولنا أن نتساءل: هل من الضروري أن تتطابق الدلالة الجزئية المقصودة منذ إنتاجها مع تأويلات الناقد اللاحقة؟

يبقى الجواب منفتحاً على تعدد من القراءة والتأويل، شرط أن نضع في الحسبان طبيعة الشعر البديعي وظرفيته؛ بما هو كلام مخيل يبلغ باللغة أشده ويشب عن طوق البيان والمعاني المطروقة التي تلوكها ألسنة الرواة، بلهيب الحب وأغراض الشعر المستغرقة.

+إضاءة (1):

لا بد من التذكير أن كثيراً من المعاني الشعرية لم تقصد لذاتها لسبب من الأسباب؛ ليبقى مكون "اللاشعور" عنصراً خفياً ومتأبياً عن الرقابة الجمالية والذائقة الشعرية للشعراء أنفسهم بله النقد في قصديتهم المعلنة لسبر أغواره وهيئات هيئات.

نستحضر بالمناسبة قصة اندهاش أبي نواس وإعجابه لتفسير الفتيين لبيت له (موقع الديوان) (<https://www.aldiwan.net>). يقول:

-ألا فاسقني خمرًا وقل لي: هي الخمر+++ ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهرُ

إنه الحلقة المفقودة في "حركية البديع" وباقي المصنفات والتحقيقات التي تحاول -جهد المقل- أن تدلّو بدلوها في الموضوع نفسه. ولأن الشاعر في غمرة النسيج والخلق الشعريين، ينتشي قبل إخراج معانيه الجديدة إلى حيز الوجود/النص، ويقول ما لا يشعر به، ويخفي ما يشعر به؛ فكيف السبيل للنفاد إلى نواة "اللاشعور" وبنيته وتجاوز عقبة النص البديعي والأسلوب المقفى المرصع؟

+إضاءة(2):

ناهيك من مكون آخر موجود غير مفقود ، و هو في حضوره أشد صعوبة ؛ الأمر يتعلق بمكون الإيقاع/الوزن الذي ينزلق من قبضة مستعمليه-يستوي في ذلك أهل البديع و أهل البيان - ويتحكم هو في نظم القصائد لا العكس.ولا أدل على ذلك، ما اكتشفه الخليل بن أحمد الفراهيدي من وجود "بحور مهملة لم يجدها في الشعر الذي تصدى له بالاستقراء والوصف" (بلمليح، 1995، ص57)، ولم يعثر لها على ما يقابلها من النماذج الشعرية.

ب-مستوى المواقف :

نستهل هذا المستوى بمحاولة أولية للإجابة عن السؤال الثالث بما فحواه: أين يتجلى مكر البلاغة حقاً؟ هل في حذق البلاغيين القدامى و المحدثين أم في خصوصية نصوص أهل البديع من الشعراء المحتفى بهم أم في تأويلات المستهلك؟

إن ناقدنا يقف إزاء البلاغة العربية القديمة التي ارتبطت نشأتها بقوانين تفسير الخطاب (كليطو 2006، ص63)، بترساناتها النقدية و أعلامها الأفذاذ في تفاسيرهم للنصوص الشعرية و الأدبية بعامة، موقف البليغ المجادل و الشاك المتربص؛ و كأني به ذلك القارئ العريف الذي أشار إليه الدكتور أحمد بوحسن على أعقاب "ه.ر.ياوس" ، وأشار عليه بقوله: " ذو حظ كبير أو معقول من المعرفة المكتسبة من جراء معاشرته للنصوص وتبنيه للسنن الفنية التي تميز جنساً أدبياً عن آخر. و لا تكتسب هذه المعرفة إلا عن طريق الدراسة و الممارسة. و يكون القارئ مدركاً لتوالي النصوص في الزمان، بحيث ينفذ ببصيرته إلى النصوص التي تأتي باختلالات أو تشويشات جديدة على التقاليد الفنية القديمة. ثم يلتقط القارئ تلك البذور الفنية الجديدة التي تقود على طرح تساؤلات جديدة على الانتظارات التقليدية الجارية المعهودة " (بوحسن، 1993، ص29).

و لا أدل على هذه السمة الفريدة التي خولت له نقداً، نعهه نقداً مزدوجاً (الخميري، 2013، ص، 77،/78) بمعنى الكلمة- يجمع بين نقد نقد النصوص و نقد النصوص مما يعطي لعمله طابع الانفتاح المعرفي على روح العصر- ما نلاحظه من التساؤلات الكثيرة الملازمة⁴، ليس فقط لمقدمة الكتاب و خاتمته، بل أيضاً لأبواب الكتاب الأربعة؛ وهي تساؤلات تغوص بعمق في إستيم البديع و تحوم حوله حتى تبلغ منه الجهد. فيغدو المفهوم أداة إجرائية ذات دينامية و إشعاع ، و مفتاحاً له لرد - و لم لا - صد بعض التأويلات المغرضة .

⁴ سنشير إلى بعضها عند مستوى (آليات الاشتغال) وكيف يتحول السؤال الإنكاري إلى أداة للاشتغال ووظيفة بناءية و مازكرة

يقول في معرض الحديث عن البديع و مبدئه الأساس التكوين: "لا يكون حسن ظواهر البديع في القول الفني حسناً عرضياً، مضافاً من الخارج ، بل إنه يكون حسناً ذاتياً نابعاً من الصميم ، لأن النص الأدبي يستجلب نحوه هذه الظواهر وليس العكس. من أجل تلبية حاجات جمالية و فنية عديدة". (العوادي، 2013، ص، 31)

ويقول قبل ذلك : " و اقتضت هذه النظرة التهميشية للبديع من جمهور البلاغين أن تعد البلاغة لديهم مخصوصة بالمعاني و البيان فقط ". (المرجع نفسه ، ص، 30) و لكي يُحوّل تلكم النظرة التهميشية للبديع إلى أخرى تكوينية ، سيعتمد إلى التقاط و زرع بذور فنية جديدة تكشف سر النصوص الشعرية البديعية، مسنده في ذلك و ضالته " علم الأسلوب " و ما يقدمه من فسحة جمالية و فحس دقيق للغة النص و بنياتها و تنظيماتها كما هي في ذاتها دون حكم معياري .
وإذا نحن رُمنّا تلخيص البذور الفنية الجديدة-المستتبّة هي نفسها- من لدن الناقد في كتابه المعطى ، ألفيناها أربع بالتمام و الكمال:

-البذرة الأولى: اعتراض البديعيين على أسلافهم يجمع بين: تعارض التفكير و تعارض التعبير .
-البذرة الثانية: اعتبار الإيقاع في البنى البديعية أصلاً و ليس وظيفة، مما يعني إدماج التوازن و الدلالة في ثنائية واحدة.
-البذرة الثالثة: توظيف المتون الشعرية للظواهر البلاغية عن طريق أسلوب الطباق المتنوع و مفارقة المقابلة المختلفة الاستعمال.
-البذرة الرابعة: الكشف عن الحركة المحجاجة للبديع بوساطة صنفين من المحجج؛ المحجج الصناعية و المحجج الجاهزة.

ج- مستوى آليات الاشتغال:

أهم آلية اشتغل بها الناقد-في تحليل أسلوبية البديع- هي آلية "السؤال و الجواب". و لعلها مقولة انقدحت أمامه من كثرة احتكاكه و قراءاته للنظريات الألمانية حول التلقي و القراءة ؛ مع ذلك ، نصح هنا أنه لم يطبق "منهج جمالية التلقي"، بل عمل على إعزاز خطابه النقدي بما استجد في حقل الأسلوبيات.

ويقول " ياوس " بصدد الآلية السالفة المستقاة بدورها من أستاذه ه. غادامير: " هي ذي روح منهجنا التأويلي المنطلق من السؤال ، الذي يطرحه علينا اليوم جواب التأويل التقليدي من أجل العودة إلى السؤال الأصلي. كما يمكن إعادة تشكيله افتراضاً و الوصول ، من خلال تغييرات الأفق المقابلة لـ "التحقيقات" المتعاقبة إلى السؤال المتجدد الذي "ينطوي عليه النص من أجلنا" و الذي يتعين

علينا طرحه اليوم والذي سيجيب عنه النص-ضمناً-أو لن يجيب عنه". (ياوس، 2003 ، ص 163).
لنؤكد مرة أخرى أن هذه القولة-الشهادة هي للاستئناس ، ولا تعني بالبحث و المطلق تأطير كتاب الناقد
و مشروعه ضمن جمالية التلقي ، إنما - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - يتأطر خطابه النقدي تحت ما
يسمى ب: النقد المزدوج (نقد نقد النصوص ونقد النصوص).

لقد وظف صاحبنا المبدع والمبتدع بعض مبادئ التلقي (منها أفق التوقع/الانتظار-الفراغات أو
البياضات-وجهة نظر الجواله..) بمكرية لافتة مبتدعة عبر التتبع الخدق لأقوال القدامى؛ دليله إلى ذلك-
إضافة للأسلوبيات-تذوقه الفني للشعر البديعي (والعربي بعامة) للشعراء المذكورين الذين دافع عنهم ما
أمكنه ذلك . فرمزية السؤال عنده

- بالتحليل الأخير - تحمل في طياتها أموراً :

+ أنه (أي السؤال) يفتح قضية البديع على مصراعها ، فيغدو نقده بهذا الصنيع جدلياً .
+ أن السؤال هو نفسه يمثل رداً على أدعياء التأويل و محدودي الرؤية ممن أدرجوا "البديع" ضمن
صبغيات و وأصباغ لا عمل لها سوى التبعية للتشبيهاات المألوفة وللأوصاف المتقاربة وللإستعارات
المتناسبة و بعض

الأغراض البيانية المعتبرة .

+ أن السؤال يغدو بدوره جواباً ، على معنى أنه حمال لأجوبة . و للنابه أن يستشف الأمر بنفسه من
النماذج المقدمة له ، وإليكم بعضها:

نفضل الأمر إذن في ما نزعمه عبر أمثلة جديرة بالتأني و التأني :

أ- السؤال الاستشراقي-النصي :

ومثاله استفسار الناقد حول " كيف وظف البديعيون أسلوب الطباق في منجزهم النصي ؟ و ما هي
الإفادات الجمالية التي يمكن استشفافها من هذا المنجز إذا قاربنا الطباق من جوانب لونية أو حركية أو
نغمية " ؟ (العوادي 2013 ص،9) أما الأسئلة الاستشرافية الخارج نصية فنجدها في صفحة (332)

ب- السؤال الموجه أو المعارض :

كقوله : " هل يمكن الحديث في بلاغتنا العربية عن مثل هاتين البلاغتين المتدابرتين (يقصد بلاغة
الأسلوب وبلاغة المحاج) ؟ " (المرجع نفسه ، ص ، 249)

ج- السؤال -الجواب :

و هو إشكال عام، يقول مثلاً: "هل تعاقد جماعة من الشعراء، يشكلون حركة شعرية قائمة الذات على طريقة واحدة في النظم هو تعاقد ناتج عن صدفة وحالة اعتباط أم طريقة خاصة في التفكير والتعبير على حد سواء؟" (المرجع نفسه، ص، 9)

في المحصلة:

راهنت القراءتان السابقتان - ما أمكن - على استكّاب بعض القيم المضافة من بديع " حركية البديع..".
ويمكن القول-صراحة- إن هذا الهدف المسطر من قبل ، لم يتبلور على النحو المطلوب ، وأنى له نظراً للعلل التالية :

-أولاً- لأن القراءة راوحت بين وصف مقتضب لأهداف البديع وبين محاولة بلوغ عتبة " قراءة تأويلية- نقدية " لاحت في الأفق مفضلة " عدم الانطلاق من مبدأ حسن النية ما دامت ستبحث في ما وراء مظهر الخطاب " (لمحيداني، 1995، ص، 9) ، والخطاب النقدي بالتحديد.

-ثانياً- مزاج الناقد نفسه-أحياناً-بين عنصري التنظير والتطبيق في بعض المداخل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تجنبه البحث المضني لحقيقة بعض الأبيات البديعية. وإن كلاً لا نعدم وجود تدخلات

وتأويلات نسقية من جانبه للأبيات المستشهد بها .

وبذا ، يجمع تحليله النقدي بين متعتين : متعة البحث العلمي (الجهد الفكري) لقضية البديع ، و متعة التدوق/التلقي الفني .

-ثالثاً-ضيق المقام وسرعة تلقي الكتاب أثرت في الإخراج النهائي لهذه الورقة. والحال ، أن قيمته تسعف على التأني وحسن تدبير فصول البديع ووجهته وحركته التي- ولا شك-تجري لمستقر لها.

-أخيراً وليس آخراً، إبقاء الناقد على بعض الأسئلة مفتوحة في وجه القارئ ، أرغمه على " طرح أسئلة لا تزال تؤرق ذهنه وتقلق خاطر " (العوادي، 2013، ص، 332)، وهي تتراوح بين :

-سؤال الخطاب القرآني المعجز.

-سؤال النصية .

-سؤال المنهج/النظرية المرتبط بالبديع.

سؤال الخطاب الإشهاري

المصادر والمراجع:

احمد بوحسن. نظرية التلقي والنقد الأدبي (مقال) ضمن كتاب نظرية التلقي. إشكالات وتطبيقات. منشورات كلية الآداب-الرباط-1993.

إدريس بلهليح. المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام. منشورات كلية الآداب الرباط. 1995

حميد لحيداني. الخطاب الأدبي (مقال) ضمن كتاب (من قضايا التلقي والتأويل). منشورات كلية الآداب الرباط 1995. ص 9

سعيد العوادي. أسئلة البديع. عودة إلى النصوص البلاغية الأولى. المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات-مراكش ط 1-2009

حركية البديع في الخطاب الشعري. من التحسين إلى التكوين. دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع الأردن-ط 1-2014

عبد الفتاح كليلطو. الأدب والغربة-دراسات بنيوية في الأدب العربي. دار توبقال للنشر-المغرب-ط 2-2006

عبد الواسع الحميري. الكاتب والكتاب والمكتوب. (كتيب العربية) مجلة ع 58-2013
ه. ر. ياوس. جمالية التلقي. تقديم وترجمة رشيد بنحدو. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. ط 1-2003

يمنى العيد. في القول الشعري. دار توبقال للنشر-البيضاء. 1987. ط 1

مجلات و مواقع :

جريدة المساء المغربية. عدد 2601-2011

عالم الفكر. مجلد 37 عدد 3-2009

موقع الديوان www.aldiwan.net

"الوراق" www.alwrraq.com

أطروحات:

نورالدين الناصري. التلقي الجمالي في الكتابات القصصية الحديثة-أعمال أحمد بوزفور نموذجاً- (أطروحة) مرقونة - كلية الآداب-ظهر المهرز-فاس-2009

بنيات تشكيل المحكي العجائبي وحضور الخيال العلمي في الخطاب الروائي المغاربي

Structures of forming the wondrous narrative and the presence of science fiction in the
Maghreb novel discourse.

غازي عتيقة- دكتوراه- جامعة محمد الخامس-الرباط-المغرب

البريد الإلكتروني ghaziatika@gmail.com

ملخص:

تتخذ رواية "مدينة الرياح" للروائي الموريتاني موسى ولد ابنو استثمار معطيات متعددة تسعى من ورائها إلى التأصيل والتجديد، ويعد العجائبي إحدى أهم هذه التقنيات التي حاول الكاتب الإفادة منها وتطويرها عبر رسم ووضع حدود جديدة للرواية المغاربية الحديثة.

وقد شكلت هذه الآلية بما يضع القطيعة مع كل ما هو مألوف وخرق وتجاوز لكل ما هو سائد، معلما بارزا في الرواية المغاربية عموما، ورواية "مدينة الرياح" على وجه الخصوص، عبر اعتمادها ما هو فانتستيكي وغرائبي وواقعي يطرح الكثير من المقولات عبر مثلها الحكائي، الشيء الذي أكسبها الفريدة والتميز في التاريخ الأدبي وكذلك على مسار الرواية المغاربية الحديثة.

كلمات مفتاحية: الغرائبي، العجائبي، التجريب، استشراق، استرجاع، التجريب، كتابة جدية للرواية، الخيال العلمي، التفاعل النصي.

Abstract :

The novel "City of the Winds" by the Mauritanian novelist Moussa Ould Ibno takes multiple data that seek to root and renew, and the wondrous is one of the most important of these techniques that the writer tried to benefit from and adapt by drawing and setting new boundaries for the modern Maghreb novel.

This mechanism, which places a break with all that is familiar and violates and transcends all that is prevalent, has formed a prominent landmark in the Maghreb novel in general, and the novel "The City of the Winds" in particular, through its adoption of what is fantastic, strange, and realistic, which presents many statements through its narrative form. The thing that gave it uniqueness and distinction in literary history, as well as in the course of the modernist Maghreb novel.

Keywords : thefantastic ;imaginary ;Anticipation ;Retrievaland ;Experimentation; novel writing; science fiction; textual interaction.

تقديم:

لقد استطاعت الرواية المغاربية حديثاً أن تحقق ثراءً فنياً متميزاً، لا سيما خلال الفترة الأخيرة من القرن العشرين ومطلع القرن الراهن، حيث تمكنت على يد جيل طموح تواق إلى التجديد والتجريب من تأسيس ملامح تجربة إبداعية وسردية متكاملة، لها خصوصياتها وأماراتها التي تعبر عنها، تنحو سمت التأصيل كما تشتغل بتكريس خطاب روائي مهووس بالبحث عن أشكال فنية وتعبيرية قد تعين هذا الجيل الروائي على إثبات هويته وتشكيل نصوص ذات معمارية مطبوعة بسمات التجاوز والمغايرة الحداثية والكتابة التي "تخطت الالتزام الاجتماعي والسياسي، ومكنت الكاتب من التعبير عن رؤاه تجاه واقعه. وقد اقتضت المتغيرات التي صاحبت الكتابة الروائية المعاصرة لدى الروائيين المغاربة جدلاً استراتيجياً في سيرورة التحول التقني والأسلوبي، كما استلزمت رهانا حيويًا على مستوى التجديد والاختلاف وتقديم مشهد لمشروع واسع، هاجسه تشييد جمالية وشعرية للخطاب الروائي المغاربي. وحتى الآن يصبح البحث عن حداثة الخصوصية مكوناً رئيساً في الكتابة الروائية المغاربية، انطلاقاً من تناولها للذات والتاريخ والأسطورة، متبينة عبر هذه المحاور وما يتفرع عنها التعبير عن رؤية أو حلم بالانتقاد والتشريح والسخرية والحوار والشخصيات، وضمن كل هذا يحضر العجائبي، من حيث هو عنصر وبنية، باعتباره أسلوباً آخر في التعبير، ورؤية تستند على تصور ومعرفة تؤسس لخطاب معين. فكيف يحضر العجائبي في "مدينة الرياح"؟ وما هي مستويات تحقيقاته؟ وما دلالة توظيفه؟.

1. آليات وتمظهرات العجائبي في رواية "مدينة الرياح":**1.1. عتبة العنوان بين الألفة والغربة:**

يمكننا رصد مظاهر العجائبي انطلاقاً من العنوان، ولعل القارئ عندما يقف على عتبة عنوان هذه الرواية التي تشكل نموذجاً متكاملًا وجريئاً من الأدب الموريتاني، الذي يسعى إلى الانفلات من التقليد إلى التجاوز، حتى يلفت انتباه الدارسين إلى جمالية بنيته "مدينة الرياح" (ولد إبنو، ط1، 1997)، فقد جاء هذا العنوان مكوناً من مقطع واحد تتألف بنيته من مسند (خبر)، يمثّل في لفظ "مدينة" المضاف إلى "الرياح"، أما المسند إليه (المبتدأ) فمحذوف لوضوحه وسهولة تقديره، والتقدير "هذه مدينة الرياح". فهذا يمثّل تناقضاً صارخاً في حد ذاته، فلقد جاء اسم نكرة معرف بالإضافة، يفتح على دلالات متعددة وكثيرة تم التعبير عنها بإشارات لغوية وفكرية دالة عليه، إشارات يستنبط منها ذلك الزمن الماضي المتجدد القريب البعيد. إن علاقة تكوينية العنوان وفق هاتين الكلمتين يشكل تبايناً في دلالاتهما، ذلك أن المدينة تمثل العمران والحضارة والاستقرار وتكفل للناس العيش في طمأنينة وسلام، على الرغم مما توحى به من رمزية الضياع والخوف والغياب لدى بعض الدارسين، لكن هذا

تحول عن الأصل وما لا يجب أن يكون، فموسى ولد أبو ناشد من خلال الرواية تلك المدينة الضائعة في واقعه، التي يتلمسها في أحلامه وغفوات يقظته، إنها الأمل الذي يسعى وراء إدراكه من خلال هذا الملفوظ الذي يحمل زحما من الدلالة والرمزية، أما المكون الثاني للعنوان فهو "الرياح" التي توحى بالهلاك والدمار إذا هبت وفرض القوة بمنطق الاستعلاء وحرية الحركة وسلطة التغيير، فالروائي يعبر من خلالها على الظلم الذي يمارسه الإنسان ضد أخيه الإنسان والاستعباد المفروض دون وجه حق، فالإنسان يتمنى الإخاء والسلام والمودة والرحمة، وينبذ كل عدو لحرمة وقيمة الفرد سواء أكان حاكما أو مواطنا.

وهذا ما جعل عنوان الرواية مثيرا، وملفتا للانتباه، يعمل على غواية القارئ الذي يود التعرف على هذه المدينة المسماة بـ"الرياح"، فذلك مدعاة للفضول لمعرفة محتوى النص الروائي، واكتشاف مضامينه الفكرية والأدبية التي تؤهله لتلق إيجابي وجمالي لدلالة هذا العنوان، ليصبح الأصلح لنص الرواية، بعد أن كان غامضا نوعا ما ويظهر في السابق أنه متمنع عن القارئ، لكنه في أتون النص يفك رموزه ويحل ألغازه، فالاسم الأول منه جاء نكرة مما استدعى تعريفه باسم ثان معرف يضمن انسجامه اللغوي والدلالي، فالمدينة هي الموطن الذي يبحث عنه كل مغترب ومبعد، هي الاستقرار والأمان والاطمئنان الذي يبحث عنه كل ضائع خائف مظلوم، وهي الحرية والاحترام الذي يناشده الضعفاء والعييد، ففي المدينة تمكث محاور فكرية تتميز بعمق فريد ثابت، والإنسان لا مناص يسعى إلى الهدوء والعيش بسلام. أما كلمة الرياح المعرفة فإنها تأخذ في الذاكرة الشعبية شكل القوة والتغير والممانعة والفوضى العارمة التي تحدثها، من خلال صوتها الخفيف، الذي يوحى بالفراغ والقهر والبرد والحرمان.

إن خطاب العنوان "مدينة الرياح" يمثل الغرابة واللاألفة في الجمع بين شيء مستقر ثابت ظاهر ملهوس محسوس معروفة معلمه، وآخر متحرك غير ثابت، مجهول حضوره، تجر الرواية بعالمها المتفرد الغريب فلنفس سمات واضحة من أدب الخيال العلمي، رواية الرحلة، والرواية الغرائبية، لكنها لا تنتظم ولا تنتسب إلى أي شكل من الأشكال الروائية المذكورة، لأن الروائي موسى ولد أبو استطاع أن يسكب فيها كل الأشكال، فكان خطابه السردى مزيجا مشكلا، في جنس متفرد في الأحداث والشخصيات، ونسقية الزمن وغرابة الأمكنة، لينسج رواية جديدة.

2. بنية الرواية:

إن الرواية في بنائها المعماري عبارة عن رحلة في الزمان والمكان معا، رحلة شخص وقع في الأسر منذ كان طفلا، تذوق مختلف صنوف الظلم الإنساني، وقد استطاع الكاتب أن يبني روايته ببراعة لتعبر بنائيا عن فكرته الأساسية، فقسم الرواية إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي "برج السوداء"، و"برج البيضاء"، و"برج التبانة"، وهذا التقسيم مواز لرحلة بطل الرواية في الزمن، فالقسم الأول يعبر عن العصور المظلمة؛

عصور استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، والقسم الثاني يحيل على عصر النهضة الأوروبية حيث استطاع الإنسان الأبيض تطوير إمكاناته ليسيّط على بقية الجنس البشري واستعباده، والقسم الأخير يشير إلى مستقبل البشرية حيث يتنبأ الكاتب بأن تصبح الأرض مجرد سلة قمامة نووية كبيرة لبقية كواكب المجموعة الشمسية.

ويتوزع كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة إلى بتصديريهما بمقدمة ونخسة فصول، وهي عبارة عن رحلة في المكان، ينتقل خلالها البطل من مكان لآخر في العصر نفسه، وقد لعب الكاتب على اتجاهين مختلفين في تناول التاريخ، أحدهما يرى أن التاريخ يعيد نفسه، فنجد الشخصية الرئيسة في الرواية "فارا" ينتقل من عصر لعصر ليجد أنه لا شيء تغير في طبيعة البشر وظلمهم لبعضهم البعض، كما يستخدم الكاتب أسلوب الحلقة الدائرية الروائية لبدأ الرواية من نقطة وينتهي بها عند النقطة نفسها، ويبدأ انتقال البطل من عصر لعصر بنفس الطريقة، بل يعيد استخدام نفس التوصيف في هذه الحالة والذي يستغرق حوالي صفحتين يكرهما الكاتب لتأكيد فكرته عن إعادة التاريخ نفسه، وبالتالي عدم وجود الأمل في شيء أفضل، لكنه في الوقت نفسه يكشف مع بطله أن الإنسان يطور وسائل الشر بشكل لا يمكن أن يتصور، وهو هنا يستند إلى الفكرة القائلة إن التاريخ يسير في خط مستقيم إلى الأمام، وهذا السير إلى الأمام لا يعني بالضرورة إلى الأفضل، بل غالباً -وهنا يرى الكاتب أنه دائماً- العكس.

2،1.2 عجائبية الزمن السردية:

فقد عرفت الرواية التقليدية الزمن المطرد، حيث نجد الماضي ثم الحاضر وبعده المستقبل الذي يتوقع، لكن مع الرواية الجديدة تم تدمير كرونولوجية الزمن، فانهار الانتظام الخطي للسرد الذي كان متولداً عن احترام الأزمنة، وأصبح عندنا تزامن عدة أزمنة، والانتقال من زمن إلى آخر بطريقة فيها الكثير من التشويش، حيث يتخذ هذا الانتقال طابع المفاجأة.

وانهيار الترتاب الزمني في الرواية الجديدة شبه إدوار الخراط: "بانهيار الهندسة الأقليدية التقليدية"، فالزمن لم يعد يعمل على تطوير السرد، وإنما يعبر عن تحولات الذات، إنه زمن تنتفي عنه الخطية ويتميز بالتشذر والتداخل.

ولأجل هذا تشكلت الرواية كفن يطرح إشكالية العلاقات وكيفية تنظيمها في الواقع الاجتماعي والذاتي، بوعي خاص وخلق حر يجسدان الرفض التام للنمطية والجاهزية، ويؤكدان سعي الروائي نحو التجريب، وخلق عالم زمني غير واقعي تسيّره الرؤى والقيم الخالدة غير المرتبطة بزمن تاريخي معين، وهو ما يمكنها من الانفتاح على القراءات التأويلية المستقبلية على تنوعها واختلافها، وهذا، تماماً، ما يميز الفن الروائي عن غيره من سائر الفنون السردية التي تقترب من شكلها "إذاً كان الزمن الملحمي

مكتملا ومنغلقا على نفسه فإن الزمن الروائي يظل عديم الاكتمال، لأنه يملك إمكانية الانفتاح على المستقبل في أية لحظة، ولكن الزمنين معا حسب باختين دائما يشتركان في كونهما ليسا زمنا بالمعنى الضيق للكلمة، وإنما هما أحد مستويات التراتب للأزمنة والقيم" (بحراوي ط1، 1990، ص109).

يرتكز البناء القصصي في الخطاب الروائي على عنصر الزمن ومختلف تشكيلاته وتمظهراته التي تؤديها اللغة عن طريق وظائفها البلاغية والجمالية، وهو ما يساعد على إبداع مسارات جديدة للزمن من شأنها أن تغير وجهة فن الحكيم تبعا لمتطلبات الحداثة. فقد أثرت التقنيات الزمنية على البناء السردى للرواية في طابعه التقليدي ووجهت النص وجهة جديدة عمادها الإشارات اللغوية الفنية التي عملت على تكسير رتابة التسلسل والتتابع؛ يقول سعيد يقطين " إذا كان الزمن في الخطاب التقليدي يكتسب منطق التسلسل والتتابع المنطقي "فإن اللامنتطق هنا هو الذي يحكم زمن الحكيم، فن خلال التداخل والاسترجاع والاستدكار (...). يتم تداخل الأزمنة والأمكنة في الحكيم، وكل هذه العناصر (...) تسهم في تكسير عمودية السرد، وعلى كافة المستويات" (يقطين، ص ص، 185-261، 1985).

على هذا الأساس بحثت الدراسات الحديثة المواكبة للنص الجديد عن ماهية الزمن المقرر في الرواية الجديدة، والأساس الذي ارتكز عليه السارد (المؤلف) في بلورة الزمن تبعا لسير الأحداث وتعدد الرؤى والمواقف داخل الخطاب الروائي، ذلك أن زمن الرواية إيقاع سردي معقد ومتشعب لتفرّع مكوناته وإمكانات تمظهره.

وفقا لذلك لا يخضع زمن الرواية للقياس الذي يخضع له الزمن الفلكي، ولا تحكمه أيضا لحظات بعينها، ولكن يمكن في لحظة واحدة أن يمتص أزمنة متفرقة، مما قد يحدث تداخلا زمنيا يتحقق به غرض الكتابة الحداثية في تكسير وإلغاء تراتبية الأحداث، ولعل أهم ميزة يختص بها الزمن في هياثه تلك وعلى مستوى تداخله مع التراث - أيضا - سمة المفارقة والتخييل.

ولاستجلاء ملامح سردية العجائبي في "مدينة الرياح" نهتم بمكون سردي يبرز سردية النص هو "الزمن".

تدور أحداث رواية "مدينة الرياح" في مستقبل بعيد، يسترجع من خلالها "قارا" فترات من الزمن الماضي، عبر سفره في اللازمن يسترجع في لحظة سكرة موته ذاكرة الماضي البعيد، بدء من القرن الحادي عشر ومرورا بالقرن العشرين هاربا نحو الزمن المستقبل، بفضل شخصية الخضير الذي ينقله من الماضي إلى المستقبل ليكشف له مصير البشرية على غرار روايات الخيال العلمي، والرواية بأعمادها هذه التقنية في تكثيف التخييل الروائي وتنظيم الخبر السردى جعلت سرديتها سردية مركبة بفعل تأثيرها بجماليات

العجائبي والتراثي والخيال العلمي، تكسب المتن الروائي ملامح فنية مغايرة لملاح النص التقليدي، نتيجة توظيف الروائي للعجيب والخيال العلمي عند تكثيفه للمنتج الروائي. إن ترتيب الأحداث في هذه الرواية لا يرد في شكل متواليات حكاية تأتي وفق نسق زمني متصاعد يعكس خضوعها إلى نظام التعاقب، ولكنه ينتظم- على النقيض من ذلك- وفق نظام التداخل بين أنساق الزمن الثلاثة: الماضي والحاضر ثم الارتقاء في المستقبل، وذلك بسبب هيمنة السرد الاسترجاعي (Récit analeptique)، واستثاره بالمساحة الأكبر من السرد، مقابل حضور باهت للسرد الاستشرافي (récit proleptique).

1.3، 2 السرد الاسترجاعي/ الاستذكار:

يشكل الاسترجاع أهم الحركات الزمنية التي سيطرت على الخطابات الروائية في تعلقها بالتراث، إذ يتم على مستواها قطع التواتر المتنامي للسرد بالعودة إلى الماضي واستحضاره، ليكون بنية جديدة تتهامى في السرد وتصبح جزء مهما من أجزائه، فإذا " كانت المقاطع السردية الحاضرة تعد المحكي الأول من وجهة نظر جيرار جنيت، فإن مقاطع الاسترجاع...تعد المحكي الثاني من حيث الزمن، حيث تتعلق بالأول وتبعه فنيا" (القصراوي، ط، 2004، 1، ص 192).

إن الاستذكار معطى ذهني يتم اكتشافه من خلال تلهيحات السارد أو تصريحاته بحسب ما يحتاجه السرد، ولهذا فهو يتم عن وعي الذات المبدعة بالزمن في ضوء تجربة الحاضر، ورؤيا جديدة للأحداث في ضوء خصوصية التجربة الروائية الجديدة. وهنا تعمل المقاطع الحكائية المستحضرة من الماضي أو المسترجعة على إكمال المقاطع السردية والاندماج فيها لإعطاء تفسير للمواقف المتغيرة، كما أنها تسد الثغرات التي يخلفها السرد الحاضر، يقول باشلار G. Bachelard: بهذا الصدد " إن الذكرى لا تُعلم دون استناد جدلي إلى الحاضر... فالذكرى تعيد وضع الفراغ في الأزمنة غير الفاعلة، إننا حين نتذكر، بلا انقطاع، إنما نخلط الزمان غير المجدي وغير الفعال بالزمن الذي أفاد وأعطى" (باشلار، جدلية الزمن؛ ترجمة خليل أحمد خليل، ط 1982، 3، ص 47).

ويظهر السرد الاسترجاعي في الرواية من خلال توظيف الكاتب لتقنية الاسترجاع، ولكن ليس بالمعنى الكلاسيكي المكرر إنما الرجوع إلى الوراء عبر وسيلة علمية أحدث، لأن الرواية رحلة في الزمان والمكان معا، وكما أسلفنا الذكر رحلة شخص وقع في الأسر منذ كان طفلا.

فالزمن الماضي الاسترجاعي يستحوذ بحضوره المهيمن على محكي الرواية، حيث يشكل منطقته الذي يصدر عنه، ومساره الذي يقوم عليه، ومداه الذي ينغلق عليه، باعتبار أن هذه الذات الساردة تستعيد تجربة حياتية منقضية في الزمان، وتعمد إلى بعثها عبر فعل الكتابة، متوسلة في تحقيق ذلك

بالذاكرة، بشكل في ليس على شاكلة الاستذكار العادي بل على طريقة الخيال العلمي، فزمن الحكيم يتخطى الزمن العادي المألوف لدينا بل يتجاوز إدراكنا، فالماضي في النص الروائي موغل في القدم ليتقدم إلى المستقبل أيضا الموغل في التقدم، ويغوص بنا في أعماق خيالنا ليصف ظلم الإنسان لأخيه الإنسان واستحواذ الأثنية وعبادة المادة والسعي إلى الهيمنة على حساب سعادة الناس.

ويبدو جليا اعتماد السارد تقنية الاسترجاع، ونلس ذلك من خلال القسم الأول من الرواية "برج السوداء"، حيث تستولي قافلة تجار الملح على الغلام "قارا" مقابل لوح من الملح يأخذه أبوه، وترحل القافلة حيث يقدم الكاتب وصفا أنثروبولوجيا للرحلة بما فيها من سادة وعبيد وجمال، وما يواجهونه من عقبات بيئية أو مشاكل صحية، وكيف يداوون مرضاهم بالأعشاب والتعاويد، وكيف يحملون البضائع على ظهور الجمال، وكيف يتحركون في منخفضات الصحراء ومرتفعاتها وقد ربطوا العبيد من أعناقهم، ثم صفوا الجمال وبينها العبيد كسلسلة متصلة، ثم يصلون إلى مدينة أوداغوست حيث يُعرض "قارا" في سوق العبيد، ويشتريه رجل اسمه "ازباغره" فيساعده "قارا" في تأسيس مدرسة بالمسجد لمذهب الإباضية، وفي المدرسة يتعلم "قارا" اللغة العربية، ويحفظ القرآن وتفسيره، ويعي المناظرات الكلامية والفلسفية.

يكتشف أهل أوداغوست أن آبار المدينة جفت، يصلون صلاة الاستسقاء، وفي نهاية الصلاة يفاجأون برجل يخطب فيهم منددا بهم لاسترقاقهم المسلمين، على الرغم من ادعائهم الإسلام، وتعاليمه، وتكالبهم على الدنيا. يتعرف "قارا" على أمة جميلة "فاله"، وفي بيتها يتعرف على العرافة هذه الأخيرة التي تقرأ في كفه أن "هذا الرجل سيشرّب من عين الخلود، لكن سيقتله ابنه...! لم يسبق لأحد قبل أن يحقته الأقدار كما ستسحقك... لن تستطيع أبدا أن تحكم بالتمعن على المستقبل بالحاضر" (الرواية، ص62).

ويشارك في التحضير لثورة العبيد التي تفشل لوشاية بعضهم ببعض، وتجربة السجن، بدأ قارا يتساءل لحظات خلوته في السجن، "لماذا البشر؟ ما الذي قسم البشر إلى عبيد وأسياد؟، في أية حال استطاع أبي الذي أنجبني ورباني وحماني، أن يلقي بي بأشداق الموت ويأدلني بقطعة ملح" (الرواية، ص77).

ويلقيه سيده في بئر الكنيف ليعاقبه، يأتيه الرجل الديميم "إذا كنت ترفض القدر، فاهرب من البشر، والجا إلى الصحراء، وانتظر أمر ربك" (الرواية، ص77). فيهرب إلى منطقة "تين الرمال" التي يعتبرونها موطنًا للجن، وحيث النجاة من تيهها نادر الحدوث. وبهروب قارا من القافلة تنتهي الشهادة الأولى، التي تدور أحداثها في القرن الحادي عشر الميلادي.

في هذا القسم الثاني من الرواية والموسوم بعنوان "شهادة برج البيضاء"، نستمع إلى صرخات "فارا" المطالبة بالمساواة معلنا كراهيته المطلقة للبشر واحتقاره لهم "هذه الرمال النقية، السابحة في الضوء، كان يمكن أن تكون ذات جمال مطلق، لو لم تكن ملوثة بهذا البشر" الرواية، ص 90).

ينفرد "فارا" بنفسه في الصحراء، يصلي ويتعبد، وينفذ ماؤه وطعامه حتى يشرف على الهلاك، تهبط سخابة تحييه بمائها، ويرى "الخضير" يطلب "فارا" من الخضير أن يعيده إلى العدم ليكفر عن ذنب وجوده، يخبره "الخضير" أن هذا مستحيل، لكنه يمنحه فرصة السفر إلى المستقبل، ولكنه يمنحه فرصة السفر في المستقبل مرتين، لا يستطيع الخروج من الثانية منها إلى مستقبل آخر، وتوارى بسرعة خلف هالته الخضراء.

وتتوارى "الخضير" يجد "فارا" نفسه جثة هامدة في سكرات الموت على جبل الغلاوية يحيط به باحثو آثار القرن العشرين، فقد انتقل من زمنه الأول (أيام المرابطين) عشرة القرون إلى الأمام، أصبحت فيها مدينة أوداغوست (التي غادرها منذ شهرين فقط) (الرواية، ص 97) مدينة أثرية مفقودة، تبحث عنها قافلة الباحثين الذين عثروا عليه بقيادة الباحث "فوستباستر سيد فارا الجديد"، ليجد فارا نفسه محمولا على ظهر جمل في قافلة تقطع به صحاري المجدة الكبرى لا يعرف عن نفسه شيئا. سأله فوستباستر: "من أنت؟ ما اسمك؟ - لا أعرف إن كان لي اسم... لا أعرف من أنا ولا من أين؟ ولا إلى أين؟ كلها أعرفه عن نفسي، أني على الكدية سمعت أصواتا ووقع خطوات تقترب مني، إنهم القناصة الذين حملوني إليك، لا أذكر شيئا قبل هذا" (الرواية، ص 92).

ولما نام فارا عاد إليه وعيه بذاته "في الساعة الأولى من النوم عثرت بارتياح على نفسي الضائعة، أعرف الآن أني موجود في حقبة زمنية جديدة الخضير كان أمينا معي، عشرة قرون كما قال رديفي، وأوداغوست التي لم يعد يوجد من يعرف مكانها... لكن عندما أستيقظ سأقول له أمام الجميع إنني سأقوده إلى أوداغوست... سأقول له إنني غادرتها منذ شهرين فقط وسأدله على مكانها (الرواية، ص 134). وأثناء هذيان "فارا" في حلمه أيقظه "فوستباستر" ليسأله عن مكان أوداغوست التي غادرها منذ شهرين في تقصي آثار القوافي القديمة للبحث عنها، ولكن "فارا" لما استيقظ لم يكن يدري من كل هذيانه شيئا فتمسك فوستباستر به رهينة له، فهو الشخص المعجزة الوحيد الذي باستطاعته أن يدل على مكان أوداغوست، بعد أن دون عنها، كل شيء لحظات هذيان "فارا" بتاريخها.

هنا يحضر العجيب في صورة توظيف شخصية "الخضير" المسافر عبر الزمن، حيث يتجلى للسارد فيعرض عليه فرصته للسفر عبر الزمن عله يجد العدالة والخير المنشودين في هناك، هذا الأخير الذي بعث إليه بعد أن تبيست أعضاؤه وبدأت السنور تنهش بنخالها الحديدية جسده الهامد، "الآن وصل

الماء إلى كل الجسد...بعث الدماغ النفس البشرية المغرورة، انبعث من الماء من جديد كنت مستلقيا على ظهري في ظل شي لم أتبين هويته...اسمي الخضير، أنا ملك الزمن وآية الله التي كنت تنتظر...أنت نائر على سنة البشر...لكنك لن تستطيع أن تتخلص من بشرتك" (الرواية، ص137). ويبقى تجلي الخضير له هو نقله عبر الزمن "عجائبيا" إلى محطة أخرى حتى يتأكد أن الشر متأصل راسخ في طبيعة البشر. تعثر قافلة الباحث الأثري الأوروبي "فوستباستر" ورفيقته السوداء "فاله" على "فارا" الذي يلاحظ أحوال القافلة باندهاش، لكنه لا يستطيع الإجابة عن أسئلة الباحث الأثري؛ من هو ومن أين وإلى أين؟؟ أكثر من تسعة قرون تفصل بين الزمن الذي تدور فيه أحداث "برج السوداء" وأحداث "برج البيضاء".

"فوستباستر" يبحث عن أطلال مدينة أودافوست التي اختفت تماما، في الحلم يتذكر "فارا" أودافوست ويتحدث عنها بالتفصيل، لكنه في اليقظة لا يتذكر شيئا، تصل قافلة الباحث الأثري إلى مدينة تجكجة فتجد آثار معركة بين المستعمر وأهالي تجكجة، وقد قام قائد الحصن بتعليق وجهاء المدينة ليعترفوا بمكان الثوار الذين يسميهم إرهابيين والذين قتلوا القائد السابق للحصن.. يشعر "فارا" أنه يدور في دائرة جهنمية، وأن الزمن الذي انتقل إليه ليس بأفضل من الزمن الذي هرب منه. عساه يعثر على بشر خيرين، متسائلا من جديد "ما يربطني بهذا الزمن وأهله... إذ لست إلا رهينة بين يدي العليج "فوستباستر" ويزداد تمسكا بي، دون أن أعرف السبب كنت ما أزال أجل من أنا، وما الذي يجعله يتمسك بي... منذ زمن وهو يسميني فارا، ويزعم أنني قادم من اللازم وإني أعطيته معلومات لا تقدر بثمن عن المدينة الشبحية، التي يفتش عنها" (الرواية، ص134). فيهرب مرة أخرى إلى خلوة ينتظر فيها أمر ربه معتزلا الناس ليستقر به "الحال على قمة أظهر في خلوة كنت أريد لها، أن تكون أبدية" (الرواية، ص136). وبذلك تنتهي الشهادة.

وفي القسم الثالث "شهادة برج التبانة" بعد اختفاء الخضير ينتقل "فارا" ليجد نفسه في زمن (منتصف القرن الواحد والعشرين)، سنة 2045م " فتحت عيني.. أغمضتها بسرعة... امتلأت بنور الشمس الشديد... جلست... تلفت حولي... كنت على قمة جبل أجرد أمغر لا أعرف من أنا... ولا ما الذي جاء بي إلى هنا، لم أكن جوعانا ولا عطشانا، لم أكن أعرف ماذا علي أن أفعل... أخذت أهبط على منحدر هذا الارتفاع الحجري الداكن البنفسجي، الذي يحد الرمال المتجهة إلى الشمال وإلى الجنوب إلى مدى البصر" (الرواية، ص143). ليجد نفسه أمام مركز لتخزين النفايات السامة، وقد أصبحت البلاد ملكا لأبنائها، وحاكمها "تنفل" أحد أحفاد "فارا" و"فاله"، والذي حول البلاد إلى مقلب زباله نووية، مقابل المكاسب التي يحصل عليها هو وحاشيته، والعاصمة هي مدينة الرياح، المأل الأخير للشر البشري

الذي أصبحت معه "الكرة الأرضية مصنفة الآن من قبل النظام العالمي مستودعا للقمامات على مستوى المجموعة الشمسية" (الرواية، ص 146). يعمل "فارا" إجباريا في مركز النفايات السامة، ثم يهرب من المركز.

وينزل "فارا" من الجبل وجد نفسه أمام سد عظيم أقيم حول مخزن النفايات الذي أقامه رئيس جمهورية المنكب البرزخي الديمقراطية، في صحراء المجذبة الكبرى، وعند اقترابه من السد أحس بشيء يصطدم بجهته "أحسست فورا بتأثيره السريع على دماغي... وسقطت على وجهي في الرمل... عندما استيقظت وجتني موثوقا بعناية إلى مقعد وحيد في غرفة مقفلة" (الرواية، ص 145).

وفي مدينة "أطوليل" يتعرف إلى "فاله" المغرمة بالطبيعة، والتي هربت من مدينة الرياح المجللة بالغبار المشبع بالإشعاعات النووية "فاله" لديها ابن منعوها من اصطحابه لأنه لم يته دراسته الإجبارية، وعندما حاولت اختطافه مرتين وضعوها في السجن، وهي مستعدة لدفع حياتها ثمنا لإنقاذه من مدينة الرياح.

يشارك "فارا" "فاله" في عملية مقاومة لاصطياد سائقي شاحنات النفايات النووية، فيتم القبض عليهما، وفي الحجز أيضا يتعرف "فارا" على كائنة عجيبة من العالم الآخر، اسمها "سولما" تتغذى بالكلام وتبحث عن النفوس الخيرة قالت له: "أنا من قبيلة صيادين يبحثون في المجذبة عن الأرواح الخيرة، نحن نعيش بالكلام مع هذا النوع من الأرواح... (كذا) منذ آلاف السنين وأنا مسافرة في ثقب أسود من نقطة لأخرى في برج التبانة" (الرواية، ص 167) ، تمكن "فارا" من الخروج من المركز بعد أن وهبته "سولما" بزتها السحرية، التي لا يشاهد لابسها، والتحق بجهة إنقاذ المجذبة الكبرى، وفي إحدى غارات "فاله" وكلاهما المدربة بصحبة "فارا" يؤسر الاثنان بعد أن فجرنا شاحنة محملة بالنفايات، ويقدم "فارا" للمحاكمة "مثلت أمام المحكمة، ليس مهما بماذا سيحكمون... اتهموني بكل الجرائم مجتمعة... زعموا أنني مأجور لصالح قوى خارجية... جاسوس مدرب تدريباً خارقاً للعادة، إرهابي غرر بفتاة بريئة أفرط في استغلال عواطفها الخيرة... إنلخ صدر الحكم فلم يفاجئني... نظرا لكل هذا فقد حكم عليك بالموت عطشا، وسيطبق هذا الحكم على رأس كدية الغلاوية" (الرواية، ص 189). ونفذ الحكم "وجدتني على رأس كدية الغلاوية أموت عطشا تحيط بي دائرتان من الجنود، يبدلون كل ساعة... لم يكن يشغل بالي سوى زفاف "فاله" وتنقل بعد موتي (كذا)... الجوع والعطش طردا ذكريات "فاله"، التي حل محلها رعب فظيع وفتح شديد وكره مقيت للجنس البشري... (كذا)... الشفاه والمرئ تبيست وتكسرت... (كذا)... يبدو أن الصحراء امتلأت بالسكان لمشاهدة موتي أنا في عالم جديد تهاجمني خلاله ذكريات تافهة غريبة من الحياة التي تغادرنى... (الرواية، ص 192).

بعد أشهر من سجنه يعلم "فارا" أن "فاله" عادت إلى مدينة الرياح، وأنها ستزوج الحاكم لتأمين مستقبل ابنها، ويتم الحكم على "فارا" بالإعدام في نفس المكان الذي بدأ فيه خلوته الأولى، وقد تيقن من أن نبوءة الخضير آتية لا محالة "لو واصلت السير في المستقبل، فإنك ستجد الأرض وقد أصبحت كومة رماد، والشمس وقد انطفأت" (الرواية، ص 152) حيث يحدد بنا التلوث الكيميائي والتضخم السكاني النقص في المياه والأغذية، ومسؤولية الإنسان عن هذه الكوارث الأرضية ف"الذين دمروا المحيط الطبيعي بطريقة عمياء وغير معقلنة من أجل تحقيق أرباح زائفة وقصيرة الأمد، ومن أجل إرضاء نزوات سخيفة هم المسؤولون الحقيقيون عن هذا الوضع هاجروا عن الأرض وتركونا في حميم هم الذين أوقدوه. كنت متفهماً لأسباب تشاؤمها" (الرواية، ص 152).

يعمد الروائي موسى ولد أبو إلى توليد العجائبي انطلاقاً من الزمن، حيث يتوزع العجائبي على ثلاثة أزمنة من ذاكرة شخصية "فارا" ماضياً في القرن الحادي عشر الميلادي، ثم حاضراً في بداية القرن العشرين، ومستقبلاً في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين.

وهي أزمنة تعكس نوعاً من احتفاء الكاتب بها باعتبار ما تمثله من معنى في التاريخ، والذي يعمد إلى إعادة بناء مراحل منه تنتمي إلى الواقع، ترد في أنساق يسمها التداخل والتشظي، بسبب توالد الذكريات، وتداوعها في غير نظام. وهو تاريخ يتقاطع مع واقع موريتانيا، ليكشف عن مدى شعور الذات الساردة بالانكسار لخسرانها رهانات الوجود، بسبب خسران الوطن لهاناته مع الواقع، في أزمنة متعددة كان البطل فيها مقهوراً وفاقداً لحرية، مقاوماً في سبيلها وباحثاً عن الخلاص بالهروب عبر المكان والزمن؛ عبر المكان بالهروب من القافلة واعتزاله البشر ودخوله الخلو، وعبر الزمن بهروبه من سطوة الحقبة المتعددة التي عاشها، لينتهي به الحال قتيلاً في الزمن الآتي (2055م). مما يعلل إخفاق وخيبة الكاتب وجيله في تحقيق التطلعات التي كانوا يملكونها، وتحوّلها إلى أشكال إحباط تفاقمت في النفوس.

2.1.4. السرد الاستشراقي/الاستباقي:

إنه "تصوير مستقبلي لحدث سردي سيأتي مفصلاً فيما بعد، إذ يقوم الراوي باستباق الحدث الرئيس في السرد بأحداث أولية تمهد للآتي وتومئ للقارئ بالتنبؤ واستشراف ما يمكن حدوثه، أو يشير الراوي بإشارة زمنية أولية تعلن صراحة عن حدث ما سوف يقع في السرد" (القصرراوي، ط1، 2004، ص 211)، وهذه الحركة تمنح القارئ حالة من التوقع والانتظار الرؤيوي لما سيحدث مستقبلاً في السرد، وهذا هو المظهر القرائي الذي يتجلى من خلاله الاستباق في الرواية، أما المظهر الآخر فهو نصي داخلي، ويتجلى من خلال الاختزالات أو المحذوفات المحققة للكثافة الزمنية. ولهذا فإن

الاستباق يختص بالروايات التي تحكي سيرا ذاتية أو التي تهيمن فيها تقنية المحكي بضمير المتكلم، وكذا الروايات ذات الطابع العجائبي أو الخيال العلمي.

تجسد افتتاحية الرواية "أقويدر" زمنا مستقبليا غير معروف، يلون العجيب معاملة، يتحدث عن كيفية العثور على الجثة، وتوصيل الجمجمة بالحاسب الآلي، ثم كيف أصبحت كل حياة "فارا" شريطا محفوظا في المكتبة العمومية بمعهد أركيولوجيا الفكر البشري وهي نهاية الرواية" أخذ الشريط مكانه من خانة الحفظ في المكتبة العمومية بمعهد أركيولوجيا الفكر البشري تحت عنوان: "سكرتة رجل من البرنخ" 1034-2055م"، ويجسده قول السارد "أنا في عالم جديد تهاجمني خلاله ذكريات تافهة غريبة، من الحياة التي تغادرنني... وجاءت سكرتة الموت بالحق... لم أعد في غفلة من شيء... بصري اليوم حديدي... أضاءت سكرتة الموت تلافيف حياتي، التي ظهرت بصورة مكبرة... (كذا)... انزاحت الحواجز بين الظاهر والباطن، البادي والخفي، المعلوم والمجهول ذابت الصفات المميزة في صفة واحدة في بؤرة الضوء..." (الرواية، ص 9) .

ولعل هذه الصورة أول حركة عجائبية تطالعنا والمتمثلة في سرد "الجمجمة"، تسرد جمجمة "فارا" حياته من لحظة ما بعد الحياة وما قبل الموت ومن منطقة التخوم، يستعيد من خلالها السارد حياته الماضية، ويقدمها في شكل شهادة حياته الماضية، قبل أن يصل إلى لحظة سكرتة الموت التي يشاهد منها. وما إحالته على تسمية "سكرتة رجل من البرنخ"، إنما يهدف من خلالها إلى التلليل على سكرات مجتمع بكامله يحتضر.

3.1.4. الحُلُم:

ويحضر العجيب أيضا من خلال الحلم باعتباره إحدى التقنيات السردية، التي اعتمدها الروائي في تخطيب زمن القصة "كانت ليلة ليلاء... رأيتني أتقلب على فراشي الحشيشي المبلل... أنصب شراكي للنوم فيفر منها... (كذا)... كئائب الأفكار المرعبة تحاصرني بلارحمة... هواجس المجهول الرهيب تنهشني من كل جانب، فاغرة أفواهها كسرب من الذئاب... (كذا) على مدى يومين أسمع دقات الطبول معلنة قدوم قافلة الملح" (الرواية، ص 10).

يتجلى الحلم، من خلال الخرافة الواقعية التي جعلها بطل الرواية، عنصرا مهما يتكئ عليه السرد الحكائي لاستشراف المستقبل والسفر فيه، والإشارة إلى الأحداث قبل وقوعها. فقد أثن موسى ولد أبو فضاءات الرواية بالحلم، لاستكمال الطابع الخرافي العجائبي الذي ميز البطل وما يحيط به. إن وجود الحلم كعنصر فاعل في سير وتنامي الأحداث وتحققها لاحقا من خلال السرد يجسد البعد المعرفي التراثي لدى المبدع؛ فموسى ولد أبو يزود البطل "بحرية مطلقة ليتجول في الحلم بدافع

أحداث بموقعها على أسس متخيلة، ليس من ذاكرة الكاتب فحسب، بل يشرك معه التصور الشعبي الحامل لقوة الاحتمال في ممكن الوقوع، وبهذه الصورة أصبح الإطار الموضوعي أرحب أفقا وأشمل اتساعا، كما أن أصبح الحلم ضرورة حكاية في المتن لما ينطوي عليه من آمال تنشدها الشعوب وتعجز عن تحقيقها.

فقد مثلت هذه الرؤيا العجيبة نوعا من الاستشراق الزمني، جعل من هذا الاستشراق توطئة " لأحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من طرف الراوي، فتكون غايتها في هذه الحالة هي حمل القارئ على توقع حدث ما أو التكهن بمستقبل إحدى الشخصيات" (الرواية، ص 9) . ويطلق جيران جينيت على هذا النوع من السرد الاستشراقي تسميه "الاستشراق الخارجي" (الرواية، ص 10)، والذي يبقى "الغرض منه التطلع إلى ما هو متوقع أو محتمل الحدوث في العالم المحكي" (شعيب حليفي، ص 123).

فهذه "الرؤيا"/"الحلم" تفوح منها رائحة الظلم الإنساني والعبودية، والحراب والدمار ثم الاستعمار الأجنبي والتمرد والثورة، ورصد لمقاومة أنصار البيئة لزرع مراكز النفايات في بلادهم وخرابها. كلها إichاءات تومئ إلى ما ستكون عليه عوالم المتن الحكائي لرواية "مدينة الرياح" من استثناء مناخات استلاب الحرية والقتل والحراب، والتي حوّلت واقع موريتانيا إلى كابوس ثقيل ما يزال يسم حياة الموريتانيين في الزمن الحاضر، وتجسده شخصية "فارا" في الرواية، حيث يمثل ماضيا قريبا يثقل عليها في حاضرها الذي يتخذ شكل الانتظار، " والتطلعات غير المؤكدة، التي يكون تحقيقها مستقبلا أمرا مشكوكا فيه" (شعيب حليفي، مجلة فصول المجلد 16 العدد 3 شتاء 1998 ص 115).

وهو ما يجعل مستقبلها أفقا غائما لا علامات دالة على هويته. وبالتالي يمكننا القول إن الرواية في مجملها وعبر بروجها الثلاثة، هي رؤية استشراقية وتحذيرية في نفس الوقت من مخاطر طغيان التقانة. لم يكن توجه موسى ولد أبو نحو والعجائبي والفانطاستيكي عبث إبداعي لأجل الإمتاع والمؤانسة، ولكنه غرض اجتماعي وهدف أيديولوجي اختار له مبدعه أو مجليه النصي أرقى النصوص الإبداعية القديمة، التي تدنو من ذاكرة الشعوب وتعب عن همومها وآمالها. لقد كان اختيار الحكاية الشعبية كموروث سردي اتكأ عليه الراوي في بناء نصه السردية آلية إبداعية تكشف عن قناعات تناسي تفاعل فيه النص الروائي الجديد و النص السردية القديم عن طريق استدعاء أهم مقومات النص التراثي الفنية وأبعاده الدلالية التي تنفتح على الزمن الحاضر بما يحمله من ثقل فكري وأيديولوجي وفني إبداعي.

وفق هذا المنظور جاءت رواية " مدينة الرياح " لتحطم الإيهام الذي توارثته الأجيال عن النص الحكائي العجائبي، وقد برزت لتحقيق ذلك شخصية "فارا" التي ألبسها المبدع الروائي رداء العجائية لا

لغرض الإيهام أو التنويه، وإنما بغرض التلخيص عن معتقدات أيديولوجية وهموم اجتماعية تعيشها الشعوب العربية.

فعندما نطالع ونستعرض حديث السارد عن مستقبل الأرض وما ستؤول إليه حيث ستصير مسكناً للضعفاء القابعين وسط النفايات، بعد أن سافر الأقوياء إلى كواكب المجموعة الشمسية النقية، وتصويره للسفر عبر الزمنين الماضي والمستقبل في أقسام الرواية الثلاثة، ووصفه لملاح عمال معسكرات تخزين النفايات، وكذا المعسكرات ذاتها المصممة وفقاً لأعلى درجات التقنية الرقمية تأميناً لها ضد الحرائق والانفجارات والإشعاعات والتسربات، على غرار أدب الخيال العلمي وما جسده من رصد لآثار التغيرات على الإنسان ووسطه، واستطاع بطاقاته التخيلية ولا محدودية آفاقه أن يستحضر ويحضر في الماضي ويجري في المستقبل، لأنه غالباً ما يتناول الاحتمالات الممكنة التي تهدد الجنس البشري ووسطه جراء طغيان التقنية وخروجها عن حدود السيطرة البشرية، لما يحمله من تنديد بمخاطر أسلحة الدمار الشامل وتلوث البيئة والتصحر، ومخاطر العبث بالجينات الحيوانية وبالخبر الوراثي، النباتي والبشري. الشيء الذي يؤكد أن الخيال العلمي يهتم بإنسان الغد، أي إنسان المجتمعات المستقبلية - بمعنى أن التوقع والاحتمال يشكلان جوهر الكتابة في الخيال العلمي" (حليفي ، ص 58) هذا إضافة إلى الطابع التشاؤمي فيه من جهة ونزعتة الواقعية النابعة من خصائص التقنية من جهة ثانية.

فانفتاح رواية " مدينة الرياح " برؤيا/كابوس وانغلاقها على "يقظة"، ينهض مشيراً دالاً على عوالم الفاجعة والمأساة، مما يجعل حكيها امتداداً لذلك الذي مهدت له الفاتحة " الرؤيا"، والمنتجى إلى اللامعقول في زمن تحول فيه المعقول إلى اللامعقول، وهذا الأخير إلى معقول بفعل التباس حدود الأشياء وضبابية الرؤية، بعد أن صار استلاب الحرية والأسر هاجساً متمكناً من النفوس، التي تمارس أشكال وجودها على إيقاعه الجنائزي، مما أضفى على مناخات الرواية أجواء قائمة يلوّنها المصير الفاجع.

وقد مثل حكي السارد عن تجربة ارتحاله عبر الزمان والمكان نشداناً للأمان من الخطر المحدق به، نموذجاً دالاً على هذا الواقع/الكابوس، الذي جعل السارد يشعر بكره مقيت للجنس البشري، شعور جعله يتساءل متأملاً بعد ما شهد وشاهد من فظاعات الواقع الإنساني وظلمه وهو ما كرس حضور الحلم تقنية استثمارها الكاتب ليعبر بها عن موقفه الراض للحاضر" عجيب هذا العالم الذي عرف جميع أنواع الكائنات، لم يبق فيه غير هؤلاء الرجال وجمالهم؟! لا يمكن أن يكون الإنسان هذا الكائن الفاسد الظالم أفضل من كل تلك الأمم والكائنات التي انقرضت وبقي هو... كيف أرادت القدرة أن يكون الأمر كذلك؟؟؟؟ مكثت طويلاً أقلب ساعدي في الأرض الحامية، وأغمض عيني بين حين وآخر... لكن

ذهني لم يهتد إلى أي حكمة من وراء بقاء الإنسان بعد أمم انقرضت (الرواية، ص 67). والمتطّلع إلى واقع بديل أفضل.

بهذه الصورة المأساوية أنهت الرواية-الشهادة حكايتها، وهو تأكيد على انسداد الآفاق وعممة الطريق التي سلكها الإنسان راهنا ومستقبلا، بسبب إطلاق العنان للتقنية السلبية وتدمير المجال الطبيعي. من ثمّ يمكن للحكي العجائبي أن يستمد وجوده انطلاقا من غرابة الواقع بوصفه لغة يتشكل بها الموضوع السردى، من الحاجة إلى لغة مختلفة ومجازية التعبير، تخترق الطبيعي، وتجازف في عالم الدلالات واللامعقول والذي سيكتب عنه غالبا في الواقع وذلك من منطلق أن الكتابة بلغة عجائبية لا تتميز بخصائص خطابها وبنية لغتها وحكيها فحسب. بل هي "رؤية مغايرة للأشياء. ولذلك تكون الكتابة المتشعبة بروح الفانتاستيك مغامرة واستجلاء للبقايا والهوامش والمقصي من كينونتنا المحاصرة بضغط القوانين والمحرمات وشتى أنواع الرقابة" (مرجع سابق، ص 8)، وكان العجائبي على هذا الأساس يقف ندا لمثل هذه الأشكال من الرقابة محاولا اختراق حدودها وسطوتها.

وبهذا فإن كتابات موسى ولد أبو تحمل سمة العجائبية والغرائبية، ونرصد هذه السمة في مفاصل العمل المختلفة بدء بالعنوان الخارجى، ومرورا بالعناوين الداخلية، فكلها تكشف اغترابا وازياحا عن الواقع. ولاشك في أن اعتماد بنية ثقافية موروثية يعد نوعا من التغريب -بالمعنى الإيجابي للكلمة-، لكنه ليس هربا من الواقع المأزوم بمعنى اختيار موقف الانسحاب وعدم المواجهة، فوسى ولد أبو عندما يختار البنية العجائبية التغريبية، فإنه يتبنى خيارا فنيا، وموقفا أيديولوجيا، واختيار هذه البنية وإن كان تجاوز للواقع إلى ما وراء الواقع، موقف يمارس لإعادة سرد الواقع، بمعطياته المعيشة في موريتانيا القرن الواحد والعشرين، التي تمثل التاريخ العربى الملىء بالإحباطات والهزائم وخيبات الأمل، ذلك أن النص يسعى إلى توصيف الواقع المعيش، بما فيه من لامعقولية وغرائبية لا تتساق مع الوعى أو المنطق، وما ذلك إلا غوص في الواقع ف"مدينة الرياح" تمتلك ذبذبات قوية ناتجة عن كشف اللامعقول في الواقع والتاريخ معا، وموسى ولد أبو يمتلك القدرة على اقتناص الجوهرى من الواقع، استهدافا للإضافة إلى هذا الواقع وخلقه مكتملا.

وباعتبار الرواية المتعلقة بالتراث السردى العجائبي أكثر الخطابات استلهاما لخصوصيات الزمن العجائبي، فقد تحققت حركة "الاستباقات" عن طريق الكثافة الزمنية التي تحذف أطوارا من الزمن مرت الأحداث وقامت بفعالها الشخصيات، وهذا الفعل الإستباقي أفسح مجالا رحبا لتفعيل التخيل الزمنى والانتقال اللامنتقى للسير الزمنى في السرد.

ففي رواية "مدينة الرياح" يحتزل السارد، عن طريق حركة الزمن المرتبطة بأفعال "فارا" وتنقلاته داخل السرد المحكي، لحظات زمنية يتم تجاوزها بطريقة عجائبية ونجد فيها من اللامعقولية ما هو مرتبط بالسلوك العجائبي المرتبط بالشخصية البطلة من جهة، وحركات الزمن من جهة أخرى.

ولعل ما يضيفي عجائبية الزمن المطلق الذي يشغل بعض مقاطع الرواية - أيضا - انتقال "فارا" من زمن تاريخي بعينه إلى زمن خيالي غيبي أو مستقبلي، استدعته حاله المبحرة في العوالم الميتافيزيقية التي تبعد عن الأزمنة الواقعية برؤاها المستقبلية.

ومما سبق يمكن القول بأن تكسير مسار زمن الخطاب في الرواية المتعلقة بالموروث ، قد حقق تحولا إبداعيا بين ما ورثناه عن مستويات الزمن في الأشكال الحكائية التراثية والرواية المستلهمة لمقوماتها البنائية الزمنية وغيرها، فقد انتقل الزمن في تداخله بين التراث والحداثة من حالته التعااقبية إلى مستوى تخيلي معقد أنتج آليات فنية جديدة خدمت السرد وخلقت محفزات نصية تثير رغبة القارئ في التأويل، وهذا ما يؤكد قدرة النص الجديد على احتواء خصوصيات النص القديم وتحويل مسارها الإبداعي دون خدش أصالتها، كما يؤكد قابلية النص التراثي الخالد على الاندماج العفوي في عوالم الإبداع النصي مع تقدم الزمن.

فقد انفتحت آفاق الرواية على التصورات الراهنة لحقيقة النص الإبداعي المتمرد على النموذج التقليدي، وذلك بتبني تقنيات فنية حوارية تعاطت التراث ودمجته في عوالمها الجديدة، فأثرت به مجال التجريب والتجديد في الكتابة الحداثية التي أصبحت قبلة النقد المعاصر الباحث في آليات اختراق المعهود وأسباب التفرد والخلود في الوجود الإبداعي.

كما استطاع الكاتب أن يلون استخداماته للغة السرد حسب مقتضيات الحال، فجاءت اللغة وصفية مباشرة عندما يقدم مشهدا واقعيًا، أو يصف وقائع تهم الباحث الأنثروبولوجي والاجتماعي، وكانت لغته أقرب إلى التصوف والكشف عندما يستبطن مشاعر "فارا" في خلوته التي ينتظر فيها أمر ربه، وهي لغة ذات نفس فلسفي واضح عندما يعلن "فارا" رأيه في الخلق الإنساني وملاحظاته عنه.

إن ما يلاحظ أن موسى ولد أبو نسج روايته على منوال روايات الخيال العلمي، وما يطبعها من تعدد الأزمنة وتداخل أنساقها، هيمنة الزمن الاسترجاعي بسبب اشتغال الكاتب على فعل التذكر واستحضار محكيه من الماضي، تعالق الميثاقين الروائي/التخييلي، والسيرذاتي/المرجعي، وتفاعلهما في تشكيل عوالم الحكيم، وتنوع الخطابات حيث يتقاطع فيها الذاتي والموضوعي، الروائي والتاريخي، المتخيل والمرجعي، الواقعي والعجائبي، خطابات أثرت خطاب الرواية وجعلته زائرا بالجمالية والدلالية وانبعث الأحداث من الذاكرة والتركيز على محور الذات الساردة، كما شكل التداخل للرؤية السردية ملحا

وتجريباً جمالياً في الرواية. وتجريب موسى ولد أبو هذا ليس بمنأى عن حركة المجتمع الحافل بتناقضاته، فالتجريب "ينطوي على تسليم بتغيير الواقع واكتظاظه بالمعقد والجديد الذي يتطلب إنتاجه نصياً إيجاد أشكال جديدة متفوقة" (بدوي، ط 1993، 1، ص 244)، وهو "في مستواه الأرفع مناهضة للواقع لأنه يحاول إعادة إنتاجه وتنظيمه" (المرجع نفسه، ص 268). واشتغال موسى ولد أبو بالجزئيات الواقعية وارتباطها الواضح بقضايا الواقع التاريخي، حمى تجربته من أن تكون ذات بعد واحد، فضلاً عن استثمار ما في الخيال العلمي والعجائبي، مزاحة على حدود الزمان والمكان. هذا الاهتمام أقام صلة واضحة بين هذا البعد الزمكاني والبعد الواقعي المرهون باللحظة الزمكانية، ونرى أن العودة إلى التراث واستلهامه والبحث عن أنواع سردية يستعير الكاتب شيئاً من سماتها وخصائصها الفنية، أعمق من مجرد الرغبة في الجمع بين الوافد والأصيل، أو القديم والجديد، فاستعارة لغة قديمة للنظر من خلالها إلى واقع اليوم يثني برغبة عميقة في العودة إلى البنية العقلية التي تجسدها هذه اللغة، للبحث عن الذات العربية وبعثها من جديد في مواجهة الوافد الذي ينعكس وجوده الذاتي في أساليب السرد الغربية. من هنا يسعى موسى ولد أبو بعمله هذا إلى خلق أشكال سردية جديدة تعتمد مرجعية تراثية تستلهم التراث كوقائع وأحداث مباشرة وبتأويلية متسرلة بقوة الحكاية في الإقناع والتأثير، و"أن أخذ التراث على العاتق هو في جوهره مجابهة الحاضر للماضي في جميع المجالات بوساطة المحاور النقدية" (مجموعة من الكتاب، ط 1، 1981، ص 9) .

فالحضور العجائبي ساعد الراوي على أن يمسك بهذه العوالم من السقوط، لأننا نعرف ومنذ اللحظة الأولى أننا لا ندخل عوالم الرؤيا العجائبية التي تشبه في عملها الأحلام وعوالم الأساطير، فالرؤيا نطاق من المعرفة و الإدراك لا يخضع لمعطيات وأبعاد الواقع، ولهذا يسهل فيه تداخل الأزمنة وتماهي الشخصيات والأحداث، فتغدو عملية إسقاط التاريخي على الآني ضرورة لفهم هذا الآني، لأن أوجه الشبه يخلقها جمع الأسباب والنتائج في نص واحد تتهامى فيه الأشياء وتتحول وتُستنطق بحرية الإفلات من الأبعاد الزمانية والمكانية الواقعية.

لكن هذا الخروج هو عينه ما يمنح الراهن عمقا واقعياً ويتيح للقارئ استغوارهما، وكشف العلاقات الرابطة بينهما لتفسير ما يحدث وما سيحدث، "إن ما يميز السرد الفنتازي أن له رؤية مغايرة للأشياء فحالة المتلقي بعد القراءة تكون مختلفة تماماً عن حالته قبل القراءة، الاختلاف هنا يعمل لتحطيم الرؤية الساذجة بين الواقع واللاواقع، وبين الظاهر والباطن، عندئذ تصبح الكتابة الفنتازية مغامرة واستجلاء للذات الإنسانية (الشخصية الروائية) ولتحليل الرموز" (غانم، جريدة الأديب، السنة 5، ع 168، 2008).

3. تركيب:

ينزاح النص الأدبي المبدع نحو التميز والتفرد، عبر قدرته في الخروج على المتراكم النصي ضمن حدود جنسه الأدبي، مع بقاءه في دائرة المعايير الفنية والخصائص النوعية لهذا الجنس، ويغدو خرقه لهذه المعايير حالة تحتاج إلى وقفة نقدية ستجلي أبعاد هذا الخرق، ووظائفه الفكرية والجمالية. هذه الصيغة من التعالق السردية تمثل إحدى خصوصيات الكتابة الروائية الموريتانية، التي وسعت من إمكانات المنظور الإبداعي للروائي العربي وساهمت في تنوع مصادر كتابته. ينطلق منه الروائي ليكتب نصه وفقا لآليات السرد وصيغ تحققه أصبح مع "مدينة الرياح" نصا مكتوبا محددًا، سبق للروائي أن كتبه بالفرنسية barzakh ينطلق منه الروائي ليعيد كتابته مرة أخرى كتابة للأصل مرة ثانية، وتكثيفا لتخييل صحراوي، يوظف تراث التكوينات الاجتماعية للمجتمع الموريتاني ويستفيد في تقنياته السردية من وسائل الاتصال الحديثة (الحاسب الآلي).

من ناحية أخرى هناك صلة بين معمار النص القائم على تداخل الأزمنة والأمكنة والحكاية المروية وبين القارئ، فهو ليس متلقيا سلبيا، وإنما هو يشارك في البناء والفرز وإعادة الهيكلة. إنه مطالب بالعمل إلى -درجة الإجهاد والضعف أحيانا- على إعادة إنتاج النص. وعلى الرغم من أن الأمر يخفف من مركزية الراوي المفرد في هذا النص، فإنه تحول في الكثير من الصفحات إلى عبء على القارئ ولا سيما الذي ينقطع عن القراءة بعض الوقت.

لائحة المصادر والمراجع

1. موسى ولد إبنو، مدينة الرياح، دار الآداب، بيروت، ط1، 1997.
2. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط1، 1990.
3. سعيد يقطين، القراءة والتجربة (حول التجريب في الخطاب الروائي بالمغرب)، دار الثقافة، الدار البيضاء.
4. مها حسن القصراري، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2004.
5. غاستون باشلار، جدلية الزمن ؛ ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1982، 3.
6. شعيب حلفي، بنيات العجائبي في الرواية العربية، مجلة فصول المجلد 16 العدد 3 شتاء 1998 .
7. شعيب حلفي : شعرية الرواية الفانتاستيكية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، القاهرة 1997.
8. محمد بدوي، الرواية الجديدة في مصر دراسة في التشكيل والإيديولوجيا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1993، 1، ص244.
9. الرواية العربية واقع وآفاق، مجموعة من الكتاب والنقاد، دار بن رشد للطباعة والنشر، ط1، 1981.
10. أسامة غانم، الرؤية الغرائبية في سوسيولوجيا الجسد، جريدة الأديب، السنة5، ع168، 2008 .

بلاغة الخطاب الفلسفي عند ابن رشد

قراءة في كتاب "تمثيلات واستعارات ابن رشد من منطق البرهان إلى منطق الخطابة" لفؤاد بن أحمد

The Eloquence Of Philosophical Discourse according To Ibn Rushd: A Reading Of The Book

"Representations And Metaphors Of Ibn Rushd From The Logic Of Proof To The Logic Of Rhetoric"

by Fouad bin Ahmed

منير بورد، باحث في البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب

البريد الإلكتروني: mounir.b2009@gmail.com

ملخص: عرف البحث البلاغي في العالم العربي تطوراً ملحوظاً في السنوات الأخيرة ويظهر ذلك بجلاء في كثرة الدراسات التطبيقية، بحيث اتجه البلاغيون إلى دراسة جل الخطابات الحاضرة في حياة الإنسانية اليومية فأصبحنا نتحدث عن مجموعة من البلاغات القطاعية مثل: بلاغة الخطاب الإعلامي وبلاغة الخطاب الإشهاري وبلاغة الخطاب الديني وبلاغة الخطاب السياسي... ورغم هذا النزوع التطبيقي الواسع فإن بعض الخطابات ما زالت في منأى عن الاهتمام مثل الخطاب الفلسفي إذ يلاحظ أن معظم الدراسات التي اهتمت به نظرت إليه من زاوية المضامين ولم تلتفت إلى الآليات البلاغية التي يعتمد عليها من أجل تبليغ هذه المضامين وإقناع القارئ بها. ويبدو أن بعض الباحثين في مجال الفلسفة قد انتبهوا إلى هذا الجانب كما هو الحال عند الدكتور فؤاد بن أحمد الذي وقف في كتابه "تمثيلات واستعارات ابن رشد" على آليات بناء الخطاب الفلسفي عند ابن رشد وبين دورها في عرض أفكاره وإقناع القارئ بها، وبناء على هذا سنحاول في هذا المقال تقديم قراءة في هذا الكتاب من أجل الوقوف على القضايا الأساسية التي عالجها المؤلف والنتائج التي انتهى إليها من جهة واستخلاص مرجعيات الرؤية التي يقترحها من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: بلاغة - خطاب - فلسفة - آليات - تبليغ - إقناع.

Abstract: Rhetorical research in the Arab world has witnessed a remarkable development in recent years. This is evident in the abundance of applied studies where it is noted that rhetoricians have shifted to studying most of the discourses present in the daily life of human. Thus, we started taking into consideration a set of rhetorical communications, such as: the eloquence of media discourse, advertising discourse, religious discourse, and political discourse. Despite this broad applied tendency, some discourses do not receive a great deal of interest, such as philosophical discourse. Most of the studies that focused on philosophical discourse looked at it from the perspective of contents and did not pay attention to the rhetorical mechanisms it adopts in order to communicate these contents and convince the reader of them. It seems that some researchers in the field of philosophy have paid attention to this aspect. One of these researchers is Dr. Fouad bin Ahmed who focused on the mechanisms of building philosophical discourse according to Ibn Rushd in his book "Representations and Metaphors of Ibn Rushd", and he explained their role in presenting his ideas and convincing the reader of them. Based on this, the article at hand is an attempt (a) to provide a reading of this book in order to identify the basic issues that the author addressed and the results he reached, and (b) to extract the references for the vision he proposes.

Key words: Rhetoric - Discourse - Philosophy - Mechanisms - Communication - Persuasion.

يعتبر موضوع التداخل بين التخيل والتصديق من المواضيع المشتركة بين البلاغة والفلسفة؛ إذ اهتم الباحثون في مجال البلاغة ببيان مظاهر وتجليات هذا التداخل وتحديد أدواره الأساسية، ويعد الدكتور محمد العمري من أبرز البلاغيين الذين اهتموا بهذا الموضوع؛ بحيث يرى أنه "بقدر ما يكتشف الباحثون في مجال الحجاج حاجة إلى الوسائل المعبرة تخيلية (٠٠٠) لتحقيق الوظيفة الإقناعية التي يرصدونها، بقدر ما يكتشف منظرو الأدب المنقبون عن ماهيته أن المنتج المعبر أدبا عبر التاريخ يمتد خارج المفهوم الدقيق للتخيل (٠٠٠) لتحقيق بعد حوارى حجاجي" (العمري، 2006، صفحة 9)، وبناء على هذا اهتم العمري بفحص منطقة التقاطع بين التخيل ممثلا بالشعرية والحجاج ممثلا بالخطابية في الثقافتين العربية والغربية، بهدف إقامة علم عام يستوعب كل المساهمات النظرية والجهود التطبيقية التي انشغلت بالخطابين الشعري والحجاجي (العمري، 2012، الصفحات 11-34).

كما اهتم الباحثون في مجال الفلسفة بدراسة هذا التداخل في مستويات متنوعة؛ فقد كانت العلاقة بين الخطاب الفلسفي والاستعارة والتمثيل من المواضيع التي حظيت باهتمام كبير من طرف الفلاسفة منذ القديم، وقد أفرز هذا الاهتمام موقفين متعارضين؛ أولهما يرى أن الفلسفة خطاب عقلاني ولا مكان فيه لما يتعارض مع المنطق والعقل، وهكذا فإن العبارات المجازية تظل، من هذا المنظور، نقيضا للفلسفة؛ بحيث لطالما صرخ العلماء والفلاسفة ملء حناجرهم بأنها لا تناسب إلا الشعر والخطابة وقللوا من شأن كل فكر يعتمد عليها بصورة أساسية، فهذا صامويل بارك يقول: "كل النظريات الفلسفية التي لا تعبر إلا بالمصطلحات الاستعارية، ليست حقائق واقعية، ولكنها مجرد منشآت الخيال، مكسوة (مثل دمي الأطفال) بكلمات جوفاء ولو أنها لامعة (٠٠٠) وكذلك فإن خيالاتهم المضللة والخصبة لا تدنس فقط، وهي تنسل إلى سرير العقل، بملاطفاتها غير الشرعية، بدل التصورات والمفاهيم الصادقة عن الأشياء، بل تلفح الذهن بأوهام مائعة" (الولي، 2020، صفحة 26)، ولا يخفى أن هذا القول نفسه لم يسلم من عدوى الاستعارة والتشبيه؛ إذ بالرغم من تقليل هذا التيار من قيمة المتخيل والطنن في نجاعة تأديته للمعرفة وتقريبها من الأذهان فإنه لم يستطع الفكك من أسره، بحيث تظل هذه الممارسة حاضرة في خطابه لا تكف عن الظهور والاختفاء.

أما الموقف الثاني فهو يرى أنه رغم شعار العقلانية الذي ترفعه الفلسفة وسعيها المتواصل إلى حماية خطابها من المد التخيلي فإنها تظل في حاجة إلى منتجاته لتبليغ أفكارها أو الاستدلال عليها أو ابتكارها؛ إذ أثبتت الأبحاث والدراسات المعرفية والابستمولوجية أن الاستعارة والتمثيل آليات أساسية للفهم والحجاج وبلورة الأفكار العلمية وتوليد المعاني الفلسفية.

وقد أكد الدكتور الطاهر واعزيز هذا الدور التبليغي والحجاجي للمتخيل في الخطاب الفلسفي، بل إنه اعتبره سمة منهجية مميزة لهذا الخطاب في سياق حديثه عن تجليات الأسطورة في الخطاب الفلسفي عند اليونان، بحيث يرى أن الحضور الأسطوري في الخطاب الفلسفي اليوناني يتخذ مظهرين اثنين؛ أولهما يتمثل في تأثير الأساطير على الفلاسفة؛ إذ بالرغم من تلك القطيعة التي أحدثها الفلاسفة اليونانيون مع الزمن الأسطوري والشعري فإن وعيمهم ظل حاملا في ثناياه بعض آثار ورواسب هذه المرحلة غير العقلانية، بينما يتمثل المظهر الثاني في الاعتماد على الأسطورة باعتبارها وسيلة شعرية وأداة ناجعة للتعبير عن قضايا وأفكار منفصلة يصعب تصورهما، وبهذا يظهر "أن الفكر الفلسفي بعد أن انتقد أساطير القدماء على أنها أوهام، قام بجياكة أساطير جديدة، هي إذن من جملة طرائقه المنهجية" (وعزيز، 1990، الصفحات 144-145).

وبناء على هذا يرى أن الفيلسوف يسعى من خلال توظيفه للأسطورة في خطابه إلى تحقيق غايات مختلفة، يمكن اختزالها في غايتين أساسيتين؛ أولاهما تواصلية تتجلى في التعبير عن بعض القضايا والأفكار التي يصعب إدراكها من جهة، وشد انتباه المتلقي وجذب اهتمامه من جهة ثانية؛ ذلك أن أفضل طريقة لشد الانتباه وإيقاظ الفكر وامتلاك الأسماع هي مخاطبة الخيال، وثانيهما حجاجية، بحيث تؤدي الأسطورة وظيفة خطابية تروم إقناع المتلقي بدعوى الفيلسوف. كما أن حضورها في خطابه يأتي "لتمييز بين الحقائق اليقينية أو التي يمكن البرهان عليها، والفروض التي هي في الغالب موضع شك. ويكون علينا أن نكتفي بها لانعدام ما هو أفضل منها" (وعزيز، 1990، صفحة 145)، وبهذا يظهر أن المتخيل من المكونات الأساسية للخطاب الفلسفي ويؤدي دورا مهما في تبليغ المعاني الفلسفية وجعلها مفهومة لدى قارئ لا يجيد النظر الصناعي ودفعه إلى التسليم بصحتها.

وفي ضوء هذا التوجه الذي يدعو إلى إعادة النظر في مكانة المتخيل في الخطاب الفلسفي وتقويم أدواره في المباحث العلمية ظهرت مجموعة من الدراسات تقارب الخطاب الفلسفي من هذه الزاوية؛ ومثال ذلك دراسة الأستاذ فؤاد بن أحمد (بن أحمد، 2012) الذي لاحظ أن ابن رشد رغم نزوعه البرهاني وانتقاده لآليات الخيال يلجأ في مواضع كثيرة من مشروعه الفلسفي إلى استعمالها "بل إننا نجد هذه الآليات أحيانا في صلب ما يسميه بالقول العلمي، فالعودة إلى نصوصه تظهر بوضوح أنه لم يكن يتورع منذ بداية عمله حتى نهايته في الأخذ بالتمثيلات، تمثيلات سيكون من باب الاختزال حصر منافعها في مجال بعينه، أو في غرض بعينه واعتبارها عرضية" (بن أحمد، 2014، صفحة 20).

وعليه اهتم الأستاذ فؤاد بن أحمد بدراسة التمثيل عند ابن رشد باعتباره موضوعا للنظر الفلسفي عنده؛ أي كيف فكر في مفهومه وتركيبه وفي كيفية عمله وكذا في منزلته بين باقي الأقاويل من جهة،

وباعتباره آلية للنظر الفلسفي وبناء الخطاب من جهة ثانية؛ إذ اتضح له أن ابن رشد يستثمر التمثيل بشكل كبير في بناء وعرض دعاواه الفلسفية والبيولوجية والعلمية أو في الرد والاعتراض على خصومه من المتكلمين خاصة الأشاعرة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن رصد آليات القياس الخطابي في الخطاب الفلسفي عند ابن رشد ورفع صفة البرهانية عنه لا يحط من شأن عمله ولا يقلل من قيمته، وقد أشار الأستاذ فؤاد بن أحمد في بداية الكتاب إلى هذا الأمر؛ بحيث يرى أن نزع خاصية البرهانية النقية عن الخطاب العلمي والفلسفي عند أبي الوليد ليس الغرض منه هو التقليل من أهمية هذا المنجز الواعي وإنكار قيمته العلمية هذه القيمة التي يمكن إثباتها من مداخل أخرى غير البرهانية؛ إذ ليست هذه الأخيرة هي المدخل الوحيد للنظر في الخطاب الرشدي كما أنها ليست معياراً لتحديد قيمته، ولذلك فإن الحديث عن القياس التمثيلي في فلسفة ابن رشد ليس "تنقيصاً من قيمة هذا البناء الفلسفي، على اعتبار هذا التنقيص هو نفسه ناتج عن نظرة تفرق التمثيل بأنماط الفكر الخرافية أو البدائية أو الطفولية الساذجة، وتعتبره تراجعاً عما أنجزته العقلانية اليونانية" (بن أحمد، 2012، الصفحات 27-28).

يفتح المؤلف كتابه بمقدمة مستفيضة يكشف فيها الاهتمام الكبير الذي حظي به التمثيل في المباحث العلمية والفلسفية، وما أفرزه من مواقف متباينة انعكست بجلاء على تقويم مكانته في المتن الرشدي؛ بحيث يمكن التمييز بين موقفين؛ أولهما يؤكد برهانية الخطاب الفلسفي عند أبي الوليد ويصنّفه ضمن التيار المناهض للتخييل (محمد عابد الجابري، عبد الله العروي، علي بمنخلوف...) وثانيهما يرى أن ابن رشد لم يكن في منأى عن التخييل إذ استعمل آلياته (الاستعارة والتمثيل) استعمالاً واسعاً نظراً لأهميته في بناء المعرفة الفلسفية وتقريبها من المخاطب وإقناعه بها (محمد المصباحي، طه عبد الرحمان، حمو النقاري...).

من هذا المنطلق يدعو المؤلف إلى إعادة النظر في هذا التقابل في ضوء الدراسات المنطقية والابستمولوجية والأنثولوجية الحديثة التي أثبتت دور آلية التمثيل في الفهم والإدراك وفي تكوين التصورات وفي الحجاج والاستدلال، بحيث ترى هذه الدراسات أن التمثيل يشكل آلية لا غنى عنها في الخطاب الفلسفي خاصة في بعده الحجاجي "فما هو أكيد أن الفكر الفلسفي الذي لا يمكن التحقق منه تجريبياً، يجري في حجاج يسعى في الدفع إلى التسليم ببعض التناسبات والاستعارات بوصفها العنصر المركزي لرؤية ما للعالم" (بنو هاشم، 2014، صفحة 95).

وعلى هذا الأساس يطرح المؤلف جملة من الأسئلة تتوخى النظر إلى التمثيل باعتباره موضوعاً للنظر الفلسفي من جهة وأداة مسخرة لهذا النظر من جهة ثانية، كما سبقت الإشارة، ومعنى هذا أن

المؤلف لن ينشغل بمضامين الخطاب الرشدي وقضاياها بشكل أساسي، بقدر ما سيهتم بتتبع توظيفه لآلية التمثيل سواء في تقويمه لآراء الخصوم أو في عرضه لأفكاره الخاصة، وقد أكد المؤلف هذا الأمر في مناسبات عديدة؛ بحيث يقول على سبيل المثال في معرض حديثه عن نظرية النبوة عند ابن رشد في الفصل الرابع: "ما نود أن نقوم به في هذا الفصل ليس هو معالجة هذه الدعاوى والمضامين العقدية التي حملتها نظرية ابن رشد في النبوة... بل هو فحص هذه الآليات الاستدلالية التي استثمرها في بلورة دعاوى ومضامين هذه النظرية، أعني الدعائم الأسلوبية والتدليلية التي استعان بها في إقامة صرح نظريته وفي فحصه لنظريات خصومه من المتكلمين، وكذا في تقويمه لأقوالهم التي شدوا بها هذه النظريات (بن أحمد، 2012، صفحة 136).

يفهم من هذا القول أن الانشغال بالمضامين لن يكون إلا بالقدر الذي يخدم الدعوى التي يقوم عليها الكتاب وهي اعتبار ابن رشد كغيره من الفلاسفة المسلمين، ينزع إلى الاستدلال بالتمثيل لإثبات أحكام وإبطال أخرى بحيث يمكن الوقوف في مواضع كثيرة من كتبه - على اختلاف أغراضها وتنوع مواضيعها - على استخدام واسع لهذا النمط من الاستدلال "من غير حرج باد ولا استشكال صريح، نظرا لحقيقة تداولية وهي أن الخطاب الفلسفي، بوصفه جزءا من الخطاب اللغوي الطبيعي، يتوسل بما يتوسل به هذا الخطاب من آليات استدلالية، بصرف النظر عن مقدار هذا التوسل وعن الموقف منه، إن إقرارا به أو إنكارا له" (الرحمان، 2016، صفحة 175).

والمأمل لمحتويات الكتاب سيلاحظ أن المؤلف يتتبع تمثيلات ابن رشد في موضوعات متنوعة؛ إذ هناك حديث في الأنثروبولوجيا وفي الثيولوجيا وفي الشريعة وفي المنطق وفي العلم المدني... ومعنى هذا أن توظيف أبي الوليد لآلية التمثيل لا يقتصر على مجال بعينه، بل هو آلية أساسية لبناء الخطاب كيفما كان موضوعه والمجال الذي ينتمي إليه، وإذ لا يسعنا المقام لتتبع مختلف القضايا التي طرحها المؤلف في الكتاب، فإننا سنركز على منهجيته في التعامل مع تمثيلات الخطاب الرشدي، بحيث يمكن أن نميز في هذا التعامل بين ثلاثة مستويات أساسية؛ أولها يهتم فيه المؤلف بتحليل بنية التمثيلات من خلال النظر في مكوناتها والعلاقات القائمة بينها من جهة وفحص يقينيتها من جهة ثانية، ذلك أنه لا يسلم بالمبررات المنطقية التي يقدمها ابن رشد للدفاع عن صحة تمثيلاته، بل يسعى إلى بيان هشاشتها من خلال الكشف عما تنطوي عليه من اختلافات "فلاحة التشابه الظاهري بين واقعتين يجب ألا يدفع الذهن في اتجاه مسaire الأحكام السائرة لأن التشابه نفسه قد يحجب تباينا خفيا عن الحس" (بن أحمد، 2012، صفحة 278).

ولعل أهم مثال يمكن استحضاره في هذا المستوى هو التمثيل الذي وظفه ابن رشد لتوضيح علاقة الشريعة بالتأويل والجمهور؛ حيث شبه الشريعة بالدواء وشبه علماء الكلام بالأطباء الذين يغيرون بشكل مستمر في تركيبة هذا الدواء، في حين شبه الوحدة العقدية والسياسية للجمهور بالصحة.

وقد حلل المؤلف هذا التمثيل بنوع من الدقة والتفصيل واضعاً المطلوب الأخرى في مقابل شبيهه الأعراف، ليبين "تشابههما على مستوى موضع الفعل وخواصه والغاية منه" (بن أحمد، 2012، صفحة 118) عبر مجموعة من المراحل بدءاً بمرحلة الوضع الأصلي حيث يكون الشرع واضحاً لكل الناس وغير قابل للتأويل إلا بشروط، ويسعى إلى حفظ السلامة النفسية، كمركب دوائياً عام المنفعة ويسعى إلى حفظ صحة الأبدان، ومروراً بمرحلة التغييرات عند كل فرقة من الفرق الكلامية (الخوارج، المعتزلة، الأشاعرة، الصوفية) وأثرها على خصائص الشبهين والغاية منهما، ووصولاً إلى مرحلة النتائج النهائية التي أدت إليها كثرة التأويل في الشريعة من جهة وأدى إليها التغيير في الدواء من جهة أخرى، بحيث يرى أن كثرة التأويلات أدت إلى تمزق الشرع وبعده عما وضع له في الأصل، والأمر نفسه بالنسبة للدواء؛ إذ أدى التغيير في تركيبه إلى فساد المنفعة المقصودة منه (بن أحمد، 2012، الصفحات 117-120).

وفي هذا السياق يفحص المؤلف وثيقة هذا التمثيل ويسائل يقينته بالنظر في صحة هذا التناسب الذي يدافع عنه ابن رشد منطلقاً من سؤال أساسي وهو: هل نسبة الطبيب إلى صحة الأبدان هي نسبة الشارع إلى صحة الأنفس؟ يجيب المؤلف عن هذا السؤال بمجموعة من النقاط تكشف هشاشة هذا التمثيل وتخفف من صرامته وتدعو إلى مساءلة يقينته، نكتفي هنا بواحدة منها، تتمثل في التنبيه إلى الاختلاف بين طرفي التمثيل إذ الشرع شأن إلهي بينما الطب صناعة بشرية؛ كما أن الشرع مصدره الوحي بخلاف الطب الذي يقوم على التعلم والدربة والمراس، ومعنى هذا أن الطرف الأول من التمثيل لا يحيط بالطرف الثاني من جميع جوانبه، ومن ثم فإن هذا الاستدلال خطابي لا يرقى إلى مرتبة الاستدلال البرهاني، وهكذا يرفع المؤلف في وجه أبي الوليد الاعتراض المنهجي الذي كان قد رفع هو نفسه مثيلاً له في وجه المتكلمين، بحيث اعترض في مناسبات عديدة - عرض لها المؤلف في الفصلين الأول والثاني - على تمثيلاتهم مظهراً عدم التشابه بين الشاهد والغائب مؤكداً عجز هؤلاء "عن التقاط التشابه بين الموجودات، لذلك فهم لا يستوفون أدنى شروط القولين الخطابي والجدلي" (بن أحمد، 2012، صفحة 63).

ويهتم المؤلف في المستوى الثاني ببيان وظائف التمثيل في المتن الرشدي، بحيث يلاحظ أن هذه التمثيلات تؤدي مجموعة من الوظائف أهمها الوظيفة الحجاجية، إذ يسعى أبو الوليد من خلالها إلى إثبات دعاواه الفلسفية والثيولوجية والعلمية أو إلى إبطال دعاوى خصومه وكشف تهاوتها، ومن التمثيلات التي

أوردها الباحث في هذا السياق تمثيل الفلسفة بالماء، يقول ابن رشد: "مثل من منع النظر في كتب الحكمة من هو أهل لها من أجل أن قوما من أراذل الناس قد يظن بهم أنهم ضلوا من قبل نظرهم فيها، مثل من منع العطشان شرب الماء البارد العذب حتى مات من العطش، لأن قوما شرقوا به فماتوا. فإن الموت عن الماء بالشرق أمر عارض، وعن العطش أمر ذاتي ضروري" (بن أحمد، 2012، صفحة 98)، فهذا التمثيل يثبت دعوى ويبطل أخرى في الآن نفسه؛ إذ يؤكد ضرورة النظر في كتب الحكمة ووجوب أعمال المنطق من جهة ويبطل الرأي القائل بخاطر الفلسفة من جهة ثانية.

كما يضطلع التمثيل بوظيفة بيداغوجية أو تعليمية تتمثل في نقل المعاني الفلسفية وجعلها في متناول المتلقي خاصة إذا كان هذا الأخير لم يستوف بعد شروط النظر الصناعي أو غير قادر على فهم المعاني المجردة، ذلك أن استخدام العبارات الاستعارية والتمثيلات موجه بالأساس إلى متلق ليست له معرفة دقيقة بخصائص الخطاب الفلسفي وأسواره بحيث لو كان التواصل جاريا بين أهل العلم والفلسفة فقط لأمكن التخلي عنها؛ فهي بمثابة وسيط بين المعنى الفلسفي والخارج وبين الفيلسوف ومخاطبه "ينقل من خلالها معانيه الفلسفية في صور حسية، لتيسير أمر بلوغها، وهي التي تعسر إن وضعت في صيغ وعبارات مفهومية مجردة" (فاتري، 2016، صفحة 450). وقد انتبه ابن رشد إلى هذا الدور التبليغي للأقاويل التخيلية؛ بحيث يرى أن الخطاب القرآني اتبع هذا المسلك في مخاطبة الجمهور؛ خاصة في الأمور التي لا تدرك إلا بالبرهان "فقد تطف الله فيها لعباده الذين لا سبيل لهم إلى البرهان، إما من قبل فطرهم، وإما من قبل عادتهم، وإما من قبل عدمهم أسباب التعلم بأن ضرب لهم أمثالها وأشباهها ودعاهم إلى التصديق بتلك الأمثال؛ إذ كانت تلك الأمثال يمكن أن يقع التصديق بها بالأدلة المشتركة للجميع، أعني الجدلية والخطابية" (ابن رشد، 1987، صفحة 20).

وهناك وظيفة أخرى لا تقل شأنًا عن الوظيفتين السابقتين وهي توليد المعاني الفلسفية؛ إذ لا تقف هذه الأقاويل عند حدود التحسين الأسلوبي أو التبليغ والإقناع، وإنما تتجاوز ذلك إلى الإسهام في إيجاد المعاني وتشكيلها، وقد تأتي في بعض الأحيان بمعان غير تلك التي كان الفيلسوف يروم التعبير عنها فتتجاوز بذلك المقصود إلى أشياء أخرى يفيض بها النص، وتقود القارئ عن طريق تأويلها إلى عوالم جديدة غير متوقعة.

ويعنى المستوى الثالث بالكشف عن خلفيات التمثيلات الرشدية والمقاصد الثاوية خلفها، بحيث يشيد المؤلف في هذا الجانب بالجهد التداولي الذي قام به ابن رشد في سبيل تقريب الفلسفة اليونانية من المتلقي العربي، ويظهر ذلك بجلاء فيما أجراه من تعديلات على الأمثلة الأرسطية بل واستبدالها بأخرى قريبة من الأفق الفكري والحضاري للمخاطب العربي، لأجل توضيح قضايا فلسفية ومنطقية وعلمية

مشدودا في ذلك إلى النسق العقدي والإسلامي، سيرا على منوال أبي نصر الفرائي الذي واجه الأمر ذاته في التعامل مع الفكر الأرسطي؛ بحيث لم يكن أمامه هو الآخر إلا الاستغناء عن الأمثلة التي وظفها أرسطو وتعويضها بأمثلة مستمدة من المجال التداولي العربي؛ فالأمثلة التي استعملها المعلم الأول كان الغرض منها هو توضيح مجموعة من القضايا العلمية والمنطقية والفلسفية والحرص على أن تكون مفهومة عند جمهور زمانه قريبة من أفقه، وبما أن القراءة الفلسفية العربية للفكر الأرسطي كان الغرض منها هو تقريب مضامين هذا الفكر من المتلقي العربي في تلك الفترة وترويجها في المجال الثقافي العربي الإسلامي فقد تقيدت هي الأخرى بهذا الإجراء البيداغوجي المتمثل في توظيف أمثلة مشهورة عند هذا المتلقي ومتداولة في زمانه.

غير أن قراءة ابن رشد للفكر الأرسطي كانت تحكمها هواجس إيديولوجية تتمثل في إنجاز تأويل خاص يحمل مضامين فلسفية وعقدية وسياسية في بعض الأحيان أشار إليها المؤلف في تعليقه على كلام ابن رشد "وكما أن الطبيب ليس ينبغي للإنسان العليل أن يتوانى أو يتردد في قبول قوله... كذلك الحال في قبول قول الواضع للسنة المكتوبة" (بن أحمد، 2012، صفحة 131)، بقوله: "إن نقل خصائص الصناعة الطبية إلى الشارع قد يؤدي بنا إلى نتائج تأويلية تجعلنا نتساءل فعلا عما إذا لم يكن ابن رشد يشرع فعلا للاستبداد؟" (بن أحمد، 2012، صفحة 131)، ويفهم من هذا الكلام أن عملية التمثيل ليست بريئة بل تحمل في طياتها مجموعة من الدلالات من شأنها الكشف عن الخلفيات والمذاهب المتحكمة في منتجها.

ويبدو أن رؤية الأستاذ فؤاد بن أحمد للموضوع تستمد أسسها ومبادئها مما انتهت إليه البحوث والدراسات في ثلاثة مجالات؛ أولها مجال الدراسات المنطقية والابستمولوجية التي بينت أهمية التمثيل وكشفت أدواره المعرفية من خلال مناقشة التصورات التقليدية لعقلية العلم التي تدعي "أن هناك فارقا جوهريا بين لغة العلم واللغة الأدبية، حيث الأولى صارمة لا تأويل فيها لأن دلالة ألفاظها حرفية، بينما تقبل الثانية تأويلات متعددة لأنها مجازية" (البعزاتي، 2019، صفحة 102) وبالتالي فالفكر الذي يعتمد على التعابير المجازية والفكر العلمي مختلفان ولا تجمع بينهما أية صلة.

وقد بين الأستاذ بناصر البعزاتي قصور هذا الموقف بتأكيد أهمية هذه الأساليب في عمليتي الإدراك والاستدلال ذلك أن "الاستدلال في العلم يستثمر الصور الاستعارية والنماذج التمثيلية ويتحقق تدريجيا من خلال إعادة سبك العبارات عبر التكميم والتجريب والترييض" (البعزاتي، 2019، صفحة 497)، كما أنها تلعب دورا أساسيا في بلورة الأفكار العلمية وتطويرها؛ فهي تسمح للذهن بخلق إمكانات جديدة من خلال نقل العلاقات من مجال معرفي إلى آخر والوصل بين الموضوعات المختلفة، وما يقال

عن الخطاب العلمي في هذا المستوى يصدق على الخطاب الفلسفي أيضاً؛ بحيث إذا كانت هذه الصور والأساليب قد استطاعت أن تتسلل إلى أدق الخطابات الإنسانية وهو الخطاب العلمي فإنها ستنفذ إلى لغة الفلاسفة لا محالة.

ويتمثل المجال الثاني في العلوم المعرفية وبالأخص المقاربة المعرفية للاستعارة مع جورج لايفكوف ومارك جونسون التي أحدثت ثورة في مجال الدراسات البلاغية الحديثة لأنها نقضت التصور الأرسطي التقليدي للاستعارة، وتقوم هذه المقاربة على جملة من المبادئ أبرزها اعتبار الاستعارة ضرورية في حياة الإنسان ولا يمكنه أن يستغني عنها في التفكير والتعبير والتواصل، وبما أن القول الفلسفي جزء من لغة الإنسان، وبما أن هذه اللغة مليئة بالمجازات فلا بد أن يتسرب إليه قدر من هذا المجاز.

أما المجال الثالث فهو مجال الدراسات المجازية الحديثة خاصة مع رائد الحجج البلجيكي شايم بيرلمان الذي يعد من أبرز الدارسين الذين نبهوا إلى الحضور المركزي للتمثيل في الخطاب الفلسفي وأعادوا النظر في منزلته وقيمتها المعرفية والمجازية، فهو يرى أن التمثيل "ليس مجرد ترويح عن النفس ولا مجرد معين للفكر الذي يبحث عن نفسه، يمكن للفيلسوف مثل العالم أن يستغني عنه حين يحصل على النتيجة التي كان يتوخاها، إنه بالعكس من ذلك، ما به يصور الفيلسوف حجاجه وما إليه ينتهي في استدلاله" (النقاري، 1991، الصفحات 128-129).

وبهذا يكون الأستاذ فؤاد بن أحمد قد كشف عن الأدوات الاستدلالية التي يوظفها ابن رشد في خطابه معتمداً في ذلك على عدة معرفية ساهمت بشكل كبير في بيان أهمية التخييل في الخطاب الفلسفي، غير أن اقتصره على هذا المتن جعله مشغولاً بالتناقض الذي ينطوي عليه موقف ابن رشد، وصرفه عن الأسباب والدوافع الكامنة وراء هذا الرفض الذي يبيده ابن رشد وغيره من الفلاسفة للأقوال التخيلية؛ أي مساءلة الأسس والمبادئ التي تقوم عليها الرؤية الفلسفية المؤطرة لهذا الموقف.

ومهما يكن من أمر، فإن الكشف عن مظاهر التخييل في الخطاب الفلسفي وبيان أدوارها البيداغوجية والمجازية والمعرفية يفتح مدخلاً مهماً لتجديد النظر في التراث الفلسفي العربي بالتركيز على الآليات اللغوية التي يوظفها الفيلسوف لأجل تبليغ مضامين خطابه إلى القارئ وإقناعه بها، وقد سبق للدكتور طه عبد الرحمان أن دعا إلى ضرورة توجيه الاهتمام إلى هذا الجانب في قراءة التراث العربي عامة والفلسفي على وجه الخصوص بحيث يقول: "إنه ينبغي للقراءة أن تعني بآليات النص التراثي، على الأقل، اعتناؤها بمضامينه، وأن تتوسل بهذه الآليات في فهم هذه المضامين؛ والسبب الموجب لذلك هو أن التراث الإسلامي العربي متشعب بهذه الآليات على قدر كبير ولا سيما اللغوية منها والمنطقية" (عبد الرحمان، 2008، الصفحات 16-17).

وثنأتى أهمية هذه الدعوى من كون معظم الدراسات التي انشغلت بالخطاب الفلسفي اهتمت بمضامينه فقط ولم تنظر في الأدوات اللغوية التي أنشئت بها هذه المضامين وبلغت بها، ولذلك ينبغي المزاوجة في قراءة هذا الخطاب بين النظر في المضامين والنظر في اللغة والأسلوب، وينبغي أيضا ألا تقتصر هذه الدعوى على النصوص الفلسفية التراثية بل تعمم على سائر النصوص الفلسفية والفكرية المعاصرة لأنها تشكل مجالا خصبا للتحليل البلاغي.

المراجع:

- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1987؛
- بناصر البعزاتي، الاستدلال والبناء بحث في خصائص العقلية العلمية، دار الأمان، الرباط، الطبعة الثانية، 2019؛
- توفيق فائزي، الاستعارة والنص الفلسفي، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2016؛
- الحسين بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2014؛
- شايم بيرلمان، "التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة"، تعريب حمو النقاري، مجلة المناظرة، العدد 4، ماي، 1991؛
- الطاهر وعزيز، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990؛
- طه عبد الرحمان حوارات من أجل المستقبل، منشورات الزمن، الكتاب رقم: 13، 2008؛
- طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، 2016؛
- فؤاد بن أحمد، تمثيلات واستعارات ابن رشد من منطق البرهان إلى منطق الخطابة، دار الأمان، الرباط، 2012؛
- فؤاد بن أحمد، منزلة التمثيل في فلسفة ابن رشد، دار الأمان، الرباط، 2014؛
- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012؛
- محمد العمري، "تداخل الحجاج والتخييل" ضمن التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2006؛
- محمد الولي، فضاءات الاستعارة وتشكلاتها في الشعر والخطابة والعلم والفلسفة والتاريخ والسياسة، منشورات فالية للطباعة والنشر والتوزيع، 2020.

الفلسفة بين هيغل وفيورباخ: فهم للحاضر أم تطلع للمستقبل؟

Philosophy between Hegel and Feuerbach:

An understanding of the present or an aspiration for the future?

د. عمر التاور، جامعة ابن زهر، أكادير (المغرب)

الملخص:

سعى هذا البحث إلى تقديم رؤية فيلسوفين حديثين هما فريدريك هيغل وتلميذه لودفيج فيورباخ للفلسفة من جهة موضوعها وغايتها. وبين البحث أن رؤية هذين الفيلسوفين قائمة على الاختلاف والتعارض، فأما هيغل فقد حصر مهمة الفلسفة في فهم الحاضر مستبعدا أي تطلع للمستقبل، وأخضع الفلسفة لرؤية ديالكتيكية، فجعلها تنتقل من لحظة الأطروحة (الإغريق) إلى لحظة التقيض (ديكارت) فلحظة التركيب، أي لحظة هيغل نفسه الذي جعل فلسفته في منزلة الكمال، لأنها استوعبت واشتملت على جميع الفلسفات السابقة؛ وهو ما انتقده فيورباخ واصفا فلسفة هيغل بالفلسفة الغارقة في التجريد وباللاهوت - الذي تحول إلى فلسفة بعدما أخضع هيغل اللاهوت للعقل - ورافضا لحصر مهمة الفلسفة في فهم الحاضر فجعلها تتجاوزا للواقع وتطلعا للمستقبل، بل وضع أسس فلسفة المستقبل لإصلاح الفلسفة والقطع مع اللاهوت والتجريد، وللاتصال بالعلوم والواقع العيني، ولجعل الإنسان في مركز وقلب كل فلسفة.

الكلمات المفتاحية: هيغل، فيورباخ، الفلسفة، الحاضر، المستقبل.

Abstract :This research sought to present the vision of two modern philosophers, Friedrich Hegel and his student Ludwig Feuerbach, of philosophy in terms of its subject and purpose. The research showed that the vision of these two philosophers is based on difference and contradiction. As for Hegel, he limited the task of philosophy to understanding the present, ruling out any aspiration for the future, and subjected philosophy to a dialectical vision, making it move from the moment of the thesis (the Greeks) to the moment of antithesis (Descartes) to the moment of synthesis, that is, Hegel's moment. The same one who made his philosophy the status of perfection because it absorbed and included all previous philosophies. This is what Feuerbach criticized, describing Hegel's philosophy as a philosophy steeped in abstraction and a theology that turned into a philosophy after Hegel subjected theology to reason, refusing to limit the task of philosophy to understanding the present and making it an aspiration to the future. Rather, he laid the foundations for the philosophy of the future to reform philosophy and break with theology and abstraction, and to connect with science and concrete reality. And to place the human being at the center and heart of every philosophy.

Keywords: Hegel, Feuerbach, philosophy, present, future.

مقدمة

ما موضوع الفلسفة وما الغاية منها؟ لا يقل هذا السؤال أهمية عن سؤال ما الفلسفة؟ فكلاهما سؤالان إشكاليان شغلا بال فلاسفة على الدوام. فكما اختلف حول ماهية الفلسفة إلى الحد الذي جعل كبار الفلاسفة، شأن مارتن هيدغر (Martin Heidegger)، ينبرون للإجابة عنه، بل إلى الحد الذي جعل إبراهيم زكريا يحصي عشرات التعاريف للفلسفة (انظر: زكريا: 1971، ص 45 - 58)، اختلف كذلك حول موضوع الفلسفة والغاية منها، وبخاصة في الفلسفة الحديثة، حيث نجد مثالا ساطعا لهذا الاختلاف/ الخلاف لدى فيلسوفين اعتبرا دوما على طرفي نقيض، ونعني بهما فريدريك هيجل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) ولودفيج فيورباخ (Ludwig Feuerbach)؛ الأول يرى الفلسفة فهما للواقع والحاضر والعصر، والأخر يراها تتجاوزا للواقع وتطلعا للمستقبل. وبيان ذلك كله كما يلي:

1- الفلسفة فهم للحاضر

أخضع هيجل الفلسفة لرؤية دياكتيكية فجعلها تدرج من الأطروحة (Thèse) إلى النقيض (Antithèse) فالتركيب (Synthèse). فهيجل لا يتعامل مع تاريخ الفلسفة بالمعنى التراكمي، بل ينظر إليه بالمعنى الجدلي حيث اللاحق يتجاوز السابق باستيعاب الحقيقة وتجاوز ما هو شكلي وثانوي. ففي تاريخ الفلسفة - حسب هيجل - يظهر أنه لا توجد في شتى أنواع الفلسفات التي تعرف النور غير فلسفة واحدة في درجات متباينة من التطور. ومن هنا تطلبت منه العودة إلى الإغريق الاسترشاد بالتاريخ، لا لشيء إلا لأنه "في مجال التجربة الإنسانية، والفلسفة نموذج حي لهذه التجربة، لا يمكن القفز فوق العصور" (Heidegger: 1968, p 54). وبما أن كل فلسفة هي مرآة تعكس العصر الذي تبلورت فيه، فلا جرم أن تشكل فلسفة الإغريق لحظة الأطروحة التي تحقق فيها الممكن الفلسفي، وهو ممكن يحدد، في نظر هيجل، الفلسفة الإغريقية على أنها "بداية الفلسفة في ما لها من خصوصية" (Heidegger: 1968, p 68).

1-1- الأطروحة: لحظة الإغريق

يبد أن الفلسفة الإغريقية تظل مع ذلك - بما هي درجة من الأطروحة ومن التجريد - في مستوى "ليس بعد"، لا يمكن أن يحصل رضانا حولها إلا في حدود معينة، بالمقارنة مع درجة التمام. ومع أن البدايات بقيت في حدود التجريد و"ليس بعد"، إلا أنها مع ذلك شكلت - في رأي هيجل - واقعا يفرض نفسه على وعي الفيلسوف ويثير فيه الاشتراط الفلسفي، ذلك الاشتراط الذي لا يستطيع الفكر الفلسفي أن يهرب منه تحت طائلة التنازل أو السقوط. صحيح أن الفلسفة الإغريقية مسبوقة بمحاولات

فلسفية شرقية، ف"قبل أن يظهر الإغريق في شمال البحر الإيبي كان فن الأدب قد قطع أشواطاً من التطور والنضج في بلاد سومر وأكاد ومصر. وفي منتصف الألف الثانية ق.م، عندما استقر الإغريق حول البحر الإيبي، كانت الحضارة السامية في أوجها في شمال سوريا قد عرفت الفن الأدبي وممارسته بدرجة عالية من الوعي والوضوح [...] ومن هذه الحضارة تعلم الإغريق الدروس الأولية في مضممار المدينة والتحضّر، أخذوا عنهم الحكايات الشعبية عن الآلهة والأبطال [...] والأفكار عن النظام الكوني واللاهوتي [...] وإلى الشرق تعود تسمية هوميروس للمحيط (Okeanos) إنه أصل كل الأشياء، وهي التي أصبحت فيما بعد أساساً للفكرة الفلسفية التي صاغها طاليس في نظريته القائلة بأن الماء هو الأصل الثابت والأزلي في هذا الكون" (عثمان: 1984، ص 16 - 17)، إلا أن التفكير الإغريقي كان من جنس مغاير للتفكير الشرقي، لأن الإغريق لم يكونوا مجرد تلاميذ بلدء يكررون آلياً كل ما يأخذونه عن الغير، فقد "تميزوا بقدرتهم الفائقة على أن يصنعوا مما يأخذون عن الغير شيئاً جديداً يتفق مع طباعهم ورؤيتهم للحياة [...] حتى صار من المتعذر أن نحدد بدقة مقدار ما يدينون به لأفكار الشرق القديم" (عثمان: 1984، ص 17)؛ وبتعبير فريدريك نيتشه: "إنهم هضموا الثقافة الحية لشعوب أخرى، وإذا ما استطاعوا أن يوغلوا في البعد إلى هذا الحد، فذلك لأنهم عرفوا أن يلتقطوا الريح من حيث تركه شعب آخر لكي يلقوا به إلى أبعده. إنهم لجديرون بالإعجاب من حيث فهم في التعلم بشكل مفيد" (نيتشه: 1983، ص 40).

وإذا كان مارتن هيدغر يرى في استحضر الفكر الإغريقي مثلاً أمام محكمة الفكر الصارم ومقتضياته بالشكل الذي يتيح إمكانية تجاوز المضمون الميتافيزيقي للفلسفة، ومن ثم تصور إمكانية بداية ثانية لها على غرار البداية الإغريقية (Patocka: 1983, p 239)، فإن حديث هيجل عن الفكر الإغريقي هو حديث عن البدايات. وتصور هيجل للبدايات يتأسس على كونها بدايات فقيرة، أما قراءته لها فتم داخل قراءة معينة للتاريخ. وعلى الرغم من كون هذه البدايات تحمل الدور التي ستثمر فتعطينا شجرة، وردة، إنسان، تاريخ... إلخ، إلا أنها تبقى مع ذلك بدايات مجردة ومحدودة لأنها لم تغتن بعد بفعل التاريخ طالما أن مغامرة التاريخ هي نفسها مغامرة الاغتناء؛ فلماذا هي إذاً بدايات فقيرة؟

إنها فقيرة لأنها مجردة، والمجرد عند هيجل هو الفقير، وعن ذلك يقول: "إن البزوغ الأول هو ضرورة وجود مجرد، إنه بسيط، وبمعنى ما فقير، ويقف على طرفي نقيض مع الموجود العيني الملموس" (Heidegger: 1968, p 54). ومن هنا أمكن لهيجل اعتبار قدماء الفلاسفة فقراء فكرياً ونظرياً، واعتبار الوعي الإغريقي، تبعاً لذلك، في درجة الأطروحة (التي يسمها بسمة الجمال) لم يصل بعد إلى درجة الواقعي والملموس؛ وهذا الملموس هو ما تفكر فيه الفلسفة وهو ما يجعل منها "المقابل القصي

للتجريد، بل إنها تحديداً ضد هذا التجريد، إنها حرب لا هوادة فيها ضد الفهم المجرد" (Heidegger: 1968, p 60).

ويرى هيجل أن هذا الفهم المجرد هو ما وسم البدايات بسمة الفقر وجعلها تقتصر على تمثل خالص للموضوعي. وما يعني هيجل من الإغريق، وما يهيمه من استحضر البدايات، هو هذا الموضوعي في حالته الخالصة؛ فهذا الموضوعي الخالص الذي يدعوه عليه هيجل بـ"الكلّي بوجه عام" هو ما يشكل البزوغ الأول للروح في حالتها الأكثر تجريداً وبساطة.

إن هذا الكلّي الخالص هو ما شد هيجل إلى الإغريق، هذا هو ما اكتشفه عندهم واعتبره الجوهر الضمني الكامن تحت السطح في فلسفتهم. وهذا ما يفيد أن هيجل لم تكن لديه رغبة أكاديمية في دراسة البدايات دراسة تاريخية وبالتفصيل الممل، وإنما كان يريد فقط تلمس الأساس الفلسفي الرئيسي الذي تتأسس عليه هذه البدايات؛ وفي هذا الصدد يقول مارتن هيدغر: "إن هيجل يفكر لأول مرة في فلسفة الإغريق من حيث هي كلي، ويفكر في هذا الكلّي على نحو فلسفي" (Heidegger: 1968, P 46).

وطالما أن هذا الكلّي لم يربط بعد إلى الذات من حيث هي كذلك عند ديكارت، ولم يدرك كنتيجة لاكتشاف الذات وتوسطها، أي طالما لم يجمع بحركة نمو ولم يصبح عينياً بعد فإنه يبقى مجرداً، ومن ثم يكون البزوغ الأول والانبثاق الذي يستدعيه هو الأكثر تجريداً. وتبعاً لذلك تكون درجة الوعي الإغريقي في حدود وعي مباشر لم يرق بعد إلى درجة الوعي الذاتي، وعن ذلك يقول هيجل: "لم يكن إنسان العالم الإغريقي قد عاد إلى ذاته بعد، أكيد أنه كان ذاتاً لكنه لم يضع نفسه كذات" (Heidegger: 1968, p 53). وهذا يعني أن الإنسان الإغريقي لم يحقق الوعي كوعي بذاته، لذلك بقيت المرحلة الإغريقية مرحلة بدايات لم تكن فيها مناقضة الذات للموضوع أرضاً صلبة بعد؛ وهذه الدرجة التي تسبق النقيض هي درجة الأطروحة (الفكر المجرد) ومعها تبتدئ الفلسفة، أما أفق انبثاق هذه البداية (بداية الفلسفة) فهو فلسفة الإغريق.

لا مراء إذاً في أن فلسفة الإغريق، بالنسبة لهيجل، بقدر ما شكلت درجة الأطروحة التي تبتدئ معها الفلسفة بقيت فلسفة مجردة تقتصر على تمثل خالص للموضوعي (الذي لم يحترق بعد بما هو ذاتي)؛ ومعنى ذلك أن الفلسفة في لحظة الإغريق ظلت فقيرة تفتقد للباينة، فهي لا تعدو أن تكون في هذه المرحلة فكراً مجرداً يفتقر للإطار الذي سيتبلور فيه بشكل واقعي وملهوس. إن الفلسفة في زمن الإغريق تكاد تشبه البذور التي لم تجد بعد الحقل الذي تنتثر فيه، أو هي مثل السفينة التي لم تجد بعد المرسى الذي ستحط رحالها عليه.

ومع أن هيجل لم يخس الفلسفة الإغريقية حقها في كونها محققة لشرط الفلسفة ومقوماتها الأصلية التي تميزها كالفلسفة، إلا أن هذه الفلسفة تبقى بالنسبة إليه في مستوى طرح قضية الفكر/ الوجود في حدود التجريد وبمعزل عن ما هو ملموس وواقعي، أي بمنأى عن الذات.

بقاء الفلسفة الإغريقية إذاً في مستوى التجريد يعني بقاءها في درجة الأطروحة وفي مستوى "ليس بعد"، ينقصها الإتمام من خلال النقيض والتركيب؛ لكن، ما الذي يميز درجة النقيض عن درجة الأطروحة؟ وهل بقيت الفلسفة في هذه الدرجة في حدود التجريد أم أنها استطاعت أن تجد لها موقعا للنقد والمساءلة تنفذ منه إلى ما هو واقعي وملسوس، وتحمل نفسها على التفكير فيه؟

2-1- النقيض: لحظة ديكارت

إن ما سنتسكين إليه الفلسفة وما ستقوم عليه في درجة النقيض لا يعدو أن يكون ما كانت تفتقر إليه وتفتقده في درجة الأطروحة؛ ومن البين أن ما كانت تفتقده الفلسفة في تلك اللحظة/ الدرجة إنما هو اليابسة أو الذاتية. وهذه الذاتية التي افتقدتها الفلسفة مع الإغريق سرعان ما ستجدها بعد طول انتظار عند ديكارت، فعه "ندخل في إطار فلسفة مستقلة، فلسفة تعرف أنها مستمدة رأساً من العقل، وأن الوعي بالذات مرحلة أساسية في سيرورة الحق؛ ها هنا يمكننا أن نقول إننا في بيتنا، وأن نصيح مثل البحار بعد جولة طويلة في بحر مضطرب: اليابسة" (Heidegger: 1968, p 48)

مع ديكارت إذن نكتشف اليابسة (= الذاتية) ومعه نصل إلى لحظة الوعي الذاتي أو لحظة الميلاد الفلسفي الذي تزامن مع ذلك الحدث الفكري الذي ارتقى بالإنسان من مجرد كائن يزرع تحت نير المركزية المثالية واللاهوتية للكون إلى ذات تمنح كل شيء قياس الأساس. وبذلك يكون ديكارت بإقراره للذاتية كبداً وكأساس لكل ما هو موجود، ولوعي الذاتي كحكم وحيد على الحقيقة، قد أسهم في وضع الذات في مركز الكون معلنا بذلك عن نشأة وظهور المدلول الحديث للذات الإنسانية المألوفة لتمام أمرها، الذات الشفافة التي تسعى إلى معرفة كل انخبايا والأسرار، وإلى بسط سيطرتها على كل شيء بالشكل الذي يجعل منها معطى أولاً، ويجعل من الموضوعات الخارجية معطيات من الدرجة الثانية تتحدد بها وانطلاقاً منها.

مع ديكارت نكون قد انتقلنا في تاريخ الفلسفة من مرحلة معرفية إلى أخرى. انتقال هو في الحقيقة عبور من وعي مباشر إلى وعي ذاتي، أو من الشيء في ذاته إلى الشيء لذاته؛ وتلك هي حركة الفكر الدائمة نحو اصطبياد المجهول (الجابري: 2010، ص 87).

هكذا يتحرك الفكر إذاً من مرحلة الوعي المباشر (الإغريق) إلى نقيضها (الوعي الذاتي/ ديكارت) ليصل إلى مرحلة ثالثة هي مرحلة التركيب (الوعي المطلق/ هيجل). وبفضل هذه الحركة الجدلية/

الديالكتيكية يتم إنتاج ذاتية الذات المطلقة، وإنتاج فعلها الضروري من حيث هي ذات مطلقة. ومن هنا كان الديالكتيك (= المنهج) حركة عميقة للذات، وعملية مستمرة من التطور والنمو تبغي تحقيق المطلق.

3-1- التركيب: لحظة هيغل

مع هيغل إذن تم حقل الفلسفة وبداية عرض نسقها، أي هناك حقل حددت وصورت جوانبه أسئلة أفلاطون وأرسطو، وداخل هذا الحقل أعطيت مجموعة من الأجوبة على الأسئلة السابقة إلا أنها أجوبة تراوحت بين النفاذة والإكراه، وبين الإجابة عن هذا الجزء أو ذاك من الممارسات والسلوكيات البشرية. وإذا لم يكن ولا واحدا من هذه الأجوبة قد استقصى كل أوجه الأسئلة المطروحة، فإن كل واحد من الأجوبة المقترحة يطرح بدوره مجموعة من الأسئلة التي تضاف إلى الأسئلة السابقة.

وبالنسبة لهيغل، حان الوقت للإجابة النهائية عن هذه الأسئلة والانتفاء من الفلسفة أو بالأحرى اكتمالها، وفضيلة الاكتمال أنه يعيد الاعتبار للبدايات بفرزها. بيد أن الانتفاء من الفلسفة عند هيغل - أو بالأحرى اكتمالها - يأخذ شكل التحقق الفعلي للعلم المطلق، وهذا العلم المطلق والكل هو نفسه الميتافيزيقا ومركزه هو هذا المنطق الذي هو في نفس الوقت الذات والموضوع. والفلسفة بوصفها العلم المطلق لا تخضع للفكر المتناهي، بل هي معرفة تتقدم قوانين الجدل اللامتناهية، ولا بد من تقديم عرض نسقي لهذه المعرفة التي لم تفتا البشرية تشرب إليها منذ ما يربو عن ألفي عام.

ويعتقد هيغل جازما أن هذه المهمة تعود إليه، لا لأنه شخصية مختارة بل فقط لأن الظرف التاريخي الذي يعيش فيه يجعله مؤهلا أكثر من غيره للقيام بهذه المهمة، مهمة العرض النسقي لتاريخ الفلسفة بما هو قصة الاستحواذ على الملكوت العقلي.

هكذا إذاً تتحدد الهيكلية، أولا وقبل كل شيء، كجمع لكل التاريخ البشري والثقافة الإنسانية؛ فحلت الاهتمام من التاريخ كأحداث واقعية وضرورة فعلية إلى التاريخ كمعرفة بهذه الأحداث والضرورة. ولما كان التاريخ الذي يعتمد هيغل القيام به هو تاريخ تجلي الفكر لذاته (انظر: Heidegger: 1968, p 47)، فإن العملية التاريخية هي في صميمها عملية منطقية، والانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى هو انتقال من عملية منطقية إلى أخرى في سياق الزمن، لأن الأحداث التاريخية لا تحدث صدفة واعتباطا بل تخضع لحتمية منطقية. ومن هنا فإن "كل ما هو واقعي فهو عقلي، وكل ما هو عقلي فهو واقعي" (هيغل: 1983، ص 86).

هنالك إذاً منطق يحفظ للتاريخ وحدته ويضمن له استمرارته وليس هذا المنطق متعاليا على التاريخ بل إنه محايث له (ارتباط الفلسفة بتاريخها)، إنه الحقيقة المطلقة التي يصنعها التاريخ بسيرورته، والتي نجد

مفتاحها في تصور هيغل البعدي للتاريخ بما هو تاريخ تجلي العقل؛ فلم تعد العقلانية بالنسبة لهيغل مثالا نحل بتحقيقه أو نموذجاً نعمل على تطبيقه أو حتى بحثاً لا متناهياً يلزم القيام به، بل أصبحت النسيج المكون للفكر والواقع معاً. وبما أننا لسنا في حاجة إلى إقامة الدليل على هذه العقلانية، فإنه لم تعد هناك سوى مهمة عرضها ونقدها، ولهذا الغرض يلزم بكثير من التأني والصبر إعادة استحضار الطرق والمسالك التي قطعها الفكر وسلكتها البشرية في تاريخها، استحضارها بكل مستوياتها قصد تجميعها ولم شتاتها، وهذا العمل هو علم تجلي الوعي (= فينومينولوجيا الروح). ومن هنا زعم هيغل أن فلسفته اشتملت واستوعبت واحتفظت بجوهر جميع الفلسفات السابقة لها. لكن هناك تيار يفوق أثره عليه أي أثر آخر، وأعني به المثالية الإغريقية، فالمبادئ الأساسية في فلسفته هي نفسها المبادئ الأساسية في المثالية الإغريقية وإلى حد ما في فلسفة كانط النقدية (Garaudy: 1966, p 58).

1-4- تجسيد الحاضر

من هنا أيضاً كان الحاضر هو ما يهم هيغل فهمه من الفلسفة والعمل على إنارة معالمه، طالما أن كل قيم الماضي إنما تكمن في شرح وإيضاح وإنارة كيفية تشكل هذا الحاضر، وعن ذلك يقول هيغل "تتضمن الفلسفة كالفلسفة، أقصد الفلسفة المعاصرة والأحدث منها على وجه التخصيص، تتضمن كل ما أنتجه عمل ضارب في أعماق التاريخ، إنها نتاج كل ما سبقها" (Heidegger: 1968, p 52). فلا عجب إذا قرن هيغل الفلسفة بالحاضر، لأن دور الفلسفة هو إدراك الحاضر والمصالحة مع الواقع وفهم ما هو موجود بالعقل، وليس دور الفلسفة تعليم ما يجب أن يكون (Serreau: 1968, p 73)؛ ولا عجب أيضاً إذا رفض هيغل في آخر كتاب أصدره في حياته، وهو "أصول فلسفة الحق"، ربط الفلسفة بما يجب أن يكون وتجاوز ما هو قائم بتأكيد أنه "مهمة الفلسفة تنحصر في تصور ما هو كائن، لأن ما هو كائن ليس إلا العقل نفسه. ولو أننا نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر الفرد لرأينا أن كلاً منا هو ابن عصره وريب زمانه. وبالمثل، يمكن أيضاً أن نقول عن الفلسفة إنها عصرها ملخصاً في الفكر. وكما أنه من المحق أن نتصور إمكان تخطي الفرد لزمانه، فإنه لمن الحماقة أيضاً أن نتصور إمكان تجاوز الفلسفة لزمانها الخاص، أو أن فرداً يستطيع أن يجاوز زمانه أو يجتاز رودس. وإذا استطاعت نظرية ما أن تجاوز العالم الواقع فعلاً وأن تبني المثل الأعلى للعالم على نحو ما ينبغي أن يكون عليه، فإن هذا العالم يكون له وجود بغير شك، ولكن في رأس صاحب النظرية فحسب على هيئة عنصر لا قوام له، فما تريده أياً كان لا يمكن أن تبنيه في عالم الخيال" (هيغل: 1983، ص 88).

أما الباحث على حصر هيغل لمهمة الفلسفة في فهم الحاضر ورفضه التطلع إلى المستقبل، فليس يرجع، كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين، إلى كون هيغل ارتد في نهاية رحلته الفكرية إلى نزعة قومية

ضيقة بعد أن كان في كتاباته الفلسفية الأولى مفكراً إنسانياً وكونياً (حماد: 2020، ص 383)، بل يرجع إلى تصور هيجل للصلة بين الفرد وعصره، واقتناعه باستحالة قفز المرء فوق عصره؛ ذلك ما يؤكده في "محاضرات في تاريخ الفلسفة" بقوله: "لا يمكن لأي فرد، مهما كان، أن يتخطى الحدود التي يسمح له بها عصره؛ وذلك لأن العصر يشكل مبدأ روحه. ولئن هو حق أنه من الجائز بلا شك الانشغال بما يستقبل من الزمان، مثل أن يروم امرؤ التطلع إلى معرفة مآل أمر في المستقبل فإنه يحق القول أيضاً إن رغبتنا في هذه المعرفة إنما تعكس، على التحقيق، توقنا إلى حاضر آخر غير حاضرنا. والأمر الذي يجب أن يعلم هو أنه ما بمستطاع امرئ، مهما كان قدره، تجاوز زمنه أو القفز عليه [٠٠٠] إن الفرد هو ابن شعبه وابن عالمه، وهو قادر على أن يجاهر برأيه كيفما شاء، لكنه لا يستطيع أن يتجاوز عصره ما دام ينتمي إلى روح كلي واحد هو جوهره وماهيته" (هيجل: 1997، ص 160). ويؤكد هيجل هذا الأمر نفسه في صفحة أخرى من نفس الكتاب بقوله: "ما كان من شأن الفرد أن يجاوز زمانه. وجوهر هذا العصر هو ماهية هذا الفرد الذي يعبر عن ذلك العصر في صورة جزئية خاصة. وليس باستطاعة أي إنسان أن يهرب من جوهر عصره مثلها هو عاجز عن الخروج من جلده" (هيجل: 1997، ص 174).

2- الفلسفة تطلع للمستقبل

إذا كان هيجل قد أخضع الفلسفة لرؤيته الجدلية/الديالكتيكية، فإن فيورباخ بدل إخضاع الفلسفة للديالكتيك سعى إلى إصلاح الفلسفة وقلب الديالكتيك الهيجلي نفسه. وإذا كان هيجل قد حصر الفلسفة في فهم الحاضر ورأى أن من الحماسة تصور إمكان تجاوز الفلسفة لزمانها الخاص، فإن فيورباخ يرى أن حصر هيجل لمهمة الفلسفة في فهم الواقع أو الحاضر أو العصر واستبعاده لكل تطلع للمستقبل ليس سوى محاولة لتبرير الواقع أو الحاضر أو العصر، ورفض أي محاولة لتجاوز الواقعي، بل ونأي عن رسالة الفلسفة ذاتها، لأن ليس من شأن الفلسفة البقاء في حدود الواقع نفسه مادياً كان أو مثالياً، بل ينبغي لها أن تكون "تطلعاً للمستقبل الذي يمثل السير إلى الأمام، أما مطلب التحفظ الهيجلي فليس سوى مطلب مصطنع وخادع ورجعي" (Feuerbach: 1973, p 97). فإذا كان هيجل يرى أن الفلسفة ليس من شأنها التطلع للمستقبل، و"ظل أيام نضجه كتوما عن الحديث عما يحمله المستقبل من بيان أشد ما يكون الكتمان. بل إنه تعمد الكتمان وارتأى إبداءه. فبعد أن حنكته التجارب بدا، في آخر صور مذهبه، بصورة أحد الفلاسفة الذين أنكروا، أكثر من غيرهم، إمكان التنبؤ بالحوادث المستقبلات [٠٠٠] وكان يقول: لئن كان الأمر الماضي يحوجنا إلى بذل كثير جهد فأني لنا بالشأن الآتي؟، كما كان يحب ترديد قول أبيقور: إنما شأن المستقبل شأن لا يهمنا" (الشيخ: 2008، ص 439)، فإن فيورباخ يرى على العكس من ذلك أن على الفلسفة "أن تستبق المستقبل الإنساني وتسهم في تحديد مسار التاريخ

الإنساني للمستقبل، عليها أن تنطلق من المستقبل إلى الحاضر وتحدد التاريخ، عليها أن تنظر إلى الحاضر نظرة مستقبلية، أي بمعنى أوضح، أن تطرح على الأجيال الحاضرة المهمات التي تسهم في تحقيق مستقبل مشرق للبشرية على المدى البعيد، هذا المستقبل الذي على الفلسفة أن تستشفه سلفاً، وهذه هي المهمة الأساسية للفلسفة الجديدة" (ديب: 1994، ص 35).

ولهذا، عمد فيورباخ إلى وضع أسس فلسفة المستقبل (La philosophie de l'avenir) في كتابه "مبادئ فلسفة المستقبل"؛ وعماد هذه الفلسفة التي بشر بها فيورباخ أمران اثنان، أولهما إصلاح الفلسفة بتدارك أخطاء هيغل وبالقطع مع اللاهوت والاستعاضة عنه بالاتصال بالعلم، وثانيهما الاهتمام بالإنسان وجعله مركز الفلسفة بعد أن وضعه هيغل في هامشها؛ وبيان ذلك كله كما يلي:

2-1- إصلاح الفلسفة

ليست دعوى إصلاح الفلسفة التي تبناها فيورباخ، في العمق، سوى دعوة لإصلاح الفلسفة الهيجلية ذاتها، ففيورباخ الذي نتملذ على يد هيغل وكان، حسب هنري أرفون (Henri Arvon)، مواظبا على حضور محاضرات هيغل بجامعة برلين ما بين عامي 1824 و1826م، وأنهى دراسته برسالة أشرف عليها هيغل وعنوانها: "العقل الواحد، الكلي، اللامتناهي" (Arvon: 1964, p 03)، بل ما فهم بعض القضايا الفلسفية إلا بفضل محاضرات هيغل بدليل قوله: "إن العديد من القضايا التي بدت لي في محاضرات دوب (Daub) غامضة وغير مفهومة أو معزولة ومضطربة، فهمتها وعرفتها في ضرورتها وتربطها الداخلي بفضل بضع محاضرات من هيغل" (Arvon: 1964, p 02)، سرعان ما انقلب على أستاذه هيغل داعياً إلى إصلاح فلسفته والفلسفة من خلاله استناداً إلى فعلين أساسيين:

أولهما، القطع مع التجريد، وذلك بالقطع مع فلسفة هيغل المغرقة في التجريد، بل واحتفاؤها بالتجريد إلى الحد الذي جعل أحد دراسي هيغل، وهو ولتر ستيس (Walter Stace)، يلاحظ أن "المصطلحان مجرد (abstract) وعيني (concrete) هما الأكثر شيوعاً من بين كل مصطلحات هيغل الفنية [...] وفقاً لأغلب استعمالات هيغل المخصصة، فإن أول حدين من كل مثلث في المنطق هما مجردان نسبياً، بينما الحد الثالث عيني نسبياً. هكذا، أول مقولة في المنطق، الوجود، هي أكثر المقولات تجريداً لأنها مجردة من كل التعينات. إنها لا تحوي اختلافات، لكن الصيرورة تحوي في ذاتها التمييز بين الوجود والعدم. الوجود والعدم مأخوذان الواحد بمعزل عن الآخر، هما تجريدات. كل منهما تجريد خاطئ أحادي الجانب، نصف حقيقة، لا يستطيع أن يقوم بذاته. فقط عندما يؤخذان معا نصل إلى الحقيقة العينية للصيرورة" (Stace: 1955, p 104 - 105).

وقد أدى انغماس فلسفة هيغل في التجريد إلى اضطراب مضمونها ومعناها، ذلك ما عاينه كارل بوبر (Karl Popper) وعبر عنه بقوله: "من أجل إعفاء القارئ سلفاً من حمل تكلف هيغل المنمق والملمغز على محمل الجد، سأقتبس بعضاً من التفاصيل المحيرة التي اكتشفها بخصوص الصوت ولا سيما العلاقات بين الصوت والحرارة. ولقد وجدت مشقة في ترجمة هذا الهراء من كتاب هيغل "فلسفة الطبيعة" (Philosophy of nature) بأكبر قدر من الأمانة [٠٠٠] ثمة البعض ممن لا يزالون يؤمنون بصدق هيغل أو لا يزالون يرتابون في ما إذا كان سره ليس العمق وكال الفكر بدلاً من الخواء. وأريد منهم أن يقرأوا بعناية العبارة الأخيرة من ذلك الاقتباس، وهي العبارة الوحيدة المفهومة، ففيها يفضح هيغل نفسه بنفسه. إذ من الواضح أنها لا تعني سوى أن تسخين الأجسام الرنانة هو حرارة بالإضافة إلى الصوت. والسؤال المطروح هو ما إذا كان هيغل يخدع نفسه، وينوم نفسه مغناطيسياً برطانتته الملهممة، أو ما إذا كان يتجرأ على خداع الآخرين وإغوائهم. وإني لعلّي اقتناع بأن ثاني الأمرين هو الحاصل" (بوبر: 2015، ص 56-57)

ولا جدال في ما يقوله ستيس وبوبر حول الحضور الطاغي للتجريد في فلسفة هيغل؛ فأكبر دليل على إغراق فلسفة هيغل في التجريد وخلوها من أي تعيين جعلها الوجود مجرداً وفارغاً من المعنى. وإذا كان الوجود أجوف وفارغاً من المعنى فإن تفكير هيغل في الوجود هو بدوره، حسب فيورباخ، أجوف وفارغ من أي معنى، لأن "التفكير في المطلق the Absolute بشكل مجرد (كما هو الحال عند هيغل) هو، في الواقع، تفكير في لا شيء بشكل خاص، وهذا التفكير في لا شيء، بنظر فيورباخ، يتطابق مع اللاتفكير "not thinking" (Wartofsky: 1977, p 136).

وبما أن فلسفة هيغل كلها مبنية على أفعال التجريد، فإنه من العبث السعي إلى التعرف على نور الواقع في ليل التجريد، لأن هذا يعني إثبات الواقع بوصفه واقعا مجرداً/ مثاليا لا بوصفه واقعا محسوسا ملموسا حقيقيا. فكل ما فعله هيغل حسب فيورباخ أنه "أخذ الأشياء الموجودة في العالم الواقعي وعالجها كأفكار وتجريدات تتبع في أساس عالم الواقع، ليصل إلى إدراك عالم الواقع نفسه. يكفي أن نأخذ الأشياء العينية الواقعية نفسها ونعالجها كأشياء بدلاً من أن نعالجها كأفكار مجردة من هذه الأشياء نفسها حتى نصل إلى الحقيقة" (ديب: 1994، ص 272). يقول فيورباخ في المبدأ الواحد والثلاثين من مبادئ فلسفة المستقبل موضعاً موقف الفلسفة الجديدة/ فلسفة المستقبل من الواقع الملموس: "إن الفلسفة الجديدة التي تفكر في الملموس بشكل ملموس وليس بشكل مجرد، والتي تدرك فعلياً الواقعي في واقعته (Le réel dans sa réalité) وترتقي به إلى مقام مبدأ وموضوع الفلسفة، هي الوحيدة والأولى التي تعبر عن حقيقة الفلسفة الحديثة بشكل عام" (Feuerbach: 1973, p 175).

وبالمثل، يوضح فيورباخ في المبدأ الثاني والثلاثين نظريته للواقعي بقوله: "إن الواقعي في واقعيته، والواقعي بوصفه واقعا، هو الموضوع الواقعي للحواس (Le réel objet du sens)، فالمحسوس والحقيقة والواقعة والكيفية والحسية تدل كلها على نفس الشيء. الوجود الحسي فقط هو الوجود الحقيقي الواقعي. والحواس فقط، وليس الفكر لذاته، هي التي تستطيع أن تعطي موضوعا مفهوما في معناه الحقيقي، لأن الموضوع المعطى من جهة الفكر أو المطابق للفكر ليس سوى فكر" (Feuerbach: 1973, p 177).

وبهذا الاعتبار، فإن موضوع الفلسفة ليس المجرد كما عند هيغل بل المحسوس والواقعي، لذلك انتقد فيورباخ تصور هيغل للفلسفة ككل معتبرا أن بداية الفلسفة لا يمكن أن تكون الوجود المجرد بل ضده بالتحديد أي الوجود المحسوس (ديب: 1994، ص 09). فلا عجب أن تكون الفلسفة الجديدة التي بشر بها قطيعة مع التجريد وعلى طرفه النقيض، فأحلت المحسوس محل المجرد، لأن "المحسوس (le sensible) هو وحده الذي يشكل واقع الفكرة، ولما كان الواقع هو حقيقة الفكرة، فالمحسوس وحده هو الذي يشكل حقيقة الفكرة. لذلك، الحقيقي هو المحسوس، الجزئي هو ما يشكل بداية الفلسفة، وهذا المحسوس هو الطبيعة بالمعنى الأكثر كلية للكلمة" (ديب: 1994، ص 274).

أما الفعل الأساسي الثاني الذي تقتضيه ضرورة إصلاح الفلسفة فهو القطع مع اللاهوت والاتصال بالعلوم؛ فإذا كان هيغل يدعي أنه حقق الوحدة بين الفلسفة والعلم وأنه جعل من فلسفته علما، فإن فيورباخ لم ير في فلسفته سوى لاهوت وقد تحول إلى فلسفة، كما أن منطق هيغل دليل عملي في هذا المجال، إنه اللاهوت وقد جعل منطقاً؛ فكما أن اللاهوت ليس سوى الخلاصة المثالية أو المجردة لكل الكائنات والواقعات، ولكل التحديدات والكائنات المتناهية، فكذلك منطق هيغل ليس سوى لاهوت تم إخضاعه لتهديب العقل. هذا ما يؤكد فيورباخ بقوله: "المنطق الهيجلي هو لاهوت تحول إلى عقل وحضور، أي لاهوت تحول إلى منطق. فكما أن اللاهوت هو الجوهر المثالي أو المجرد لكل الوقائع ولكل التحديدات ولكل الكائنات المتناهية، فكذلك الأمر بالنسبة للمنطق. فكل ما يوجد فوق الأرض يوجد في سماء اللاهوت (Le ciel de la théologie) وكل ما يوجد في الطبيعة (الكيفية، والكمية، والمعيار، والماهية، والكيميائية، والآلية، والعضوية) يوجد في سماء المنطق الإلهي (Le ciel de la logique divine). في اللاهوت كل شيء معطى لنا مرتين، مرة بصيغة مجردة ومرة ثانية بصيغة ملموسة، وفي فلسفة هيغل كل شيء معطى لنا أيضا مرتين: مرة بوصفه موضوعا للمنطق، ومرة ثانية بوصفه موضوعا لفلسفة الطبيعة والروح" (Feuerbach: 1973, p 107).

وبالمثل، لا يخلو الديالكتيك الهيجلي نفسه من لاهوت؛ ذلك ما يؤكد فيورباخ بقوله: "سر الديالكتيك الهيجلي لا يقوم، في نهاية المطاف، إلا على إنكار اللاهوت باسم الفلسفة، ومن ثم إنكار

الفلسفة بدورها باسم اللاهوت. فاللاهوت هو المنطلق والغاية، وفي المنتصف تتموقع الفلسفة التي تنفي الوضعية الأولى، لكن اللاهوت هو نفي النفي (La négation de la négation) (Feuerbach: 1973, p 158-159). فهيجل لم يتخل عن اللاهوت بل أعاد صياغته عقليا عبر فلسفته ومنطقه ومنهجه الجدلي، ولهذا يقرر فيورباخ أنه "ما لم نتخل عن فلسفة هيجل فلن نتخل عن اللاهوت" (Feuerbach: 1973, p 120)، ولا سبيل إلى ذلك إلا ب"القطع مع القديم ومع النظرات اللاهوتية التي تتضمنها فلسفة هيجل" (ديب: 1994، ص 37) والاتصال بالعلوم. ولهذا رأى فيورباخ أنه "يجب على الفلسفة أن تتحد مجددا مع علوم الطبيعة كما يجب على علوم الطبيعة أن تتحد مع الفلسفة؛ فهذه الوحدة القائمة على حاجة متبادلة وعلى ضرورة داخلية، ستكون دائمة وسعيدة وخصبة أكثر من الزواج غير الموفق بين الفلسفة واللاهوت" (Feuerbach: 1973, p 125).

وعليه، فإن إصلاح الفلسفة بقدر ما يقتضي القطع مع التجريد يقتضي أيضا القطع مع اللاهوت والاتصال بالعلوم، وذلك هو الدور الذي ستضطلع به الفلسفة الجديدة/ فلسفة المستقبل التي حصر فيورباخ مهمتها الأساسية في استنباط ضرورة فلسفة الإنسان (La nécessité de la philosophie de l'homme) أي الأنثروبولوجيا من فلسفة المطلق (la philosophie de l'absolu) أي من اللاهوت، وتأسيس نقد الفلسفة الإنسانية فوق أرضية نقد الفلسفة الدينية (Feuerbach: 1973, p 128).

2-2- إنسانية الإنسان

الأمر الثاني الذي يشكل عماد الفلسفة الجديدة/ فلسفة المستقبل التي بشر بها فيورباخ هو الاهتمام بالإنسان، فموضوع الفلسفة الجديدة/ فلسفة المستقبل هو الإنسان الكامل (l'homme total) بكل علاقاته وحاجاته وأحاسيسه وأفكاره. لذلك لا يمكن دراسة هذا الإنسان بوصفه أنا مجرد، بل في علاقاته مع الناس الآخرين، مع أنا آخر من خلال الأنت الموجودة في الإنسان والتي هي عبارة عن ماهية النوع الإنساني الموجودة في كل أنا. يقول ماركس فارتوفسكي (Marx Wartofsky) موضحا فكرة فيورباخ: "وجودنا الحسي/ الفكري، أو وجودنا العاطفي، الحسي، الإرادي، الفكري، هو بالطبع وجود إنساني. كإنساني، هو ليس مكتفيا بذاته، إنما هو وجود يعتمد على غيره، وكوجود معتمد على غيره، فإنه يعتمد على هذا الغير في الفكر وفي الوجود الفعلي معا. في الفكر يعتمد على الحواس، وفي الوجود الفعلي على الطبيعة الخارجية وعلى الموجودات الأخرى. فقط الموجود بالفعل هو الذي يفكر، وبذلك يكون الفكر معتمدا على الوجود الفعلي. لكن الصلة بين الفكر والوجود، بين ما هو في الفكر، أو ما هو تفكير، وما يوجد وراء حدود الفكر، هي الإحساس. لا يوجد فكر بدون إحساس، وأيضا لا

يوجد فكر بدون أكل وشرب وهواء؛ فضلا عن ذلك، لا فكر موضوعي دون وجود آخرين يستطيعون أن يوافقوا على هذا الفكر" (Wartofsky: 1977, p 365).

فليس لدى فلسفة المستقبل موضوع اهتمام آخر غير الإنسان الواقعي/ الفعلي الذي يفكر ويحس ويأكل ويشرب ويتواصل مع الآخرين، فهي فلسفة إنسانية مغيرة ومعارضة للفلسفة الهيجلية، ف"بينما قالت الفلسفة الهيجلية وحده العقلي هو الحقيقي والواقعي، تقول الفلسفة الجديدة (فلسفة المستقبل) على العكس من ذلك: وحده الإنساني هو الحقيقي والواقعي، لأن الإنساني هو وحده العقلي، ولأن الإنسان هو معيار العقل" (Feuerbach: 1973, p 194).

وإذا كان هيجل قد أنزل الإنسان إلى مرتبة الهامش، فإن فيورباخ أعاده إلى المركز، بل وجعله منطلق وغاية الفلسفة الجديدة/ فلسفة المستقبل؛ يقول في هذا الصدد: "يجب على الفيلسوف أن يدرج في نص الفلسفة حصة الإنسان الذي لا يتفلسف، وكذلك الذي يعارض الفلسفة ويحارب التفكير المجرد، أي ذلك الذي وضعه هيجل في الهامش. فبهذا، فقط، سيكون بوسع الفلسفة أن تصير قوة كونية (force universelle) كاملة القوة، لا تقبل الجدل ولا تقاوم. ولهذا، لا ينبغي للفلسفة الانطلاق من ذاتها بل من نقيضها أي من اللافلسفة (la non-philosophie)؛ فهذه الماهية المتميزة عن الفكر والغير فلسفية والمضادة، بشكل مطلق، للسكولائية هي مبدأ الحسية" (Feuerbach: 1973, p 116).

ومن ثم، فإن فلسفة المستقبل/ الفلسفة الجديدة نفي للفلسفة السكولائية/ المدرسية المتسمة بسمة التجريد؛ فعلى النقيض من الفلسفة السكولائية ليس لدى فلسفة المستقبل/ الفلسفة الجديدة "لا كلمة سر ولا لغة خاصة ولا اسم خاص ولا مبدأ خاص، فهي الإنسان نفسه الذي يفكر، الإنسان الذي يوجد والذي يعلم أنه الماهية الواعية للطبيعة والتاريخ والدول والدين، وأنه الهوية الحقيقية، لا المتخيلة، لكل المبادئ والمتناقضات والكيفيات الفاعلة والمنفعلة: الروحية والحسية والاجتماعية؛ وهي، أيضا، الإنسان الذي يعلم أن الوجود الذي فصله الفلاسفة التأمليون أو بالأحرى اللاهوتيون عن الإنسان وجعلوه وجودا مجردا وموضوعيا، ليس سوى وجوده الخاص وغير المحدد والمحتمل، رغم ذلك، لتعريفات متعددة" (Feuerbach: 1973, p 122).

وعليه، فإن هذه الفلسفة الجديدة/ فلسفة المستقبل التي أراد فيورباخ أن يقيمها على أنقاض الفلسفة الهيجلية فلسفة إنسانية خالصة، فإذا كانت الفلسفة الهيجلية/ القديمة فلسفة نظرية لا تهتم بالإنسان فإن فلسفة المستقبل فلسفة عملية، وفلسفة لأجل الإنسان مهمتها "إنزال الفلسفة من نعيم الفكر الإلهي (la béatitude d'une pensée divine) إلى البؤس الإنساني (la misère humaine)" (Feuerbach: 1973, p 127)، أي من سماء اللاهوت إلى أرض الإنسان.

خاتمة

تأسيساً على ما سلف ذكره، يمكن الإقرار بأن تصور هيغل وتصور فيورباخ للفلسفة من جهة موضوعها وغايتها كانا على طرفي نقيض، فبينما حصر الأول مهمة الفلسفة في فهم الحاضر مستبعداً أي تطالع للمستقبل وجاعلاً من الفلسفة علماً نظرياً يبتغي المطلق، جعل الثاني الفلسفة تطالعاً للمستقبل، مبشراً بفلسفة المستقبل لإصلاح الفلسفة والقطع مع اللاهوت والتجريد والاحتفاء بإنسانية الإنسان وجعله قلب الفلسفة ومركزها؛ فوضع بذلك العمل في مكان النظر، والحسية (sensibilité) في مكان التجريد، والإنسان في مكان اللاهوت.

بيد أن كلا التصورين لم يسلموا من نقد في سياقات الفلسفة المعاصرة خاصة، ومؤدى هذا النقد أن التصور الهيجلي لم يكن سوى محاولة لتبرير الواقع أو الحاضر أو العصر، ورفض أي محاولة لتجاوز الواقعي، واختصار مهمة الفلسفة في المواءمة بين الناس وبين الواقع القائم (ماركيوز: 1979، ص 177)؛ وبذلك، وصلت فلسفة هيغل إلى الطريق المسدود، لأنها حاولت فرض الثبات على الواقع، فأنتجت بذلك واقعا مثالياً بعيد كل البعد عن عالم البشر (لوفيفر: 2018، ص 58). أما التصور الفيورباخي فلم يقطع مع اللاهوت ولا هو أصلح الفلسفة، بل تضمن مفارقة عبر عنها ماركس بقوله إن فيورباخ كان "مادياً من تحت ومثالياً من فوق" (ماركس: 1975، ص 45)، أي مادياً في نظرتة للطبيعة ومثالياً في نظرتة للمجتمع، لأن الإنسان الذي جعله فيورباخ مركزاً لفلسفتة لم يكن سوى إنسان مجرد لم تلده أم ولا يوجد مثيل له إلا في الفكر، ولأن "عبادة الإنسان المجرد، التي تؤلف نواة الدين الجديد الفيورباخي، كان يجب الاستعاضة عنها بالعلم عن الناس الحقيقيين وعن تطورهم التاريخي" (ماركس: 1975، ص 44)؛ أما فريديريك إنجلز فقد عبر عن هذه المفارقة بقوله: "أما عن فيورباخ فالأمر بالعكس تماماً؛ فهو من ناحية الشكل واقعي، إذ يتخذ الإنسان نقطة انطلاق، ولكنه لا ينبس ببنت شفة عن العالم الذي يعيش فيه هذا الإنسان، ولهذا يظل الإنسان عند فيورباخ دوماً نفس الإنسان المجرد الذي لا يعيش في عالم واقعي، متطور ومعين تاريخياً، ورغم أنه على صلة مع أناس آخرين، إلا أن كل واحد منهم مجرد بقدر تجرده هو نفسه" (أورده: كوزنيتسوف: 1987، ص 86 - 87).

المراجع:

العربية:

- إبراهيم زكريا، مشكلة الفلسفة، الطبعة الأولى، مكتبة مصر، القاهرة، 1971.
- هنري لوفيفر، المادية الجدلية، ترجمة: إبراهيم فتحي، الطبعة الأولى، دار آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2018.

- هريت ماركيزوز، العقل والثورة: هيغل ونشأة النظرية الاجتماعية، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979.
- حنا ديب، هيغل وفويرباخ، الطبعة الأولى، دار أمواج للطباعة والنشر، بيروت، 1994.
- حسن حماد وآخرون، هيغل: مقاربات نقدية لنظامه الفلسفي، الطبعة الأولى، منشورات المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، النجف، 2020.
- كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، الجزء الثاني، ترجمة: حسام نايل، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2015.
- كارل ماركس - فريدريك انجلس، مختارات، الجزء الرابع، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1975.
- محمد الشيخ، فلسفة الحداثة في فكر هيغل، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2008.
- فريدريك هيغل، أصول فلسفة الحق، المجلد الأول، ترجمة وتقديم وتعليق: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الثانية، دار التنوير بيروت، 1983.
- فريدريك هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997.
- فاسيلي كوزنيتسوف، بصدد مؤلف إنجلز "لودفينغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية"، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1987.
- الأجنبية:

- Henri Arvon, Feuerbach, sa vie, son oeuvre: avec un exposé de sa philosophie, Presses Universitaires de France, Paris, 1964.
- Jan Patocka, Platon et l'Europe, Editions: Verdier - philosophie, Paris, 1983.
- Ludwig Feuerbach, Manifestes philosophiques (textes choisis 1839 - 1854), traduit de l'allemand par Louis Althusser, Presses Universitaires de France, Paris, 1973.
- Martin Heidegger, Questions II, trad. Jean Beaufret et Dominique Janicaut, Gallimard, Paris, 1968.

- Marx Wartofsky, Feuerbach, Cambridge University Press, Cambridge, London, New York, 1977.
- René Serreau, Hegel et l'hégélianisme (coll. Que sais-je), Presses Universitaires de France, Paris, 1968.
- Walter Stace, The philosophy of Hegel: A systematic exposition, Dover publications Inc, New York, 1955.

التواصل الشعري بين المغرب والمشرق في ثلاثينيات القرن الماضي

".Poetic communication between Morocco and the Levant in the thirties of the last century"

عماد عشا، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، المغرب

- مختبر الدراسات الأدبية واللغوية والديداكتيكية

البريد الإلكتروني: aimadacha90@gmail.com

الملخص :

مر الشعر المغربي من أطوار كثيرة ومتباينة حتى استوى على عودته، وانتهى إلى ما هو عليه اليوم من نضج وثناء، واستقرأ تاريخ هذا الشعر يظهر أن صلته بالشعر العربي المشرقي قوية متينة رغم القطيعة التي كانت تفرضها بعض الظروف أحيانا، فالملاحظ أن الشعر المغربي في العصر الحديث، وبالضبط في ثلاثينيات القرن العشرين انتفض ووارى باب القطيعة، وهتك ستار العزلة الذي كان قد أحاط به نفسه، فيمم وجهه من جديد شطر الشعر المشرقي المنتعش حينئذ ليتزود منه بما يجعله يقوى ويشتد، ويواكب ما يستجد في الساحات الأدبية من مذاهب وأفكار، وصنوف التفتن في القريض والإنشاد، وذلك من خلال التواصل الذي كان يتم بين الشعراء المغاربة والمشاركة على صفحات الجرائد والمجلات الأدبية التي كانت تعد أهم القنوات المساهمة في حدوث تواصل مثمر بين الشعرين المغربي والمشرقي، تواصل عاد على المشهد الشعري المغربي بالنفع العظيم، إذ ساعد على تعرف الشعراء المغاربة على الاتجاهات والمذاهب السائدة في الشعر المشرقي من كلاسيكية ورومانسية وغيرها.

كلمات مفتاحية: شعر، الشعر المغربي، الشعر المشرقي، التواصل، مجلة.

Abstract :

Moroccan poetry has gone through many different phases until it reached its peak, and ended up with the richness and maturity it has today. Extrapolating the history of this poetry shows that its connection with Eastern Arabic poetry is strong and solid despite the rupture that was sometimes imposed by some circumstances. It is noticeable that Moroccan poetry in the modern era, specifically in the 1930, rose up and hid the door of estrangement, and tore off the veil of isolation that it had surrounded itself with, and turned its face once again towards the then-reviving Eastern poetry to obtain from it what would make it stronger and more intense, and keep pace with the new trends and ideas in the literary fields, and the types of artistry in poetry and chanting. This was done through the communication that took place between Moroccan and Eastern poets on the pages of newspapers and literary magazines, which were considered the most important channels contributing to the occurrence of fruitful communication between Moroccan and Eastern poetry. This communication brought great benefit to the Moroccan poetic scene, as it helped Moroccan poets to become acquainted with the prevailing trends and schools in Eastern poetry like classicism, romanticism and others.

Key words: poetry, the Moroccan poetry, the Eastern poetry, communication, magazine.

1. مقدمة:

إذا جاز لنا أن نشبه الأدب المغربي بشيء، فسندشبهه بعصفور يعيش في ربوة محاطة بسياج لم يكن مسموحا له بتخطيه في كثير من الأحيان إلى غاية سنوات الثلاثين من القرن العشرين، إذ سيبلغ هذا العصفور شيء من شدة صنوه المشرقي، وستهفو نفسه إلى الجديد، وتوق إلى تلقف هذا الشدو مُجددا صلة الرحم من خلال استقبال ما يرد عليه من مستجدات أدبية مشرقية بشغف منقطع النظير. سنحاول الوقوف عند بعض مظاهر هذا التواصل الذي كان يحدث بين المغاربة والمشاركة في المجالات والصحف، ومن خلال هذه النماذج التي سنعرض بعضها، سيتبين لنا كيف أن المغاربة كانوا على اطلاع بما كان يروج في الساحة الشعرية بالمشرق العربي، وكيف أن بعض المشاركة كذلك كانوا على دراية بما كان يروج في الساحة الأدبية المغربية، رغم أنه لا مجال للمقارنة طبعاً، نظراً للفرق الكبير المتمثل في كون المشرق هو البيئة الفاعلة وكون المغرب هو البيئة المنفعلة.

وارتباطاً بهذا الموضوع، سنسعى من خلال هذا البحث إلى الإجابة عن الإشكال الآتي:

هل كان بين الشعر المغربي وصنوه المشرقي وشائج وتواصل في العصر الحديث؟ وإذا كان هذا التواصل قد حدث فما قنواته؟ وما الثمار التي جناها الأدب المغربي من تواصله مع الشعر المشرقي وأدبه عامة؟ وسعياً لمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة قسمنا هذا البحث إلى محورين، المحور الأول عنوانه ب : البيئة الشعرية المنفعلة، والمحور الثاني ب : انفتاح المشاركة على الشعر المغربي

ويفترض من هذا البحث أن يكشف عن بعض مظاهر التواصل بين الأدبين المغربي والمشرقي، وأن يبين طبيعة هذا التواصل والنتائج التي ترتبت عنه، هل كانت فيها فائدة وإثراء للأدب المغربي أم أن هذا التواصل لم يكن له الأثر العميق في هذا الأدب. وتجدر الإشارة إلى أننا اتبعنا في محاولتنا الإجابة عن هذه الأسئلة منهجاً وصفياً تحليلياً، لأنه في تصورنا هو المنهج الأسلم للإجابة عن إشكال هذا البحث.

المحور الأول : البيئة الشعرية المنفعلة

يمكن القول دون أن نخاف لومة لائم إن التواصل بين المشرق والمغرب لم تنقطع أواصره انقطاعاً تاماً في أي مرحلة من المراحل منذ أن دخل الإسلام للمغرب، وذلك لأن المشرق وبالخصوص شبه الجزيرة العربية يشكل المركز لباقي البلدان التي تدين بالإسلام في أرجاء المعمور، ولم يكن للتواصل أن ينقطع لأكثر من سنة، وما ينبغي له ذلك، لأنه يتجدد من خلال رحلات الحج، فبحلول كل سنة يفتد المسلمون على مكة من كل فج عميق، فيتزود كل منهم من أخبار الآخر وأخبار بلاده. إلى جانب الحج

المغاربة الذين كانوا يمثلون حلقة تواصل هامة بين القطرين (المشرق والمغرب)، نجد فرقا أخرى تضطلع بهذا الدور أيضا، ففريق يسافر لأخذ العلم على يد العلماء المشاركة فيمكث عندهم حتى يجيزوه ويعود إلى المغرب، وفريق آخر كان يستوطن المشرق ماثما فيه ردحا من الزمن ثم يؤوب للمغرب، هذا بالإضافة إلى الركب الرسمي الذي كان ملوك المغرب يوفدونه في مواسم الحج بغية تجديد الروابط مع حكومات الدول المشرقية، وعلى كل حال فقد كان هؤلاء يتجهون إلى الحجاز عن طريق طرابلس ومصر، وبما أن الرحلة كانت تتم سيرا على الأقدام والدواب لا بالطائرات كما هو الحال اليوم، فقد كان من الطبيعي أن يتواصل هؤلاء المرتحلون مع كل الجماعات التي يمرون عليها في طريقهم، ويتزودوا بما استجد وجد من أخبارهم.

لا حاجة لنا لإطالة الحديث عن الروابط التي تجمع الشعوب العربية الإسلامية من لغة ودين، فغير خاف على أحد الاتصالات التي كانت قائمة بين المشاركة والمغاربة منذ القديم، وصولا إلى العصر الحديث الذي تجرعت فيه الشعوب العربية كؤوسا مريرة جراء القهر الاستعماري الذي كان له الأثر الكبير في إحداث تغيير في العلاقات بين البلدان العربية المستعمرة، كثيرا كان أثر هذا التغيير أو قليلا، فإن التواصل ظل رغم كل شيء قائما. وسيكون لظهور الصحافة والمجلات والجرائد أثر كبير في تعميق هذا التواصل بين القطرين (المشرق والمغرب)، وما دام موضوعنا هو - الأدب - نقول إن ما كان ينشر في هذه المنابر المشرقية بالخصوص كان له عظيم النفع للأدب المغربي الذي ضرب سورا من العزلة على نفسه لأمد طويل، كما أن ما كان ينشر في مجلات المغرب كان يجد له بعض التتبع من لدن بعض المشاركة أيضا، لكن المغرب في هذه المرحلة أي؛ النصف الأول من القرن العشرين كان في حاجة ليأخذ، لا يعطي، فقد كان أدبه يعاني التخلف عكس الأدب بالمشرق الذي كان قد اشتد عوده.

إذن، لم يعد المغاربة في انتظار موسم الحج أو هجرة طالب علم إلى المشرق العربي ليطلعوا على ما يروج فيه ويستفيدوا منه، بل أصبحت الصحف والمجلات التي تصدر في المشرق تحج إلى المغرب بغير ميقات معلوم، وكأنه نوع جديد من الحج باتجاه آخر، نحو قبلة جديدة؟ نحو المغرب، إنه حج ثقافي أدبي سينتشل الأدب المغربي من برائن الضعف والوهن الذي كان يتخبط فيه. قبل أن نتحدث عن الدور العظيم الذي لعبته الصحف والمجلات المشرقية في التأثير على الأدب المغربي، وجعله يمتن صلته بالمدارس الشعرية المشرقية، مما سيبعث انتعاشا في أوصاله ويدفع به نحو البحث في عوالم جديدة من شأنها أن تغنيه خصوصا في سنوات الثلاثين من القرن العشرين، تتساءل أولا، ألم يفكر المغرب في الاستفادة من الآداب الغربية وهي تكاد تكون بين يديه نظرا للقرب الجغرافي بينه وبين الغرب، وكذلك ظروف الاستعمار، خصوصا وأن المغرب كان خاضعا لقوتين استعماريتين، فرنسا وإسبانيا؟.

يجيبنا أحمد المديني على هذا السؤال بقوله: "يخطئ إذن من يعتقد أن بلدان المغرب العربي كان بوسعها أن تحلق سريعا في سماء التجديد، وتستفيد من عطاء التغيير الذي لحق الآداب الغربية، بالنظر لقرب المسافة، بل وللاحتكاك المباشر بالمستعمر الفرنسي، بل على النقيض من ذلك تماما، إذ أن هذا الاحتكاك ولد رد فعل متطرف ضد الغرب في تأسيس المدارس العربية واعتبار الحفاظ على الثقافة العربية جزءا من الحفاظ على الدين، على القرآن والسنة النبوية" (المديني 1404هـ-1983م، ص 66)، لم يكن هذا الخيار مطروحا إذن، وذلك لموقف المغاربة من المستعمر الذي كانوا يرون فيه عدوا يسعى لطمس هويتهم العربية الاسلامية، وأيضا لأسباب عديدة منها كون الذائقة الأدبية "كان يصعب عليها أن تطمع في أي نقلة فنية تجديدية للقصيدة الشعرية، وإذا كان لا بد أن يصلها شيء من ذلك، فليكن ثانية باحتذاء الأصل والتنصت لما يأتي من المشرق، ومن ثم فإننا نستطيع، بإحداث بعض التباعد الزمني، أي الوقت اللازم لانتقال العناصر والمخيلة الشعرية المستجدة وتأملها ثم احتدائها، نستطيع أن نقل ذات المدارس والتيارات الشعرية المشرقية إلى المغرب دون أن نفعل شططا أو نحس بفارق يذكر، عدا الفارق البدهي طبعاً، فارق ما بين الأصل والفرع." (المديني 1404هـ-1983م، ص 66)،

ونعثر على مقالات عديدة لكاتب مغاربة تناولوا فيها الآثار المشرقية بالنقد والدراسة على أعمدة الصحف والمجلات ونخص بالذكر مجلة المغرب، ونشير هنا على سبيل المثال لا الحصر إلى "محمد أبا حنيني" الذي كتب عن "العقاد"، و"طه حسين"، و"البارودي"، و"سعيد حجي" الذي كتب عن آثار "طه حسين" و"حافظ" و"أحمد زكي أبي شادي" (حجي، ع11، 1938م)، و"عبدالله كنون" الذي كتب عن "زكي مبارك" (كنون، عدد 5/7/1935م)، وسنركز في المقالات التي سنقف عندها على تواريخ نشرها، لأن هذا البحث يتناول فترة الثلاثينات من القرن العشرين.

تجدر الإشارة إلى أن المجلات المغربية لم تكن تنشر مقالات مغاربة فقط عن الآثار المشرقية، بل إننا نجدها تعمد أحيانا إلى نشر مقالات سبق وأن نشرت في مجلات مصرية، كما نجد في مجلة المغرب التي نشرت مقالا "لأمين الريحاني" بعنوان "دروس في الشعر للفيلسوف أمين الريحاني، والمقال نشر سابقا في مجلة الشرق المشرقية، وأعدت مجلة المغرب نشره سنة 1934م، ويتضمن المقال خمسة عشر نصيحة موجهة للشعراء وهي كالاتي:

- 1- حرروا صناعاتكم من "قفا نبكي" و"سائق الأضغان" إن عندكم اليوم الطيارات لتسوقوا النجوم.
- 2- حرروا أنفسكم من القيود التي تحول دون الإبداع والتجديد، دون الصدق في الشعور، والحرية والتفكير.
- 3- خدوا بيانكم، مجازكم واستعاراتكم من لوح الوجود، ومن الحياة، لا من الكتب والدواوين.

- 4- ليكن في خيالكم حقائق كونية وبشرية، وليشع من هذه الحقائق الخيال.
 - 5- انظروا إلى الكون من خلال أنفسكم الشاعرة الباصرة، ولا تنظروا إلى أنفسكم من خلال الأوهام، الشاعر صوت ونور، وما فيه سوى ذلك هو باطل زائل.
 - 6- لا تسرفوا في البيان، ولا تسهبوا وتطنبوا في بث لواج النفس، فإن من أفصح الكلام الوقف، ومن أبلغ المعاني الإشارة، بل السكوت.
 - 7- حافظوا على التناسب والتوازن بين الصيغة والمعنى، وبين القلب والروح، إذا كنتم طائرين مثلا ليكن القول خفيفا مجنحا، وإذا كنتم متألمين أو تأثرين لتكن الامواج اللغوية من ذوب الحديد.
 - 8- تجنبوا السخافة في الفكر والوصف وفي الصور الشعرية والخيال، لا تسخروا القمر والشمس مثلا لما سخرهما قبلكم ألف شاعر وشاعر.
 - 9- لا تدخلوا المواضيع من الأبواب التي دخلها قبلكم جميعا الشعراء المقلدين فتعشرون بعضهم ولا تتجون من قبورهم.
 - 10- ليكن لقصائدكم بداية ونهاية فلا تقرأ طردا وعكسا على السواء.
 - 11- لا تعصروا قلوبكم كأن تتعلمون رقة الشعور، ولا تعقدوا أفكاركم كأن تتعمدون الغموض والإبهام.
 - 12- تحروا البساطة والصدق والإخلاص فكرا وصناعة وخيالا.
 - 13- لا تفسدوا الوطن في حاكم الإنساني، ولا تنسوا الإنسانية في نزعاتكم الوطنية.
 - 14- ارفعوا للناس مشاميل الإباء والشرف، والقوة والعدل، والشجاعة والثبات والأمل والإيمان.
 - 15- وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء كفكفوا دموعكم- كفكفوا دموعكم- فالشمس لاتزال لكم، والقمر لازال يرافقكم، والربيع لا يخونكم." (الريحاني، 1353هـ، 1934م، ص 5)
- إن هذا المقال لأمين الريحاني يعطينا فكرة عن التواصل الأدبي الذي كان يحدث بين المشاركة والمغاربة، كما أنه يكشف لنا مسألة هامة، فإذا علمنا أن الأديب اللبناني الكبير أمين الريحاني رائد من رواد الرومانسية العربية، وأشهر أدباء المهجر، بعد جبران، ومن الدعاة الأوائل إلى تحرير الشعر من أسر الأوزان والقوافي، هان علينا أن نفهم جانبا من جوانب تعايش الكلاسيكية والرومانسية بالمغرب، إن هذه النصائح التي قدمها "الريحاني" للشعراء هي نصائح رومانسية المنزع، وتأتي أهميتها عندنا من كونها نشرت في مجلة المغرب أي؛ أنها موجهة إلى القراء المغاربة، وفي أي سنة؟ إنها سنة 1934م، في الوقت الذي أخذ فيه المغاربة وخصوصا جماعة الشعراء الشباب ينظمون على منوال شعراء الكلاسيكية المحدثه شوقي وحافظ ومن سار على دربهما.

لا شك أن اطلاع الشعراء المغاربة على مثل هذه النصائح ذات المسحة الرومانسية كان ليخلق في أنفسهم نزعة إلى التجديد ورغبة فيه. ومن الشواهد على توفر المجلات والصحف المشرقية بالمغرب بوفرة مما كان يتيح للقارئ المغربي الاطلاع على ما يستجد في الساحة الأدبية المشرقية، قصة -أو ما يشبه القصة- داخل مقال نقدي لـ "محمد حصار" قال فيه "كنت يوما مارا مع صديق لي فرنسي بأحد شوارع الرباط، وهذا الشاب شاب مستعرب يدرس الآداب العربية في مصر، وقد جاء لقضاء عطلة الصيف بين أهله، وهو يضممر للشرق عامة والعرب خاصة أكثر مما يظهر على كثرة هذا الظاهر ووفرتة من حسن العواطف ونبل المقاصد... غادر ربيع الشرق منذ شهر فأكثر فاشتد حنينه إليه وضاق نطاق صبره عن فراقه، وانجست عنه أخباره فتضاعف الحنين وعظم الاشتياق فالتمس إطفاء غلته فيما يرد على هذه الديار من صحف الشرق ومجلاته، فدخلت معه إلى مكتبة كانت في طريقنا وما خرجنا منها إلا وصديقي متأبط رزمة من الجرائد اليومية والمجلات الدورية وقد علت وجهه لمع السرور كهذا الذي ينبعث من فؤاد عاشق ولهان عندما يتسلم رسالة من حبيبه البعيد" (حصار، جمادى الثانية 1352هـ، أكتوبر 1933م، السنة الثالثة، ص 22).

مع أن هذا المقال الغرض منه في الأصل هو نقد الصحافة المشرقية، فإن الذي يعيننا منه هو قول "محمد حصار": "وما خرجنا منها إلا ورفيقي متأبط رزمة من الجرائد اليومية والمجلات الدورية"، وهذا يعني أن الصحف والمجلات المشرقية كانت متوفرة في المكتبات المغربية، ومتاحة لتكون في أيدي القراء وأهل الأدب، بل بإمكاننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونقبل بما يمكن أن نسميه تحامل محمد حصار وموقفه من الصحافة المشرقية، فهل كان صاحبنا لينتقد هذه الصحافة لولا درايته بها واطلاعه على ما ينشر بين صفحاتها؟.

ونجد "محمد حصار" في موضع آخر يتبرم من التجديد الذي تفشى في مصر في مجال الأدب، ففي مقال له بعنوان "تجديد التقليد" يقف موقفا مضادا لجماعة التجديد التي تأثرت بالآداب الغربية، يقول: "في مصر اليوم جماعة من حاملي الأقلام، إلى حد أنها رأت التقليد الذي يرسف في أغلاله كتاب العربية وشعرائها قد بلي وقدم وأنه في حاجة ماسة إلى التجديد فراحت تسود أوراق الصحف والمجلات بالنهي عن تقليد العرب وتفكير العرب وكل ما هو من العرب... لا لتضع في محله شيئا جديدا مبتكرا ولكن لتحاكي الغرب وأسلوب الغرب وتفكير الغرب وكل ما جاء من الغرب" (حصار، صفر 1352هـ، يونيو 1933م، السنة الثانية، ص 12).

إن "محمد حصار" يؤخذ على جماعة التجديد في مصر احتكاكها بالآداب الغربية، فهو لا يؤمن بأن الاتصال بين الأدبين العربي والغربي ظاهرة صحية للأدب العربي، وأن هذا الاحتكاك هو الذي أنعش

الآداب العربية بعدما كانت سقيمة لا تقدر أن تنضو عنها ثوب الضعف والوهن، ونجد "حصار" يذهب في إنكاره التجديد على أصحابه مذهبا بعيدا عندما يقول:

"أتدري ماذا تنكر هذه الجماعة العربية؟"

تنكر عليها أنها خالية من القصة ومن الرواية ومن (التراجيديا والكوميديا والميتولوجيا)، وأن أدبها ليس منقسما مثل الأدب الغربي إلى (كلاسيكي ورومانسي)، وأن شعرها ليس منقسما إلى (أبيك وليريك)، وإن جن شعرائها لم يتأله ولم يتخذ (أبولو)، ذلك الاسم العالمي اسما له، وأن التاريخ العربي الإسلامي ليس منقسما كالتاريخ الغربي إلى (العاديات والقرون الوسطى وعصر النهضة والعصر الحديث والعصر الحاضر)" (حصار، صفر 1352هـ، يونيو 1933م، السنة الثانية، ص 12)، ثم يختم "محمد حصار" كلامه بما يشبه الرجاء: "وأرجو لمصر أن تخرج من المخاض بخير وعافية بفضل ما بقي صالحا سالما من أبنائها الكرام وأن يسفر هذا المخاض عن إنتاج صحيح مبتكر، وأن لا تكتفي جماعة المجددين بإبدال وتجديد التقليد فحسب" (حصار، صفر 1352هـ، يونيو 1933م، السنة الثانية، ص 12) ..

"محمد حصار" متحمس للقديم أشد الحماس، وينكر على جماعة التجديد في مصر تأثرها بالآداب الغربية، ولو أمعن محمد حصار نظره في الأدب المغربي خلال هذه الفترة التي نشر فيها مقاله وهي عام 1933م، لكان لاحظ أن عفريت التجديد في الشعر المغربي كان قد شرع يفتح غطاء قممه بشيء من اللين والسلاسة حتى لا ينبه إلى خروجه.

ومن مظاهر التواصل أيضا بين الشعر المغربي والمشرقي المحفوظ لإنتاجات مجلة أبولو في الأدب المغربي، فنحن نعثر على قصيدة ل"سيد قطب" بعنوان "حائر" مقتطفة من مجلة (أبولو) جاء فيها:

حَائِرٌ!؟

اطْمَأَنَّ اللَّيْلُ إِلَّا مِنْ فُؤَادٍ

خَائِفٍ يَرْجِفُ كَالطَّيْرِ الذَّبِيحِ

مُسْتَطَارِ هَائِمٍ فِي كُلِّ وَادٍ

أَفَأَنْ لَهٗ أَنْ يَسْتَرِيحَ؟

* * * *

إِنَّهُ يَحْيَا كَمَا يَحْيَا الطَّرِيدُ

بَاحِثًا فِي الْأَرْضِ عَنْ مَأْوَى أَمِينِ

حَيْرَةٌ لَجَتْ عَلَى هَذَا الشَّرِيدِ

لَيْتَهُ يَلْقَى شُعَاعًا مِنْ يَقِينِ

* * * *

ودموع طيِّعات إذ تَسِيلُ
إليه كَفَى يا دُمُوعِي لا تَسِيلِي!

كُلِّ مَا فِي الكَوْنِ والنَّاسِ ضَبَّيْلُ

عن دموعِي، وهي أغلَى ما بقيَ لي!

أنا لا أبكي على ماضٍ ذهب

لا، ولا مُستقبلَ ضاع هباء

إنما في النَّفسِ معنى مُضطرب

لم أجذ رمزاله غير البكاء

أنا لا أعرفه لكن أحسُّ

باضطراب حائر يغشى ضميري

أفلا قلبٌ من الكون يُحسُّ

ما بقلبي؟ فأرى مرأى شعوري

* * * *

لم أجده، إي، ولو كان لما

كانت الحيرة في هذا الوجود

فليمرَّ العمر والأحبي كما

شاءت الأقدار كالطيف الشroud! (قطب، رمضان المعظم

1351هـ، يناير 1933م، ص35).

وهناك مقالات كثيرة أخرى تقع عليها العين ولا يتسع لها المقام، من قبيل مقال ل"عبدالمجيد حجي" يحمل عنوان "الأدب الباكي والأدب الضاحك" (حجي، جمادى الأولى والثانية، 1353، غشت سبتمبر 1934م)، وقد أسهب الكاتب في مقاله في الحديث عن شعراء مشاركة من قبيل الشاعر اللبناني "أمين الريحاني" وشعراء سوريين.

المحور الثاني : انفتاح المشاركة على الشعر المغربي

كان بعض أدباء المشرق يولون وجوههم شطر المغرب يطالعون بعض ما يكتبه المغاربة، وقد يزكون ما يقرؤونه، أو قد يتحفظون منه؛ فهذا "أحمد زكي أبو شادي" يواكب بعض ما ينشر في المغرب، ويتحمس له "اطلعت على ما تنشره "مجلة المغرب" من نقد ودراسة وتأريخ للشعر العربي في المغرب،

اطلاع القرير بهذه النهضة المباركة التي أشعر أنها تعيننا كما تعينكم، مادامت تربطنا اللغة العربية وجامعة العروبة الشريفة بأواصر متينة، وإذن لست أعد نفسي دخيلا إذا ما علقت بهذه السطور الوجيزة على ما نشرتموه حينما زحبت بتعليقاتكم على الشعر المصري وعلى آرائنا الأدبية عامة" (أبو شادي، ذو الحجة 1353هـ، 1935م، ص 19)، وينتقل "أبو شادي" إلى التحمس لـ "محمد بن العباس القبايج" الذي يلمس فيه صوت التجديد بالمغرب، ويبدو أن "أحمد زكي" كان من المتبعين لمقالات "لذعات بريئة" التي كان "القبايج" ينشرها في "مجلة المغرب"، "لا يسعني إلا إقرار الأديب الفاضل (ابن عباد) على ما ذهب إليه من تعزيز الروح العصرية في الشعر ومن الانتصار للصدق كعماد قويم للفن، قد يخرج التقليد صناعة بدیعة محكمة، ولكننا نشعر مع ذلك أنه لا روح فيها إذا لم يكن وراءها إيمان صادق يزجي الفنان إلى التعبير الحر، وقد تخرج الروح الفنية الطليقة أثرا أدبيا بعيدا عن بهرج الصناعة، ومع هذا نشعر بجاذبية نحوه هي جاذبية الروح لا جاذبية الزخرف.

وفي مصر كما في غيرها من الأقطار العربية-شعراء كلاسيكيون، وفي مقدمتهم الشاعر الكبير أحمد محرم...، ومثال آخر الأديب الشهير مصطفى صادق الرافعي، فإنه على ذكائه وبراعته لم يستهو الأفتدة بالرسائل الغرامية الأدبية التي وضعها، لأنها جاءت متسمة بسمة الصناعة، فليست رسائل الحب مما يؤلف في تعمل كثير، وإنما منبعها القلب النابض، وسذاجتها الفطرية من عناصر جماله. الشعر فن من الفنون الجميلة، والفن الجميل ملكة طبيعية وموهبة أصلية تحيها الطلاقة والاستقلال، وكل من عارض ذلك إنما يخنق الشعر خنقا، لذلك أشكر الأديب الفاضل (ابن عباد) ومن ناصر هذه القضية الشريفة لحياة الشعر الصحيح وكرامته" (أبو شادي، ذو الحجة 1353هـ، 1935م، ص 19).

إن انتصار "أحمد زكي" للقبايج الذي يناهز التجديد في الشعر المغربي واضح بين، وهذا شيء طبيعي إذا علمنا أنه من رواد التجديد في المشرق، فهو يرى كباقي الرومانسيين أن التقليد لا ينتج ولا يثمر لأنه صنعة وليس مصدره الوجدان، لدرجة أنه تنكر "لأحمد محرم" و"مصطفى صادق الرافعي" وهما من بني جلدته لأنهما يمثلان الاتجاه الكلاسيكي القائم على الصنعة والاحتذاء.

مر بنا في المحور الأول أن "محمد حصار" كتب مقالا يرفض فيه التجديد، ويعارض أنصاره، ولم يكن هذا المقال لـ "محمد حصار" يمر مرور الكرام دون رد، خصوصا وأنه ذكر فيه "أبولو" مشيرا إلى جماعة "أبولو" الشعرية بالمشرق، لهذا تقدم "أحمد زكي أبو شادي" رئيس تحرير مجلة "أبولو" للرد على أديبنا المناوئ للتجديد، موضحا أهداف جماعة "أبولو": "بعد التحية أرجو أن تسمحوا لي بهذه السطور القليلة تعليقا على ما كتبه الأديب محمد حصار عن الحركة التجديدية في الشعر، لأنني أخشى أن يظن أننا نزمي بجمعية "أبولو" إلى الإصغار من شأن الثقافة العربية، إذ الواقع عكس ذلك تماما. فنحن لا ننكر ما في

القديم من الجمال بل نتشبت بهذا الجمال ونعمل للإضافة إليه بمجهودنا الحديث" (أبو شادي، جمادى الأولى 1353هـ، شتنبر 1933م، ص7)، أما بخصوص اسم "أبولو" الذي رأى فيه محمد حصار استيحاء لما هو غربي، فيرد عليه أحمد زكي بقوله: "وما اخترنا اسم أبولو لجمعيتنا ولا لمجلتنا إلى على اعتبار أنه أصبح رمزاً للثقافة الشعرية العالمية وهي أميتنا التي نتشبت بها بالنسبة لأدبنا العربي الذي نأبى استمرار حصره في دائرة ضيقة، وبديهي أن هذا لا يعني الخط من قدره بل يدل على غيرتنا الصحيحة على شرف مكاتته ومستقبله، وأظن أن صفحات (أبولو) تم عن ذلك بجلاء" (أبو شادي، جمادى الأولى 1353هـ، شتنبر 1933م، ص7).

وفي موضع آخر يرد "أحمد زكي أبو شادي" على النقد الذي وجه له في (مجلة المغرب) لديوانه "أطياف الربيع" بقوله:
"سيدي محرر مجلة المغرب،

اطلعت على كلمتكم الكريمة نقد ديواني "أطياف الربيع" وقد ذكرت فيها: ".... ومع ذلك فإننا نحس بشيء من المرارة - وإن معها لذة- عند مطالعة أشعار أبو شادي، لعله لتعصب من جانبنا، ولعله لمغلاة من جانب الشاعر... كم يقع غالباً لمن يحاول إثبات فكرة جديدة، وكيفما كان الأمر فإننا نعتقد أن شعراءنا-إذا كان لا بد من التوضيح لحاجات العصرين المغرمين بالآداب الأروبية- يمكنهم أن يجدوا في طيات جاهليتنا (وهنا نقصد العرب وغيرهم من أمم الثقافة الإسلامية) من معتقدات وعوائد وخرافات ما يغنيهم عن اليونان وغيرهم، وإذا فعلوا ذلك فقد يكون لأشعارهم صدى في القلوب غير صدها الآن، والعهد قبل الشعراء على العلماء وهم المطالبون أولاً بإحياء القديم بأبحاثهم ووضع هذا القديم تحت أنظار الكُتاب والشعراء، ولا زال علماء الإسلام لم يدخلوا مضمار التعمق والبحث على طريقة الأروبيين، وهذا ما نرجوه من المستقبل، فنتج عنه حركة أدبية شرقية المادة عصرية الأسلوب.

وإني أشكر لسيدي المحرر ملاحظاته القيمة، وباسم الإنصاف والحقيقة أود أن أعقب عليها بهذا البيان الوجيز" (أبو شادي، شعبان رمضان 1352هـ، ديسمبر 1933م، ص8)، إن استعمال أبو شادي لكلمة البيان هنا في هذا التعقيب يحيلنا بغير وعي إلى وظيفة البيانات التي هي التبشير بمذهب أو اتجاه جديد، وهذه تقنية نهجها الشعراء النقاد بتصديدهم لدواوينهم بمقدمات تتلقى باعتبارها بيانات تكشف التوجه الجديد الذي سار عليه الشاعر وتدافع عنه، إذن هل كان استعمال أبو شادي لكلمة البيان هنا بريئاً، أم أنه يود أن يشجع على التجديد والخوض فيه بطريقة سلسة وهو يقصد في الظاهر التعقيب على نقد ديوانه؟، ومما جاء في هذا البيان الوجيز:

1- في اعتقادي أن الشعر العربي في حاجة إلى استيعاب الأساطير الإفريقية خاصة والغربية عامة لا تقل عن حاجته إلى استيعاب الأساطير الشرقية، إن لم تكن الحاجة إلى الأولى أبلغ وأعظم لأننا أجهل بها من أساطيرنا.

2- ليس للفنون بوجه عام وطن خاص، ويجب أن نرحب بكل ما يضيف إلى تراثنا ذخرا جديدا كيفما كانت صبغته الأولى، فإن لنا من كل ذلك غنما أكيدا.

3- لا توجي إلى نظم شعر الأساطير موضوعاتها وحدها بل ما يصحبها أيضا من تهاويل فنية فهذه لها أبلغ الأثر في نفسي مما تحمله وتبثه من أشعة وظلال، وهذه التصاوير نادرة للأساطير الشرقية، ولو كانت ميسورة لجذبتني وجذبت غيري إليها، وغاية ما ظفرت به في هذا الباب التصاوير المصرية القديمة.

4- إن إشارتكم إلى خذلان العلماء للشعراء بإغفال التمهيد لهم بدراسة تلك الأساطير الشرقية وتبسيطها وتصويرها الفني مما يبعدها حتما عنها هي إشارة سديدة تشكرون عليها أخلص الشكر.

5- من رأيي أن الفنان الصادق لا يعنيه مبلغ إقبال الجمهور على فنه، اللهم إلا إذا تحول ذلك الفنان إلى تاجر عليه أن يرضى الذوق العام في زمنه حتى ينال التأييد والإقبال على بضاعته، وإني شخصيا وشعراء "أبولو" جملة لا يعيننا سوى التعبير عن شعورنا الفني إزاء نماذج الجمال التي تستهويننا سواء أكانت في الحياة النابضة أم في الحياة الجامدة، ومن الخير أن لا يطالب الفنان بالتعبير عن غير ما يتأثر به تأثرا عميقا وإلا جاء فنه محض صناعة." (أبو شادي، شعبان رمضان 1352هـ، ديسمبر 1933م، ص 8-9).

هذه نماذج من التواصل الشعري بين المشرق والمغرب، وتوضح كيف أن بعض المشاركة كانوا يحرصون على تتبع الحركة الشعرية في المغرب، وكانوا يدخلون في حوارات مع الأدباء المغاربة حول الشعر وقضاياها، وكل لهذا الأمر بكل تأكيد أثر كبير على تطور الشعر المغربي وامتعاشه.

4. خاتمة:

هكذا نلاحظ أن التواصل الأدبي كان قائما بين المغرب والمشرق على صفحات المجلات والجرائد، وأن هذا التواصل غير من نظرة الأدباء والشعراء المغاربة إلى الشعر، وضح فيه دماء جديدة، وقد رأينا كيف أن هذه النصوص التي كان يتم من خلالها التواصل تترواح بين رومانسية وكلاسيكية، وبهذا كان المغرب يطوي المسافات، ويتعرف على المذاهب المختلفة في آن واحد، ومن النتائج المتوصل إليها في هذه الورقة:

- الشعر المغربي كثيرا ما كان في معزل عن التواصل الفعال مع الشعر المشرقي في معظم الأوقات قبل الثلاثينات من القرن الماضي.

- حدث تواصل كبير ومنتج بين الشعراء المغربي والمشرقي في ثلاثينيات القرن العشرين وما بعدها.
- كانت المجالات والجرائد من أهم القنوات التي ساعدت على أكبر قدر من التواصل بين الشعر المشرقي والمغربي.

- انفتاح الشعر المغربي على الشعر المشرقي عاد عليه بالنفع العظيم، إذ ساعد التواصل بين الشعراء على تعرف الشعراء المغاربة على الاتجاهات والمذاهب السائدة في المشرق من كلاسيكية ورومانسية...

5. قائمة المراجع :

- 1- أبو شادي أحمد زكي، رد على محمد حصار، مجلة المغرب، جمادى الأولى 1353هـ-شتمبر 1933م، ع12، السنة الثانية
- 2- أبو شادي أحمد زكي، الشعر في المغرب، مجلة المغرب، ذو الحجة 1353هـ- 1935م، ع9، السنة الثالثة.
- 3- حصار محمد ، تجديد التقليد، مجلة المغرب ، صفر 1352هـ-يونيو 1933م، ع10، السنة الثانية.
- 4- حصار محمد، الشرق في الصحف الشرقية، مجلة المغرب، جمادى الثانية 1352هـ- أكتوبر 1933م، ع139، السنة الثالثة.
- 5- مجلة المغرب، مقال نقد ديوان أطيف الربيع، شعبان رمضان 1352هـ- ديسمبر 1933، ع15، السنة الثانية.
- 6- مجلة المغرب، دروس في الشعر للفيلسوف أمين الريحاني، شعبان 1353هـ-نوفمبر 1934م، السنة الثالثة.
- 7- مجلة المغرب، نقد ديوان أطيف الربيع، شعبان رمضان 1352هـ- ديسمبر 1933، ع15، السنة الثانية.
- 8- المدني أحمد الأدب المغربي الحديث، سلسلة الموسوعة الصغيرة، ع136، دار الحرية للطباعة بغداد 1404هـ-1983م،
- 9- مجلة السلام عدد 7/5/1935م.
- 10- قطب سيد ، قصيدة حائر ، مجلة المغرب ع 6 ، رمضان المعظم 1351هـ- يناير 1933م.

البناء المنهجي في كتاب المنزح البديع في تجنيس أساليب البديع، لأبي محمد القاسم السجلهاسي،
و دوره في القراءة الأدبية

The methodological construction in the book Al-Manza' Al-Badi' in Naturalizing the Styles of
Al-Badi', by Abu Muhammad Al-Qasim Al-Sijilmasi,
And its role in literary reading

ذ. ابراهيم نادن،

الكلية المتعددة التخصصات - أسفي-جامعة القاضي عياض-المغرب

البريد الإلكتروني: nadinebrahim@hotmail.fr

الملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى الحديث عن مصدر من مصادر البلاغة العربية في منحهاها الفلسفي، وتعلق الأمر بكتاب المنزح البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلهاسي حيث وقفنا على معالم مساهمته في الثقافة المغربية خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي مبرزين أسس البناء المنهجي لكتابه الذي يعد عملا نظريا في تجريد قوانين الأسلوب العربي، قادرا على الوقوف بشطر كبير من أعباء التحليل الأدبي، وتذوق جمال أساليب اللغة العربية، و عمادا في الكتابة لقدرة مصطلحاته على الهيمنة على مادة الإبداع الشيء الذي يجعل الدارس يستنتج أن بنية الكتاب تتضمن نظرية نقدية ناخبة في عصرها بعد تحبط علم البيان طويلا و تجزئه في غياب علم كلي يضبط قوانينه. هذا العمل التنظيري الكلي الذي سعى إلى تكوين تصورات مترابطة تحدد مفهوما للشعر و النثر، في رؤية عضوية للتداخل المستمر بين النظري و التطبيقي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية- الفلسفة- المغرب- المنزح البديع- الأسلوب.

Abstract :

This study vided to discuss a source of Arabic rhetoric in its philosophical approach that reached its peak among the rhetoricians of the Moroccan school during the seventh and eighth centuries AH/thirteenth and fourteenth centuries AD. It was about the book Al-Manza' Al-Badi' fi Tajnīs Asalīb Al-Badi' wirted by Abu Muhammad Al-Qasim Al-Sijilmāsi Al-Maghribi .we can considered this book as a theoretical work in abstracting the laws of Arabic style, capable of taking on a large part of the burdens of literary analysis, appreciating the beauty of the styles of the Arabic language.

Key words : rhetoric- philosophical approach- Moroccan school- Arabic style- critical theory.

المقدمة:

تمهيد:

هيمن اتجاهان على البحث البلاغي العربي منذ نشأته هما الاتجاه الأدبي والاتجاه الفلسفي، ولكل منهما مميزاته، دون أن يعني ذلك أن علماء البلاغة العربية تقيدوا بهذه المميزات في دراسة المصطلح البلاغي وشرحه وبيانه، بل إن النهجين معا تداخلا في مصادر البلاغة العربية لكن تصنيفها إلى هذا الاتجاه أو ذلك إنما هو من باب النظر إلى الأسلوب المهيمن في وصف المصطلح البلاغي، وفي توظيفه في الدراسة الأسلوبية. ويعتبر كتاب المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع مصدرا من هذه المصادر البلاغية العربية التي اتضح من أسلوب كتابته أنه يصنف ضمن الاتجاه الفلسفي على الرغم مما يلاحظ من التداخل بين النظري والتطبيقي في دراسة المصطلحات البلاغية. وهذا الكتاب هو الذي أريد أن أسجل بعض خصائص بنائه المنهجي إذ هو مصدر من مصادر النقد الأدبي والبلاغي العربيين. ألفه أبو محمد القاسم السجلهاسي، من رجالات القرن الثامن الهجري، وحققه الباحث في الأدب و النقد في المغرب المرحوم الدكتور علال الغازي، وهو كان في أصله رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بفاس، 1977، ونال جائزة المغرب للآداب سنة 1980.

إشكالية الدراسة وأسئلتها:

يبدو أن مشكلة الدراسة انطلقت من تصريح أبي محمد القاسم السجلهاسي أن صناعة البلاغة في المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع تشتمل على عشرة أجناس عالية متفرعة إلى مصطلحات مكونة للتشجير المفاهيمي البياني الذي بلغ 189 مصطلحا. ومن أجل ذلك اتجهت الدراسة إلى البحث عن أسس البناء المنهجي في هذا الكتاب الذي يعد عملا نظريا في تجريد قوانين الأسلوب العربي، قادرا على الوقوف بشطر كبير من أعباء التحليل الأدبي، وعمادا في الكتابة لقدرة مصطلحاته على الهيمنة على مادة الإلهام والإبداع في الحاضر كما لدى أدباء الماضي الذين خصوا في كثير من مصطلحات المنزوع البديع بفقرات من التحليل لاستخراج قضايا أسلوبية بكامل دقة السجلهاسي التي بسطت هذه الإجراءات النظرية على البلاغة القرآنية، كما على الفصاحة النبوية فأعنت المقدرة التدوقية للأدباء بأفاق جديدة في قراءة النص العربي. ومن أجل ذلك تساءلنا عن الخطوات المنهجية التي نهجها السجلهاسي في دراسة المصطلح، وماذا كان يقصد بالموطئ وبالفاعل؟ وما هي وظيفتهما؟ وما هي مميزتهما العلمية والمنهجية؟ وهل نجح السجلهاسي في عمله التنظيري للمصطلح البلاغي كما كان يقصد إلى ذلك؟ وكيف حصل التداخل بين النظري والتطبيقي في بنية المنزوع؟ وكيف يمكن لدارس البلاغة العربية أن يستفيد من نفسه في التحليل للأساليب البيانية العربية؟

أهمية الدراسة:

إن أهمية هذه الدراسة تنبع من الرغبة في الإشارة إلى أن هذا الكتاب يكاد يمثل حلقة مفقودة في تاريخ البلاغة العربية، بل يمكن القول إنه يمثل خاتمة التأليف البلاغي في التراث اللغوي العربي في وقت كان الحديث قد سار عن جموده وعن غياب روح التجديد في هذا الدرس اللغوي برمته لا سيما بعد سقوط بغداد نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي على يد هولاكو المغولي، وبمقدور هذه الإشارة أن تجعل الدارس يتبين أن كتاب المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع هو واحد من الكتب التي مثلت مرحلة من النضج والعطاء خلال القرنين السابع و الثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي على يد جماعة من العلماء الذين تعمقوا الاتجاه الفلسفي في البحث البلاغي كان من أشهرهم حازم القرطاجني، وابن عميرة المخزومي، وابن البناء المراكشي والسجلهاسي. ومن أجل ذلك هدفنا إلى إبراز الخصائص المنهجية والعلمية في إحصاء أساليب البلاغة العربية، وبيان مميزات أسلوب السجلهاسي في التنظير والتحليل الذي هيمن عليهما الميل إلى روح الابتكار والتجديد وبعد النظر في التمثيل والاستنتاج والجدال.

منهج الدراسة:

إن هذه الدراسة تقوم على بيان خصائص التنظير للمصطلح البلاغي و شرحه في كتاب المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلهاسي الذي اشتمل على 189 مصطلحا، وحيث يبدو من خلال الدراسة المتأنية للكتاب أن طابع التفرد في عمل السجلهاسي يعتبر خصيصة أسلوبية في التأليف البلاغي العربي التراثي، كما قد افتقدناه منذ ظهر كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، فإننا حاولنا أن نهج في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي من أجل تتبع كل جنس من الأجناس العشرة، ومعرفة الأسس النظرية والمنهجية التي اعتمدها السجلهاسي في وضع قواعد الأسلوب العربي على شاكلة العلوم التي حظيت بصناعة نظرية تحكم جزئياتها الفرعية.

خطة الدراسة:

قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وأربعة عناوين رئيسة وخاتمة ولائحة للمصادر والمراجع. فأما المقدمة فشملت تمهيدا عن أبرز مناهج التأليف البلاغي العربي منذ نشأته، كما شملت الحديث عن مشكلة الدراسة وتساؤلاتها وأهدافها وأهميتها ومنهجها. وأما العناوين المكونة لمتنها فهي:

- 1- أبو محمد القاسم السجلهاسي وأبرز روافده الثقافية.
- 2- مقدمة كتاب المنزوع البديع وقضية التنظير المتفرد للمصطلح البلاغي.
- 3- قراءة منهجية في كتاب المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع.

4- خصيصات طريقة السجلهاسي في دراسة المصطلح الأسلوبية.

وأما خاتمة الدراسة فهدفت الى الإشارة إلى أهمية الانفتاح على كتاب المنزح البديع في تجنيس أساليب البديع بالنظر إلى أسلوبه في دراسة المصطلح الأسلوبية مع الدعوة لاستلهاام نفسه في التحليل وفي دراسة مختلف أساليب الإبداع الأدبي العربي قديمه وحديثه. وخصصت لأئحة المصادر والمراجع لذكر الوثائق العلمية التي عدت إليها.

أبو محمد القاسم السجلهاسي وأبرز مكوناته الثقافية:

أريد في هذه الفقرة أن أقدم إلى القارئ أبا محمد القاسم السجلهاسي صاحب المنزح البديع في تجنيس أساليب البديع، مع الحديث عن أبرز مكونات شخصيته العلمية. فصاحب المنزح هذا الذي كان حيا في سنة 704 هـ/1304م، هو أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري السجلهاسي، انتهى من تأليف كتابه في الحادي والعشرين لصف من السنة المذكورة (السجلهاسي: 1980، ص: 46-47)، من القرن الثامن الذي يعد العصر الذهبي في الدولة المرينية حضاريا وأديبا (ابن تاويت: 1982، ص: 83)، نظرا لتطور أساليب التعليم و استحكام مناهجه ب بروز المدرسة الفلسفية المغربية التي مثلها ابن خلدون، والمكلاطي، و حازم، و السجلهاسي، و ابن الأزرق، و هي مدرسة متفردة استلهمت عناصرها من مصادر متنوعة أندلسية و مشرقية و يونانية و محلية (السجلهاسي: 1980، ص: 43)، فإ هي عناصر ثقافة السجلهاسي؟ وما هي أهم روافدها؟ يتضح أن من أبرزها أنه تعمق في العلوم النقلية أساس العقلية العربية الأصيلة، و شارك في القضايا الدينية ذات الصبغة الفكرية العميقة (نفسه: 51)، و اطلع بمثل جرى على الثقافة الهيلينية، و الفلسفة الإسلامية، فكان الأستاذ الأكل و العالم الأوحدا الأفضل، و القدوة الصدر المتفنن (المتقن)، الأحنف (نفسه: 179)، الذي انتقى مكتبته النقدية من الفكر اليوناني و من التراث العربي و من الميراث التاريخي لسجلهاسية الشيء الذي كان بدوره عاملا مهما في رفع مثاليته الأخلاقية و نموذجيته العلمية، و التي باجتماعها مع ثقافته المتينة ساهمت في صنع البنية الكلية لكتاب " المنزح البديع" الذي اطلع علينا باتجاه علمي أكثر تحديدا و فهما للنظريات الأرسطية في النقد و البلاغة من سابقه و من لاحق (نفسه: 9)، و " جعل منه نظرية نقدية قائمة ناضجة نزع بخصائصها السجلهاسي منزعا لم يسبق به إلا عند حازم في مناجه، مع تفرد الواضح بأكثر من خاصية، و خصوصا في تصور المصطلح النقدي و بنية المنهاج (نفسه: 26)، و هي استنتاجات تين النواحي التي أحدث فيها السجلهاسي ثورته الصامته الخالدة في دنيا الدرس البلاغي العربي، و أسست نظريته الفلسفية بعد تخطيط علم البيان طويلا و تجزئه في غياب علم كلي يضبط قوانينه. هذا العمل التنظيري الكلي الذي انتخب السجلهاسي نفسه للنهوض به، متجها نحو تأسيس نظرية تشغل بالتأصيل، و تسعى إلى تكوين تصورات

مترابطة تحدد مفهوما للشعر و النثر، في رؤية عضوية للتداخل المستمر بين النظري و التطبيقي (الغازي:1999، ص:14-20)، فارتفع علم المدرسة الفلسفية المغربية في البلاغة و النقد، و قطبها الإمام، وصانع مرجعيتها التي تنظر إلى البديع أو علم البديع نظرة ترادفية و تكاملية و تراجمية، عما آلت مصطلحات هذا العلم نحو نظرة القدماء الموحدة في بنية النص الأدبي، فهي ترادف البلاغة في شمولها، و ترجع إلى نظرة الجاحظ الكلية للبلاغة، كما أنها تتكامل في الأسلوب مع كل مصطلحات البلاغة و الفصاحة (نفسه:491).

مقدمة كتاب المنزح البديع وقضية التنظير المتفرد للمصطلح البلاغي:

افتتح السجلماسي كتابه بقوله: " و بعد، فقصدنا في هذا الكتاب الملقب بكتاب " المنزح البديع في تجنيس أساليب البديع" إحصاء قوانين أساليب النظم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعية لعلم البيان، و أساليب البديع، و تجنيسها في التصنيف، و ترتيب أجزاء الصناعة في التأليف، على جهة الجنس و النوع، و تمهيد الأصل من ذلك للفرع، و تحرير تلك القوانين الكلية و تجريدها من المواد الجزئية بقدر الطاقة (....)، فنقول إن هذه الصناعة الملقبة بعلم البيان، و صنعة البلاغة و البديع، مشتملة على عشرة أجناس عالية، وهي: الإيجاز، و التخيل، و الإشارة، و المبالغة، و الرصف، و المظاهرة، و التوضيح، و الاتساع، و الاثناء، و التكرير" (السجلماسي:1980، ص:180)، و بهذه الرؤية يحتفظ لنا التاريخ بكتاب فريد في موضوعه و منهجه و لغته و قوة إدراك صاحبه و تمثله للاتجاه اليوناني، و أعمق ما في العربية و تراثها العلمي و الأدبي و الفلسفي (الغازي:1985، ص:390)، لأن السجلماسي يهدف إلى إحصاء قوانين أساليب النظم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعية لعلم البيان و أساليب البديع، في اللغة العربية، صرخة أرسطو قبل الميلاد إذن " لا علم إلا في الكليات" تعود من جديد لتوظف هذه المرة في بنية الأساليب العربية، و توجه في ذلك كل الثقافات العقلية و الأدبية اللغوية لخدمة المنهج الجديد بفضل المنطق الفلسفي و المنطقي (نفسه:392)، و قد اشتملت هذه الصناعة في هذا المنهج الجديد في بنية المنزح البديع على عشر أجناس عالية تتحدر منها، و تتفرع عنها مصطلحات أسلوبية تبدو أعدادها من خلال التشجير العلمي لمصطلحاته و مفاهيمه على النحو التالي:

1- الإيجاز: 19 مصطلحا.

2- التخيل: 09 مصطلحات.

3- الإشارة: 15 مصطلحا.

4- المبالغة: 70 مصطلحا.

5- الرصف: 07 مصطلحا.

6-المظاهرة: 17 مصطلحا.

7-التوضيح: 03 مصطلحات.

8-الاتساع: 03 مصطلحات.

9-الائتناء: 15 مصطلحا.

10-التكرير: 31 مصطلحا.

إذ تبلغ مصطلحات الأجناس العشرة 189، و هي مجموع أدوات الصناعة لنظرية النقد الأدبي التي أسسها السجلهاسي (السجلهاسي: 1980، ص:31). وتفعيل هذه الشبكة المفاهيمية داخل الدرس النقدي من أجل الوصول إلى اكتناه دقيق للأسلوب العربي في النصوص الأدبية عامة، و التراثية خاصة، يعيد إلى الواجهة الأساس الرئيس الذي بني عليه السجلهاسي نظريته النقدية باستناده للتكامل المنهجي بين التنظير و التطبيق في المادة الأدبية لتأصيل و تعويد بناها النقدية و البلاغية، تحقيقا لتذوق بلاغي سليم يعين الناقد على استخراج دلالات النصوص في سياقاتها و أساليبها الصحيحة و البحث في أنظمتها الداخلية و هندستها الجمالية، والواضح أن من شأن تسجيل هذه الملاحظات أن يدفعنا لقراءة منهجية لمضمون هذا الكتاب، قراءة فيها من الجديد إعادة وضعه بين يدي القراء تعريفا به، و بمنهجه في دراسة المصطلح النقدي، و أسلوب توضيحه، وصولا إلى قراءة في منهجيته في تحليل النصوص، وإبراز أهم خصائصها و مميزاتها، مع التلويح منذ البداية إلى أهمية حضور أدوات هذه الصناعة بأسسها النقدية والتحليلية في الدراسة الأدبية خطوة أساسية في تذوق الأدب العربي، و نصوصه التراثية خاصة.

قراءة منهجية في كتاب المنزغ البديع:

يبدو أن الإمام بمضمون المنزغ البديع يستدعي إعادة تجريده، ورده إلى هندسة مفاهيمه لإفراد كل جنس على حدة، اقتناصا للقلب النقدي و المعيار الأسلوبي النظري الذي وضعه السجلهاسي إطارا لصناعة فن القول و نقده، و يبدو أن ذلك لا يتم على الوجه الأكمل إلا بمعرفة دقيقة لمقصد السجلهاسي و منهجيته، فمقصده يمثل في الرغبة في وضع قواعد الأسلوب الأدبي العربي على شاكلة قواعد العروض و القافية لدى علماء موسيقى الشعر، و قواعد النحو لدى علماء اللسان، و قواعد المعاني لدى فقهاء اللغة، بينما منهجيته فتزعم منزعا بيداغوجيا غايته الإفهام و الإقناع بالأدلة و الحجج، و أساليب التوصيل الممكنة لشرح النظرية الجديدة، وبناء على ذلك فإن القارئ يصادف في أول لقاء بالمنزغ البديع خطوتين نظريتين في دراسة المصطلح الأسلوبي هما أولا: الموطئ و ثانيا الفاعل، و هما ينتميان للحقل البيداغوجي قيمتهما إجرائية بالدرجة الأولى، لخلق التقارب بين القارئ و المادة النقدية المعروضة في ثوبها الجديد، و هي قادرة في شكلها المنهجي الخارجي أن تزوده بمتعة أدبية، و بفلسفة عميقة في دراسة

الأساليب العربية وفق خطة محكمة تمكن الاستفادة منها في جميع فروع دراسة النص العربي قديمه وحديثه، كما أن هاتين الخطوتين بوظيفتهما هاته تهدفان إلى التخلص من فوضى التشتت المصطلحي الأسلوبي، وإثبات نظام قانوني متعارف عليه في البناء الداخلي للغة العربية الفصيحة، وتضع بذلك صناعة نظرية تحكم أساليب النظم كما هو الشأن في الصناعات الأخرى التي عرفت ضوابط كلية تؤول إليها، وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أهمية مواصفات الموطيء لا تنفصل عن التداخل والترابط العضوي بحقيقة حد الفاعل ووظيفته على الرغم من الانتقال البين بين المرحلتين، إذ أن السجلهاسي يعرض للمصطلحات بين الموطيء الذي يقدم الإطار العام لعلاج الإشكالات المعرفية التي تحيط بالمصطلح قبل ولوج المرحلة النظرية التي يدخلها قانونا أسلوبيًا، ومن أمثلة ذلك قول السجلهاسي في التوطئة لجنس الإيجاز: و موضوع اسم الإيجاز الجمهوري مقول بمعنى الاختصار مرادف له، صاحب العين: أوجزت في الأمر: اختصرت وأمر وجيز (نفسه:181)، وعن الاستعارة من جنس التخيل فهي مثال أول من استعار من العارية، مصوغ لأحد موضوعات الاستفعال، وهو الطلب ها هنا، فهذا هو موضوعها الجمهوري (نفسه:235). و عن مصطلح التحليل فهو: " اسم مثال أول لقولهم: حلل و محلل: فرق بين أجزاء ملتزمة، فلذلك ما هو خليق أن يلحق الشك في قول اسم التحليل على هذا النوع من جنس الرصف من قبل أنه قد كان - وفي قول جوهر الرصف في وضعي الجمهور والصناعة، بمعنى ما يدل عليه اسم التأليف و التركيب، و هو شك يمكن التحرز منه وإزالته بسهولة، و ذلك بصرف التناقض إلى جهتي تحليل الجملة، و رصف الأجزاء التي حلت إليها من بعد (نفسه: 353)، و على هذه الشاكلة يوطيء السجلهاسي للمادة المصطلحية المجردة في قالبها الأسلوبي الخاص بمجال فن القول الجميل، مهتمًا في أثناء ذلك بالإشكالات اللغوية في الاستعمال الجمهوري، موضعا إياها بأقوال اللغويين البارزين، متخذًا من الإيجاز أحيانًا و الإسهاب حينًا آخر طريقًا في صنع الموطيء و تقريبه من الأفهام، مع ملاحظة أولى أن السجلهاسي " لم تسيطر عليه اللغة رغم تضلعه فيها، و ملاحظة ثانية أن قضايا الموطيء المعرفية لا تمت بصلبة عميقة لمضامين الفاعل الذي يتناول الجانب التأصيلي للمصطلح في شطريه النظري و التطبيقي، حيث أن هذه المصطلحات قد انتقلت من ذلك المعنى الجمهوري، أو من كونها في صناعة من الصناعات إلى صناعة علم البيان، فإن الإيجاز " منقول إلى هذا الجنس من علم البيان على سبيل نقل الاسم من المعنى الجمهوري، إلى المعنى الناشئ في الصناعة الحادث فيها، و سبيل النقل العناية في ذلك بأن يكون المعنى المنقول إليه ملاقيا للمعنى المنقول منه، إما لمشابهة المعنى الصناعي للمعنى الجمهوري مثل الزمام المستعمل في صناعة الكتابة و زمام البعير، و إما لتعلقه به بوجه آخر من وجوه التعلق مثل أن يسمى الشيء في الصناعة باسم فاعله عند الجمهور أو غايته أو جزئه أو عرض من أعراضه، و جهة الالتقاء

هنا المشابهة، إذ كل واحد منهما حذف فصول وتقريب فصول" (نفسه: 181). وهذا هو النظام الذي تأسست عليه الأجناس العشرة التي تتحكم في شبكة المصطلحات التي تكون نظرية السجلهاسي، ويبدو فيها أنه لم يغفل الجانب التطبيقي في عمله التنظيري، فكان عمله متكاملًا متداخلًا محققًا الانسجام المنطقي بين النظري والتطبيقي في النقد والبلاغة. ويبدو أنه قبل أن نطرح السؤال حول قضية دور المنزع البديع في القراءة الأدبية، علينا أن نتساءل عن خصيصات طريقة السجلهاسي في دراسة المصطلح الأسلوبي في هذا الكتاب، وعن المراحل التي خطاها السجلهاسي بالمصطلح النقدي والبلاغي في عمله التنظيري هذا؟ وما هي الخطوات المنهجية التي اتبعها؟ ذلك أن كلمة منهج - تشير إلى الطريق الواضح التي يسلكها الدارسون في أعمالهم من أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية الموضوعية الشاملة، فما هي إذن خصيصات هذه الطريقة المعتمدة في دراسة المصطلح؟ وما هي الاستنتاجات العلمية التي يمكن أن نستنبط من خلال تتبع مراحلها؟

خصيصات طريقة السجلهاسي في دراسة المصطلح الأسلوبي:

اتضح مما سبق أن السجلهاسي عالج كل مصطلح بلاغي من خلال مصطلحي الموطئ والفاعل، فمصطلح الموطئ إشكالي يقدم الإطار العام لعلاج الإشكالات التي يمكن أن تعترض المصطلح البلاغي قبل تنقية الطريق أمام المصطلح الثاني وهو الفاعل الذي يمثل أرضية عرض المصطلح المدروس ومناقشته وخدمته بالنظر والتطبيق والعلوم المعتمدة في سياق دراسته لغة أو نحوًا أو صرفًا دون التخلي عن علمين أساسيين هما المنطق وضمنه التصور أو المعرفة الفلسفية ثم البلاغة والنقد من خلال آراء النقاد والبلاغيين والفلاسفة بحكم سعيه إلى خدمة النظرية البلاغية بتلك العلوم في إطار التصور الفلسفي، وبأدوات المنطق وبمادة البلاغة وعلوم اللغة... والتراث الأدبي. وهكذا نجد أن السجلهاسي يعرض في الموطئ المعنى المعجمي للكلمة كما يبدو ذلك من خلال نماذج من الكتاب، ففي جنس الإيجاز نجده يعرض هذا المصطلح أو لا في مدخل توضيحي يقول فيه: "وموضوع اسم الإيجاز الجمهوري مقول بمعنى الاختصار مرادف له. صاحب العين، أو جرت في الأمر: اختصرت، وأمر وجيز (نفسه: 181)، وعن الاختزال يقول "واسم الاختزال مثال أول افتعال من خزله يخزله قطع وسطه نخزل خزلا، في وسطه خزلة: ذهاب سنام، وهو الأخرزل والخزول (نفسه: 186)، وعن مصطلح التحليل فهو "اسم مثال أول لقولهم: حلل ومحلل: فرق بين أجزاء ملتئمة، فلذلك ما هو خليق أن يلحق الشك في قول اسم التحليل على هذا النوع من جنس الرصف من قبل أنه قد كان - وفي قول جوهر الرصف في وضعي الجمهور والصناعة - بمعنى ما يدل عليه اسم التأليف والتركيب وهو شك يمكن التحرز منه وإزالته بسهولة، وذلك بصرف التناقض إلى جهتي تحليل الجملة ورصف الأجزاء التي حلت إليها من بعد (نفسه: 353).

وبعد فهذه بعض النصوص التي عرضناها لنبين بعض جوانب الخطوة الأولى في دراسة المصطلح البلاغي في منهج السجلماسي، وقد لا حظنا في هذه المرحلة أنه يهتم ببعض الإشكالات اللغوية التي تعود إلى وضع الكلمة في الاستعمال اللغوي الجمهوري، وإلى بعض ما يعود إلى اشتقاق الكلمة، و كل ذلك في اختصار واضح وإيجاز غير محل معتمدا على بعض أهل اللغة مشيرا إلى أسمائهم أحيانا ، غير أنه لم تسيطر عليه اللغة رغم تضلعه فيها لأن هدفه كان أبعد من الوقوف على شواردها وتبع معانيها كما فعل بعض معاصريه من أصحاب التيار العربي الصرف كالقاضي السبتي و الثعالبي الفاسي" (نفسه: 109)، والمقصود في هذا السياق تكابا رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة لأبي القاسم القاضي محمد بن احمد الشريف السبتي 760 هـ ، و شرح بديعية الحلي لأبي عبيد الله الثعالبي الفاسي 789 هـ ، ولا يعني هذا أن السجلماسي قد اتخذ الوقوف عند الكلمة وقوفا قصيرا نهجا متبعا في هذه المرحلة، فان الموطئ يقوم أحيانا بدور هام يتحدد فيه المعنى الخاص الذي يقصده السياق إذا تعددت معاني الكلمة /المصطلح، كما في موطئ مصطلح التضمين من جنس الإيجاز: "التضمين والموطئ من أولية مثالية الاسم، و مقوليته بمعنى الإيداع في الضمن، بين بذاته، لكن الموطئ من بيان اشتراك اسم التضمين أو تشكيكه في هذه الصناعة - مفتقر إلى البيان : أما أولا : فللعلم بذوات المعاني المقول عليها الاسم، و أما ثانيا فلها تقرر في النظريات من الوصاة بأنه متى قصدنا إلى تصور المعنى المدلول عليه بالاسم المشترك أو المشكك، فينبغي أن نقسم الاسم إلى جميع المعاني التي يدل عليها، ونلخص المعنى المقصود منها، ونطلب تصوره بما يخصه، وإلا غلطنا فأخذنا المعاني الكثيرة على أنها معنى واحد، فنقول إن اسم التضمين مقول على ثلاثة معان : أحدها : افتقار البيت إلى غيره مما قبله أو بعده، والجمهور على ثلثه وعده من معاني الشعر، وذهب أبو الحسن فيما حكى عنه أبو علي في التذكرة إلى جوازه من غير قبح محتجا بما ورد عليه لفحول الشعراء كحسان وغيره كقوله :

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أوطم غض من التفاح لعصره اجتناء

وكقول الآخر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

وكثرته خارجة عن الإحصاء و المعنى الثاني : قصدك البيت أو القسم منه فتأتي به في آخر شعرك كالتمثل به كقول كشاجم.

يا خاضب الشيب و الأيام تظهره هذا شباب لعمر الله مصنوع

ذكرتني قول ذي لب وتجربة
 إن الجديد إذا ما زيد في خلق
 ومن أبداعها قول أبي فراس الحمداني :
 وكم من ليلة لم أرومها
 عسفت بها عواري الليالي

في مثله لك تأديب وتوزيع
 تئين الناس أن الثوب مرقوع
 حننت لها وأرقني ادكار
 أحق الخيل بالركض المعار

(٠٠٠)، والمعنى الثالث وهو المقصود في هذا الموضوع (نفسه: 210 - 212) ..وهنا نرى خروج السجلماسي عن الإيجاز الذي اعتاد أن يتبعه في الموطئ، وقد لجأ إلى ذلك لأنه رأى أن معاني الكلمة متعددة تحتاج إلى مزيد من تحديد المعنى الخاص وتجليته مع إيراد الشواهد الشعرية التي تؤيد ما يسوقه من المعاني الخاصة قبل أن ينتقل إلى تحديد الفاعل أو القانون. وهكذا يبدو أنه انطلاقاً من هذه النصوص وغيرها التي تعرض للموطئ نستطيع أن نستنتج بعض مواصفات مراحل طريقة السجلماسي التي التزم بها من أول الكتاب إلى آخره - في معالجة مصطلحات البلاغة والنقد التي تتحرر لأول مرة في تاريخ البلاغة العربية من فوضى التقسيم الذي عرفته البلاغة العربية قبل وبعد مفتاح السكاكي. ولعل المتابع لهذه المرحلة يمكن أن يستنتج الكثير من الخصائص المنهجية التي تطبع هذا التعامل المنهجي، فالموطئ مقدمة للفاعل، وهي مقدمة موجزة تتناول الجانب اللغوي والاشتقائي للكلمة واستعمالها في عرف اللغة، وهي كذلك مقدمة مليئة بالإشارات والتوجيهات العلمية تظهر تمكن الرجل من العلوم اللغوية والخلافات العلمية فيها، كما تظهر أن الرجل بإمكانه أحياناً مخالفة آراء أصحاب هذه العلوم والمعارف، لأنه اهتدى إلى حقيقة غابت عن هؤلاء أو أن ضيق مذاهبهم جعلهم لا ينتبهون لذلك، كما تظهر تمكن الرجل من العلوم الفلسفية والمنطقية، وهو تمكن ينطبع على مستوى الألفاظ المستعملة أحياناً في الموطئ، وعلى مستوى الأسلوب نفسه المتبع في هذه المقدمة، من إيجاز غير مخل ودقة في المعلومة ومعرفة الغاية من إيراد موطئ ما، وعدم إيراد آخر، أو بالاكْتفاء بالإشارة إلى بيانه ووضوحه، وأنه لا داعي إلى شرحه وتفسيره. وقد رأينا أيضاً أن الموطئ باعتباره مقدمة للفاعل قد خرج أحياناً عن مميزاته المعهودة، ليتسع لكل ما يتعلق بالكلمة، وذلك لأن الحقيقة العلمية تفرض ذلك، مثلما تفرض عدم الحاجة إلى الموطئ أحياناً أخرى. وعلى العموم فهذه هي الخطوة الأولى في طريقة السجلماسي في معالجة المصطلحات تدل على كثير من الدقة المنهجية التي يمتاز بها، كما تبرز أنه يهدف إلى هدف علمي واضح يقوده في تأليف الكتاب، ولذلك لم يخضع للإشكالات اللغوية والمعجمية والخلافات المذهبية، بل تحرى الدقة العلمية، لا يحابي أو يمالي، مخالفاً الآراء التي لا تسير رؤيته العلمية، كما في عرضه لموطئ "التكرير" (نفسه: 476)، وبهذا الإجراء يقدم السجلماسي خطوة منهجية أساسية في عرض

المصطلح الأسلوبي في مرحلته الأولى قبل أن ينتقل إلى مرحلة التخصيص و هي المرحلة الرئيسة. والملاحظ كذلك هو أن السجلهاسي قبل أن ينتقل إلى مرحلة القانون، حيث يقوم المصطلح البلاغي بنفسه في صناعة البلاغة يتبع انتقال بعض المصطلحات من المعنى الجمهوري أو من كونه في صناعة من الصناعات إلى صناعة علم البيان، ومن النصوص التي تين هذه الخطوة المنهجية ، ما جاء في قوله في مصطلح الإيجاز أنه "منقول إلى هذا الجنس من علم البيان على سبيل نقل الاسم من المعنى الجمهوري إلى المعنى الناشئ في الصناعة الحادث فيها، وسبيل النقل العناية في ذلك بأن يكون المعنى المنقول إليه ملاقيا للمعنى المنقول منه، إما لمشابهة المعنى الصناعي للمعنى الجمهوري مثل الزمام المستعمل في صناعة الكتابة وزمام البعير، وإما لتعلقه به بوجه آخر من وجوه التعلق مثل أن يسمى الشيء في الصناعة باسم فاعله عند الجمهور أو غايته أو جزئه أو عرض من أعراضه، وجهة الالتقاء هنا المشابهة، إذ كل واحد منهما حذف فصول وتقريب فصول (نفسه:181)، وأن مصطلح الاختزال... منقول إلى هذه الصناعة كما نقل في صناعة العروض إلى هذه الصناعة إلى الزحاف الذي هو سكون الثاني وسقوط الرابع من متفاعله، وكلاهما على نهج نقل الاسم من الوضع الجمهوري إلى الوضع الصناعي، و لا التفات إلى الوضع الجمهوري بعد (نفسه:186)، وأما عن مصطلح الاستعارة و انتقالها من الاستعمال الجمهوري إلى الاستعمال الصناعي فيقول إن الاستعارة مثال أول من استعار من العارية وأنه "نقلها أهل صناعة البلاغة وعلم البيان إلى نوع من التخيل على سبيل نقل الأسماء المشهورة الجمهورية إلى المعاني الناشئة في الصنائع والأمر الحادثة فيها، وهو أسهل عليهم من اختراع الاسم لها (نفسه:235)، وقال عن مصطلح الرصف "... ثم نقل إلى علم البيان على سبيل نقل الأسماء الجمهورية إلى الصنائع الحادثة والمعاني الناشئة فيها من أجزاءها المناسبة موجودة بين المعاني الجمهورية والصناعية (...). إلا أن المعنى الجمهوري منهما أعم وصفا والصناعي أخص، فلذلك فلينبغي في مثل هذه الأسماء أعني المنقولة- ألا يلتفت فيها إلى دلالتها الجمهورية عند استعمالها في الصنائع" (نفسه:337) حيث يبدو من خلال هذه النصوص مواصفات خطوة جديدة في تحديد طريقة السجلهاسي في دراسة المصطلح، وهذه الخطوة تصف انتقاله من حقل معرفي إلى آخر إذ يشير إلى انتقال بعض المصطلحات من حقل الاستعمال الجمهوري إلى الاستعمال الصناعي أو من حقل استعمالها في صناعة من الصنائع كصناعة العروض إلى صناعة أخرى مشيرا إلى أمور نسجل من بينها أن هذا النقل عند أهل الصنائع هو أسهل من اختراع الاسم لها لأن الانتقال من استعمال ما إلى الاستعمال الصناعي ينفي المرحلة الأولى ، فبمجرد نقل للكلمة إلى المرحلة الصناعية يجب ألا يلتفت مرة أخرى إلى دلالتها الجمهورية، على الرغم من أن بعض الكلمات قد لا تتغير في دلالتها عن ما وضعت في الأصل له أوفي استعمالها الجمهوري، كما هو الشأن في مصطلح الغلو

الذي "نقل من ذلك الحد إلى علم البيان على ذلك الاستعمال و الوضع..(نفسه:273)، كما تتضمن هذه النصوص الأسباب التي تسوغ هذا النقل وهي إما " علاقة المشابهة بين الاسمين إما في الشكل، أو في المضمون الصناعي أو الجمهوري نفسه كأن يسمى الشيء باسم فاعله عند الجمهور أو غايته، أو جزئه، أو عرض من أعراضه(نفسه:111)، و اما يتجاوز الاستعمال الجمهوري في موضعين: أولاً إذا برهن نقله إلى صناعة أخرى على صلاحية استعماله فيها شكلاً فقط، كصواب انتقال الاختزال " إلى هذه الصناعة كما نقل في صناعة العروض... و ثانياً إذا كانت علاقة المشابهة بين الاستعمالين لا تؤدي المدلول الصناعي كأن يكون " المعنى الجمهوري أعم و صفاً، و الصناعي أخص فينبغي تجاوز دلالاته الجمهورية"(نفسه:111)، ومن خلال هذا وغيره يستنتج أن السجلهاسي استطاع أن يكون واضعاً للمصطلحات، فواضع المصطلح لا بد أن ينطق " في تحديد المصطلح من الأصل اللغوي للكلمة فالاستعمال الجمهوري الشائع حتى لا يكون هناك انفصال بين الوضع و الاستعمال عند اللغويين المنظرين و عند سائر الناس الممثلين للجمهور"(نفسه:111)، وبذلك يصل السجلهاسي إلى مرحلة التنظير، حيث يضع المصطلح و يحدده نظرياً، و يأتي له بالشواهد من النثر و الشعر، مؤكداً على أن النظرية التي قام لتأسيسها، نظرية متكاملة، وتشير النصوص التي تمثل هذه المرحلة إلى أنها مرحلة حبلية بالخصائص المنهجية، و سنأخذ الجنس الأول من أجناس علم البيان، و هو جنس الإيجاز مجالا لتتبع منهج الرجل في هذه المرحلة دون أن نغفل الرجوع الى المصطلحات المتفرعة عن الأجناس الأخرى، فبعد أن حدد مصطلح الإيجاز تحديداً أولياً في مرحلة الموطئ يوضح السجلهاسي أن فاعله هو" قول مركب من أجزاء فيه مشتملة بمجموعها على مضمون تدل عليه من غير مزيد، و قال قوم:" هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف"، و اسم الإيجاز هو اسم لمحمول يشابه شئ شيئاً في جوهر مشترك لهما محمول عليهما من طريق ما هو حمل تعريف الماهية، و المحمول كذلك هو الجنس، فذلك هو جنس عال تحته نوعان: أحدهما: المساواة، و الثاني: المفاضلة، و ذلك أن الأفاويل - و بالجملة - فقط اللفظ - للمعنى المدلول عليه به، و مطابقته له، و هذا النوع، و إن كان نوعاً يسوق إليه التقسيم، فهو مرذول غير معرج في الدلالة عليه، و لا مرجوع في العبارة إليه، و هو المسمى في نهج النقد فضلاً وهدراً و الحشو الفارغ، و هو مما يعد في أسباب استغلاق القول، و لذلك لم نحفل به، فلم نضع له مع قسيمه شركة أصلاً، فلا باب له يخصه بوجه، و خصصنا الآخر باسم المفاضلة و هو النوع الثاني، فذلك هذا الجنس - كما قلنا - تحته نوعان: الأول: المساواة و الثاني: المفاضلة"(نفسه:182)، حيث يبدو من هذا كيف انتهى السجلهاسي إلى بيان حقيقة الإيجاز مستعينا في ذلك بمعرفته الفلسفية و المنطقية على مستوى اللغة المستعملة و في التقسيم و التفريع، و في إخراج بعض فروع هذا التقسيم كما نجد في قوله:

"... وربما فضل اللفظ على المعنى، وهذا النوع، وإن كان نوعا يسوق إليه التقسيم، فهو مرذول غير معرج في الدلالة عليه (نفسه: 182)، لكي ينتهي أخيرا إلى الهدف الذي يسير نحوه، وهو تفريع المصطلح إلى مصطلحين أو نوعين: المساواة والمفاضلة، لكنه لا يقف في هذه الخطوة المنهجية، لبيان الموطئ، بل ينتقل مباشرة إلى فاعل المساواة وقانونها الذي هو "قول مركب من أجزاء فيه مساواة لمضمونها مطابقة له من غير زيادة ولا نقصان. وهذا النوع هو من الدلالة في المرتبة العالية و الطبقة الرفيعة، فإن الألفاظ بما هي ذوات معان، والمعاني بما هي ذوات ألفاظ، ينبغي لكل منهما أن يكون طبقا للآخر، وإن أمكن إمساس اللفظ شبه المعنى فهو أتم وأفضل" (نفسه: 183). ولم يكتف السجلماسي بالتنظير لمصطلح المساواة، بل إنه يوثقه بالتمثيل له بقوله "ومثاله قول الخليل في قول العرب صر الجندب، وصرصر البازي كأنهم توهموها في صوت الجندب استطالة فقالوا: صروا، فدوا، وتوهموها في صوت البازي تقطيعا فقالوا صرصر"، وفي المصادر التي جاءت على الفعلان أنها للاضطراب والحركة كالنزوان والغليان والهيمان فقابلوا بتوالي حركات المثل حركات الأفعال، وهو شرط في اللغة بطين، وإن كان ليس بشرط صحة بل شرط كمال، ومن صور هذا النوع في القرآن كثير كقوله عز وجل: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحداً"، وكقوله تعالى: "إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شائتك هو الأبت"، إلى غير ذلك مما لا يعد. (٠٠٠)، فهذه أقاويل ليس بفضل معناها على لفظها، ولا لفظها على معناها شيئا، والصور الخاصة الواقعة تحت الأقاويل العامة، والقواعد الكلية ليست تتحصر، فليكتف بهذه المثل من هذا النوع" (نفسه: 185)، الشيء الذي يبين أن السجلماسي يؤكد نظريته بالشاهد التطبيقي، منها على أن الصور الخاصة والشواهد المجسدة للقانون ليست تتحصر، بل حسبه الإيضاح فقط لا الاستقصاء. وأما فاعل المفاضلة وهو النوع الثاني من القسمة فهو "قول مركب من أجزاء فيه مساواة لمضمونها ناقصة عنه، والمفاضلة جنس متوسط تحته نوعان أحدهما: الاختزال، والثاني: التضمين وذلك لأنه لا يخرج أحد جزئي القول من القوة إلى الفعل، وهو من معه و بصدده، أي شأنه أن يصرح به، وهذا هو النوع الثاني المدعو التضمين، فلذلك هذا النوع هو جنس متوسط تحته نوعان الأول: الاختزال، الثاني: التضمين" (نفسه: 186)، ثم عرض لمصطلح الاختزال موضحا أن فاعله و"هو قول مركب من أجزاء فيه مشتملة بجملتها على مضمون تنقص عنه بطرح جزء منها شأنه أن يصرح به، وهو جنس متوسط تحته نوعان: أحدهما الاصطلام وذلك إن كان الحذف في عمده القول..، والثاني: الحذف إن كان الحذف في فضلاته" (نفسه: 187)، ثم تابع السجلماسي دراسته لهذا المصطلح حيث قسمه و حدد معطيات قانونه، مبينا أن فاعل الاصطلام "هو قول مركب من أجزاء فيه مشتملة بجملتها على مضمون تنقص عنه بطرح جزء منها هو عمدة أو في حكم العمدة في

الاقتران لإفادة ذلك المضمون، وهو جنس متوسط تحته نوعان: أحدهما: الاكتفاء، والثاني، الحذف المقابل أو الاكتفاء بالمقابل (نفسه: 189)، ثم واصل تقسيم المصطلح إلى نوعين تقتضيهما الصناعة النظرية، ففاعل الاكتفاء هو "قول مركب من جزئين فيه مرتبطين، ترك منهما للدلالة عليه جزء شأنه أن يصرح به، وقد نرسمه أيضا بما هو الاجتزاء من احد المرتبطين بالثاني. والارتباط على خمسة أنحاء و هي: الارتباط الوجودي، والارتباط اللزومي والارتباط الخبري، والارتباط الجوابي، والارتباط العطفی، وهذه ترد في المواد بسيطة، وترد مركبة، و شرط الاختزال الذي هو جنس متوسط بالجملة اكتفاء، أو حذفًا مقابليًا، وغيره، شرط الصحة فيه الموسوغ له، هو قطع الدلالة على المختزل المتروك حيث الحذف أجزل مبنى، وأشرف مقطعا وأنه دلالة، وأشد مبالغة، وأفصح لفظا. والدلالة القاطعة في هذا النحو من النظم ضربان: سياق، وإضافة (....) فدلالة هذا النوع الأول المدعو اكتفاء هي مركبة من دلالاتي إضافة و سياق: أما الإضافة فالدلالة المقتضية بالجملة أن ها هنا مضافا قد انجر في الذهن مع المضاف الملفوظ به، وهما المرتبطان في القول المنطبق عليهما حد المضافين من جهة النحو الذي أخذًا مرتبطين منه، ودلالة حرف الشرطية المقتضية الربط الاتصالي، أو غير ذلك من القرائن اللفظية والأدلة المقالية، وأما السياق فالدلالة القاطعة على المحذوف، الناصة عليه، المبرزة لتقديره الشخصي أو لتقديره الواحد بالنوع المنزل منزلة الشخصي من القوة إلى الفعل. ومن صور هذا النوع قوله عز وجل: "ولو أن قرآنا سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى" كأنه قال "لكان هذا القرآن" وقوله عز وجل: "كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم" كأنه قال: "لأقلعتم عن باطلكم"، أو لتحققتم مصداق ما تحذرونه، وما هو نحو ذلك مما تقطع الدلالة عليه، وقوله عز وجل: "و سيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاؤوها و فتحت أبوابها"، فالجواب أيضا محذوف، وإنما يحذف الجواب في مثل هذه الأدوات المقتضية الجواب لقصد المبالغة، لأن السامع يترك مع أقصى تخيله بتقديره أشياء لا يحيط بها الوصف، وذلك حيث يسوق السياق إلى معنى واحد يقع على أنحاء كثيرة، و وجوه متعددة، و آخذة بالنوع، ولأخذ بعضها بدل بعض في زمن كأنها تقع فيه دفعة يحار الوهم ويعظم التخيل لها بذلك، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به المعين فلا يكون له ذلك الوقع و تقديره في الآية "حتى إذا جاؤوها و فتحت أبوابها" أي و قد فتحت، و الواو واو الحال... (نفسه: 192)، ثم انتقل السجلماسي إلى النوع الثاني أي [الاكتفاء بالمقابل، فصدره بإضاءة كالآتي: "النوع الثاني من النوع الأول المسمى اصطلاما من النوع الأول المسمى اختزالا من النوع الثاني المسمى مفاضلة من الجنس العالي المسمى بالإيجاز" (نفسه: 195)، ثم حدد قانونه العام، كاشفا عن مقدرة عالية في التحليل تدل على تمكنه من المادة العلمية التي يتصرف فيها، فالفاعل في الاكتفاء بالمقابل

" هو القول المركب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأول منها إلى الثالث كنسبة الثاني إلى الرابع، أو ما كانت النسبة فيه كمنحو ذلك، فاجتزئ من كل متناسبين بأحدهما لقطع الدلالة مما ذكر على ما ترك، وقولنا في الفاعل أو ما كانت النسبة فيه كمنحو ذلك، لنحوي به ما كان نسبة الأول فيه إلى الثاني كنسبة الثالث إلى الرابع (كما) في بعض صور هذا النوع أقل ذلك، والأول أكثره وأعمه. وهذا النوع بالجملة هو من القول الجميل ذي الطلاوة والبهجة والماء والعدوبة (....) لما بين أجزائه من الارتباط، لما للنفس الناطقة من الالتذاذ بإدراك النسب والوصل بين الأشياء، ثم بإبراز ما في القوة من ذلك إلى الفعل، وبالشعور به، فلذلك توفر عليه من المزية ما تراه يبين به سائر النظم، ومن صور هذا النوع قوله عز وجل: "أم يقولون افتراه، قل إن افتريته فعلي إجرامي، وأنا بريء مما تجرمون" فهذا قول مركب من أجزاء أربعة: نسبة الأول منها إلى الثالث كنسبة الثاني إلى الرابع، غير أن بعضها متروك لقطع دلالة ما بقي عليه، وتقديره برد المحذوفات منه إلى التصريح: "إن افتريته فعلي إجرامي وأتم براء منه، و عليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون" فنسبة قوله: فعلي إجرامي - وهو الأول - إلى قوله: "و عليكم إجرامكم" - هو الثالث - كنسبة قوله: "وأتم براء منه" وهو الثاني - إلى قوله: "وأنا بريء مما تجرمون" وهو الرابع - واجتزئ من كل متناسبين بأحدهما" (نفسه: 196)، وبعد أن أنهى السجلماسي حديثه عن مصطلح الاكتفاء بالمقابل سجل الإضاءة التالية التي تنبه على التفريعات الاصطلاحية (النوع الثاني من النوع الأول المدعو اختزالاً من النوع الثاني المدعو مفاضلة من الجنس العالي المدعو الإيجاز...)" (نفسه: 200)، وهذا النوع هو مصطلح الحذف، الذي حدد معطيات قانونه مشيراً إلى قابليته أيضاً للتقسيم إلى مصطلحي الإطلاق والانتهاك معللاً هذا التقسيم منتقلاً إلى مرحلة الدراسة حيث يقف عند مصطلح الإطلاق، ويعالجه بين الموطئ والفاعل، وما يتخلل ذلك من مراحل تخدم المصطلح بالنظر والتطبيق، منها على أنه ينقسم بدوره إلى نوعين هما مصطلحا الاخترام والإهمال، وتبعاً لمنهجه المعهود يحلل مصطلح الاخترام لينتقل إلى مصطلح الإهمال فيناقشه ويعرض الصور التطبيقية المؤكدة لفاعله، والذي يمثل القاعدة الكلية التي يهدف إلى توضيحها. وبعد ذلك وفي نسق منهجي محكم وهندسة دقيقة يعود إلى مصطلح الانتهاك الذي يحدد معطيات فاعله، مبيناً أن هذا المصطلح يقع تحته نوعان أحدهما ما يقع في تركيب الإضافة، والثاني: ما يقع في تركيب الصفة متناولاً بعد ذلك كل نوع من هذين النوعين وما ينقسمان إليه من مصطلحات بلاغية أخرى (نفسه: 204-217)، التي يناقشها وفق المنهج الذي اختطه أسلوباً واضحاً في دراسة مصطلحات نظريته الأسلوبية التي طرحها في كتابه "المنزغ البديع" الذي يفيد تتبع أجناسه العشرة، أن السجلماسي لم يحد عن خطوات منهجه مرة واحدة. ولعل في إيراد هذه النصوص، ما يشير بصورة إجمالية إلى طريقته في دراسة المصطلح انطلاقاً من أول

خطوة منهجية كبرى و هي الموطئ وما يتناول فيه من إشكالات وانتهاء بمرحلة الفاعل حيث يقوم بتحديد قانونه النظري كما يراه بلغته الفلسفية، ثم يعرض الصور التطبيقية التي أثبت بها القوانين النظرية، وما يتخلل ذلك من مناقشات علمية آمنة للنصوص، ومحاولات لآراء علماء البلاغة وغيرهم، هدفه الوصول إلى الحقيقة العلمية التي ينشدها، وهي "إحصاء قوانين أساليب النظم المشتملة عليها صناعة البديع... (نفسه: 204-217). إن التداخل المنهجي في شرح بنائية السجلماسي الأسلوبية يسير في هياكله الرئيسة على هذا المنوال، و كما حاولنا إيضاحه بأكثر من مثال حيث يؤدي التحليل للقاعدة الأسلوبية بواسطة المثال إلى إبراز مدى انطباقه عليها، ومدى قربه أو بعده عنها، كما أنه يربح لدى القارئ أسلوب البحث عن الأمثلة التي تتولد على شاكلة هذه المصطلحات الأسلوبية، حيث يكون قد أدرك مقاصدها في الأسلوب العربي، و أدرك كيفية استخلاص دلالاتها وفق السياقات المختلفة. إن التحليل الأسلوبية في كتاب المنزع البديع يقدم إمكانيات كبيرة للقارئ للتطبيق في مجال التحليل الأدبي للنصوص، تتميز بالجرأة العلمية في إخضاع مكوناتها الأسلوبية للقواعد البيانية التي انطلقت منها في إحدى مراحلها لتأدية وظيفتها الدلالية على أكل وجهه، بل إن التحليل الأسلوبية في هذا السياق يغدو خطوة ضرورية في قراءة المضامين والرؤية الجمالية للنصوص، إذ أن إدراك مفهوم المصطلح الأسلوبية في جوهره أولا و معرفة دلالاته في نسيج القول اللغوي في مختلف أنواعه يؤدي دورا كبيرا في الفهم السليم و التذوق الصحيح للكلام و سننه المتنوعة، و لهذا السبب ذاته جاءت الصورة التطبيقية في المنزع البديع متداخلة و مكلمة للقانون النظري شارحة له و مؤكدة مضمونه، و تهدف في النهاية إلى إقناع الجمهور الأدبي بجدوى الإنتاج النقدي للسجلماسي في مجال تأصيل الأساليب العربية، و ذلك ما كنا نقف عليه في جميع مضامين الكتاب متجسدا في الحيلة المنهجية، و الدقة المتناهية في البيان، و الابتعاد عن الإطناب في "إحصاء قوانين أساليب النظم المشتملة عليها صناعة البديع"، هذه النظرية التي بإمكانها أن تفسح المجال أمام الدارسين للقيام بالمقارنات بين المباحث الأسلوبية في كتاب المنزع البديع و نظيراتها عند علماء الأسلوب العربي، لاستنتاج عناصر تذوق جمال صناعة الكلام العربي في القديم، و إعطاء التصورات الممكنة عن القيمة العلمية التي يمكن أن تقدمها للدراسات الأسلوبية و النقدية المعاصرة إجمالا. و يبدو أن النظر إلى "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" بهذا المنظور، يساهم في خدمة توحيد مفهوم المصطلح الأسلوبية القديم بين كافة الاتجاهات و الدراسات المؤلفة في البلاغة العربية، فالمعجم في مدلوله العام كتاب يضم "أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها و تفسير معانيها على أن تكون المواد مرتبة ترتيبا خاصا إما على حروف الهجاء أو الموضوع، و المعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها و اشتقاقها و طريقة نطقها و شواهد تبين مواضع

استعمالها" (إميل يعقوب: 1981 ص: 9)، بينما في مجال التخصص فإن " المعاجم المتخصصة هي ما تناولت مفردات و مصطلحات علم أو مجال معرفة متخصص" (وجدي رزق غالي: 1971، ص: 8)، ولعل التأمل في بنية المنزع و شبكة مفاهيمه الأسلوبية يضع القارئ أمام صرح معجم بلاغي، هو أوج ما يكون إليه في القراءة الأدبية والجمالية للنصوص مثلما يحتاج في التحليل المعجمي للمعجم اللغوي لإدراك مختلف مدلولات الكلمة في السياق العربي، من جهة، و اشتقاقها و تطورها التاريخي، لأن الكاتب/الشاعر لا يكتب باعتباره عالما، وإنما هو يستخدم هذه الألفاظ لأن النزعات التي يثيرها الوضع الذي يوجد فيه ... تتألف على إيجاد هذه الصورة دون غيرها في وعيه، كوسيلة لتنظيم التجربة التي يعبر عنها بأسرها و للسيطرة عليها. فالتجربة ذاتها، أي أمواج الدوافع التي تندفع خلال العقل، هي التي تأتي بهذه الألفاظ و تعتمدها" (ديفيد ديتشس: 1967، ص: 212-213).

الخلاصة:

يبدو من خلال ما ذكرناه أننا حاولنا أن ننبه على أهمية مصدر من مصادر البلاغة العربية ضمن الإشارة إلى مكانة المدرسة الفلسفية المغربية في البحث البلاغي التي تمثل الروح التجديدية في الدرس اللغوي خلال مرحلة من مراحل الزمن الثقافي العربي كان طابعه المهيمن غياب روح الابتكار، والميل إلى الشروح ووضع الحواشي عليها، غير أن البحث يؤكد عكس ذلك باستحضار هذه الجهود التي قام بها علماء الغرب الإسلامي في دراسة الأسلوب العربي، وهو الأمر الذي جعلنا نعني بوصف البناء المنهجي في كتاب المنزع البديع لنستنتج دلائل التجديد في إحصاء أساليب اللغة العربية، وفي تفسيرها وتطبيقها، وفي هذا السياق يمكن أن نرى أن هذا الكتاب يمثل نموذجا يقدم البراهين المختلفة على وجود الأساليب البلاغية على وضع من الأوضاع مؤكدة أن التجربة الأدبية تقاس بتمكن القاعدة الأسلوبية من الإحاطة بمضامينها و دلالاتها، وقد اتضح أن قراءة دراسة السجلهاسي للأساليب توحى بكثير من الاستنتاجات لفهم البنى العميقة للمصطلحات الأسلوبية، وأهميتها في القراءة الأدبية والجمالية في إطار مفهوم المعجم البلاغي باعتباره يتضمن القواعد الأسلوبية للكلام العربي، و في ذلك مواصلة للعناية بنظرية السجلهاسي في إزاحة الفوضى و الاضطراب الذي عاش فيه المصطلح البلاغي خارج صناعة تحكمه كما حكمت مصطلحات النحو و اللغة و العروض و المنطق و علم الكلام و التفسير ... وهي صناعة دقيقة عرف بها كل علم، و نجح أكثر مما فعل البلاغيون مع صناعتهم بدون تصور محكم لما ينبغي أن تكون عليه (الغازي : مناهج النقد ص: 503).

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المصادر والمراجع:

- 1- إميل ،يعقوب، 1981، المعاجم اللغوية العربية، بدايتها و تطورها، بيروت، دار العلم للملايين .
- 2- ابن تاويت، محمد، 1982، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى،الدار البيضاء،دار الثقافة.
- 3- ديتسشس،ديفيد، 1967، مناهج النقد الأدبي بين النظرية و التطبيق، ترجمة محمد يوسف نجم، بيروت، دار صادر بيروت- نيويورك، مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر .
- 4- السجلهاسي،أبو محمد القاسم، 1980، المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي،الرباط، مكتبة المعارف.
- 5- الغازي،علال، 1999، مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن ،الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط-سلسلة أطروحات رقم: 42.
- 6- الغازي علال، 1985، المغرب في مواجهة الفكر اليوناني من خلال كتاب مغربي في النقد والبلاغة، مقال،الرباط، أعمال الندوة الثالثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- 7- وجدي، رزق غالي، 1971، المعجمات العربية - بليوغرافية شاملة مشروحة ،تقديم د. حسين نصار،القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر .

الرتبة في مكونات الجملة العربية

بين التفسير اللساني التوليدي والتفسير اللساني الوظيفي: دراسة مقارنة

the order of the components of the sentence Arabic Between generative linguistic interpretation and functional linguistic interpretation: a comparative study

الكثاني حميد، باحث في سلك الدكتوراه- كلية اللغات والآداب والفنون- جامعة ابن طفيل-المغرب

البريد الإلكتروني: hamid.elkettani@uit.ac.ma

الدكتور عبد الإله بوغابة، أستاذ اللسانيات والنحو والدلالة بكلية اللغات والآداب والفنون-جامعة ابن طفيل-المغرب

- الملخص:

تعالج هذه الدراسة موضوع تفسير ظاهرة العدول عن أصل الترتيب في رتبة مكونات الجملة الفعلية في اللغة العربية، وذلك من خلال مقاربتين، مقارنة لسانية توليدية، ومقارنة لسانية وظيفية، وقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج، منها: أنّ المقاربة اللسانية التوليدية التحويلية قدّمت تفسيراً يرى أنّ ترتيب الجمل يبدأ في مستوى البنية العميقة، وهي بنية ذهنية، ثم تمر الجملة عبر مجموعة من المكونات التي تروّز اشتقاقها، ثم تظهر في مستوى البنية السطحية، وتطرأ عليها تحويلات تُغيّر ترتيب مكوناتها وفق قيود تركيبية، خاضعة لقواعد مركبية، وقواعد تحويلية. في حين قدّمت المقاربة اللسانية الوظيفية، في إطار نظرية النحو الوظيفي المؤسس تداولياً، تفسيراً للعدول عن أصل الترتيب، يقوم على افتراض مستوى ثالث تُمثل فيه مكونات الجملة، وهو مستوى الوظائف التداولية؛ حيث يتم ترتيب مكونات الجملة وفق الوظائف التداولية التي تُسند إليها.

الكلمات المفتاحية: العدول - الرتبة - التفسير اللساني التوليدي - التفسير اللساني الوظيفي.

Summary:

This study deals with the subject of explaining the phenomenon of reversal of the origin of the order in the rank of the components of the actual sentence in the Arabic language, through two approaches, a generative linguistic approach, and a functional linguistic approach, and the study has reached a number of results, including: The generative linguistic approach transformative provided an explanation that sees that the order of sentences begins at the level of the deep structure, which is a mental structure, then the sentence passes through a set of components that derive it, then appears at the level of the surface structure, and changes occur Arranging their components according to structural constraints, subject to compound and transformative rules. While the functional linguistic approach, within the framework of the pragmatic theory of functional grammar, provided an explanation for the reversal of the origin of the order, based on the assumption of a third level in which the components of the sentence are represented, which is the level of deliberative functions, where the components of the sentence are arranged according to the deliberative functions assigned to them.

Keywords: Audul - Order - Generative linguistic interpretation - Functional linguistic interpretation.

■ - تقديم:

حظي مفهوم الرتبة في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة باهتمام كبير، غير أنّ ذلك الاهتمام لم يحقق الكفاية العلمية المرجوة منه، والمتمثلة في الوصول إلى حل نهائي للإشكال الذي يطرحه والحسم فيه، خاصة مع تطور اللغات، وتطور بنيات العدول عن أصل الترتيب فيها، ومنها اللغة العربية؛ حيث ظلت التفسيرات التي قدّمها العلماء تختلف باختلاف الخلفيات النظرية التي يصدر عنها كل عالم لغوي في أثناء مقارنته لموضوع رتبة العناصر اللغوية في الجملة العربية. إسهما في تعميق البحث حول هذه الإشكالية تسعى هذه الدراسة إلى ردم الهوة المعرفية بين المنجز النحوي العربي القديم والمنجز اللساني العربي المعاصر بخصوص ما تمّ تقديمه من اجتهادات تصفّ وتفسّر ظاهرة العدول عن أصل الترتيب، ولتحقيق هذا المسعى نطلق من الأسئلة الآتية: ما النظريات اللسانية المعاصرة التي عالجت تنوع الرتبة في اللغة العربية؟ وما التفسير الذي أتى به اللسانيون المعاصرون للتحويلات التي تطرأ على بنية ترتيب عناصر الجملة؟ للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الأخرى المتناسلة من رحمها الإشكالي، قسّمنا هذه الدراسة إلى محورين، تطرقنا في المحور الأول لمفهوم الرتبة في اللسانيات المعاصرة التي عالجت إشكالية رتبة الجملة الفعلية. أما المحور الثاني فقد بحثنا فيه عن التفسير الذي قدّمه اللسانيون للتغيرات التي تطرأ على ترتيب عناصر الجملة، انطلاقاً من الأصول النظرية لاشتقاق الجمل، وذلك قصد تحليل تلك التغيرات، وإبراز ما يتصل بالمستوى اللغوي المحض وبالمستويات التداولية الحافة بالوقائع اللغوية، ثم ختمنا الدراسة بخاتمة استخلصنا فيها جملة من النتائج التي توصلت لها، وفتحنا آفاق البحث في الموضوع ذاته اعتقاداً منا بأنّ ظاهرة العدول في نظام اللغة نسقا واستعمالاً، لم تُبحّ بكامل أسرارها، الأمر الذي يجعل البحث فيها مستمراً.

1- الرتبة في اللسانيات العربية المعاصرة

اهتم اللسانيون العرب بدراسة رتبة عناصر الجملة ضمن مشاريعهم اللسانية في سياق تطبيقهم للنماذج النظرية التي أفرزتها اللسانيات الغربية، وقد نتج عن تلك الدراسات اختلاف في النتائج والأنماط المستخلصة لوصف وتفسير ظواهر اللغة العربية، ومنها ظاهرة الرتبة. ومرد ذلك الاختلاف إلى نموذجين لسانيين مختلفين على مستوى الخلفية النظرية لدراسة اللغة، نلّس النموذج الأول في النظرية اللسانية الوظيفية، خاصة في نموذجها المؤسس تداولياً ويكمنُ النموذج الثاني في النظرية اللسانية التوليدية المؤسّسة على النحو التوليدي الصوري، وقد انطلق النموذجان من أسئلة وإشكالات، منها:

- ما الرتبة الأساس في اللغة العربية؟ وما مظاهر الاختلاف بين رتبة البنية العميقة ورتبة البنية السطحية؟

- هل يمكن توحيد الجملة الاسمية والجملة الفعلية في نمط تركيب واحد، ومنه تجاوز التقسيم الذي وضعه النحاة العرب القدماء إلى جملة اسمية وفعلية وظيفية؟
طُرحتْ هذه الأسئلة وغيرها، لتحقيق غايتين:
- دراسة رتبة عناصر الجملة العربية من أجل تمييزها ومقارنتها مع رتبة عناصر الجملة في اللغات الطبيعية الأخرى، مثل الفرنسية والإنجليزية. (أحمد المتوكل، 1995، 221).
- تحديد نوع الرتبة في الجملة العربية، هل هي (فعل+فاعل+مفعول به) أو (فاعل+فعل+مفعول به) («به»)

1-1- رتبة الجملة في اللسانيات التوليدية: الرتبة المقيدة

- انقسم رواد اللسانيات التوليدية في العالم العربي إلى قسمين، هما:
- يرى القسم الأول أنّ رتبة عناصر الجملة في اللغة العربية هي من نمط (فعل-فاعل-مفعول به) ويمثّل هذا الرأي كل من عبد القادر الفاسي الفهري، و خليل عمارة، وميشال زكريا، 1982، ص 22 وما بعدها).
- ويرى القسم الثاني من اللسانيين التوليديين أنّ رتبة عناصر الجملة هي من نمط (فاعل-فعل-مفعول به) ويختص بهذا الرأي كلّ من داود عبده، وحلمي خليل. (داود عبده، 2008، 103-124)
- 1-1-1- رتبة المكونات في الطرح التوليدي: فعل-فاعل-مفعول

تبني هذه الرتبة عبد القادر الفاسي الفهري في دراسته لرتبة عناصر الجملة العربية، وذلك بالاستناد إلى أساس توليدي، من خلال التمييز بين الرتبة الموجودة في البنية العميقة والرتبة الموجودة في البنية السطحية، يقول الفاسي الفهري: «الرتبة الموجودة في البنية العميقة، مثلاً، تختلف عن الرتبة في البنية الوسيطة، علماً أنّ الرتبة التي يمكن ملاحظتها هي الرتبة السطحية، ومن هنا يتبين خطأ من يسوي بين مفهوم نظري كمفهوم الرتبة العميقة، ومفهوم عفوي غامض كمفهوم الرتبة الأصلية، وهو مفهوم نجده متداولاً عند كثير من اللغويين دون تحديد أو تعريف، وغالباً ما يحيل على رتبة غير موسومة دلاليًا أو ذريعياً» (الفاسي الفهري، 1986، 104). وعلى أساس هذا التمييز صرح «الفاسي الفهري» أنه يتبنى رتبة (فعل-فاعل-مفعول به) وهي الرتبة التي أقرّها النحاة القدماء، حيث قال: «معلوم أنّ البنية الأصل في الجملة العربية هي من نمط (فعل-فاعل-مفعول به) ودعم تصوره بنوعين من الحجج، حجج متصلة بمكونات الجملة ورتبها، وحجج متصلة بالرتبة في المركبات الأخرى مثل المركب الاسمي، والمركب الحرفي والمركب الوصفي، فعلى المستوى الأول تنحصر الحجج الأولى في الآتي: (الفاسي الفهري، 1986، 104).

■ الحجة الأولى تكمن في اللبس المحتمل في الجمل التي يحضر فيها الفاعل والمفعول بدون إعراب الحركات البارز، مثل:

(1) - أ- ضرب عيسى موسى

ب- ضرب موسى عيسى

ف«عيسى» فاعل بالضرورة في الجملة (1-أ) و«موسى» فاعل بالضرورة في الجملة (1-ب)، أما عندما يبرز الإعراب فالأمر بخلاف ذلك، مثل الجملة (2):

(2) - ضرب موسى زيد

■ الحجة الثانية تتجلى في رتبة الضمير ومفسره؛ فقد رأى الفاسي الفهري أن القيد الذي أوجبه النحاة القدماء يقضي بأن مفسر الضمير يجب أن يتقدم عليه إما لفظاً أو رتبة، مثل:

(3) - أ- [وإذ ابتلى إبراهيم ربه / قرآن كريم]

ب- دخل مكتبه زيد

فعملاً بالقيد التركيبي لعود الضمير على مفسره لفظاً ورتبة، يجعلنا لا نقرّ بصحة الرتبة في الجملة (4) الآتي:

(4) - أ- وإذ ابتلى ربه إبراهيم*

لأن مفسر الضمير «إبراهيم» تأخر عن ضميره «ه» لفظاً ورتبة، وهذا يجعل الرتبة في البنية (4-أ) بنية لاحنة* (يشير الرمز (*)) في أدبيات الكتابة اللسانية إلى أن الجملة لاحنة وغير مقبولة نحويًا ودلاليًا. ووجود هذا النمط يؤكد صحة ما زعمه الفاسي الفهري بخصوص الرتبة من نمط (فاعل-مفعول) فهو يرى توسط (الفاعل) بين الفعل والمفعول به هو أساس صحة اقتراضه ذلك أنه «لو كان الأمر يتعلق بجمل تحوي فعلاً لازماً لا يمكن افتراض نوع من قلب الفاعل أو نقله من موضع قبل الفعل إلى موضع بعده». (الفاسي الفهري، 1986، 106).

■ أما الحجة الثالثة فيجعلها الفاسي الفهري في التطابق بين الفعل والفاعل من حيث الجنس والعدد؛ فالفاعل يطابق الفاعل إذا تقدم عليه في الرتبة الخطية للجملة، وإذا لم يتقدم عليه فإنه لا يطابقه، ويمثل له بالجملة الآتية:

(5) - أ- جاء اللاعبون

ب- اللاعبون جاؤوا

ج- جاؤوا اللاعبون*

يرى الفاسي الفهري أنّ الفعل لا يطابق الفاعل في الجملة (5-أ) في العدد، بينما الفاعل في الجملة (5-ب) تقدّم على الفعل، والفعل يطابقه في العدد والجنس، وهذا يؤكد أنّ رتبة العناصر في (5-أ) رتبة أصلية مستقلة عن نظيرتها في (5-ب)، بخلاف البنية في (5-ج) التي تعدّ جملة لاحنة لأنّ الفعل إذا تقدم الفاعل لا يطابقه.

أما على المستوى الثاني، فإنّ الفاسي الفهري يؤكد تصوره لرتبة (فعل-فاعل-مفعول) من داخل نظرية (س/خط) والتي صيغت فيها القواعد المركّبة التي تقضي بوجود مركب اسمي، ومركب وصفي، ومركب حرفي، وفيها يقول: «العربية يرد فيها الاسم رأساً في صدر المركب الاسمي، والحرف رأساً في صدر المركب الحرفي، والصفة رأساً في صدر المركب الوصفي (...) فإذا عممنا هذا المبدأ ليشمل الجملة (على اعتبار أنّ الفعل رأس للجملة) أمكن أن نقول إنّ الفعل في صدر الجملة هو أصل الرتبة، كسائر الرؤوس الأخرى التي توجد في صدر مركّباتها، اذن افتراض النمطية المذكورة يمكننا من تبسيط القواعد المقولية للغة العربية وصياغة مبدأ عام ينتظمها، وهذا المبدأ هو:» (الفاسي الفهري، 1986، 108).

--> الرأس في الصدر الجملة

وتطبيقاً لهذا المبدأ أضاف الفاسي الفهري قاعدة مقولية خلافاً للقاعدة المقولية التي أوردتها «تشومسكي» على الشكل التالي:

القاعدة المقولية (1) تشومسكي:

← ج م س صُرفة مفعول؛ حيث (ج) تعني جملة، و (م س) تعني مركب اسمي، وهو رأس الجملة.

القاعدة المقولية (2) الفاسي الفهري:

← ج ف-م س- م ح؛ حيث (ج) تعني جملة، و (ف) تعني فعل، وهو رأس الجملة. (الفاسي

الفهري، 1986، 109).

تطبيقاً لهذا المبدأ تصبح رتبة عناصر الجملة (7) الآتية رتبة أصلية رأسها الفعل (قرأ):

(6) - قرأ خالد الصحيفة/ فعل-فاعل- مفعول به

أما التغيرات التي تطرأ على هذه الرتبة، فقد سعى «الفاسي الفهري» إلى وصفها وتفسيرها في إطار شامل يضم مختلف البنيات التركيبية المحتملة، مع محاولة نمذجتها توليدياً وذلك بناء على أساس توليدي لا تحويلي، في هذا السياق اقترح في إطار المقاربة القاعدية basic approach تصوراً ينحو إلى وصف البنيات التركيبية للجملة التي وصفت في النحو العربي بأنها بنيات مختلفة بما في ذلك البنيات الاستفهامية التي تضم

أدوات الاستفهام (الهمزة-هل) والبنيات الناسخة (أنّ-إنّ..و) وأنّ هذه البنيات تولد رتبها قاعدة مركّبة لا تحويلية، من قبيل:

القاعدة المركّبة (1): ج ← مص ← ج / حيث يشير (مص) إلى المركبات المصدرية، مثل الجملة:

(7) - أ- من ضرب من بماذا؟

ويعلق عليها قائلاً «الواقع أنّ المكان الذي تنتقل إليه هذه المركبات هو موضع خارج الجملة (خارج ج) وهو المكان الذي تولّد فيه الحروف المصدرية أو الحروف الناسخة، (كأنّ وأنّ وكذلك حروف الاستفهام: هل والهمزة..» (الفاسي الفهري، 1986، 111).

ويميّز بين ما يسمّيه ب «التبئير (Focalization)» و «التفكيك (dislocation)» منطلقاً من قاعدة مركّبة، هي:

القاعدة المركّبة (2): ج ← بؤرة ← ج

فالتبئير حسب الفاسي الفهري هو «عملية صورية يتم بمقتضاها نقل مقولة كبرى (مثل المركبات الاسمية أو الحرفية أو الوصفية...و) من مكان داخلي، أي داخل الجملة، إلى مكان خارجي، أي خارج الجملة، أي مكان البؤرة» (1) كما هو موضح في القاعدة المركّبة (2) أعلاه، ومن أمثلة التبئير الجمل الآتية:

(8) - أ- إياك نعبدُ

ب- إياك أقصدُ

ج- الله أدعو

د- في الشارع رأيتُهُ

ه- أغدا سنلتقي

وفق التحليل الذي يقدمه الفاسي الفهري فإنّ العناصر (إياك-الله-في الشارع- أغدا) في الجمل (8) تقع خارج الجملة، لأنها منقولة من مكان داخلي يقع في حيز الجملة إلى مكان خارجي بواسطة ما سمّاه ب «تحويل النقل» وتحويل النقل، هذا، كما صاغه الفاسي الفهري، ليس تحويلاً حراً، بل مقيداً بمجموعة من القيود تضمن سلامة النقل، ومنه سلامة الجملة، وتلك القيود هي: (الفاسي الفهري، 1986، 114).

- قيود على المكان المصدر، أي المكان الذي تنطلق منه المقولة المنقولة
- قيود على المكان الهدف، وهو المكان الذي ستنتجه له المقولة المنقولة

(1) نفسه، ص 114.

- قيود على ميدان التحويل

- قيود على صورة التحويل

وداخل مقترح التبئير، اقترح أيضا ما سمّاه بـ«الخفق Scrambling» وهو «تغيّرات تحدث بعد الفعل وتغيّر محليا رُتب الفضلات». (الفاسي الفهري، 1986، 123). وفي هذا الاقتراح يتم التمييز بين تقديم يحصل بعد الفعل، وتقديم يحصل قبل الفعل، لأنّ الفرق بينهما يكمن في تطبيق قاعدتين هما: قاعدة الخفق للتغير بعد الفعل، وقاعدة الموضعة للتغير قبل الفعل، كما في القاعدة المركبية (3):

القاعدة المركبية (3) الخفق: ج
 فعل - م س --- م س
 فاعل --- مفعول به
 مفعول --- فاعل

تمثل الجمل (9) الآتية الفرق بين قاعدة الخفق وقاعدة الموضعة:

(9) - أ- قرأ خالد الصحيفة

ب- قرأ الصحيفة خالد

ج- أأ الصحيفة تقرأ؟

تمثل الجملتان (9-أ-ب) التغير الناتج عن تطبيق قاعدة الخفق؛ حيث تم الرتب بعد الفعل، وهذا التغير لا يؤثر على البنية المنطقية للجملة حسب الفاسي الفهري، أما الجملة (9-ج) فهي مولدة عن قاعدة الموضعة؛ حيث تم نقل المركب الاسمي إلى ما قبل الفعل. أمّا التفكيك، فهو نوعان عند الفاسي الفهري «تفكيك إلى اليمين، وتفكيك إلى اليسار» (الفاسي الفهري، 1986، 128-129).

بمّ حيث يكون محور التفكيك هو الجملة (ج) ويشترك مع التبئير في «تحويل النقل» غير أنّ العناصر المنقولة تبئيريا لا تترك أثرا، بخلاف العناصر المنقولة تفكيكيا التي تترك أثرا ضميريا في الموضع المنقولة منه، ممثّل لذلك بالجملتين الآتيتين:

(10) - أ- الكّاب قرأته

ب- قرأته الكّاب

تبعا لمقترح الفاسي الفهري، نلاحظ أنّ العنصر المفكّك (الكّاب) إلى اليمين في (10-أ) وإلى اليسار في (10-ب) ترك أثرا ضميريا للمقولة المنتقلة في الموضع المنقولة منه، وبهذا يكون التفكيك ينتمي في إطار «تحويل النقل» إلى القواعد الناسخة التي تعيد ترتيب مكونات الجملة، وإنّ قيد «ترك الأثر الضميري»

ليس شرطاً مطلقاً، لأنّ هناك بعض البنيات تفكك إلى اليمين أو إلى اليسار ولا تترك أثراً، مثل الجملة (11):

(11) - أ- نعم الصديق الكتاب

ب- الكتاب نعم الصديق

فالعنصر «الكتاب» المفكك إلى يمين الجملة ويسارها، لم يترك أثراً ضميرياً، وهذا دفع الفاسي الفهري إلى القول بأنّ العنصر المفكك الذي لم يترك أثراً في المكان المنقول منه، لا يولد تحويلياً، بل يولد خارج الجملة أصلاً كما في (11-ب)، وقد استنتج في الأخير إلى أن المقاربة القاعدية للتفكيك تحتاج إلى قاعدة تأويلية، يؤوّل في ضوءها المكان الذي تسطح في المكونات المفككة. وبالتالي فهي لا تنتمي إلى نحو الجملة، بل -حسب تعبير الفاسي الفهري- تنتمي إلى «نحو الخطاب discourse grammar أو إلى المكوّن الذري pragmatic component».

1-1-2- رتبة المكونات في الطرح التوليدي: فاعل-فعل-مفعول

تبني هذا النمط الترتيبي لمكونات الجملة «الفعلية» في اللغة العربية «داود عبده» مستنداً إلى القواعد التحويلية، مبيناً أنّها ليست معقدة، وأنها كفيلة بتحديد أصل الرتبة بين مكونات الجملة في اللغة العربية، وقد استند في طرحه إلى أربعة حجج، هي: (داود عبده، 2008، ص 119)

■ الفاعل والمفعول مكوّن تركيب واحد:
يقدم «داود عبده» هذه الحجّة في سياق إثبات وجود المركب الفعلي الذي يجمع بين (الفاعل- المفعول) في مكوّن واحد في نحو اللغة العربية، ويكون هذا المكوّن مولداً في قاعدة تحويلية جُمليّة، من قبيل:

قاعدة تحويلية (1): ج ← فاعل ← فعل-مفعول

ويبرهن على صحة هذا المقترح من خلال دراسة هذا المكوّن في أربع مستويات يلتقي فيها الفاعل بالمفعول، في المستوى الأول، يؤدي اعتبارهما مكوناً واحداً إلى «الاستغناء عن قاعدة إلحاق ضمير المفعول به بالفعل (...)» وفي المستوى الثاني، يظهر المفعول به إذا كان ضميراً ملتصقاً بالفعل، ولا يجوز الفصل بينهما، (...) وفي المستوى الثالث المعادلة بين المكوّن (فعل-مفعول) والمكوّن (المضاف- المضاف إليه) إذا استعمل اسم الفاعل بدل الفعل في التركيب الإضافي (...) وفي المستوى الرابع من الممكن أن تحلّ كلمة واحدة محلّ الفعل والمفعول دون أن يتغيّر المعنى» (داود عبده، 2008، ص 119) يمكن التمثيل لهذه المستويات بالمثل المدرجة في المجموعات الآتية:

(12) - أ- المذيع قرأها قبل ساعة

- ب- قرأها المذيع قبل ساعة
ج- المذيع قرأ قبل ساعة ها *
د- قرأ المذيع ها قبل ساعة *
هـ - قرأ المذيع قبل ساعة ها *
(13) - أ- المذيع قرأ الصحيفة
ب- المذيع قارئ الصحيفة

- ج- المذيع قارئها
(14) - أ- النائم رأى حلها
ب- النائم حلم

تبيّن الجمل في المجموعة (12) أنّ (الفعل-المفعول) مكوّن جُملي واحد كما في (12-أ-ب) وهما جملتان سليمتان قد اقترن فيهما الفعل بضمير المفعول، بينما الجمل (12-ج-د-هـ) جمل لاحنة لأنّ ضمير المفعول جاء مفصّولا عن الفعل، وهذا لا يجوز لأنّ الفاعل اسم ظاهر في الجملة، غير أنّ «داود عبده» لا يتحدث في هذا التحليل عن موقع الفاعل هل قبل الفعل أو بعده. وتوضّح الجمل في المجموعة (13) المعادلة التركيبية بين المكوّن (فعل-مفعول) والمكوّن (مضاف-مضاف إليه) لأنّ المضاف والمضاف إليه يأتيان في سياق الجملة الابتدائية (المبتدأ والخبر) وقياسا على هذا يكون (الفعل-المفعول) مكوّنا واحدا. ويلجأ في الجملتين (14-أ-ب) إلى قاعدتين تحويليتين، هما: الحذف والتعويض؛ حيث حذف المركب الفعلي (رأى حلها) الموجود في (14-أ) وعوّضه بالمركب (حلم) كما في (14-ب) وهذا يقضي بالتساوي بينهما، وتعبيره «لو لم يكن الفعل والمفعول به مكوّنا جُمليا واحدا لما أمكن زن يحلّ محلّهما كلمة واحد». (داود عبده، 2008، ص 121).

■ الأفعال المتعدية بحرف الجر

يوجد في العربية أنماط تركيبية تضم مرّبا لغويا، وهي عبارة عن مكوّن جُملي واحد، من قبيل (الفعل المتعدّي-حروف الجر) بحيث تكون حروف الجر مختلفة باختلاف الفعل الذي تقترن به في السياق التركيبي، مثل الجمل الآتية:

(15) - أ- وافق الرجل على القرار
ب- وافق على الرجل القرار *
ج- وافق فوق القرار *

تُظهر الجمل (15) أنّ الفعل ينتقي بعناية طبيعة الحرف الذي يليه في الجملة، وتبعاً لهذا الانتقاء الدلالي نحصل على سلامة الجملة (15-أ) بينما نلاحظ لحنَ الجملتين (15-ب-ج) بناءً على هذا التحليل رأى «داود عبده» أنّه «إذا اعتبرنا البنية العميقة للجملة الفعلية هي (فعل-فاعل-مفعول) فإنّ أصل جملة (وافق الرجل على القرار) هي (وافق على الرجل القرار) وهذا يعني أنّنا نحتاج إلى قاعدة تنقل حرف الجر إلى ما قبل المفعول، وهي قاعدة شبيهة بنقل الضمير الذي يحل محلّ المفعول به إلى جوار الفعل» (داود عبده، 2008، ص 122) تطبيقاً لهذا القول نحصل على الترتيب كما في الجملتين (16):

(16) - أ- وافق على الرجل القرار *

ب- وافق الرجل على القرار

■ الأفعال المساعدة

ذهب «داود عبده» إلى أننا إذا اعتبرنا رتبة (فعل-فاعل-مفعول) هي الأصل، فإننا سنحتاج إلى قاعدة تحويلية إجبارية عندما يتعلق الأمر بالجمل التي تضم أفعالاً مساعدة، بحيث يُنقل الفعل الرئيس وجوباً إلى موضع بين الفاعل والمفعول، كما توضح الجملتان (17):

(17) - أ- أخذ يقرأ الرجل الكتابَ

ب- أخذ الرجل يقرأ الكتابَ

بينما يرى إذا كانت الرتبة (فاعل-فعل-مفعول) هي الأصل فإنّ «كل ما نحتاج إليه هو قاعدة تحويلية اختيارية، تنقل الفعل المساعد إلى يمين الفاعل، أو نقل الفاعل إلى يسار الفعل المساعد» (داود عبده، 2008، ص 122) وبهذا نحصل على الرتبة الآتية:

(18) - أ- الرجل أخذ يقرأ الصحيفة

ب- أخذ الرجل يقرأ الكتابَ

■ التوحيد بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية:

يقرّر «داود عبده» في المحجة الرابعة التي يدعم بها تصوره للرتبة الأصلية لمكونات الجملة العربية أنّ الرتبة (فاعل-فعل-مفعول) من شأنها أن توحد بين الجملتين الفعلية والاسمية التي ميز بينهما النحاة القدماء، وسنطلق من الجمل الآتية:

(19) - أ- وصلَ رجلٌ

ب- قرأَ رجلٌ الصحيفة

ج- في البيت رجلٌ

يرجع «داود عبده» هذه الجمل إلى الأصول الآتية:

(20) - أ- رجلٌ وصلَ

ب- رجلٌ قرأ الصحيفة

ج- رجلٌ في البيت

وقد اعتمد على «تحويل النقل» الذي أطلق عليه القدماء مسوغات الابتداء بالنكرة؛ حيث ينقل المبتدأ إلى نهاية الجملة إذا كان نكرة، أو يبدأ به إذا كان مخصصا بشيء ما، وفي هذا يقول: «إنّ اعتبار الأصل في الفاعل وقوعه قبل الفعل (بصرف النظر عن الاسم الذي نطقه عليه) يجعل الجمل في العربية نوعا واحدا يتألف من مبتدأ وخبر. بدلا من نوعية: اسمية وفعلية». (داود عبده، 2008، ص 123) وإذ يقرر داود عبده هذا التوحيد بين الجملتين، فإنه لا يرى مانعا من التمسك بمصطلح «الجملة الفعلية» في حالة تقدّم الفاعل على الفعل، لأنه يعتبر الجملة الفعلية هي التي تحتوي على فعل، بصرف النظر عن موقعه في الجملة.

2-1- رتبة الجملة في اللسانيات الوظيفية: العدول إلى الرتبة الحرّة

خلافا للتصور الذي قدّمته اللسانيات التوليدية العربية والذي انطلق من افتراض ثنائي يميز بين الرتبة الأصل والبنيات الفرعية لرتب مكونات الجملة العربية، بتّني نمطين ترتيبيين، هما: (فاعل-مفعول-مفعول) و(فاعل-فعل-مفعول) كما بيّنا في المحورين السابقين، يأتي التصور اللساني الوظيفي الذي أفرزته مدرسة براغ وأعمال اللسانيين المعروفة بالوجهة الوظيفية للجملة، والذي اقترن أساسا في المستوى الأكاديمي بالعالم الهولندي «سيمون ديك» 1978، وتبناه وطوّره في العالم العربي اللساني «أحمد المتوكل» من خلال عدّة أعمال نشر أولها 1985.

يقوم التصور الوظيفي لرتبة المكونات في الجملة على افتراض واحد هو وجود «بنية تحتية» واحدة فقط لرتب المكونات، وليس بنية تحية تقابلها بنيات سطحية يتم اشتقاقها بموجد القواعد التحويلية أو التوليدية، يقول المتوكل: «أمّا في نظرية النحو الوظيفي، التي هي من النظريات المؤسسة تداوليا، فإنّ جميع البنيات الرتبية تعدّ بنيات متساوية تستقل كل بنية منها بتحقيق تشكيلة من الوظائف التداولية معيّنة تختلف عمّا تحقّقه البنيات الأخرى (....) والتمييز بين الرتبة الأصل والرتب الفرعية تمييز غير وارد في هذه النظرية». (أحمد المتوكل، 1995، ص 230) يُستفاد من هذا ما يلي:

- اللسانيات الوظيفية تحدد رتب المكونات في بنية واحدة (البنية السطحية).
- البنية التحتية لمكونات الجملة في اللسانيات الوظيفية بنية غير مرتبة، ويتم ترتيب مكوناتها بواسطة قواعد تعبير، وليس قواعد تحويل، وقواعد التعبير ترتبط بالوظائف التداولية.

تبعاً بهذا التمييز، يقترح «المتوكل أحمد» في سياق تميظ رتبة اللغات، أنّ الرتب الآتية ليست رتب مولدة أو مَحْوَلَة عبر قواعد تحويل، كما في المجموعتين:

(21) - أ- شرب الطفل حليباً <----- فعل-فاعل-مفعول

(22) - أ- حليباً شرب الطفل <----- مفعول-فعل-فاعل

ب- الطفل شرب حليباً <----- فاعل-فعل-مفعول

ج- شرب حليباً الطفل <----- فعل-مفعول-فاعل

د- الطفل حليباً شرب <----- فاعل-مفعول-فعل

حسب الطرح اللساني الوظيفي، فإنّ بنية الجملة (21-أ) ليست أصلاً اشتقاقياً للجمل في المجموعة (22-أ-ب-ج-د)، لأنه حسب «المتوكل» كل هذه «التراكيب الرتبة فيها مقيدة تداولياً، كل تركيب يُطابق مقاماً مختلفاً، وبالتالي يتضمن وظيفة تداولية مختلفة». (أحمد المتوكل، 1995، ص 225) أقام «المتوكل» هذا الافتراض على أسس الوظائف التداولية التي تُسند لمكونات الجمل، والتي قسّمها إلى نوعين؛ وظائف داخلية، وتضم البؤرة والمحور، ووظائف خارجية، وتضم المبتدأ والذيل والمنادى، وبموجب هذه الوظائف يتم ترتيب مكونات الجملة، مثل الجملة (23):

(23) - خالدٌ، وهبته إياه، المنزل

فالوظيفة التداولية (المبتدأ) مسندة للمكون (خالد) باعتباره المكون «المدال على مجال الخطاب» (أحمد المتوكل، 1995، ص 227) في حين أسندت الوظيفة التداولية (الذيل) للمكون (المنزل) لكونه يدل على «معلومة واردة للتبيين أو التعديل أو التصحيح بالنظر إلى معلومة تتضمنها الجملة». يتضح من التحليل الذي قدمه «المتوكل أحمد» أنّ رتبة مكونات الجملة غير مرتبة في العمق، وأنه جميع الرتب سطحية يتم ترتيبها بعد انتقاء الرأس والمخصصات، وفق القاعدة الآتية:

(القاعدة 4) - (محدّد، رأس، فضلة)

تشير الفواصل (،) بين الكلمات في القاعدة (4) حسب «المتوكل» إلى أنّ مكونات الجملة غير مرتبة، ويمكن أن نغيّر مواقعها بتغيّر الوظائف المسندة لكل مكون منها، واستنتج إلى أنّ هذا الاقتراح يُمكننا من «التقريب بين مختلف اللغات الطبيعية، إذ بذلك تصبح البنية التحتية قاسماً مشتركاً بينها جميعها باعتبار هذه البنية التمثيل للخصائص الدلالية والتداولية التي يُرّجح أن تشمل كليات لسانية». (أحمد المتوكل، 1995، ص 230)

2- مستويات تفسير رتبة المكونات

ثمة سؤال جوهري ينطرح أمامنا في هذا المحور، وهو: ما المستويات التي يمكن أن يُفسّر في ضوءها العدول عن أصل الترتيب؟ تكمن أهمية هذا السؤال في كونه يُمكننا من تصنيف العلل الكامنة وراء أيّ «فعل» عدولي من نمط ترتيبي إلى آخر في مكونات الجملة، خاصة إذا علمنا أنه لا يحدث عدول بشكل اعتباطي، فالوقائع اللغوية تحدث نتيجة جملة من القيود التي قد تكون تركيبية أو دلالية أو تداولية خارج نطاق اللغة أساسا، ينبغي البحث فيها وتفسيرها وتصنيفها في المستوى الذي تنتمي إليه.

1-2- المستوى اللساني: التفسير اللساني التوليدي

اهتم اللسانيون التوليديون العرب في تفسيرهم للتغيرات الموقعية التي تطرأ على مكونات الجملة بالتركيز على وجود مُستويين تشقّ فيهما الجملة بجميع مكوناتها، وبصرف النظر عن نوعها، يُحدّد المستوى الأول فيما أسموه بالبنية العميقة، ويُحدّد المستوى الثاني فيما يُسمى بالبنية السطحية، ويُبيّن بين هاتين البنيتين بكون «الأولى بنية مجردة وضمنية وهي التي تعيّن التفسير الدلالي، بينما الثانية هي الترتيب السطحي للوحدات الذي يحدّد التفسير الصوتي» (Noam Chomsky, 1966, 61-62).

إنّ التمييز بين هاتين البنيتين، مرتبط أساسا بمكونات القواعد التوليدية والتحويلية، لأنه لا يتم الانتقال من البنية العميقة التي تتخيّر في مكوّن خاص بها إلى البنية السطحية التي تتخيّر بدورها في مكوّن آخر إلا بعد المرور من سلسلة من القواعد التوليدية. في هذا السياق يُميز التوليديون بين ثلاث مكوّنات ويعدونها مسارا لاشتقاق الجملة في شكلها النهائي، وهذه المكونات ليست منفصلة عن بعضها بعضا إلا في المستوى الإجرائي لدراستها، لأنها مكونات متكاملة فيما بينها ودراستها منفصلة ومتصلة تُمكن الباحث اللساني من تحقيق الكفائيتين الوصفية والتفسيرية على النحو العلمي لكل لغة، وتلك المكونات، هي المكوّن الفونولوجي، والمكوّن التركيبي، والمكوّن الدلالي. (ميشال زكريا، 1982، ص 137).

يتضح مما سبق أنّ اشتقاق الجملة حسب الطرح التوليدي التحويلي يتم حصرا عبر مسار توليدي تفاعلي بين جميع المكوّنات؛ فالمكوّن الفونولوجي مسؤول عن توليد الأصوات وعلاقتها بالصرف، والمكوّن الدلالي مسؤول عن الدّخل المعجمي وانتقاء السمات وتوسيعها، ثم إسقاطها في إطار شامل لجميع مكونات الجملة، أما المكوّن التركيبي فيضطلع بتوليد المرّجات من خلال ثلاث قواعد، هي قواعد التكوين، وقواعد الاستبدال بالوحدات المعجمية المناسبة، ثم قواعد التحويل التي تنتج عنها في النهاية البنية السطحية. ويتضح أيضا أنّ العدول من نمط ترتيبي إلى آخر يُفسّر بوجود إجراءين ذهنيين، يقوم بهما الذهن ابتداء، وهما المسؤولان عن اشتقاق الجملة في تركيبها المعدول عن أصله (البنية العميقة)، وهما:

■ إجراء توليدي، حيث تولّد العناصر المكوّنة للجملة.

■ إجراء تحويلي؛ حيث يتم تحويل البنية العميقة التي حصلنا عليها في المستوى التوليدي، إلى بنية سطحية. وفي البنية السطحية تظهر الجمل المختلفة والتي تحمل معنى واحدا. فالجملة (24) تُمثّل هاتين العمليتين في السياق العدولي:



فالبنية العميقة في (أ) التي تضم {فعل-فاعل-مفعول} عدلَ عنها في البنيات السطحية إلى أنماط تركيبية من قبيل {مفعول-فاعل} كما في (ب)، وإلى نمط {فعل-نائب فاعل} كما في (ج)، وإلى نمط {اسم-فعل-اسم} كما في (د). وذلك بموجب قواعد تحويلية تنقل مكونات الجملة موقعا.

2-2- التفسير اللساني الوظيفي للعدول

خلافا للتفسير التوليدي التحويلي، يأتي التفسير اللساني الوظيفي ليعيد الاعتبار لمكوّن آخر لم يحظ باهتمام الاتجاهات اللسانية الأخرى، وهو المكوّن التداولي، ولا غرابة في هذا لأنّ الوصف اللغوي الكافي في نظرية النحو الوظيفي يسعى إلى «تحقيق الكفاية التداولية Pragmatic Adequacy بالإضافة إلى الكفائتين النفسية والنمطية، وتحقيق الكفاية التداولية حين يستطيع الوصف اللغوي أن يرصد التفاعل القائم بين بنية اللغات الطبيعية ووظيفتها التواصلية، أي حين يستطيع أن يربط بين الخصائص البنيوية للعبارة اللغوية والأغراض التواصلية التي تستعمل هذه العبارات وسيلة لبلوغها» (أحمد المتوكل، 1987، ص 5). وبناء على هذا الهدف فإنّ تفسير العدول عن أصل الترتيب سيكون وفق المقتضيات التي تفرضها القيود التداولية، وليس القيود التركيبية، أو الدلالية، ما يؤكد هذا هو أنّ مُحدّدات رتبة مكونات الجملة تنتظم -وفق هذه النظرية- في سُلّية تُغلّب الوظائف التداولية على حساب الوظائف التركيبية والدلالية، وهذا لا يعني أنّ ما يدخل في حيز التركيب والدلالة لا دور له في تحديد رتبة مكونات الجملة، ولكن ليس له التأثير نفسه، وذلك وفق السُلّية الآتية: (أحمد المتوكل، 1996، ص 236).

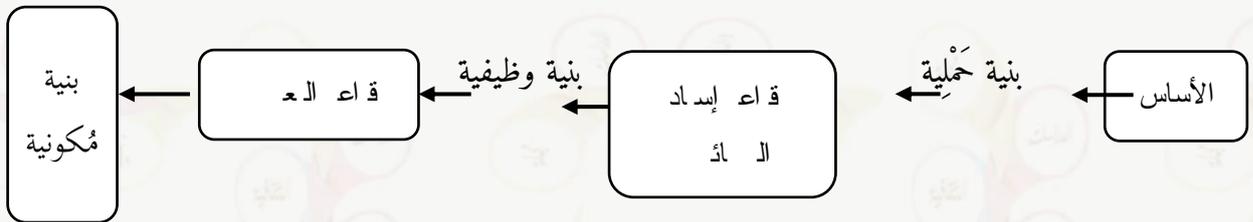
الجملة ← الوظائف التداولية < الوظائف التركيبية < الوظائف الدلالية

إنَّ إعطاء الغلبة للوظائف التداولية في تحديد رتبة مُكوّنات الجملة يقتضي إفراد مستوى آخر لتمثيل الوظائف الداخلة في الحيز التداولي، وهذا يعني أنّ تمثيل الجملة في النحو الوظيفي يتم في المستويات الثلاثة الآتية:

- مستوى تمثيل الوظائف التداولية: ويشمل خمس وظائف، هي المحور والبؤرة، والمبتدأ، والذيل، والمنادى.
- مستوى تمثيل الوظائف الدلالية: وفيه تُمثل وظيفة المُنفذ، ووظيفة المُتقبل، والمستقبل، والمستفيد، والزمان، والمكان، والحدث.
- مستوى تمثيل الوظائف التركيبية: ويشمل وظيفتين، هما وظيفة الفاعل، ووظيفة المفعول. يتم اشتقاق الجملة في منظور النحو الوظيفي حسب هذه المستويات وفق ثلاث بنيات مرتبة ترتيباً تصاعدياً، هي: (أحمد المتوكل، 2010، ص 139).

- البنية الحَمَلِيَّة
- البنية الوظيفية
- البنية المُكوِّنِيَّة

تعمل هذه البنيات في مسار تفاعلي؛ حيث تستند البنية الحملية إلى أساس يضم المعجم وقواعد التكوين، ثم تُنقل إلى بنية وظيفية بإسناد الوظائف التركيبية والدلالية للمكونات، ثم الوظائف التداولية، ثم تُنقل إلى بنية مُكوِّنِيَّة، (أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية، دون تاريخ، ص 11) وتروّزها ثلاث قواعد، قواعد الأساس، وقواعد إسناد الوظائف، ثم قواعد التعبير، كما يُظهر الشكل الآتي:



تنقسم الوظائف في النحو الوظيفي إلى ثلاثة وظائف، هي: وظائف دلالية وتضم (المنفذ، ووظيفة المُتقبل، والمستقبل، والمستفيد، والزمان، والمكان..). ووظائف تركيبية، وتضم وظيفتي (الفاعل والمفعول)، ثم الوظائف التداولية، وهي نوعان: وظيفتان داخليتان هما: (البؤرة والمحور). ووظائف خارجية، هي: (المبتدأ والذيل، والمنادى).

الوظائف التداولية في النحو الوظيفي، نحس وظائف، تنقسم بلحاظ موقعها بالنسبة للحمل، إلى نوعين: وظائف داخلية، تشمل وظيفة (البؤرة)، ووظيفة (المحور). ثم وظائف خارجية، وتضم وظيفة

(المبتدأ)، ووظيفة (الذيل)، ووظيفة (المنادى)، وتُسنَد هذه الوظائف على النحو الآتي: (أحمد المتوكل، 1985، ص 28-161).

- تُسنَد وظيفة البؤرة إلى المكوّن الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزا في الجملة، وتنقسم إلى نوعين، بؤرة جديد، وبؤرة مُقابلة. تعرّف بؤرة الجديد بكونها التي تُسنَد إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يجهلها المُخاطب. بينما تعرّف بؤرة المُقابلة بأنها البؤرة التي تُسنَد إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يشك المُخاطب في ورودها أو المعلومة التي ينكر المُخاطب ورودها، ويتم التمييز بينهما برواثر مقامية.

- تُسنَد وظيفة المحور إلى المكوّن الدال على «المُحدّث عنه» داخل الحمل.

- تُسنَد وظيفة المبتدأ إلى المكوّن الذي يحدد مجال الخطاب بالنسبة للحمل.

- تُسنَد وظيفة الذيل إلى المكوّن الذي يحمل المعلومة التي توضح معلومة داخل الحمل، أو تُعدّلها.

- تُسنَد وظيفة المنادى إلى المكوّن الدال على المنادى في مقام معين

يتميز المستوى التداولي الذي تُمثّل فيه الوظائف التداولية بكونه يستند إلى السياق المقامي الإخباري بين المتكلم والمُخاطب، الذي بمقتضاه تُحدّد العلاقات القائمة بين مكوّنات الجملة، ما يُؤكّد هذا الافتراض هو اعتماد النحو الوظيفي على تحليل الجمل انطلاقا من المعلومات المتبادلة بين المتكلم والمُخاطب.

وفق التقسيم الذي قدّمه النحو الوظيفي، تأخذ بنية الجملة بعد إضافة الوظائف التداولية وإسنادها للمكونات، وتبعا للميز الذي تأخذه الوظائف بالنسبة للحمل، الشكلين الآتيين:

البنية (1): {مبتدأ (حمل) ذيل}

البنية (2): {منادى - مبتدأ (الحمل) - ذيل}

البنية (3): { (حمل) - بؤرة - محور}

البنية (4): {بؤرة - محور - (حمل)}

تتغير الوظيفتان (البؤرة-المحور) في البنيتين (3-4) بموجب المعلومة التي تحملها كل وظيفة، نمثل لهذه البنيات العامة بالجدول الآتي:

(25) - أ- خالد، فاز بالبطولة

ب- قابلت اليوم صحفيا، بل مديعا

ج- يا صاعدا جبلا، احترس

د- يا يوسف، هذه فرصتك

هـ- البارحة افتتح الوزير معرض الكتاب

و- متى رجّع خالد؟ / رجّع خالد البارحة

تمثل الجملتان (25-أ-ب) البنية (1) حيث المكون (خالد) هو مجال الخطاب بالنسبة للحمل (فاز بالبطولة)، بينما يمثل المكوّن (بل مديعا) وظيفة الذيل، بوصفه مُكوّنًا يوضح معلومة واردة بالنسبة للحملة (قابلت اليوم صحفيا) ويعدّها ب (بل مديعا. تمثل الجملتان (25-ج-د) البنية (2) حيث يشكل المكونان (يا صاعدا) و (يا يوسف) وظيفة المنادى بالنسبة للحمل. وفي الجملتين (25-هـ-و) يشكّل المكوّنان (البارحة-خالد) ووظيفة البؤرة والمحور؛ بحيث المكوّن (البارحة) أسندت له وظيفة البؤرة، والمكون (خالد) أسندت له وظيفة المحور. أسندت هذه الوظائف جميعها للمكونات في الجمل (25-أ-و) وفق طبقة مقامية تواصلية بين متكلم ومُخاطب.

يتم تحديد مخصص الحمل بعد إتمام إسناد الوظائف التداولية، وذلك من خلال التأشير على القوة الإنجازية التي تواكبه، ومنها القوة الإنجازية (الإخبار)، والقوة الإنجازية (السؤال)، والقوة الإنجازية (الأمر) ... كما توضح الجمل الآتية:

(26) - أ- ألقى الوزير خطابا حماسيا. ← {والقوة الإنجازية (الإخبار)}

ب- هل ألقى الوزير خطابا حماسيا؟ ← {والقوة الإنجازية (السؤال)}

ج- ألقى خطابا حماسيا! ← {والقوة الإنجازية (الأمر)}

وبإضافة مخصص الحمل، تصبح البنية العامة للجملّة في نهاية البنية الوظيفية، على النحو الآتي:

البنية (5) - { (منادى) - (مبتدأ) «قوة إنجازية» | محمول (س1) - (س2) | (ذيل) }

بعد إتمام إسناد الوظائف التداولية في البنية الوظيفية يتم الانتقال إلى البنية المكونية، هي البنية الثالثة والأخيرة في مسار اشتقاق الجملة حسب النحو الوظيفي، وتعرّف بأنها هي البنية الصرفية التركيبية، ويتم بناؤها باتباع نسق «قواعد التعبير»، وهي: (أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية، دون تاريخ، ص 21)

■ قواعد صياغة الحدود

■ قواعد صياغة المحمول

■ قواعد إسناد الحالات الإعرابية

■ قواعد الموقّعة

■ قواعد إسناد النبر والتنغيم

من أهم هذه القواعد بالنسبة لهذه الدراسة، قواعد الموقَّعة Placement rules، التي بوجها تأخذ المكونات داخل الجملة رتباً الخاصة بها وذلك بعد تطبيق قاعدة إسناد الحالة الإعرابية للمكونات، ويقترح النحو الوظيفي في هذا السياق البنية الآتية: (أحمد المتوكل، 1986، ص 19)

- البنية (6) - {م⁴، م²، م¹، م[∅] (فعل-فاعل-مفعول)} (ص)، م³

يتم إسقاط مكونات الجملة حسب الوظيفة المسندة لكل عنصر منها، فتأخذ الوظائف موقعها حسب الآتي:

- يحتل الموقع (م⁴) المنادى، ويحتل الذيل الموقع (م³)، بحكم أنّ الذيل يتوقع بعد الحمل ويتعلّق به بلحاظ وظيفته المنوطة به وهي للتبيين أو التعديل أو التصحيح. بينما يحتل المبتدأ الموقع (م²)، وهي وظائف خارجية.
- يحتل الموقع (م¹) الأدوات التي لها حق الصدارة مثل أدوات الاستفهام، والنواسخ الحرفية، وأدوات النفي.
- يحتل الموقع (م[∅]) المكونات التي تُسند إليها الوظائف التداولية الداخلية، ووظيفة البؤرة، أو وظيفة المحور. أو أسماء الاستفهام.
- يحتل الموقعين (فاعل-مفعول) المكوّن الحامل للوظيفة التركيبية الفاعل، والمكوّن الحامل للوظيفة التركيبية المفعول على التوالي.
- يحتل الموقع (ص) كل مكوّن غير حامل لوظيفة تركيبية أو وظيفة تداولية تحوّل احتلال الموقع (م[∅]).

مرّ بنا في هذا المحور أنّ اشتقاق الجملة في نظرية النحو الوظيفي يقوم أساساً على التمثيل للوظائف التداولية، وبالتالي فإنّ الكلمات تأخذ مواقعها الترتيبية في خطية الجملة بإعطاء الأولوية للوظائف التداولية التي تحملها. على هذا الأساس نعتبر أنّ أيّ عدول من نمط ترتيبي إلى آخر بين مكونات الجملة، هو عدول ينشأ استجابة لقصود تداولية نلها في الأفعال الكلامية التي تنجزها في طبقة مقامية معينة، ويؤشر عليها بالقوة الإنجازية كما سبقت الإشارة.

روّزاً لعمل الوظائف التداولية في صياغة الأنماط التركيبية العدولية، نطلق من الجملة (38) التي تمثل ترتيب المكونات في بنية الجملة الفعلية:

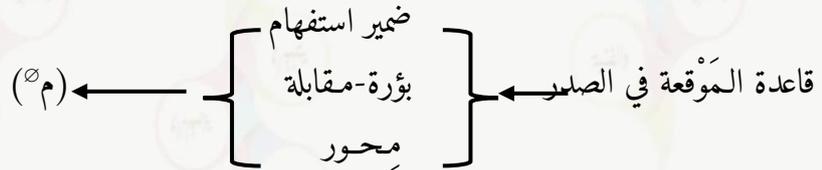
(27) - أ- مُحاضرة ألقى الأستاذ (ينبر محاضرة)

ينظر النحو الوظيفي إلى رتبة المكونات في الجملة (27) على أنها بنية أصلية، رُتبت مكوناتها (المفعول-فعل-فاعل) وفق قاعدتي الموقَّعة؛ قاعدة الموقَّعة في موقع (الفاعل) بالنسبة للمكوّن (الأستاذ)

بموجب الوظائف الدلالية والتركيبية، وقاعدة الموقعة في الموقع (م^٥) بالنسبة للمكوّن (مُحاضرةً) الحامل للوظيفة التداولية «بؤرة المقابلة» ويتم تمثيلها في البنية الوظيفية غير المرتبة على النحو الآتي:
البنية الوظيفية (7) للجملة (27):

{ماضي: ألقى-فعل (س1: الأستاذ = منفذ-فاعل-محور) - (س2: محاضرة = متقبل-مفعول- بؤرة مقابلة}

البنية أعلاه غير مرتبة على النحو الموجود في الجملة (27)، ولهذا يرى «المتوكّل» أنّ قاعدة الموقعة في الموقع (م^٥) لا تتقلّ مكوّنًا يحتلّ موقعا معينا في البنية الدّخل إلي صدر الجملة كما هو الشأن للمكوّن (محاضرة) في الجملة (28)، بل تمّوّعهُ بدءا في هذا الموقع، وهذه القاعدة هي: (أحمد المتوكّل، 1986، ص 21)



فالمكونات الحاملة للوظيفتين التداوليتين «المحور وبؤرة المقابلة» أو أحد «ضمائر الاستفهام» تتم موقعتها في موقع الصدر (م^٥).

إنّ المكوّن (محاضرة) أخذ موقع الصدر في الجملة (27) الذي يمثله الموقع (م^٥) بموجب الوظيفة التداولية «بؤرة المقابلة» المسندة إليه، وهذه البؤرة تُسند للمكوّن الحامل للمعلومة المُشكّ فيها من قبل المُخاطب، كما سبقت الإشارة. وذلك بالنظر إلى الطبقة المقامية التي أُنجزت فيها الواقعة الكلامية، وهي طبقة تُكوّن من مقامين. (أحمد المتوكّل، 1985، ص 30)

■ -المقام (1): يتوفر المخاطب على مجموعة من المعلومات، ينتقي المتكلم للمخاطب المعلومة التي يعتبرها واردة.

■ -مقام (2): يتوفر المتكلم على مجموعة من المعلومات. يطلب المتكلم من المخاطب أن ينتقي له المعلومة الواردة في حالة الاستفهام).

وفقا للمقامين، تصبح الجملة (27-أ) التي تصدّر فيها المكوّن الحامل للوظيفة التداولية «بؤرة المقابلة» هي الجملة (27-ب):

(28) - ب- محاضرةً ألقى الأستاذ، وليس درسا.

يتضح، إذن، أنّ العدول إلى استعمال البنية الموظفة في الجملة (28-أ-ب) هو عدول مُفسّر بعقل غير لغوية متصلة بالمقام التخاطبي الذي يوجد فيه المتكل والمخاطب. وهذا التفسير مخالف بالمقارنة مع التفسير الذي قدّمته اللسانيات التوليدية التحويلية، التي تعتبر الجملة (28-أ) جملة مُحوّلة عن البنية العميقة بموجب قاعدة تحويل، تنقل المكوّن (المفعول-مُحاضرة) إلى صدر الجملة، وبنيتها العميقة المشتقة المُحوّلة عنها، هي (28-ج):

(28) - ج- ألقى الأستاذ مُحاضرةً.

■ خاتمة: نتائج الدراسة وآفاقها

أ- نتائج الدراسة:

- تجّه الأنظار في ختام هذه الدراسة إلى استخلاص جملة من النتائج المترتبة عن البحث في بنية العدول عن أصل الترتيب في نسق اللغة العربية نظاما واستعمالا، ونجمها على النحو الآتي:
- قدّم النحاة العرب القدماء تفسيراً للعدول عن أصل الترتيب، يقوم على النظر إلى بنية الجملة العربية من زاويتين، زاوية تركيبية صرفة؛ حيث قسّموا العدول إلى عدول ترتيبية واجب، وعدول ترتبي جائز، فكلمها سمح نظام العربية بالعدول، جاز ذلك، ولكما لم يسمح ذلك، اشترطوا الامتثال لقواعد النظام اللغوي للعربية، وهذه القواعد هي مجموعة من القيود التركيبية التي تضبط التغيرات الطارئة على الجملة، وتضمن سلامتها تركيبيا وداليا. وزاوية غير لغوية، مرتبطة بالأغراض والمقاصد التي يرمي إلى تحقيقها المتكلم مع المخاطب، وهذه الأغراض أقرب أن تكون أغراض تداولية، منها غرض «الاهتمام» وغرض «العناية».
 - اختلفت المقاربات اللسانية المعاصرة لظاهرة العدول عن أصل الترتيب، ومرجع ذلك الاختلاف إلى الخلفيات النظرية التي صدرت عنها تلك المقاربات، ومنها المقاربتين التوليدية والوظيفية.
 - انطلقت المقاربة اللسانية التوليدية التحويلية من المنجز اللساني العقلي الفطري، الذي يرى أنّ ترتيب الجمل يبدأ في مستوى البنية العميقة، وهي بنية ذهنية، ثم تمر الجملة عبر مجموعة من المكونات التي تروّز اشتقاقها، ثم تظهر في مستوى البنية السطحية، وتطرأ عليها تحويلات تُغيّر ترتيب مكوناتها وفق قيود تركيبية، خاضعة لقواعد مركبية، وقواعد تحويلية.
 - قدّمت المقاربة اللسانية الوظيفية، في إطار نظرية النحو الوظيفي المؤسس تداوليا، تفسيراً للعدول عن أصل الترتيب، يقوم على افتراض مستوى ثالث تمثّل فيه مكونات الجملة، وهو مستوى الوظائف التداولية؛ حيث يتم ترتيب مكونات الجملة وفق الوظائف التداولية التي تُسند إليها،

وذلك بموجب قواعد يُطلق عليها قواعد المَوْقَعَة بعد إتمام اشتقاق الجملة من البنية الحملية، مروراً بالبنية الوظيفية التي تُسند فيها الوظائف التركيبية والتداولية والدلالية للمكونات، وانتهاءً بالبنية المكوّنة.

- نتج عن افتراض المستوى الثالث الذي تُمثل فيه الوظائف التداولية، القول بأنّ العدول عن أصل الترتيب لا يقوم على بنية أصل في مقابل بنية فرع، بل إنّ كل ترتيب يختص ببطقة مقامية يُنتج فيها من طرف المتكلم، وذلك، وفق المعلومات المتبادلة بين المتكلم والمُخاطب في سياق مقامي محدد، بحيث تُعطى الغلبة للوظائف التداولية في ترتيب المكونات داخل الجملة.
- وجه الاختلاف بين المقاربات الثلاثة، المقاربة النحوية، والمقاربة اللسانية التوليدية التحويلية، والمقاربة اللسانية الوظيفية التداولية، في سياق المُقارنة بينهما، يكمن في كون النحاة القدماء حاولوا تقديم تفسير يجمع بين ما يفرضه ويبيحه نظام قواعد اللغة العربية وربطه ببعض الأغراض. في حين ركزت المقاربة اللسانية التوليدية على تقديم تفسير توليدي لظاهرة العدول، من خلال التركيز على القواعد المُرَكَّبَة التي تولّد فيها بنيات الجمل، ثم القواعد التحويلية التي يتغيّر فيها ترتيب مكونات الجملة. في المقابل أقرّت المقاربة الوظيفية بأنّ كل ترتيب محدد لمكونات الجملة إنّما ينتج وفق ما يفرضه مقام التواصل بين المتكلم والمُخاطب.

■ - المصادر والمراجع:

أ- باللغة العربية:

1. أحمد المتوكّل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، دار الكتاب الجديد، ط2، 2010.
2. أحمد المتوكّل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، المغرب. ط1، 1985.
3. أحمد المتوكّل، الوظيفة والبنية، مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، منشورات عكاظ، ط1.
4. أحمد المتوكّل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، دار الثقافة، المغرب. ط1، 1986.
5. أحمد المتوكّل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية المكونات أو التمثيل الصرفي التركيبي، دار الأمان، الرباط، ط1، 1996.
6. أحمد المتوكّل، من البنية الحملية إلى البنية المكونية، وظيفة المفعول في اللغة العربية، دار الثقافة، ط1، 1987.
7. خليل عمليّة، في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق، عالم المعرفة، جدّة، ط1، 1984.
8. داود عبده، أبحاث في الكلمة والجملة، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ط1، 2008.

9. عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، الجزء الأول، دار توبقال للنشر، ط1. 1985.
10. ميشيل زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، الجملة البسيطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط2، 1986.
- ب- باللغة الأجنبية:

1. Noam Chomsky, Cartesian Linguistics, New York and London, 1ed, 1966, (pdf).

المشهد اللغوي للعربية المغربية في الدراسة الاستشراقية

الدراسة الاستشراقية الفرنسية والإسبانية

.The linguistic scene of Moroccan Arabic in Orientalist studies

French and Spanish Orientalist studies

اسليماني رضوان

slimani.redouane2024@gmail.com

باحث بسلك الدكتوراه

مختبر اللغات والديكتيك والوسائط والدرماتورجيا، تكوين اللسانيات التطبيقية والمقارنة .

جامعة ابن طفيل، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة، المغرب.

الأستاذ المشرف، بوغابة عبد الإله.

ملخص

لقد عرف المغرب وفود مجموعة من الحضارات والثقافات الغربية عنه، الحاملة من خلال لغاتها وأنساقها التواصلية المختلفة عن النسق اللغوي العربي صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا، الأمر الذي جعل عملية الاحتكاك بين هذه الثقافات الوافدة وبين الثقافة المغربية المحلية من خلال لغتيهما، يحصل بنوع من التأثير والتأثر، ولعل جدلية هذا التعالق هي ما يسمح بحضور أطراس اللغات الأجنبية في كل من العربية المغربية والتنوعات اللغوية اللهجية. الكلمات المفتاحية: الدراسة الاستشراقية، الاستشراق الفرنسي، الاستشراق الإسباني، المشهد اللغوي، الحركة الاستشراقية.

Résumer

Morocco has witnessed the arrival of several civilizations and foreign cultures, bringing with them languages and communication systems different from the Arabic language in terms of phonetics, morphology, syntax, and semantics. This has led to a process of contact between these foreign cultures and the local Moroccan culture through their respective languages, resulting in an interaction of mutual influence and transformation. This dialectic allows for the presence of traces of foreign languages in Moroccan Arabic and its various dialectal variants.

مقدمة

لقد شكلت كل من الدراسات الاستشراقية الفرنسية والإسبانية -وباقى الدراسات التي تعلقت ببلد (مجال) المغرب- منعطفا كبيرا في فهم اللغة العربية والتنوعات اللهجية المتمخضة عنها والموظفة في التداول الشفهي بهذا المجال، إذ إن الأمر تعلق فيما يخص هذه الدراسات الاستشراقية من خلال

المستشرقين الذين خاضوا غمار المغامرة في اكتشاف كنه هذا البلد وهذا المجتمع من خلال دراسته وتدارسه وتدرسه لمجموعات أخرى غير منتمية إليه، فالدراسات الاستشرافية قبل كل شيء اتسمت بميسم التعرف على الحضارة المغربية والتعرف على حاملي هذه الحضارة من خلال ربط علاقات مباشرة معهم، كما اتسمت أيضا بطابع الاستخبار لصالح السلطات التي تبدي لها المغرب مكان صالحا لتصريف نفوذها السياسي والاقتصادي فيما بعد، لذلك كان الاتصال المباشر يحمل في ثناياه، نية التعرف من أجل الاستيطان، وقبل أن يحدث هذا الأمر، كان من الضروري توفير تعرف من أجل الفهم والاكتشاف.

لذلك عمل المستشرقون من خلال رحلاتهم وزياراتهم الميدانية ومعاشرتهم للمغاربة على تعلم اللغة العربية بداية الأمر، وتعلم التنوعات اللهجية المنبثقة عنها محاولة منهم استطاعة التواصل وفهم ذهنية المغاربة، ليسهل عليهم التمكن من احتواء هذا الآخر الجديد الوافدين عليه؛ وعليه فقد كان الاستشراق الفرنسي والإسباني بشكل من الأشكال أكثر احتكاك بالمغرب من وجهة نظرنا، إذ تم الأمر في إطار التعرف على مكونات الحضارة المغربية، والأمر أبعد من ذلك، وفي ما يلي سيأتي إحاطة بالمغرب والوضع اللغوي الذي يحتجته، وأهم ما التحف الاستشراق الفرنسي والإسباني من خلفيات لدراسته، وأهم ما تم دراسته في سياق التعرف على الآخر العربي والمغربي على وجه الخصوص.

نتعاش كل من اللغة واللهجات المتفرعة عنها بشكل طبيعي، إذ إن من الخواص التي تحدد ماهية اللغة، مسألة التعدد في مستويات استعمالها، واللسانيات الاجتماعية تهتم في هذا الصدد بدراسة العوامل المؤدية لها، من خلال الناطقين بها، على اعتبار أن اللغة العربية شأنها شأن اللغات الطبيعية، فهي قد تجاوزت مشكلة التعدد اللغوي، باعتباره ظاهرة طبيعية تحضر في الكثير من اللغات، كما تجاوزت أيضا مسألة الثنائية/الازدواجية اللغوية بوصفها أيضا وسيلة لمجاراة التقدم العلمي في العالم تارة، والاضطلاع على الآخر المتكلم باللغة الثانية تارة أخرى، ووسيلة لتوارد الاستعمال اللغوي بين مستويين أحدهما رسمي والآخر حميمي.

يشكل المغرب أرضا خصبة لتعاش مجموعة كبيرة من اللغات في إطار التعدد اللغوي، ومجموعة من التنوعات اللغوية اللهجية، في إطار الازدواجية اللغوية، -فلا يكاد يخلو مجتمع ما من التعدد اللغوي أو الازدواج اللغوي أو الثنائية اللغوية سواء لأسباب وعوامل تاريخية أو اقتصادية أو حضارية أو اجتماعية أو طبيعية...-، التي لها بالغ الأثر في الوضع اللغوي الملاحظ بالمغرب في الفترة الراهنة، وامتناز المغرب في هذا السياق منذ عهود خلت بتعدد اللغات، الأمر الذي يعكس تنوعه الثقافي وزحمه الحضاري، فعلى امتداد جهات البلد تتميز وتنفرد كل منطقة على حدة بلغتها/ لهجتها الخاصة، بحيث نجد

توزع اللغة العربية بلهجاتها المرتبطة بخصوصيات في كل منطقة وكل جهة، بذلك تعددت المظاهر لاستراتيجية السياسة اللغوية بالمغرب، فهي بالتالي، تعكس غنى وتعايش هذه اللغات (العربية، الفرنسية، الإنجليزية، الإسبانية،...)، وكذا تعايش وتداخل وتمازج اللهجات، الأمر الذي يتحصل عنه لهجات هجينة، نتداخل فيها خصائص اللهجات المحلية المتداخلة على مجموع مستويات الاستعمال والأداء. يؤكد عبد العالي الودغيري، في كتابه (اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية) أن علاقات الاتصال بين اللغة واللهجة تتركز أساسا في جانب من جوانب الأداء، وهذا الجانب هو المعجم، باعتباره النواة الصلبة الثابتة في اللغة المنتقلة من جيل إلى آخر، إذ يؤمن بسيرورة الاستمرار والتفاهم والتواصل بين سائر مستعمليها على اختلاف لهجاتهم، بالرغم من كل التحولات التي تطرأ على هذه اللهجات، الأمر الذي يضمن بذلك البقاء لهذه اللغة أو البقاء لهذه اللهجة وجود العلاقة الاتصالية وتمثلها في الأداء.

بهذا المقتضى، تطرح العلاقة الاتصالية بين اللغة واللهجة مجموعة من القضايا تتمثل في الملامح التي تعكسها هذه العلاقة، والدواعي أو الأسباب الكامنة خلف هذه العلاقة اللغوية اللهجية، وأهم التنوعات اللغوية الناتجة عن العلاقة الجدلية التي تجمع بين اللغة واللهجات المتفرعة عنها، والأهم من ذلك مستويات التدخل التي تحدث بين اللغات في إطار التعدد اللغوي والثنائية اللغوية.

1 خلفيات الدراسة الاستشراقية الفرنسية

لقد شكلت الحركات الاستشراقية عامة في علاقة بالمغرب، نقطة تحوله من بلد غامض غير معلوم الملامح، إلى بلد معروف سياسيا واجتماعيا وحضاريا، والحركة الاستشراقية الفرنسية كانت من أهم الحركات التي دفعت ببلد المغرب إلى التجلي والظهور في الساحة السياسية (بوصفه بلدا محط أنظار برائن الاستعمار)، والساحة الاجتماعية (من خلال التعرف على مكوناته الاجتماعية وثقافته)، والحضارية (من خلال محاولة الإحاطة بملامحه الحضارية)، وفيما يأتي تفصيل لدراسة استشراقية فرنسية، اهتمت بالمغرب في علاقة بالجانب اللغوي، الذي نحن في صدد البحث فيه، ومحاولة الكشف عن ما طفت به هذه الدراسة الاستشراقية الفرنسية من خلال لويام مارسيه، في كتابه "نصوص عربية من مدينة طنجة" .

"Texte Arabe de Tanger"

1.1 المستشرق وليام مارسيه (William Marçais)

وليام ماسيه مستشرق فرنسي متخصص في الفارسية، ولد في 1886م، وتعلم في (المدرسة الوطنية للغات الشرقية)، حيث حصل على دبلوم في العربية والفارسية والتركية، كما حضر محاضرات في (المدرسة العلمية للدراسات العليا) الملحقه بالسربون، وسافر إلى مصر، حيث التحق عضوا باحثا بالمعهد

الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، فأمضى الفترة الممتدة من سنة 1911م إلى سنة 1914م، وهنا اهتم بالنصوص العربية، فحقق كتاب (فتوح مصر) لابن عبد الحكم ونشره له المعهد الفرنسي، وأخذ في تحقيق كتاب (تاريخ مصر) لابن ميسر، وظهرت نشرته في 1919 (بدوي، 1993، صفحة 536).

دعي ليكون أستاذا للفرسية في (المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية)، واستمر لفترة من الزمن ينتقل بين هذه المدرسة وبين كلية آداب الجزائر، إلى أن استقر نهائيا في باريس، حيث أمضى بقية حيات التعليم في المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، ومن سنة 1938م إلى سنة 1948م كان أيضا مساعدا لمدير المدرسة آنذاك، ذهب إلى مصر سنة 1959م ضمن الوفد الفرنسي الإنجليزي في نونبر 1956م، وقتل مارسية في 09 نونبر من سنة 1969م لما داسته سيارة قرب منزله في باريس (بدوي، 1993، صفحة 536).

يتوزع إنتاج مارسية بين الدراسات العربية والدراسات الفارسية، وإن كانت شهرته تتصل بالفارسية أكثر، ففي علاقة بميدان الدراسات العربية اهتم مارسية بكتب التاريخ، فحقق - كما سبق القول - كتاب (فتوح مصر والمغرب) لابن عبد الحكم، وقد ترجم كتاب (قانون ديوان الرسائل) لابن الصيرفي، كما ترجم قصيدة ابن هاني في فتح المعزدين الله الفاطمي لمصر، وحقق كتاب (الاكتفاء بما يتضمن من مغازي رسول الله ومغازي الثلاثة الخلفاء) لأبي الربيع الكلاعي، وترجم كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) لعماد الدين الاصفهاني، وهو في استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القدس بعد استيلاء الصليبين عليها، وكذلك كتاب (مختصر كتاب البلدان) لابن الفقيه الهمداني، ولكنه توفي قبل أن ينشرها هاتين الترجمتين كما ألف مارسية كتابا صغيرا عن (الإسلام) يعطي فكرة سطحية عن دين الإسلام (بدوي، 1993، صفحة 537).

ومن كتبه المؤلفة ما يأتي:

"بحوث في الشاعر سعدي 1919م Essai sur le Poète" و"فردوسي والملحمة القومية Firdousi et L'épopée Nationale" و"شخصية الفردوسي La Personnalité de Firdousi" و"منوچهري Manoutchehri" و"الشاعر الفارسي بابا طاهر Le Poète Persan Baba Tahir" و"نظام الملك Nizam al-Molk" (بدوي، 1993، صفحة 537).

أما الكتب المترجمة من الفارسية إلى الفرنسية فيوردها عبد الرحمان بدوي على النحو الآتي: (بهارستان) لعبد الرحمان جامي، باريس 1925م، و(خسرووشيرين) للشاعر نظامي السمرقندي، باريس 1970م، و(دائمشامه علاء) لابن سينا بالاشتراك مع محمد آتشا، باريس 1958م-1956م،

و(كتاب جرشاسب) للشاعر أسدي و(ويس ورامين) للشاعر جرجاني، و(مختارات فارسية) 1950م عند الناشر Anthologie Persane, Paris, Payot (بدوي، 1993، صفحة 537).

لقد كان وليام مارسية من ذوي الثقافات الواسعة والميل إلى فقه اللغات السامية ولاسيما العربية، وقد أشبعت فيه ميله ذاك حكومة الجزائر عندما اختارته مديرا لمدرسة تلمسان وأستاذا فيها سنة 1898م، فاتصل بالفقهاء الذين كانوا يعلمون العلوم الإسلامية والبيان والأدب، ووقف على أساليبهم وعلى ما ضمت مكتبة المدرسة من مصنفات في الإسلام والعرب، ولم يقتصر على الجزائريين، بل طفق يتردد على التونسيين والمغاربة الذين لا ينقطعون عن الجزائر، ويقصد تونس والمغرب حبا في الاستزادة، ودراسة لهجات شمالي إفريقيا كأهل تلمسان وأولاد إبراهيم قرب وهران والنصوص العربية في طنجة، فلما استدعته مدرسة الدراسات العليا ومعهد فرنسا في باريس أستاذا فيهما -وقد عد في الدرجة بين المستشرقين الأوروبيين- لم يقطع صلته بإفريقيا بل طفق يتردد على تونس أسابيع من كل سنة لإلقاء دروس بالعربية، وكان يتقنها كتابة وخطابة نكير أبناءها، فيتوافد عليها الفرنسيون والعرب من كل صوب (مراد، معجم أسماء المستشرقين، صفحة 1003).

اعتبر وليام مارسية من هؤلاء المستشرقين الفرنسيين، الذي كان له اتصال ببعض البلدان العربية، خاصة تلك المنتمية إلى شمال إفريقيا (الجزائر، تونس، المغرب)، إذ دعا إلى ضرورة التمييز في لهجاتها بين اللهجات القروية Les Parles Villageois وبين اللهجات المدنية Les Parles Citatins، التي تكونت في المدن، حيث كانت ترتبط اللهجة القروية بساحل تونس والجزائر (جيجل وتلمسان)، وكان يشير المصطلح Les Parlais Montagnards في المغرب إلى لهجات اجبالة (Marcais, Jbala-Histoire et Societe : Etudes sur Le Maroc du Nord-Ouest).

2.1 العربية المغربية من خلال (Textes Arabes de Tanger)

لقد حل وليام مارسية في شهر غشت سنة 1900م بالمغرب، واستقر فيه لسنوات ثم غادره بعد ذلك ولم تمر على مغادرته سنوات قليلة حتى ألف كتابه الذي ضم مجموعة من الحكايات والمواضيع التي يحكيها أناس منتمون على أهل مدينة طنجة، يحكون فيها عن الواقع المعيش وعاداتهم وتقاليدهم الضاربة في عمق التاريخ، وبعض المهن المحلية وأغاني أطفالهم، كل هذا بلسانهم الذي تطبعه مميزات كانت راجعة للانتماء الجغرافي القريب من منطقة لها خصوصيات متميزة تمتاز بها عن غيرها من مناطق المغرب عامة، ... (Marcais, 1998, p. Introduction).

استعان وليام ماسية من أجل تحقق الدقة في النصوص المنطوقة، كما هو مشير إليه في مقدمة الكتاب، ببعض سكان مدينة طنجة، الذين حسب تعبيره أفادوا بشكل جيد في هذا السياق، إذ استفاد

من بعثة طلابية مغربية مكونة من ثلاثة شبان، يخذرون من مدينة طنجة، كانوا قد أرسلوا إلى الجزائر للتحصيل العلمي، في الصعيد نفسه وليام مارسيه كان مستقرا بالجزائر في تلك الفترة، فقد استغل الفرصة وحاول التحري، تحري الدقة من أجل فهم تام لموضوع بحثه، إذ صار يعقد مع الشبان لقاءات شبه يومية استمرت لشهور عدة بغية تطبيق ما يراه تطبيقا صوتيا، وتدوين كل الملاحظات التي يمكن أن تنفي بالغرض.

لقد تم جمع "نصوص عربية من طنجة Texte Arabe de Tanger" من طرف عدد من المخبرين والعلماء أوردتهم وليام مارسيه في المقدمة من قبيل (MM.Liideritz - Meissner - Blanc - Kampffmeyer - Marchand)، إذ إنه حاول أن يقدم في إطار القصص المؤلفة والمنقولة بشكل شفهي عن أهل طنجة وصفا لبعض من مشاهد الحياة الاجتماعية لمدينة طنجة من خلال معلومات عن العلاقات الأسرية والاختلافات الشعبية، والغذاء والصناعات المحلية وألعاب وأغاني الأطفال، فقد كان له كمخبرين عمال المطبخ (الطراح) وهم الذين أبلغوه عن عمل الفرن، كما غنوا له أغاني الأطفال الساخرة عن اليهود والزواج والنساء، ويقول وليام مارسيه في هذا السياق، إنه من المؤسف تمكنه من إرفاق النصوص بالصور الخاصة بتعبيراتهم التي كانت معبرة عن كل الأقوال والأحاديث التي تحدثوها، فقد كان لوليام مارسيه كمساعدين مجتهدين في الجزائر العاصمة خمس طلاب شبان طنجة؛ وهم: عبد القادر بن عباس، وأحمد بن عمر، ومحبوب بن محمود، من نونبر 1906م إلى يوليوز 1907م، وأحمد بن عمر، ومحبوب بن محمود، ومحمد اليعقوبي من أكتوبر 1907م إلى يوليوز 1908م، ومن يناير إلى يوليوز 1910م محمد اليعقوبي، ومن أكتوبر 1908م حتى تموز 1909م عبد القادر بن عباس، ومن أكتوبر 1910م إلى ماي 1911م مختار بن عبد السلام (Marcais, Texte Arabe de Tanger, 1998, p. Introduction).

ويقول وليام مارسيه في الصدد نفسه، إنه كان يملك في كثير من الأحيان طلابا من تلمسان الجزائر، قسطينة، بسكريس والأغواط، لحضور جلسات المحادثة واللقاءات، كنت أشعر بالفضول لملاحظة التأثير الذي أحدثته لهجة طنجة، ويجب أن نشير إلى اعترافه بأن الأمر استغرق منه أربعة أشهر من التمرين اليومي لسماع المخبرين بشكل مثالي عندما يتحدثون مع بعضهم البعض، أثناء الاستماع إلى هذه المحادثات، قدمت أكثر من الملاحظات فائدة لطالما كنت مقتنعا بأن المسلمين المثقفين إلى حد ما في شمال إفريقيا يسعون إلى حد ما بوعي عندما يتحدثون إلى أجنبي (أوروبي، أو مسلم يتحدث العربية من منطقة أخرى) لتكييف لهجتهم مع نوع من الرزانة، وأنه لا يمكن سماع اللغة الحقيقية إلا في المحادثات التي يجرونها مع بعضهم البعض (Marcais, 1998, p. Introduction).

2 العربية المغربية وخلفيات الراسة الاستشراقية الإسبانية

لقد نمت الدراسات العربية في إسبانيا بطريقة تختلف عما هو عليه الحال في باقي البلدان الأوروبية الأخرى، بدافع الاهتمام بماضي البلاد الإسبانية والمشاركة بدافع الحماس الغالب على الصراع الدائر حول طبيعة القرون الثمانية للسيادة الإسلامية وقيمتها، إذ تعد العمارة والنقوش والعملات والوثائق المحفوظة شاهدا ناطقا على سطوة التأثير العربي في الألفاظ الإسبانية والأسماء الجغرافية لشبه الجزيرة الإيبيرية، كما تعد مدرسة الاستشراق الإسبانية من أقدم الحركات الاستشراقية التي عرفتها أوروبا، حيث يرجع الاستعراق الإسباني إلى بداية انتشار الإسلام في الأندلس، بالتحديد خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، حيث بداي نهضة المسلمين في الأندلس - النهضة العلمية-، وقد واكب هذه النهضة المتميزة بدايات اهتمام الإسبان باللغة العربية والتراث العربي والأندلسي على وجه الخصوص.

لعل المدرسة الاستشراقية الإسبانية في حركاتها الاستشراقية (الاستشراقية) كانت سببا لعالم الاستشراق، إذ اقترن عملها بوجود العرب في الأندلس، عطفًا على الاتصالات المعرفية بين المسلمين والمسيحيين في مختلف عواصم الأندلس وتعلم النصارى للغة العربية والمسلمين للغات اللاتينية والقشتالية والإسبانية، فقد أنشئت مراكز لتعليم اللغات الشرقية ومنها العربية في مختلف الجامعات ابتداء من القرن الثالث عشر، وأنشئت مكاتب لتجميع الكتب العربية والإسلامية.

أما حينما يتعلق الأمر بخلفيات الدراسة الاستشراقية الإسبانية في علاقة بالمغرب، فإن الألفاظ الإسبانية التي دخلت اللهجة المغربية تمتعت بقسط وافر من سابقها الفرنسية، ويرجع هذا الأخير هذا الأمر إلى تلك الروابط التي ربطت إسبانيا بالمغرب منذ زمن طويل، مثل مدينة سبتة ومليلية في أيدي الإسبان منذ القرن الخامس عشر، وهذه المدن باقية إلى الآن، وهي في نظرهم مراكز أمامية من بلاد إسبانيا الأصلية، لذا نجد أن مليلية تحت إدارة مالقة وسبتة تحت إدارة قádiz، مخالفة لما هو جار عليه المغرب، ويرجع انتشار الألفاظ الإسبانية في اللهجة المغربية إلى اندماج الغزاة من سكان البلاد، وذلك أن المستوطنين الإسبان يفخرون بأصولهم البعيدة، التي تنحدر من سلالة مغربية، كما أن المشاكل التي آرتها الفوارق بين العنصرين المغربي والإسباني لم تكن كثيرة، وكانت غالبية المهاجرين الإسبانين من العمال والصناع الصغار الموظفين والجنود (رضوان، 2024، صفحة 436).

وقد مرت الكتابات الإسبانية عن المغرب في المراحل نفسها التي مرت منها الكتابات الفرنسية، مع لزوم مراعاة ما ميز التاريخ المعاصر لإسبانيا من سوء الاستقرار السياسي وعنف الصراعات الداخلية، بحثًا عن سبيل التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، التقليد والإبداع، والواقع أن تدخل إسبانيا في المغرب كثيرا ما كان وليد اعتبارات لا تتصل بحاجة الصناعة الإسبانية إلى الأسواق، إذا كانت الصناعة عاجزة بنيويا

على استغلال السوق الوطنية، وعليه فالغلاف الإسباني أقل غزارة من الغلاف الفرنسي...، وقد حاول هذا الغلاف (الإسباني) أن يركز على مناطق شمال المغرب... سواء على مستوى الإعلام أو الثقافة أو الممارسات الاجتماعية، وكما يتعلق بكيوننة وماهية الإنسان المغربي، تحت شعار لا يخلو من الديماغوجية "الأخوة الإسبانية المغربية"، وهو غلاف في حاجة إلى توسيع مدار ترجمته إلى العربية والأمازيغية... وإن كانت هناك محاولات كثيرة قيّنة بالتقدير العلمي (رضوان، 2024، صفحة 436).

1.2 المستشرق خوصي لورشندي (JOSÉ LERCHUNDI)

شهد الاستشراق الإسباني نشاطا كبيرا في مطلع القرن التاسع عشر وما بعده، وذلك بسبب الإقبال الكبير للباحثين الإسبان على ميدان الدراسات الاستشراقية الذي جذبهم وفرة المخطوطات العربية التي وفرتها المكتبات الإسبانية إليه، إذ كان للقساوسة والرهبان واضح الأثر في تنشيط الاستشراق الإسباني، وذلك من خلال الانخراط الشخصي في ميدان الدراسات الاستشراقية، أو من خلال دفعهم باحثين آخرين إليه، ومن أشهر هؤلاء المستشرقين نذكر يحونا الأشقوبي وبدرو القلعاوي وريمونديو مارتيني وكايس... .

والأكيد أن إسبانيا تعرف بأنها أقوى دول أوروبا صلة بالشرق، لاتصالها وقرها الجغرافي منه، وكذا لاحتضانها أعظم وأعتق حضارة أسسها العرب في دنو عن ديارهم، دامت ما يناهز خمسة قرون، كانت من القوة ما كانت عليه، إلى أن تركت آثارها بادية في الحياة الأندلسية في مختلف الأصعدة، وبناء على كل هذه المعطيات، نستحضر رمزا من رموز المستشرقين الذين لم يحظى بكثير الاهتمام والدراسة بالرغم مما نقب عليه وبالرغم مما توفرت عليه دراساته، هو المستشرق المستعرب الإسباني "خوصي لورشي" الذي سنحاول الوقوف عنده بعض الشيء لما قدمه من دراسة قيّنة في سياق العربية المغربية من خلال كتابه "Rudiments Of The Arabc-Vulgar Of Morocco أساسيات العربية المغربية المبتدلة".

يورد مصطفى بوشعراء، أن خوصي لورشندي من مواليد إسبانيا سنة 1836م، وكانت وفاته بطنجة سنة 1896م، كان كبير الرهبان بالمغرب حيث كان وروده عليه سنة 1862م، بعد حرب تطوان، وحيث أنه كان مستعربا فقد كانت له اتصالات بالدوائر الخنزنية العليا، إذ رافق الطريس إلى أوروبا سنة 1888م لمقابلة البابا وتهنئته، وشارك أيضا ف سفارة أخرى إلى إسبانيا، زد على ذلك أنه كان على اتصال بأعيان مغاربة، كان يتراسل معهم وسمي في المراسلات ب(يوسف الجندي)، وكان من المتحمسين لتصوير المغاربة سيما الصحراء الجنوبية (بوشعراء، 1989، صفحة 1404).

يضيف عبد الرحمان بدوي أن خوصي لورشندي راهب فرنسيسكاني إسباني، ولد في سنة 1836م في إقليم سان سبستيان (شمال غرب إسبانيا على الحدود مع فرنسا)، تعلم اللهجة المغربية العربية، وكتب معجما وكتاب نحو لما، انخرط في الرهبنة (الرهبانية الفرنسيسكانية) في 14 ريلويز سنة 1875م، وأوفدته "هيئة التبشير المسيحي" التابعة للبابا في روما إلى مراکش (المغرب الأقصى)، فرأى أنه لا يستطيع القيام بالتبشير إلا بعد تعلم اللغة العربية، الفصحى منها واللهجة العامية المنتشرة في مراکش، فتعلم العربية الفصحى واللهجة العربية المغربية (بدوي، 1993، صفحة 514).

ألف خوصي لورشندي كتابا في "مبادئ العربية العامية الداريجة عند أهل مراکش" مدريد، (1873م) وفي إثر ذلك عين مدرسا للغة العربية في كلية البعثات التبشيرية، القائمة في مدينة شنت يعقوب شمال غرب إسبانيا (Santiago de Compostela)، وبعد ذلك بسنوات عديدة قام برحلة في داخل مراکش لاستطلاع عادات وتقاليد الأقاليم التي كانت خاضعة للحكم الإسباني في شمال مراکش وتطوان وما حولها، وحالو أثناء ذلك اقتناء بعض المخطوطات العربية، لكن دون جدوى لعدم وجود مخصصات مالية لشرائها (بدوي، 1993، صفحة 514).

في سنة 1892م أصدر "المعجم الإسباني العربي Vocabularios Espanol-Arabigo" وقد طبعه في المطبعة التي أسسها في مقر بعثته التبشيرية في مدينة طنجة، وكان عنوانه كاملا:

Vocabularios Espanol-Arabigo del Dialecto de Maruecos, Congran Numero de Voces Usadas en Oriente y en Argelia.

كما هز ظاهر من العنوان "معجم اللهجة العربية العامية في مراکش، مع عدد كبير من الألفاظ المستعملة في الشرق العربي وفي الجزائر، يحتوي على وصف عادات أهل مراکش، ونبذة عن الدين الإسلامي وعن ملابس وأطعمة وفنون المغاربة (بدوي، 1993، صفحة 514).

لقد حضر خوصي لورشندي في كتابات الإسبان أنفسهم، وأبرز هؤلاء نجد خوان لويس نافل مولير المؤرخ الرسمي ليشيبونا الذي نشر معلومات مهمة عن الباحث الفرنسيسكاني، بالإضافة إلى تاريخ ميلاده (24 فبراير 1836م)، ووفاته التي كانت بطنجة يوم (9 مارس 1896م)، نجد إشارة إلى أن الأب لورشندي عرف بكونه مستعربا وكاتبا ودبلوماسيا وعضوا أكاديمية اللكية الإسبانية، كما تقلد منصب عضو نظري في الجمعية الإسبانية (المهتمين بالأفارقة وإفريقيا والمستعربين)، دون إغفال الجوائز المهمة التي حصلها من إيزابيلا الكاثوليكية (احمامو، 2018، صفحة 24).

ونجد في الدليل الفرنسيسكاني الإلكتروني أن خوصي كان دبلوماسيا، وصديقا للسلطان مولاي الحسن كان نجم السياسة الإسبانية في المغرب، وشارك في العديد من السفارات، وقد ساهم عمله في

تنفيذ وإعداد السفارة التي أرسله بشأنها السلطان لاوون الثالث عشر Leon XIII في عام 1888م، بأن تحظى إسبانيا بمكانة مرموقة، وقد نشأ لورشندي وسط عائلة شديدة التدين، كما أن اسمه كان هو خوسيه أنطونيو رامون، الذي تغير لاحقا بسبب مهنته، ويؤكد لويس مولير على ثلاث محطات رئيسة دينية يمكن استحضارها عن حياة المستعرب الإسباني، فالأولى كانت في 14 يوليوز 1856م، حيث شهد لورشندي العادة الفرنسيسكانية في الكلية التبشيرية بريجو Preigo، أما الثانية فسجلت يوم 24 شتنبر 1859م عندما رسم كاهنا، في حين المحطة الثالثة كانت عندما أنشد قداسه الأول يوم 4 أكتوبر من السنة نفسها (<http://www.chipionacronista.blogspot.com/2011/01/el-padre-jose-lerchundi.html>).

أطلق على خوسي لورشندي لقب "الرسول المبشر" من طرف المجمع المقدس لنشر الإيمان سنة 1861م، وفي السنة الموالية نزل بطنجة حيث كانت رحلة مخوفة بالمخاطر ومؤدية للموت لولا اعتدال المناخ كما تم تعيينه نائب العضو المنتدب لشركة برو سنة 1863م، وقد أدرك لورشندي منذ بداية حياته التبشيرية أن أدائه في أرض المغاربة لا يمكن أن يحتزل في وزارة الرسولية السبب لأنه شعر بميل غريزي يدفعه لدراسة اللغة العربية، كما أراد التعرف على حضارة وتاريخ المسلمين، فكرس لذلك طاقته ووقت فراغه، وغلبت الخلفية التعليمية للبعثة التي كان يرأسها بشكل جلي، وذلك من خلال اهتمام لورشندي بأطفال المدارس الابتدائية ومجال التعليم العالي، وكرس لورشندي جهده في المجال التعليمي، إذ استطاع بفضل كل ما قام به في الجانب الخيري أن ينتزع لقب (أب الفقراء) خاصة بعدما أنشأ ثلاث مؤسسات يمكن وصفها الأفضل في المجال الاجتماعي والخيري، ويتعلق الأمر ببناء حي للمنازل الاقتصادية المنخفضة التكلفة لإيواء خمسة وثلاثين من الأسر الفقيرة سنة 1887م، وبناء المستشفى الإسباني بطنجة سنة 1888م، ... وعند وفاته سنة 1896م، أشادت الصحافة من جميع الأقطاف بالدور الكبير الذي لعبه لورشندي بوصفه مستشقا ودبلوماسيا قدم الكثير من الخدمات لقضية الحضارة والمصالح المغربية الكنسية، فهو يعتبر أحد أبرز من أضاء صفحة التاريخ فيما يتعلق بالعلاقات المغربية الإسبانية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين (احمامو، 2018، صفحة 24).

2.2 العربية المغربية في Rudiments Of The Arabc-Vulgar Of Morocco

ابتدأ خوسي لورشني دراسته بالحديث عن أهم الدوافع والأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه "أساسيات العربية المغربية المبتدلة"، إذ نذكر منها ما يلي (Lerchundi, 1990, p. Preface):

- الرغبة الصادقة في أن يكون العمل ذا إفادة لبعض الإسبان المستشرقين بالمغرب أو الذين سيحضرون إليه.

■ إهداء هذا العمل إلى دون فرنيسكو، مفوض إسبانيا في المغرب، نظرا للجهود التي يقدمها لصالح الإسبان وكذا تشجيعه للبعثات الإسبانية بالمغرب.

وينشر خوصي لورشندي إلى تعدد أسماء العربية الأدبية، إذ نجد من بينها (اللغة المتعلمة- اللغة الكلاسيكية- اللغة المكتوبة)، لإضافة إلى انتشار اللغة المحكية في البلدان الإسلامية المختلفة، إلا أنها لا تستعمل للكاتب من لدن المتعلمين بوصفها لحن وفساد Corruption، وبالرغم من عدم التحدث بالعربية بنفس الطريقة في جميع البلدان العربية إلا أن لها نفس القواعد الثابتة في جميع الدول المستعملة فيها، وإن تخلت العرب عن بعض قواعد العربية بشكل أكبر أو أقل في المحادثة والاستخدامات المألوفة وفق مستوى ودرجة التعلم والحضارة لكل بلد على حدة.

ومن كل هذا يؤكد لورشني على أن العربية الأدبية هي نفسها العربية العامية -المحكية التي تم تجريدتها من الصعوبات النحوية الأساسية، وخفظت إلى أشكال أكثر بساطة، فإذا كان حجم تخلي البلدان التي تستعمل العربية في المحادثات العامة لتلك القواعد النحوية موحدًا، وإذا كان للحروف الهجائية المستعملة في هذه البلاد نفس الوضوح بشكل منتظم وموحد، وإذا استعملت نفس الكلمات في كل من المغرب ومصر وسوريا للتعبير عن نفس الأفكار والأشياء، فالأجدر أن العامية حسب لورشندي ستكون واحدة، وستخضع لنفس المطابقة في الاختلافات وعليه سيتم استعمالها بشكل موحد في جميع أنحاء هذه البلدان العربية (Lerchundi, 1990, p. Preface).

ويرى المستعرب الإسباني خوصي لورشندي أنه بحاجة لتقديم الملاحظات للدر على الذين يعادون العربية العامية، والذين يرون أن الكتاب عمل مضيعة للجهد والوقت وعدم الفائدة، إذ يقدم الملاحظات التالية (Lerchundi, 1990, p. Preface):

■ لن يكون بمقدور الشخص الأوروبي التفاهم مع عامة الشعب بعد تعلمه العربية الأدبية (الفصحى) ومراعاته للحديث بها واستعمال قواعدها النحوية، سيتم فهمه فقط من طرف (الفقيه) أو (الطالب) المحدودي العدد.

■ لا يستعمل المتعلمون العربية الأدبية (الفصحى) أثناء التحدث، وتقتصر قواعدها على الكتابة فقط.

■ الفرق الوحيد بين الطالب أو الفقيه وغيره في المحادثات العامة، يكمن في الأسلوب، ما عدا ذلك فالجميع يستعمل الكلمات بنفس طريقة النطق بالرغم من أنها لا تكون عربية أدبية.

■ الذي يتقن العربية العامية ليس بمقدوره فهم الجميع فقط، ولكن يمكن أن يكون قادرا على أن يجعل نفسه مفهوما لجميع المواطنين دون تمييز أو استثناء، في حين من يجيد العربية الفصحى لوحدها سيكون مفهوما من طرف المتعلمين فقط.

ويصرح لورشندي أنه لا يكتب للمتعلمين الذين يكمن دورهم في استكشاف الكنوز الواردة في الكتب الأدبية والشرقية، لأن هذا يقتصر فقط على العربية الأدبية التي تستطيع القيام بهذه الخدمة كم وضع ذلك ، ستكون مفيدة لصالح كل من يريد ربط الاتصال من أي نوع مع المغرب، ففي سنة 1861م عندما كانت القوات الإسبانية مازال تحتل تطوان، وعندما بدأت الأطماع ترصد المغرب، انصب فكر لورشندي أولاً نحو ماهية الوسائل التي قد تسهل اكتساب اللغة في البلاد، لذا كرس كل جهده للقيام بها العمل دون سواه لغرض التواصل مع المواطنين، بناء على مختلف العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين المغرب وإسبانيا.

ولم ينس لورشندي التذكير بالصعوبات الكثيرة التي رافقت هذه الدراسة، التي تأتي في مقدمتها، عدم وجود راهب في البعثة ملم باللسان العربي، إضافة إلى عدم وجود كتب مساعدة لهذا الغرض، كما يختم لورشندي مقدمة دراسته بأن الهدف الرئيس من هذه الكتاب هو تسهيل التفاهم والتكلم بالعربية المغربية العامية، كما يشير إلى أن عمله يمكن أن يكون ناقصاً معزياً ذلك إلى أنه لم يجمع فيه بين النظرية والتطبيق من حيث جمع اللغة العربية المغربية بين غلافه، وفي هذا السياق يقول "لكي تكون عالماً بالعربية العامية، اللغة الحية، من الضروري التحدث بها والاستماع إليها في شكلها المنطوق" (Lerchundi, 1990, p. Preface)

3 الاستشراق الفرنسي والإسباني للوضع اللغوي بالمغرب في القرن (20)

يبدو أن دراسة المستشرق الفرنسي وليام ماسيه كانت بمثابة وصف لمظاهر الحياة عند ساكنة مدينة طنجة، من خلال استحضاره نخمس حكايات، ييث فيها مجموعة من المظاهر والملاح التي طبعت أهل طنجة، إذ إنه لم يترك في هذه الحكايات مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية إلا وأغدقه بالحديث فيه ووصفه، بالمقابل نجد دراسة المستعرب (المستشرق) خوصي لورشندي في دراسته التي اعتبرناها سجلاً حافلاً بملاح الحديث اليومي، الذي سجله بكل عناية ودقة، ولعل عنايته تلك ستوضح من خلال ما سيأتي من عناوين ومحطات ندرسها من خلال الدراستين معاً، إذ إنهما تناولا بالدراسة العربية المغربية العامية في القرن العشرين، وفي طنجة وضواحيها، الأمر الذي يمدنا بمتمن موحد العينة، بالرغم من اختلاف الخلفيات الداعية لدراسته، وبالرغم من خلال الدارس وأهدافه.

1.3 الاستشراق الإسباني من خلال الأفعال والحالات الإعرابية في العربية المغربية

تنقسم الأفعال في العربية المعيار إلى مجردة ومشتقة، ويطلق على الأفعال المكونة من الحروف الجذرية فقط في الضمير المفرد الغائب المذكور، في حين تصبح عند إضافة لواحق للفعل في الضمير المفرد الغائب مشتقة، كما تنقسم الأفعال المجردة إلى قسمية؛ ثلاثية عندما يكون جذرها متكوناً من ثلاثة

حروف، ورباعية في حال تشكل جذرها من أربعة حروف، غذ نجد في الأفعال القياسي والسماعي، إذ يدخل في خانة الأول الأفعال الصحيحة الخالية من حروف العلة، والتي تكون حروفها الثلاثة جذرها، مثل: (عمل amel)، في حين تحصر حرف العلة في الجذر أو عند الإدغام (إدغام حرف بحرف من جنسه)، فنكون أمام الأفعال السماعية، مثل: (وصل ūsál)، (قال kál)، (حب hhabb) (Lerchundi, 1990, p. 177).

■ تصريف الفعل الثلاثي القياسي المجرد (عمل amel) (Lerchundi, 1990, p. 180.181):

الجمع		المفرد		
Hhana emelna	حنا عملنا	Ana amelt	أنا عملت	الذاتي
Antum ameltû	انتم عملتوا	Anta amelti	أنت عملت	
Hûm amelû	هم عملوا	Hûa amel	هو عمل	
		Hîa ametet	هي عملت	
Hhena namelû	حنا نعملو	Ana namel	أنا نعمل	الضارع
Antum tmelû	انتم تعملو	Anta tamel	أنت تعمل	
Hum îamelû	هم يعملو	Hûa îamel	هو يعمل	
Aâmlû antum	اعملوا انتم	aâmel	اعمل أنت	الأمر

يعبر خوصي لورشندي عن المقارنة بين العربية المغربية والعربية الجزائرية، إذ يرى أن تصريف الفعل في المضارع والأمر يكون أكثر دقة وتنظيماً في الجزائر، ويقدم مثالا لتصريف فعل (عمل amel) في المضارع: أنت تعمل، أنت تعلمي، وفي سياق الأمر: اعمل أنت- اعلمي أنتي.

■ تصريف الفعل الرباعي القياسي المجرد (ترجم ترجم) (Lerchundi, 1990, p. 196.197):

الجمع		المفرد		
Terjéna	حنا ترجمنا	Terjémt	أنا ترجمت	الماضي
Terjemtû	انتم ترجمتموا	Terjémti	أنت ترجمت	
terjémû	هم ترجموا	Terjem	هو ترجم	
		terjemet	هي ترجمت	
n-terjemû	حنا نترجموا	n-terjém	أنا نترجم	المضارع
t-terjmû	انتم تترجموا	t-terjém	أنت تترجم	
i-terjemû	هم يترجموا	i-térjém	هو يترجم	
		térhém	هي تترجم	
Térjémû (antûm)	ترجموا (انتم)	Térjém (anta)	ترجم (أنت)	الأمر

■ تصريف الفعل المعتل المثال (وصل وصل) (Lerchundi, 1990, p. 209.210):

الجمع		المفرد		
ûsalna	حنا وصلنا	ûsalt	أنا وصلت	الماضي
ûsaltû	انتم وصلتموا	ûsalti	أنت وصلت	
ûeslû	هم وصلوا	ûsal	هو وصل	
		ûes-let	هي وصلت	
nûeslû	حنا نوصلوا	nûsal	أنا نوصل	المضارع
tûestû	انتم توصلوا	tûsal	أنت توصل	
îûeslû	هم وصلوا	iûsal	هو يوصل	
		tûsal	هي توصل	
ûeslû	اوصلوا / وصلوا	ûsal	أوصل / وصل	الأمر

■ تصريف الفعل المعتل الأجوف (كان kan) (Lerchundi, 1990, p. 218):

الجمع		المفرد		
Kûnna	حنا كنا	kûnt	أنا كنت	الماضي
Kûntû	اتم كنتوا	kûntî	أنت كنت	
Kanû	هم يكونوا	kan	هو كان	
		kanét	هي كانت	
Enkûnû	حنا نكونوا	enkûn	أنا نكون	المضارع
Tékûnû	اتم تكونوا	tékûn	أنت تكون	
Ikûnû	هم يكونوا	ikûn	هو يكون	
		tékûn	هي تكون	
kûnû	اتم كونوا	kûn	أنت كن	الأمر

■ تصريف الفعل المعتل الناقص (مشى msha) (Lerchundi, 1990, p. 231.232):

الجمع		المفرد		
meshîna	حنا	meshît	أنا مشيت	الماضي
meshîtû	اتم	meshîti	أنت مشيت	
meshaû	هم	mesha	هو مشى	
		meshat	هي مشت	
nemshîû	حنا	nemshî	أنا تمشي	المضارع
temshîû	اتم	temshî	أنت تمشي	
îemshîû	هم	imshî	هو يمشي	
		temshî	هي تمشي	
emshîû	اتم امشوا	emshî	أنت امش	الأمر

■ تصريف الفعل المعتل الليف المفروق (وفي ūfa) (Lerchundi, 1990, p. 253):

المفرد		الجمع	
أنا وفيت	ūfit	حنا وفينا	ūfina
أنت وفيت	ūfiti	انتم وفيتوا	ūfitū
هو وفي	ūfa	هم وفوا	ūfaū
هي وف	ūfat		
أنا نوفي	nūfi	حنا نوفوا	nūfiū
أنت توف	tīfi	انتم توفوا	tūfiū
هو يوفي	iūfi	هم يوفوا	ūfiū
هي توف	tūfi		
أنت اوف	ūfi	انتم اوفوا	ūfiū

2.3 المستوى المعجمي في الاستشراق الفرنسي من خلال الاقتراض اللغوي

من المسلم أن الاقتراض اللغوي لا يطال العربية الفصحى وحدها، إنما يرتبط أيضا باللهجات العربية لوصفها استرسال وتدرج عن الأولى، والعربية المغربية بالمغرب في هذا المقام حسب عبد الرحيم يوسي احتجنت مجموعة من الكلمات المقترضة عن لغات عدة كالفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية... مع وفرة كلمات اللغة الفرنسية، ذلك أن محطة الحماية قد أثرت على الإدارة والحياة العامة المغربية في شتى المجالات، الأمر الذي عبد الطريق لظهور الكلمات المقترضة، تنتمي للحياة العامة، فأدجت وأصبحت مقبولة ومستصاغة من الناحية المورفولوجية، وقد توزعت في الانتماء إلى حقول متنوعة، الطب منها والرياضة والسياسة والإدارة والفلاحة ووسائل النقل والثقافة واللباس... (Youssi, 1992، صفحة 313، 314).

ويشتمل النسق اللهجي المدروس -العربية المغربية- مجموعة من الكلمات والألفاظ المقترضة عن لغات أخرى، نفذت أو تسلت بحكم السياق والمناسبة للذات طبعا مدينة طنجة في فترة ما قبل الحماية¹،

¹ كان الحضور الأجنبي بالبلاد أثر على انتشار الواسع للحماية القنصلية، فإذا كانت مقتضيات اتفاقية سنة 1856م (المغرب وبريطانيا)، حيث تقوم على تأكيد على حصر نطاق وحدود الحماية القنصلية في عدد ضئيل من المغاربة، فإن فرنسا قد اعتبرت تلك الامتيازات غير كافية لدعم نفوذها وتحقيق مصالحها التجارية فأرست ضغوطات قوية على المخزن وانتهت بإبرام اتفاقية 1863م، وقد منحت لفرنسا وكل الدول الأجنبية المتعاقدة مع المغرب الحق في بسط الحماية القنصلية.

الأمر الذي منحها خصوصيات وسمات جعلت منها فضاء يحتمل لغات متعددة ويأوي الإسبانيين والفرنسيين والإنجليز والبرتغاليين

كما تحمل الكلمات المقترضة معان ودلالات عدة سواء في لغتها الأصلية أو عند انتقالها لتأدية معنى في النسق اللهجي -العربية المغربية-، كما أن العديد منها لها أصول لغوية محددة، وذات وظائف بعينها، وهو ما سنخوضه ونتعرفه اعتماداً على ما جاء في النصوص المدروسة، وما جاء في معجم الكلمات الذي وضعه وليام مارسيه الذي استند فيه بدوره إلى مصادر أبرزها كتاب لورشندي "المعجم الإسباني-العربي للهجة المغربية" (Lerchundi, 1990, p. 328)، وما سيأتي عرض لبعض الكلمات المقترضة من النصوص ودلالاتها:

- (لگانشو Lgaaja): يتعلق الأمر بقطعة حديدية مقوسة ومدورة، لها وظائف عديدة، فهي توضع على الأبواب لتساعد على إحكام غلقها، وتستعمل من أجل ربط العربية بالدابة، وشدها بها، يطلق عليها في العربية الفصحى "الملقاط"، أما فيما يخص النسق اللهجي المدروس؛ فيتعلق الأمر بعود من الدلم، يكون على رأسه قطعة من الحديد، ويستعمل من طرف طاهي الخبز "المعلم" بغرض جلب الأعواد والألياف اليابسة إلى القرن (Marcais, 1998, p. 16).
- (جنكه JJanka): اقترضت الكلمة من اللغة الإسبانية، وهي بمثابة اسم قدحي، يطلق على المرأة التي تقوم بعلاقات جنسية متعددة خارج منظومة الزواج، مقابل ثمن تطلبه من بزائها، أي أنها بائعة هوى (العاهرة بمعناه الذميم)، يُستعمل هذا اللفظ في لهجة طنجة من أجل السب والقذف (Marcais, 1998, p. 68).
- (بلنسي Lbalansi): كلمة إسبانية ذات أصول أندلسية، نسبة إلى "فلنسية Valence"، إحدى المدن الإسبانية التي خضعت إلى الحكم الأندلسي في إسبانيا، ويتعلق ذكرها في النصوص بفاكهة "البرقوق"، صغيرة وبيضاء، سميت البلنسي وأطلق عليها عند اقتراضها بلنسية لكون المدينة تشتهر بزراع هذه الفاكهة (Marcais, 1998, p. 236 . 237).
- (ماريو Maariyyu): كلمة ذات أصول إسبانية، تطلق على خزانة مصنوعة من الخشب، توضع فيها الملابس الشخصية والأغراض الخاصة (Marcais, p. 462).
- (كجيينه Kəjjina): اسم مكان للطبخ عند الإسبان، اقترضت من اللغة الإسبانية Casina أو الفرنسية Cuisine أو الإنجليزية Kitchen، يطلق عليها المغاربة أيضاً مصطلح الدويرة، وهو كوخ يكون خارج المنزل، يتم بناؤه بالطوب والحجارة وبعض الأعواد الخاصة، ينطق هذا اللفظ "لكشينه" في كثير من اللهجات المغربية (Marcais, 1998, p. 100).

- (كَّابَه Kanaaba): تطلق هذه الكلمة على شبه سرير من الخشب، مأخوذة من الكلمة الفرنسية Canapis، توظف هذه كلمة كثيرا من طرف سكان الشمال في أثناء عملية التخاطب خاصة في مدينتي طنجة وتطوان، وتسمى في العربية الفصحى الأريكة، التي هي عبارة عن كراس كبيرة ومريحة توضع في وسط المنزل.
- (طرمبه Ttrumba): وهي كلمة ذات أصل أندلسي إسباني، مقترضة من طرف عرب الأندلس، وطرمبو ترد في النصوص المدروسة باعتبارها اسما للعبة مكونة من قطعة خشب، يتم لفها بخيط يلعبها الأطفال الصغار فيما بينهم (الببل) (Marcais, 1998, p. 371).
- (بيوه PPIiwa): إنها كلمة ذات أصول إسبانية-إسبانية، تطلق على قطعة من الخبز، وهي تقدم كأجر وجزء للمستخدم في الفرن صنيع عمله وخدمته، أي أنها تمنح للأطفال الصغار الذين تقوم مهمتهم على نقل الخبز لأصحابه بعد أن تنتهي عملية الطهي من لدن "المعلم".
- (بطيطه BsII[ta): بَطِيطَه اسم سك نقدي، أو لتقل قطعة نقدية إسبانية، كان يستعملها سكان الشمال بكثرة، وتقابل السك النقدي الفرنك والريال، لذلك نجد بعض المتكلمين ما زالوا يطلقونها على الفرنك أو الريال بطيطه (Marcais, 1998, p. 231).
- (نكليز ngliiz): وتعني الإنجليز، فتكتب في لغتها الأصلية English، تنطق "انكليز" نظرا لانعدام حرف (ك g)، وقلة استعماله في لهجة طنجة، فيتم إبداله في بعض الأحيان ب حرف (ق q).
- (بليون bəlyuum): بليون اسم مبلغ نقدي إسباني، عبارة عن قطعة نقدية تقدر ب 25 سنتيم حسب ما أشار إليه لورشندي في معجمه إسباني-عربي في اللهجة المغربي، وكذلك وليم مارسيه في كتابه المدرس (Marcais, 1998, p. 231).
- (برطقيزي bərtqiizi): نسبة إلى البرتغالي الذي ينتسب إلى دولة البرتغال، والامر يتعلق في النسق اللهجي المدرس بفاكهة عبارة عن نوع من "البرقوق" ذات لون بني داكن، يتماشي وسخنة الموجودة عند البرتغاليين (Marcais, 1998, p. 442).
- (جبوقه Jbuaqa): ويتعلق الأمر بكلمة مقترضة من اللغة البرتغالية، إنها "لشبونة" اسم مدينة برتغالية خضعت للتشويه والتحريف من حيث النطق عند محاولة تعريبها، فصرنا نتحدث عن اجبوقه عوض لشبونة Lisbouna (Marcais, 1998, p. 447).
- (كُنْگَر gəngər): وهي كلمة إسبانية ذات أصل روماني، استخدمت من طرف اللهجة الإسبانية، استعمالها في النسق اللهجي المدرس اليهود الذين كانوا يسكنون مدينة طنجة، ويقصد بها تلك المساحة الصغير الفارغة على جنبات الحفرة القريبة من القرن التقليدي (Marcais, 1998, p. 258).

- (ستيتوّه stiiitwa): لفظ إسباني يستعمل للإحالة على الصغير من الإنسان أو الحيوان أو الشيء (Marcais, 1998, p. 228).
- (بنيار pənyaar): كلمة ذات أصل فرنسي، عبارة عن آلة حديدية حادة ومقوسة يطلق عليها بالعربية الفصحى (الخنجر) (Marcais, 1998, p. 442).
- (سپيرتيوّه spiirtiiwa): عبارة عن مادة تستعمل في إشعال النار (الكبريت alumette)، وتسمى في العربية المغربية (لوقيد) (Marcais, 1998, p. 328).
- (بلاصه pllaşa): كلمة ذات أصل فرنسي مقترضة عن الكلمة الفرنسية (place)، ومن المحتمل أنها مأخوذة من الكلمة الإسبانية (plaza)، أما في العربية المغربية وفي عربية طنجة حسب وليم مارسيه، فالأمر يتعلق بسوق الخضر، أو ما يسميه البعض "الرحبه" (Marcais, 1998, p. 26).
- (بلاشه plaşa): كلمة ذات أصل إسباني (blancha)، ويقصد بها (fer à repasser) أي أنها قطعة من الحديد المبسوط والمصوب (Marcais, 1998, p. 442).
- (طويسه طاس ttwiisa): كلمة ذات أصل فرنسي، تصغير (طاس tass) التي تعني في اللغة الكوب الذي يوضع فيه الماء.
- (آمدران ?amədran): كلمة مقترضة من أصل أمازيغي، حسب لورشندي تلق على الغصن، وهناك من يعتبرها عربية تعود إلى عبارة (ماذا جرى؟/ ماذا طرا؟).
- (باله ppaala): يطلق عليها بالفرنسية (pelle)، أما في اللغة الإسبانية فيطلق عليها (pala)، وهي أداة من الحديد توضع لها عصا خشبية يدوية الحمل، تستعمل بهدف رفع الرمال والأتربة والأحجار الصغيرة، يستعان بها حسب وليم مارسيه في رفع وتحريك وتقليب الخبز الموجود بداخل الفرن (Marcais, 1998, p. 441).

يتضح من خلال الكلمات المقترضة التي جردناها من كتاب "Texte Arabe de Tanger" أن هناك تأثيراً على عربية طنجة بالنسبة إلى اللغة الإسبانية ولغات أخرى كالفرنسية والإنجليزية والبرتغالية، إذ إن الهيمنة تجلت أكثر في علاقة باللغة الإسبانية، بالمقارنة مع اللغات الأخرى، وهذا دليل على مدى الاحتكاك الذي حصل للسان الإسباني مع المغرب والمغاربة، ومع أهل طنجة على وجه التدقيق.

3.3 الكلمات المقترضة من نموذج الدراسة الاستشرافية الفرنسية

يرجع أصل العديد من الكلمات المقترضة حسب وليم ماسيه إلى اللغة الإسبانية، بسبب قرب مدينة طنجة الجغرافي من إسبانيا، وكذا وجود هجرات تاريخية، إذ هناك كلمات يعود أصلها إلى لغات أخرى بدرجات متفاوتة، ونقصد بها اللغات الفرنسية والبرتغالية والأمازيغية والإنجليزية، وتجلي الكلمات

والألفاظ المقترضة من اللغة الإسبانية ليس بالغريب، كما أننا نلفي ذلك في جل مدن شمال المغرب، نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر مدينة شفشاون التي خلص فيها الحضري عبد النور إلى أن معظم الكلمات المقترضة في اللهجة الشفشاونية، وهي اقتراضات من اللغة الإسبانية، ويعزى كل هذا إلى عوامل جغرافية وتاريخية واجتماعية².

الواضح أن هذه الألفاظ المقترضة تمكنت من الانسلاخ إلى عربية طنجة خاصة، والعربية المغربية عامة، نتيجة أسباب تاريخية نذكر منها ما تعود جذوره إلى حوالي القرن السابع عشر عندما تعرض المورسكيون للطرد من إسبانيا، إذ كانت وجهتهم آنذاك شمال المغرب سنة 1683، فأثر الأندلسيون في المغرب، وقد وجد قدم لكثير من الكلمات المقترضة شما المغرب، التي ارتفعت بشكل أكبر بعد أن صارت طنجة مدينة مفتوحة أما الإسبان والفرنسيين والإنجليز والبرتغاليين... بدون إغفال هجرات أناس قادمين من مدن ريفية مثل الناظور والحسيمة.

لقد خلق احتلال مدينتي سبتة ومليلية من قبل الإسبان لمدة ليست بالهينة احتكاك يوميا مع الإسبانين، سواء في فترة دخولهم إلى طنجة عن طريق سبتة ومليلية أو عن طريق اللقاء ببعض أناس طنجة أثناء ولوجهم إلى سبتة ومليلية، كما أن الاحتلال الإنجليزي لمدينة طنجة وقبله الاحتلال البرتغالي ساهم في خلق احتكاك لغوي يومي أدى إلى ظهور كلمات مقترضة ودخيلة على اللغة العربية عموما وعربية طنجة بشكل أكثر تديقا.

وما يأتي من الكلمات المقترضة من لغات عدة، وطريقة نطقها وفق العربية اللهجية لطنجة، وكذلك الدلالات والمعاني التي تحملها سواء تعلق الأمر بعربية طنجة أو تعلق الأمر بلغتها الأصلية:

الكلمة المقترضة	نطقها	أصلها	معناه بالعربية الفصحى
لكانشو	Lgaafa	إسبانية وبرتغالية	الملقاط
ضبلون	dabluun	إسبانية	قطعة نقدية
ماريو	Maariyyu	إسبانية	خزانة الملابس
كآبه	Kanaaba	إسبانية	الأريكة
طرمبه	ttrumba	أندلسية إسبانية	لعبة (البلبل)
بلنسي	balansi	أندلسية إسبانية	فاكهة
تساميره	Tjaamira	إسبانية	لباس سميك

² عبد النور الحضري، التنوع اللغوي في اللهجة الشفشاونية: مقارنة في اللسانيات الاجتماعية، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2009، ص. 267.

نقليز	nəgliiz	إنجليزية	الإنجليزية
بصيطه	BsIIʔa	إسبانية	قطعة نقدية "ريال"
بليون	bəlyuum	إسبانية	مبلغ مالي
برطقيزي	bərtqiizi	برتغالية	البرتغالي
كجينه	Kəjjiina	إسبانية إنجليزية	المطبخ/ مكان الطبخ
جنگه	JJanka	إسبانية	العاهرة/ بائعة الهوى
جبوقه	Jbuuqa	برتغالية	مدينة لشبونة
كُنْكَر	gəngər	رومانية	مساحة صغيرة فارغة
سْتِيْتُوَه	stiiitwa	إسبانية	صغيرة
س پرتيوه	spiirtiiwa	إسبانية	الكبريت لإشعال النار
پلاصه	pllaʃa	فرنسية/ إسبانية	ساحة/ مكان
طويسه (طاس)	ttwiisa	فرنسية	كأس
كارطا	Lkaarta	فرنسية	لعبة ورق
پلانسه	plafa	إسبانية	قطعة خشب
طاجين	Tajjin	فارسية	أداة طينية يطبخ فيها
طايات	Taappiyaat	فرنسية	زرابي
آمدران	ʔamədran	ريفية	العود الصغير من الشجرة
پيوه	PPiwa	إسبانية	قطعة من الخبز
آنقل	ʔanqal	ريفية	خبز صغير
پنيار	pənyaar	فرنسية	الخنجر
فراصيطيرو	Fraaʃtiiru	إسبانية	اليهود العرب غير الأصليين
فرانصيص	Fraaʃiiʃ	فرنسية	الفرنسيون
پاله	Paala	إسبانية	أداة لرفع الرمال والأتربة
آفلا	ʔaqla	ريفية	اسم مكان

تنتمي العديد من العبارات والألفاظ في نصوص وليام مارسية المذكورة في كتابه " *Texte Arabe de Tanger* "، بالتالي فهل للألفاظ والكلمات التي يحتاجها النسق اللهجي المدروس (عربية طنجة) والمنتمية للعربية الفصحى الدلالة ذاتها أو أن لها دلالات أخرى تبلورت انطلاقاً من طبيعة المحددات الاجتماعية واللغوية والفكرية.

خلاصة

لقد عرف المغرب وفود مجموعة من الحضارات والثقافات الغربية عنه، الحاملة من خلال لغاتها وأساقها التواصلية المختلفة عن النسق اللغوي العربي صوتياً وصرفياً وتركيبياً ودلالياً، الأمر الذي جعل عملية الاحتكاك بين هذه الثقافات الوافدة وبين الثقافة المغربية المحلية من خلال لغتيهما، يحصل بنوع من التأثير والتأثر، ولعل جدلية هذا التعالق هي ما يسمح بحضور أطراس اللغات الأجنبية في كل من العربية المغربية والتنوعات اللغوية اللهجية.

الدراسات الاستشرافية في هذا الصدد باختلاف المستشرقين واختلاف الهيئات واختلاف الخلفيات، كانت من الوسائل المهمة بما في الكلمة من معنى في الكشف عن ملامح هذه الاحتكاك الحاصل بين اللغات، وتأثير كل منها في الآخر، بشكل عام، والدراسات الاستشرافية الفرنسية والإسبانية بشكل خاص، بمبرر أن الفرنسيين والإسبانيين كانوا الأكثر تواصلًا من بلاد المغرب بوجه عام، وبلد المغرب بوجه خاص، الأمر الذي تخض عنه بكل مسؤولية تشاجر كل من اللغة الفرنسية واللغة الإسبانية مع اللغة العربية والعربية المغربية بشكل أدق.

شكلت هذه الدراسات الاستشرافية الفرنسية والإسبانية منعطفًا مهمًا في الكشف عن التعالقات الحضارية والثقافية واللغوية التي نضحت بها المحطات التاريخية التي تعاقبت على بلد المغرب من مد وجزر، وهذا الأمر من صميم عمل اللسانيات الاجتماعية في علاقة في علاقة بدراسة اللغة وما تفرع عنها، ومن ضمن عمل علم الأنتروبولوجيا في علاقة بدراسة العلاقات الإنسانية والحضارية، ومن صميم عمل علم الإثنولوجيا في علاقة بدراسة الملامح الثقافية، والمغرب في سياق كل هذا يتخذ موقع البؤرة، لأنه مجال كل هذه الدراسات، ولأنه مجال اشتغالنا من خلال محاولة الكشف عن التداخلات وكذا آثار التأثير والتأثر.

عرف المغرب وضعا يتميز بالتنوع والتعدد الثقافي، الذي ترجمه التنوع والتعدد اللغوي من توافد نجد حضور وضعيات لغوية - كأبي مجتمع وكأي بلد - توزعت بين الازدواج اللغوي والثنائية اللغوية والتعدد اللغوي والتنوع اللهجي المحلي، وبناء على كل هذه المؤشرات، نخلص إلى أن المغرب كمجال للدراسة أرض وتربة خصبة، لتوافد كل أنواع الدراسات اللغوية والثقافية والحضارية.

بيبلوغرافيا

- إبراهيم بوطالب، «البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية (حصيلة وتقويم)، البحث في تاريخ المغرب»، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الندوات والمناظرات رقم 14، الرباط، 1989.
- أحمد شراك، «سوسيولوجيا المغرب (المقاربة الأنجلوساكسونية)»، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، ط. 2، 2015.
- اسليماني رضوان، «الحركة الاستشراقية الفرنسية والإسبانية بالمغرب (مقاربة لسانية اجتماعية)»، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، ع. 31، مارس 2024.
- الدليل الفرنسي سكاني الإلكتروني (-/01/el-<http://www.chipionacronista.blogspot.com/2011/01/el-padre-jose-lerchundi.html>).
- عبد الرحمان بدوي، «موسوعة المستشرقين»، دار اعلم للهايين، بيروت، لبنان، ط. 3، يوليو 1993.
- عبد العالي احمامو، «الاستعراب الإسباني بالمغرب (خوصي ماريا لورشندي 1836-1896)»، المركز الإسلامي الدراسات الاستراتيجية، العراق، راسات استشراقية، ع. 16، 2018.
- عبد المنعم سيد عبد العال، «لهجة شمال المغرب "تطوان وما حولها"»، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1968.
- عبد النور الحضري، «التنوع اللغوي في اللهجة الشفشاونية: مقارنة في اللسانيات الاجتماعية»، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2009.
- عبد الوهاب بن منصور، «مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأته إلى مؤتمر مدريد 1880م»، مطبعة المملكة المغربية، الرباط، ط. 2، 1985.
- محمد القبلي، «تاريخ المغرب التحيين والتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب»، الرباط، ط. 1، 2001.
- مصطفى بوشعراء، «الاستيطان والحماية بالمغرب 1280-1311 / 1894-1963»، ج. 4، الهجرة من المغرب وإليه»، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دط، 1989م، ص. 1404.
- يحيى مراد، «معجم أسماء المستشرقين»، دط، دت، ص. 1003.
- Abderrahim Youssi, «Grammaire et lexique de l'Arabe marocain moderne», walladia, 1992.

- Joseph Lerchundi, «*Rudiments of The Arabic Vulgar of Morocco*», translation de James Maciver Moeleod, the Spanish Catholic Mission, Press, Tangier, 1990.
- William Marçais, «*Jbala-Histoire et Societe : Etudes sur Le Maroc du Nord-Ouest*», Paris Edition du C. N. R. S
- William Marçais, «*Texte Arabe de Tanger*», Paris Imprimerie Nationale Ernest, Leroux, 1998.

النظريات المفسرة للإبداع، الإبداع الفني نموذجاً .

Explanatory Theories of Creativity: Artistic Creativity as a Model.

هشام مناجي، طالب بسلك الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق ،

جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المملكة المغربية

مختبر البحث في الثقافة والعلوم والآداب العربية.

إشراف: د عبد المجيد شكير

hichammounaji2@gmail.com

الملخص :

يكتسي الإبداع أهمية قصوى في تاريخ البشرية ذلك أنه يعتبر المحرك الأول للفعل الحضاري والدعامة الأساسية التي يرجع لها الفضل في إرتقاء الإنسان وتطور نمط حياته ، لكن هذا المفهوم شكل ولا يزال علامة استفهام مؤرقة حيث مازال الاختلاف الى الان قائماً حول تفسير وتحليل الفعل الإبداعي بحثاً عن مسبباته وآلياته ودعائمه .

من هذا المنطلق فقد اهتم العلم الحديث بدراسة وتحليل الإبداع أملاً في توحيد الرؤى والتصورات حول الظاهرة الإبداعية ، مما خلف تراكم معرفياً في هذا المجال وفتح آفاقاً خصبة للبحث في موضوع شائك ومؤرق ، لتأتي هذه الورقة البحثية كمحاولة لدراسة وتحليل هذا الجانب التنظيري الذي واكب عملية الإبداع خاصة في شقه الفني ، وذلك قصد استخلاص ملامح وأبعاد تلك النظريات والأبحاث ، والتعمق في دعائم كل نظرية على حدة ، أملاً في استخلاص النتائج وتوحيد الرؤى والتصورات حول قضية نالت حظها من التعقيد وتحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث والتنقيب .

الكلمات المفتاحية : الإبداع - نظريات - مقارنة - تحليل - تفسير /...

Abstract:

Creativity assumes paramount significance in the historical tapestry of humanity, emerging as the primary impetus behind cultural evolution and a cornerstone credited with the ascent of human society and the refinement of its lifestyle. However, the nuanced concept of creativity remains a lingering enigma, characterized by a perennial divergence of opinions regarding its interpretation and analysis. Contemporary scholars have dedicated considerable scholarly attention to the systematic exploration and scrutiny of creativity, endeavoring to synthesize perspectives and conceptualizations surrounding this profound creative phenomenon. This intellectual pursuit has yielded a substantial repository of knowledge, laying the groundwork for an in-depth investigation into this intricate and captivating subject.

This research paper aspires to enrich the theoretical discourse that has accompanied the creative process, with a specific focus on its artistic manifestations. The aim is to distill the features and dimensions embedded in various theoretical frameworks and research endeavors, conducting a meticulous analysis of the underpinnings of each theory individually. The ultimate objective is to glean conclusive insights and consolidate perspectives and conceptualizations on this intricate matter, one that warrants further scholarly exploration, inquiry, and scrutiny.

Keywords: Creativity, Theoretical Frameworks, Analytical Exploration, Interpretative Studies/...

تقديم :

شكل الابداع ولايزال هاجسا وسؤالا مؤرقا لازم وأرق بال الكثير من المفكرين والفلاسفة والمبدعين ، ذلك أن هذا السؤال الإشكالي الذي حاول البحث في ماهية الإبداع وخصوصيته ومنبعه ودوافعه ، اعتبر نقطة بدء للغوص في تفاصيل سلوك بشري لم تستطع العلوم الإنسانية و التجريبية أن تفسره بدقة متناهية .

لقد ارتبط الإبداع بالإنسان على مر التاريخ ، ذلك أن هذا الكائن قد استطاع أن يبدع على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة ،اليات ووسائل تساعده على البقاء والتحكم في الطبيعة ،وتسخيرها له حتى يستطيع أن يستغل خيراتها ، ويتفاعل معها بإيجابية .وبما أن الابداع قد نشأ في أحضان الفلسفة فإن أولى المحاولات النظرية للسلوك الابداعي قد بدأت مع فلاسفة اثروا الثقافة الانسانية وتركوا بصمة في تاريخ الفكر ، لتأتي فيما بعد محاولات تنظيرية أخرى انطلقت من فرضيات عدة ،أملا في إيجاد تليل واضح للإبداع ،لكن هذه النظريات قد اختلفت نظرتها ورؤيتها لموضوع الإبداع لتفسره وفق ضوابطها الخاصة مما حتم ضرورة معرفة هذه الضوابط واستخلاص الاليات التي اعتمدها كل نظرية من هذه النظريات رغبة في توحيد الرؤى وإيجاد تصور شامل لمفهوم وقضية لازمت الإنسان وستظل ملازمة له باعتبارها محفزا للعطاء البشري والتميز والنبوغ .

أهمية الدراسة :

يكتسي الإبداع أهمية بالغة في المجتمع الإنساني فهو المقياس الحقيقي للتطور و التمايز عن باقي المجتمعات والشعوب ، ذلك أن الخلق والابتكار في شتى مناحي الحياة قد شكل ولا يزال علامة فارقة ميزت مجتمعا عن الآخر ولعل هذا ما جعل الكثير من البلدان تدرس الظاهرة الإبداعية على أنها سلوك متفرد رغبة في البحث عن معايير واستخلاص أسسه قصد السير على نهجها وتحقيق التقدم والرفاهية والرخاء المادي المنشود ،من هنا تكمن أهمية دراسة الكم التنظيري الذي واكب عملية البحث في مفهوم الإبداع حيث السعي الى استخلاص جزئيات وتفاصيل هذه النظريات ومحاصرتها معرفيا قصد المقارنة بينها والتعرف على النظرية الأكثر قدرة على تفسير الإبداع كسلوك وممارسة تحقق للفرد والمجتمع حياة أفضل .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الورقة البحثية إلى :

- التعرف على النظريات التي واكبت تطور مفهوم الإبداع في المجتمع الإنساني قصد التعرف أولاً على المفهوم وتحديد خصائصه ومميزاته وأساسه ، ثم استخلاص أوجه الاختلاف والائتلاف بين هذه النظريات التي حلت مفهوم الإبداع بعمق.
 - البحث عن النظرية الأكثر قدرة على مقارنة الإبداع والتعبير عن تجلياته لتساهم في بلورته من مفهوم نظري مجرد الى سلوك وممارسة في المجتمع الإنساني .
 - إيجاد السبل الأمثل لتحقيق وبلورة الإبداع في المجتمعات التي تشهد ركوداً إبداعياً لأسباب ذاتية أو موضوعية بالتعرف على الأسباب الحقيقية للإبداع ومحركاتها أملاً في تحقيق التقدم للفرد والمجتمع .
- مشكلة الدراسة وتساؤلاتها :**

تطلق هذه الدراسة من رؤية تحاول استنطاق الكم النظري الذي لامس مفهوم الإبداع دراسة وتحليلاً ، والتعرف على الكيفية التي حاول بها البحث العلمي مقارنة هذا الموضوع من خلال مجموعة من النظريات التي تلاقت لتسد ثغرات بحثية في مجال الإبداع باعتباره سلوكاً معقداً ومثيراً للقلق المعرفي ، منطلقنا في ذلك نقطة محورية تسائل الكيفية التي استطاع بها العلم النظري أن يواكب ويؤطر مفهوم الإبداع ليعبر عن خصوصيته وصفاته المائزة . وهي رؤية تعبر عنها جملة من الأسئلة والإشكاليات من قبيل :

- هل الإبداع مفهوم استطاع أن يخضع لآليات البحث العلمي وأن يتحرر من إشكالاته المعرفية ؟ بمعنى هل استطاعت النظريات التي تطرقت للمفهوم أن تجيب عن أسئلته المقلقة وتستوعب خصوصيته التي طالما أثارت مداد الباحثين والمفكرين ؟
- أي نظرية علمية استطاعت أن تحاصر المفهوم وتؤطره بعمق ؟ أم أن كل النظريات العلمية التي درست المفهوم تبقى عاجزة عن إيجاد أجوبة كافية للتساؤلات التي تتناسل كلما تعمقنا بحثاً في مفهوم الإبداع ؟
- ثم ما العيوب التي وقعت فيها كل نظرية على حدة أثناء تعريفها ودراستها للمفهوم وما الحل أمام هذه الإشكاليات المعرفية التي تعرقل عملية الفهم والاستيعاب لمفهوم يرتبط به الإنسان ويعول عليه لتحقيق التميز والرفاهية ؟

1- مقارنة مفهومية للإبداع:

لا شك أن من خصائص العملية الإبداعية أنها تتسم بالتعقيد ، فتفسير الإبداع ليس سهلاً لاعتبارات عدة أبرزها أن هذه العملية تتداخل فيها عناصر ذاتية وأخرى موضوعية يصعب تأطيرها ومحاصرتها بدقة لهذا فإن هذا الموضوع الإشكالي يظل مفتوحاً على كثير من التأويلات والتفسيرات التي حاولت أن تقارب هذه القضية وتحدها ولو بشكل جزئي خاصة أن تحديد المفهوم وتأطيره دلاليًا مازال موضع

جدال وصدام وخلاف، ذلك أن البعض " ينظر إلى الإبداع بوصفه مفهوماً مرادفاً، يصعب تحديده، فالمتأمل في دراسات الإبداع يلحظ درجة من الخلط بين مفهوم الإبداع وعدد كبير من المفاهيم الأخرى، ومن بين هذه المفاهيم المتداخلة: العبقرية Genius، والابتكار Innovation، والتفوق العقلي Mental Superiority، والموهبة Giftedness، والتبوغ Talent، والتميز Distinction، والبروز Emience،" (عامر: 2017، ص 39) .

هذا التشرذم على مستوى دلالة المفهوم يكتسب مصداقيته أكثر عند البحث والتعمق في المعاجم اللغوية حيث نجد أن ابن منظور في لسان العرب قد أشار إلى أن "بدع الشيء أنشأه وبدأه، والبدع: الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل: "قل ما كنت بدعا من الرسل" أي ما كنت أول من أرسل من الرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير" والبديع: المحدث العجيب، والمبدع، وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها" (ابن منظور: ص 229-230).

أما في المعجم الأدبي فإن كلمة إبداع création تتخذ معنيين "1- خلق، إتيان بالشيء الجديد الذي لا يوجد له شبيه، وهو يناقض التقليد. 2- فنيا: (ابتكار)" (عبد النور: 1979، ص 2) والابتكار invention- حسب نفس المعجم - "1- مرحلة في التأليف، قوامها تخيل الموضوع، ورسم مخططه، ووضع حيكته، وتعيين مراحل تطوره. 2- الابتكار في ذاته عملية ذهنية، الغاية منها الاهتمام إلى أفكار تتعلق بموضوع معين" (عبد النور: 1979، ص 1).

هكذا يبدو واضحاً أن هناك خلط ودمج في بعض المعاجم بين الإبداع والابتكار رغم تداخلهما لأن الابتكار ماهو إلا مرحلة بدئية في عملية الإبداع تؤسس للفكرة في العقل وتبدأ معها أولى المراحل التي تتخيل الموضوع الإبداعي وتشكل تفاصيله وجزئياته بينما الإبداع عملية نهائية يتبلور فيها المشروع الإبداعي ليخرج إلى حيز الوجود في شكل مادي ملموس .

أما في معجم اللغة العربية المعاصرة فنجد أن " بدع يبدع ، بدعا ، فهو بديع ، بدع الأمر : ابتكره ، أنشأه على غير مثال سابق ، وأبدع يبدع ، إبداعاً فهو مبدع ، أبدع الرجل : أتى بالبدعة ، أحدث في الدين بعد الاكتمال ، أبدع الله الكون : خلقه ، أوجده من العدم ، أبدع الأمر /أبدع في الأمر : اخترعه ، ابتكره على غير مثال سابق " (عمر: 2008، ص 171) . و" بدع 1: أول لا نظير له 2. محدث جديد يفعل لأول مرة 3. عجب ." (عمر " 2008، ص 172) .

في المعجم الفلسفي نجد أن الإبداع بالفرنسية création والانجليزية creation واللاتينية creatio " لغة إحداث الشيء على غير مثال سابق، وفي اصطلاح الفلاسفة عدة معان، الأول: تأسيس الشيء عن الشيء، أي تأليف شيء جديد من عناصر موجودة سابقاً كالإبداع الفني، والإبداع العلمي، ومنه

التخيل المبدع في علم النفس ، والثاني :إيجاد الشيء من لا شيء كإبداع الباري سبحانه ،فهو ليس بتركيب أو تأليف ، وإنما هو إخراج من العدم إلى الوجود ، وفرقوا بين الإبداع والخلق ، فقالوا :الإبداع إيجاد شيء من لا شيء ، والخلق إيجاد شيء من شيء لذلك قال الله تعالى :بديع السماوات والأرض ، ولم يقل بديع الإنسان ، بل قال خلق الإنسان ، فالإبداع بهذا المعنى أعم من الخلق ، والثالث :إيجاد شيء غير مسبوق بالعدم ، ويقابله الصنع وهو إيجاد شيء مسبوق بالعدم " (صليبا :1982، ص31) أما لالاند André Lalande في معجمه الفلسفي فيرى أن "خلق ، إبداع ، اختراع ، إنشاء creation (يستعمل أيضا بالمعنى العام ، بالمعنى الفني وبالمعنى اللاهوتي) :أ- إنتاج أي شيء خصوصا إذا كان جديدا في شكله ، لكن بواسطة عناصر موجودة من قبل :خلق عمل فني ، إنشاء طريق ، خيال خلاق . ب- خصوصا وإطلاقا :إذا سلمنا بأن العالم ليس أزليا ، بل بدأ في الزمان ، يقال خلق أو خلق من لا شيء على الكيف الذي اكتسب وجوده به " (لالاند :2001، ص235)

ورغم اختلاف الدلالات والتصورات حول المفهوم إلا أننا يمكن أن نخرج من هذه التعريفات بتعريف تكاملي شامل حيث وُصف الإبداع بأنه " ظاهرة سلوكية متعددة الجوانب ، تنبئ في ممارسة الفرد والجماعة أو المؤسسة لسلسلة من العمليات العقلية التي تصاحبها وتتفاعل معها مجموعة أخرى من العمليات الوجدانية والإجتماعية في ظل توافر خصال معينة تسم الفرد أو الجماعة مما ينتج عنه التوصل الى طرح أفكار او منتجات تسم بالجدة والملاءمة والقيمة ، وإنتاج هذه الأفكار أو المنتجات تتطلب جهدا إراديا موجهها وتوافر درجة عالية من التنظيم النفسي " (عامر:2017، ص49).

هكذا نجد ان مفهوم الإبداع يتداخل أحيانا مع مفاهيم أخرى كالخلق والابتكار والصنع وغيرها من المفاهيم المتقاربة دلاليا وإن كان الإبداع عملية أعقد وأشمل أحيانا تتطلب تفاصيل محددة لعل أبرزها مبدع بمواصفات خاصة وتفكير ابداعي خاص يتميز عن التفكير العادي والشائع .

2- خصائص المبدع والتفكير الإبداعي :

لاشك أن الإبداع كعملية إنتاج لكل ماهو جديد ومختلف لا يمكن أن يكتمل إلا بشروط ومواصفات محددة لعل أبرزها وجود مبدع مؤهل لهذه العملية وقادر على توظيف قدرات خاصة تؤهله للتميز والتفرد عن الآخرين ، إضافة إلى وجود تفكير إبداعي يختلف كليا عن التفكير النمطي والمعتاد ، لهذا فقد اهتمت الدراسات التي تعمقت في تحليل الإبداع بالبحث في شخصية المبدع وتفكيره حرصا منها على إعطاء هذه العملية بعدا شموليا في عملية التفسير لأن هذا الإبداع لا يمكن أن يكون ملهوسا في غياب عناصر أخرى تبلور وتمهد لهذا الإنتاج المتميز ولعل الإنسان المنتج والمبلور لهذه العملية يشكل أبرز وأهم تلك العناصر .

لقد أشارت "الدراسات العلمية الحديثة للإبداع أنه ظاهرة سلوكية قابلة للفهم والدراسة ، أي يمكن إخضاعه للدراسة العلمية كغيره من الظواهر السلوكية ومن ثم ينظر إلى الإبداع بوصفه جزءاً طبيعياً من الإنسان فلا يقتصر على البعض دون البعض الآخر بل إنه موجود بمستويات مختلفة ومتنوعة لدى جميع البشر" (عامر: 2017، ص38) وهي رؤية تختلف فيها الباحثون والعلماء الذين اهتموا بالإبداع والعملية الإبداعية، فإذا كان البعض يرى أن كل البشر يمتلكون القدرة على الإبداع والخلق والابتكار فإن فئة أخرى رأت بأن الإبداع سلوك خاص بالبعض الذين يتصفون بسمات مائزة تجعلهم مختلفين ومتميزين عن الآخرين لهذا انصب الاهتمام على دراسة سلوك وشخصيات هذه النوعية من البشر ليتبين بالملس أن هؤلاء المبدعين يشتركون في صفات محددة لخصها البعض في ثلاث خصائص: "أولاً: الخصائص المعرفية: مثل الطلاقة اللفظية وقوة البيان والخيال الواسع ،والذكاء العالي والأصالة ومهارة اتخاذ القرارات والقدرة على التفكير المنطقي. ثانياً: الخصائص الشخصية: وتشمل حب الاستطلاع والفضول والدافعية والانفتاح على الخبرات الجديدة والالتزام والانضباط ،ثالثاً: الخصائص التطورية: ومن الخصائص التطورية للأشخاص المبدعين أنهم غالباً من المواليد الأوائل في أسرهم ،ويجدون متعة بصحبة الكتب أكثر من المتعة بصحة الناس ،ولديهم هوايات كثيرة ويقرأون بفهم ويكونون علاقات متينة مع الرفاق" (عبد السلام: 2020، ص51-52).

هي إذن صفات قد لاحظ بعض الباحثين أنها مشتركة بين نسبة مهمة من المبدعين رغم وجود بعض الحالات الاستثنائية التي تخرج عن القاعدة إلا أن الملاحظ هو وجود سمات وملامح خاصة تميز شخصية المبدع عن غيره من البشر منها الفطري والمكتسب ،لتأتي أبحاث ودراسات أخرى وتربط بين جانب آخر من شخصية المبدع وسلوكه الإبداعي حيث توجهت الأنظار الى نسبة ذكائه باعتبارها تشكل علامة فارقة في العملية الإبداعية "حيث وُصفت العلاقة بين الإبداع والذكاء التقليدي من خلال فكرة العتبة ومن خلال النظرية الثلاثية ،والفكرة الأساسية هنا هي أن العمل الإبداعي يحتاج الى حد أدنى من الذكاء العام ،ولا يمكن إنجاز الإبداع الحقيقي تحت مستوى هذه العتبة من الذكاء" (رنكو" 2012، ص08)

لقد "صُممت بعض البحوث الأولى التي أجريت على الإبداع لاختبار إمكانية أن يكون الإبداع شيئاً منفصلاً عن الذكاء ،فإذا كان الإبداع في نهاية المطاف معتمداً على الذكاء ،فلن يكون هناك سبب وجيه لدراسته أو حتى تشجيعه ،وبدلاً من ذلك يمكن تشجيع الذكاء ودراسته فيتبعه الإبداع تلقائياً ،لكن البحوث أكدت أن الإبداع لا يعتمد على الذكاء التقليدي" (رنكو: 2012، ص04)

هكذا سينصب الاهتمام والبحث على جانب آخر في شخصية المبدع حيث تم التركيز على التفكير الإبداعي باعتباره "ظاهرة عقلية مميزة انشغل العديد من العلماء والباحثين التربويين بدراسته وضبطه وتحديد مفهوم وفي الحقيقة لم يتوصلوا إلى تعريف محدد وشامل وإنما عرفوه بتعريفات مختلفة" (عبد السلام: 2020، ص53) وإذا كان هناك اختلاف في تحديد المفهوم وتأطيره دلاليًا فإنه في المقابل تم الاتفاق على أن التفكير الإبداعي يتسم بخصائص ومظاهر حددها جيلفورد Guilford في "الطلاقة، المرونة، الأصالة" (عبد السلام: 2020، ص53) فالطلاقة "هي فيض الأفكار والمقترحات والصور والتعبيرات المتداعية التي ينتجها شخص في فترة زمنية معينة" (عبد السلام: 2020، ص56) أما المرونة فهي "القدرة على إنتاج عدد متنوع ومختلف من الأفكار والاستجابات والتحول من نوع معين من التفكير لآخر، على ضوء هذا نقول أن الشخص المبدع يتصف بمرونة عقلية تمكنه من التعبير بكل حرية وسهولة عن أفكاره" (عبد السلام: 2020، ص60) لنصل إلى الأصالة التي حُددت بأنها: "القدرة على إنتاج أفكار جديدة نادرة مدهشة، غير مألوقة التكرار بالمعنى الإحصائي داخل الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، على هذا نقول أن الشخص المبدع شخص ذو تفكير أصيل، أي لا يكرر أفكار المحيطين به وتكون أفكاره تتسم بعدم الشيع والتقليد." (عبد السلام: 2020، ص62).

الإبداع إذن بهذا المعنى لم يعد عملية معزولة عن سياقه وظروف تشكله والجهات المتسببة فيه، ذلك أن فهم هذه العملية أصبح مفترنا بدراسة الإنسان المبدع والبحث في سلوكه الإبداعي قصد تحليل الظاهرة الإبداعية تعليلاً صحيحاً ولعل هذا ما تنبته له بعض النظريات التي فسرت مفهوم الإبداع ليحظى الإنسان المبدع بالنصيب الأوفر في عملية البحث ويُهمل في نظريات أخرى.

3- النظريات المفسرة للإبداع:

اهتمت الكثير من النظريات والأبحاث بدراسة السلوك الإبداعي ومحاولة تفسيره وفق مقاربة علمية دقيقة مما سمح بوجود تراكم معرفي هائل وازداد تطور المفهوم سواء على مستوى التنظير أو الممارسة وهو ما أغنى مجال البحث العلمي وأعطى فرصة للمقارنة بين هذه النظريات أملاً في الارتقاء بالمفهوم أكثر والتحفيز على الفعل الإبداعي لتستفيد منه البشرية أكثر، لهذا فإن استخلاص هذه النظريات والبحث فيها كفيلاً بأن يضيء المفهوم أكثر ويسر عملية البحث عن المسببات الحقيقية لهذا الفعل الذي يرجع له الفضل في الارتقاء بالبشرية.

3-1. نظرية الإلهام أو العبقرية:

أولى هذه المحاولات التنظيرية للإبداع سُميت بنظرية الإلهام أو العبقرية، ذلك أن هذه المقاربة قد أرجعت عملية الإبداع إلى عوالم خارقة أو إلهة تمد المبدع بوحى وإلهام يتبلور في شكل عمل إبداعي

متقن ، فالفنان في نظرهم "يستلهم عمله الفني من قوة عليا ، أو من وحي سماوي خارق أو من هواجس سحرية أو حتى من شياطين خفية ، وملاح هذه النظرية في الفكر الانساني نجدها عند هوميروس و هيراقليس ، فقد استجدى هوميروس في بداية الإلياذة ربات الشعر أن تنعم عليه بالإلهام ، كما تحدث هيراقليس فيلسوف التغيير اليوناني عن الإلهام عندما قال :إنني كالعرفات اللواتي يصدرن في كلامهن عن وحي وإلهام" (بشيوة :2013، ص75)

إن الابداع من هذا المنظور يتحول في نظر أصحاب هذه النظرية إلى إلهام أقرب إلى الوحي السماوي أو حالة من التوحد مع مخلوقات غريبة كالجن مثلا ، فالمبدع يتلقى مادته الابداعية من قوى أخرى إلهية أو سحرية... وبالتالي فإنه يكون أسيرا لهذه القوى ، خاضعا لها ومعبرا باسمها وخصوصيتها ، ولعل هذا ما جعل الشعراء العرب قديما يربطون النبوغ الشعري بوادي عبقر ، وهو واد في الخيال الجمعي تجتمع فيه الجن ، مؤكدين أن لكل شاعر قرين من هؤلاء يمدده بالقريحة الشعرية ويلقنه الشعر ، حيث صرح أحد الشعراء قائلا :إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر . ولعل هذا ما جعل كلمة (عبقري) توصف في لغات اجنبية كالفرنسية ب Génie وبالإنجليزية genius وهو مصطلحات قريبة من كلمة (جن) في اللغة العربية .

لقد استمدت نظرية الإلهام أو العبقرية في الإبداع جذورها من الفكر الفلسفي الإنساني ذلك أنها تعود للفيلسوف الاغريقي افلاطون الذي اعتبر "أن الفن مصدره إلهام أو وحي من عالم مثالي ، فالفنان ملهم يوحى إليه ، ويستمد منه الخالد من ربات الفنون ، وبهذا المفهوم يعتبر الفن مظهرا من مظاهر العبقرية ، والوجد الصوفي، ولا يحمل رسالة هذا الإلهام إلا أفرادا قلائل ذو حس مرهف مشوب بالعاطفة ، لذا فالفنان يمتاز عن عامة الناس، ويشذ عنهم في مزاجه وسلوكه، وقد أشار الشاعر الالماني (جوته Goethe) انه حينما كتب (الأم فتر) لم يبذل أي مجهود شعوري ، إلا الإنصات المرهف إلى هواجسه الباطنية ، وذلك ما يذكر أيضا عن الموسيقار (شوبان Chopin) من أن الإبداع عنده تلقائي سحري يرد عليه دون أن يتوقعه. ولقد كان كولردج Coleridge الشاعر الإنجليزي المعروف يكتب أثناء نومه ، كما لو كان مسحورا ونجد (نيتشه Nietzsche) الفيلسوف الألماني يقول إن الفنان أسير في يد قوة عليا تسيطر عليه وتوجهه إلى غاياتها." (نظمي :1985، ص45) مشيرا إلى نظرية الإلهام بقوله : "حينما يهبط عليك الإلهام المفاجئ ، يخيل إليك أنك قد أصبحت مجرد واسطة وأداة ، أو لسانا لقوة عليا فائقة للطبيعة، وهكذا يسمع الإنسان ويأخذ دون أن يبحث ، وتنبثق الفكرة في ذهنه كأنما هي برق خاطف ، وحينما تغمره نشوة الوجد ، فإنه يشعر كما لو كان قد فقد السيطرة على نفسه . أن ثمة شعيرية قد أخذت تسري

في عروقه من أحمص قدميه إلى قمة رأسه، وهذا كله يحدث في استقلال تام عن الإرادة، وكأننا هنا بإزاء انفجار حاد للحرية والقوة والألوهية." (إبراهيم: ص118)

الإلهام إذن حسب هذه الرؤية يعتبر أهم عامل في الإبداع، والعبقرية تظل ملازمة للبداع حتى يتشكل العمل الابداعي في شكله النهائي، وهي عملية لا تتحقق إلا وفق شروط محددة، "فإن سينا مثلا يصف لنا كيف كان يأتيه الإلهام بعد اخلاذه الى الراحة التي تعقب القلق والتوتر، وماسفيلد Masefield الشاعر الانجليزي المعروف كتب قصيدته (المرأة تتكلم) بعد أن ظهرت له في منامه منقوشة بحروف بارزة على صفيحة مستطيلة من المعدن .

الإلهام كما يصفه الامام الغزالي: كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف لطيف فارغ." (الجسماني: 1995، ص85-86).

من الاتجاهات الاخرى التي ركزت أيضا على مفهوم الالهام في الإبداع الفني نجد الاتجاه الرومنسي، ذلك أن هذا الاتجاه قد أرجع الإبداع إلى العبقرية إلا أن منظره قد اختلفوا في مصدر هذه العبقرية وأرجعوها للخيال " فالرومنتيكي يتعد عن الواقع ليشكل تصوراته الإبداعية من الخيال وهو تصور يصفه روسو Rousseau قائلا: " لو تحولت خيالاتي إلى حقائق لما اكتفيت بها بل لذلك أتخيل وأحلم، لا تقف رغبتني عند حد لأنني لا أجد في نفسي فراغا لا يملؤه شيء " " وكان بهوفن Beethoven يستمع في داخله الى سيمفونياته ويخيل إليه فيما قال أنه يسمع الله يهمس في أذنيه .

لقد أفاض الرومنتيكيون أيضا في باب الأحلام ، والحلم يتناسب تماما مع نظرية الإلهام وفي ذلك يقول الفيلسوف الألماني هررد herder: إن الأحلام قوة عجيبة ففيها نتكشف ثنائية أنفسنا لأن الأحلام حوار نقوم به وتمثل فيه المتكلم والسامع معا." (عبد المعطي: 1995، ص48-49)

وسواء كان مصدر الإبداع قوى إلهية أو خفية كالجن أو الأحلام ، فإن كل الأفكار والآراء السابقة تؤكد أن الإبداع نتاج عبقرية فذة يستمددها المبدع من عالم ما، وتحت تأثير سلطة ما، تمارس نفوذها وقوتها ليصبح المبدع ناطقا باسمها ومعبرا عن رغباتها التي تتحول إلى تجسيد ابداعى متميز .

3-2 النظرية النفسية :

إذا كانت نظرية الالهام ترجع الإبداع إلى قوى خفية يتداخل فيها السحري بالماورائي ، فإن النظرية النفسية قد حاولت الغوص في النفس البشرية لعلها تجد تفسيراً ملائماً لماهية الابداع .وقد اعتبر سيغموند فرويد Sigmund Freud رائد التحليل النفسي أحد أهم العلماء الذين استطاعوا أن يفسروا الإبداع وفق رؤية نفسية لها ضوابط ومحددات ذلك "أن مدرسة التحليل النفسي، تحاول أن تستخلص العمل الفني من صميم الخبرات الشخصية للفنان، ليتبين لها أن الفنان ما هو إلا شخص منطو، يسير على

حافة العصاب (المرض النفسي) لتحاول أن تثبت لنا أن أعمال الفنان لا تخرج عن كونها وسائل للتنفيس عن رغباته الجنسية ، ومعنى هذا أن العمل الفني - مثله في ذلك المرض النفسي - إنما يترد في نهاية الأمر إلى العقد المكبوتة في اللاشعور . " (إبراهيم :ص 49)

لقد انطلق فرويد في دراساته النفسية من نماذج لمبدعين طبق عليهم عدته المنهجية ليظهر مدى الترابط بين العقد النفسية للمبدع وإبداعه الفني ، ولعل أبرز هؤلاء ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci الذي حلله انطلاقاً من لوحته المشهورة (الموناليزا أو الجوكاندة) ليفسر عملية الإبداع عند هذا الفنان بأنها "عملية اعلاء وتسام بالغريزة الجنسية إلى الأساليب المثالية والرمزية للتعبير " (نظمي:ص 49)

لقد ذهب فرويد الى أن "الشخصية تتكون من ثلاث قوى الأنا والأنا الأعلى والهو، والانا دائماً تعاني التوترات نتيجة الضغط المستمر من الأنا الأعلى والهو ، ذلك أن وظيفة الأنا الأعلى على الدوام ، هي الضغط والكبت أما الهو، فوظيفته النزوع إلى المحرم ،ومن هنا فالصراع دائماً بين هذه القوى، ومحصلة هذا الصراع ،تجلى في سلوك الشخص ،أي في موقفه، ولهذا فإن لحسم الصراع وسائل معينة يصل بها الى تكوين المحصلة يطلق عليها فرويد اسم الاليات منها :القمع والكبت والتسامي والتقهقر...". (عبد المعطي:ص 11).

يفسر شارل بودوان Charles Baudouin "نظرية فرويد في الإبداع اللاشعوري بأنها تصور ذلك الانفجار اللاشعوري الفريد الذي يحدث في الحياة الشعورية، وهو انفجار تلك الرغبات التي لم ينجح الرقيب النفسي من كبتها، فالميول والرغبات تلزم المرء بأن يختار واحداً من أمرين :فإما الصراع مع العالم الاجتماعي ،أو التوازن الباطني، وليس معنى هذا أن كل اعلاء أو تسامي يأخذ صورة للعمل الفني، اذ لا بد من استعداد خاص، والإبداع لا يحصل عليه غير العباقرة من أهل الفن ،فليس بمقدور كل فرد أن يحول الاعلاء إلى إبداع فني " (نظمي:ص 49)

إن الحالة المرضية للمبدع يكاد يجمع عليها بعض المفسرين للعمل الإبداعي من وجهة نظر نفسية ،وإن كانت هذه الحالة المرضية في نظرهم ذات بعد ايجابي، لأنها تضع الفنان في عملية إنتاج ،رغم أن هذه الأعمال " ليست سوى وسائل للتنفيس ،أو لإحداث التوازن النفسي عن رغباته الجنسية المكبوتة ،فالإبداع عند فرويد يصدر عن العقل الباطن أو اللاشعور وما فيه من عقد مكبوتة ترجع في صميمها إلى الغريزة الجنسية ولكن الفنان يختلف عن المريض العصابي في أن لديه المرونة الكافية لتشكيل صور التسامي والتعبير عن اللاشعور، بما فيه من ذكريات مكبوتة ينحدر بعضها من عهد الطفولة ويمتاز الفنان بأنه لا ينظم الحدث المؤلم كالعصابي ،بل هو يحاول عرضه والتنفيس عن الكبت وكأنه يقوم بعملية تطهير أو تنفيس . " (نظمي:ص 49).

لقد اختلفت الآراء حتى بين المحللين النفسين أنفسهم خاصة بين فرويد والمدارس النفسية التي جاءت بعده مثل مدرسة علم نفس الانا ومدرسة نظرية العلاقة بالموضوع، رغم أنهم جميعا اتفقوا من حيث المبدأ على أن الإبداع نتاج عمليات نفسية معقدة ومتوغلة في النفس البشرية. وهي الرؤية التي عبر عنها حتى بعض المبدعين أمثال بيكاسو Picasso الذي يرى أن "المبدع وعاء مليء بالانفعالات التي تأتيه من كل المواقع، من السماء والأرض من قصاصات الورق، ومن شكل عابر، أو من نسيج عنكبوت". (نظمي:ص49)

لقد ظهرت نظريات اخرى تأسست على اراء وأفكار فرويد ومدارسه النفسية ومن هذه النظريات نذكر نظرية يونج Jung حول النماذج البدائية والاشعور الجمعي، حيث اتفق يونج مع فرويد بأن اللاشعور هو منبع الإبداع، ولكنه اختلف عنه في الحديث عن اللاشعور، ففي حين أن معظم اللاشعور مكتسب وشخصي عند فرويد، نراه يتألف من قسمين عند يونج أحدهما شخصي والاخر جمعي انتقل بالوراثة إلى الشخص حاملا اثار خبرات الأسلاف وهذا القسم الاخير "اللاشعور الجمعي" هو مصدر الأعمال العظيمة. يرى يونج أن الفنان يتراجع عن الحاضر الذي لا يرضيه ويعود القهقري باحثا في اللاشعور الجمعي عن النماذج البدائية وهي خير ما يدرأ الاختلال في روح العصر. (عبد المعطي:ص154-157)

لقد استطاع يونج أن يضيف لرؤى التيار النفسي توجهها جديدا في تفسيره للإبداع معترفا بالواقع الاجتماعي الراهن، إلا أنه قسم الأعمال الفنية والأدبية الى قسمين: سيكولوجي لا يزيد عمل الفنان فيه على توضيح المضمون الشعوري، وقسم كشفي يستمد وجوده من اللاشعور الجمعي، حيث تكمن بقايا الخبرة الأولى (خبرة الاسلاف)، ويعتمد القسم الكشفي على الاسقاط والحدس، يتعامل مع أفكاره ومذهبه أكثر مما يتعامل مع الواقع الخارجي ويكيف هذا الواقع على حسب أفكاره أكثر مما يكيف أفكاره على حسب الواقع الخارجي، فهذا الواقع إذن وسيلة للإمعان في الاستمساك بآرائه والقياس عليها بدلا من تعديلها والتقليل من تطرفها. (عبد المعطي:ص224)

ورغم تركيز يونج على أهمية البيئة والمحيط والمجتمع إلا أن اساس هذه النظرية بقي مرتبطا بما هو نفسي لأنه يركز على قيم الجماعة وعلى شعورها الجمعي المشترك الذي توارثته جماعة بشرية ما لأفرادها، وبالتالي يمكن ان نعتبر نظرية يونج هي بداية للنظرية الاجتماعية للتحليل الابداعي .

تأسس هذه النظرية على أن المجتمع يشكل ركيزة أساسية في عملية الإبداع، باعتبار أن البيئة والمحيط تعتبر عوامل حاسمة وذات أهمية بالغة في تجسيد العمل الإبداعي الذي قد تقبله الجماعة التي ينتمي إليها المبدع، كما يمكن أن ترفضه، و"من دعاة هذه النظرية "تين Taine" الذي هاجم الأحكام المعيارية للفن وقال بأن الفن وليد المجتمع، ورفض بشدة نظرية القائلين بالفن للفن، فالفن حسب رأيه ليس إنتاجاً فردياً، بل ضرباً من الصناعة والإنتاج الجمعي، حتى أن المعايير الفنية، معايير حضارية ذات أصل اجتماعي، وكذلك فإن الصنعة الفنية والتكنيكية مستنبطة بقوانينها وقواعدها من الحياة الاجتماعية، وبذلك يصبح الحكم الجمالي الذي تصدره الجماعة على العمل الفني، بمثابة شهادة بنجاحه، فالقيم الفنية الاجتماعية بالدرجة الأولى، أي أنها بحاجة إلى شهادة المجتمع، والفنان ليس كائناً منعزلاً عن المجتمع، بل هو كائن اجتماعي يعيش في بيئة جمالية ذات صبغة اجتماعية يستجيب لمؤثراتها ويخضع لشدة التيارات الجمالية السائدة فيها" (عبد المعطي:ص47)

يوجز عالم الاجتماع دوركايم Durkheim اتجاهات المدرسة الاجتماعية بصدد الفن بقوله: "إن الفن ظاهرة اجتماعية، ونتاج نسبي يخضع لظروف الزمان والمكان"، وعلى هذا فالفنان - في نظر دوركايم - لا يعبر عن (الأنا)، بل عن (النحن)، أي المجتمع بأسره، ولا يتم ذلك عن طريق التأمل الشعوري بل عن طريق الاختمار اللاشعوري، وهو ما يشبه الحمل الفني، وفيما يتوهم الفنانون أن العمل الفني يصدر عن الإلهام أو الوحي أو الحدس الجمالي، بينما يقوم الإبداع على مقومات ثلاث هي:

- المؤثرات الحضارية وهي البيئة الطبيعية والجنس ثم التيارات الجمالية السائدة.
- أساليب الصنعة والتقاليد الفنية أي التكنيك والتراث الفني والتقاليد الموروثة عبر الأجيال.
- الوعي الجمالي للمجتمع في عصر الفنان والمعايير الجمالية السائدة في المجتمع". (عبد المعطي:ص47)
وبهذا تكون قيمة الفنان تأتي من مدى قدرته عن التعبير عن الجماعة التي ينتمي إليها لينصهر كذات مع باقي الذوات في كيان اجتماعي موحد ليصير العمل الإبداعي تعبيراً عن خصوصية المجتمع.
إن الغاية الوحيدة للمبدع هي "تحقيق الذات ولكن الطريق الموصل من الأنا إلى الأنا لا بد من أن يدور حول العالم وبالتالي فهو لا بد من أن يمر بالآخرين، وتحقيق الشخصية لا يتم إلا في عالم مشترك يشعر الفرد فيه بوجود (النحن) التي هي أسبق من الأنا، كما أن أنا الإنسان لا تزيد عن كونها هبة يمنحها الآخرون له فالذات إذا اعترفت بوجود (نحن) تتحقق فيه .

لهذا فإن فيشر Fisher يؤكد على أن اندماج (الأنا) و(النحن) إنما يتم عن طريق الفن فيقول أن الفن هو الأداة اللازمة لإتمام هذا الاندماج بالآخرين وعلى تبادل الرأي والتجربة معهم" (عبد المعطي:ص86)

لقد استطاعت هذه النظرية أن تثبت سلطة الجماعة وتأثيرها على العمل الإبداعي والمبدع أيضا، وهي كغيرها من النظريات ركزت على جانب من الإبداع وأهملت جوانب أخرى علما أن هذه النظريات الثلاث هي أهم النظريات التي فسرت الإبداع على مر التاريخ، لكنها ليست الوحيدة التي استطاعت أن تبحث في ماهية هذا المفهوم وفي ظروف انتاجه .

3-4 نظريات أخرى فسرت الإبداع :

لقد ظهرت إلى الوجود نظريات أخرى غير النظرية النفسية والاجتماعية ونظرية الإلهام أو العبقرية ، تمثل حصيلة للآراء والمذاهب والاتجاهات التي شهدتها علم الجمال خاصة في شقه الإبداعي والفني ومن هذه النظريات نذكر :

✓ النظرية العقلية :

نجد هذا الاتجاه يتمثل في آراء العديد من الفلاسفة على مر العصور فأصول هذه النزعة قد اتضحت عند كانط Kant وهيغل Hegle باعتبار أن "الفن نتاج الفكر شأنه في ذلك شأن المنطق وفلسفة الروح، وليس ثمة ابداع فني دون فكر، بل ليس هناك اية معرفة دون عقل وفكر" (بشيوة:ص84) وقبل هذين الفيلسوفين نجد أن ارسطو قد اهتم اهتماما كبيرا بمشكلة الإبداع محاولا إعطاء تفسير مقارب لرأي الفيلسوفين السابقين حيث أورد "رأيه متفرقا في كتبه ومؤلفاته العديدة مثل كتبه الشعر (البوطيقا) و الطبيعة (الفيزيقا) و الخطابة (ريطوريقا) والسياسة (البولوتيقا) ولفهم رأي ارسطو في الإبداع يجب أن نفهم الفكرة الأساسية لفلسفة ارسطو التي تقوم على مبدأ (الهيولى) (المادة) والصورة الاصل فالأصل هو تحقيق صورة في مادة" (نظمي:ص50)

✓ النظرية الانطباعية التأثيرية :

معظم دعواتها يشتغلون بالعمل الفني و الإبداعي ذلك أنهم ذهبوا إلى القول بأن العمل الفني "لا يمكن أن يُفسر في ضوء التأثيرات الاجتماعية أو بتراث الماضي، وتيارات الحاضر ذلك لأننا نشعر أمام العمل الفني بأننا نراه للمرة الاولى وأنه نسيج ووحدة، فالعمل الفني لا يشكل القيم الاجتماعية، أو سمات المجتمع، وإنما يستند موقف التأثيرين إلى أن الفنان لا يعلم مقدما الصورة المكتملة لعمله الفني قبل أن ينفذه ومن تم لا يستطيع أحد أن يقدر مدى ما يصل اليه العمل الفني من أصالة." (نظمي:ص48)

3-5 الانتقادات الموجهة لهذه النظريات :

لم تسلم النظريات السابقة من التحليل والنقد، ذلك أن تركيزها على جانب محدد في عملية الإبداع ارتبط إما بالنفس وعقدها أو المجتمع وقيوده أو الماورائي والروحاني... لتكون هذه الانتقادات سببا في ظهور نظريات أخرى تأسست على أنقاض النظريات السابقة . ذلك أن من بين أهم الانتقادات التي

وجهت لنظرية الالهام" مثلا، تركيز أصحاب هذه النظرية على ذات الفنان بما تحويه من خيالات وانبثاقات ابداعية تحدث فجأة بدون ان تخضع لأيّة ضرورة موضوعية أو أية مقدمات - ("عبد المعطي ص:235)

انها نظرية تتعارض مع التوجه العلمي وتخضع للإبداع لقوى غيبية غير محسوسة مما يحوله إلى عملية أقرب الى السحر والخضوع للماورائي والغيبى، وهنا تتساءل عن الفنان المبدع الذي يبدع تحت تأثير الاخر وسحره هل إبداعه هذا نتاج ذاته أم أن هذه الذات مسلوبة الارادة تتحكم فيها شخص آخرى؟ وبالتالي هل هذا الابداع نتاج الذات أم نتاج الاخر (الجني أو القرين ٠٠)؟

أما النظرية العقلية فمن بين الانتقادات التي وجهت لها أن أصحابها قد "اغفلوا دور الحواس في عملية الأبداع الفني، كما اغفلوا دور المادة، ولم توضح هذه النظرية مسألة الأفكار الإبداعية هل هي كامنة باطنة في العقل؟ أم أنها تُكتسب بالحواس من ظواهر العالم الخارجي، أم أنها جماع هذا وذاك؟" (بشيوة:ص88)

بالنسبة للنظرية الإجتماعية فالملاحظ أنها قد أغفلت تفرد الإنسان المبدع واعتبرته منتوجا اجتماعيا نتاج كيان اجتماعي محدد وبالتالي فقد همشت دوره لتصبح الذات منصهرة في الضمير الجمعي ومعبرة عن خصوصيته، وهنا تزوي الذات المبدعة للوراء تاركة للمجتمع فرصة ليعبر عن هذا الإبداع الذي هو في الأساس نتاج ذات مبدعة فكرت وأبدعت وصورت وأخرجت للوجود شيئا لم يكن موجودا من قبل .

أما المدرسة النفسية فقد تعرضت هي ايضا لانتقادات عدة أبرزها أن اللاشعور يبقى غامضا لأنه لا يخضع للدقة والملاحظة العلمية اضافة الى أن كل الاعمال الابداعية لا يمكن اخضاعها لنظرية اللاشعور ذلك أن هناك أعمال فنية تتطلب وعيا كاملا من مبدعها حتى يضمن لها الاتقان والاكتمال .

يتضح اذن ان كل نظرية من النظريات السابقة قد وقعت في عيوب وأخطاء أثناء تفسيرها للعمل الابداعي وذلك بتجزئتها للعملية الابداعية والتركيز على جانب محدد واغفال جوانب اخرى ما الحل اذن؟ وكيف يمكن ان تتعامل مع الابداع في ظل فشل او عجز هذه النظريات في تفسير الابداع تفسيراً متكاملًا وشاملاً؟

الحل يكمن في النظر إلى أن الابداع عملية ليست بالسهلة والبسيطة فهي عمل معقد قد يجتمع فيه الذاتي بالموضوعي والغيبى والقدرى ليصعب تحديد الضوابط الأساسية لهذا الفعل المعقد وإن كان البعض يعتبر أن تفسير الإبداع يجب ان يتداخل فيه العلوم والحقول المعرفية وتُستحضر فيه الجوانب الذاتية للإنسان

المبدع والعتي تجتمع فيها النفس والعقل والسلوك والإرادة... وجوانب أخرى موضوعية ترتبط بالمجتمع والبيئة والمحيط الذي يكبر فيهما المبدع ويتطبع بطباع الجماعة التي ينتمي إليها دون اغفال أهمية التربية والتحفيز والتشجيع على الإبداع والتي قد تقتل أو تشجع على السلوك الإبداعي .

خاتمة :

إن مشكلة الإبداع لا يمكن تفسيرها على الإطلاق تفسيراً شاملاً وكاملاً بالاستناد إلى نظرية من النظريات التي عرضناها سابقاً ، حيث ظهر بالأمس عجز كل نظرية من تلك النظريات في تقديم تفسير مقنع يلقي الضوء على مشكلة الإبداع الفني ويحاول حلها وتفسيرها تفسيراً متكاملًا وشاملاً ينصهر فيه ما هو موقف ذاتي (مرتبط بذات المبدع) وموضوعي (ظروف الإبداع وخصائص المحيط) لنخلص إلى النتائج التالية :

- أن مفهوم الإبداع بحد ذاته يعد إشكالا معرفيا لتداخله مع مفاهيم أخرى مما يتطلب من الباحث والمتأمل في دراسته دقة منهجية على مستوى المصطلح تجنباً لأي تداخل دلالي بين المفاهيم .
- أن النظريات التي واكبت عملية الإبداع خاصة في شقه الفني تعد قيمة مضافة في مجال البحث العلمي لأنها حاولت التعمق في موضوع إشكالي ومعقد لتختلف رؤية كل نظرية عن الأخرى في تصورهما للمفهوم ، ورغم الانتقادات التي وجهت لهذه النظريات فإنها قد أغنت خزانة البحث العلمي بأبحاث قيمة مما أعطى تراكماً في الكم والكيف أيضاً إذ أثرت تساؤلات معمقة حول المفهوم منها ما يحتاج إلى مزيد من الأبحاث والدراسات العلمية الرصينة .
- أنه لمن الصعب أن نحدد ماهية الإبداع إذا لم تكن هناك احاطة شاملة بذات المبدع وظروفه وبالتالي فإن الحل هو تفسير العملية الإبداعية تفسيراً تكاملياً يتم من خلاله الجمع بين النظريات السابقة .
- أن العمل الإبداعي نتاج مبدع هو بدوره ككلمة من التناقضات والصراعات النفسية والحاجيات والرغبات التي تتصارع في ذات واحدة ، كما أن هذه العملية تنصهر وتدوب في مجتمع له عادات وتقاليده محددة وخصوصية يجب استحضارها ووضعها بعين الاعتبار .
- ضرورة عدم إهمال العمل الإبداعي وظروف تشكله باعتبار أن الإبداع (نفس ومادة ومحيط يتلقى هذا الإبداع) وإهمال هذه الجوانب كلها من شأنه أن يعرض هذا الإبداع للنقد والرفض وبالتالي إحباط المبدع وتراجع ونفوره لتتوقف حركة المجتمع والحياة . باعتبار أن المبدع ينتج الحياة ويضخ فيها دماء جديدة .

المراجع المعتمدة في الدراسة :

الكتب :

- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف .
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل احمد خليل، منشورات عويدات، ط2، بيروت، لبنان، 2001.
- أيمن عامر، سيكولوجية الإبداع أسس نظرية وتطبيقات مؤسسية، كلية التجارة، 2017.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.
- زكريا ابراهيم، مشكلة الفن، مكتبة مصر .
- عبد العلي الجسماني، سيكولوجية الابداع في الحياة الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى 1416/1995.
- عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، لبنان، 1984.
- عزيز نظمي، الابداع الفني، مؤسسة شباب الجامعة 1985.
- عمر أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الأول، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2008.
- مارك رنكو، الابداع، نظرياته وموضوعاته، البحث والتطور والممارسة، ترجمة شفيق فلاح، العبيكان للنشر، 2011.
- محمد عبد السلام، التفكير الإبداعي بين النظرية والتطبيق، مكتبة نور، 2020.

المجلات :

- علي عبد المعطي، الابداع الفني وتذوق الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1995.
- كريمة محمد بشيوة، النظريات المفسرة للإبداع، المجلة الجامعية العدد 15 المجلد الثاني، منشورات جامعة الزاوية ليبيا، 2013.

تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة

Teaching Arabic to non-native speakers for special purposes.

الطالبة الباحثة: حفيظة زينون

طالبة بسلك الدكتوراه، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس (المغرب).

Hafidazinoune969@gmail.com

الملخص:

أسعى من خلال هذه الورقة إلى رصد الأغراض الخاصة لمتعلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها، وإبراز أنواع الدوافع الذاتية والأسباب المهنية، التي تحفز فئة غير الناطقين باللغة العربية إلى تعلمها وضبطها، مع التركيز على تحديد خصائص ومميزات هذه النظرية العلمية والتي تعرف "بتدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة". في ظل إبراز المناهج المعتمدة من طرف المدرسين لتعليم وتدريس اللغة العربية لهذه الفئة، وكيفية تعاملهم مع هذه الأغراض الخاصة، والطرق المهيأة والمعتمدة لتمكين هذه الفئة من تحقيق الأهداف المنشودة، خاصة أنها عملية تعليمية تعليمية يتم خلالها التركيز على المتعلم وحاجاته الخاصة وأغراضه الذاتية والمهنية وغاياته الشخصية، لتمكينه من استخدام العربية في المواقف التي ينوي استخدام اللغة فيها.

ونظرا لأهمية الموضوع خاصة في ظل تطور الحاجة لتعلم اللغة العربية وإقبال الناطقين بغيرها الأجانب على تعلمها، وانفتاحهم الكبير على العالم العربي، وورغبتهم في التعرف على ثقافته ومحيطه ودينه، ظلت الحاجة رهينة بتطوير مجال تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، من خلال تجهيز أنظمة خاصة وإنشاء نظرية علمية حديثة لتمكينهم من تعلم اللغة العربية وفق ما يلائم أغراضهم ويولي حاجاتهم الخاصة. فظل من أهم مظاهر الحياة في الربع الأخير من هذا القرن الاهتمام الواضح بتدريس اللغات الحية وتطوير أنظمتها ومناهجها لتواكب إيقاع الحياة العصرية ومتطلباتها، لذا حظيت اللغة العربية بجانب خاص من هذا التطور، حيث استطاع الخبراء والمختصين من إجراء البحوث والدراسات من أجل تطوير تعليم وتدريس اللغة العربية بالتركيز على الأغراض الخاصة لمتعلميها الناطقين بغيرها.

كما سألهم في هذا لتقرير بإبراز مقاصد تعلم اللغة العربية لأغراض خاصة، وتحديد المشكلات والعوائق التي تعرقل عملية التعلم لدى متعلمي اللغة الناطقين بغيرها، والأخرى التي تواجه المعاهد والمؤسسات المختصة لتدريس هذه الفئة، ثم في الأخير عرض نماذج لبعض المعاهد والمؤسسات العربية من داخل العالم العربي، ورصد مدى نجاحها في تحقيق الغايات والأغراض الخاصة لمتعلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها، مع عرض النتائج.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية - الناطقين بغيرها - الأغراض الخاصة - الحاجات الذاتية والمهنية - التدريس - المعلم والمتعلم.

Abstract :

Through this paper, I seek to monitor the special purposes of learners of Arabic as non-native speakers, and to highlight the types of self-motivation and the professional reasons that motivate non-Arabic speakers to learn and control it, with a focus on identifying the characteristics and advantages of this scientific theory, which is known as “teaching Arabic to native speakers for private purposes”. By represented the approved methods by teachers for teaching the Arabic language to this group, and how they deal with these special purposes for helps and to enable this group to achieve the desired goals, especially as it is an educational process during which the focus is on the learner and his special needs and personal goals, To enable him to use the language in situations in which he intends to use it.

In view of the importance of the subject, especially in light of the development of the need to learn the Arabic language and the demand of foreign non-native speakers to learn it, and their great openness to the Arab world, and their desire to learn about its culture, surroundings and religion, the need remained dependent on the development of the field of teaching Arabic to non-native speakers, through the preparation of special systems and the establishment of theory A modern scientific program to enable them to learn the Arabic language according to what suits their purposes and meets their special needs. One of the most important aspects of life in the last quarter of this century is the clear interest in teaching the living languages. and developing their systems and curricula to keep pace with the rhythm and requirements of modern life. Therefore, the Arabic language had a special aspect of this development, as experts and specialists were able to conduct research and studies in order to develop the teaching of the Arabic language with focus. For the special purposes of non-native speaker.

In this report, I will also be interested in highlighting the goals of learning the Arabic language for special purposes, and identifying the problems and obstacles that impede the learning process for non-native language learners, and others facing institutes and institutions dedicated to teaching this category, and then in the end presenting the experiences of some models of Arab institutes and institutions from within the Arab world. And monitoring the extent of its success in achieving the goals and objectives of non-Arabic language learners, with the presentation of the results.

Keywords: Arabic language - non-native speakers - special purposes - personal and professional needs - teaching - the teacher and the learner.

مقدمة:

يعد موضوع تعلم وتعليم اللغات من المواضيع المهمة في الدراسات اللغوية، التي لاقت اهتماما وإقبالا كبيرين من طرف الباحثين والدارسين، وكذا اللغويين المهتمين بكل ما يخص تطور تدريس اللغات بشكل عام وتدريس العربية بشكل خاص، - تحديدا بعد انفتاح غير الناطقين باللغة العربية على تعلمها والتعرف على خصائصها وفك شفراتها، ثم التمكن منها نطقا وكتابة- ، فتعليم اللغة (علم) له أصوله ومناهجه، ساهمت في بناءه جهود مسترسلة من حيث البحت الدائب من طرف الأمم المتقدمة، إذ ينتج كل يوم مجالا جديدا، ويكشف كل حين عن جانب آخر من تعلم اللغة، ونلاحظ هذا التأثير على تعليم اللغات لأبنائها وللناطقين بغيرها. ففي ظل انفتاح هذه الأخيرة على تعلم اللغة العربية انفتاحا اختلفت وتوعدت فيه الأغراض والدوافع، بات الأمر في أشد الحاجة إلى خلق مناهج ونظريات تلي هذه الحاجات وتحقق بها أغراض المتعلمين، ومن أبرزها النظرية التي تعرف "بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة" ، والتي يتم فيها مراعاة المتعلم وغاياته من تعلم اللغة .

ولهذا العلم مقرراته ومناهجه ومحدداته، إذ يتم التركيز في عملية تصميم مقرر خاص بتعليم اللغات لأغراض خاصة على: المتعلم وحاجاته الأساسية، والنمط اللغوي المطلوب والمراد تعلمه، ثم البيئة التي سيتم خلالها التعلم. وعلى اعتبار أن حاجات ودوافع المتعلم غير الناطق باللغة العربية، تختلف بين ذاتية، مهنية، دينية، سياسية، دبلوماسية، اجتماعية...، فغدا من الضروري تخصيص وتشكيل برامج خاصة لتحقيق هذه الأغراض، من طرف معاهد ومؤسسات مختصة في هذا المجال داخل العالم العربي. إذ مثلت برامج "تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة" أحد الاتجاهات المهمة في مجال تعليم اللغات الثانية، وتكمن أهميته في تبني العديد من المؤسسات التعليمية ومؤسسات القطاع الخاص على اختلاف فئاتها برامج لتعلم اللغات لأغراض خاصة .

منذ ظهور برامج تعليم اللغة لأغراض خاصة أول مرة في صورة برامج موجهة لتعلم اللغة الإنجليزية للعلوم التقنية، ازداد الإقبال عليه من مختلف الجهات الأكاديمية والمهنية لتحقيق الهدف في أقصر مدة وأقل تكلفة، ومن جانب آخر تنوعت طرق تطبيقه، فلم يعد مجرد برنامج يتم داخل الفصول بطريقة تقليدية، بل أصبح يقدم مهمة حقيقية تناسب الغرض الخاص وبيئة تعلمه. مما دفع العرب إلى الاقتداء بهذه النماذج بخلق برامج خاصة تناسب خصوصية اللغة العربية من مختلف جوانبها .

منهج البحث ومشكلته:

نظرا لطبيعة الموضوع وخصوصيته، يبدو أن أنسب منهجان سأعتمدهما في هذا المقال هما: المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن، الأول من خلال عرض واستقراء مميزات وخصوصية وإشكالات هذه النظرية

التي تعمل على تحقيق الأغراض الخاصة لتعليم اللغة العربية الناطقين بغيرها، والثانية من خلال مقارنة المناهج وتجربة أحد النماذج من معاهد أو مؤسسات عملت بهذه الطريقة داخل العالم العربي. في ظل الإجابة عن التساؤلات التالية :

▪ ما طبيعة المناهج المعتمدة من طرف المعاهد في تحقيق الأغراض الخاصة لتعليم اللغة العربية الناطقين بغيرها ؟

▪ ما هي الدوافع والأغراض الخاصة لتعليم اللغة العربية الناطقين بغيرها ؟

▪ ما هي المشكلات والعوائق التي واجهت تجربة تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها تحقيقاً لأغراضهم الخاصة ؟

▪ مدى نجاح نموذج "معهد عربي" في تعليم العربية للناطقين بغيرها وفق الأغراض الخاصة ؟

مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة :

اهتمت مجموعة من المناهج بموضوع تدريسية اللغة العربية للناطقين بغيرها، ونظراً لاختلاف هذا الأخير وتنوعهم، اختلفت مقاصدهم وأغراضهم هي الأخرى، فظهرت في العالم الغربي أولاً بعض هذه المناهج التي تتماشى وتلبية هذه الحاجات والمقاصد، إذ « كانت مناهج تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة - كغيرها - متأثرة بنظرية " (سكندر، 1957)، في كتابه السلوك اللغوي حيث كان الاهتمام ينصب على البيئة والعوامل الخارجية التي تؤثر في السلوك اللغوي، إلى أن جاء (تشومسكي، 1959) وانتقد نظرية سكندر، على أساس نظرية النحو التحويلي والتوليدي، بالنسبة للبصيري والتي تقوم على أساس «أن الفهم الواعي لنظام لغة شرط لإتقانها، وأن الكفاية اللغوية سابقة على الأداء اللغوي وشرط لحدوثه» (البصيري، الصفحات 1-2). حيث ذهب مجموعة من الباحثين إلى اقتراح تسميات خاصة تعنى بتعليم اللغة الثانية باعتبارها لغة متعلمة، "وذلك كصنيع (Wilkins, 1972, p. 197)، في اقتراح تسميته «الدراسة العلمية في تعليم اللغة الأجنبية»، أو "اقتراح (Mackay, Mars 1973)، بتسميته «علم تعليم اللغات»".

فتم الانتقال من الاهتمام بالبيئة الخارجية إلى التركيز على المتعلم في ذاته كعامل أساسي وفاعل في عملية التعلم، فعدت مناهج تعليم اللغة لأغراض خاصة من المناهج التي تركز على المتعلم وتولي الأغراض التي يتعلم من أجلها اللغة.

ومن هنا يمكن الإجمال أن أهم خصائص هذه المناهج هي :

◊ التركيز على المتعلم وحاجاته الخاصة .

◊ توظيف الأهداف والمحتوى والمنهجيات التدريسية لإعانة المتعلم على استخدام اللغة العربية في المواقف التي ينوي استخدام اللغة فيها .

◊ التركيز على اللغويات ومهارات وأساليب الخطاب المناسب للمواقف، التي سيعتمد خلالها المتعلم تلك اللغة .

وبالتالي يتضح بأن منهج تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة، مدخل من المداخل التي تركز على المتعلم في حد ذاته، وتسعى لتعليمه من اللغة ما يتماشى والمواقف التي سيتعرض لها، «وهو مدخل يتم في الغالب الأعم التطرق له من خلال هذه الأبواب الثلاثة التالية :

◀ المدخل التعليمي : learning centred Approach، يركز الاهتمام على الدارس ذاته، وما يتصل به وبعلية التعلم.

◀ المدخل اللغوي : language centred Approach، يوجه الاهتمام نحو المواقف التي سيحتاج المتعلم خلالها استخدام اللغة العربية، مع بناء الأهداف والمحتوى وفقا لذلك .

◀ المدخل المهاري : skills centred Approach، حيث التركيز على تصميم المواقف اللغوية، التي تعين المتعلم على التعلم من جهة، وتعين المدرس على تحديد المهارات، والأداء اللغوي من جهة ثانية» (مذكور و هريدي، تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها : النظرية والتطبيق، 2006م، الصفحات 116-117). ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة، يجب أن لا تقدم خلفية لغوية عامة، بل تهتم بخصوصية أغراض كل متعلم، كما يقول رشدي طعيمة: «تساعد الدارس على الاتصال الجيد في المواقف الوظيفية والمهنية التي يتعلم اللغة من أجلها، وفي ضوء ذلك تصبح دراسة اللغة العربية للحياة مطلبا سابقا لدراسة اللغة العربية لأغراض خاصة» (طعيمة، تعليم العربية لأغراض خاصة: مفاهيمه وأسسها ومناهجه، 4/6 يناير 2003م، الصفحات 27-28).

دوافع متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها لأغراض خاصة:

تعدد الأغراض والدوافع لدى متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها بتعدد فهم واختلافهم، وكذا باختلاف قدراتهم الفكرية، النفسية والاجتماعية، إذ يعد هذا الاختلاف من المبادئ الأساسية التي يجب الاعتماد عليها لبناء المناهج المعتمدة في تدريسهم اللغة، فالمتعلمون يتوافدون من بيئات وثقافات متنوعة، ويحملون أسنة وجنسيات مختلفة، الأمر الذي يجعلهم مختلفين حتى من ناحية الدوافع والاستعداد الداخلي لتعلم اللغة .

فالدافعية تمثل حالة داخلية توجه السلوك، إذ تحفز المتعلم نحو فعل التعلم، كما تشحن لديه القدرة والطاقة للتمكن من ذلك. فهو شعور لا يمكن ملاحظته بصورة مباشرة، ولكن يمكن أن يستدل عليه السلوك الظاهري، وبالتالي تشكل العامل الأساس الذي يساعدنا على معرفة الأغراض الخاصة لمتعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها.

ومن هنا يمكن الوقوف عند نوعين من الدوافع الكبرى وهي كالآتي :

❖ **الدوافع الوسيئية :** يسعى من خلالها المتعلم غير الناطق باللغة العربية، إلى تعلمها لتحقيق هدف معين قصير المدى، كأن يسعى بواسطتها لتحصيل وظيفة معينة، أو لغرض سياحي، أو لقراءة اللغات على الطريق، أو الاستجابة لشعائر دينية يلزمه أداؤها بلغتها، وهي دوافع يقتصر الأمر فيها على اكتساب القدر الملائم من اللغة لبلوغ الهدف المنشود .

❖ **الدوافع التكاملية :** التي يسعى من خلالها متعلم اللغة لأغراض أسمى وأعمق، كممارسة اللغة بطلاقة، التعرف على ثقافة مجتمع معين، إتقان التحدث باللغة واستعمالها، تحقيق التواصل بواسطتها، "وهي أغراض تجعل هذا المتعلم واسع الأفق، يتقبل الرأي الآخر ويحترم ثقافته واختلافه " (جابر، 1995م، صفحة 30).

دور الدوافع في تعلم العربية عند الناطقين بغيرها :

"إن دراسة دوافع متعلم اللغة العربية كلغة أجنبية يمكن أن تلعب دورا مهما في :

✓ ربط المقرر ومفرداته بما يطلب المتعلم تعلمه وبما يتماشى مع الاختلافات المحتمل وقوعها داخل حجرة الدرس

✓ الاهتمام بوضع مقررات خاصة، تتضمن ترجمة حقيقية للأهداف التي وضعت في ضوء التحديد الموضوعي لدوافع الدارسين.

✓ تمتين العلاقة التدريسية بين المعلم والدارسين من خلال تعرفه على دوافعهم وتمكنه من تحقيقها.

✓ تحديد عمليات التدريس وإجراءاتها بما يتناسب والمهارات التي يرغب الدارسون في اكتسابها، وتوجيه هذه العمليات والإجراءات نحو تحقيق الأهداف.

✓ تكييف مهارات التدريس عند المعلم مع طبيعة عمليات التدريس وإجراءاتها، تلك التي تتناسب والأغراض اللغوية المنشودة لدى الدارسين .

✓ خلق أفضل الطرق لإثارة دوافع الدارسين للتعلم والاحتفاظ بحماسهم، وذلك بربط الطرق بالرغبات والأغراض " (جابر، 1995م، صفحة 31).

دوافع تعلم اللغة العربية للناطقين بغيرها والأغراض الخاصة :

تشكل اللغة وسيلة مهمة داخل المجتمعات لتحقيق غايات ومقاصد متعددة، منها ما يتصل بتحقيق التواصل والتفاهم بين الأفراد، ومنها ما يضمن تمكنهم من ممارسة العادات والتعامل مع المواقف، «إذ تشكل اللغة الوعاء الحافظ للثقافة والمعرفة والناقل لمكوناتها، بل أكثر من ذلك تؤثر حتى في طريقة إنتاج الأفراد للمعرفة والأفكار، بحيث تحمل اللغة رؤية خاصة للعالم من طرف مستعملها، وتجعلهم يفتحون على ثقافة ذلك المجتمع، كما تعكس قيمه وتحمل هويته وتحافظ عليها» (الجاللي، 28 ماي 2015م). في ظل كل ما سبق نجد أنه لدى متعلم اللغة العربية الناطق بغيرها مجموعة من المقاصد والأغراض التي تدفعه لتعلم العربية، والتي يمكن أن نعرض منها أهم الأغراض وهي كالتالي:

الأغراض الدينية:

المتصلة بالرغبة في التعرف على دين الإسلام، والتعمق في دراسته، ودراسة الثقافة الإسلامية، إذ أن الوحدة العضوية بين العربية والإسلام هي التي مهدت للغة العربية الانتشار في معظم أرجاء العالم، بحيث لا غنى لمسلم عن كتاب الله (القرآن الكريم) وسنة رسوله، وهذه الرابطة هي التي حفظت للعربية مكانتها وقداستها، ورفعت الرغبة المتزايدة في تعلمها .

الأغراض الدبلوماسية:

وهي التي يهدف من خلالها الطالب إلى دراسة العربية لأغراض دبلوماسية وسياسية، كلسفراء، والوزراء الأجانب، لحضور المؤتمرات والندوات العربية .

وينصب اهتمام هذه الطائفة في دراسة اللغة العربية على مهارتي الاستماع والتحدث، بينما يقل الاهتمام بمهارتي القراءة والكتابة .

الأغراض الإعلامية:

يقبل مجموعة من الصحفيين والمذيعين على تعلم ودراسة اللغة العربية، تماشياً مع الأغراض الإعلامية، وتركز البرامج المعدة لتعليمهم على لغة الإعلام والاتصال .

ينصب اهتمامهم نحو تعلم مهارات اللغة العربية الأربعة الاستماع والتحدث، القراءة والكتابة .

الأغراض الأكاديمية:

الخاصة بالطلاب الملتحقين بإتمام دراستهم الجامعية الأكاديمية في دول عربية، إلا أن هذه الفئة تتطلب أن تكون لديهم دراية سابقة باللغة العربية قبل التمكن من الولوج للإتمام الدراسات العليا .

الأغراض الاقتصادية:

المرتبطة بالطلاب المقبلين على دراسة العربية في بلاد العرب لأغراض التجارية الاقتصادية؛ كالبيع والشراء، عقد وإتمام الصفقات مع العرب باللغة العربية، وأغلب هؤلاء الطلاب يركزون في تعلمهم على العامية لعقد الصفقات والتقرب من التجار.

الأغراض السياحية:

التي يسعى من خلالها السياح الناطقين بغير العربية إلى تعلمها لتحقيق الغرض السياحي في البلدان العربية، فيسعون لتعلم القدر الملائم من اللغة العربية الذي يتماشى وتحقيق الغرض السياحي . من خلال ما سبقت الإشارة إليه من أغراض، تجدر الإحاطة أيضا بالمشاكل والصعوبات التي تعيق عملية تعلم العربية لدى الناطقين بغيرها، والتي يمكن أن نجملها في المبحث التالي .

مشكلات تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة :

يواجه تعليم العربية عند الناطقين بغيرها لأغراض خاصة مجموعة من المشاكل منها: مشكلة "الازدواجية اللغوية"، إذ أن الطالب يواجه مشكل الاختلاف بين ما يدرسه داخل المحرات الدراسية وما يسمعه في الشارع، حيث تقف العامية سدا منيعا أمام ضبط العربية الفصحى، الأمر الذي قد يسبب الإحباط واليأس لبعض الطلاب.

ومن المشكلات الأخرى أيضا عدم الاهتمام "بحاجات المتعلمين"، بحيث أنه بالرغم من الجهود التي تقوم بها المراكز والمعاهد المتخصصة في تعليم العربية للأجانب، إلا أن هذه المناهج لازالت متأثرة في كثير من جوانبها بعدم ضبط خصوصية كل متعلم، كما يقول الدكتور يوسف خليفة: «ما يحسه المتعلم من مشكلات تعليمية في تعليم العربية لأبنائها، ربما مقابل لما يتم تعليمه وضبطه من طرف فئة غير الناطقين بها، وهو الأمر الذي يؤدي لبروز مجموعة من الصعوبات وبالتالي ضعف هؤلاء المتعلمين في التمكن من تحقيق أغراضهم الخاصة» (خليفة، فبراير 1989م، الصفحات 52-57).

فشل بعض المناهج في ملائمة الطرق والمناهج لتحقيق أغراض المتعلمين الخاصة"مما دفعهم للتفكير في طرق ومناهج جديدة تتماشى و تحقيق الأغراض المستهدفة، وتوفر على الشروط التي تملئها الأهداف الخاصة لدى المتعلمين، لتساعد على استعمال اللغة تعبيراً، فهما، نطقاً، وكتابة " (عبيدات، 1997م، صفحة 74).

أيضا عدم موازاة المقرر لاحتياجات وأغراض المتعلمين الناطقين بغير العربية، حيث يوضع المقرر بشكل عمومي وغير مستهدف، مما يحول دون تحقيق الطلاب لأهدافهم المنشودة . تجربة "معهد عربي" لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة :

اهتمت مجموعة من المعاهد والمدارس الخاصة في العالم العربي، بتعليم اللغة العربية لفئة الناطقين بغيرها، فطنة منها بالعدد الكبير للمقبلين على تعلمها، فأصبحت حركة هادفة لجعل تعلم اللغة أكثر التصاقاً بالمتعلم وأهدافه، وأكثر تمثيلاً لأغراضه الخاصة ونوع اللغة التي يريد اكتسابها وتعلمها، تماشياً والمواقف التي ينوي استخدام اللغة خلالها، إلا أنها حسب ريشارد «هذه الحركة قد أخذت تفتح طرقها لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة، لكنها لازالت في بداياتها الاجتهادية» (ريشارد، 2007م، الصفحات 40-41).

نموذج: المعهد العربي للغة العربية (عربي) :

عربي هو معهد أهلي، متخصص في تعليم اللغة العربية لأصحاب الأغراض الخاصة غير الناطقين باللغة العربية، ويقدم إلى جانب ذلك خدمات تعليمية تدريبية واستشارية للمهتمين بتعلم اللغة العربية وتأليف مناهجها.

«أنشئ في مدينة الرياض، حي السفارات بتاريخ (20 ماي 2009م)، وأغلق سنة (20 أبريل 2015م)، وهو أحد الأعمال الخيرية عن مؤسسة سليمان الراجحي. وقد قامت فكرة إنشاء المعهد على أساس خدمة الراغبين في تعلم اللغة العربية من طرف المقيمين الأجانب في المملكة العربية السعودية، ممن تحول طبيعة عملهم دون الانخراط المباشر في المجتمع السعودي بالتعامل والشفافية، وتحول في مناصبهم الوظيفية، بصفة خاصة الدبلوماسيين، الرجال الأعمال، الأطباء...» (مذكور و هريدي، تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها : النظرية والتطبيق، 2006م).

الدراسات التأسيسية:

أجرى المعهد أربع دراسات :

- دراسة الجدوى الاقتصادية: من خلال التأكد من جدواه الاقتصادية، حيث قد سبق إنشاءه في مركز الشرق الأوسط للدراسات .
- دراسة حاجات المتعلمين: حيث أجرى المعهد دراسة ميدانية لتحليل حاجات الراغبين في تعلم العربية، بحيث شملت الدراسة الميدانية للمجالات التالية: الدبلوماسي، التجاري، الصحي، التعليمي، المسلمين الجدد.
- دراسة الأطر العلمية والبرامج المشابهة: أجرى المعهد دراسة تحليلية للمواد التعليمية المعدة لتعليم اللغتين العربية والانجليزية لأغراض خاصة، من خلال استفادة الفريق من النموذج الأمريكي، الكندي والأوروبي، لتعليم اللغات وملحقاته لأغراض خاصة .

▪ دراسة تفضيلات المتعلمين: فيما يتعلق بمكان التعلم ومدته وأوقاته، ثم تحديد الأهداف المتوخاة تحقيقها (الحقباني، 2018م، صفحة 20)

إعداد المواد التعليمية :

أعد المعهد تحت عنوان "مسارات" ثلاثة مناهج لتعليم العربية لأغراض خاصة وهي : العربية لدبلوماسيين، العربية للمجال الصحي، العربية للمجال التجاري .

ركز فيها المؤلفون على منهجية خاصة في بناء المواد التعليمية وتجهيز المقرر، تقوم على الحاجات التواصلية الفعلية للمتعلمين، بناء على نوعية الأغراض الخاصة. وذلك من خلال اتباع ثلاث استراتيجيات : (الحقباني، 2018م، صفحة 20)

© تحليل مهمات العمل : تهتم بتحديد الاختصاصات والمهمات، وطبيعة المواقف التي يتطلب استخدام اللغة العربية خلالها، ثم أنماط الحوارات والمواقف التواصلية .

© ملاحظة الأداء التواصلية : حيث يجلس المؤلفون إلى جوار الموظفين الغير الناطقين بالعربية، يتواصلون معهم، يراقبون أداءهم التواصلية، سواء أكانت بلغتهم الأم أو الانجليزية .

© تمثيل الأدوار : يمثل المؤلفون دور العميل أو الزائر ويتواصل مع الموظف بحسب طبيعة اختصاصه، موضحاً حاجته لتعلم العربية .

ليتم في الأخير إنشاء المعهد ووضع تخطيط الدورات التعليمية وفق الشكل التالي:

"الدرس الصفّي ← التعلّم الذاتي ← جلسة المحادثة ← التواصل الطبيعي" (الحقباني، 2018م، صفحة 20)

بحيث يتم تعليم متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها وفق عمليتين:
◀ عمليات التعلّم :

أ - الدروس الصفية: من خلال دروس في مواد تعليمية متنوعة، ومتعددة المستويات أعدها المعهد لفائدة هؤلاء المتعلمين، وتم داخل الفصول الدراسية .

ب - التعلّم الذاتي: بحيث يؤدي المتعلمون خلاله مهمات للتعلّم محددة بشكل ذاتي، داخل الفصل أو خارجه (ككتب تعليمية، برامج الكترونية، مقاطع فيديو ...) .

◀ عمليات الاكتساب :

أ - جلسات الحوار: تتم وفق ساعات محادثة مخططة تتوافق مع خطط الدروس الفصلية، يجريها المدرس مع المتعلمين في غرفة مخصصة، ربما أثناء مشاهدة عرض تقديمي حول موضوع المحادثة ليكون منطلق الحوار.

ب - التواصل الطبيعي: حيث يقوم الطلاب رفقة أساتذتهم بالتسوق، أو زيارة مطعم، أو إحدى الجمعيات، بحيث يمارسون اللغة بشكل طبيعي، بمساعدة المدرس، في ظل إجراء محادثات بلغة واضحة ومفهومة. (الحقباتي، 2018م، صفحة 21)

نتائج وحصول المعهد:

بالنظر إلى نسبة أعداد الدارسين وعدد الدورات التي تم تنظيمها، اتضح بأن تعليم اللغة العربية لأغراض دينية تصدرت قائمة الدارسين، يليه المجال الصحي ثم المجال التجاري، وفي الأخير المجال الدبلوماسي. «مع أن المعهد كان يستهدف في بداياته الدبلوماسيين بالدرجة الأولى، واختار موقعه ليكون في حدودهم الجغرافية، وكان معظم نشاطه التسويقي في محيطهم، إلا أن إقبالهم على الدورات كان جد ضعيف، مما أوضح أن حاجتهم لتعلم العربية، حاجة تكميلية فقط وليست أساسية» (الحقباتي، 2018م، صفحة 21). أما فيما يخص المنهج أو المقررات الدراسية، فقد أعدها المعهد وفق دراسة ميدانية كما سبقت الإشارة، وجرب استخدام بعض السلاسل التعليمية الجاهزة، ومع ذلك فقد واجه في كل دورة صعوبة في استجابة المتعلمين، ومستوى تقدمهم في تعلم اللغة كان ضئيلاً، مما ألزمه إجراء الكثير من التعديلات في المحتوى وطرق التدريس وفي المدرسين أيضاً، والحقيقة التي توصل لها المعهد أن احتياجات المتعلمين الخاصة وأساليبهم في التعلم، تختلف باختلاف أعدادهم، مما يصعب أن يستجيب لها مقرر أو كتب تعليمية معينة، أو طرق تعليمية مهيأة سابقاً، مهما كان التجانس والاختلاف في تخصصاتهم ومجالاتهم المهنية. وبالتالي فإن كل دورة تعليمية كانت تفرض خطط واستراتيجيات جديدة، يشكل فيها دور المدرس دوراً محورياً في قيادة عمليات التعلم واكتشاف تفضيلات المتعلمين وحاجاتهم وأساليبهم التعليمية وتلبيتها بما يناسب أغراضهم الخاصة.

خاتمة:

من خلال ما سبق نخلص إلى أن تجربة تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، وفق ما يراعي ويحقق أغراضهم الخاصة، هي تجربة رائدة وأبانت على استجابة كبيرة من طرف هذه الفئة، إلا أنها ما زالت في بداياتها مما يتطلب مزيداً من الجهود من طرف المعاهد المختصة في هذا المجال، وذلك من خلال تطوير الطرق التدريسية المعدة لتعليم غير الناطقين باللغة العربية وفق ما يتماشى وتحقيق أغراضهم الخاصة، مع مراعاة اختلاف اللغات الأم والجنسيات، وكذا تعدد الأغراض، ومواكبتهم خلال عملية التعلم ليس بطريقة نظرية فقط وإنما بطريقة تطبيقية أيضاً، حتى يتمكنوا من مزاولة اللغة العربية بما يوافق أغراضهم وحاجياتهم التي تعلموا اللغة من أجلها، وفي الأخير لا يبقى إلا أن نقول أنه يجب أن نضاهي الجهود حتى

يتم تحقيق المنشود وأن يتم تطوير هذه التجربة ولما لا تعميمها حتى يغدو معتدا بها في كل معاهد تعليم اللغات.

لائحة المصادر والمراجع :

- . David Wilkins . (1972) . London. *linguistique in language teaching* .
- (197) Ronald Mackay; Mars *focus on the learned pragmatic perspective for the* . London: *language didactics and applied linguistics language teachers* .
- أبو بكر يوسف خليفة، (فبراير 1989م)، تأثر مواد تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بمواد تعليم العربية لأبنائها، *المجلة العربية للدراسات اللغوية العدد 1/2 ، 52-57* .
- الحقباتي أحمد عبد الله، شارك في تأليفه: جمعان بن سعيد القحطاني- أ. علي عبد الواحد أبو عشيمة- عبد الرحمان الشيك- د. ليانغ ينغ- د. الصديق آدم بركات. (2018م). *تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة: تجارب وتقويم، السعودية: مركز الأمير عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية الطبعة 1* .
- الكتيب التعريفي لمعهد عربي لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، (2009)، السعودية .
- ريشلرد جاك/ ترجمة د. ناصر عبد الله الغالي و د. صالح بن ناصر الشويرخ (2007م)، *تطوير مناهج تعليم اللغة، دار جامعة الملك سعود للنشر* .
- حسين عبيدات، (1997م)، *تطوير أساليب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وقائع حلقة النقاش الأولى حول تطوير أساليب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، (صفحة 74)* . الأردن جامعة فيلادلفيا كلية الآداب: *مجلة تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها* .
- رشدي أحمد طعيمة، (4/6 يناير 2003م) *تعليم العربية لأغراض خاصة: مفاهيمه وأساسه ومناهجه* . منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . ، 27-28 .
- عبد الحميد جابر. (1995م)، *سيكولوجية التعلم ونظريات التعليم، الكويت: دار الكتاب الحديث للتوزيع والنشر* .
- علي أحمد مذكور، و إيمان أحمد هريدي. (2006م). *تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها : النظرية والتطبيق* . القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر .
- محمد البوصيري. (7 يناير 2003م). *تعليم اللغة الانجليزية لأغراض خاصة/ ندوة تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة* . منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، 1-2 .
- محمد عبد الله الجالي، (28 ماي 2015م)، "أغراض تعليم العربية عند الناطقين بلغات أخرى"، منشورات *المجلة الإلكترونية الألوكة* .

ظاهرة الجناس في شعر أبي تمام
دراسة دلالية - إيقاعية

The phenomenon of alliteration in Abu Tammam's poetry

Semantic-rhythmic study

عائشة عبد الكريم الآفاه

طالبة دكتوراه - كلية الآداب والعلوم الإنسانية -

جامعة حماة، سوريا

بإشراف: أ.د رود محمد خباز

البريد الإلكتروني: aishaalafaa@gmail.com

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الجناس في شعر أبي تمام دراسة دلالية - إيقاعية تفي بالغرض المقصود. لذا يبدأ البحث بمقدمة تتضمن الكلام على دلالة المصطلح، ثم يُبنى بالبحث في الكثافة الداخلية للجناس، عن طريق دراسة ملاحظين: الكثافة الكلية والكثافة الجزئية. ثم يشفع ذلك بدراسة الكثافة الخارجية للجناس، والتي تقع أيضاً في ملاحظين: التكاثر الصامت، التكاثر الصائتي. الكلمات المفتاحية: بلاغة، الجناس، أبو تمام، الدلالة، الإيقاع.

Abstract:

This research observed the phenomenon of alliteration in Abu Tammam's poetry, a semantic study - rhythm used to identify illness. The research begins with an introduction that includes a discussion of the meaning of the term, then proceeds with research into the internal reference to alliteration, by studying two aspects: the total reference and the multiple density. Then this is accompanied by a study of the external meaning of alliteration, which also falls into two sections: Takatakaf al-Samiti and Takatakaf al-Sa'iti.

Keywords: :

Rhetoric, alliteration, Abu Tammam, connotation, rhythm.

المقدمة:

تتفق تعريفات البلاغيين القدماء حول مفهوم الجنس، وإن اختلفت ألفاظهم في التعبير عنه، في أنه اتفاق اللفظين، واختلاف معناهما¹.

والمأمل في هذا المفهوم يلحظ أن بنية الجنس تنهض على أمرين: البعد التكراري الشكلي، الذي يبرز دوره الإيقاعي المتمثل بالتجانس الصوتي. الاختلاف الدلالي بين الكلمتين المتجانستين.

على هذا فإن للجناس مستويين؛ المستوى السطحي الذي يتصل بحاستين: حاسة السمع التي تستطيع تتبع إيقاع الأحرف عند تجاوزها لتكون كلمة أو بعض كلمة. وحاسة البصر التي تعمل على تتبع رسم الأحرف وما بينهما من توافق أو تخالف. والمستوى العميق فيبرز دور المتلقي وذلك باستحضار حاسة التوقع الذي يقتضي تماثلاً عميقاً يقابل التماثل السطحي، ولكن الناتج الدلالي يكسر التوقع فيخالف المستوى العميق المستوى السطحي، وبهذا تتكاثر المنهات التعبيرية التي تؤكد شعرية الصياغة. (محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 373).

على المستوى العميق فيبرز دور المتلقي وذلك باستحضار حاسة التوقع الذي يقتضي تماثلاً عميقاً يقابل التماثل السطحي، ولكن الناتج الدلالي يكسر التوقع فيخالف المستوى العميق المستوى السطحي، وبهذا

1) عرفه ابن المعتز: " هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف الحروف". البديع، ابن المعتز، ص 25.

وذكر قدامة بن جعفر، قائلا: " أما المجانس فأن تكون المعاني اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق ". نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص 163.

وقال العسكري في تعريفه " أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبها في تأليف حروفها". الصناعتين، العسكري، ص 321.

وقال ابن الأثير: "حقيقته أن يكون اللفظ واحداً، والمعنى مختلفاً". المثل السائر، ابن الأثير، 262/1.

ابن سنان الخفاجي " هو أن يكون بعض الألفاظ مشتق من بعض إذا كان معناهما واحداً ، أو بمنزلة المشتق عن كان معناهما مختلفاً ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى". أسرار الفصاحة ابن سنان الخفاجي، ص 183.

وحده الرماني بقوله: "تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة، والتجانس على وجهين؛ مزاججة ومناسبة، فلما واجهت تقع في الجزاء كقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه أي جاوزه بما يستحق على طريق العدل، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار... والثاني من المجانس هو المناسبة، وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد؛ فمن ذلك قوله تعالتم انصرفوا صرف الله قلوبهم فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء". النكت، الرماني، ص 100.99.

تكثر المنبهات التعبيرية التي تؤكد شعرية الصياغة، لذا فبنية التجانس تخضع لعمليتين : (محمد عبد
المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 373)

الأولى: اختيار مفردتين متطابقتين صوتياً؛ إذ المنبه التعبيري أقوى تأثيراً، وهنا يكون الجناس التام.
والثانية: اختيار مفردتين بينهما من التماثل أكثر مما بينهما من التخالف، وعندها يكون المنبه التعبيري
أقل تأثيراً، وهو ما أطلق عليه البلاغيون الجناس الناقص أو غير التام، وهو أكثر حضوراً من سابقه .
ترتيباً على ما تقدم يعد الجناس خصيصة أسلوبية صوتية متميزة تجمع بين التكرار واختلاف المعنى؛ وعن
طريق التكرار يملك قدرة عالية على إحداث موسيقى مميزة داخل النص الواحد؛ إذ تعد الكثافة أهم
المؤشرات الفعالة التي تساهم في إعطاء التشكيلات الصوتية جانباً إيقاعياً، يقول محمد العمري في هذا
الصدد: "إن الكثافة والتراكم يعتبران الشرط الأول لبروز الموازنات وفعاليتها، وهذه القضية تكاد تكون
بديهية عند الباحثين في هذا الموضوع مهما اختلفت الزاوية التي ينظرون منها". (محمد العمري، تحليل
الخطاب الشعري، ص 63)

واضح أن كثافة الجناس ترتبط بطريقة تكرار الحروف في ألفاظ الجناس، ويمكن تقسيمها إلى نوعين:
أولاً: الكثافة الداخلية: وهي على مَلْحَحِينَ:

أ- الكثافة الكلية: وتكون باتحاد المتجانسين في الحروف البانية والحركات، مع اختلاف المعنى، وهو ما
يُعرف عند البلاغيين القدماء بالجناس التام.
ب- الكثافة الجزئية: وتكون باتحاد المتجانسين في أغلب الحروف، وهو ما يُعرف عند البلاغيين بالجناس
الناقص.

ثانياً: الكثافة الخارجية: ويمكن دراستها في مَلْحَحِينَ: الأول: التكاثر الصامت: وهو اشتراك جناسين
مختلفين بصامت أو أكثر. والثاني: التكاثر الصائتي: وينهض على اشتراك ركني الجناس بأحد الصوائت.
يبدو للباحث في ديوان أبي تمام عن هذين الشكلين أنهما متفشيان تفشياً واضحاً في شعره، ولاسيما الكثافة
الجزئية، فهي كثيرة طالحة إلى حد الغزارة، وهو ما يُقرره أيضاً محمد العمري بقوله: "وهذا كثير في شعر
أبي تمام فهو يغزو في تجنيسه مغزى المجانسة التي تقتضيها الدلالة، ومغزى المجانسة بينها وبين ألفاظ
متجانسة سابقة عنها، وقد كان الشعراء يكتفون في الغالب بالمجانسة بين الأصوات أو الألفاظ". (محمد
العمري، اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي، ص 46).

هدف البحث:

البحث في فاعلية الجناس في شعر أبي تمام، والتي تمثلت في دراسة الكثافة الداخلية، والخارجية للجناس.

مادة البحث:

وقع اختيار البحث على شعر أبي تمام ليكون مدار البحث التطبيقي؛ لأنه شاعر عباسي له مذهبه الخاص في توظيف البديع في شعره الذي شكّل تياراً تجديدياً مهماً في الشعر العربي العباسي. وقد كان الطائي أكثر في الاعتماد على الجناس؛ فقد نتولى الأبيات في قصائده، ولا يخلو بيت من هذه الظاهرة البديعية.

منهج البحث:

يدرس هذا البحث فاعلية الجناس في شعر أبي تمام ضمن دائرة علم البديع، متبعاً المنهج الوصفي التحليلي؛ بوصفه المنهج الأقرب لتدقيق أهداف الدراسة، فضلاً عن الاستعانة ببعض الأدوات الإجرائية للمنهج النفسي.

الدراسات السابقة:

1. فن الجناس في المذهب الشعري لأبي تمام، فائز طه عمر، مجلة كلية الآداب، بغداد، العدد 60.
2. جماليات التشكيل الشعري - أبو تمام أنموذجاً، رسالة ماجستير، إعداد الطالب: سمير عوجيف، إشراف: أ. د. عبد القادر سكران، جامعة وهران، الجزائر.
3. بنية التكرار في شعر أبي تمام، رسالة دكتوراه، إعداد الطالب: أحمد محمد طالب المسيعدين، إشراف: أ. د. خليل الرفوع، جامعة مؤتة، الأردن، 2017.
4. بلاغة بنية قصيدة أبي تمام في فتح عمورية، خالد عبد الرؤوف الجبر، جامعة البتراء الأردن، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مجلة دراسات، المجلد 41، ملحق 2، 2014.
5. شعرية أبي تمام، ميادة إسبر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق، بلاط، 2001.

أولاً: الكثافة الداخلية في شعر أبي تمام:

وسندرس فيها:

أ- الكثافة الكلية (الجناس التام) في شعر أبي تمام:

من نماذج هذا الشكل قوله متغزلاً في أثناء مدحه لأبي سعيد محمد بن يوسف الطائي: (أبو تمام، الديوان، ص 100)

فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً مورداً من الدّمِ يجري فوق خدِّ مورِدٍ

استثمر الشاعر الكثافة الكلية في قوله: (دمعاً مورداً، خدِّ مورِدٍ)، إذ نجد تماثل ركني الجناس تماثلاً كلياً، مما أشاع في البيت الشعري نغماً ساهم في تقويته تماثل موقع لفظي الجناس، إذ أتى كل منهما في نهاية كل شطر، وقد نشأ الاختلافُ الدلالي من استعمال التورد للدمع استعمالاً مجازياً؛ فالدمع المصحوب

بالأسى والخوف قد اكتسى بلون الدّم الأحمر، وللخذ استعمالاً حقيقياً، فهو يعبر عن تعاقب الاختلاف عبر توحد الألفاظ؛ لذا فالتكرار اللفظي يمثل نوعاً من الاتفاق لا يلبث أن يواجه باختلاف دلالي؛ ولعل الشاعر حريصاً على تقريب الألفاظ بعضها من بعض، وبناء المعاني المتباينة على ألفاظ متماثلة في البنية قابلة للتحوير من جهة المعنى، مما يحقق للبيت الشعري تماسكه.

وكما في قول أبي تمام مادحاً الحسن بن وهب: (أبو تمام، الديوان، ص 43)
أعاذلتي ما أخشن الليلَ مَرَجاً! وأخشن منه في الملماتِ رَاكِبُهُ

تتحقق الكثافة الكلية من ركني الجناس (ما أخشن!، أخشن)؛ إذ تتحد الكلمتان في نفس البنية، مما يؤلّد إيقاعاً منتظماً في البيت الشعري، ويبدو أنّ الجناس يُفصح عن فكرة مفادها أنّ هذا المسافر هو أخشن من الليل، وبتعبير أدق؛ إذا كان التعبير الأوّل: (ما أخشن!) قد صيغ بطريقة التعجب للتعبير عن الخشونة والصعوبة التي يجدها مسافر ما أثناء الليل، فإن التركيب الثاني (وأخشن): هو اسم تفضيل استخدم بمعنى (أقوى) معبراً في سياقه عن رؤية كونية قوامها أنّ في وسع الإنسان أن ينتصر على ذاته التي تمثلت له بامرأة تغريه بالركون (أعاذلتي)، لكنّه مصمم على أن ينتصر على المكان، فيرتحل فوق الصعاب، وعلى الزمان فيقاوم أهواله، وسلاحه في كل ذلك الأمل النابت من قلب الشدة، لعل هذا ما يوميء به مجيء التعبير الثاني (وأخشن منه في الملمات) بدلاً أن يقول: (وأخشن براكبه في الملمات!)، وربما أراد بذلك أن يطيل أمد التعجب المتحصل من التعبير السابق من خلال اسم التفضيل، من الجلي هنا أنه أراد تجيّد الإنسان مستعملاً الفعل (خشن) بصيغة الجناس المجازي الذي يبدو تحت ستار تكرار وهمي، يكشف عملية معنوية تجري انطلاقاً من جذر واحد، تمنح الكلمات التي بُنيت على هذا الجذر معانٍ مختلفة، لا تشير إلى التشكيل الصوتي فحسب، بل إلى رؤية كونية لدى أبي تمام أيضاً. لينهض الجناس التام على التماثل الصوتي، والاختلاف الدلالي مما ساهم في تماسك البيت الشعري.

يقول أبو تمام يمدح الحسن بن وهب: (أبو تمام، الديوان، ص 39)
دعني أفرّق شملَ دمعي فإنني أرى الشملَ منهم ليسَ بالمتقاربِ

تجلي الكثافة الكلية في قول الشاعر: (شمل دمعي، الشمل) علاوة على كونها تساهم في إضفاء قيمة إيقاعية للبيت الشعري فهي تحمل مفارقة دلالية بين (شمل الدموع) في استعماله المجازي، و(شمل القوم) في استعماله الحقيقي؛ من خلال تعضيد شمل الدمع، والإعلاء منه ودججه في تركيب إضافي يضفي عليه صفة التوحد والتلاحم، في مقابل الشمل الثاني: الذي اكتفى بإيراده معرفاً، وتزداد المقارفة بين الشملين المتحدين صوتياً المفترقين دلاليّاً؛ من خلال تصوير الشمل الحقيقي في صورة المشتت المتباعد، وتصوير الشمل المجازي في صورة المتحد المتعاقب الذي يُجاهد في تشتيته وتفريقه، وبذلك يشفّ الجناس

ذو الطابع المتناقض عن حالة حنين خانق يعيشها الشاعر في قرارة نفسه، وهو في حقيقته تجسيد للحياة الغائبة التي يصعب عليه تحقيقها، الحياة التي تبدو صعبة المنال، وبذلك يغدو الجناس المهيمن على العناصر المشكلة للبيت الشعري سبيلاً إلى تماسكه وترابطه.

كقوله في مدح أبي الحسين محمد بن الهيثم : (أبو تمام، الديوان، ص 121)
لِيَالِنَا بِالرَّقَّتَيْنِ وَأَهْلِهَآ
سَقَى الْعَهْدَ مِنْكَ الْعَهْدُ وَالْعَهْدُ وَالْعَهْدُ

وظف الشاعر الكثافة الكلية في الجناس (العهد، العهد، العهد)، فانجس داخل النص إيقاع متحصل أساساً من المجاورة التي ساهمت في تدفق نغمة النص، ويبدو أن الدفق الإيقاعي للجناس يتضافر مع المعنى الذي يشير إلى عودة النشاط والحياة وديار الأحبة بعد الدعاء لها بالسقيا، وهو ما عبر عنه الفعل (سقى) الذي جاء على صيغة الماضي، وحمل معنى الدعاء، ليدل على اليقين والثبات، وكأن الدعوة بالسقيا حاصلة محققة، وقد انسحبت على العهود كافة، وكأنه قال: إنَّ المكان قد أصبح مخضلاً بسقيا المطر الغزير المتصل إيداناً بالميلاد والحياة، ولعل مما زاد إيقاع النص بناؤه على تفعيلات بحر الطويل ذي التفعيلات المتعددة الممتدة والإيقاع الرّحب، الذي يسمح بتسريع وتيرة الموسيقى، وهو ما يتناسب مع طلب الإحياء للمكان الذي اّسم بالحركة الدائبة، وما يتصل بها من حركة ونشاط، حتى وإن هجره ساكنوه، وبدا أنّ هذه التراكمات الصوتية في البيت الشعري حققت له حُمة تشدُّ من أزر الألفاظ المشكّلة له.

ب - الكثافة الجزئية (الجناس الناقص) في شعر أبي تمام:

ومن نماذج هذا الشكل قوله مادحاً المعتصم: (أبو تمام، الديوان، ص 115)
إِذَا زَهْدْتَنِي فِي الْهَوَى حَيْفَةَ الرَّدَى
جَلَّتْ لِي عَنْ وَجْهِ زُهْدٍ فِي الزُّهْدِ

تظهر الكثافة الجزئية للجناس في قول الشاعر (زهديني، زهد، الزهد)، لتلتيق المباينة الدلالية بالتقارب الصوتي، إذ ترتبط الكلمات بأصل اشتقائي واحد (زهدي)، مما يمنح البيت الشعري دفقة نغمية طاحفة، زاد من وتيرتها مجيء لفظي (زهد، الزهد) متجاورين، ولعل هذه الحركة النغمية المتكاثفة تكشف عن صورة من التّأزم النفسي إلى حد التّشتت لدى الشاعر مبعثه ظهور وجه الحبيبة الذي يحرك سواكن النفس، فيختلط الزهد بالرغبة، الإحجام بالإقدام، فكلمها طلبت منه المحبوبة عدم التّعلق بها خشية الهلاك؛ بسبب الهجر، أو القتل، أظهرت له من حُسن محيّاها ما يُبعد لديه الرّغبة في الوصال، وهو ما يوحى به مجيء الفعل (زهد) الذي يدل على التجدد والاستمرار، فإذا انسأقت النفس إلى الزهد، تجددت في داخلها بواعث تمنعها منه (زهد في الزهد)، فيغدو النص محاطاً بتكرار دائري، ومنغلقاً عليه، لذا ليس بخفي أن علاقة التّجانس التي تنتظم البيت الشعري كلّه تعمل على تماسكه وترابطه.

وقال يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي: (أبو تمام، الديوان، ص 140)

وإني لأرجو أن تقلد جیده

قلادة مصقول الذباب مهند

مقلدها في الناس دون مقلد

منظمة بالموت يحظى بحلياً

يؤمن تكرر الكلمات (تقلد، قلادة، مقلدها، مقلد) التي تنتمي إلى أصل اشتقائي واحد (قَد) كثافة

جزئية للجناس، كما يوفر للنص إيقاعاً صوتياً يتمثل بتكرار حروف (القاف، اللام، الدال)، وهذا التماثل

الذي أحدثه ترديد الأحرف زاد من إيقاع النص الذي سيطر عليه نبض شعوري واحد نتيجة احتوائه

على شريحة دلالية واحدة؛ هو الإفراط في المدح؛ فالمقتول يحظى بالشرف والحظوة؛ إذا كان مقتله على

يد هذا الممدوح، وبذلك ينقلب القتل المأساوي هنا إلى رفعة وسمو للمقتول؛ ولعل هذا يعبر عن جدلية

فكر أبي تمام؛ ففي شعره يتجلى المجد في الفناء، ويولد الشرف من التدمير.

ويعمد إلى التكاثر الجزئي في قوله يمدح عمر بن طوق التغلبي: (أبو تمام، الديوان، ص 15)

غربت خلائقه وأغرب شاعر

فيه فأحسن مغرب في مغرب

وهنا يتصاعد التشابه اللغني بتكرار الكلمات (غربت، أغرب، مغرب، مغرب) التي تنسب إلى أصل

اشتقائي واحد (غرب)، مما يجعل الكثافة الجزئية للجناس مفتاحاً لرفع رنة الإيقاع في النص؛ إذ تتكرر

النواة أربع مرات داخل البيت إلا أنها تمثل نوعاً من التقابل بين الشاعر وممدوحه في إطار التوحد،

وذلك حين تتلاقى غرائب معاني الشاعر مع غرائب أخلاق الممدوح، مع احتفاظها كل منهما بالتفرد

والتمييز.

وكما في قوله يمدح أبا دلف القاسم بن عيسة العجلي: (أبو تمام، الديوان، ص 202)

في يوم أرشق والهيجاء قد رشقت

من المنية رشقاً وإبلاً قصفاً

استثمر الشاعر الكثافة الجزئية للجناس في قوله: (أرشق، رشقت، رشقاً)، مما ساهم في تأجيج إيقاع

البيت الشعري، إذ توزع الجذر الثلاثي (رشق) على صيغ مختلفة (أرشق، رشقت، رشقاً)، فضلاً عن

قيمة المواقع للكلمات المتجانسة التي تتباعد أطرافها فترتبط بنقطة محورية جامعة متحركة بمعنى النص؛ هي

قوة الممدوح وبسالته؛ لذا صور الشاعر شدة الحرب التي شبهها بإنسان يرسل الموت كالسهم التي تتابع

كتتابع المطر الغزير المصحوب بصوت الرعد الخفيف، فهذا تصوير ملحمي، وصوغ إبداعي مما يجعل

البيت الشعري ككلمة متماسكة مترابطة.

قال أبو تمام يمدح إسحاق بن إبراهيم: (أبو تمام، الديوان، ص 302)

فكاد شوقي يتلو الدمع منسجماً

لو كان في الأرض شوق فاض فانسجماً

في النص تعانق ثنائي لكثافة جزئية حققها الجناس في قوله: (شوقي، شوق)، (منسجماً، انسجماً) لعل هذا التكرار يتناسب مع بنية البيت الدلالية؛ بحيث يمكن القول إن الإيقاع والمعنى يتبدلان مع الأنفاس، وحركة القلب، فشوق الشاعر لطف حتى كاد يسيل مع الدمع، فلو كان في الأرض شوق يفيض غزيراً كالدمع، لفاض شوقه، إنه شوق يعبر عن يباس الحياة وإحساس عميق بالبعد والظماً لرؤية المحبوبة، مما يحقق درجة عالية من الفنية يشارك في إنتاجها الصوت والمعنى، وهكذا يغدو الإيقاع النغمي مناسباً لحركة الوجد التي لا تنطفئ، ومسلكاً إلى تماسك النص والتحامه.

والشاعر يطيل الوقوف على الطلل ويعيد السؤال، قائلاً: (ديوان أبي تمام، ص 125)

طَلَّ عَكْفُتُ عَلَيْهِ أَسْأَلُهُ إِلَى أَنْ كَادَ رَبْعُهُ لِي مَسْجِدًا
مَا زِلْتُ أُنْشِدُهُ وَأُنْشِدُ أَهْلَهُ وَالْحَزْنَ خَدْنِي نَاشِدًا أَوْ مُنْشِدًا

تتالى البنى المتجانسة (أُنشده، أنشده، ناشداً، مُنشداً) ذات الجذر اللغوي الواحد (نَشَدَ) لتشكل كثافة جزئية مسبغة على النص ضرباً من التواتر الإيقاعي العالي الرنين، ويبدو أن جوهر المجانسة في النص يعتمد على التردد الصوتي القائم على المشابهة الصوتية، والمقابلة في المعنى مما يؤكد حس التداخل؛ إذ يؤكد الشاعر دوام الاتصال بالطلل من خلال إنشاد الشعر، فيمنح السكون القابع في مفاصل الطلل حركة وحيوية، فيغدو الإحياء مقابل الموت، الإنشاد حذو التلاشي، وكأن الوقوف على الطلل أصبح مطلباً حيويًا للشاعر، لا بد أن يعطيه حقه شعراً، لتعلق روحه به، لذا فهو تارة يعرف الربع بأصحابه، وتارة أخرى يطلب ساكنيه وأهله، والهَمُّ ملازم له في الحالين، ومن ثمَّ يحمل هذا التكرار المنظم لعبارات الجناس تلاحماً دلالياً يعاضده أداء إيقاعي له أثر في تماسك البيت الشعري وترابطه.

يقول أبو تمام في فتح عمورية: (ديوان أبي تمام، ص 7)

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِبْنَاءَ مِنَ الْكُتُبِ فِي حِدِّهِ الْحُدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

في الكلمات (حِدِّهِ، الحُدُّ، الجِدِّ) تجاوب إيقاعي شكلته الكثافة الجزئية للجناس في الشطر الثاني من البيت الشعري، فالشاعر في الشطر الأول يقرر حقيقة عامة بلغة هادئة غير قلقة؛ هي أن الإقدام على خوض الحرب أصدق من كتب المنجمين الذين ادعوا بأنَّ عمورية لا تُفتح في هذا الوقت من السنة، وقد كان هذا باعثاً على ما في الشطر الثاني من توتر سرى في كل نبرة من نبرات الألفاظ التي ترابطت واتحدت في مكان بدا كثيف النغمة قوى الحروف (الحاء، والداد، والجيم، والعين) ومما ساعد على هذا تشديد بعض الأحرف (الداد واللام) تشديداً متلاحقاً، وبخاصة تكراره ثلاث مرات مع حرف قوي هو الدال، ويظهر أن النص يفصل بين طرفين؛ الأول: القوة العادلة التي تُوقن بالنصر؛ لأنه بتقدير الله تعالى، وهذا ما جعل كوامن القوة، وقوة العزيمة، وصلابة الإرادة تُنفجر متحدية خرافات

المنجّمين، والثاني: الروح الانهزامية المستسلمة السطحية مضطربة التي تأخذ بظاهر الأمور وتغيب عنها دقائقها، لذا جاء الكلام في الشطر الثاني حاملاً شحنة انفعالية كبيرة، ولو حاولنا رسم مسار اللسان المتردد بين الكلمات المجلوبة فيه لبرز هذا المسار شيئاً بمسار السيف في ساحة المعركة، يتردد نزولاً وارتفاعاً بين الرؤوس. على هذا بدا أنّ إيقاع الجناس أتاح للنص تماسكاً وارتباطاً.

و يبدو أنّ المقارنة في البيت السابق بين الإيمان بالقوة العادلة، والاستسلام للروح الانهزامية، حلت نفسها في علاقات أخرى، كالعلاقة بين الصفائح والصحائف، إذ يقول: (ديوان أبي تمام، ص 7)

بيضُ الصفائح لا سودُ الصحائفِ في متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ

تنبني الكثافة الجزئية للجناس في قوله: (الصفائح، الصحائف)، واضح أن هاتين الكلمتين مؤلفتان من نفس الحروف، مع تغيير في ترتيبها، إذ تحرك حرف (الحاء) من آخر كلمة الصفائح إلى الوسط في كلمة الصحائف، بيد أن هذا التحريك قد نتج عنه اختلاف كبير في المعنى؛ فإذا كانت الصفائح ترمز إلى النصر وكشف الحق لذلك صبغها بالبياض؛ ، فإن صحائف المنجمين تمثل وجه الحياة الآخر المتمثل بالهزيمة والانكسار لذلك فهي سوداء، ولعل المتأمل في المعنيين يدرك أنهما وجهان لعملة واحدة، فكل منهما ملازم للآخر، لا يوجد إلا بوجوده، لكن لقاءهما على التنافر والتناقض، وعلى هذا يغدو إيقاع الجناس جسراً لتماسك البيت الشعري وارتباطه.

ثانياً: الكثافة الخارجية للجناس في شعر أبي تمام:

وجد البحث من خلال تتبعه لهذه الظاهرة أنه يمكن دراستها في مَلَحَيْنِ: الأول: التكاثر الصامت: وهو اشتراك جناسين مختلفين بصامت أو أكثر. والثاني: التكاثر الصائتي: وينهض على اشتراك ركني الجناس بأحد الصوائت.

لعله من المفيد أن نذكر أنّ الحرف المجرد لا قيمة له منفرداً إنّما تظهر قيمته الإيقاعية عندما يدخل السياق ويلتحم بالمعنى؛ لأنّ " طبيعة الأفكار تغذي الأصوات بألوان إيقاعية لا تملكها هذه الأصوات في وضعها المجرد ولا تكتسبها إلا من خلال إيقاع الجملة، والعلاقة بين الصوت والمعنى، وقوة الكلمات الإيحائية " (محمد صابر عبيد، القصيدة العربية الحديثة بين البنية الإيقاعية، والبنية، ص 57) التي تتألف جميعاً في التشكيل.

أ- التكاثر الصامت في الجناس في شعر أبي تمام:

من نماذج هذا الشكل قول أبي تمام مادحاً مالك بن طوق: (ديوان أبي تمام، ص 273).

تغزو فتغلب تغلبٌ مثل اسمها وتسيح غمٌّ في البلاد فتغمُّ

يتكرر صامت الغين بين الجناسين؛ الأول (تغلب، تغلب)، والثاني (غم، تغم) مما أدى إلى إبراز الصفة الجهرية لهذا الصامت، فضلاً عن ذكره في كلمة (تغزو)، مما أكسب الإيقاع امتلاءً صوتياً، تناسب مع الحديث عن الغزو ما يتبعه من اضطراب وفوضى، لعله بذلك يحاكي أحد معاني الغين؛ فمنها " الاهتزاز والاضطراب والبعثرة...فصوته عندما يخرج من فوهة الحلق إنما يخرج مخرجاً ممحوّ الألوان مجلبباً بالسواد وهكذا نسمع هذا الحرف مثلها نرى الليل المظلم البهيم" (حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص126) وهذا يتواءم مع جو الحرب وما يرافقه من قتال، وما يترتب عليه من غلبة وجمع للغنائم، وربما لتكرار صامت الغين في الجناسين الذي يلف النص من أوله إلى آخره، دور مساعد على التجلي الصوتي في النص، الأمر الذي له أثره في تماسك النص وترابطه.

يقول أبو تمام يمدح خالد بن يزيد الشيباني، ويذكر منع الخليفة إياه من الحج: (ديوان أبي تمام، ص1).
لطابَ مرتبٌ بطيبةً واكتستُ
بردين؛ برد ثرى وبرد ثراء

يظهر أنّ بينَ الجناسين؛ (طاب، طيبة) و(برد ثرى، برد ثراء) صامتاً مشتركاً هو الباء؛ وهو حرف شفاهي مجهور، وقد اكتسب هذه الصفة من طريقة النطق به " بحكم انفجاره الصوتي بانفراج الشفتين سريعاً بعد ضمة شديدة ، فهو أوحى ما يكون بمعاني البعج والحفر والقطع والشق والتحطيم والتبديد، والمفاجأة والثدّة، وذلك حدواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث " (خصائص الحروف ومعانيها، حسن عباس، ص 101). من هنا مثل صوت الباء حالة من الانفجار المكبوت لدى الشاعر انتصاراً لمدوحه، وكأن الشاعر يعلن مفاجأته وأسفه لحبس المدوح عن الذهاب إلى الحج، وما ترتب على ذلك من حرمان المدينة لثوبين على زعمه؛ ثوب الندى أي ما ينبته الندى ببركة قدومه، وثوب الغنى أي كثر المال من كثرة ما يجود به، من ثم يكون صوت الباء الذي يعد رابطاً بين الجناس الموجود في بداية البيت، والآخر الموجود في نهايته، قد خدم تماسك البيت وترابطه، ورفع من إيقاعه ولاسيما أنّه واقع بين ألفاظ ذات قيمة موسيقية أصلاً.

يقول أبو تمام في مدح المعتصم: (ديوان أبي تمام، ص10)

إنّ الأسود أسود الغاب همّها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

يتسم الجناسين (الأسود، أسود) و(المسلوب، السلب) بوجود صامت مشتركٍ بينهما هو السين المهموسة، مما يعطي النص إيقاعاً من جهة الصفير، ومن جهة انتظام وقع هذا الصفير؛ لأنّ الجناس الأول في بداية البيت ، والثاني في نهايته، فضلاً عن وجود الصامت في وسط الجناسين، ومتبوعاً بالصائت الطويل (الواو) الذي جعل نغمة الصفير واضحة جلية ، ولعل النغم الموسيقي يشي بما يحمله هذا الصامت من معانٍ؛ كـ " الحركة، والطلب، والبسط" (حسن عباس، خصائص الحروف ومعانيها،

ص114) فيغدو هذا الصوغ يحاكي مبعوث النفس؛ حين أسبغ على الممدوح صفات الشجاعة والبأس؛ إذ شبهه بأسود الغاب حين تعترض الناس في يوم كريمة أي في يوم شدة، فإنما همتها وغرضها نفوسهم المسلوبة لا أموالهم وثيابهم، فكذلك المعتصم إنما طلبه نفوس المشركين لا أموالهم. وهكذا يغدو هذا التوزيع الموسيقي للجناسين فضلاً عن كونه راصداً لحركة إيقاعية شكلت نقطة ارتكاز في الثبات والاستمرار أشار إليها استعمال الجناسين بصيغة الاسم، يشكل جسر التحام أوثق الصلة بين ألفاظ النص.

يقول أبو تمام: (ديوان أبي تمام، ص 11)

بيضٌ إذا انتضيت من حجبها رجعت أحق بالبيض إبداناً من الحجب

بُنيت الكثافة الخارجية في هذا البيت عن طريق تكرار صامت الباء، في الجناسين: (بيض، بالبيض) و(حجبها، الحجب)، هذا التكرار لصوت شفوي انفجاري مجهور من دلالاته "الانبثاق والظهور" (حسن عباس، خصائص الحروف ومعانيها، ص101)، جعله يحاكي صورة انبثاق صوته؛ فحرف الباء يحدث عندما تنغلق الشفتان إغلاقاً تاماً أمام تيار الهواء، ثم تنفتح الشفتان ويخرج الحرف؛ ليريح الإنسان من معاناة حبس الهواء، وكذلك السيوف تُحبس في أغمادها، ثم تجردُ منها عند محاربة العدو، لذا فهي أولى بالستر والحفظ من النساء البيض الجميلات، وبذلك أعطى هذه التكرار في بنيتي الجناسين بعداً موسيقياً فعلاً، فضلاً عن انسجامه مع المعنى مما أدى إلى ترابط النص وتماسكه.

يقول أبو تمام يمدح الحسن بن وهب: (أبو تمام، الديوان، ص 233)

قد أثقبت الحسن بن وهب في الندى نارا جلت أنسان عين المجتلي
مأروثة للمجتدي موسومة للمهتدي مظلومة للمصطلي

إن صامت الميم هو القاسم المشترك بين الجناسين (مأدومة، موسومة) و (للمجتدي، للمهتدي)، ما جعل إيقاع البيت يتميز بالسرعة والرشاقة، وبدت الكثافة الخارجية فيه مكثفة غزيرة؛ لوجوده في بداية جميع ألفاظ النص على نحو جعل نغمة النص عالية مدعومة بجمالية المجاورة، وددنات التنوين، ومحاكية المعنى المراد؛ لأن من معاني الميم "الهضم والمضغ، بما يتوافق مع حركة انطباق الشفتين على بعضهما البعض" (حسن عباس، خصائص الحروف ومعانيها، ص74) وكذلك تشير دلالة البيت إلى أن نار الحسن بن وهب متقدة للأضياف فيقرّون عندها فيؤدم لهم الطعام، فهي معروفة لطالبيها، والممدوح لشدة كرمه فكان ناره تذل للسائلين فكأنها تظلم أو يأخذ منها قبساً فتخبو لذلك. ومن ثم أحدث التلاؤم الدلالي والشكلي إيقاعاً ثرياً، شد أواصره بروابط متينة.

يقول أبو تمام مادحاً الحسن بن سهل: (ديوان أبي تمام، ص 71)

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرقتُ حتى نسيتُ المغاربا
 يظهر صامت الراء قاسماً مشتركاً بين الجناسين؛ (غربت، المغاربا) و(مشرق، شرقتُ)، فهو حرف مكرر؛ لأنّ طرف اللسان يرتعد عند النطق به ، فكأنك تنطق بأكثر من حرف واحد، لعل تكريره في الجناسين جاء منسجماً مع دلالة النص؛ التي تحمل معنى المداومة والتكرار على ملازمة التشريق والتغريب، ولعل هذا التكرار في الجناسين يكفل للنص مزيداً من الجرس الموسيقي، وشكلاً من أشكال التماسك للنص الشعري.

يقول في مدح الحسن بن وهب: (ديوان أبي تمام، ص 215)

سَأَسْتَقِي الرَّكْبَ مِنْ ذِكْرَاهُ صَرَفًا
 وَمَمْرُوجًا مِنَ الْكَلِمِ الْبَوَاقِي
 شَرَابًا عَظْمَهُ لِلشَّرْبِ شَرِبُ
 وَسَائِرَهُ ارْتِفَاقٌ لِلرِّفَاقِ

يتردد صامت الراء بين الجناسين (شراباً، للشرب، شرب) و (ارتفاق، للرفاق) ، وهذا التكرار لحرف لساني مكرر مجهور، جاء متحداً مع الدلالة، فالراء من معانيها "التحرك والترجيع والتكرار" (حسن عباس، خصائص الحروف ومعانيها، ص 87) ولعل هذه الدلالات تتناسب مع اتخاذ الرفاق لشعره أناشيد يرددونها ويتغنون بها، ويتعللون بذلك فهو عون لهم في سفرهم. وهكذا منح تكرار صامت الراء النص إيقاعاً موسيقياً، أضفى على النص لونا من الفخامة والجلجلة، وربط شطري البيت الشعري ببعضهما بعضاً.

يقول أبو تمام في مدح الحسن بن وهب: (ديوان أبي تمام، ص 113)

سَخَطْتُ لَهَا عَلَى جَدَاهُ سَخَطَةً
 فَاسْتَرَفَدْتُ أَقْصَى رِضَى الْمَسْتَرَفِدِ

نلاحظ في البيت تكرار صامت السين بين الجناسين؛ (سَخَطْتُ، سَخَطَةً) و (استرفدت، المسترفد)، ويبدو أنّ هاتاه السينات المتراكمة المهموسة، فضلا عن ترادها في مواقع نهاية وبداية كل شطر من البيت الشعري، قد ولدت تراكماً صوتياً زاد من إيقاع النص، لأنّ الصوت إذا كان من حروف الصغير أصبح الإيقاع شديداً جداً (الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 66)، وربما ذلك يوافق حالة الكرم المبالغ فيه ؛ فالممدوح لفرط جوده كأنّ عطاياه قد سخطت على ماله، حتى بددته، ونال السائل أقصى أمانيه منه، مما كان له بالغ الأثر في ترابط النص وتماسكه.

يقول أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم: (ديوان أبي تمام، ص 173)

إِن الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ قَاتَهَا
 أَقْوَاتَهَا لِتَصْرِفِ الْأَحْرَاسِ

يشكل صامت القاف عنصراً مشتركاً بين الجناسين (خلق، الخلائق)، (قاتها، أقواتها)، ولعل الاتكاء على تكرار حرف القاف وهو صوت شديد مجهور من معانيه " القساوة والصلابة والشدة... من فقاعة

تفجر، أو نغارة تنكسر" (حسن عباس، خصائص الحروف ومعانيها، ص 145) جاء متناسقاً مع الموقف الانفعالي للشاعر الذي وجد في هذا التكرار متنفساً للتعويض عن ثغرة النقص وخيبة الأمل من قلة عطايا الخليفة، فغداً شديداً صلباً متمسكاً برداء الحكمة؛ فالرزق من الخالق العظيم هو الذي يقسمه بين عباده، ولا يضرهم تغير أحوال الدهر فيهم، وبذلك تكرر هذا الصامت مثيراً لنغمة موسيقية تناسب مع قوة اليقين والتوكل على الله، فضلاً عن دوره في جعل كلمات النص تشد من أرز بعضها بعضاً.

ب - التكاثر الصامت في الجناس في شعر أبي تمام:

تنهض الصوائت الطويلة وهي "ياء المد أي الكسرة الطويلة، وواو المد أي الضمة الطويلة، والألف أي الفتحة الطويلة". (معجم علم الأصوات، ص 101) ولعل "أدى عدم الاحتكاك إلى أن تكون أصوات المد أصواتاً موسيقية منتظمة، قابلة للقياس، خالية من الضوضاء، لها القدرة على الاستمرار وهي بذلك تختلف عن الصوائت التي هي عبارة عن ضوضاء ناتجة عن الاحتكاك". (غالب فاضل المطلب، في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، ص 24-25)

ولعل ما زاد من قدرة هذه الأصوات على الانتظام الموسيقي أنها أصوات مجهورة، "أن حروف العلة تؤدي مهمة جليلة في اللغة العربية؛ حيث تعتبر أساساً لقوة الإسماع Sonority في هذه اللغة الراضخة القدم في المشافهة... وقد لاحظ العروضيون أهمية حروف العلة للعروض فعنوا برصدها في موازين الشعر واعتبروها على عكس ما فعله الصرفيون أهم من الحروف الصحيحة". (تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 71-72).

ذلك أن المكون الصوتي لا ينفصل بحال عن الإمكانيات المتعددة والتقاطعات المستمرة التي ينطوي عليها السياق، وبعبارة ثانية: إن أصوات المد لا يمكن أن تدرك منفصلة عن حدة المعنى وقوته ونشاط السياق وكثافته وتعقيده إعادة صياغة.

يقول أبو تمام مادحاً الحسن بن سهل: (ديوان أبي تمام، ص 71)

سَلْبِنَا غَطَاءَ الْحُسْنِ عَنْ حُرِّ أَوْجِهِ تَظَلُّ لِلِّ السَّالِبِيَّهَا سَوَالِبًا

يتقاسم الجناس (سلبنا، السالبيها، سوالبا) صائتاً واحداً هو الألف، فضلاً عن اختياره قافية مطلقة يضفي على إيقاع النص امتداداً لافتاً، ولعل ذلك يدل على رغبة في رفع الصوت للتعبير عن حالة الانبهار والذهول التي أصابهم سحراً وافتناناً؛ حين نزعوا الخمار عن وجوه النساء الحسنات فسرقت عقولهم من شدة جمالهن، وكأن النص يقع تحت سيطرة الفعل (سلب)، الذي يمثل نوعاً من الاستسلام الكلي لنفوذ الشعور العاطفي، الذي يغطي مساحة الموقف كله بدلالة الفعل (تظل) المضارع

الذي يشير إلى التجدد والاستمرار، بدأ لا ينفصل تكرار هذا الصائت الذي بث نعمة موسيقية في البيت الشعري عن معالم الحالة الشعورية، وعن علاقة الترابط التي تجمع أجزاء النص مما يفضي إلى تماسكه وانسجامه.

قال في سياق مدحه لمحمد بن يوسف: (أبو تمام، الديوان، ص 26)
كلُّ دَاءٍ يُرْجَى الدَّوَاءُ لَهُ إِلَّا الفَطِيْعَيْنِ: مِيتَةً وَمَشِيئاً

يشكل صائت الألف في ركبي الجناس (داء، دواء)، جرساً موسيقياً يتصاعد نحو الأعلى، ويدفع بجمهرية الحروف (الذال، الواو)، السابقة له نحو الامتلاء والامتداد، ولعل هذا يستوعب الحالة الانفعالية للشاعر التي تجسد صورة التمزق الداخلي، والضياع، والركون إلى الواقع المحقق؛ فلموت والمشيئ لا دواء لهما، إنه يرى أن الحياة تكبله بخيوطها العنكبوتية، وتسير به إلى مصيره الحتمي، فيرفع الصوت تعبيراً عن حالة من الرفض للحاضر الميؤوس من تغيره، والحاصل أن البنية الإيقاعية متجاوبة مع البناء الكلي للنص الذي بدأ متماسكاً ومتربطاً.

يقول أبو تمام يمدح أبا العباس نصر بن منصور بن بسام: (أبو تمام، الديوان، 119)
بسياحة تنساق من غير سائقٍ وتنقاد في الآفاق من غير قائدٍ

يظهر صائت الألف في الجناسين (تنساق، سائق) (تنقاد، قائد) بمثابة أعمدة تشد عضد البيت وتدفع بأصوات الحروف (السين، والقاف) نحو الامتداد، مما يعزز إيقاع البيت الشعري، الذي يبدأ بنبذة مرتفعة ويبقى على هذه الوتيرة حتى خاتمته، ولعل هذا يمنح النص سلسلة من الإيقاع المتجدد، وهذا وثيد الصلة في التعبير عن حالة الفخر والنشوة التي تغمر الشاعر لانتشار قصيدته في الآفاق، إذ تشكل (قصيدته) العنصر الفاعل الذي يسيطر ويتحكم على معنى البيت الشعري، وبذا يغدو الإيقاع المبتوث فيه متماهياً مع أجزاء النص مما يؤدي إلى تماسكه والتحامه.

يقول أبو تمام مادحا عياش بن لهيعة الحضرمي: (أبو تمام، الديوان، ص 24)
أحاولت إرشادي فعقلي مرشدي أم استمت تأديبي فدهري مؤدبي

يتردد صائت الياء في الجناسين (إرشادي، مرشدي) (تأديبي، مؤدبي)، فضلا عن ذكره في (عقلي، دهري)، مما يحقق وقعا متعاضدا مع ما يتصل من أصوات مجهورة (الذال، الباء)، يُشعر القارئ بالانسفال الموسيقي، الذي يتجاوب مع رغبة الشاعر في خفض أصوات من يريد أن يحاول إرشاده و تأنيبه، فعقله ودهره كفيلان بذلك، وربما عمد إلى ذلك حرصاً منه على الظهور بمظهر الإباء، والثقة بالنفس، والعنفوان؛ لذا يستطيع له أن يجعل تلك الأصوات تتحد في مراقي الصمت، وتسري من غير ضجيج، من هنا نفهم دور الإيقاع في تشكيل البنية الدلالية والشكلية للنص، فيتبدى متماسكاً ومتربطاً.

قال أبو تمام مادحاً أبا سعيد يوسف بن محمد الثغري: (أبو تمام، ص 26)
إذا ما الخطوب أعفتُهُ كانت راحتاه حوادثاً وخطوباً

يظهر أن ركني الجناس يشتركان بصائت الواو (الخطوب، خطوباً)، الأمر الذي زاد من التدفق الإيقاعي في البيت، ولعل هذا الامتداد الأفقي للواو على علاقة وثيقة بالدلالة، فالشاعر قول الحوادث والمصائب تذهب بماله، فإذا لم يكن خطوب ومصائب فيداه بتفريق المال عن طريق العطاء من أعظم الحوادث والخطوب، ولا يخفى ما لهذا من أثر في تحقيق الترابط النغمي والانسجام الموسيقي المفضي إلى تماسك النص وترابطه.

قال أبو تمام يمدح المعتصم بالله: (أبو تمام، الديوان، ص 229)
قومٌ إذا واعدوا أو أوعدوا غمروا صدقاً ذوائب ما قالوا بما فعلوا
يتشارك الجناس في قول الشاعر (واعدوا، أوعدوا) في صائت الواو وقد حقق هذا توقيعاً موسيقياً ممتداً امتداداً أفقياً، ولا سيما أن هذا الصائت متفشي في أغلب ألفاظ البيت الشعري (غمروا، قالوا، فعلوا)، و لعل هذا الامتداد الصوتي يتشاكل تشاكلاً بارزاً مع دلالة النص فهم غمروا قولهم حتى استغرقوه بأفعالهم، كأنه يريد أن فعلهم يفضل عن قولهم ويزيد، فضلاً عما يضيفه هذا التكرار على النص من التماسك والانسجام في بنيته الشكلية والدلالية.

قال أبو تمام يمدح أحمد بن أبي داود: (أبو تمام، الديوان، ص 286)
لم أر كالمعروفِ تدعى حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغامم
يبدو واضحاً الدور البناء لصائت الألف في الجناس (مغارم، مغامم)، في بث الحركة الإيقاعية وتصاعدها في النص، إذ كان عاملاً على إبانة صفة الجهر لحرف الغين الذي وقع عليه، إبانة تتجه نحو الأعلى لاتصالها بالصائت الأوضح سمعاً والأسهل نطقاً، ولعل هذا وثيق الصلة في الدلالة على التعالي والافتخار ورفع الصوت طرباً بصفات الممدوح الذي يرى أن العطاء مغم ومكسب، وبذلك يقوي صائت الألف الصدى الموسيقي في ركني الجناس، ومما ساعد على وضوحه وإبرازه أن أحدهما في موقع القافية التي تعد المرتكز الأساسي في البنية الصوتية للنص ليشد به أجزاء النص ويجعل لاحقه متعلقاً بسابقه.

نتائج البحث:

توجهت عناية هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الجناس في شعر أبي تمام دراسة دلالية - إيقاعية؛ عن طريق دراسة الكثافة الداخلية، ثم شفحها بدراسة الكثافة الخارجية، وانتهى إلى نتائج؛ وهي:

- بدا للدراسة أن الجناس ظاهرة صوتية قوامها التكرار، وهو ما شكل الجانب الإيقاعي فيه، وقد ظهر أن للتقارب الصوتي توتراً في المعنى، وتجاذباً بين أطرافه.

• يبدو أن المضامين التي سكبت بقلب من الصوغ اللغوي، ترابطت فيه أنسجة البناء العروضي ببصمات الإيقاع الصوتي للجناس، وهو ما أفضى إلى تماسك النصوص الشعرية المختارة من شعر أبي تمام، وقد فعل هذا الانسجام الإيقاعي فعله في استحكام الانسجام النغمي حينما سمح بالرنين الإيقاعي بالبروز المتواصل عند قراءة الأبيات.

• لعل البحث لا يجانب الصواب حين يذهب إلى أن دراسة تكرار الحروف الصامتة والصائتة في الجنس وأثرها في النص الشعري؛ إنما اعتمد على الذوق في المقام الأول؛ لأن الباحثين لم يضعوا شروطاً كافية ووافية لضبطها، لذا فالدراسة لم تخضع لأسس ثابتة، كأن يقال إن تكرار الميم أو السين أو الباء وغيرها يخدم غرضاً واحداً في القصائد التي يرد فيها كلها، كما أنه لا يمكن بحال من الأحوال تجاهل مثل هذا التكرار إنما ينبغي على الباحث أن يربطه بسياقه الذي ورد فيه، لا يمكن لأي دراسة مهما كانت أن تلغي تكرار الحرف، فهي ظاهرة موجودة وما على الباحث إلا اكتناه دورها؛ لأن عزل صوت الحرف عن المعنى افتراض لا يمكن إثبات صحته، كما لا يمكن التوصل معه إلى نظرية ثابتة مقننة، لكن الأمر الذي لا يختلف عليه اثنان؛ أنه لا وجود لشعر موسيقي من دون شيء من الإدراك العام لمعناه أو على الأقل لنغمته الانفعالية. بيد أن من المسلم به أن تكرار الحروف يحدث نغمة موسيقية لافتة للنظر، لكن وقعها لا يكون كوقع تكرار الكلمات وأنصاف الأبيات أو الأبيات كاملة، وعلى الرغم من ذلك فإن تكرار الصوت يسهم في تهيئة السامع للدخول في أعماق الكلمة الشعرية، ولعل هذا يُبقي الباب مفتوحاً للاهتمام بهذا المجال، وربما كان تعدد الآراء فيه دليل غنى وثناء².

• تداخل معالم الأشياء في عقل أبي تمام مما قد ينبئ أحياناً عن تراكم التراكمات تداخلاً يبلغ حد المعاطلة، وذلك من خلال تعلق ألفاظ البيت بعضها ببعض وتداخلها عن طريق الجنس.

المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، المثل السائر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، د. ط، د. ت.
- أبو تمام، الديوان، فسر ألفاظه اللغوية: محيي الدين خياط، طبع مرخصاً من نظارة المعارف العمومية الجليلية، د. ط، د. ت.
- ابن جعفر، قدامة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية بيروت، د. ط، د. ت.
- حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، د. ط، 1994م.

(2) ينظر على سبيل المثال كتاب حسن عباس (خصائص الحروف العربية ومعانيها) الذي اعتمدت عليه الدراسة في تحليل الكثافة الخارجية للجناس.

- الخفاجي، ابن سنان، أسرار الفصاحة، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1402هـ، 1982م.
- الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، د. ت.
- عباس، حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، د. ت.
- عبد المطلب، محمد، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 1997م.
- عبيد، محمد صابر، القصيدة العربية الحديثة بين البنية الإيقاعية، والبنية الدلالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، 2001م.
- العسكري، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1371هـ، 1952م.
- العمري، محمد، تحليل الخطاب الشعري البنية الصوتية في الشعر، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 1990م.
- العمري، محمد، اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي، منشورات دار سال، الدار البيضاء، 1990م.
- المطليبي، غالب فاضل، في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، سلسلة دراسات رقم 364، وزارة الثقافة و الإعلام، العراق، 1984م.
- ابن المعتز، البديع، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1982م.

Analytical study for the Opening Chapter (Surat Al-Fatihah)

Its names, purposes, virtues, and characteristics

دراسة تحليلية للسورة الافتتاحية (سورة الفاتحة) أسمائها ومقاصدها وفضائلها وخواصها

Dr. Gharnasa Hadia,

galmargeni@gmail.com, Department of English Language, Faculty of Education, University of
Azzaytuna, Libya.

Abstract:

This study deals with Surat Al-Fatihah, also known as "The Opening," is the inaugural chapter of the Qur'an and holds immense importance in Islamic worship and daily life. This chapter consists of seven verses and serves as a comprehensive prayer, praising and seeking guidance from Allah, the Merciful and Compassionate. The title encapsulates the essence of the chapter, which serves as a spiritual opening for the reader or reciter, initiating their connection with the divine. Its virtues and special characteristics are emphasized in Islamic teachings, and it is considered a source of divine guidance and a foundation for the believer's relationship with Allah. The recitation of Surat Al-Fatihah is an integral part of the Muslim prayer ritual, symbolizing the opening of the heart and soul to the guidance and mercy of Allah. The chapter's names and purposes highlight its role as a fundamental and essential component of Islamic worship and devotion. Surat Al-Fatihah was selected due to its distinctive and captivating linguistic style. Furthermore, the opening chapter of the Qur'an initiates the prayer, and it is emphasized that it constitutes a fundamental element essential for the validity of the prayer. Without it, the prayer is considered incomplete. This study employs an analytical descriptive methodology.

The results of this study indicate that, Surat Al-Fatihah encapsulates fundamental principles of faith, gratitude, guidance, and dependence on Allah. It serves as a concise and powerful prayer recited in daily prayers (Salah) by Muslims worldwide, underscoring its centrality in Islamic worship and spirituality.

Key words: Al-Fatihah, Names, Purpose, Virtues and Characteristics, Analytical Study.

الملخص:

تناول هذه الدراسة سورة الفاتحة - السورة المفتحة للقرآن الكريم - ذات الأسلوب اللغوي المميز، وذلك من خلال دراسة دلالة أسمائها وما يكتنفها من أسرار وفضائل وميزات، فلهذه السورة أهمية بالغة في العبادات الإسلامية والحياة اليومية للمسلمين، فهي جزء لا يتجزأ من شعائر صلاتهم، وشرط أساس لصحة هذه الصلاة، ولسورة الفاتحة خصائص مميزة وفضائل كثيرة، فهي تتكون من سبع آيات تعد بمثابة الدعاء الشامل، والتحميد الكامل، والاستنجد بالله الرحمن الرحيم، وافتتاح روحي للمتلقي في اتصاله مع الله، كما تعد مصدراً للهداية الإلهية، وأساساً لعلاقة المؤمن بربه، وانفتاح للقلب والروح على هدى الله ورحمته. وقد استخدمت الباحثة في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وتشير نتائج هذه الدراسة إلى أن سورة الفاتحة تتضمن المبادئ الأساسية للإيمان، والشكر، والهداية، والاعتماد على الله، وأنها بمثابة صلاة موجزة وقوية يتلوها المسلمون في جميع أنحاء العالم في الصلوات اليومية، بما يؤكد مركزيتها في العبادات الإسلامية. الكلمات المفتاحية: الفاتحة، الأسماء، المقاصد، الفضائل والخصائص، دراسة تحليلية.

1. Introduction

The first chapter of the Quran, Al-Fatihah, sometimes referred to as Al-Fatihah or The Opening, is very significant to a Muslim's spiritual life. It is regarded as a cornerstone of the Islamic religion and is repeated in each segment of the Muslim prayers. The purpose of Al-Fatihah is meant to be both an introduction and a prayer asking Allah for direction. Because it introduces the Quran and establishes the overall tone for the entire text, this Surah is frequently referred to as "The Opening". Seven verses in Al-Fatihah acknowledge and magnify Allah, praising his greatness, benevolence, and strength. In addition, Al-Fatihah teaches significant concepts of Islam, including monotheism, total submission to Allah,

and the pursuit of the will of Allah. Furthermore, Al-Fatihah is recited at numerous Islamic events and activities with the intention of seeking blessings from Allah. The Surah Al-Fatihah possesses multiple virtues and distinctive characteristics. It is widely regarded as a remedy for both bodily and spiritual afflictions, a method of finding absolution and direction, and a wellspring of benefits. Muslim individuals frequently recite Al-Fatihah as a means of tawassul, which involves requesting the intercession and blessings of Allah by reciting this Surah. (Rohmana & Zuldin, 2019). In addition, Al-Fatihah is regarded as an essential component of the Salah, as it is said in each unit and functions as a prompt for the fundamental tenets of Islam. The purpose of Al-Fatihah is not alone to be committed to memory, but also to be comprehended, contemplated, and assimilated. Reciting Al-Fatihah promotes tranquilly and serenity, hence enhancing one's mental well-being and overall state of mind. It is crucial for Muslims to not only commit Al-Fatihah to memory, but also comprehend its significance and reflect upon its teachings. Al-Fatihah possesses substantial educational merit as well. This text explores the significant insights on education, specifically focusing on its approaches to incentives and penalties that can be implemented in the process of learning. Al-Fatihah serves as a fundamental pillar of Islamic pedagogy, underscoring the significance of actively pursuing knowledge and implementing it in one's daily existence. The virtues and significance of Al-Fatihah are acknowledged by numerous Quranic exegetes, who emphasize its importance in prayer and its position as a crucial element of the legal prerequisites for prayer. Surat Al-Fatihah holds a crucial role in Islamic rites, particularly in the required prayers, and is recited often by Muslims throughout the day. Hence, the Surah Al-Fatihah carries immense importance within the Islamic faith. The recital of the Quran establishes the overall atmosphere and acts as a prompt to recall the fundamental values of Islam.

Research questions

Q1- What are the different names attributed to Surat Al-Fatihah, and how do these names reflect the themes and messages conveyed in the chapter?

Q2- What are the primary purposes and themes of Surat Al-Fatihah, and how do these themes contribute to the overall message of the Quran?

Q3- What are the key virtues and special characteristics attributed to the Surat Al-Fatihah?

Objectives of the study

1- Explore the various names and titles given to Surat Al-Fatihah and understand their meanings.

2- Examine the purpose and significance of this chapter as mentioned in Islamic teachings.

3- Investigate the virtues and special characteristics attributed to the recitation and contemplation of Surat Al-Fatihah.

Significance of the study

- Surat Al-Fatihah is an essential element of the Islamic prayer, and the prayer is deemed deficient without its recital.
- The recital of the verse is an essential component of the daily routine prayers (Salah) and is repeated numerous times during each prayer session.
- The Surah commences with praising Allah, the Supreme Being of all realms, recognizing His benevolence and dominion.
- It encompasses a supplication for guidance on the righteous path, beseeching Allah's aid in keeping to the virtuous course.
- Surat Al-Fatihah is commonly known as the "quintessence of the Quran" and is thought to effectively embody the fundamental principles of Islam.
- It is regarded as a fount of blessings and is said to possess various virtues, encompassing spiritual and healing characteristics.

- The reading of Surat Al-Fatihah in congregational prayers serves to underscore the sense of oneness among Muslims, since it is expressed by the Imam and subsequently echoed by the congregation.
- Studying the meanings and interpretations (Tafsir) of Surat Al-Fatihah enriches one's comprehension of the fundamental principles of Islam and strengthens the spiritual connection.
- Comprehending the substance and importance of Surat Al-Fatihah can aid in interfaith conversation by enabling people to grasp the fundamental principles of Islam.

In summary, the study of Surat Al-Fatihah is not only integral to Islamic worship but also provides a foundational understanding of key Islamic concepts and serves as a guide for personal development and spiritual growth.

2. Literature review

2.1. The reason and the place for the revelation of Surat Al-Fatihah

The specific cause for the revelation of Surah Al-Fatihah, the initial chapter of the Quran, is not expressly documented in historical records or traditional sources to the same extent as certain other verses or chapters. The Prophet Muhammad (peace be upon him) did not offer explicit details concerning the particular circumstances that precipitated the revelation of Surah Al-Fatihah. Nevertheless, it is crucial to acknowledge that Surah Al-Fatihah possesses a distinctive and momentous position in

Islamic devotion and everyday existence. The recitation of this phrase is an integral part of each unit of the Muslim prayer (Salah) and is seen as crucial for seeking guidance and expressing admiration and appreciation to Allah. The Surah is commonly known as "The Opening" or "The Opening Chapter" and holds a fundamental position in Islamic teachings. Although the exact facts about the cause of the revelation may be unknown, the overall importance of Surah Al-

Fatihah resides in its function as a comprehensive prayer, a source of wisdom, and a way to demonstrate one's reliance on Allah. Muslims routinely say it during their prayers, underscoring its significance in their spiritual devotion. Mansour & Allah (2023) noted that Surah Al-Fatihah, the initial chapter of the Quran, had been revealed in Makkah. Makkah, located in contemporary Saudi Arabia, is revered as a holy city in the Islamic faith. The Quran was gradually revealed to Prophet Muhammad (peace be upon him) over a period of 23 years. Throughout this era, different chapters (surahs) were disclosed to him in various locations. Surah Al-Fatihah is a Meccan surah, which signifies that it was revealed in Makkah prior to the Hijrah (migration) of the Prophet Muhammad (peace be upon him) to Medina.

2.2. Verse count of Surat Al-Fatihah

Surah Al-Fatiha is a concise chapter comprising of seven verses. The recitation of this phrase is an integral part of the Muslim prayer (Salah) and carries immense importance in Islamic worship and everyday life. Sukarno, Adilia & Setiarini, (2020).

2.3. Names of "Surat Al-Fatihah" and ways to name it

A "Surah," often written "Sura," is a term employed in Islamic literature to refer to a section of the Quran, the sacred scripture of Islam. The term "Surah" is an Arabic term that can be understood as either "chapter" or "section." The Quran is organized into chapters, with each chapter further broken into verses referred to as "Ayahs." The term "Surah" is only used to refer to the chapters of the Quran, and each Surah has a unique name. The chapters display heterogeneous lengths and encompass a wide range of subjects, including guidance on matters related to faith, morality, law, and personal behavior. The Quran is considered by Muslims to be the exact and direct message from God (Allah) that was revealed to the

Prophet Muhammad over a period of approximately 23 years. Each Surah exhibits distinctive characteristics in terms of style, subject matter, and interpretations. The Quran has a central and essential part in Islamic beliefs and rituals, as Muslims recite its verses during prayers and seek guidance from its teachings to navigate all aspects of their lives. The recitation of "Surat Al-Fatihah" holds immense importance in Islamic devotion and is reiterated during daily prayers (Salah). The phrase "Al-Fatihah" can be interpreted as "The Opening" or "The Opener." Surat Al-Fatihah is known by different designations that highlight its significance and attributes. (Mansour & Allah,2023; Qutbuddin, 2009) compiled a list of these names:

- Al-Hamd: This name highlights the chapter's expression of gratitude towards Allah.
- Umm al-Kitab: This name, meaning "Mother of the Book," underlines its significance as a fundamental and indispensable chapter.
- The name "Sab'al-Mathani" refers to the seven verses that comprise a specific chapter, known as "The Seven Oft-Repeated Verses".
- Al-Shifa: Meaning "The Healing" or "The Cure," emphasizing its spiritual and therapeutic importance.
- Al-Kafiya: Signifying "The Sufficient" or "The Fulfilling," highlighting its comprehensive and satisfactory nature.
- The name "Al-Asas" translates to "The Foundation" or "The Basis," highlighting its crucial position in Islamic devotion.
- Al-Wafiya: Signifying "The Complete" or "The Perfect," emphasizing the chapter's all-encompassing character.

The names and titles mentioned represent the various facets and importance of Surat Al-Fatihah in the Islamic religion.

2.4. Purposes of "Surat Al-Fatihah"

Othman et al. (2023) & Mughal (2011) provided explanations for the purpose of Surat Al-Fatihah from different perspectives:

- Al-Fatihah is said in every unit of the Islamic prayer (Salah), serving as the opening prayer. The recitation of this prayer is crucial and occurs at the beginning of every rak'ah. This demonstrates its vital function in establishing communication and fostering a bond with Allah.
- Al-Fatihah commences by praising and acknowledging Allah's characteristics, including His supreme mercy, compassion, authority over the Day of Judgement, and exclusive worthiness of worship. It functions as a reminder of the magnificence and qualities of Allah.
- Requesting guidance, the chapter contains a prayer for direction on the righteous way. People of faith ask Allah to direct them on the path towards righteous conduct and deliverance. This illustrates the essential requirement for divine guidance in manoeuvring through the difficulties of life.
- Manifestation of reliance on Allah through the recitation of Al-Fatihah, Muslims demonstrate their reliance on Allah for guidance, mercy, and assistance. It emphasizes the notion that humans depend on the benevolence and direction of their Creator.
- Unity and communal prayer, Al-Fatihah is chanted collectively during congregational prayers, highlighting the cohesion of the Muslim community (Ummah) in their worship. Reciting the same phrases in prayer cultivates a sense of unity among believers.
- The quranic recitation begins with Al-Fatihah, which acts as the initial chapter of the Quran, representing the commencement of the recitation of the holy book. It establishes the reader's emotional and spiritual state and creates a relationship between the reader and the divine message.

- Spiritual concentration and focus, through the recitation of Al-Fatihah during prayers, Muslims direct their thoughts towards the divine and seek to establish a connection with Allah. It functions as a method to achieve a state of attention and focus during worship.
- Al-Fatihah is seen as a spiritually purifying practice in the context of Spiritual Cleansing and Purification. It presents believers with a chance to seek absolution, purify their hearts, and enhance their bond with Allah.

Overall, Surat Al-Fatihah has various functions in the life of a Muslim, including facilitating daily prayers, seeking guidance, demonstrating humility and reliance on Allah, and promoting a sense of solidarity within the Islamic community.

2.5. Authentic hadiths about the virtues of “Surat Al-Fatihah

Virtues are qualities or characteristics that are seen as morally excellent, desirable, and commendable. These characteristics frequently influence individuals in their behavior and interactions with others, demonstrating a notable level of moral superiority. Virtues are commonly linked to positive qualities and behaviors, serving as the basis for ethical precepts in various philosophical and religious traditions. The word "virtue" derives from Latin etymologically. The term originates from the Latin word "virtus," which signifies qualities such as masculinity, bravery, or exceptional merit. Over time, the semantic scope of the term expanded to embrace a wider array of ethical attributes and characteristics that contribute to virtuous character. Various cultural and philosophical contexts may prioritise different virtues, but some universal examples include honesty, integrity, compassion, courage, humility, justice, and wisdom. Virtues frequently act as guiding precepts for persons aspiring to live a morally upright and purposeful existence. Amiruddin, (2021). Surah Al-Fatihah is praised in various hadiths, which are the recorded sayings and actions of Prophet Muhammad, peace be upon him. It is crucial to acknowledge that the credibility of hadiths

varies. Outlined below are several renowned hadiths that highlight the merits of Surah Al-Fatihah, as documented by Amiruddin (2021); Aslihah & Wasehudin (2023); Ansari, Adji, & Raidah (2022).

- Hadith narrated by Abu Huraira (may Allah be pleased with him), the Prophet Muhammad (peace be upon him) said that when the Imam says 'Ameen' during prayer, it is recommended for the followers to likewise say 'Ameen', as the angels also say 'Ameen' at that moment. Therefore, anyone whose statement coincides with that of the angels will have all of their previous sins forgiven. (Sahih al-Bukhari).
- Hadith from Abu Sa'id al-Mu'alla (may Allah be pleased with him): The Prophet Muhammad (peace be upon him) said if there was anyone present who did not recite the Opening of the Book (Al-Fatihah) during their prayer. Upon receiving no response from the individuals, he said, "Then do not say, 'Ameen.' But when any one of you recites it and the angels in the heavens say 'Ameen,' and the former coincides with the latter, all his past sins are forgiven." (Sahih Muslim).
- Hadith described by Abu Huraira (may Allah be pleased with him), the Prophet Muhammad (peace be upon him) conveyed that Allah, the Exalted and Glorious, has separated prayer into two parts: one for Himself and one for His servant. The servant will receive what they have asked for in their prayer. When the servant utters the phrase, "Praise be to Allah, the Lord of all worlds," Allah, who is revered and magnificent, acknowledges, "My servant has expressed admiration towards me." (Sahih Muslim).
- Hadith reported by Abu Huraira (may Allah be pleased with him), the Prophet Muhammad (peace be upon him) said that if someone performs a prayer without reciting the Opening of the Book (Al-Fatihah), their prayer will be considered incomplete. (Sahih al-Bukhari).

It is essential to approach hadiths with caution. The ones mentioned above are from well-recognized hadith collections like Sahih al-Bukhari and Sahih Muslim.

2.6. Surah Al-Fatihah is the best and the greatest surah in the Qur'an

"Surat Al-Fatihah" holds great significance and is widely regarded as one of the most crucial chapters (surah) in the Quran among Muslims. The first chapter of the Quran, known as Al-Fatiha, is read in every unit of the Muslim prayer (Salah). The significance of Surat Al-Fatihah resides in its all-encompassing nature, as it combines expressions of adoration and recognition of the immense might of Allah, as well as the act of seeking guidance and protection from being led astray. The supplication is seen as comprehensive and serves as a prayer for guidance, therefore making it an indispensable component of Muslims' daily devotion. Although there may be differing viewpoints regarding the "the best" chapter of the Quran, Surat Al-Fatihah is unquestionably held in high esteem and considered significant in Islamic practice and theology. (Ali, et al 2018).

2.7. The mother of the Qur'an is the seven repeated verses and the great Qur'an

The term "Mother of the Qur'an" designates a particular set of verses called "Umm al-Kitab" in Arabic. The name "Surah Al-Fatiha" refers to the initial chapter of the Qur'an. The prayer (Salah) comprises of seven verses that are said in each unit. Surah Al-Fatihah holds great significance in Islamic worship and is commonly regarded as the essence or summary of the Qur'an. Hadi & Munawar (2023) emphasize that although Surah Al-Fatiha is commonly known as the "Mother of the Qur'an," the entire Qur'an holds the utmost significance as the main source of instruction in Islam. The Qur'an is partitioned into chapters known as (Surahs), with each chapter being subdivided into verses referred to as (Ayat). The phrase "Mother of the Qur'an" highlights the importance and fundamental role of Surah Al-Fatihah in Islamic worship and spiritual existence.

2.8. Surat Al-Fatihah” is a divine oath and a dialogue between the servant and Allah

"Surah Al-Fatihah" is seen as a holy covenant and a dialogue between the servant and Allah. Abdullah bin Abbas, may God be pleased with them both, reported that during a meeting with the Prophet, peace be upon him, Gabriel overheard a remarkable proclamation: a celestial door, which had never been opened before, was unveiled on that day. A celestial being descended and declared that the Prophet had been bestowed with two extraordinary illuminations, unparalleled in the annals of prophethood—the Inauguration of the Scripture and its Culmination, Surah Al-Baqarah. It was stressed that each letter of these surahs held great importance, and the Prophet was informed in advance about their extraordinary position. This disclosure emphasised the outstanding qualities and unique nature of these two surahs, proclaiming them as prayers that have been answered. The promise that "no letter from either of them will be recited without reward" highlights the deep significance inherent in the recitation of Surah Al-Fatihah and the concluding verses of Surah Al-Baqarah, emphasising their profound implications. (Liza, 2022).

2.9. No such thing as “Surat Al-Fatihah” was revealed in the heavenly books

Surat Al-Fatihah holds a pivotal and indispensable position in the Quran, and is repeated regularly by Muslims worldwide during their daily prayers. The Quran is regarded by Muslims as the exact and unaltered message of God, which was communicated to Prophet Muhammad by the angel Gabriel. The assertion that "Surat Al-Fatihah was not revealed in the heavenly books" seems to be incorrect when seen from an Islamic standpoint. The Quran is considered the ultimate divine revelation, and Surat Al-Fatihah holds great importance within it. (Othman and et al. 2023). Various religious traditions possess distinct beliefs

and texts, and the comment you offered may represent a viewpoint from an alternative theological framework. It is crucial to engage in debates regarding religious views with reverence and a comprehension of the wide-ranging viewpoints held by different societies.

2.10. Prayer is not valid unless Surah Al-Fatihah is recited

Reciting Surah Al-Fatihah is considered essential in the Islamic prayer (Salah). It is an essential section of the Quran and is recited in every instance of prayer. The recitation of Surah Al-Fatihah is an integral part of Islamic devotion, being performed at the commencement of each prayer unit, and it has immense importance. In a hadith, the Prophet Muhammad (peace be upon him) stated that "if someone prays without reciting the Opening of the Book (Al-Fatihah), their prayer will be considered incomplete". (Sahih al-Bukhari). This emphasizes the significance of reciting Surah Al-Fatihah during the prayer. Al-Fatihah is deemed an essential component of the Salah, and the prayer is typically regarded as deficient if it is not repeated. (Rusd et al., 2021). It is crucial to note that the recital of Surah Al-Fatihah is obligatory for both the imam, who leads the prayer, and for individuals who are praying alone. Nevertheless, it is not obligatory for followers (muqtadis) participating in a congregational prayer to individually recite Al-Fatihah, as their act of attentively listening to the imam's recitation is sufficient. It is very advisable for Muslims to acquire knowledge and comprehension of the interpretations of Surah Al-Fatihah and other sections of the Quran in order to strengthen their bond with prayer and the message of Islam. Ubbaidi and Budianto (2023).

2.11. Surat Al-Fatihah” is a Ruqyah that cures diseases

It is important to note that claims about Surat Al-Fatihah or any portion of the Quran being a cure for physical diseases should be approached with caution. (Lestari; 2018 & Ansari, Adji & Raidah 2022). In Islam, Ruqyah is a practice in

Islam that entails the reciting of particular verses from the Quran or supplications as a means of spiritual healing. There is a belief held by certain individuals that some verses, such as Surat Al-Fatihah, has healing qualities when recited with genuine sincerity and unwavering faith. Nevertheless, it is imperative to comprehend that the efficacy of such methodologies is contingent upon individual convictions, and it lacks scientific substantiation. Islamic teachings prioritise the need of pursuing both spiritual and physical treatments for ailments. Muslims are advised to depend on prayer, petition, and seeking medical intervention for addressing health concerns. The Quran explicitly recognizes the presence of therapeutic attributes in many substances, and the Prophet Muhammad (peace be upon him) endorsed the pursuit of medical aid when necessary. Surat Al-Fatihah holds great reverence in Islam due to its spiritual significance. However, it is important to approach the notion of ascribing specific physical healing abilities to it with a fair and objective viewpoint. It is highly recommended that persons consult medical professionals and undergo appropriate therapy for health issues, alongside their spiritual practices.

2.12. Characteristics of Surat Al-Fatihah

Aslihah & Wasehudin (2023) outlined some fundamental attributes of Surat Al-Fatihah:

- Al-Fatihah is an indispensable element of the Islamic prayer, known as Salah. The Salah incorporates the recitation of this particular text in every unit (rak'ah), thereby making it an essential component of a Muslim's daily prayer.
- Surat Al-Fatihah commences with the invocation "Bismillah al-Rahman al-Rahim" which translates to "In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful." This phrase is a frequently used introduction in numerous chapters of the Quran, highlighting the significance of invoking the name of Allah before to undertaking any activity.

- Surat Al-Fatihah is a concise chapter in the Quran, comprising of seven verses, which is considerably shorter than other chapters. Although it is short, it carries deep meaning and importance.
- The chapter commences with praising Allah, the supreme ruler of all realms, and recognizing his qualities as the utmost benevolent and compassionate. Additionally, it seeks direction on the direct route and assistance in adhering to it.
- The primary focus of Al-Fatihah is to emphasize the unity of Allah and the principle of monotheism (Tawhid), underscoring that worship is only directed towards Allah. Muslims read this chapter to reinforce their belief in the obvious oneness of Allah.
- The chapter commences with acknowledging Allah's mercy and concludes with a prayer for guidance on the righteous path, emphasizing the fundamental importance of mercy in the Islamic faith.
- Surat Al-Fatihah is commonly regarded as the "core" or "introduction" of the Quran. The themes of commendation, quest for guidance, and assertion of monotheism establish the prevailing atmosphere for the subsequent lessons of the Quran.
- Memorization and Recitation: Surat Al-Fatihah is often committed to memory by many Muslims throughout their initial Quranic study, and it is recited regularly during daily prayers. Its straightforwardness and significance render it easily understandable to Muslims of all age groups.

It is worth to mention that, Surat Al-Fatihah holds significant importance as a pivotal and fundamental chapter in the Quran. It plays a vital part in Islamic worship and serves as a succinct yet comprehensive articulation of key theological themes in Islam.

3. Methodology

To thoroughly examine and analyze Surat Al-Fatihah, an analytical descriptive approach is used to explore its different aspects, such as its names, purposes, virtues, and special characteristics. The study starts with an extensive literature review, which includes historically Islamic exegeses, academic commentaries, and historical sources. This review aims to gain a comprehensive understanding of the linguistic, theological, and contextual aspects of the chapter. The Quranic verses undergo meticulous analysis utilizing linguistic methodologies and historical context to discover the intended significances and subtleties. In addition, the process entails analyzing the multiple names given to Surat Al-Fatihah in various Islamic traditions, offering a comprehensive understanding of its importance. The chapter delves into the virtues linked to hadith collections, which emphasize the spiritual and ethical aspects emphasized by Prophet Muhammad (peace be upon him). Particular emphasis is placed on the particular attributes that set Surat Al-Fatihah apart from other chapters, providing insight into its unique qualities. In general, this methodology utilizes a variety of disciplines, including language analysis, historical contextualization, and religious study, to obtain a thorough comprehension of Surat Al-Fatihah and its significant importance in Islamic tradition.

4. Results and Discussion

The study utilized an analytical descriptive technique to examine Surat Al-Fatihah, the first chapter of the Qur'an. The findings have uncovered the deep importance and diverse functions that this chapter holds in Islamic worship and everyday life. The study highlights the all-encompassing quality of Surat Al-Fatihah, which encompasses both praise and the request for guidance from Allah, with a particular emphasis on his qualities as the Merciful and Compassionate.

Praise be to Allah, the Lord of all the worlds. (Pink, 2020; Al Qura'an Al Kareem). The title "The Opening" accurately emphasizes its function as a metaphysical portal, establishing a link between the reciter and Allah. The seven verses of Surat Al-Fatihah are acknowledged as a potent supplication, establishing the fundamental basis for the believer's connection with Allah. "And take guidance from the wisdom and teachings of the Quran." (Mykhaylo, 2022). The virtues and special characteristics of this chapter are highlighted in Islamic teachings, affirming its status as a source of divine guidance. Its recitation holds a central place in the Muslim prayer ritual, symbolizing the opening of the heart and soul to Allah's guidance and mercy. Importantly, the study underscores the essential role of Surat Al-Fatihah in Islamic worship, as it is deemed a fundamental element necessary for the validity of the prayer. The chapter's distinctive and captivating linguistic style adds to its significance, further enhancing its role in the spiritual experience of the believer.

Based on reliable hadiths, verifiable reports, and actual facts, it has been shown that reciting Surat Al-Fatihah during ruqyah provides rapid healing for both physical and psychological diseases. (Ansari, Adji, & Raidah, 2022). The opening of Al-Fatihah entails the act of praising and expressing thankfulness to Allah, who is acknowledged as the supreme ruler of all realms. This establishes the atmosphere for acknowledging and valuing the ultimate origin of direction and support. The numerous appellations of Surah Al-Fatihah exemplify the reverence bestowed upon its subject. These names emphasize the reverence and importance of Surah Al-Fatihah in the Islamic faith. The prayer is seen as a thorough and all-encompassing act of adoration, praise, and supplication to Allah. It is customary for Muslims to say it during each segment of their prayers, and it plays a crucial role in Islamic rites and spiritual practices.

The Surah highlights Allah's attributes as Ar-Rahman (the Most Gracious) and Ar-Rahim (the Most Merciful), emphasizing his limitless kindness and compassion. The phrase "الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" serves as a reminder of Allah's mercy and the need of seeking his compassion. This is a request for guidance. (Hadi & Munawar, 2023). Believers seek the direct route, which leads to moral uprightness and finally to Paradise. It signifies the recognition of human reliance on divine guidance for a moral and meaningful existence. Al-Fatihah includes a mention to the Day of Judgement, serving as a reminder to believers of the final responsibility for their deeds. The purpose of this awareness is to cultivate a sense of accountability and mindfulness in one's actions. ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. Believers demonstrate their absolute reliance on Allah by consistently uttering the phrase "You alone we worship, and You alone we ask for help." The verse "إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" reinforces the notion of Tawhid (the belief in the oneness of Allah) and the reliance on Him in every area of life.

The Surah contrasts the path of individuals who have obtained Allah's approval with the path of individuals who have deviated from the right path. This affirms the notion that following to the guidance of Allah results in prosperity in both the present world and the afterlife. The Surah concludes with an entreaty for forgiveness, recognizing the inherent flaws and transgressions of humanity. The act of seeking forgiveness is a recurring motif in Islam, and Al-Fatihah underscores the significance of repentance and requesting Allah's mercy. In essence, Surah Al-Fatihah encompasses the essential principles of faith, gratitude, guidance, and reliance on Allah. The prayer is performed everyday by Muslims worldwide during their Salah, emphasizing its essential role in Islamic worship and spirituality.

The noble purposes of Surah Al-Fatihah praising and glorifying Allah, acknowledging judgment day, seeking mercy and forgiveness and praying for help

believers ask Allah for help and support in their daily lives. Muslims believe that reciting Surah Al-Fatihah with sincerity and devotion brings blessings and serves as a means of seeking guidance, forgiveness, and protection from evil. ﴿أَهْدِنَا صِرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ It is not just a ritualistic practice but a spiritual connection with Allah. While the Qur'an, including Surah Al-Fatihah, is considered a source of protection from evil and a guide for righteous living, it's important to approach these beliefs with faith and understanding. It is not a magical formula but a means of seeking Allah's help and guidance. (Pink, 2020 & Al Qura'an Al Kareem).

5. Conclusion

This study offers a thorough comprehension of the significance of Surah Al-Fatihah in Islamic worship and everyday existence. Al-Fatihah is a significant chapter in the Quran that carries great significance in the spiritual, educational, and daily life of Muslims. Functioning as the opening chapter, it serves as an entrance to the Quran, establishing the overall tone for the entire scripture and summarizing fundamental ideas of Islam. The recital of Al-Fatihah during prayers serves multiple purposes beyond mere ritual. It serves as a guide, a supplication for mercy, and a reminder of the fundamental principles of monotheism and surrender to Allah. The virtues of this entity transcend the spiritual domain, since it is believed to possess healing properties and positively impact mental well-being. Moreover, Al-Fatihah holds great significance in Islamic education, highlighting the need of acquiring knowledge and implementing it in one's daily existence. Al-Fatihah is widely acknowledged by scholars and observed by Muslims globally. It holds a significant role in Islamic rites, serving as a symbol of a continuous connection with Allah and an ongoing reminder of the fundamental principles that underpin the Islamic religion.

References

- 1- Al Qura'an Al Kareem.
- 2- Ali, M. S., Ismail, M. S., Jusoh, W. H. W., Hadzrullathfi, S., Omar, S., & Razak, R. A. (2018). *Healing Stress Through Surah al-Fatihah: An Alternative. Technology*, 9(8), 175-180.
- 3- Amiruddin, A. M. A. (2021). Hadith on The Excellence of Al-Fatihah: The Examination Of Its Chain Of Transmission. *Tahdis: Jurnal Kajian Ilmu Al-Hadis*, 12. (1) . and Print in Modern Java', *Wacana*, 21.(3) 59 - 329.
- 4- Ansari, M. I., Adji, W. S., & Raidah, R. (2022). The Concept of Self Healing Perspective Of The Qur'an and Hadith. *Al Qalam: Jurnal Ilmiah Keagamaan dan Kemasyarakatan*, 16(3), 845-863.
- 5- Aslihah, A., & Wasehudin, W. (2023). Gratitude as The Foundation of Islamic Educational Values (Study of The Qur'an Surat Al-Fatihah). *Attaqwa: Journal Ilmu Pendidikan Islam*, 19(2), 237-248.
- 6- Hadi, N., & Munawar, A. M. (2023). Textual and Contextual Studies on Education in Surah Al-Fatihah As the Axis of Life. *JISE: Journal of Islamic Studies and Education*, 2(2), 28-51.
- 7- Lestari, F., (2018) "The Qur'an and Healing (Study of the Living Qur'an on Alternative Medicine Practices Bengkel Menongso in Hamlet Jaten, Pedurungan Tengah Village, Pedurungan District, Semarang)" (Semarang, Faculty of Ushuluddin and Humanities, Walisongo State Islamic University.
- 8- Liza, M. (2022). *SPEECH ACTS IN ENGLISH TRANSLATION OF QURAN SURAH AL-FATIHAH AND SURAH AL-A'LAA BY ABDULLAH YUSUF ALI* (Doctoral Dissertation, Uin Raden Intan Lampung).

- 9- Mansour, R. A. M. M., & Allah, I. O. G. (2023). Systems in Surat Al-Fatihah (Grammatical study). *Journal of Namibian Studies: History Politics Culture*, 33, 596-614.
- 10- Mughal, J. R. (2011). Tafsir of the Holy Qur'an (Chapter 1, Surah Al-Fatihah). Available at SSRN 1905062.
- 11- Mykhaylo, Y., (2022). 'Qur'an Translations into Central Asian Language Exegetical Standards and Translation Processes', *Journal of Qur'ani Studies* 115-89 (1) .21.
- 12- Othman, M. I. H., Abdelhamid, I. Y., Nazmi, M. Z. M., & Abas, U. B. (2023). The Linguistic and Semantic Coherence of Surah Al-Fatihah. *International Journal of Academic Research in Business and Social Sciences*.
- 13- Pink, J. (2020). The kyai's voice and the Arabic Qur'an; Translation, orality, and print in modern Java. *Wacana, Journal of the Humanities of Indonesia*, 21(3), 1.
- 14- Qutbuddin, A. K. (2009). *Tahmid: A literary genre? A study of the Arabic laudatory preamble with a focus on the Fatimid-Tayyibi tradition*. University of London, School of Oriental and African Studies (United Kingdom).
- 15- Rohmana, J. A., & Zuldin, M. (2018). Negara Kitab Suci: *Pewacanaan Al-Qur'an di Jawa Barat*. *KALAM*, 12(1), 127-158.
- 16- Rusdi, M., Omar, M. A., Omar, N., & Muin, S. A. (2021). Membina Karakter Pemikiran Pelajar Muslim Menerusi Petunjuk Surah Al-Fatihah: Building the Thought Character of Muslim Students through the Guidance of Surah Al-Fatihah. *Journal of Quranic Sciences and Research*, 2(1), 1-7.
- 17- Sukarno, S., Adilia, R., & Setiarini, R. (2020). Translation Procedures and Ideology of Two Different English Translation Versions of Surah Al-Fatihah: A Contrastive Analysis.
- 18- Ubbaidi, Z., & Budianto, L. (2023). Revealing the Educational Message in Surah Al Fatihah. *Borneo Educational Journal (Borju)*, 5(1), 58-69.

EFL Students Experiences and views of Test Anxiety

تجارب طلاب اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية ووجهات نظرهم حول قلق الاختبار

Hala Ali Almahdi Abusurra

Assistant Professor, Faculty of Languages- Surman

Hala91ali16@gmail.com

Manal Almabrouk Shalandi

Lecturer Assistance, Faculty of Languages- Surman

manalshalandi6@gmail.com

Abstract:

The major aim of this research paper is to know the effects of anxiety on EFL students' performance in testing situation at the Language Center of Tripoli University. A Sample of 210 students from the language center participated in the study. Data was collected by using a questionnaire. This questionnaire aims to answer the main research question: what are the effects of anxiety on students' performance in testing situation. The collected data was analyzed by using quantitative design and discussed in relation to the research question of this paper. The findings of this paper show that there are negative effects of anxiety on students' performance in testing situation. That is, the more anxious the students are the lower they perform in test.

ملخص البحث:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى معرفة أثر القلق على أداء الطلبة لامتحانات اللغة الإنجليزية بمركز اللغات بجامعه طرابلس. استهدفت هذه الدراسة مئتين وعشره طالبا من مركز اللغات بجامعه طرابلس. تم جمع البيانات باستخدام طريقة الاستبيان وتم تحليل البيانات باستخدام التصميم الكمي وأظهرت النتائج أن للقلق إثر سلبي على أداء الطلبة لامتحانات اللغة الإنجليزية بمركز اللغات بجامعه طرابلس ويعتبر واحد من أهم الأسباب الرئيسية وراء ضعف الأداء والتحصيل العلمي.

Introduction

Test anxiety is very common among EFL students. It prevents students from remembering what they need during the test, even if they have learned and known that thoroughly. Dusek (1980:88) defines test anxiety as "an unpleasant feeling or emotional state that has physiological and behavioral concomitants, and that is experienced in formal testing or other evaluative situations." Young (1991:429) states that "In language testing, the greater degree of student evaluation and the more unfamiliar and ambiguous the test tasks and formats, the more the learner anxiety is produced". Young (1991) believed that there is a relation between test anxiety and EFL students' performance. That is, the more anxious the students are the lower they perform in test. Hancock (2001) investigated the effects of test anxiety on EFL students' achievement and motivation. He found that all students, especially students with a high anxiety level, performed poorly and were less motivated to learn. Literature on test anxiety shows that some of the factors that influence students' reactions to tests are related to test validity, time limit, test techniques, test format, length, testing environment and clarity of test instructions (Young, 1991).

Although this phenomenon has given attention all over the world, no significant study has appeared in Libya and this research paper tries to shed some light on the effects of anxiety on students' performance in testing situation.

Literature Review

Test anxiety as a phenomenon has received considerable attention since 1950s. It is considered to be the most common educational problem which affects EFL students' performance. Phillips (1992) conducted a research study on the effects of anxiety on EFL students' oral test performance and attitude. An oral exam cue sheet for a role play was used as instrument. The results showed that students with higher anxiety tended to say less, to produce shorter words in

communication and to use fewer dependent clauses and target structures. While students with a low anxiety tended to say more, to produce longer communication units and to use more dependent clauses and target structures. While the previous study examined the effects of anxiety on EFL students' oral test performance and attitude, another investigation by Aydin et al. (2006) concentrated on the reasons and the effects of anxiety on EFL students' written tests. A test anxiety scale and survey questions were given to the sample group and the data gathered were analyzed statistically and descriptively. The findings from this study showed that: First, the level of test anxiety decreases at higher grades and the students who have higher scores are less anxious than the ones who have lower marks. Second, test anxiety producing factors are low level proficiency of the learners, negative attitudes of teachers towards test applications, students' attitudes towards language learning, test invalidity, fear of negative evaluation, bad experiences on tests, time limitation and pressure, the difficulty of course contents and parental expectations. Third, test anxiety causes physical and psychological problems, affects motivation, concentration and achievement negatively, increases errors in learning process, prevents students to transfer their real performance to test results and studying efficiently and decreases the interest towards language learning. Finally, teachers' behaviors and attitudes and learners' proficiency are the key factors to decrease and prevent test anxiety. Moreover, inter- and intra-rater reliability, validity of tests, test techniques, clarification of test items, the aims, content and number of the questions, time limitation and pressure are some significant issues which decrease and prevent anxiety of learners during test situation.

Another study conducted by Trifoni and shahini, (2011) aimed to investigate the effect of test anxiety on learning as well as its causes and effects on students' performance. The findings from this study showed that: First, the

factors that cause test anxiety are related to, lack of preparation for the tests, inappropriate test preparation, fear of negative evaluation, bad experiences on previous tests, time limitation and pressure, the number of items included in the test and the difficulty of course content. Second, students are usually affected by test anxiety, especially during the administration of the test. Also they found that the students who have a high level of test anxiety, performed very poorly. Finally, teachers' attitudes are the key factors in reducing test anxiety. Also they found that test techniques, specific orientation before the test, information on the content and number of questions, time limitation and pressure are some significant issues about which teachers and instructors should think in order to reduce test anxiety.

The Main Sources of Test Anxiety among Foreign Language Students

The specific conditions and mechanisms that cause test anxiety are not well understood, but there is evidence that students who are test-anxious tend to have high levels of general anxiety that are exacerbated during evaluations (Huberty, 2009). However, the synthesis of the previous researches that focus on the major factors that cause test anxiety during testing and examination demonstrated that there are certain factors that cause test anxiety in foreign language learning. These factors include the following:

Time limit during test administrations is a significant variable that causes and affects the level of test anxiety among foreign language students. Immerman (1980) investigated the effect of time restraints on diagnostic test scores. In his study, he found that tests given without time limits remove test anxiety. Similarly, Madsen and Murray (1984) examined the reflections on the sources of stress during major examinations. Their findings demonstrated that students with a high test anxiety level are distressed by time constraints.

Several variables contribute to students' anxiety, these variable include: low English proficiency, lack of practice and competition and task difficulty which vary from context to context (Bailey, 1983). Neely and Shaughnessy (1984) reviewed the literature on cultural differences that affect test performance and the assessment process, including test anxiety. They noted six problems which are frequently cited regarding the use of tests: inappropriate content, inappropriate standardization samples, examiner and language bias, inequitable social consequences, measurement of different constructs and differential predictive validity.

Learners experience more anxiety in highly evaluative situations. That is, the more unfamiliar and ambiguous the test tasks and formats are the more the learner anxiety is produced (Daly, 1991). Another factor that increases test anxiety and decreases performance is lack of face validity. For instance, a study conducted by Horwitz and Young (1991) note that tests in the lack of face validity lead to higher anxiety and a negative attitude toward instruction.

Inappropriate test technique is also one of the factors that provoke test anxiety. Young (1991) reported that students felt anxious when they had studied hours for a test and then they were asked question with which they had no experience. For him, students experienced anxiety with a particular test format. In addition to students' capacity, task difficulty, the fear of getting bad grades and lack of preparation for a test are the other factors that make students worried. He also found that students experience anxiety if the test involves content that was not thought in the class. Worry and fear of failure is the major component that cause test anxiety during testing and examination (Sapp, 1993). Moreover, he pointed out that non facilitative parent- child interactions and parents' negative communication patterns have links to the development of test anxiety.

From the previous research studies, it can be concluded that test anxiety has many sources: most commonly caused by a lack of exam preparation, poor study habits, poor time management, lack of organization of the text notes and homework are examples of being unprepared. Test anxiety can also be caused by worrying about past test performance, how others are doing on the test and the consequences if don't doing well. Moreover, negative comments of teachers on test applications, the fear of negative evaluation and students' bad experiences on prior tests are other reasons that provoke anxiety. In addition to these, it is also possible to add some other factors: one of them is scoring subjectivity that makes learners anxious while another is closely related to negative aims of using tests such as a means of authority and punishment. To finish, low level proficiency and achievement of the students and their parents' expectations are last two reasons.

The Effects of Test Anxiety on EFL Students' Performance

Understanding students' feeling during testing process has been a prime concern for researchers, educators and counselors as test anxiety may have a deleterious impact on test performance, academic success and overall well-being (Bonaccio and Reeve, 2010).

The results of the studies that focus on the effects of anxiety on EFL students' performance in testing situation found that test anxiety has certain effects on learning process, academic performance and educational outcomes. In this section, the results of these studies are presented: Sarason (1980) found that test anxiety plays an important role on EFL students' performance. It leads to negative evaluation, lack of concentration, unpleasant physiological reactions and low proficiency in test performance. Hancock (2001) found that all EFL students, especially students with a high anxiety level, performed poorly and were less motivated to learn. Thus he concluded that when students who are particularly test-anxious are exposed to a highly evaluative assessment

environment in their educational institution, they perform poorly and are less motivated to perform.

Another research study was conducted by Cassady and Johnson (2002) to investigate the effect of cognitive test anxiety (worry) on EFL students' academic performance. The results showed that cognitive test anxiety exerts a significant stable and negative impact on academic performance measures.

EFL Students with a high-test anxiety as well as those with a low-test anxiety showed lower academic performance. Moreover, students with moderate levels of test anxiety performed the best (Vogel and Collins 2002). Aydın et al (2006) found that test anxiety has many effects, as physical and psychological problems, increases the errors in learning processing, prevents students from reflecting their actual performance in their test results and from studying efficiently and reduces the interest in language learning.

Researchers have also demonstrated that EFL students with higher level of anxiety obtain lower marks in examination (Sena et al., 2007). Huberty (2009) claimed that test anxiety overtime tended to chip in more extensive under achievement. He described the outcomes of severe test anxiety including lowered self -esteem, lessened effort and loss of motivation for school task.

To sum up, anxiety has negative effects on EFL students' performance especially if the anxiety is very high. It is the factor that inhibits students' ability to absorb, retain and recall information. Moreover, it creates a kind of noise or mental static which includes going blank on questions and remembering the correct answers as soon as the exam is over. In other words, it blocks the ability to retrieve what is stored in memory and impairs the ability to comprehend and explain. In addition, it causes difficulty on reading and understanding the questions on the exam paper, organizing thoughts, retrieving key words and

concepts when answering questions and doing poorly on an exam even though the material is known thoroughly.

Methodology

The purpose of this research paper was to investigate the effect of test anxiety on students' performance in testing situation. Being aware of this feeling and its effect, students become able to eliminate, avoid or cope with situations where anxiety is expected.

Research Question

This research paper tries to answer the following question:

Q1-what are the effects of anxiety on students' performance in testing situation?

Participants of the Study

The participants of this study were students at the Language Center of Tripoli University. A sample of 210 students from the language center participated in the study. The purpose of this research paper and other information, including confidentiality, were clearly explained to participants.

Instrument of Gathering Data

To know the main effect of test anxiety the questionnaire was used. This questionnaire consisted of 12 items. The questionnaire items were adapted mainly from Horwitz *et al.* (1986), Foreign Language Classroom Anxiety Scale. To test validity, the adapted questionnaire was presented to two experts in the field of education to find out whether the questionnaire was adequate to its objectives or not. According to experts' suggestions the questionnaire was written in its final form. To assure the reliability of the questionnaire, the researchers used test-re-test method. It was administered to 12 participants from the language centre. These participants were selected randomly: four from each level (beginner, elementary and intermediate). After a couple of weeks, the same questionnaire was given to the same participants. The results indicated that the

reliability was 0.727 that is according to Smith (1991) considered good and acceptable reliability. After testing the validity and the reliability, the questionnaire was given to participants during the spring semester of 2024. The participants were asked to respond to the statements by indicating whether they always, sometimes or never experienced the feeling mentioned in the statement. In order to make sure that participants understand all the items appeared in the scale, it was translated orally into Arabic.

Table 1. Cronbach's Alpha

Reliability Statistics	
Cronbach's Alpha	No, of items
0.727	12

Data analysis

The data obtained from the questionnaire was analyzed and presented in the table. This table shows the effects of anxiety on students' performance in examination setting.

Table 2. Statistical Analysis of Students' Questionnaire

Questionnaire items	Always	Sometime	Never	Percent
1-Nervousness while taking the exam hinders me from doing well.	80.5%	9.5%	10%	100%
2- Feeling anxious while taking the test helps	13.4%	9.5%	77.1%	100%

me do well.				
3- The more anxious I am, the less efficient I become.	75.7%	12.9%	11.4%	100%
4- I feel anxious before the start of the exam.	74.3%	12.4%	13.3%	100%
5- During the test, I write the answers in the wrong places.	39.2%	44.5%	16.3%	100%
6- During the test, I make mistakes on easy questions.	33.4%	53.3%	13.3%	100%
7- In speaking tests, my anxiety prevents from doing well.	41.9%	47.6%	10.5%	100%
8- I work hard for the test, but I lose a great part of my knowledge in the test.	31.9%	55.2%	12.9%	100%
9- After the test, I become nervous until I get my results.	25.8%	27.1%	47.1%	100%
10- I study well, but my answers and grades don't reflect the effort I put into studying.	50%	39.5%	10.5%	100%

11-I feel my heart beating very fast during the English test.	69.9%	18.1%	12.0%	100%
12- I get a headache when I have an English test.	66.7%	20.0%	13.3%	100%

Discussion of the Results

The results obtained from this study reveal to the negative effects of anxiety on students' performance in testing situation. The high percentage of most items of the students' questionnaire was clear evidence that led to this conclusion.

The results obtained by item (1) '*Nervousness while taking the exam hinders me from doing well*' show the majority (90%) of students believed that they feel nervous when taking the test and this 'nervousness' hinders them from doing well. These results are in agreement with the results obtained by Sapp (1993) that there is a negative relation between test anxiety and achievement. That is, the more anxious the students are the lower their performance becomes. Moreover, these results align with the results obtained by Vogel and Collins (2002) that the students with a high-test anxiety as well as those students with a low-test anxiety showed lower academic performance.

The results obtained by item (2) '*Feeling anxious while taking the test helps me do better*' show the majority (77%) of students believed that anxiety is not the factor that makes them do well. That is mean; anxiety has a negative effect on students' performance in testing situation, since it is not the factor that helps students do well in their examination. These results align with the results

obtained by Soler (2005) that a high level of anxiety affects academic performance. Moreover, these results support the results obtained by Hancock's study (2001) that there is a negative relation between test anxiety and students' performance. That is, the more anxious the students are the lower they perform in test.

The results obtained by item (3) '*The more anxious I am, the less efficient I become*' show the majority (89%) of students believed that high- anxiety makes them less efficient. These results are in agreement with the results obtained by Hancock (2001). He found that all students, especially students with a high anxiety level, performed poorly and were less motivated to learn. Thus he concluded that when students who are particularly test-anxious are exposed to a highly evaluative assessment environment in their educational institution, they perform poorly and are less motivated to perform. Moreover, these results support the results obtained by Soler (2005). He found an indication that a high level of anxiety affects academic performance. In addition, these results are on agreement with the results obtained by Young (1991). He found that the more anxious the students are the lower their performance becomes.

The results obtained by item (4) '*I feel anxious before the start of the exam but once I start I forget my anxiety*' show the majority (87%) of students believed that anxiety takes place before the test, but once they start answering the exam questions, they try to overcome it. These students are like those in Aydin et al.'s study (2006) suffer from anxiety before the test but once the exam starts, they try to control their anxiety by using specific techniques, such as breathe deeply and stay focus on the test.

The results obtained by item (5) '*During the test, I write the answers in the wrong places*' show the majority (84%) of students believed that anxiety is one of the factors that makes them make silly mistakes like writing the answers in the

wrong places. These results are similar to the results obtained by Abdalrazzag (2010) that anxiety leads students to make silly mistakes like writing the answers on the wrong places and in some cases forgetting the answers to the easy exam questions.

The results obtained by item (6) '*During the test, I make mistakes on easy questions*' show the majority (87%) of students believed that anxiety is one of the factors that makes them make mistakes on easy exam questions. These results are in agreement with the results obtained by Covingto (1985) that students with high anxiety often forget the answers to simple exam questions. Moreover, Abdalrazzag (2010) found that anxiety is the factor that leads students to do silly mistakes like making mistakes on easy exam questions and writing the answers on the wrong places.

The results obtained by item (7) '*In speaking test, my anxiety prevents me from doing well*' show the majority (90%) of students believed that anxiety is the factor that prevents them from doing well in speaking test. These results are similar to Philips' results (1992). He found that there is a relationship between anxiety and oral performance, reporting that the more anxious the students are the lower performance they display in oral tests. In other words, anxiety has negative effects on the oral proficiency of language learners.

The results obtained by item (8) '*I work hard for the test, but I lose a great part of my knowledge in the test*' show the majority (87%) of students believed that anxiety is one of the factors that makes them lose a great part of their knowledge in the test. These results are in agreement with the results obtained by Aydin et al.'s study (2006) that test anxiety has many effects, such as increasing the errors in learning process and making students lose a great part of their knowledge in the test situations. Moreover, these results support the results obtained by

Covington (1985) that students with high anxiety often forget the answer to simple exam questions.

The results obtained by item (9) '*After the test, I become nervous until I get my results*' show the majority (53%) of students believed that anxiety takes place until the results be known. This feeling may affect students' performance if other exams are coming. In other words, test anxiety takes place even if the exams finish and this may affect students' performance if other exams are coming. These results are in agreement with the results obtained by Aydın et al.'s study (2006) that students with a high anxiety level suffer from worry and anxiety until they get their results.

The results obtained by item (10) '*I study well, but my answers and grades don't reflect the effort I put into studying*' show the majority (90%) of students indicated that anxiety is one of the factors that why their answers and grades don't reflect the efforts they put in to studying. They indicated that anxiety prevents them from displaying their real knowledge and abilities in the test and transferring their real performance to test results. In other words, it prevents students from remembering what they need during the test, even if they have learned and known that thoroughly. These results are similar to the results obtained by Aydın et al.'s study (2006) that anxiety prevents students to reflect their actual performance to test results and from studying efficiently, and reduces the interest in language learning. In addition, these results support the results obtained by Sena et al.'s study (2007) those students with a high level of anxiety obtain low marks in examination.

The results obtained by item (11) '*I feel my heart beating very fast during the test*' show the majority (88%) of students indicated that anxiety makes their heart beating very fast during the test. These results are in agreement with the results obtained by Aydın et al.'s study (2006) that students who have a high

level of test anxiety suffer from headache, stomachache, increasing heart pulse and acnes before and during test administration.

The results obtained by item (12) 'I get a headache when I have an English test' show the majority (87%) of students believed that anxiety makes them have a headache when they have English test. These results are in agreement with the results obtained by Immerman (1980) that anxiety makes students suffer from a headache when they have English test.

Conclusion

The data of the current study reveal that anxiety has a negative relation with a bad effect on students' performance in testing situation. In addition, it takes place before, during and after the exams finish. It is the factor that causes a difficulty in retrieving from memory the information that has been learned, and decreases the concentration during the test. Moreover, it makes students do silly mistakes like writing the answers in the wrong places and making mistakes on easy exam questions. The results also show that anxiety is the factor that prevents students from displaying their real knowledge and ability in the test and transferring their real performance to test results. In other words, it is an obstacle to efficient study and to an effective use of the knowledge already acquired. In addition, it is the factor that bother students and makes them be unsure if they will get good results or no or even succeed or not. Moreover, it causes physical problems like getting a headache and increasing heart beat before and during test administration. Finally, it is hoped that these findings encourage EFL teachers to identify students having a high anxiety and low self-esteem and create a supportive and friendly atmosphere for them to perform well and concentrate on their test for better results and academic performance.

References

- 1- Dusek, J. D. (1980). *The development of test anxiety in children*. In I. G.

- 2- Young, D.J. (1991). Creating a Low-Anxiety Classroom Environment: What Does Language Anxiety Research Suggest? *The Modern Language Journal*, 75 (4), 426-439.
- 3- Hancock, D. R. (2001). Effect of test anxiety and evaluative threats on students' achievement and motivation. *The Journal of Educational Research*, 94 (5), 284-290.
- 4- Phillips, E. (1992). The effects of language anxiety on students' oral test Performance and attitudes. *Modern Language Journal*, 76, 14-26.
- 5- Aydın, S., Yavuz, F., & Yesilyurt, S. (2006). Test anxiety in foreign language learning. Balikesir University, *Journal of Social Sciences Institute*, 9 (16), 145 - 160.
- 6- Trifoni, A. and Shahini, M. (2011). How does exam anxiety affect the performance of university students? *Mediterranean Journal of Social Sciences*, 2(2), 93-100.
- 7- Huberty, T. (2009). Test and performance anxiety. *Principle Leadership*, 1(10), 15-19.
- 8- Immerman, M. A. (1980). The effects of eliminating time restraint on a standardized test with American Indian adults. Retrieved in September 2008 from ERIC Database (ED196584).
- 9- Madsen, H. S. & Murray, N. (1984). Retrospective evaluation of testing in ESL content and skills courses. Retrieved in September 2008 from ERIC Database (ED249815).
- 10- Bailey, K. M. (1983). Competitiveness and anxiety in adult second language learning: Looking at and through the diary studies. In H. W. Seliger, & M. H. Long (Eds.), *Classroom oriented research in second language acquisition* (pp. 67-102). Rowley, MA: Newbury.
- 11- Neely, R. & Shaughnessy, M. F. (1984). Assessments and the Native American. Retrieved in September 2008 from ERIC Database (ED273889).

- 12- Daly, J. (1991). Understanding communication apprehension: An introduction for language educators. Elaine K. Horwitz & Dolly J. Young, Dolly J. (Eds.), *Language Anxiety: From theory and research to classroom implications* (pp. 3-13). Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- 13- Horwitz, E., Horwitz, M. B. & Cope, J. (1986). Foreign language classroom anxiety. *The Modern Language Journal*, 70(2), 125-132.
- 14- Horwitz, E.K., & Young, D. J. (eds.) (1991) *Language Anxiety: From Theory and Research to Classroom Implications*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall (Interviews with High Anxious Students).
- 15- Sapp, M. (1993). *Test anxiety: Applied research, assessment, and treatment interventions*. Lanham, MD: University Press of America.
- 16- Bonaccio, S., & Reeve, C. L. (2010). The nature and relative importance of students' perceptions of the sources of test anxiety. *Learning and Individual Differences*, 2010 (20), 617-625.
- 17- Sarason, I. G. (1980). *Test anxiety: Theory, research, and applications*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates
- 18- Cassady, J. C. & Johnson, R. E. (2002). Cognitive test anxiety and academic performance. *Contemporary Educational Psychology*, 27(8), 270-295.
- 19- Vogel, H. L., & Collins, A. L. (2002). The relationship between test anxiety and academic performance. Retrieved June 24, 2009, from <http://clearinghouse.missouriwestern.edu/manuscripts/333.php> Von.
- 20- Sena, J., Lowe, P. & Lee, S. (2007). Significant predictors of test anxiety among students with and without learning disabilities. *J. Learn. Disabi*, 40(4), 360-376.
- 21- Huberty, T. (2009). Test and performance anxiety. *Principle Leadership*, 10, pp. 15-19

- 22- Smith, H. (1981). *Strategies of social research*. Englewood Cliff: Prentice-Hall.
- 23- Soler, K. U. (2005). The Relation among Depression, Anxiety, Memory, and Attention in A Sample of College Students with Learning Difficulties. Ph.D. Dissertation, Department of Psychology, Carlos Albizu University.
- 24- Abdalrazzag, S. (2010). *The effects of anxiety On students' achievement*, MA thesis, University of Constantine. Algeria.
- 25- Covington, M. V. (1985). Test anxiety: Causes and effects over time. In H. M. Vander Ploeg, R. Schwarzer, & C. D. Spielberger (Eds.), *Advances in test anxiety research* (pp.55–68).

Improving University Subjects to Enhance Students Teachers Skills in English Language Department at the University of Benghazi Al.Marj Faculty of Arts and Sciences: Course Description Analysis of Introduction to Applied Linguistics

E501

تحسين مواد الجامعة لتعزيز مهارات طلاب ومعلمي قسم اللغة الإنجليزية في جامعة بنغازي - كلية

الآداب والعلوم في المرج: تحليل وصف الدورة لمقدمة في علم اللغة التطبيقي E501

Najla Ali Hamad Suweekar

University of Benghazi, Libya, Al.Marj Faculty of Arts and Sciences

Department of English Language and Linguistics

Contact information: najla.suweekar@uob.edu.ly

Abstract :

The level of English language teaching in Libyan universities is getting very low and no longer of the responsibilities and priorities of the successive ministries of higher education to solve such rooted issues. From this standpoint, the researcher insists that there must be new attempts to increase the effectiveness of English language teaching programs by developing curriculum, syllabus and instruction. This study investigates the characterization of the course description of a university subject that had been taught in the English department at Al.Marj Faculty of Arts and Sciences in the University of Benghazi/ Libya. The subject named Introduction to Applied Linguistics (E501) was analyzed by using qualitative content analysis and two adopted models of learning objectives to determine the type of syllabus and instruction, to classify two types of objectives and to what extent they agreed with outcomes and to prove the impact of this course on students' future skills. It was found that there is a lack of agreement between the objectives, the activities and the intended skills that mentioned in the course description what makes it inadequate to support students' future role in solidifying the meaning of becoming English language teachers among students

and enhancing their teaching skills. It was recommended that language performance with needed professional skills. It was also noticed that in this language teaching program language learning objectives are totally ignored. It was suggested that improving the content and teaching methods play a significant learning objectives need to be more focused on from the very beginning, and practical classes must be essential in the advanced levels to serve as pre-service development programs.

Key Words: *Course Description, Applied Linguistics AL, Syllabus Design, Learning Objectives, Language learning objectives*

ملخص البحث:

إن مستوى تدريس اللغة الإنجليزية في الجامعات الليبية أصبح منخفضاً جداً، ولم يعد مسؤوليات وأولويات وزارات التعليم العالي المتعاقبة وضع حلول لمثل هذه القضايا المتجذرة. ومن هذا المنطلق يصر الباحث على ضرورة وجود محاولات جديدة لزيادة فعالية برامج تدريس اللغة الإنجليزية من خلال تطوير المناهج والمقررات الدراسية. تحلل هذه الدراسة توصيف مقرر مادة جامعية (مقدمة في علم اللغويات E501) يتم تدريسها في قسم اللغة الإنجليزية بكلية المرج للآداب والعلوم بجامعة بنغازي في ليبيا. تم تحليل توصيف المقرر (E501) باستخدام تحليل المحتوى النوعي ونموذجين معتمدين لأهداف التعلم، لتحديد نوع المنهج والتدريس، ولتصنيف نوعين من الأهداف ومدى توافقهما مع النتائج وإثبات تأثير هذا المقرر على مهارات الطلاب المستقبلية. أثبتت نتائج هذه الدراسة أن هناك عدم توافق بين أهداف المقرر، والأنشطة التعليمية، والمهارات المتوقعة اكتسابها التي تم ذكرها في توصيف المقرر، مما يجعلها غير كافية لدعم أداء الطلاب المستقبلي بالمهارات المهنية اللازمة. وقد لوحظ أيضاً أن هذا البرنامج التعليمي يتجاهل أهداف تعلم اللغة تماماً. تكمن أهمية هذه الدراسة في أن تحسين محتوى المناهج التعليمية وتطوير طرق التدريس المستخدمة قد يلعب دوراً هاماً في ترسيخ معنى مهنة معلم اللغة الإنجليزية بين الطلاب وتعزيز مهاراتهم التعليمية. تمت التوصية بضرورة التركيز على أهداف تعلم اللغة بشكل أكبر منذ البداية، وأن تكون الفصول العملية إلزامية في المستويات المتقدمة لتكون بمثابة برامج تطوير ما قبل الخدمة .

الكلمات المفتاحية: توصيف المقررات، اللغويات التطبيقية، تصميم المنهج، أهداف التعلم، أهداف تعلم اللغة

1. Introduction

It is known that language teaching is a social and institutional activity that brings theories of language and language learning into contact with practical constraints (Cook and Seidlhofer, 1995). That is, Applied Linguistics connects tightly to education in terms of initiating practical, applicable, and credible solutions to situations and problems related to language teaching and learning, the reason why some specialists mean language pedagogy by Applied Linguistics (Sarosdy et al. (2006).

English language departments' main goals are to make students acquire the target language and to learn how to teach, therefore, planning for language programs has a marked influence on curricula and outcomes. According to Lenz et al. (2004, p.81) "planning a course begins with establishing the course goals". Van ek (1975) asserted that the aim of learning always is to give the learner the ability to do something that he could not do before the learning process took place. Learning objectives should be clear in the course description of each subject, as well as language learning objectives. In this vein, Krahnke, (1987) stated that "All methods of language teaching involve the use of the target language concerning the subject matter and linguistic matter" (p.3). According to Lightbown and Spada, (2006) "the language that teachers use for teaching is not selected solely to teach a specific feature of the language, but also to make sure learners have the language they need to interact in a variety of contexts" (p.110). Broadly speaking, within the context of language teaching, "the curriculum is a theoretical document that deals with the program of studies in an educational system or institution" (Siqueira and Rocha, 2019, p.48-49), While "a syllabus is simply a framework within which activities can be carried out: a teaching device to facilitate learning" (Widdowson, 1984, p. 26) (Cited in Nunan, 1988, p.6).

1.1.

Statement of the Problem:

Despite the English departments scattered all over the country and the large numbers of graduates, the outcomes of English Language Teaching ELT lack the basics and updates of teaching English language. Teachers and student teachers need to renew their knowledge of teaching English during their university studies as well as in the field of work. They lack the actual practice of what they learned as students, and as teachers; the lack of in-service development programs negatively affects their performance. Some teachers try to enhance their skills by experimenting with different techniques, applications, and strategies inside language classrooms. And on the contrary, other teachers seem to be satisfied with what they gained during their university educational semesters. In my M.A. thesis (Author, 2013, p.3) under the heading of "Statement of the Problem" I wrote :

"This research problem deals with teachers' perception and practice of communicative language teaching (CLT). Although some teachers had attended training courses..... and others had been taught CLT principles in college courses,..... Libyan ELT teachers still misperceive CLT and incorrectly practice it".

Although almost ten years had passed since this thesis was submitted, no solutions were offered at that duration except changing the curriculum several times, and English teachers and students still struggle with these types of complicated situations and problems. Poor syllabuses in higher education institutions resulted in poor teaching and learning skills. The researcher suggests that the solution can be centered around the concentration on academic years and semesters spent by students in universities, through improving the plan of the entire program that includes curriculum design concerning learning

objectives, syllabus, instruction and outcomes. Then, monitor how these modifications are translated into action.

1.2. Aims of the study

This study aims to :

- analyze the subject Introduction to Applied Linguistics E501 that had been taught in English language department at Al.Marj faculty of Arts and Sciences, in order to determine the type of syllabus and instruction.
- examine the match between objectives and intended outcomes.
- examine the existence of learning objectives and language learning objectives.
- examine the effectiveness of university subjects in enhancing students teachers' skills.

Literature Review

2.1. The Importance of Developing the Subject Introduction to Applied Linguistics in English Language Departments

The Organization for Economic Co-operation and Development [OECD] (2009) pointed out that the development of the teaching profession before teachers' initial engagement can serve several objectives :

- updating individuals' knowledge, skills, attitudes, and approaches in light of the development of new teaching techniques and objectives, new circumstances, and new educational research.
- enabling individuals to apply changes made to curricula or other aspects of teaching practice.
- enabling schools to develop and apply new strategies concerning the curriculum and other aspects of teaching practice.
- exchanging information and expertise among teachers and others, e.g. academics, industrialists.

Applied linguistics importance is reflected in its broad view of theories and practices for the investigation of language-related problems. The stress is put not only on those of education such as first, second, and foreign language learning and teaching but also on the problems of bilingualism and individual learner, multilingualism and society, discourse analysis, translation and interpreting, language policy and language planning, research methodology, language testing, stylistics, literature, rhetoric, lexicography, literacy, forensic linguistics, critical linguistics, clinical linguistics (Harris, 2001). Speech therapy, the design of writing systems, and various facets of communication research (Kablan,1981). "It should be said that this list is by no means exhaustive" (Harris, 2001, p.103). There are other interests in Applied Linguistics "artificial intelligence systems, computer simulations of linguistic processes, voice typewriters, automatic readers, sophisticated editing, and printing devices that exceed the present conjuring powers of language specialists" (Kablan,1981, p.15).

A full vision with a detailed discussion of all Applied Linguistics areas is impossible to attain here in the present study. As it is worth noting that this science has got many interpretations. Applied linguistics has been defined in many wordings, its working definition by Brumfit (1995) is "the theoretical and empirical investigation of real-world problems in which language is a central issue" (p. 27). Brumfit's definition highlights five basic issues about Applied Linguistics including, the research and investigation nature, the practical perspective, the problem-solving feature, the realistic character, and language centrality. This definition was criticized by Kostoulas (2018) in his post "What is applied linguistics?" he states that "With all due respect to Brumfit, I am not so keen on the use of the word 'problem' in his definition. In my view, linguistics can be applied to a lot of situations in the real world, not all of which are really problematic".

In Applied Linguistics areas answers are available to questions and inquiries raised by experts in different professions. The following are examples of questions asked by Davies and Elder (2004) and the answers were generated by the researcher :

- How can we improve the training of translators and interpreters?
(Translation and interpretation)
- How can we write a valid examination?
(Language Testing and Assessment)
- How can we evaluate a school bilingual program?
(First and Second Language Acquisition)
- How can we determine the literacy levels of the whole population?
(Language Policy)
- How can we helpfully discuss the language of a text?
(Stylistics)
- What advice can we offer the Ministry of Education on a proposal to introduce a new medium of instruction?
(Language Planning)
- How can we compare the acquisition of a European and an Asian language?
(Research Methodology)
 - What advice should we give a defense lawyer on the authenticity of a police transcript of an interview with a suspect?
(Language and the Law)

2.2. The Subject Introduction to Applied Linguistics in some Libyan Universities

Introduction to Applied Linguistics is a main course that is responsible for opening other courses, this subject introduces language teaching, learning, acquisition, and testing in detail concerning all conditions that affect these processes, including teachers' implementations, learners' characteristics, learning

settings, integrating technology and the variety of assessment tools. These subjects are presented within a theoretical framework, which makes them difficult to comprehend and complicated to be implemented. In some English departments (e.g. Faculty of Education / Al.Marj, Faculty of Languages / Shahat) the branches of Applied Linguistics are merged with other areas such as grammar, literature, and language skills without indicating their relation to the main course, so students wouldn't become acquainted with the various areas of Applied Linguistics. In other faculties, Applied Linguistics is introduced as an independent introductory course that is followed by other courses related to its branches. In this sense, students are exposed to language teaching in a systematic order which allows them to understand some important stages in learning, teaching, and assessing the language.

2.3. Curriculum Design

The question arises here is that how to convert the raw knowledge of Applied Linguistics and its areas into learnable university subjects? According to Anderson et al. (2001) there could be confusion between the content knowledge of an academic discipline and its content as material used to convey messages to students. Thus, content knowledge refers to the historical subject matter, and content material indicates the syllabus packaged to promote learning.

Understanding that language teaching and learning are dependent variables leads us to search for what they are based on. They depend on who and how the curriculum of this course is designed, and to what extent the learning objectives would be achieved. According to Nunan (1988) :

"Language curriculum specialists have tended to focus on only part of the total picture — some specializing in syllabus design, others in methodology, and yet others in assessment and evaluation. In recent years this rather fragmented approach has been criticized" (p.1).

He adds :

"A given language program syllabus will specify all or some of the following: grammatical structures, functions, notions, topics, themes, situations, activities, and tasks... the inclusion of each will be justified according to beliefs about the nature of language, the needs of the learner, or the nature of learning" (p.12).

In terms of the Libyan higher education context, it's the teacher's role to choose which content she\ he will deliver to students and what methods will be used. In this case, teachers are responsible for :

- preparing syllabuses content,
- determining the intended goals,
- and then evaluating their work.

Taking into account that the last two points are not common among teachers, the syllabus might not be appropriate. "In pre-service teaching experiences, teachers may not have had an opportunity to discuss course planning in teacher education programs" (Lenz et al. (2004,p.80). Planning including syllabus design (content, method, assignments, and grading criteria), addressing the overall purpose of the course and evaluation can formulate the starting point of developing any educational program.

2.4. Learning Objectives Layouts

Two types of objectives should be highlighted, learning objectives and language learning objectives. According to Sarosdy et al. (2006, p.112-113), a model plan of syllabus design should contain the following:

- The general aims and specific objectives of the course (in terms of student learning).
- The organization of the course: the number of hours per week, the total number of lessons.
- Interrelationship with other course components.

- The outline of content – the topic headings covered weekly.
- The methodology used (general indication of balance of lecture/class activity, amount of student participation).
- Teaching materials : main course books followed, supplementary readings, worksheets, and audio-visual materials.
- Student assessment: requirements students are to meet. assignments and test papers during the course, end-of-the-course test or exam.
- Course evaluation: methods used to evaluate the success of the course against the aims and objectives, e.g. by obtaining student feedback, etc.

Searching the objectives of language learning, we find previously published content entitled " Threshold Level English ", which was first formulated by Van (1975), it refers to a particular level of language proficiency that is necessary for a learner to be able to communicate effectively in a foreign language in different contexts such as work, study, and social interaction. The Van's model specifies the components of language learning objectives as follows :

- The situations in which the foreign language will be used, including the topics which will be dealt with.
- The language activities in which the learner will engage.
- The language functions that the learner will fulfill.
- What the learner will be able to do concerning each topic?
- The general notions that the learner will be able to handle.
- The specific (topic-related) notions that the learner will be able to handle.
- The language forms that the learner will be able to use.
- The degree of skill with which the learner will be able to perform. (Van (1975), p.8-9).

3. Methodology

3.1. Research Procedures

The researcher analyzed, discussed, and criticized the characterization of Introduction to Applied Linguistics (E501) course description by using qualitative content analysis, according to Dornyei (2007) "qualitative content analysis concerns a second-level, interpretive analysis of the underlying deeper meaning of the data (p.246). Two adopted models of learning objectives were utilized, the Van ek model (1975) of Language Learning Objectives and the model Plan of Syllabus Design adopted from Sarsody et al. (2006) in terms of general learning objectives. These models were applied on the course specification (E501) to determine the type of syllabus and instruction, to classify two types of objectives and to what extent they agreed with outcomes, and to prove the impact of this course on students' future skills.

3.2. Data Analysis

3.2.1. Introduction to Applied Linguistics E501 as Content-Based Syllabus

By analyzing the course description and content of the subject Introduction to Applied Linguistics, the researcher noticed that it is based on content-based syllabus. According to Rhalmi (2009), the main principles of content-based instruction are :

- Integration of language and content
- Focus on authentic materials
- Language as a tool
- Meaningful learning
- Learner-centered approach
- Language support
- Active learning
- Collaborative learning

In content-based instruction, the focus of a lesson is usually on the subject matter, such as history or mathematics, which students are learning through the

medium of the second language. In these classes, the focus may occasionally be on the language itself, but the emphasis is on using the language rather than talking about it (Lightbown and Spada, 2006). "Content teaching is not organized around language teaching but vice-versa" (Krahnke,1987, p.12). To teach some information using the language (which the learners are also learning) is the main purpose of the instruction. In such courses, the student is responsible for developing the new language behavior as there is no prior analysis by the teacher (Krahnke,1987). Students make efforts to understand the language to comprehend the information and that puts them under stress. This situation resulted from using inappropriate teaching methods such as the grammar translation method which dominates the context of this study. "When teaching techniques are adjusted, so both content and language acquisition do occur" (Krashen,1985, p.81) Cited in (Krahnke,1987, p.66). "Stated simply, instructional activities, if chosen wisely and used probably, lead to the achievement of the stated objectives" (Anderson et al. (2001, p.17).

Apart from traditional teaching methods, content-based instruction uses communicative techniques and tasks to deliver the content using the target language. In the case of these subject materials, the text of the content is to be supported with audio and video recordings and presentations to enhance the learning process. In addition, language learning is to be promoted by vocabulary and grammar instruction. (Rhalmi, 2009). To sum up, a content-based syllabus needs to be taught with content-based instruction strategies.

3.2.2. The match between Objectives, Topics and Instructional Activities

From Table (1) below, we can notice that there seems to be a match between the general aims of the course and its content topics. For instance, aim number one " *To acquaint students with the idea that Applied Linguistics is an independent course with its branches, theories and practices* " is the general aim that is embedded in all

topics. The other general aims are ordered according to groups of topics, e.g. aim number five covers more than one topic.

	To acquaint students with the idea that Applied Linguistics is an independent course with its branches, theories, and practices.
	To introduce students to ideas, concepts, sources, targets, definitions and history of Applied Linguistics.
	To introduce students to both theoretical and empirical roles of Applied Linguistics in solving language-related problems in the real world.
	To introduce Applied Linguistics as a mediator of other disciplines that are somehow related to language.
	To discuss briefly the fundamentals of some of the major branches of Applied Linguistics (teaching methods, second language acquisition, language testing and assessment, and computer-assisted-language learning) as these topics will be detailed in advanced subjects).

Table (1): The Course General Aims

Besides, table (2) below clarifies that each topic has its specific objective.

Topics	Objectives
1- Emergence and development of the term Applied Linguistics	To trace the historical foundation of the terminology
2-Source and	To answer the questions : What the sources of Applied

Topics	Objectives
target	Linguistics are ? What the target of Applied Linguistics is ?
3-Definitions	To present different definitions of Applied Linguistics
4-Applied Linguistics as problem-solving	To introduce several language related problems that Applied Linguistics can solve
5-The nature and importance of language	To define language in terms of its functions
6-Acquisition	To specify the differences between acquisition and learning
7-Language learning	To clarify the differences between learning and acquisition
8-Historical developments of language teaching methodology	To explain the principles of each language teaching method from Grammar Translation Method GTM to Communicative Language Teaching CLT
9-Recent developments in understanding language learning	To present the modern techniques and software in the field of language teaching and learning
10-English language arts	Listening, Speaking, Reading, Writing, Viewing, and Representing
11-Language testing	To let students have an idea about how to be examined and tested in terms of different ways of assessment

Table (2): Topics and their Objectives

The course coordinator tends to make a direct goal for each lecture, because as mentioned before, it's a challenge to make a learnable framework using Applied Linguistics literature, topic two in the above table is a good example of this case, as the goal of the lesson is stated in a shape of a clear question that has its answer in the lesson directly. Topic five also has a direct objective to present the lesson content by making a list. A sequence of related objectives is reflected in lessons 5, 6 and 7, this could facilitate the transmission from one topic to another without confusion. The general idea is to shift the focus from Applied Linguistics concept to its branches and areas.

5-The nature and importance of language	To define language in terms of its functions
6-Acquisition	To specify the differences between acquisition and learning
7-Language learning	To clarify the differences between learning and acquisition

Table (3): A sequence of related objectives

Although this reasonable order, the table is criticized in terms of topics 9 and 10, which explain language arts and how to develop them using innovative software, these topics occur between two areas of Applied Linguistics *Acquisition* and *Language Testing*, this could negatively affect the process of comprehension. In addition, as shown in table (4) below, topics of lectures 9 and 10 reflect a practical nature according to their objectives, whereas these practical objectives have no related instructional activities.

Recent developments in understanding language learning	To present the modern techniques and software in the field of language teaching and learning
--	--

English language and arts	Listening, Speaking, Reading, Writing, Viewing, and Representing
---------------------------	--

Table (4): Objectives of Lessons 9 and 10

As with the rest of the lectures these two lessons are introduced to students by using the method of lecturing, in this course description some practical objectives are mentioned without indicating when and how to be achieved, and that is evident in the information in table (5) below where practical classes are ignored. Only theoretical content is delivered to students through almost 12 meetings per academic semester as shown in the time plan table.

Table (5): Time Plan for the Academic Semester

Item	Time schedule	Teaching hours	Total hours
Lectures	3 hours/ week	3 x 12weeks	36 hours
Practical	/	/	/
Total	3 hours / week	3 x 12weeks	36 hours

3.2.3. The Practicality of the Course Intended Outcomes

Table (6) below presents the knowledge and skills that students should be able to gain and apply by the end of the course.

Table (6): Intended Outcomes

Knowledge and Understanding	Intellectual Skills	Professional and Practical Skills:	General and Transferable Skills+
-----------------------------	---------------------	------------------------------------	----------------------------------

A1.To specify real world problems in which language is a central issue.	B1.Students should be able to differentiate between Applied Linguistics and Linguistics Applied	C1.Students should be able to shape their personalities as future teachers of English.	D1. They should be able to work together in order to complete assignments and projects.
A2.Outline the key points, ideas and theories of second language acquisition.	B2.They should recognize that the terms Applied Linguistics and Language Teaching are almost the same.	C2.They should be able to choose the ways and methods to improve their skills.	D2.They should be able to talk about Applied Linguistics in seminars or webinars.
A3.Have some principles of the major teaching methods They will have an	B3.They should have the ability of merging theories and applications.	C3.They should be able to search Applied Linguistics topics.	D3.They will have the enough amount of vocabulary to proceed their studies.

idea about how to test and asses language.			
---	--	--	--

This knowledge is divided into two types, theoretical knowledge and practical knowledge, each type introduces two phases :

Table (7): Types of Intended Knowledge and Skills

Theoretical Knowledge	Practical Knowledge
Knowledge and understanding	Professional and practical skills
Intellectual skills	General and transferable skills

In table (6) above, notions of the first column are intended to be acquired by students theoretically, for instance, it is reflected in the verb used in each statement: *specify, outline, have, inform, differentiate, and recognize*. On the other hand, through the second column, the expected outcomes tend to be empirical in terms of the used verbs: *shape, choose, search, solve, work, talk, and proceed*. This procedure of analysis is adopted from (Anderson et al. 2001) and by which the statement of the objective is to be classified in terms of verb to determine the type of activity students will do.

Thus, the criticism of this description relies on the idea that how to acquire practical skills without doing, Race (2005) argues that "doing' is one of the five pivotal factors underpinning successful learning" (Cited in Herrmann, 2013:175). That is, some information in the intended outcomes table are not relevant to information mentioned in the objectives and topics tables. For

instance, professional and transferable skills need practical experience to be acquired or even improved, which is not mentioned in the time plan table that manages lectures with a clear ignorance of the practical part of the learning process. And vice versa, as shown in table (4) above, two topics (9-10) have practical objectives that lacked to be translated into action in order to achieve two general and transferrable skills (D2-D3).

3.2.4. Examining the Existence of Two Types of Objectives Using Two Adopted Models

A. The application of the Van ek model (1975) of Language Learning Objectives

Procedure: To rate each one of the following criteria from 1 (low) to 5 (high) according to how well it corresponds to language learning objectives in the course description.

Table (8): The components of language learning objectives. The Van's Model(1975)

Components of language learning objectives	Rating
the situations in which the foreign language will be used, including the topics which will be dealt with;	1
the language activities in which the learner will engage;	1
the language functions which the learner will fulfill;	1
what the learner will be able to do (using the language) with respect to	1

each topic;	
the general notions which the learner will be able to handle;	1
the specific (topic-related) notions which the learner will be able to handle	1
the language forms which the learner will be able to use;	1
the degree of skill with which the learner will be able to perform.	1

From the above table, in terms of language skills that the students should attain, it is clear that language learning objectives are neglected regarding the student's role, for example, *situations and topics in which the target language will be used, functions of language that students will fulfill, language forms that students will be able to use*, all of these tasks will be done by the teacher. Zero rating goes to *the degree of skill with which the learner will be able to perform*, because, often at the end of the course students will not have the skill to perform using the target language.

B. The application of the model plan of syllabus design adopted from Sarsody et al. (2006) in terms of general learning objectives

Procedure: To rate each one of the following criteria from 1 (low) to 5 (high) according to how well it corresponds to items and learning objectives in the course description.

Table (9): Components of General Learning Objectives. Sarsody et al. (2006)

Criteria	Rating
the general aims and specific	5

objectives of the5 course (in terms of student learning)	
the organization of the course a. the number of hours per week, the total number of lessons b. interrelationship with other course components	5
the outline of content – the topic headings covered weekly	5
methodology used (general indication of balance of lecture/class activity, amount of student participation)	2
teaching materials a. main course books followed b. supplementary readings c. worksheets, audio-visual materials	3
student assessment a. requirements students are to meet b. assignments and test papers during the course c. end-of-the-course test or exam	5
course evaluation: methods used to evaluate the success of the course against the aims and objectives, e.g. by obtaining student feed-back	0

High rating clarifies the match between the criteria and course description learning objectives which could be obtained, for example, *students' assessment in terms of assignments and test papers during the course, and end-of-the-course test or exam*. Low rating refers to mismatching between criteria and learning objectives, for instance the expressions *class activity / student participation* are not included in the course description. The zero rating indicates the total absence criteria of course evaluation.

3.2.5. The Impact of Applied Linguistics and its Areas as University Subjects

One important feature of Applied Linguistics is its continuity, in terms of being undergraduate subject that continues with students even after graduation. The drawbacks of the course description under study reveal its insufficiency in supplying students teachers with practical experiences that they need to acquire professional skills. The analysis of course objectives, topics and intended outcomes in terms of agreement, existence and practicality leads to the result that these notions positively or negatively have great impact on improving students' future skills.

4. Findings and Discussion

In a context where teachers are expected to design their syllabuses, it is found that practical classes are omitted from this subject, not to be related to advanced subjects, but to be ignored although they are mentioned in the time plan table. According to the teacher the templates of the course description were distributed and necessary to be submitted even though some sections were hard to be filled especially in terms of the intended practical skills. Therefore, teachers had to fill the gaps of each objective and outcome without preparing and apart from reality. This situation reflects the lack of knowledge in planning for language teaching

programs, which makes it difficult for English departments to develop their criteria and gain better outcomes.

It was also found that Applied Linguistics subjects are content-based syllabus in terms of learning the subject matter through being exposed to the target language and vice versa. That means they must be taught using content-based instruction, which is the opposite of what is happening in this setting, as lecturing using the grammar translation method is the way teachers present the content.

It was also found that there is a match between the general and specific objectives in the description and topics of subject matter. It was noticed that the learning objectives focused on solidifying the theoretical knowledge of the content material. Whereas the intended practical skills were mentioned without indicating the associated instructional activities and practices which could lead to their existence. In terms of language skills that the students should attain, considering that language learning objectives are related to practical skills, it is evident that these skills are neglected regarding the type of instruction used, as at the end of the course students will not have the skill to perform using the target language.

It is concluded that the syllabus of the subject Introduction to Applied Linguistics E501 and its branches is insufficient in enhancing students' teaching skills. Therefore, it is reasonable to improve it as a university subject in the shape of pre-service teaching program to enhance students teachers' production strategies and improve their skills during active learning stages.

There seems to be a problem of mediation, as the different bodies related to this subject do not communicate to solve the problem of teaching English in Libyan higher education settings. University administrations, researchers, teaching staff members, and students, are parts of the solution, therefore there must be communication because as long as researchers, teachers, students, and moderators

talk only to their own communities breakdowns in interaction are decreased (Cook and Seidlhofer, 1995).

5. Conclusion

The subject Introduction to Applied Linguistics with its branches are fundamental in terms of making ways for teaching and learning to take place. According to Davies and Elder (2004), Language teaching is a complex undertaking. It is an enterprise that is shaped by views of the nature of language, of teaching and learning a language specifically, and of teaching and learning in general. It's concluded that language teaching is considered to be a continuous profession that needs to be improved and updated occasionally, in undergraduate settings (pre-service environments) as well as after graduation (in-service environments). Syllabus design (including content and method) plays a significant role in developing English language programs. Course goals describe ends, intended performances, results, and changes. Instructional activities, tasks, and techniques are the instruments by which objectives are achieved (Anderson et al. (2001).

6. Recommendations

1. It's recommended to motivate teachers to improve their syllabus design skills, and training them to fill course description templates, to specify the content goals, and to match these goals to topics, instructional activities, and intended outcomes.
2. To achieve both types of objectives (learning objectives and language learning objectives), it is recommended to implement the appropriate teaching method which is in line with the type of curriculum. In this case, content-based instruction is highly recommended.
3. In areas such as teaching methodology, testing and assessment, language acquisition, and educational technology, practical sessions are important to achieve the aim of preparing future teachers with fully equipped personalities.

Therefore, teaching workshops (from the traditional to the most innovative), seminars, research projects, and presentations must be basic parts of Applied Linguistics courses in Libyan universities.

References

- Anderson, L. Krathwohl, D. Airasian, P. Cruikshank, K. Mayer, R. Pintrich, P. Raths, J. & Wittrock, M. (2001). *A Taxonomy for Learning, Teaching, and Assessing. A Revision of Bloom's Taxonomy of Educational Objectives*. Longman.
- Brumfit, C. (1995). Teacher professionalism and research. In Cook, G. & Seidlhofer, B. (Eds), (1995) *Principles and Practice in Applied Linguistics*, (pp.27-42). Oxford University Press,
- Cook, G. & Seidlhofer, B. (1995). *Principle and Practice in Applied Linguistics: Studies in Honour of Widdowson*. Oxford University Press..
- Davis, A. & Elder, C. (2004). *The Handbook of Applied Linguistics*. Blackwell Publishing.
- Dornyei, Z. (2007). *Research Methods in Applied Linguistics*. Oxford University Press.
- Hariss, T. (2001). Linguistics in Applied Linguistics: A Historical Overview. *Journal of English Studies*, Vol, 3. No,2, pp, 99-114.
- Herrmann, J. (2013). The Impact of Cooperative Learning on Student Engagement: Results from an Intervention. *Active Learning in Higher Education*. Vol, 14, pp,175-187.
- Kablan, R. (1981). *On the Scope of Applied Linguistics*. Newburg house publishers. Inc.
- Kostoulas, A. (2018). *What is Applied Linguistics?*
<http://www.achilleaskostoulas.com>
- Krahnke, K. (1987). *Approaches to Syllabus Design for Foreign Language Teaching*. Center for Applied Linguistics.

- Krashen, S. (1985). *The input hypothesis: Issues and implications*. Longman.
- Lenz, B. Deshler, D. & Kissam, B. (2004). *Teaching Content to All*. Pearson Education.
- Lightbown, P. & Spada, N. (2006). *How Languages are Learned*. (3 Ed). Oxford University Press.
- Nunan, D. (1988). *Syllabus Design*. Oxford University Press.
- OECD. (2009). *Creating Effective Teaching and Learning Environment: First results from TALIS*. OECD Publications.
- Race, Ph. (2005). *Making Learning Happen*. SAGE Publications. London.
- Rhalmi, M . (2009). *Content-Based Instruction: Enhancing Language Learning*. My English Pages. www.myenglishpages.com
- Sarosdy, J. Beneze, T. Poor, Z & Vadnay, M. (2006). *Applied Linguistics for BA Students in English*. Bolcseszb Consortium Publications.
- Siqueira, S. & Rocha, M. (2019). Curriculum and Materials Development in Language Teacher Education in Contemporary Times: Are we ready for change?. In Ekşi, G, Guerra, L, Werbińska, D. Bayyurt, Y. (Eds). *Research Trends in English Language Teacher Education and English Language Teaching*. (2019). (pp. 37- 57). University of Evora.
- Author, N. (2013). *English Teachers' Perception and Practice of Communicative Language Teaching at Al.Marj Secondary Schools*. Unpublished M.A. Thesis Submitted to English Department. Benghazi University.
- Van, E. (1975). *Threshold level English : in a European unit/credit system for modern language learning by adults*. Pergamon Press.
- Widdowson, H. (1984). *Explorations in Applied Linguistics*. Oxford University Press.

IPhone Digital Forensic Challenges and Issues

تحديات وقضايا الطب الشرعي في الهاتف الرقمي

Dr. Mokhtar Mohammed Mohammed Ali - University of Elimam Elmahdi- faculty of Computer Science and Information Technology - Sudan – White Nile State –Kosti

Email:mokhtar201328@gmail.com

Dr. Mahala Elzain Beraima Ahmed - University of White Nile - faculty of Computer Science and Information Technology - Sudan – White Nile State –Kosti

Email:mahalaelzain2020wnu@gmail.com

ABSTRACT

Nowadays mobile phone and other handheld devices are in all the places. iPhone is having high security when compared to other Smartphone like MI, Samsung, Nokia, etc. With the continued to increase iPhone, currently come with a wide range of software application, new technologies, and OS (Operating System). Therefore it becomes complicated for a forensic researcher to inspect the (evidence) proof from an iPhone proper intelligence of forensic equipment and their features are mobile forensic analysis and different types of equipment for mobile forensics and the final section of the manuscript presents the exploratory results of the tool IMYFONE D-BACK.

Keywords: mobile phone, iPhone, IMYFONE D-BACK, forensic.

الملخص:

في الوقت الحاضر، أصبح الهاتف المحمول والأجهزة المحمولة الأخرى في كل مكان. يتمتع iPhone بأمان عالٍ مقارنةً بالهواتف الذكية الأخرى مثل MI و Samsung و Nokia وما إلى ذلك. ومع استمرار زيادة iPhone، يأتي حالياً مع مجموعة واسعة من تطبيقات البرامج والتقنيات الجديدة ونظام التشغيل (نظام التشغيل). لذلك يصبح الأمر معقداً بالنسبة للباحث الشرعي أن يقوم بفحص الأدلة (الأدلة) من جهاز iPhone الذكاء المناسب لمعدات الطب الشرعي وميزاتها هي تحليل الطب الشرعي المحمول وأنواع مختلفة من معدات الطب الشرعي المحمول ويعرض القسم الأخير من

المخطوطة النتائج الاستكشافية ل أداة IMYFONE D-BACK.

IMYFONE D-BAC

الكلمات المفتاحية: الهاتف المحمول، الآيفون، الطب الشرعي.

1. INTRODUCTION

“Digital forensics is a division of forensic science focused on recovery and analysis of artifacts found on digital devices. Any equipment that storing data (E.g. Macintosh, Macbook, iPhone, Flash drives, Micro SD cards or External Hard-Disks) are within the ambit of digital forensics” [15].

Today’s Smartphones such as the Apple iPhones [17] and a bulk variety of smartphone [18] are compact forms of powerful computers with high work involving nearly a Multi-core CPUs, GB of storage, and improved communication facilities such as software assisted GPS. As new features and applications are integrated into Smartphone amount of data stored on the devices is always growing. Smart application business has twisted the Smartphone into handy data carriers, and they keep follow of almost all moves of the user. Prevalence of Smartphone in everyday lives had led to their popularity in daily crimes. Thus the digital information acquired from smart devices has become one of the prime sources of proof for investigating the problems pertained to data acquisition.

In this context, the term “Smart Devices” refers to a broad spectrum of devices which have communication facilities and storage facility for digital data. There are international guidelines for the acquisition and examination of smart devices that are primarily targeted towards the preservation and non-contamination of digital data in smart devices.

The best instance of Smartphone used as a terror missile to finish the crime is the Mumbai terrorist ambush in 2008 [20]. The terrorist has taken the full benefit of being a part of the Smartphone generation. They connected electronically through smartphones to each other and with their controllers at every stage of their operation. This attack is not the first time that Smartphone are used, but the way they were performed is important and revealing. In such

cases, a large amount of data can be extracted and used as forensic proof from these devices. The mobile devices evolved at an explosive rate. There are many hardware and software components used in this industry. The data quantities which can be stored on modern mobile devices are enormous. Application specific data may be stored on mobile devices. The investigation method and tool used to communicate with the mobile device can often invalidate the proof in court because it can affect the integrity and repeatability of the proof [5]. Forensically sound is the terms used to approve the use of specific forensic technology or methodology in the digital forensic circles.

The fundamental concept of sound forensic examination of digital proof is that the original proof is not altered. With mobile devices, this is extremely difficult. Most forensics required a duplex channel of communication with the mobile device and therefore the device cannot be protected against writing during forensic acquisition. Other methods of acquiring proof may include replacing the bootloader software on the mobile device or replacing a chip to facilitate access to proof.

When changing the device, the process and the resulting change need to be validated and documented. As with any collection of proof, failure to follow the proper procedure during the examination may lead to the loss or damage to proof or make it as inadmissible in court. All these challenges makes difficult to use digital forensic analysis tools on mobile devices. It should be noted that ISO 27037 specification “Detection, collection and/or acquisition and preservation guidelines for digital evidence” (2012) defines methods and techniques accepted in many jurisdictions in digital forensics [12].

2. SMARTDEVICES & PROOF PRESERVATION

The collection of proof at the crime site shall include the preservation of the state of the devices:

1. A switched ON device must be kept on
2. It must be protected from external WiFi signals while maintaining the state of the WiFi status of the phone.
3. It should be isolated from telecommunication signals (like 4G, LTE, etc.)
4. GPS signals must be isolated.
5. IT battery should be charged (preferably at the same level of the battery)

If a mobile device on a crime site is not isolated from all such factors listed above, it will become very easy for the attacker to gain access to the device and lock or destroy all proof in it. This is usually done the facilities provided by the iPhone, such as iOS from Apple. Figure 1 Shows how easy it is for the owner (the criminal in this case) to remotely locate, access, lock, and delete a typical iPhone.

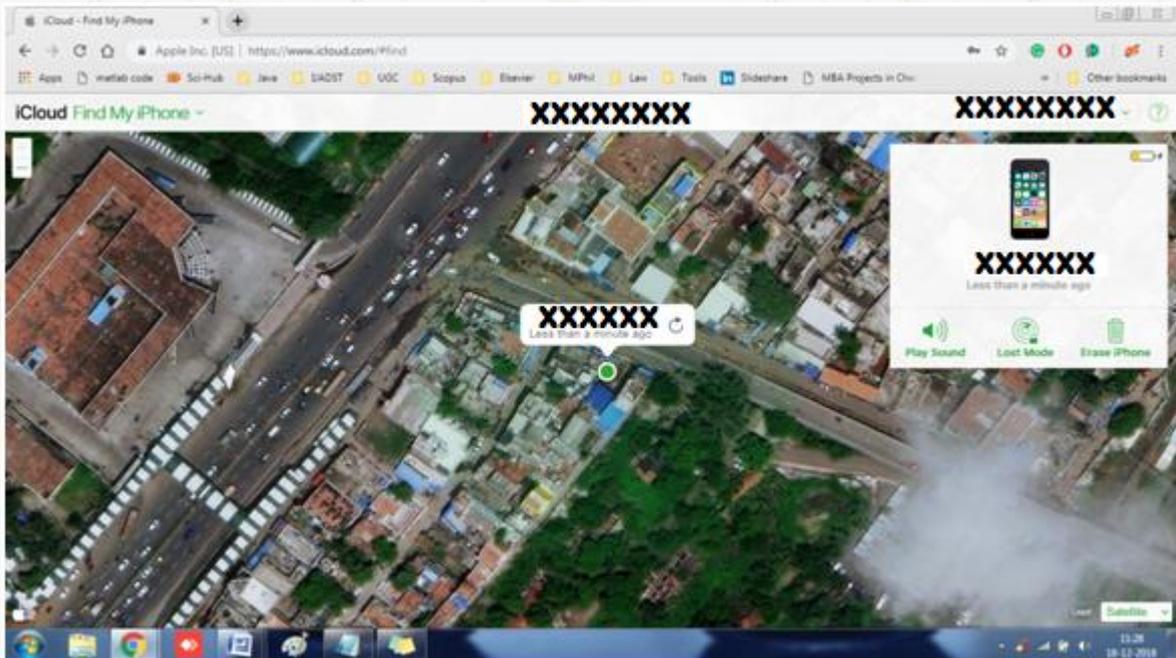


Fig 1: Remotely Track and erase iPhone with iCloud

3. WORKFLOW

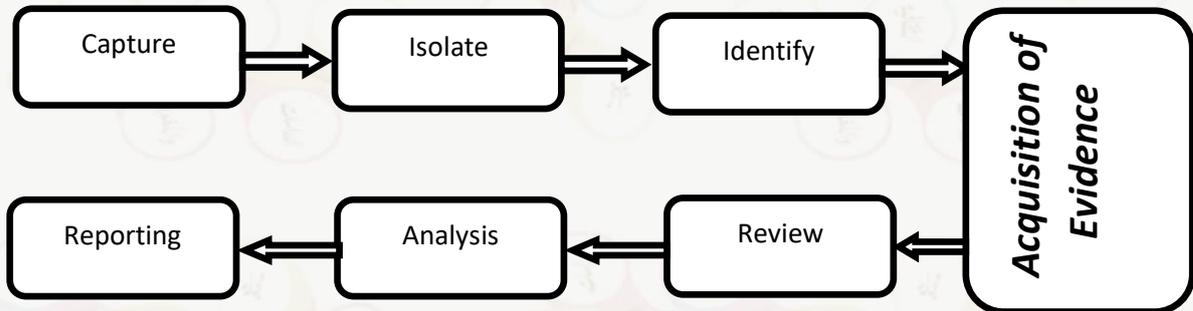


Fig 2: Workflow of mobile forensics

The digital forensic of iPhone process (Based on the Figure 2) can be divided into several categories,

3.1. CAPTURE, ISOLATE AND IDENTIFY

At the time of the seizure, it is important to document with photos the various mobile state information –including not to the current (on or off) and the locking status, presence or absence of Memory Cards, etc. All hardware and software accessories including cables, chargers, subscriber identity module (SIM) card data, personal identification number (PIN) hints or passwords are collected as well. As already shown, it is essential to protect the device from communicating with external agencies-including phone calls (but not limited to), short message service (SMS), Wireless Fidelity (WiFi), Bluetooth and Global Positioning System (GPS).

During the collection of proof, a phone call or SMS or an email may overwrite the previous ones. An iPhone which can be accessed via the internet can easily be remotely wiped. Thus, the following equipment, such as a faraday

bag and/or radio jammer, must be used to prevent all electromagnetic communication with the device. Phone features such as “Airplane mode” can also be used many times to prevent radio communications to foreign countries. Functions such as “stay awake” can also be used to keep the iPhone unlocked (display turned on).

3.2. ACQUISITION OF PROOF

Data extraction from SIM requires hardware tools such as PC/SC Reader that acquires GSM 11.11 data on the device’s internal memory (E.g. a Memory Chip) can be copied bit by bit from a whole physical store. This allows the deleted files and any remaining data to be examined, which would otherwise not be accounted for. The other copying method for logical entities such as files and directories may prove to be a simpler method during the examination. There are various software tools for extracting data from the memory.

Specialized forensic software products can be automated or generic file viewers, like hex editors, are available. Some specialist tool includes access the data for memory image analysis. Since one tool cannot extract all the information, it is often recommended that two or more tools be used. When the acquisition becomes more forensically sound, tools become more costly, analyses are longer and tools require more training.

3.3. REVIEW, ANALYSIS AND REPORTING

1. **Logical acquisition:** A bitwise copy of logical storage objects such as directories and logical storage files (E.g. A partition of the file system).
2. **Manual acquisition:** This method uses the mobile User Interface (UI) to scan the contents of the iPhone’s memory.
3. **Metadata acquisition of the system file:** When user data is organized in a database, it is called META data. Such META databases may provide valuable

information on the use of the device; E.g. Call is a simple SQLite database file in iOS.

4. **Physical acquisition:** It is the binary dump of the entire file system. This may contain information on existing or deleted system file objects.
5. **Acquisition of brute:** it is used to extract passwords or PINs. Brute force tools are connected data as a password or PIN until successful. It takes time but often depends on the complexity of the original password or PIN.

On iPhone's, the acquisition of proof is greatly simplified once the IMYFONE D-(IMDB) with iTunes is enabled. This option is probably the best tool for the forensic surveyor when extracting data from an iOS, without affecting or altering the telephone status. You can find this option in settings development of nearly all iPhones.

iOS software development kit (ISDK) includes [19] this powerful IMDB tool to communicate via USB and WiFi with the IMDB-enabled iPhone. Most of the above information can be accessed from the desktop of the investigator using IMDB. Please note that 99 percent of IMDB's Features can be used to access the iPhone without root, making IMDB one of the best tools for collecting and analyzing iPhone forensic as shown in Figure 3a, 3b.

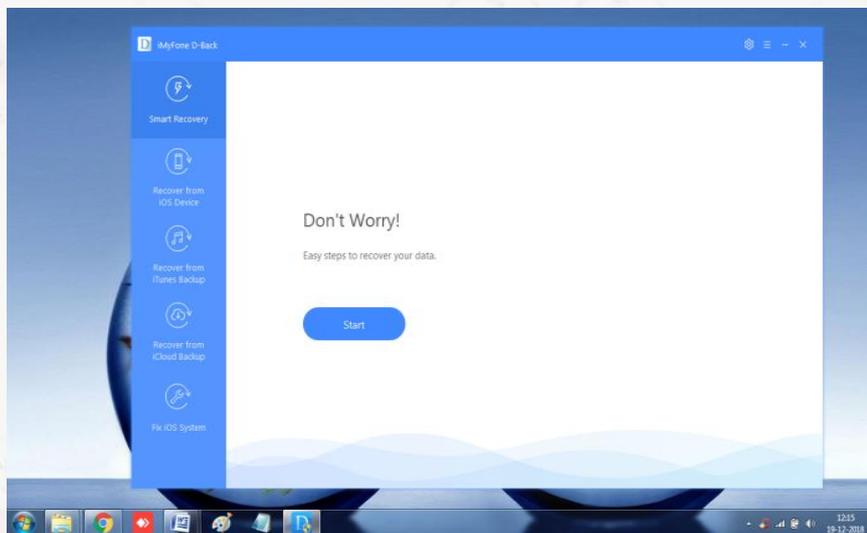


Fig 3a: User Interface of IMDB

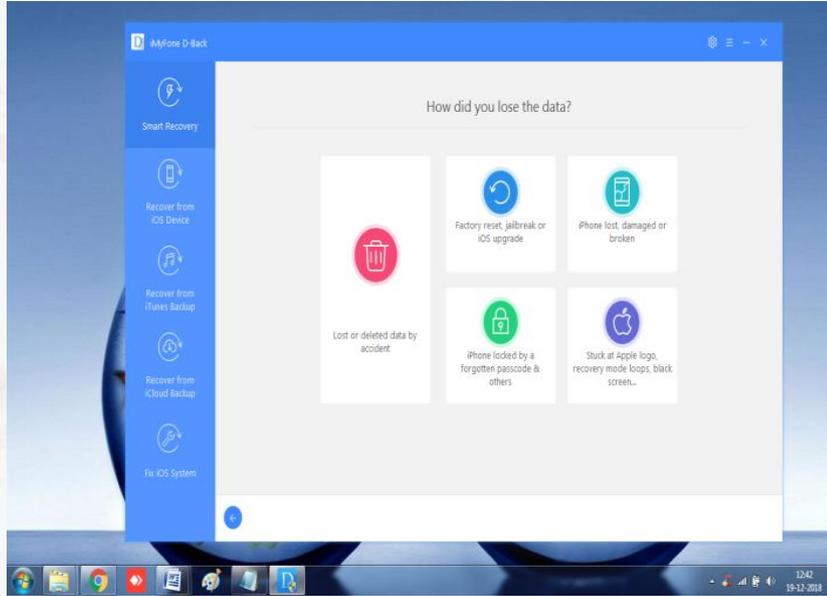


Fig 3b: Recover options in IMDB

FEATURES IN IMDB

IMDB is the best tool for forensic analysis.

1. Recover from iOS device

This mode can be used to recover the recently deleted data from the iOS devices Via USB device as shown in Figure 4.

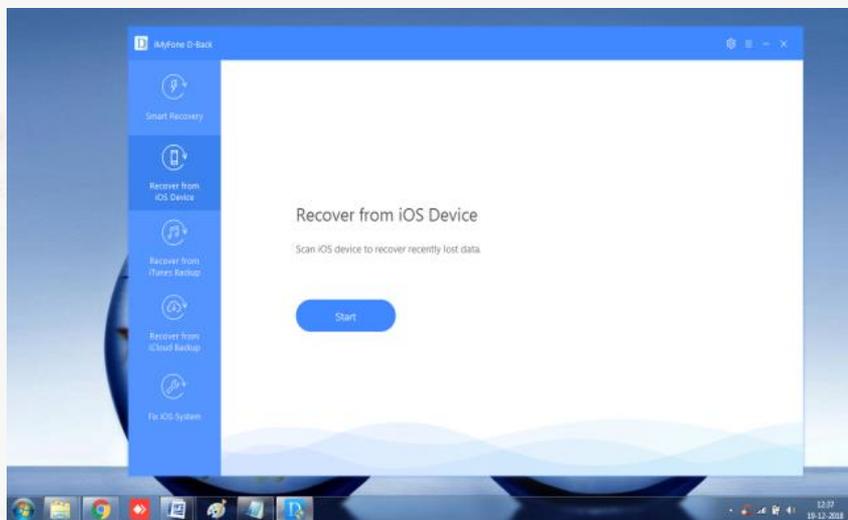


Fig 4: Recover data from iOS device in IMDB

2. Recover from iTunes backup

This mode can be used to recover the recently deleted data from the iTunes via cloud with high probability as shown in Figure 5.

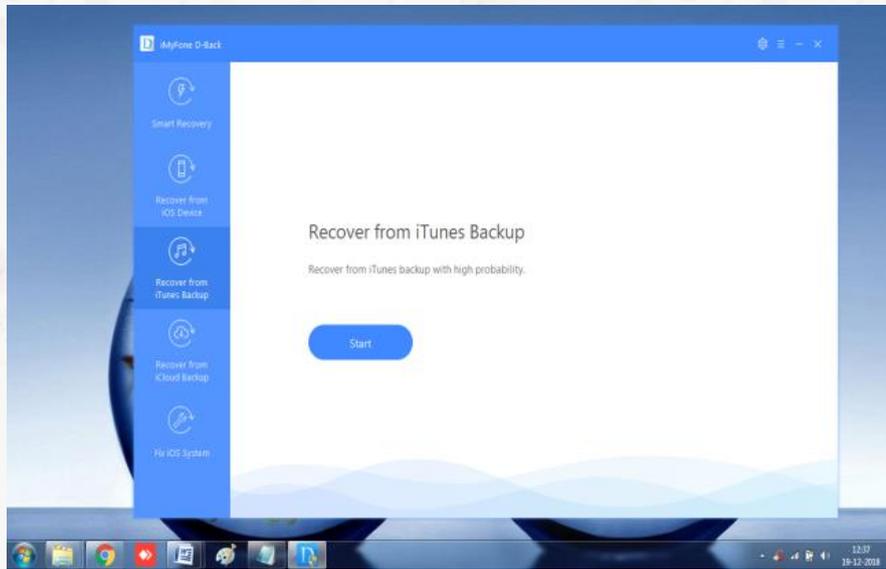


Fig 5: Recover data from iTunes in IMDB

3. Recover from iCloud backup

This mode can be used to recover the recently deleted data from the iCloud with high probability as shown in Figure 6.

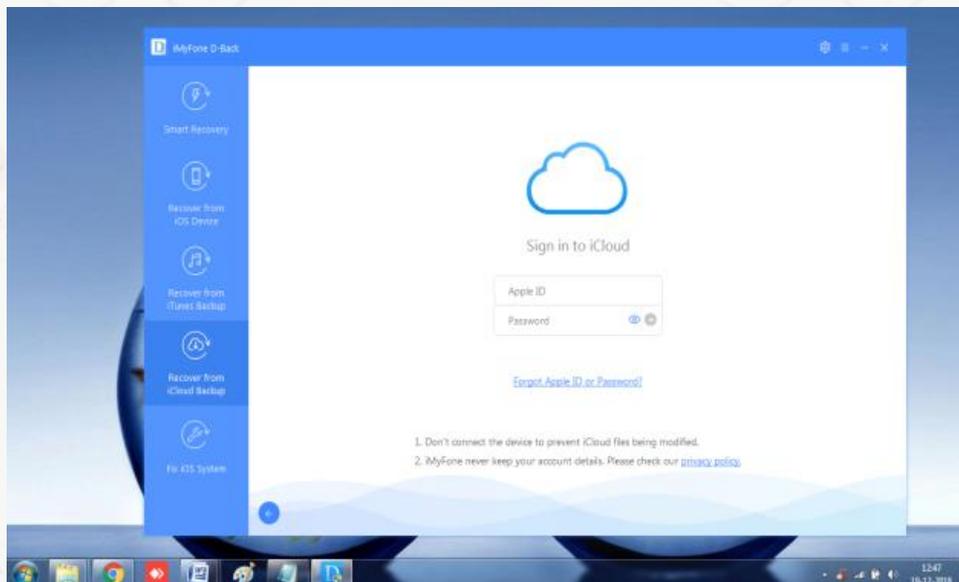


Fig 6: Recover data from iCloud in IMDB

6. FIX iOS SYSTEM

Fix various iOS issues & get your devices to normal with the help of IMDB as shown in Figure 7.

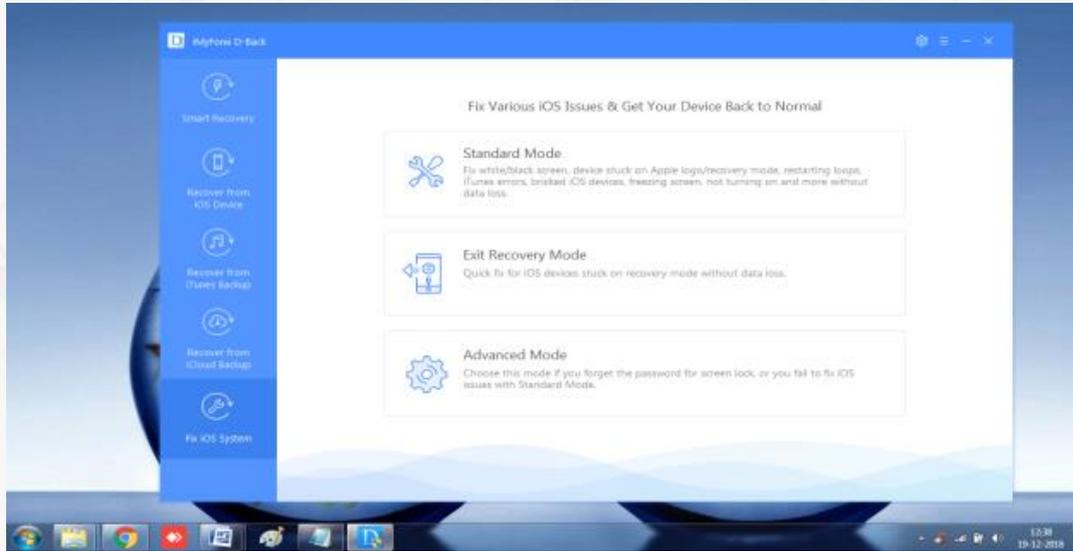


Fig 7: Fix iOS device issues in IMDB

ii. Standard mode

Fix the white/black screen, device stuck on apple logo/recovery mode, restarting loops, iTunes errors, bricked iOS devices, freezing screen, not turning on and more without data loss.

ii. Exit recovery mode

Quick fix iOS mode if you forgot the password for screen lock, or you fail to fix iOS issues with standard mode.

iii. Advanced mode

Choose this mode if you forgot the password for screen lock, or you fail to fix iOS issues with standard mode.

RESULT AND ANALYSIS

Once proof is acquired (as described above in many forms), the following are the most common logical entities which are the potential proof source in a mobile device. i.e. These are the possible logical entities to be investigated in a

mobile device as shown in Figure 7a, Figure 7b, Figure 7c, Figure 7d, figure 7e, Figure 7f, Figure 7g, Figure 7h, Figure 7i, Figure 7j, Figure 7k, Figure 7l, Figure 7m, Figure 7n.

Message	Call history	Contact	Whatsapp
Wechat, qq viber, kik	Skype	Line	Photo
Video	App photo	App video	Note
Voice memo	Safari bookmark	Calendar	& Safari history
		reminder	

Two types of forensic investigations are possible with the proof data.

1. A crime has already taken place and the identity of the criminal (E.g. hacking incident) is unknown.
2. The crime and the criminal are both known (E.g. child pornography investigation).

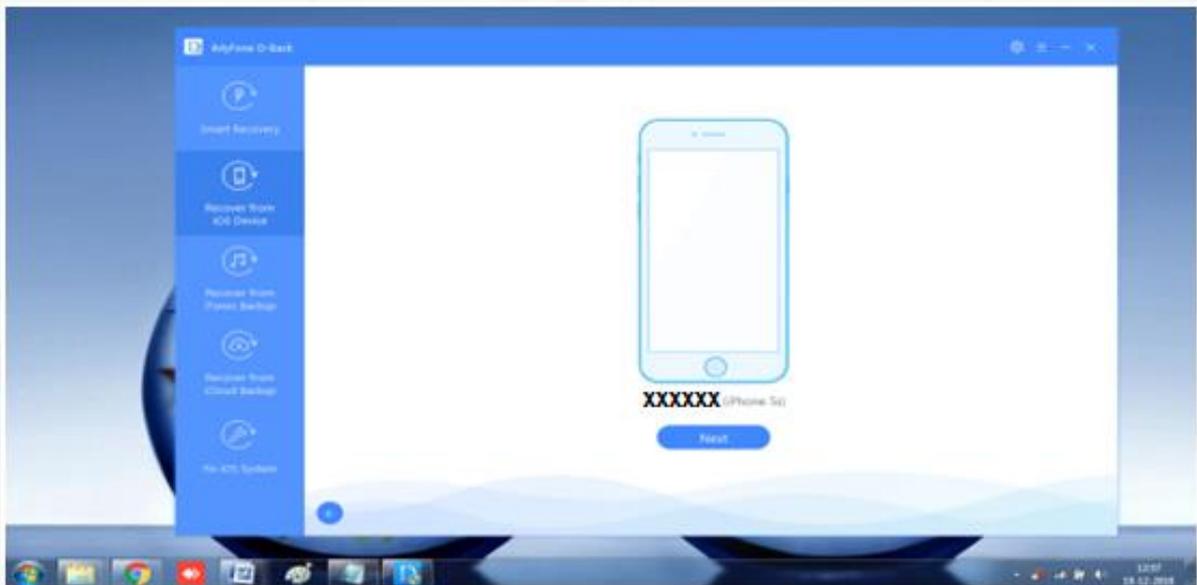


Fig 7a: Connecting iPhone in IMDB

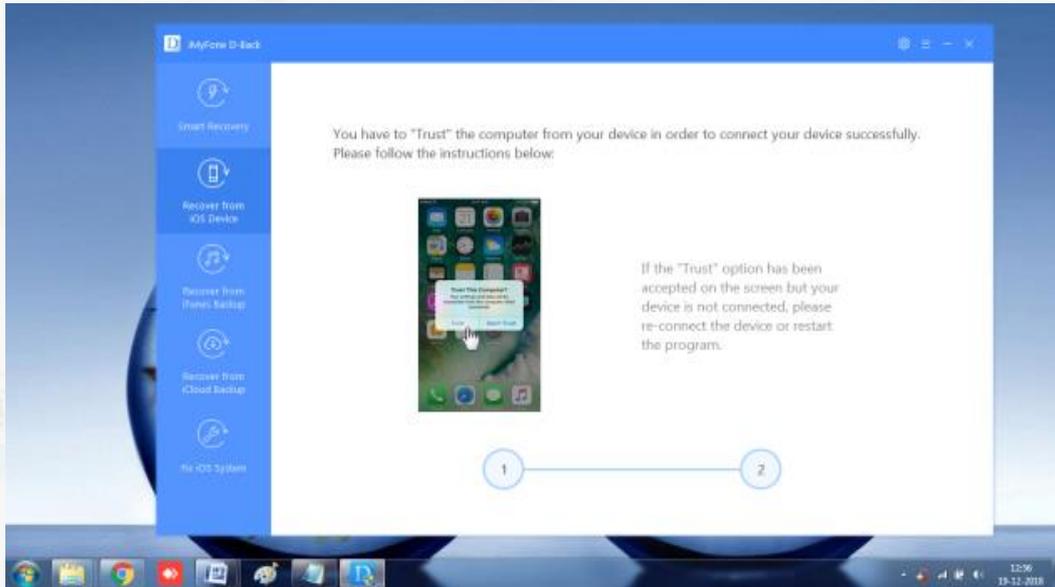


Fig 7b: Establishing Connection between iPhone & IMDB

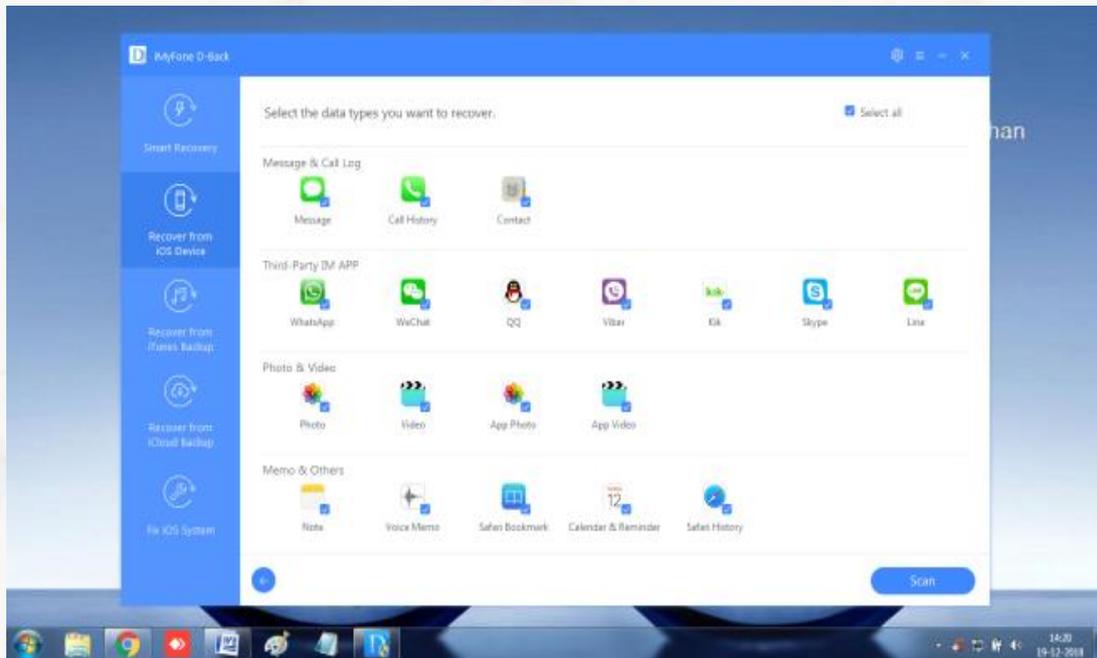


Fig 7c: Recoverable data's from iPhone 5s

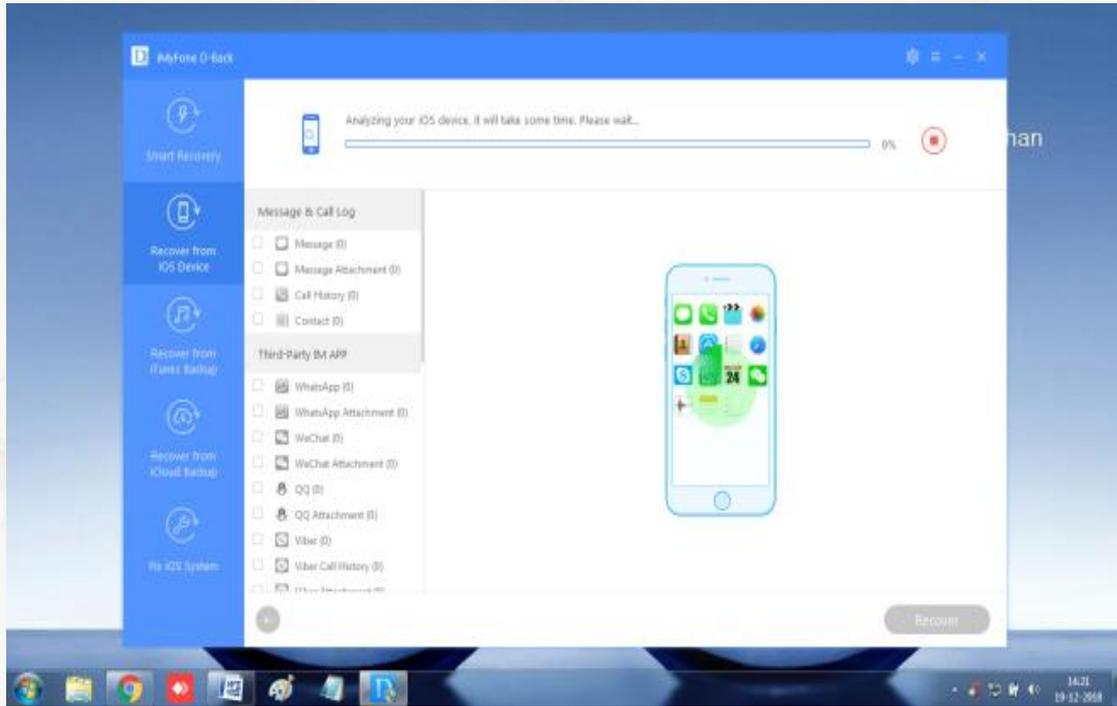


Fig 7d: Data recovering from iPhone

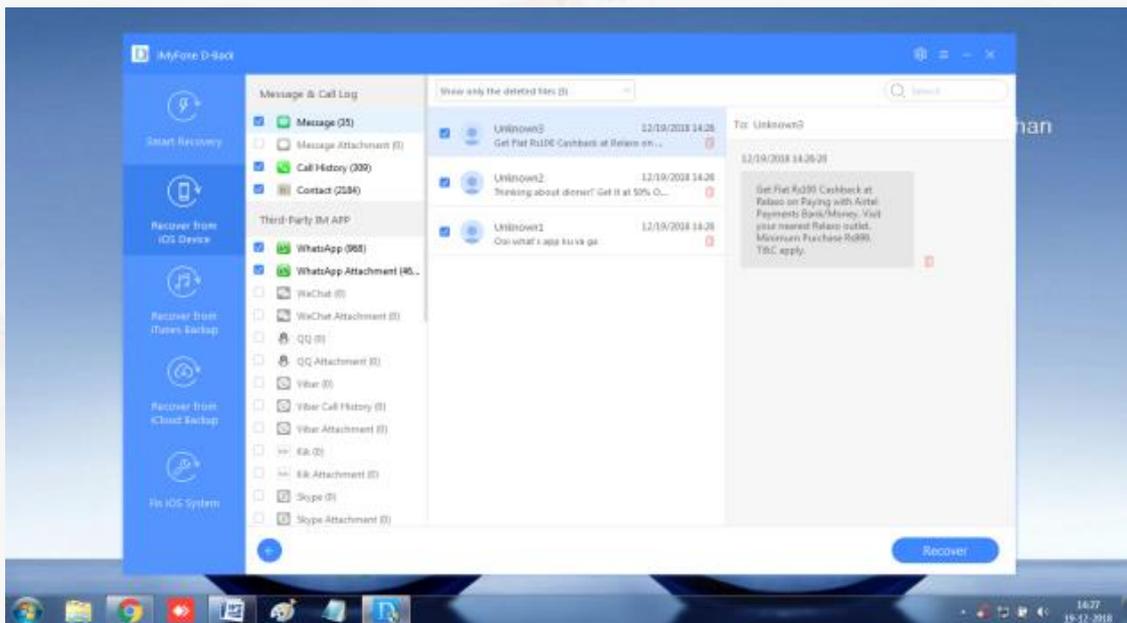


Fig 7e: Message history

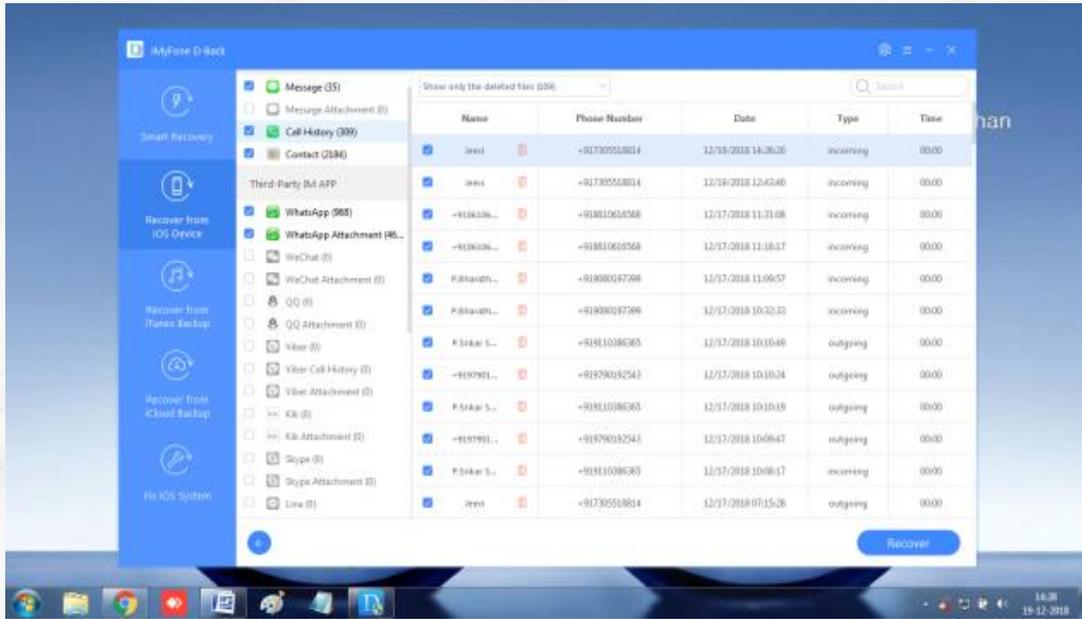


Fig 7f: Call history

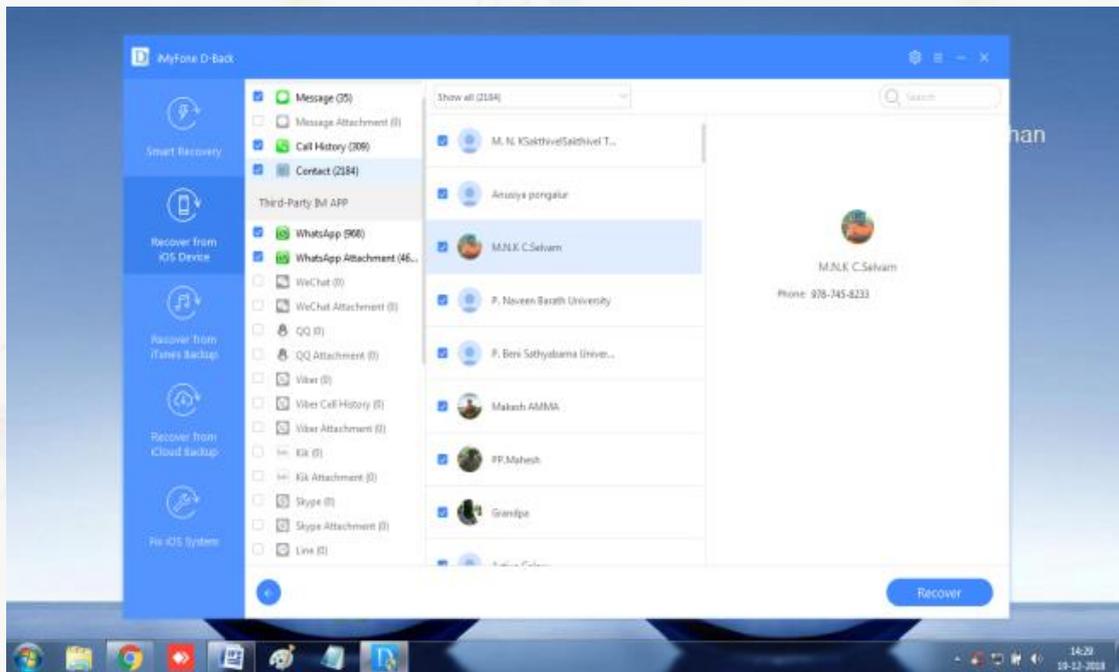


Fig 7g: Available Contacts

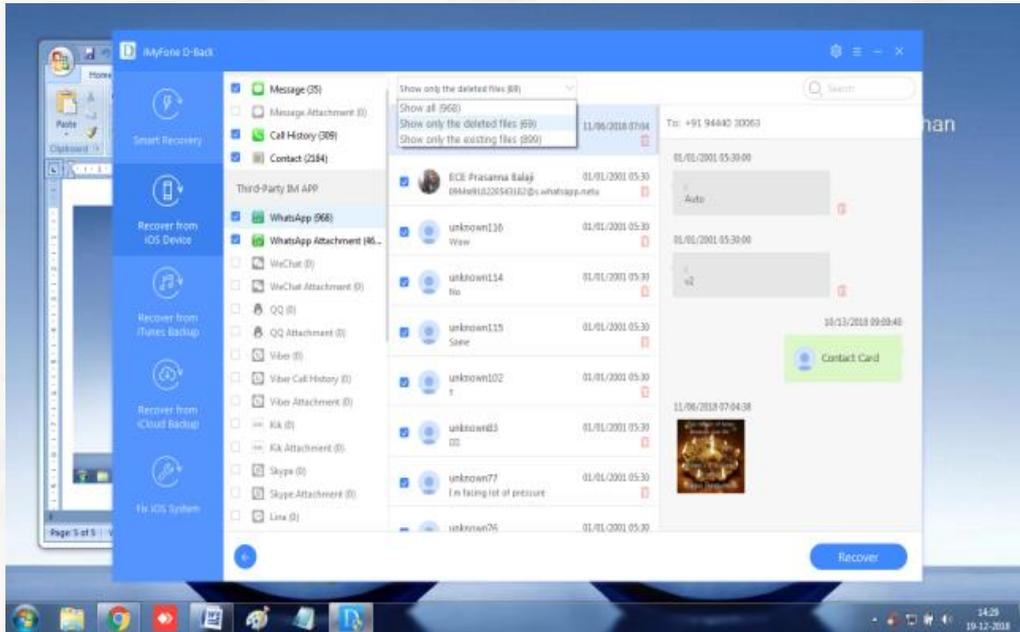


Fig 7h: Whatsapp Message

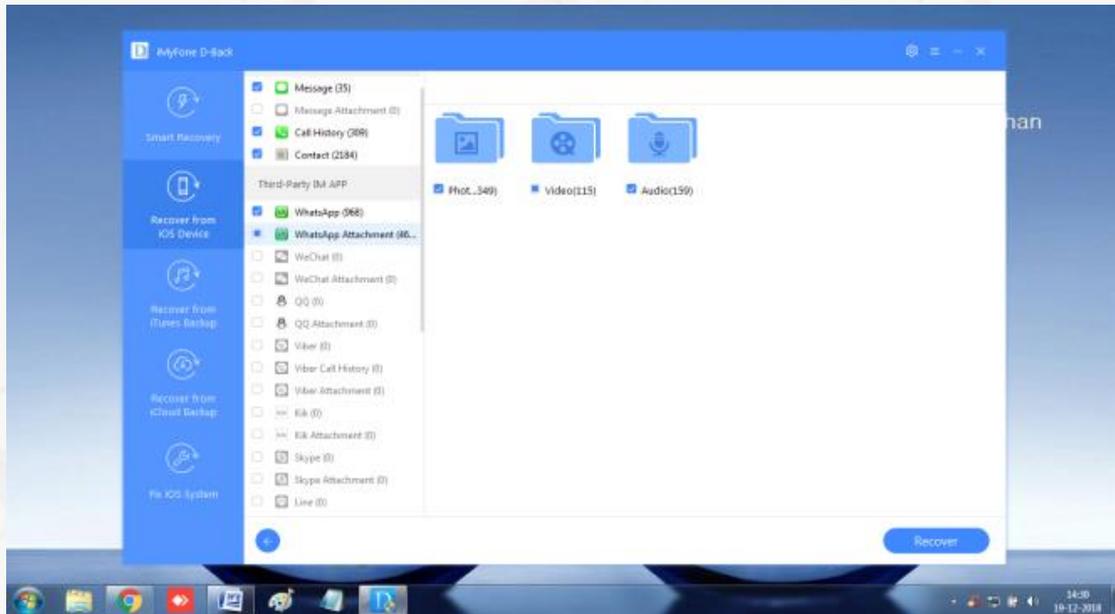


Fig 7i: Whatsapp Attachments



Fig 7j: Available & Deleted Whatsapp attachment Photos

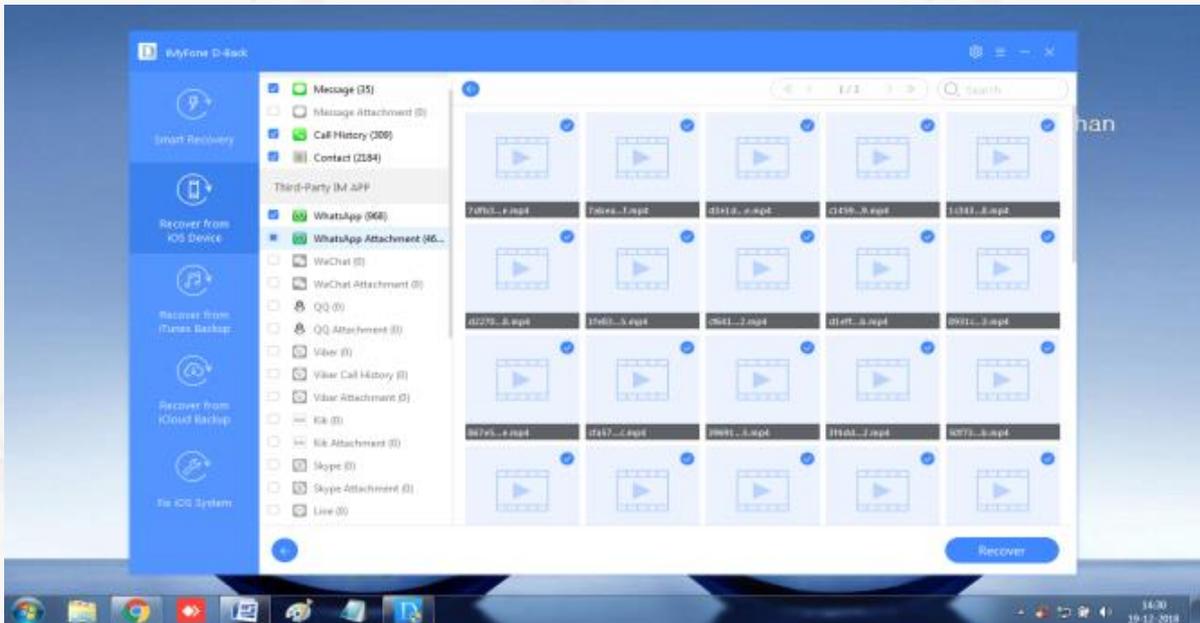


Fig 7k: Available & Deleted Whatsapp attachment Videos

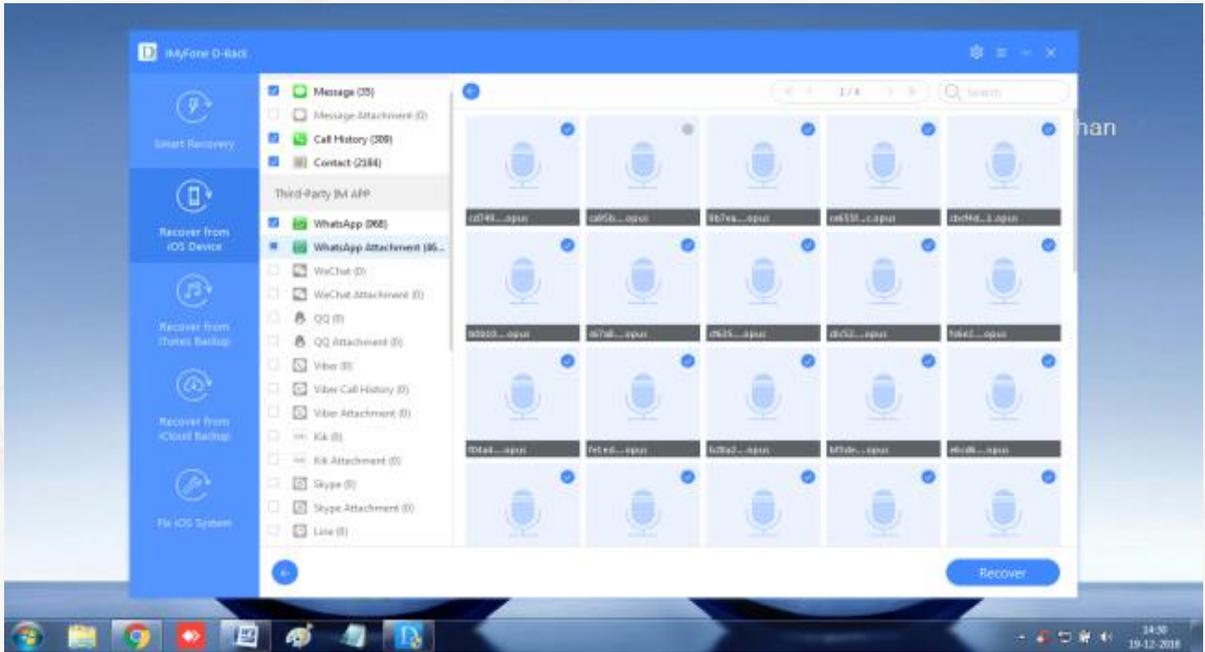


Fig 7l: Available & Deleted Whatsapp attachment Audios

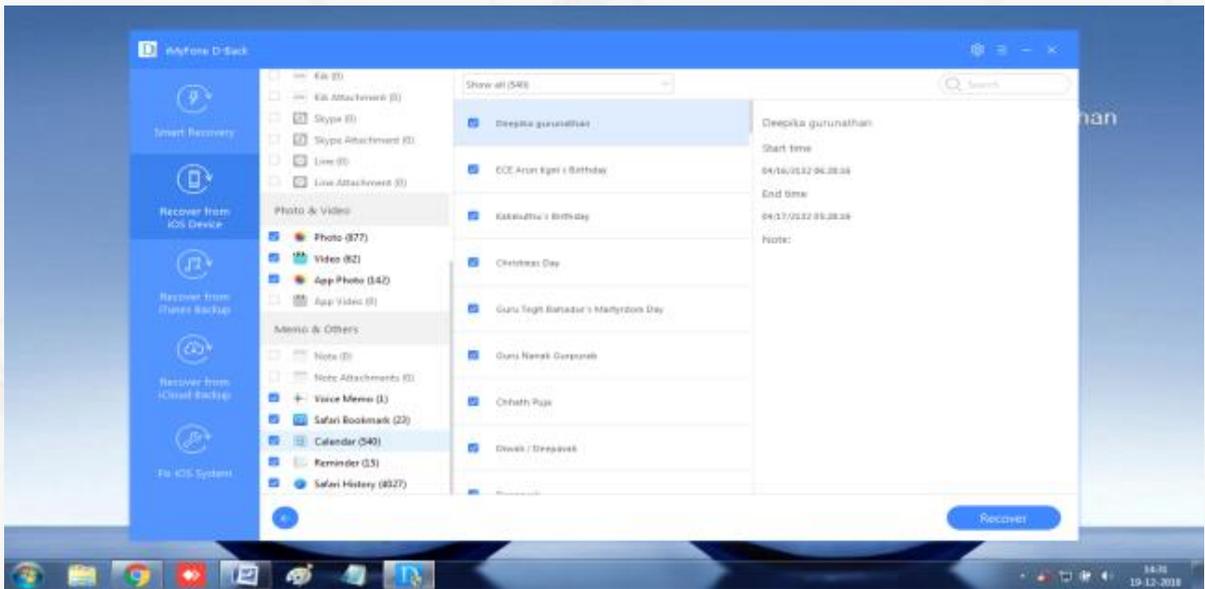


Fig 7m: Available and deleted Calendar details

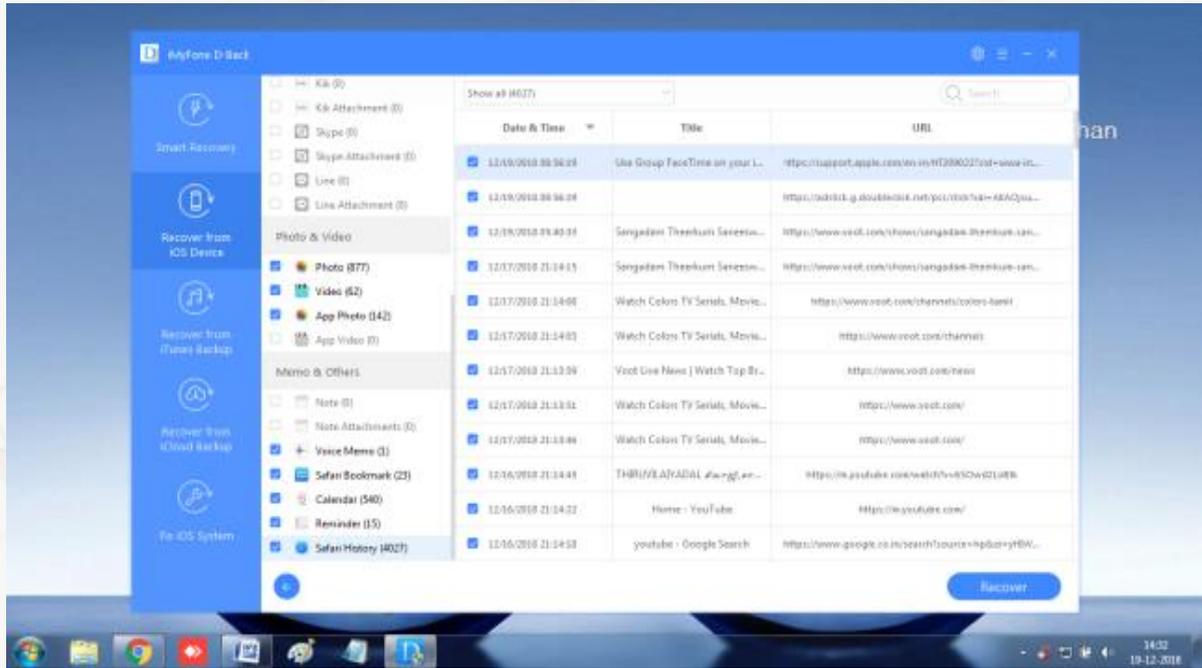


Fig 7n: Safari history

Prepared against the background of the incident and the proof collected [6], the forensic expert can pursue the following goals:

1. Who all are involved: collect information of the people involved in crime.
2. What is the nature of the events?
3. When did the crime-related events occur?
4. Why did the delinquent commit the offense?
5. What are the tools and methods used by offenders to carry out the offense?

CONCLUSION

Mobile forensic is the digital forensic branch that acquires and analyses mobile devices to detect and retrieve digital proof. We have studied forensic literatures using iPhone and identified the methods and studies carried out in this field, regardless of the types of the system used and the few tools already in common use. In this paper, we identified the mobile forensic workflow and the methods for acquiring and documenting proof for future use.

REFERENCES

- [1] Botta A, De Donato W, Persico V, Pescapé A. On the integration of cloud computing and internet of things. In Future internet of things and cloud (FiCloud), 2014 international conference on 2014 Aug 27 (pp. 23-30). IEEE.
- [2] Adams RB, Hobbs V, Mann G. The Advanced Data Acquisition Model (ADAM) & A Process Model for Digital Forensic Practice. Journal of Digital Forensics. 2013 Jan 1;8(4):25-48.
- [3] MacDermott A, Baker T, Shi Q. IoT Forensics: Challenges For The IoA Era. In New Technologies, Mobility and Security (NTMS), 2018 9th IFIP International Conference on 2018 Feb 26 (pp. 1-5). IEEE.
- [4] Grajeda C, Breitingner F, Baggili I. Availability of datasets for digital forensics—and what is missing. Digital Investigation. 2017 Aug 1; 22:S94-105.
- [5] Pieterse H, Olivier M. Smartphones as distributed witnesses for digital forensics. In IFIP International Conference on Digital Forensics 2014 Jan 8 (pp. 237-251). Springer, Berlin, Heidelberg.
- [6] Bennett D. The challenges facing computer forensics investigators in obtaining information from mobile devices for use in criminal investigations. Information Security Journal: A Global Perspective. 2012 Jan 1;21(3):159-68.
- [7] Chung H, Park J, Lee S. Digital forensic approaches for Amazon Alexa ecosystem. Digital Investigation. 2017 Aug 1; 22:S15-25.
- [8] MRKAIĆ I. Android forensic using some open source tools. In The Eighth International Conference on Business Information Security (BISEC-2016), Belgrade, Serbia,, 15th October 2016.
- [9] Conlan K, Baggili I, Breitingner F. Anti-forensics: Furthering digital forensic science through a new extended, granular taxonomy. Digital investigation. 2016 Aug 7;18:S66-75.

- [10] Gül M, Kugu E. A survey on anti-forensics techniques. Inartificial Intelligence and Data Processing Symposium (IDAP), 2017 International 2017 Sep 16 (pp. 1-6). IEEE.
- [11] Taylor M, Haggerty J, Gresty D, Lamb D. Forensic investigation of cloud computing systems. Network Security. 2011 Mar 1;2011(3):4-10.
- [12] Retrieved from: Csrc.nist.gov. (2018). SP 800-101 Revision 1, Guidelines on Mobile Device Forensics | CSRC. [online] Available at: <https://csrc.nist.gov/News/2014/SP-800-101-Revision-1,-Guidelines-on-Mobile-Device> [Accessed 26 Dec. 2018].
- [13] Roy NR, Khanna AK, Aneja L. Android phone forensic: tools and techniques. InComputing, Communication and Automation (ICCCA), 2016 International Conference on 2016 Apr 29 (pp. 605-610). IEEE.
- [14] Aziz NA, Mokhti F, Nozri MN. Mobile Device Forensics: Extracting and Analysing Data from an Android-Based Smartphone. InCyber Security, Cyber Warfare, and Digital Forensic (CyberSec), 2015 Fourth International Conference on 2015 Oct 29 (pp. 123-128). IEEE.
- [15] Sengul Dogan, Erhan Akbal. Analysis of Mobile Phones in Digital Forensics. MIPRO 2017, May 22- 26, 2017, Opatija, Croatia. IEEE.
- [16] Support.apple.com. (2018). iCloud: Manage your devices in Settings on iCloud.com. [online] Available at: https://support.apple.com/kb/PH21251?locale=en_GB [Accessed 26 Dec. 2018].
- [17] Adam Jansen. Digital Records Forensics: Ensuring Authenticity and Trustworthiness of Evidence Over Time. 2010 Fifth International Workshop on Systematic Approaches to Digital Forensic Engineering. IEEE.
- [18] Shams Zawoad, Ragib Hasan, and Anthony Skjellum. OCF: An Open Cloud Forensics Model for Reliable Digital Forensics. 2015 IEEE 8th International Conference on Cloud Computing. IEEE

- [19] Ezhil Kalaimannan. Smart Device Forensics - Acquisition, Analysis and Interpretation of Digital. Evidences. 2015 International Conference on Computational Science and Computational Intelligence. IEEE.
- [20] Mohammad Mahfuzul Haque¹, Syed Akther Hossain. National Digital Forensics Framework for Bangladesh. 2017 3rd International Conference on Electrical Information and Communication Technology (EICT), 7-9 December 2017, Khulna, Bangladesh. IEEE.
- [21] Sqlite.org. (2018). SQLite Encryption Extension: Documentation. [online] Available at: <http://www.sqlite.org/see> [Accessed 26 Dec. 2018].
- [22] Aziz N, Mokhti F, Nozri M. Mobile Device Forensics: Extracting and Analysing Data from an Android-Based Smartphone. 2015 Fourth International Conference on Cyber Security, Cyber Warfare, and Digital Forensic (CyberSec). 2015.
- [23] Salama U. Smart Forensics for the Internet of Things (IoT) [Internet]. Security Intelligence. Security Intelligence; 2017 [cited 2018Dec26]. Available from: <https://securityintelligence.com/smart-forensics-for-the-internet-of-things-iot/> Rao VV, Chakravarthy A. Forensic analysis of android mobile devices. 2016 International Conference on Recent Advances and Innovations in Engineering (ICRAIE). 2016;
- [24] Rao V, Chakravarthy AS. Survey on Android forensic tools and methodologies. Int. J. Comput. Appl. 2016;154:17-21.

L'acquisition de la compétence de production de l'écrit dans l'enseignement du (FLE) : Retour d'expérience sur un apprentissage par projet

اكتساب مهارة الإنتاج الكتابي في تعليم اللغة الفرنسية كلغة أجنبية (FLE): تجربة عملية في التعلم بالمشروع

Université Sidi Mohammed Ben Abdellah – Dhar Mahraz Fès – MAROC

Acquiring the competence of writing production in the teaching of French as a foreign language: Feedback on project-based learning

ELMEHDI ELMAOULOUE, Enseignant de français au cycle secondaire qualifiant.

Docteur en études françaises

Abstract: Our contribution was deployed through an analytical-descriptive approach based mainly on direct classroom observation and a project-based learning method. As a result, we have explored various aspects, from the theoretical to the practical framework. The first axis examined the didactics of written production, its importance in FLE and official guidelines. We also probed students' representations of written production, taking into account the context of an experiment in which they wrote a tale pastiching Voltaire's *Candide* ou *l'Optimisme*. In this way, the working methods and the course of the experiment were carefully detailed.

In practical terms, we implemented our experiment. To this end, the analysis of results included the evaluation of the first sketches and the opinions of the student-assessors on the written productions. We then looked at elements that were difficult to grasp, suggestions for improving style and ideas, and the identification of linguistic errors. Following on from this, we sketched out the narrative outline of the tale written after refinement, examining even the onomastics and themes chosen in this connection.

Finally, we explore the didactic interests and benefits of this experiment. By merging direct classroom observation with project-based learning, our research introduces significant insights into the acquisition of written production competence in FLE.

Keywords: project-based learning, writing production competence, FLE teaching, pastiche, written production.

ملخص: مساهمتنا انتشرت من خلال نهج تحليلي وصفي يعتمد بشكل رئيسي على الملاحظة المباشرة في الفصل وطريقة التعلم بالمشروع. من هذا المنطلق، استكشفنا جوانب مختلفة، من الإطار النظري إلى الإطار العملي. المحور الأول تناول تعليمية الإنتاج الكلاسيكي، وأهميته في تعليم اللغة الفرنسية كلغة أجنبية (FLE) والتوجيهات الرسمية. كما قمنا باستطلاع تصورات الطلاب حول الإنتاج الكلاسيكي، مع الأخذ بعين الاعتبار سياق تجربة قاموا فيها بكتابة قصة محاكية لرواية "كانديد" أو "التفاؤل" لفولتير. وبذلك، تم تفصيل طرق العمل وسير التجربة بعناية.

في الإطار العملي، قمنا بتنفيذ تجربتنا. لتحقيق ذلك، شمل تحليل النتائج تقييم المسودات الأولى وآراء الطلاب المقيمين حول الإنتاجات الكلاسيكية. بعد ذلك، تناولنا العناصر الصعبة للفهم، واقتراحات تحسين الأسلوب والأفكار، وكذلك تحديد الأخطاء اللغوية. بمواصلة هذا النهج، قمنا برسم المخطط السردى للقصة التي تم تحريرها بعد التعديل، وقمنا بفحص الأسماء والموضوعات المختارة في هذا السياق. أخيراً، قمنا بالكشف عن الفوائد والمزايا التعليمية لهذه التجربة. من خلال دمج الملاحظة المباشرة في الفصل مع التعلم بالمشروع، قدمت أبحاثنا رؤية هامة حول اكتساب مهارة الإنتاج الكلاسيكي في تعليم اللغة الفرنسية كلغة أجنبية (FLE).
الكلمات المفتاحية: التعلم بالمشروع، مهارة الإنتاج الكلاسيكي، تعليم اللغة الفرنسية كلغة أجنبية (FLE)، المحاكاة الأدبية، الإنتاج الكلاسيكي.

Résumé

Notre contribution s'est déployée à travers une approche analytique-descriptive fondée principalement sur l'observation directe en classe et une méthode d'apprentissage par projet. De ce fait, nous avons exploré divers aspects, du cadre théorique au cadre pratique. Le premier axe a examiné la didactique de la production écrite, son importance dans le FLE et les directives officielles. Nous avons également sondé les représentations des élèves concernant la production écrite, en tenant compte du contexte d'une expérience où ils ont rédigé un conte pastichant *Candide ou l'Optimisme* de Voltaire. Ainsi, les modalités de travail et le déroulement de l'expérience ont été soigneusement détaillés.

Dans le cadre pratique, nous avons mis en œuvre notre expérience. Pour ce faire, l'analyse des résultats a englobé l'évaluation des premières esquisses et les avis des élèves-évaluateurs sur les productions écrites. Ensuite, nous nous sommes penchés sur les éléments difficiles à saisir, les suggestions d'amélioration de style et d'idées, ainsi que sur l'identification des erreurs linguistiques. En poursuivant cette démarche, nous avons esquissé le schéma narratif du conte rédigé après affinement, examiné même l'onomastique et les thèmes choisis à ce propos.

Enfin, nous avons fait découvrir les intérêts et les bénéfices didactiques de cette expérience. En fusionnant l'observation directe en classe avec l'apprentissage par projet, notre recherche introduit des aperçus significatifs sur l'acquisition de la compétence de production écrite en FLE.

Mots-clés : apprentissage par projet, compétence de production de l'écrit, enseignement du FLE, pastiche, production écrite.

Introduction

L'enseignement du français langue étrangère (FLE) occupe une place primordiale dans le parcours scolaire de l'élève au Maroc, en particulier dans le cycle secondaire qualifiant. Parmi les compétences nécessaires à acquérir, nous trouvons la production de l'écrit qui revêt une importance fondamentale. Dans cette contribution, nous nous intéressons à une expérience menée auprès d'élèves en deuxième année du baccalauréat, la classe terminale au Maroc, visant à mettre en avant l'importance de cette compétence dans leur apprentissage du français et sa mise en pratique à travers la rédaction d'un conte, en pastichant le conte de Voltaire *Candide ou l'Optimisme* qui figure dans le programme scolaire, tout en respectant les caractéristiques fondamentales de ce genre littéraire. Afin de mener à bien cette étude, notre choix s'est porté sur une approche analytique-descriptive qui repose principalement sur l'observation directe en classe. C'est pourquoi, il nous conviendra dans cet article de répondre aux problématiques suivantes :

- dans quelle mesure l'écriture d'un conte en pastichant le conte de Voltaire peut-elle influencer l'acquisition de la compétence de production écrite chez les apprenants en classe de français ?
- quel est l'impact de l'utilisation du pastiche du conte de Voltaire comme modèle sur le développement de la créativité et de l'expression personnelle des élèves au niveau de la production écrite de leur propre conte ?
- en quoi l'écriture d'un conte en pastichant une œuvre classique peut-elle faciliter l'assimilation des structures narratives, des éléments stylistiques et des idées philosophiques plus complexes par les apprenants en classe de français ?

À cet égard, nous avons essayé de répondre à ces problématiques en passant en revue les hypothèses de recherche que nous présenterons de la manière suivante :

- l'utilisation du pastiche de l'œuvre de Voltaire comme modèle pour l'écriture de leur propre conte permettra aux élèves de mieux assimiler les conventions d'écriture narratives, descriptives et stylistiques.
- la production écrite d'un conte en pastichant une œuvre littéraire classique favorisera la créativité et l'imagination des élèves, les encourageant à développer leur propre style d'écriture.
- le travail sur un conte en pastichant une œuvre classique accordera aux élèves l'occasion de renforcer leur appropriation des éléments stylistiques, narratifs, descriptifs et thématiques dits complexes.

D'autre part, nous cherchons à travers cette contribution à accorder tout le primat aux intérêts didactiques de cette action enseignante. Parmi les objectifs de ces pratiques didactiques, nous citons :

- étudier l'influence de l'activité d'écriture de conte en pastichant le conte de Voltaire sur l'acquisition des compétences de rédaction en français.
- mettre le point sur l'évolution de la créativité et de l'expression personnelle des élèves suite à l'utilisation du pastiche comme modèle dans leur rédaction.
- analyser comment l'écriture d'un conte en pastichant une œuvre littéraire peut faciliter l'appropriation des structures narratives, descriptives, stylistiques, grammaticales et lexicales diverses.

1. Cadre théorique

1.1. Didactique de la production écrite : état des lieux

Les études qui abordent l'appropriation de la compétence de production écrite forment à elles seules un domaine de recherche qui comprend une variété de travaux s'inscrivant dans la sphère didactique. C'est pour cette raison que nous présentons cette revue de littérature qui vise à lever le voile sur les contributions réalisées autour de l'acquisition de la compétence de production écrite chez les élèves en classe de français.

Il est évident que l'acquisition d'une langue étrangère implique clairement l'identification et la compréhension de sa structure ainsi que de ses règles linguistiques. Dans cette démarche, l'apprenant doit puiser dans son bagage linguistique, ses préacquis et ses apprentissages en cours pour interagir dans une variété de contextes de communication. C'est précisément dans cette optique que nous évoquons la compétence communicationnelle, qui se forge principalement à travers des objectifs spécifiques en relation avec la lecture, l'écriture, l'expression orale et l'écoute. À cet égard, nous faisons écho aux affirmations de Vigner, lesquelles viennent étayer notre perspective :

« Apprendre une langue étrangère c'est tout à la fois découvrir et s'approprier un système linguistique nouveau et en même temps faire usage de cette langue dans des contextes variés, depuis ce que l'on nomme, très globalement, la compétence de communication, jusqu'à l'acquisition de compétences spécifiques, parler, lire, écrire, écouter. » (Vigner, 2015 : 269)

D'un autre côté, les différents acteurs du terrain impliqués dans le domaine pédagogique se questionnent régulièrement sur la coordination, l'articulation et l'enchaînement des compétences ciblées dans le cadre de l'enseignement-apprentissage des langues, en veillant à éviter tout désaccord. Ainsi, les premières

méthodes promues dans les années soixante ont largement privilégié le développement de la compétence de communication orale comme préalable essentiel à l'acquisition ultérieure de la compétence de production écrite dans le processus d'enseignement d'une langue donnée :

« La question que les pédagogues, comme les responsables de cours ou de programmes dans le cadre scolaire ou universitaire, se sont toujours posée est de savoir comment articuler ces différentes compétences entre elles. La mise en valeur dans les années 60 d'une approche fondée sur un oral premier. » (Vigner, 2015 : 269)

Cette méthode pédagogique, dite traditionnelle, implique de commencer par l'assimilation des compétences liées à la lecture, la compréhension, la réception et la production orale, avant de progresser vers l'acquisition de la compétence de production écrite, tout en intégrant les éléments lexicaux et grammaticaux de la langue :

« La tradition pédagogique, au moins dans les périodes récentes, a voulu que l'on aille de l'oral vers l'écrit en organisant ce passage, d'une forme de compétence à l'autre, par des activités d'acquisition lexicales et grammaticales. » (Vigner, 2015 : 270)

L'auteur nous introduit encore une distinction pertinente entre les pratiques pédagogiques liées à la production de l'écrit vis-à-vis de l'enseignement du français langue maternelle (FLM) et l'enseignement du français langue étrangère (FLE).

Pour ce qui de la première démarche, nous supposons que l'apprenant bénéficie de la compétence communicationnelle acquise intuitivement dans le cadre familial et social d'où il provient. C'est en sens que l'apprenant maîtrise déjà

les codes essentiels relatifs à la prononciation, à la communication et à tous les procédés langagiers, souvent de manière inconsciente. La production de l'écrit n'apparaît que dans le second rang après les formes langagières orales :

« Dans l'enseignement scolaire, la langue maternelle (LM désormais, si l'on nous permet une dénomination qui fait certainement problème) est la langue d'entrée dans l'écrit (lecture/écriture), ce qui présuppose que l'enfant dispose déjà d'une compétence en langue déjà acquise dans le milieu familial et social d'origine, compétence qui se traduit par : La maîtrise d'une compétence conversationnelle de base (prononciation et communication) et l'acquisition simultanée des automatismes langagiers, l'intériorisation des règles fondamentales de la grammaire (capacité à produire un nombre infini de phrases correctes à partir d'un nombre fini de règles), l'acquisition d'une intuition linguistique qui permet au locuteur de porter des jugements d'acceptabilité s'agissant des énoncés à produire ou à recevoir. L'écrit intervient de la sorte comme code second par rapport à ce code premier qu'est la langue dans ses formes orales. » (Vigner, 2015 : 270)

En ce qui concerne la deuxième démarche qui repose sur l'enseignement du français langue étrangère, nous remarquons que les pratiques ne sont pas les mêmes dans la mesure où nous ne pouvons pas mettre en œuvre la compétence de production de l'écrit sans passer par d'autres compétences transversales liées à la maîtrise d'autres codes et règles linguistiques se rapportant à la grammaire, au lexique ou encore à la lecture et la prononciation. C'est pourquoi l'oral permet à l'apprenant de s'approprier des bases essentielles qui lui permettent de faire le passage vers l'appropriation de la compétence de production de l'écrit :

« En LE, la problématique se pose en d'autres termes. La compétence d'écrit ne peut s'installer que si est d'abord acquise la maîtrise de la langue. D'où la nécessité d'un apprentissage destiné tout à la fois à faire acquérir une compétence à communiquer en relation avec la compétence linguistique. Dans les périodes récentes, l'usage veut que cet apprentissage se fasse à/par l'oral. L'oral constitue le vecteur premier d'apprentissage qui permet tout à la fois d'acquérir les bases de la prononciation de la langue et en même temps les formes syntaxiques les plus usuelles ainsi que les bases de la morphologie. Dans la mesure où le français est une langue à écriture essentiellement phonographique, on peut comprendre pourquoi le passage par un oral préalable peut être la condition d'un apprentissage réussi. » (Vigner, 2015 : 270)

La question des approches pédagogiques et méthodes d'enseignement liées à la production de l'écrit a été également entamée par (Masgoret et Gardner, 2001), ainsi que (Boulton, 2010). Ces chercheurs se sont penchés sur la mise en avant des théories, des propositions et des perspectives didactiques qui favorisent les activités scripturales en classe de langue.

Par ailleurs, une quantité considérable de littérature a été publiée en liaison avec les facteurs qui influencent l'appropriation de la compétence de production de l'écrit en classe de langue. Dans ce sens, nous faisons appel aux conceptions de (Dörnyei, 2005) et (Graham et Hebert, 2010). Ces chercheurs essayent d'approcher l'acquisition de la compétence de production écrite chez les élèves en interpellant une dimension en relation avec la psychologie et la méta-analyse de l'activité d'écriture.

Outre l'impact de la psychologie individuelle de l'élève sur son acquisition de la compétence de production écrite, d'autres chercheurs ont abordé les difficultés

spécifiques et les besoins des élèves à ce propos. Nous invoquons les propos de (Gombert, 1990) qui souligne que l'acquisition de la compétence de production de l'écrit par l'apprenant est dépendante d'une articulation étroite de plusieurs connaissances linguistiques, de règles et de codes langagiers.

Au terme de cet aperçu sur les travaux effectués à propos de la compétence de production de l'écrit chez l'élève dans l'enseignement-apprentissage du français en particulier, il nous semble que les recherches effectuées en ce domaine ont mis en exergue l'importance des approches et des méthodes pédagogiques, de la motivation des apprenants et de la rétroactivité des enseignants. En effet, les acteurs pédagogiques jouent un rôle essentiel dans le développement de cette compétence en proposant des pratiques didactiques dites nouvelles, adaptées et efficaces en vue d'aider les apprenants à progresser dans leur rédaction. De même, il est primordial de prendre en considération les besoins particuliers des élèves, tels que les obstacles qui entravent les apprenants non-natifs dans le cadre d'apprentissage d'une langue étrangère, ou ceux ayant des troubles d'apprentissage relevant de la dimension psychologique, dans le but de les accompagner au mieux dans leur activité d'acquisition de la compétence de production écrite.

1.2. L'importance de la production de l'écrit dans la didactique du FLE

Nous admettons que l'importance de la production écrite dans la didactique du français langue étrangère (FLE) est incontestable, faisant de cette compétence un pilier essentiel de l'ensemble du processus d'enseignement et d'apprentissage. À travers cette pratique, l'apprenant se trouve immergé dans une démarche qui transcende les limites de l'écriture pour joindre une gamme étendue d'aptitudes langagières et cognitives. En effet, l'acte de générer des écrits, qu'il s'agisse

d'essais, de poèmes, de contes, de résumés ou d'autres formes textuelles, agit comme un catalyseur pour le développement holistique de l'apprenant.

Il s'avère que la production écrite exige un engagement profond de la part de l'élève avec la langue cible, l'encourageant ainsi à mobiliser sa connaissance des règles grammaticales, de la syntaxe et du lexique, pour façonner des expressions écrites claires et fluides. En outre, la nécessité d'organiser les idées de manière logique et cohérente place dans une situation avantageuse la compréhension des mécanismes de construction textuelle, soutenant ainsi les apprenants à décortiquer et à assimiler les modes d'organisation spécifiques à la langue française.

Il est à signaler que, outre la dimension purement linguistique, la production écrite revêt un caractère incontestablement créatif. Les apprenants sont souvent appelés à explorer des pistes stylistiques, esthétiques et expressives, à manier des figures de style et à jouer avec les nuances sémantiques, contribuant ainsi à l'enrichissement et à l'affinement de leur base linguistique. Cet aspect créatif soutient également l'expression de soi et l'émancipation intellectuelle, renforçant la confiance des élèves dans leur aptitude à se servir de la langue pour transmettre des idées, des thématiques, des émotions et des réflexions complexes.

Encore, faut-il ajouter que la production écrite sert également de révélateur des améliorations des apprenants. Les textes qu'ils produisent témoignent de leur progression, de la maîtrise croissante des subtilités linguistiques et de l'aptitude à aborder des thèmes divers. Les erreurs et les imprécisions relevées dans leurs textes fournissent des pistes pour réaliser des interventions pédagogiques ajustées, facilitant ainsi un progrès continu.

En définitive, la compétence de production de l'écrit en FLE transpose le simple fait d'écriture pour devenir un horizon d'entrée vers une exploration approfondie et stimulante de la langue. En permettant aux apprenants de mettre en exécution et de consolider leurs capacités linguistiques, tout en encourageant la créativité et la réflexion qui relève du réel ou de l'imaginaire, cette compétence joue un rôle décisif dans la formation d'élèves capables, habiles et assurés dans leur utilisation de la langue française, que ce soit à l'écrit ou à l'oral.

1.3. L'importance de la production de l'écrit dans les directives officielles

Les Orientations Pédagogiques destinées à l'enseignement du français du cycle secondaire qualifiant (MEN, 2007) au Maroc soulignent également l'importance de l'acquisition de la compétence de production de l'écrit chez les enseignés. Ces directives officielles encouragent les enseignants à mettre en place des tâches et des activités favorisant les expériences créatives et l'expression personnelle des élèves à l'écrit. En analysant les indications données par les consignes officielles, il nous semble évident qu'un tel projet requerra un investissement temporel plus important en matière de lecture. D'autres projets, quant à eux, mettront l'accent aussi sur la production écrite ou l'initiation à la recherche documentaire en liaison avec les contenus à enseigner. Le fondement théorique de ces approches réside dans la cohérence et la complémentarité inhérentes à l'ensemble des activités programmées au sein du projet. Cette démarche permet de construire une expérience d'apprentissage équilibrée et holistique, où chaque élément s'imbrique harmonieusement avec les autres. Les heures consacrées à la lecture ne sont pas simplement une fin en soi, mais elles s'intègrent dans un tissu pédagogique plus large dans la mesure où la production écrite et la familiarisation avec la documentation s'entrecroisent. Ce n'est pas seulement la quantité d'heures

investies qui est mise en exergue, mais la qualité et la variété des activités qui convergent pour former une trame d'apprentissage cohérente et enrichissante.

De la sorte, ces différents projets s'inscrivent dans une vision complète dans la mesure où les composantes, bien que distinctes, convergent vers un objectif commun, celui de doter les enseignés d'une panoplie de compétences complémentaires. Le résultat est, sans aucun doute, une expérience éducative équilibrée, où la lecture, l'écriture et l'initiation à la recherche documentaire s'unissent pour établir un tout homogène :

« ainsi, tel projet nécessitera davantage d'heures de lecture que le précédent, tel autre privilégiera la production écrite ou l'initiation à la documentation. Le principe est que l'ensemble des activités, prévues dans le cadre du projet, convergent et se complètent. » (MEN, 2007 : 8-9)

Les déclarations des *Orientations Pédagogiques* mettent en avant la notion essentielle d'une intégration claire et cohérente des activités, permettant ainsi une jonction harmonieuse entre elles. Tout en gardant à l'esprit l'importance d'une répartition équilibrée et ascensionnelle des apprentissages, le professeur s'efforcera de varier ces activités en tenant compte des compétences ciblées, qu'elles soient reliées à la compréhension ou à la production orale et écrite. Cette approche vise à transcender les limites traditionnelles, voire préétablies entre les différentes compétences langagières, en donnant de l'avantage à une interrelation ordinaire entre la réception et la production de l'écrit.

L'enseignant, dans ce contexte, joue le rôle d'un chef d'orchestre, arrangeant habilement une variété d'activités qui reflètent la richesse et la complexité de l'usage langagier. Les activités de lecture, de réception orale, de communication

orale et d'écriture ne sont pas abordées isolément, mais plutôt en tant que pièces complémentaires d'une tâche pédagogique plus étendue.

L'objectif ultime de cette approche est de permettre aux apprenants de développer une compétence linguistique holistique et authentique, où chaque aspect de la langue contribue à consolider et à enrichir les autres. C'est un effort concerté qui vise à créer un environnement d'apprentissage cohérent, où les compétences linguistiques sont reliées et mutuellement renforcées, ouvrant ainsi la voie à une maîtrise plus complète et plus fluide de la langue :

« les activités seront décloisonnées et intégrées les unes aux autres autant que nécessaire. L'enseignant, sans perdre de vue la nécessité de veiller à l'équilibre et à la progressivité des activités, essaiera de les diversifier en fonction des compétences visées en réception et en production de l'oral et de l'écrit. » (MEN, 2007 : 9)

Il est vrai que le Cycle Secondaire Qualifiant se distingue par sa visée d'autonomisation de l'apprenant, et cette spécificité se reflète dans l'approche pédagogique privilégiée en matière de production écrite. Les activités de rédaction diversifiées jouent un rôle déterminant dans la promotion des compétences autonomes de l'élève, en le guidant vers un niveau d'indépendance souhaité. Pour réaliser cet objectif, les pratiques de production écrite s'articulent autour d'une panoplie variée, contenant notamment :

- *le résumé* : cette pratique du résumé consiste à encourager l'apprenant à extraire l'essentiel d'un texte tout en maintenant la cohérence et la clarté. Elle stimule la capacité d'analyse et de synthèse, tout en renforçant les compétences de sélection des informations pertinentes. À travers cette tâche, l'apprenant s'initie à identifier les éléments essentiels d'un contenu, à les reformuler avec concision et à exprimer ses idées de manière efficace.

- *le compte rendu* : l'exercice du compte rendu de lecture aide l'élève à exprimer ses pensées et ses impressions après avoir parcouru un texte. En résumant les points clés et en analysant les aspects phares, l'élève développe son aptitude à comprendre et à interpréter les informations tout en affinant ses capacités de rédaction.
- *la synthèse* : la synthèse de documents sollicite l'aptitude de l'apprenant à traiter et à trier des informations provenant de sources multiples. Cette pratique stimule la pensée critique et la capacité de rapprocher différents éléments pour former un ensemble cohérent. L'apprenant acquiert ainsi la compétence de classer les données pertinentes et de les arranger de manière structurée et logique.
- *l'essai*: cet écrit, qu'il soit de nature générale ou littéraire, permet à l'apprenant d'exprimer ses idées et ses points de vue de façon approfondie. Cette activité développe la capacité à organiser des arguments, à présenter des preuves convaincantes et à élaborer une étude réfléchie. L'essai favorise également l'expression personnelle, l'impression objective et encourage l'apprenant à développer son style d'écriture.
- *le commentaire* : c'est un écrit qui demande de faire une analyse critique approfondie d'un texte, d'une image, d'une œuvre d'art, ou autre. Il pousse l'apprenant à disséquer les éléments constitutifs, à les contextualiser et à introduire une interprétation bien formulée. Cette activité renforce la compétence de l'analyse purement littéraire et encourage la réflexion raisonnée sur le contenu.

- *la réécriture* : il s'agit d'un exercice qui incite l'élève à réviser et à améliorer un texte initial, en mettant l'accent sur les principes de clarté et de concision. Cette pratique favorise une réflexion sur les choix linguistiques, la structure et la tonalité, tout en développant la compétence de l'écriture et de l'amélioration continue.
- *la rédaction courte* : ces activités de rédaction courte mettent en exergue la capacité de l'apprenant à s'exprimer de façon succincte tout en préservant l'impact et la pertinence. Ils encouragent la clarté d'expression et développent la compétence à transmettre des idées de manière concise.
- *le pastiche* : ces exercices du pastiche offrent à l'élève l'opportunité de s'immerger dans le style d'un auteur, d'un genre littéraire ou d'une époque particulière. Ces écrits encouragent la créativité, la réinterprétation et la maîtrise de certaines caractéristiques linguistiques et stylistiques propres à une période littéraire donnée.

Il nous paraît clairement que le fait d'encourager la diversité des activités de production écrite, l'enseignement du français au Cycle Secondaire Qualifiant cherche à introduire aux apprenants une gamme variée d'outils et de compétences nécessaires pour naviguer avec aisance dans la sphère de la communication écrite. L'intégration cohérente de ces activités contribue à créer une expérience d'apprentissage complète dans la mesure où l'autonomie, la création et la maîtrise de la langue se développent de manière synergique :

« Activités de production écrite : La spécificité du Cycle Secondaire Qualifiant implique le recours à des activités de production écrite diversifiées, susceptibles de faire accéder l'élève au degré d'autonomie escompté. A cet effet,

les pratiques de productions d'écrits porteront sur : le résumé ; le compte rendu de lecture; la synthèse de documents ; l'essai général et littéraire ; le commentaire ; la réécriture ; la rédaction courte et le pastiche ; » (MEN, 2007 : 12)

A l'issue de ce volet, il nous semble que dans le processus de l'enseignement du français langue étrangère, la production écrite constitue une étape essentielle. Egalement, après avoir passé par des activités de lecture, de langue et d'expression orale, les élèves sont appelés à mobiliser leurs acquis dans la production des textes. Ce processus enchaîné leur permet de renforcer leurs compétences linguistiques tout en développant leur capacité à structurer leurs idées et à les transmettre de manière cohérente dans le cadre d'un écrit.

1.4. Représentations et expériences des élèves vis-à-vis de la production écrite

Dans le cadre de l'enseignement-apprentissage du français langue étrangère, il est incontestable que les apprenants dévoilent un vif intérêt envers l'acquisition de la compétence de production écrite. Cependant, il est tout aussi certain que les élèves ne sous-estiment nullement la complexité de cette entreprise, conscients que celle-ci requiert une assimilation soignée et une mise en œuvre habile de divers éléments linguistiques, thématiques et stylistiques. La production de l'écrit ne se résume pas seulement à la maîtrise des règles et des codes grammaticaux et lexicaux, elle implique également le passage subtil entre la créativité, la fluidité et la structuration logique des idées. Cette entreprise demande ainsi l'établissement d'une démarche méthodique qui équilibre l'expression personnelle et l'adhésion aux normes linguistiques. La guidance des acteurs pédagogiques revêt alors une importance prépondérante pour accompagner les apprenants dans cet apprentissage complexe, et les aider à dépasser les défis rencontrés en classe de

langue et à s'améliorer et évoluer vers une compétence de production écrite. À ce propos Mège-Courteix explique que le fait d':

« accéder à l'écrit, c'est plus et autre chose que maîtriser un code parmi d'autres. Ce code est celui qui met en jeu et transforme notre rapport aux autres et au monde » (Mège-Courteix, 1999 : 158)

L'observation en classe révèle un schéma récurrent parmi les apprenants : nombreux sont ceux qui abordent la tâche de rédaction sans s'engager préalablement dans la phase de planification et de structuration de leur écrit potentiel. Après une première lecture de l'énoncé, les apprenants se lancent directement dans l'acte d'écriture, déversant leurs pensées sur le papier ou les esquissant sur des brouillons. De manière similaire, d'autres apprenants négligent complètement l'étape de la révision à la fin de la rédaction, se contentant d'écrire une version première, unique et finale de leur production. Cependant, cette impatience à passer outre les étapes cruciales du processus de production écrite peut compromettre la clarté, la cohérence et la qualité entière de leurs écrits. De fait, la planification de manière soignée permet de cibler les points essentiels et d'organiser les pensées de manière logique, alors que la révision assure l'affinement linguistique et la correction d'éventuelles erreurs au niveau de la conjugaison, la grammaire, l'orthographe, le lexique ou encore la structure des phrases. Dans cette perspective, il est décisif pour les professeurs de sensibiliser les élèves à l'importance de ces étapes fondamentales et de les accompagner vers des pratiques plus méthodiques de la rédaction, favorisant ainsi une maîtrise plus approfondie de la compétence de production écrite. À cet égard nous citons les propos de Zetili qui correspondent à cette idée :

« ils n'opèrent pas de modifications significatives. Ils se contentent de corrections relevant du niveau local, du moment qu'ils n'envisagent aucune réécriture de leurs écrits. Ainsi, le texte ne passe pas par des états provisoires, avant d'atteindre son état final. » (Zetili, 2009 : 31-32)

Dans un alignement similaire, Charolles met en évidence le fait que les apprenants tendent fréquemment à considérer la rédaction comme une entreprise ardue, réservée aux seuls experts en la matière. Cette perception peut résulter d'une combinaison de facteurs, tels que la complexité apparente de la langue écrite, la crainte de l'évaluation critique ou même le manque de confiance en leurs propres capacités. En conséquence, certains apprenants peuvent se sentir découragés avant même d'entreprendre l'exercice de rédaction, croyant à tort qu'il s'agit d'une compétence difficile, voire hors de leur portée. Cette perspective limitative peut restreindre leur engagement et leur évolution dans l'apprentissage de la production écrite. Cependant, il est nécessaire de démystifier cette fausse croyance en mettant en avant que la rédaction, bien qu'exigeante, est une compétence qui peut être développée avec un apprentissage attentif, de la pratique et des approches méthodiques. Les enseignants ont ici un rôle déterminant à jouer en encourageant une vision plus confiante de la rédaction, tout en suggérant des outils et des techniques pour approcher cette compétence de manière progressive et réussie :

« dans l'esprit des élèves, l'écrit est la plupart du temps associé au beau langage dont l'usage est réservé à certains spécialistes qui en maîtrisent toutes les surnormes et toutes les subtilités. » (Charolles, 1986 : 5)

Dans cette optique, il devient impératif d'assurer un encadrement constant et éclairé pour les apprenants tout au long de leur processus de rédaction, conjugué

à une explication approfondie des consignes qui leur sont présentées. La tâche d'écriture, tout en étant une démarche individuelle, ne doit pas être perçue comme une navigation solitaire. Les enseignants jouent un rôle central en tant que guides et facilitateurs, veillant à ce que les apprenants comprennent clairement les attentes et les objectifs de l'exercice. En offrant une orientation et une planification, les apprenants acquièrent la confiance essentielle pour faire le passage à travers les entraves de la rédaction, tout en étant guidés vers une démarche méthodique et structurée.

Egalement, cette approche interactive place en premier rang la compréhension claire des consignes, contribue à dissiper les confusions et les ambiguës potentielles et stimule une meilleure appropriation des techniques de production de l'écrit.

En dernier ressort, cette pratique proactive cherche à doter les apprenants des outils nécessaires pour surmonter les obstacles, réformer leurs compétences rédactionnelles et cultiver une confiance accrue dans leur aptitude à s'exprimer par l'écriture de façon claire et convaincante. En ce sens, nous faisons appel aux déclarations de Zetili qui souligne qu'il faudrait mettre l'accent sur :

« quelques principes de base de ce qu'il faudrait faire dans telle ou telle situation d'écrit pour produire tel ou tel type de texte. » (Zetili, 2006 : 48)

Suivant le même ordre d'idées, Zetili met en avant le rôle capital de l'enseignant dans le processus d'apprentissage de la production écrite. Il souligne que la fonction centrale de l'enseignant est de démystifier l'acte de l'écriture en intervenant de manière planifiée et structurée tout en montrant aux élèves que la compétence d'écrire est acquise à travers une pratique constante et assidue. Cette vision met l'enseignant au cœur de l'effort éducatif, en tant que catalyseur qui

apaise les appréhensions et incite les enseignés à l'action. En identifiant les moments opportuns pour fournir un soutien de manière directe et en offrant des éclaircissements perspicaces, l'enseignant contribue à désamorcer les sentiments d'angoisse, de manque de confiance et d'incertitude souvent associés à l'acte d'écrire. En adoptant cette approche, les apprenants sont orientés vers une compréhension de l'apprentissage par la pratique continue et sont encouragés à persévérer dans leurs efforts de production écrite. Le professeur, par conséquent, joue un rôle déterminant dans la transformation de l'écriture d'une entreprise inquiétante et intimidante en une compétence abordable, accessible, corrigible, améliorabile et finalement maîtrisable : « la tâche essentielle de l'enseignant consiste, à mon sens, à dédramatiser l'écriture en intervenant aux bons moments et en leur expliquant que l'acte d'écrire s'apprend par l'exercice. » (Zetili, 2006 : 48)

1.5. Contexte de l'expérience : la rédaction d'un conte en pastichant l'œuvre de *Candide* ou *l'Optimisme* de Voltaire

Il s'avère utile de rappeler que l'expérience que nous relatons à travers cette contribution a été menée avec des élèves en deuxième année du baccalauréat au Maroc. Ces apprenants avaient déjà étudié le conte philosophique *Candide* ou *l'Optimisme* de Voltaire, dans le cadre du premier module destiné aux élèves de la classe de terminale comme il est mentionné dans *Les Orientations Pédagogiques* qui dirigent l'enseignement du français dans ce cycle :

« Progression de la deuxième année du cycle du baccalauréat : Premier semestre : MODULE 1 : Lire un conte philosophique - « Candide » de Voltaire. » (MEN, 2007 : 28)

Nous rappelons encore que l'œuvre de *Candide* ou *l'Optimisme*, parue au sein du rayonnement intellectuel du *Siècle des Lumières*, s'élève évidemment en tant que

texte classique incontesté de la littérature française. La richesse narrative, descriptive, stylistique, argumentative et philosophique qu'elle contient nous incite à inculquer chez les élèves une gamme d'aptitudes essentielles telles que : le raisonnement critique, la libre pensée, la compétence d'analyse, et l'appropriation des techniques d'expression et d'argumentation. Sous cet angle, nous faisons appel aux consignes officielles qui indiquent ce qu'il faut retenir à travers l'étude de ce conte philosophique :

- « *La composition d'un récit : rythme, structure, actions, temps, lieux, points de vue*
 - *Les procédés d'écriture : la satire, l'ironie, l'humour, la dérision, le comique...*
 - *La vraisemblance et le merveilleux*
 - *La dimension philosophique (raisonnement et problématique, l'optimisme, le bien et le mal). [...] Thèmes et dossiers en rapport avec l'œuvre étudiée (ex. le bonheur, la guerre, l'optimisme, la condition de la femme, etc.)* » (MEN, 2007 : 28)

Enfin, nous soulignons que la période de l'expérience a été planifiée après avoir achevé l'étude de *Candide ou l'Optimisme*, de manière à exploiter les apprentissages acquis récemment par les apprenants à partir de cette œuvre dans leur propre production écrite. La durée de cette expérience a été de six semaines, en fonction de deux heures chaque semaine consacrées à l'explication du projet, l'élaboration des plans et à la présentation des écrits produits par les apprenants.

1.6. Modalités de travail et déroulement de l'expérience

Pendant que les élèves se prêtent à une relecture des productions écrites de leurs pairs, une dynamique de lecture authentique s'établit. Cette activité engendre une série d'expériences fructueuses, dans la mesure où les apprenants se positionnent en tant que sujets-lecteurs actifs et critiques. Lorsque les élèves émettent des critiques constructives et en identifiant les lacunes au sein des écrits

de leurs camarades, ils exercent leur aptitude à évaluer et à analyser de façon approfondie. Cette démarche a une double considération : en premier lieu, elle développe chez les apprenants un sens critique et les motive également à s'investir principalement dans leurs propres rédactions. En second lieu, le fait de participer activement à cette activité de révision et de correction mutuelle, les enseignés réalisent que la tâche d'écrire est un processus en constante évolution, où même les pairs considérés comme des éléments brillants commettent des erreurs. Cette prise de conscience les rassure, renforce leur confiance en eux-mêmes et les incite à poursuivre dans leur activité d'écriture, alimentés par l'envie de perfectionner leurs compétences et de contribuer à une atmosphère collaborative d'apprentissage. D'après les propos de Cornaire et Raymond :

« une révision faite par les pairs donne d'abord aux apprenants des réactions d'authentiques lecteurs même s'ils ne sont pas les vrais destinataires. Ensuite, en critiquant le travail de leurs camarades, les apprenants comprennent mieux les besoins d'un lecteur et acquièrent un sens critique qui leur sera fort utile au moment d'écrire. Ils s'aperçoivent aussi que les autres ont également des difficultés. Ce qui est en quelque sorte rassurant. » (Cornaire et Raymond, 1999 :119)

D'autre part, en vue de cibler la compétence de production de l'écrit, les apprenants ont été appelés à rédiger leur propre conte, en respectant surtout les caractéristiques du schéma narratif. Ensuite, les élèves ont été encouragés à explorer des thématiques en relation avec la vie, la mort, le destin, la liberté, la guerre, la tolérance, et autres thèmes philosophiques similaires, s'inspirant du style et des idées introduites dans l'œuvre de Voltaire.

Avant de se lancer dans cette expérience rédactionnelle proprement dite, les apprenants ont participé à des activités préparatoires visant à stimuler leur créativité, à renforcer leur compréhension des éléments caractéristiques d'un conte philosophique et à comprendre la modalité de travail. En ce sens, ils ont effectué des recherches à propos de la structure narrative, le schéma narratif, le schéma actanciel, les valeurs des temps du récit, les expressions et les formules du conte, ainsi que la portée philosophique ou la morale qui définissent les contes. Encore, des discussions en classe, des lectures complémentaires et des exercices d'écriture guidée ont été réalisés pour accompagner les élèves dans cette activité.

Tout au long des six semaines, l'enseignant a apporté un suivi individualisé à chaque élève, dotant les apprenants des retours constructifs sur leurs feuilles de rédaction et les encourageant à développer et approfondir leurs réflexions littéraires dans leur écriture.

2. Cadre pratique

2.1. La mise en exécution de l'expérience

Dans le cadre pratique de cette tâche pédagogique qui porte sur la production de l'écrit d'un conte, nous allons expliquer comment l'enseignant a procédé à cette expérience après l'étude du conte philosophique *Candide ou l'Optimisme* de Voltaire.

En effet, l'enseignant a décidé d'enseigner la compétence de production de l'écrit à travers la rédaction d'un conte en pastichant l'œuvre étudiée. Les apprenants ont été invités à s'inspirer de l'œuvre de Voltaire, étudiée en classe, tout en respectant les éléments constitutifs de la structure narrative du conte. Après avoir dressé des schémas narratifs pour leurs récits, les élèves ont dû se concentrer uniquement sur la situation initiale de leur histoire en suivant les

consignes de leur professeur. Dans ce contexte, les élèves essayent d'introduire les personnages, le cadre spatio-temporel et les premières actions, de présenter avec toute précision les formules typiques du conte, les dimensions relevant du fantastique et/ou du merveilleux, et de veiller à respecter les temps du récit.

Par la suite, l'enseignant a demandé aux élèves d'évaluer et d'annoter chaque texte en corrigeant les erreurs détectées ou d'ajouter leurs appréciations en tête de la feuille de rédaction. Puis, il a mené un sondage par convenance à l'aide de ses apprenants afin de choisir la situation initiale du conte qui leur semble la meilleure et mérite d'être l'histoire sur laquelle toute la classe devrait travailler par la suite. Afin d'accomplir cette tâche, il a conçu une évaluation sous forme de grille de notation qu'il a jointe à chaque texte, tout en permettant aux élèves d'attribuer une note sur dix en gardant l'anonymat des feuilles. La production écrite ayant obtenu la première note a été sélectionnée comme la situation initiale, ou encore l'intrigue que les élèves devraient développer davantage par la suite.

Il nous semble évident que, le fait d'impliquer les apprenants dans le choix de la meilleure rédaction a été effectué pendant toutes les phases qui concernent la rédaction des parties du conte, à savoir : la situation initiale, l'élément perturbateur, les péripéties, le dénouement et la situation finale. L'idée de faire participer les élèves à la création de ce récit en choisissant, par eux-mêmes, la situation initiale du conte est non seulement pédagogiquement intéressante, mais elle encourage également l'implication et l'engagement des apprenants dans l'activité éducative.

Ainsi, cette perspective pédagogique, interactive et participative pourrait avoir de multiples avantages, aussi bien pour les apprenants que pour le professeur. Nous citons entre autres :

- *encouragement de la créativité* : en accordant aux élèves l'occasion de choisir les éléments nécessaires à la rédaction de la situation initiale du conte, l'enseignant ouvre la porte à l'expression de la créativité personnelle de chaque élève. Chaque proposition reflétera leur propre mode de pensée, vision du monde et imagination, rendant le récit singulier et attirant.
- *stimulation de l'esprit critique* : les apprenants sont appelés à évaluer un ensemble de textes et d'idées pour choisir le meilleur scénario à suivre dans la rédaction collective du conte. Cette pratique les encourage à réfléchir de manière critique, à étudier chaque option et expliquer leur choix.
- *renforcement de la prise de décision* : le processus de vote, d'évaluation, de correction, de formuler des appréciations, d'accorder une note à une feuille anonyme ou le fait d'effectuer un choix devant le groupe implique les apprenants dans la prise de décision, les responsabilise et les aide à saisir la portée de travailler collectivement pour parvenir à un objectif commun. Ce fait aide également au développement d'autres aptitudes liées à la socialisation de l'élève.
- *valorisation du rôle fondamental de l'apprenant dans la mission éducative* : en impliquant les enseignés dans la création de l'histoire, voire de l'intrigue du récit, ils deviennent davantage acteurs actifs qui construisent leurs apprentissages. Ils se sentiront plus investis dans l'histoire qu'ils ont

contribué à créer, ce qui les rendra plus susceptibles à s'investir dans le processus de rédaction et de développement du conte par la suite.

- *intégration des disciplines diverses dans une approche transversale* : en tenant en compte les idées proposées par les apprenants, le professeur peut se servir de la rédaction de la situation initiale comme élément de base pour intégrer diverses matières dans le projet. Par exemple, la situation initiale peut contenir des aspects historiques, géographiques, scientifiques ou culturels, permettant ainsi une approche transversale et interdisciplinaire de l'apprentissage.
- *renforcement de la discussion, la motivation, l'implication et l'intérêt des élèves* : lorsque les apprenants sont impliqués dans cette perspective pédagogique qui se fonde sur la prise de décision, ils sont plus susceptibles d'éprouver leur motivation et leur positionnement dans ce travail. Egalement, leur intérêt pour l'histoire écrite sera naturellement plus apparent, ce qui peut créer un impact positif sur leur participation, leur contribution et leur performance dans ce contexte scolaire. Ce fait peut déclencher des débats et des discussions d'ordre vertical (entre les élèves et leur professeur) et horizontal (entre les élèves eux-mêmes).

2.2. Analyse des résultats

2.2.1. Analyse des résultats des premières esquisses

L'analyse des résultats des premiers essais d'écriture nous amène à étudier les commentaires formulés par les apprenants qui jouent le rôle d'évaluateurs des textes, en tenant compte des questions et des directives associées, ce qui nous a permis de mettre en évidence plusieurs remarques significatives. Ces constats, que

nous avons divisés en sections distinctes, reflètent les diverses dimensions examinées au sein de cette évaluation collaborative. En scrutant de manière attentive ces constats, nous pourrions mieux appréhender les points forts et les domaines qui nécessitent encore des améliorations, tout en établissant des rapports instructifs entre les évaluations individuelles et les finalités pédagogiques sous-jacentes. Cette activité permet également de mieux approcher la manière dont les apprenants interagissent avec les textes écrits, les questions posées et les indications fournies, présentant ainsi une conception plus profonde des compétences acquises et des déficiences à combler.

Par ailleurs, en rassemblant ces observations en sections thématiques, nous visons à synthétiser les retours des élèves-évaluateurs de manière organisée, créant ainsi un précieux réservoir de connaissances pour orienter notre approche pédagogique future et enrichir davantage l'expérience d'apprentissage des élèves dans cette expérience d'écriture.

2.2.2. Avis des élèves-évaluateurs sur les productions écrites

Nous avons effectué une analyse approfondie des évaluations menées par les différents groupes, ce qui nous révèle une gamme variée de perspectives concernant le texte examiné. Une grande majorité des groupes a convergé vers l'opinion que le texte présentait une clarté et une compréhensibilité remarquables. Cependant, une minorité de groupes s'est positionnée en faveur de l'idée que le texte était simplement acceptable, soulignant peut-être quelques pistes d'amélioration potentielles. Une autre perspective a émergé, soulignant l'apport substantiel en informations introduites par le texte, mettant ainsi en lumière sa valeur informative. Par ailleurs, un autre groupe a souligné la présence de répétitions au sein du texte, pointant vers un aspect à considérer pour une

révision éventuelle. Il est intéressant de noter qu'un seul groupe a évoqué que les informations étaient présentées de manière brève, suggérant peut-être un besoin d'approfondir ou de diversifier le contenu pour répondre aux attentes. Cette diversité d'évaluations souligne l'importance de la pluralité des points de vue dans le processus d'évaluation, tout en proposant un fondement solide pour une réflexion critique et constructive sur la qualité et la pertinence de la rédaction.

2.2.3. Autour des mots et des phrases difficiles à saisir

En ce qui concerne les points de vue des différents groupes, une observation récurrente a été repérée concernant l'identification de phrases et de termes qui semblent difficiles au sein du texte écrit, ce qui a conduit à leur mise en avant par le biais d'annotations et de soulignements. D'autre part, une attention remarquable a été portée sur les erreurs d'orthographe et de conjugaison identifiées dans la production écrite. Ces constatations accentuent l'importance accordée à la clarté et à la précision linguistique dans l'écriture, mettant en évidence les entraves que peuvent représenter la compréhensibilité et la correction linguistique dans un texte donné.

Par conséquent, le fait de noter ces aspects spécifiques enjoint les élèves évaluateurs à contribuer à la fois à une évaluation critique et à une prise de conscience commune des domaines qui nécessitent une attention particulière dans l'amélioration de la qualité des productions écrites. En effet, ces retours ciblés guident les apprenants, auteurs des textes vers une révision et une correction fructueuses, tout en consolidant la conscience intégrale de l'importance de la maîtrise des règles et des codes linguistique et de la communication efficiente dans l'activité de production écrite.

2.2.4. Suggestion d'autres idées et amélioration du style

Après avoir effectué une dissection de profondeur des réponses émanant des groupes, nous avons pu révéler une division quasi-égale en termes d'appréciation vis-à-vis de la production écrite choisie. Nonobstant que près de la moitié ait énoncé une réaction négative, cette évaluation était nuancée par des remarques spécifiques. Plusieurs sont ceux qui ont noté une insuffisance d'informations, cependant que d'autres ont distingué une incomplétude du contenu. Dans un contrepoint saisissant, l'autre moitié des groupes a contribué activement en introduisant des mots et des phrases complémentaires, en réalisant des reformulations subtiles et en écartant certains éléments. Ces adaptations se sont amplifiées avec certains groupes qui modifient même les agencements des mots et des expressions pour renforcer la cohérence du texte.

Un intérêt essentiellement marqué a été concédé à la réorganisation des idées dans le texte pour améliorer la fluidité et la compréhension. Encore, un autre aspect marquant réside dans le choix de certaines équipes de focaliser leurs améliorations sur une seule phrase. De surcroit, certains groupes ont cherché à développer les idées initiales de leurs camarades, proposant ainsi une dynamique collaborative à travers des contributions partagées. Cette diversité d'activités lève le voile sur l'engagement réfléchi et le sens créatif des élèves évaluateurs, tout en prouvant leur volonté de s'inclure activement dans le processus de révision et de correction en vue d'optimiser la qualité des productions écrites.

2.2.5. Identification des erreurs linguistiques

Une étude en profondeur des activités entreprises par les différents groupes met en évidence des tendances multiples en matière de repérage, de révision et de

correction des erreurs. Une majorité de groupes s'est attachée à identifier et à corriger de multiples fautes d'orthographe, de conjugaison et de grammaire, soulignant ainsi leur souci d'assurer une précision linguistique. D'un autre côté, plusieurs groupes se sont focalisés sur des erreurs spécifiques, en indiquant leur présence sans nécessairement les mettre en exergue ou les rectifier.

Parmi les fautes grammaticales repérées, nous trouvons celles liées aux accords d'adjectifs en genre et en nombre qui ont été les plus fréquentes. Cependant, un certain nombre d'erreurs de différentes catégories, particulièrement les déterminants : (aux, au, du et des, le / la ; un / une), sont passées inaperçues.

Tout compte fait, les apprenants ont exhibé des corrections aux fautes qu'ils ont discernées comme simples, cependant que l'enseignant s'est concentré sur les aspects linguistiques restants et qui exigent une correction. Nonobstant, ce qui est notable, c'est l'observation d'une tendance positive émergente chez les apprenants, exprimée par un regain d'intérêt pour la production écrite et l'évaluation des textes. Cette transformation initiale témoigne d'une amélioration prometteuse et d'un début de sensibilisation envers l'importance du progrès continu. À partir de cette approche adoptée, il est devenu certain que les activités collaboratives ont permis aux membres du groupe de tirer profit des échanges internes, qui incitent ainsi à une dynamique d'apprentissage réciproque et partagé à tous les niveaux.

2.3. Aperçu sur le schéma narratif du conte rédigé après affinement

- **Situation initiale**

L'histoire choisie par les apprenants se déroule dans un royaume appelé *Justia*, ironiquement dépourvu de justice. Dirigé par un roi dictateur nommé *Durtaire*, ce royaume sombre condamne à mort toutes les jeunes filles belles, car le roi

considère leur beauté comme une menace pour son pouvoir. Le protagoniste, le prince *Victoroc*, fils unique du roi, se révèle être différent de son père. Bien qu'ayant grandi dans une communauté caractérisée par la cruauté, il possède un cœur empli d'estime et d'amour pour son peuple. *Victoroc* tombe fou amoureux d'*Esperaphe*, une jeune fille dont la beauté est éblouissante et qui représente l'espoir pour le prince.

Ainsi, nous avons jugé utile de présenter les deux versions du texte qui concerne la situation initiale, avant et après l'évaluation et la correction effectuées par les apprenants à l'aide de leur enseignant :

Tableau 1 : Présentation des deux versions du texte choisi, avant et après l'évaluation et la correction : situation initiale

Texte choisi avant l'évaluation et la correction	Texte choisi après l'évaluation et la correction
<p>« Il étais une fois, dans un royaume lointain, un roi impitoyable et barbare. Son règne étais marquer par la terreur et l'oppression. Il étais connu pour sa haine enver la beauté et il ne tolérait pas les jeune filles qui possédait une apparence charmante. Le roi, avais imposé une loi impitoyable : toutes les filles juger belles devait être mises a mort.</p> <p>Les pauvres habitans de Justia vivait dans la peur de perdre leurs filles adorés.</p>	<p>« Il était une fois, dans le royaume de Justia, un roi impitoyable et cruel. Son règne était marqué par la terreur et l'oppression. Il était connu pour sa haine envers la beauté et il ne tolérait pas les jeunes filles qui possédaient une apparence charmante. Le roi, dont le nom était Durtaire, avait imposé une loi impitoyable : toutes les filles jugées belles devaient être mises à mort. Il considérait que la beauté était une menace pour son pouvoir et</p>

<p><i>Cependant, le prince, fils unique du roi, étais diferent de sont père. Il avais grandit dans un monde plein de cruauté et de tristesse, mais sont cœur étais rempli d'empathie et d'amour pour sont peuple. En secret, il étais tombé amoureux d'une fille, dont la beauté étais éblouissante. Il l'as rencontré un jours par hasard en passen par les bort de la foret. »</i></p>	<p><i>qu'elle pouvait corrompre la société. Les pauvres habitants de Justia vivaient dans la peur constante de perdre leurs filles adorées. Cependant, le prince Victoroc, fils unique du roi, était différent de son père. Il avait grandi dans un monde plein de cruautés et de tristesses, mais son cœur était rempli d'empathie et d'amour pour son peuple. En secret, il était tombé passionnément amoureux d'une fille nommée Esperaphe, dont la beauté était éblouissante. Il l'a rencontrée un jour par hasard en passant par les bords de la forêt. »</i></p>
--	--

- **Élément perturbateur**

L'élément déclencheur survient lorsque le prince *Victoroc* décide d'agir pour sauver sa bien-aimée *Esperaphe* et les autres jeunes filles de *Justia*. Avec le soutien des membres loyaux de la garde royale, partageant son envie de changement, il pense à planifier une révolte contre la tyrannie de son père. Peu à peu, le prince rallie le peuple fatigué de vivre dans la terreur et l'oppression, qui aspire à un avenir meilleur où la beauté serait célébrée plutôt que condamnée.

- **Péripiéties**

Les péripiéties s'enchaînent alors avec l'évènement perturbateur. Elles sont rythmées par la formation d'alliances, l'élévation de la révolte, les combats dans

les rues de *Justia* et le duel dramatique et intense entre le roi et son fils. Le prince *Victoroc* est motivé par son amour pour la jeune *Esperaphe* et son envie de réaliser la justice pour tout son peuple.

- **Dénouement**

Comme dénouement les élèves ont choisi le scénario suivant : après un combat acharné, le prince *Victoroc* parvient à vaincre son père dictateur, mettant fin à son règne de terreur. Le pays de *Justia* retrouve enfin la paix et la justice. *Victoroc* devient un roi bienveillant, aimé et respecté par son peuple. Les lois oppressives sont totalement abolies, et le pays se reconstruit à nouveau sous un nouveau souffle de liberté. *Esperaphe*, couronnée reine, règne aux côtés du prince. Ensemble, ils gouvernent *Justia* avec sagesse et compassion, symbolisant l'espoir et le renouveau pour tout le royaume.

- **Situation finale**

Enfin, *Justia* devient véritablement un pays de justice et de paix, où la beauté est célébrée, et où le peuple vit en harmonie. L'histoire de la révolte du prince *Victoroc* contre son père dictateur est racontée de génération en génération, rappelant à tous que même dans les moments les plus difficiles et les plus sombres, l'amour et la détermination peuvent triompher.

2.4. Etude de l'onomastique et des thématiques abordées dans le conte

L'utilisation de l'onomastique, en choisissant des noms évocateurs pour les personnages tels que *Victoroc* qui renvoie à la victoire et à la solidité du roc ; *Esperaphe* qui signifie la source d'espoir et d'espérance pour le héros dans l'histoire ; *Justia* qui est présenté ironiquement comme un pays dépourvu de justice ; ou encore *Durtaire*, ce roi dictateur caractérise par sa force, sa dureté comme celle de la terre. Ce choix des appellations des personnages et du lieu de

l'action a permis aux élèves d'approfondir la caractérisation et d'ajouter des nuances supplémentaires à l'histoire. De plus, l'implication des élèves dans le choix du meilleur écrit et dans l'élaboration des péripéties a renforcé leur engagement et leur responsabilité dans le processus d'apprentissage.

Cette expérience pédagogique a également permis aux élèves d'explorer des thèmes tels que la justice, l'amour, l'espoir et la détermination, tout en encourageant leur réflexion sur les questions de société et les valeurs humaines.

2.5. Intérêts et bénéfices didactiques de l'expérience

Il s'avère évident que cette expérience a permis de mettre en avant l'importance de la compétence de production de l'écrit en classe de (FLE) chez les apprenants marocains au cycle secondaire. Avec l'appui de la rédaction du conte philosophique, les élèves ont pu développer leur expression écrite, leur capacité à narrer, décrire et argumenter, à suivre le fil conducteur de l'intrigue, à choisir des thématiques pertinentes et cohérentes et à structurer leurs idées de manière logique. Ils ont ainsi enrichi leur vocabulaire et amélioré leur maîtrise de la langue française.

D'autre part, à travers le fait de rédiger un ensemble de scénarios des contes philosophiques, les élèves ont pu exprimer leur vision du monde et leurs réflexions personnelles sur des questions sociales diverses. Cette méthode innovante, créative et personnelle de l'écriture a motivé les apprenants et a renforcé leur intérêt pour l'appropriation de la langue française autrement.

De plus, cette expérience a permis de remarquer que la rédaction d'un conte philosophique a fourni une véritable occasion de faire appel aux acquis linguistiques des élèves, consolidant ainsi leur apprentissage de la langue et donnant sens aux savoirs appris en classe.

Au terme de cette expérimentation, nous rappelons que le fait d'accorder aux élèves l'opportunité de choisir le scénario du conte est une approche pédagogique innovante et enrichissante. Elle incite la créativité, encourage la réflexion critique, favorise la prise de décision dans un cadre individuel et collectif, consolide l'appropriation de l'apprentissage, intègre des matières multiples et propose d'autres leviers de motivation pour les apprenants. En impliquant positivement les enseignants dans ce processus éducatif, l'enseignant contribue à la création d'un environnement propice à l'apprentissage motivé, actif et durable, tout en développant des compétences essentielles pour le parcours scolaire de ses élèves. Encore, les apprenants ont pu développer leur créativité scripturale tout en respectant les caractéristiques de la narration, la description et l'argumentation que nous trouvons toujours dans le conte. En s'inspirant d'œuvres littéraires classiques telles que *Candide ou l'Optimisme* de Voltaire, les élèves ont pu acquérir une compréhension plus profonde des mécanismes de l'écriture. A l'issue de ce volet, nous dirons que cette modalité d'enseignement de la compétence de la production de l'écrit à travers la rédaction d'un conte pourrait générer un véritable succès.

Conclusion

En conclusion, notre exploration de manière détaillée du processus d'enseignement de la production écrite en FLE, en s'appuyant sur les multiples axes évoqués dans cette analyse, nous fait découvrir l'importance cruciale de cette compétence dans l'apprentissage de la langue française. À travers une étude minutieuse du cadre théorique et pratique, nous avons mis en évidence l'importance de la production de l'écrit non seulement en conformité avec les

orientations pédagogiques officielles qui organisent cette mission éducative, mais également en termes de représentations et d'expériences des élèves.

L'expérience menée, qui a trouvé son contexte dans la rédaction d'un conte en pastichant l'œuvre de *Candide ou l'Optimisme* de Voltaire, a fourni une opportunité singulière d'examiner les modalités de travail et le déroulement concret de l'apprentissage. Les résultats obtenus ont révélé la pertinence de cette approche, en identifiant les obstacles spécifiques auxquels les apprenants sont confrontés dans leurs efforts pour produire des écrits significatifs et réguliers.

Ainsi, l'analyse approfondie des premières esquisses et des retours des élèves-évaluateurs a mis en évidence des points critiques tels que la compréhension des termes et des phrases complexes, ainsi que l'identification des erreurs linguistiques. Cependant, ces défis ont été accompagnés par des suggestions constructives visant à améliorer le style, à ajouter de nouvelles idées et à peaufiner le contenu. De même, la mise en exergue du schéma narratif du conte, de l'onomastique et des thématiques abordées dans la rédaction finale a permis de démontrer comment la production de l'écrit peut être un élément fondamental pour l'acquisition des compétences linguistiques.

En dernière analyse, cette expérience pratique a exposé des intérêts et des bénéfices didactiques significatifs. En premier lieu, elle a montré comment l'approche collaborative, la révision par les pairs et la réflexion approfondie sur la production écrite peuvent pas uniquement améliorer les compétences linguistiques des élèves, mais aussi dynamiser leur création, renforcer leur compréhension de la structure narrative et les immerger dans les aspects profonds de la langue et de la littérature françaises. Cette contribution nous rappelle que la production de l'écrit, bien qu'exigeante, propose un terrain fertile

pour la croissance intellectuelle et culturelle des apprenants, et qu'elle constitue un élément essentiel dans la sphère des compétences à développer en FLE.

Bibliographie :

- Boulton, A. 2010. « Écriture et communication en classe de FLE : Vers une approche plurilingue ». *Les Langues Modernes*, n° 4, p. 56-71.
- Charolles, M. 1986. « L'analyse des processus rédactionnels: aspects linguistiques, psychologiques et didactiques ». *Pratiques*, vol 49 n° (1), p. 3-21.
- Cornaire, C. Mary Raymond, P., 1999. *La production écrite*. Paris : CLE International.
- Dörnyei, Z. 2014. *The psychology of the language learner: Individual differences in second language acquisition*. Routledge.
- Gombert, J. E. 1990. *Le développement métalinguistique*. Paris: Presses Universitaires de France.
- Graham, S., & Hebert, M. 2011. « Writing to read: A meta-analysis of the impact of writing and writing instruction on reading ». *Harvard educational review*, vol 81 n° (4), p. 710-744.
- Masgoret, A. M., Gardner, R. C. 2003. « Attitudes, motivation, and second language learning: A meta-analysis of studies conducted by Gardner and associates ». *Language learning*, vol 53 n° (S1), p. 167-210.
- Mège-Courteix, M. C. 1999. *Les aides spécialisées au bénéfice des élèves: une mission de service public*. Paris : Esf Editeur.
- Reuter, Y., 2005. *La pédagogie de projet. Penser et débattre avec Francis Ruellan*, France : Presses Universitaires du Septentrion.

- Vigner, G. 2015. « L'écrit et la langue: Quelles priorités ? Quelles articulations ? ». *Revue de didactologie des langues-cultures et de lexiculturologie*, n° (3), p. 269-280.
- Zetili, A. 2009. « Quelles interactions lors de l'activité de production écrite? ». *Synergies Algérie*, n° (5), p. 27-38.
- Zetili, A., 2006. « Analyse des procédés d'enseignement/apprentissage de la production écrite en classe de français. Cas du cycle secondaire en Algérie ». *Thèse de Doctorat D'État en didactique*, Constantine : Université Mentouri.

Linguistic justice, the concept, ways of development

العدالة اللغوية، المفهوم، طرق التطوير

Ftaich abdelilah faculté des langues et lettre et art , université ibn Tofail, Kénitra, Morocco

Gmail : ftaich.abdelilah@gmail.com

Abstract:

This article deals with the concept of linguistic justice in relation to the theoretical references framed by it and its relation to linguistic policy and the issues of multilingualism, the article is part of the sociology of linguistics which draws on the linguistic , political, economic and legal sciences and aims to crystallize the concept of linguistic justice and its applications in policies language.

The idea of linguistic justice is new to arab culture to a larg extent; including morocco in particular. This article attempts to crystallize this concept and incorporate it into the context of sociology and to show the application of justice to linguistic issues, which will necessarily address concepts such as language policy and multilingualism the main purpose of this article is to present the linguistic situation in order to approach linguistic justice in its roots, problems and virtual solutions.

Keywords: language policy, linguistic justice, language, multilingualism.

ملخص:

يتناول هذا المقال مفهوم العدالة اللغوية في علاقتها بالمرجعيات النظرية المؤطرة بها وعلاقتها بالسياسة اللغوية وقضايا التعددية اللغوية، والمقال جزء من علم اللسانيات الاجتماعية الذي يعتمد على العلوم اللغوية والسياسية والاقتصادية والقانونية ويهدف إلى بلورة مفهوم العدالة اللغوية وتطبيقاتها في السياسات اللغوية. فكرة العدالة اللغوية جديدة على الثقافة العربية إلى حد كبير. بما في ذلك المغرب على وجه الخصوص. تحاول هذه المقالة بلورة هذا المفهوم ودمجه في سياق علم الاجتماع وإظهار تطبيق العدالة على القضايا اللغوية ، والتي سنتناول بالضرورة مفاهيم مثل السياسة اللغوية وتعدد اللغات الغرض الرئيسي من هذا المقال هو عرض الوضع اللغوي من أجل مقارنة العدالة اللغوية في جذورها ، المشاكل والحلول الافتراضية. الكلمات المفتاحية: السياسة اللغوية، العدالة اللغوية، اللغة، تعدد اللغات.

It may be useful to say in its introduction that addressing the issue of linguistic justice is not easy because of the novelty of the term use and deliberation, or in terms of the concept, which is still surrounded by some confusion and ambiguity.

However, despite the novelty of the term and its attractiveness, the researcher realizes that it is subject to study and identification, the scholar sees the issue of justice in its social and moral dimensions. It has occupied the wise men and philosophers since ancient times, the Greeks dealt with the philosophy of justice, and entered the civil situation or what the social situation is known according to the theories of social contract and political sociology, but intellectuals did not care about linguistic justice or its status as applied or applied to languages only recently.

It seems that the philosophers and the politicians were preoccupied with the issue of cultural justice or the priority of cultural rights before the term of linguistic justice, so it can be said that the question of languages has always been addressed in public discourse dealing with the concept of culture.

From this point of view, the subject of linguistic justice is new to the Moroccan cultural system, from a philosophical, legal and intellectual perspective it is in its embryonic stage. We do not exaggerate if we confirm that it is still in the process of crystallizing and forming even in the western liberal cultures themselves. The term was not mentioned in the arab world except in a few writings that revolve around the dissection of the linguistic justice has not been achieved so far and did not know the accumulation of theoretical knowledge of the great image of other contemporary knowledge in the context of globalization and the development of information technologies.

Therefore, we have to extend the concepts of linguistic, and language to study it, and to show the relations between them and their practice in pluralistic societies

so that we can overcome some of the classic definitions of those terms, which undoubtedly expanded research and saturated analysis over successive eras.

This implicitly implies that we will highlight the applications of justice to linguistic issues, which necessarily necessitates addressing similar or neutral concepts such as linguistic rights, linguistic citizenship, and linguistic tolerance these are terms that have become the surface of contemporary cultural and economic pluralism as they relate to different spheres of life.

The problematic questions associated with this article can be summarized as follows what is the extent to which the principle of linguistic justice is reflected in reality, and how do we compare different languages in their ability to absorb all the latest development in life ?

Is it not ironic that in the era of globalization, in which monolithic linguistic domination is devoted to the whole world, lites call for pluralism that leads to rupture instead of circumventing as strong arabic language that has the best reasons to challenge language domination.

I- Definition of the term linguistic justice

The scholarly approach prevailed, and the strictness of the scientific method necessitated that when the researcher carried out an issue or sought to highlight the phenomenon, whatever its nature, it would first define the concepts that refer to the key terms to clarify the vision and dispel the fog of the path.

Ibn Manzoor says that: "justice is what he has in mind that he is upright" it means equitable appreciation, recognition and respect for rights and what everyone deserves, which leads to giving one something and taking what is on it, that is justice is to give everyone his right, or to put things in their rightful place.

Justice means that rights holders are entitled to rights because rights are vulnerable to attacks, violations and adversities because they are linked to the protection of the human self, and therefore we recognize that the administration

of justice is not easy to deal with the circumstances of the meeting and the conditions of the repercussions of justice means in its popular and common use among people to stand at one distance towards the members of society without prejudice to one party at onether expense in accordance with predetermined rules and principles, namely equal opportunity in the distribution of income and wealth and resistance to all forms of class inequality, exploitation, poverty, and developing solidarity between the people of the homeland and perhaps does not exclude this description linguistic justice that we are analysing.

What concerns us in the the concepts of justice in this endeavor are those that focus an the grounds that justice is a pattern of social or political relations undr which every person or group is treated on an equal basis, based on the prevailing system of values in society.

Accordingly, linguistic rights should be distinguished between the personal rights of individuals and collective rights belonging to ethnic or national groups living under one state. Thus, specialists in the legal field continue to fin dit difficult to make, linguistic rights a separate branch within the legal and political disciplines. Therefore, they approach this article with legal concepts, particularly the rights of minorities which include linguistic rights. It also leads us to say that linguistic justice among individuals, the mechanism by which justice is achieved between the language that establish the public landscape of a state by adopting a pluralistic language policy that recognizes the right of every language group to use its language in the geographical space it occupies within the state or along the presence of speakers on the basis of linguistic distribution of members of society on the basis of recognition of equal rights and duties, and on the basis of linguistic cultural contract between the state and the citizen.

One of the first to be exposed to the term linguistic justice in the field of political philosophical studies is philippe Van Parijjs, and then to neighboring knowldege sectors.

In his opinion, Parijjs that linguistic justice is based on the pillars are:

- Recognition of linguistic deversity within the boundaries of the state, and the symbolic affirmation of the equality of languages.
- Adopting a common language that communicates among all citizens of the country, called Parijjs "lingua Franca"
- The possession of citizens of the state residing in the regions of minorities courage and humility to learn the official local languages according to the principle of regionalism in those territories.
- Adopting the principle of regional linguism, which is based on the recognition of the right of each linguistic group to use its tongue within the borders of its territory.

For his part, Parigis saught linguistic justice for europe and for the world he had prepared for this purpose, he illustrated the images of injustice related to linguistic diversity, the most important of which was the hegemony of english in europe and the world. He also presented a set of principles which he considered to be applicable and capable of achieving, the premise is that justice linguistic.

Language is a participative and distributional justice designed to preserve dignity and equality between languages, which leads to:

- To manage the diverse linguistic situation in the society smoothly, wisely and objectively so as not to raise the sensitivity between the center and the margin.
- The recognition of the other and the adoption of thier rights must not be treated as temporary or special settlements of certain problems. Rather, they

must be considered as basic obligations and rights required to achieve justice. In essence do not look for grounds stability.

- The prevalence of stability in society, which positively reflects on the overall development of the nation-state.

The complement this concept, the concept of language should be devoid of definitions that have been emphasized as the optimal means of communication that express a particular identity as not the expression of the conscience that enters into the concept of idealism, but rather the same conscience.

This means that the language carries in its assemblage, its vocal system and so on the history of the group that speaks and its relations with the other groups, and the nature of these relations and the place of the speakers among the geographical movements and vital activity.

All this leaves traces and imprints in the language that is the first source of knowledge acquisition and control investment and conversion and significant determinant in the identification of the individual so that the language is not fixed, but change and turn over time.

II- The philosophical reference of linguistic justice:

If we try to determine the framework governing the idea of linguistic justice we find it takes reference from the fields of knowledge, many of which are entirely human and social sciences, and we will note that the interest of politicians in the issue of justice and linguistic rights of communities living in the space of the state of the new one dates back to the nineties of the last century and the decade the first of the third millennium, this issue has not received this care only after many conflicts of linguistic origin in many regions of the world as the search for linguistic homogeneity usually associated with the establishment of nation-states after the disappearance of the phenomenon of colonialism and the interest began to crystallize in a political theory dealing with language according to a democratic

vision pluralism that recognizes diversity and preserves the unity of society and the state.

In addition to the above, the positions presented on the issue of linguistic diversity and the proposals that tried to solve its problems in order to achieve harmony within the nation state fall into a broader and more comprehensive format called the post-modernist trend, which resulted in state- building operations and the transition to multi-lingual and multicultural citizenship, in which justice was founded on two pillars: freedom, and equality in the individual and collective cultural language rights of all citizens of the state.

But such a scenario remains largely theoretical, because the competition between linguistic entites in societies remains a reality that can not be concealed or denied. Language policy becomes a philosophy that works to balance conflicting language groups. These linguistic and national mosaic in the absence of social justice and awarnesses civilizational and social factors should be a factor in the threat of national security and destabilization.

In the middle of the 20th century, the world began to grow up to the struggles of oppressed peoples and nations that sought to eliminate backwardness in various fields and to achieve the social justice that was absent in the colonial era, such as replacing the colonial language with the language of the colonizer which consists of the entity of the independent state that its languages have an official presence free of folklore, and celebrate it as a mere heritage of the festivals, which means that multilingualism becomes a way to celebrate cultural diversity.

These ideas are echoed within a general philosophical framework known as distributive justice, which was based on aristote view that evil was produced by poor distribution, thus plays an essential role in the stability of developed societies it encompasses all areas that improve human life and dignity, especially in the political and social spheres. Distributive justice is the basis of social justice,

under which justice is viewed as a political theory rather than a moral philosophy, thanks to John Rawls fingerprint and the enrichment of W. Kymlicka. The theory of cultural rights presented by W. Kymlicka is the most important one in which an approach is adopted that tries to answer the absence of cultural justice or cultural injustice. It is axiomatic when evaluating the normative foundations for the protection of tongues to address the issue of linguistic justice through theories of justice.

It should be noted here that language policy levers create a plan to regulate the use of staff languages by clearly defining common language functions, defining the roles of languages with an ethnic dimension, and opening language functions to avoid confrontations or decomposition. It is well known in this context that this language policy is the result of a community project, and how the society determines its future based on the institutions that are available to it. This policy must be based on the principles of total national cultural identity, local or regional ethnic diversity, and knowledge which is meant to learn foreign language, which should not become a break from identity, but a means of transmission of knowledge and the benefit of thought, which did not know how to benefit from all that is crowded around him, although it has a model in his heritage.

III- multilingualism and linguistic justice

The analyst will find the components of societies and their different structures, wheter in terms of ethnicity, affiliation or otherwise, that it is difficult to find a society characterized by absolute unilateralism is a fact and characteristical all societies and every rational language policy should work to confirm, refine and guide rather than fight it.

Although pluralism in most human societies is a feature of a living society, as various types of interrelationship appear to be interrelated and stable, it

sometimes seems fragile and time- limited due to the friction generated by linguistic conflict. Which arises among language groups to adopt or impose the use of a language on many speakers in other languages.

There is no doubt that this policy of dictation and pressure, wheter it is the expected result of a pre-planned or inevitable language policy dictated by other emergency social factors, is the legacy of a number of chalenges to the integrity of the social structure. Linguistic rationality put in her vision and calculated his strategy is linguistic justice that takes into account the rights of language groups and respect for the common language adopted by the state.

Therefore, we tend to define multilingualis as a group of languages that exist in a different society of the system and the structure lived side by side and used by a particular group, and that the occurrence of that coexistence either natural or by friction or colonization or all that leads to the emergence of more in use within the community, unbalanced monogonal language causes the reactions go to the extent of taking positions in the opposite direction. It is also necessary to point out that pluralism is a feature of unity and reunification not a project to tear apart all components of society that are reflected in its fabric.

David Crystal imagined the time when English would dominate the world and become the only language of communication, and concluded that this would be the greatest disaster mankind has known in history. The strange thing is that the question of the extinction of languages does not mean the disappearance of a communication apparatus, but rather the disappearance of a nation and the loss of a culture, and the loss of data for psychologists and specialists interested in the relationship between language and thought, and thus the loss of the ethics of the group speaking and all that gives us an idea of their experiences in their lives and their perception reality and the world.

Thus, every language of death deprives us of discovering a specific pattern of organizations of the human mind as they combine linguistic, psychological and cognitive components because they carry within in the characteristics unique and rare extract from the momentum of human heritage. Hence the phenomenon of loss of language of appearances that do not differ very much the reality of the extinction of animals and rare species of birds or plants.

However, the forms presented by this understanding of language and linguistic justice on the ground are difficult to achieve procedurally given the disparity between languages in various aspects, the number of speakers in each of these languages, their qualifications, their ability to absorb scientific and social developments, re-represent them and the historical heritage of some of them, and the balance that works to enhance their ability to confront current civilizational challenges, because the power of language is of the power of its speakers.

Nevertheless, these questions are on obstacle and a major obstacle to the linguistic justice desired in a particular society. The leading global experiences in our modern world have shown many of the gaps that have accompanied the application of this justice, as we have done in Switzerland, Canada, Belgium, Russia, Turkey and Spain and others.

Therefore, despite the abundance of legal texts regulating the linguistic space in these countries, the dominance of one language over the other languages remains an undeniable reality, an issue that refers us to the problem of justice in its principles.

VI- Politics and linguistic justice

Linguistic policy is the official language that plans to create a particular language in multilingual societies, making a particular language an official language in the power of law and the constitution. But the question is : what is the relationship between language policy and linguistic justice ?

There is no doubt that we are close to each other, because a multilingual society may dominate one language over another without law or protection of unfair law and inequality, and thus persecute social minorities or at least feel injustice because they are deprived of their language. Part of the community is dysfunctional because of the lack of equal opportunity to learn the languages of the society or to feel marginalized by one of them in which a class speaks, or does not take a position worthy of it, which requires it to ask the authorities to intervene and often struggle for its language the presence of two or more languages at two contradictory levels or the presence of one of them in a higher position may prompt the political authority to seek linguistic balance or linguistic justice.

This will require the development of a language policy based on the management and treatment of language in the national state to establish a common language for all. It will be circulated in accordance with other languages within the same society. This community will preserve its unity and existence without conviction. So do not which is unjust to some components of the society and some of its structures and institutions. Hence, we recognize that linguistic management in the light of linguistic justice does not mean abandoning the common language that is supposed to be accepted by the political, economic, social and cultural circles.

Moreover, the language policy aims to develop programs, projects and laws for the languages of the community so that one does not advance or develop at the expense of the other, the multilingual society needs to determine the relationship between the languages spoken, that is the common official national language dialects and other foreign languages.

The linguistic policy aims to creating linguistic reality in a way that suits modern civilization and new systems, planing to build the relations desired in the state

and its relations with the world and the other. Its objectives are to reduce contradictions and facilitate communication. And communication within the state or between linguistic groups. There is no doubt that this policy will establish justice among different linguistic groups, and find their differences and conflicts before they exist and even if they exist. It also aims to use two or more languages in all cases, or to limit it to a specific language. This determination is clear by legal provisions specifying the language used in the various community areas.

On the other hand, the adoption of an adult language policy takes into account the multiple linguistic features and works to contain a scientific plan based on recognition and embodiment on the ground by programs and plans that make one feel the realization of citizenship based on respect for linguistic identity. Which would result in a socially stable state. We do not attempt to reduce all societal problems by their diversity and complexity in the linguistic question. Rather, our purpose is to show the importance of the linguistic factor in such cases. Therefore, we must safeguard the major questions that concern the collective consciousness of nations.

The pivotal role of language in social life and its value as a means of reaching the highest centers of power and influence, as well as its symbolic value in the formation of social elites and in the consolidation of ethnic identity provides the speakers and linguistic and political groups an appropriate atmosphere for the success of their linguistic planning is no doubt that linguistic justice will be a fruitful outcome and it will solve many problems of linguistic origin in society.

References

- Cooper, R. (1989). *Language planning and social change*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

- De Korne, H. (2010). Indigenous language education policy: Supporting community-controlled immersion in Canada and the US. *Language Policy* 9(2), 115-141.
- Fishman, J. (1980). The sociology of bilingual education. Lectures at the University of New Mexico, Albuquerque. Cited in N. Hornberger (1988). *Bilingual education and language maintenance*. Providence, RI: Foris Publications.
- John Edwards, *Language, Society and Identity* (Oxford, UK: Blackwell, 1985);
- John Rawls, *A Theory of Justice* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971).
- Kymlicka, W. et A. Patten (sous la dir.) (2003). *Language Rights and Political Theory*. Oxford : Oxford University Press.
- Spolsky, B. (2004). *Language policy*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.
- Tollefson, J. (1991). *Planning language, planning inequality*. London, UK: Longman.
- VAN PARIJS, Philippe. 2011. *Linguistic Justice for Europe and for the World*. Oxford University Press.



إصدارات

المركز الديمقراطي العربي

للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية

برلين - ألمانيا

ISSN : 2625-8943

رقم التسجيل

VR.3373.6326.B

لمزيد من المعلومات حول المجلة

يرجى زيارة موقعها على النت

<http://democraticac.de>